

عبد الرحمن حسن
حنكة الميداني

امثال القريب

وصور من أدبيہ الزفيع

تأملات وتدبر
عبد الرحمن حسن حنكة الميداني

دار الفاء
دبي

امثال القريب

وصور من
أدبيہ الزفيع

دار الفاء
دبي

أمثال القرآن

وَصُورٌ مِنْ أَدَبِهِ الرَّفِيعِ

دراسة وتحليل وتضخيف ورسم
للأصول الأمثال القرآنية وقواعدها ومناهجها
وعرض لطائفة من الصور الأدبية القرآنية
مقرونة بالشرح والتحليل الأدبي

تأملات وتدبر
عبد الرحمن حسن جنبك الميواني

دار الفقه
دمشق

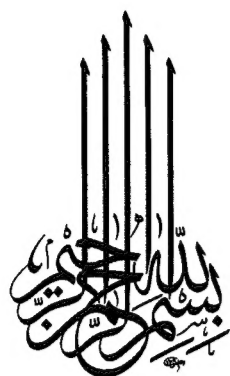
الطبعة الثانية
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع

رسم - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الطَّبَعَةِ الثَّانِيَةِ

الْمَزِيدَةُ فِي مَضْمُونِهَا وَالْمَعْدَلَةُ فِي عُنْوَانِهَا

الحمد لله العليّ الأعلى الوهاب، منزل الكتاب، هداية وذكرى لأولي الألباب، والصلاة والسلام على نبي الرحمة، من آتاه الله الحكمة وفُضِّلَ الخطاب، وأنزل عليه معجزة البيان الخالدة، كتابه المجيد، خاتمة كتبه للناس.

وبعد: فإن كتاب «الأمثال القرآنية» الذي صَدَرَتْ طبعته الأولى سنة (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) قد وَجَدَ بحمد الله لدى المهتمين بالدراسات القرآنية البيانية قبولاً، لما فيه من جِدَّةٍ في الاستخراج والتَّعْقِيدِ والتقسيم والتصنيف وتحليل النصوص وشرحها، حتى جعله بعض أساتذة الدراسات الأدبية من القرآن في الجامعات مرجعاً يرجع إليه الطلبة لدراسة الأمثال في القرآن المجيد.

وخلال هذه المدة الماضية ظهر في الساحة الأدبية علمانيون حدائيق، أطلقوا فرية أن القرآن كتاب تشريع فقط، وليس كتاباً مشتملاً على أدب رفيع مُعْجَز، ليستروا خَطَّتَهُمُ الكيدية الرامية إلى تجريد النصوص الأدبية الرفيعة لا سيما القرآن والسُّنَّة، من معانيها التي تدلُّ عليها، بمقتضى الدلالات اللغوية، في حقيقتها ومجازاتها، وبمقتضى ضوابطها النحوية والصرفية، بغية إطلاق العنان للذين يضعون للنصوص الأدبية معاني من عند أنفسهم وتخيلاتهم، على أساس أن النصّ كائن مستقلٌّ عن قائله، وعن مراد قائله منه، ضمن مقولتهم التي يردّدونها: ينبغي أن يكون للنصّ الأدبيّ الواحد من المعاني بعدد قرائه.

وبهذه الفريّة المحدثّة الحداثيّة يتمّ في تصوّره القضاء على الثوابت الفكرية الإسلامية، ضمن مكيّدة هي أشدّ شناعةً من مكيّدة الحركة الباطنية اليهودية القديمة، التي كانت تزعم أنّ النصوص الدينيّة لها ظاهر وباطن، فالظاهر الذي يُفهم منها بحسب أصول اللّغة في حقيقتها ومجازاتها هو بمثابة القشر، والباطن الذي يفترونه هم هو بمثابة اللّب، ثم يفسّرون باطن النصوص بما يشاؤون من ضلالات، ينسفون بها الدين نسفاً من جذوره.

وجاءت الحداثيّة المعاصرة لتنسّف كلّ النصوص، وتُفسد كلّ الأفكار والمعارف، ولا أشك أن المكر اليهودي وراء هذه الحداثيّة المعاصرة، لأن أئمتها باطنيون قرامطة، وشيوعيون، وملاحدة من الشرق والغرب، وبلاد المسلمين.

فأريت من واجبي الديني أن أنتصر بالفكر وبالدراسة العلميّة المتأنيّة، للحقّ الربّاني، وأستخرج من القرآن طائفةً من الصّور الأدبيّة، وأحلّلها تحليلاً فكرياً أدبياً، وأشرحها شرحاً بيانياً، بأسلوبٍ معاصر.

وقد فتح الله عليّ في استخراج بعض هذه النصوص، وتحليلها وشرحها، ودُعيتُ إلى إلقاء محاضرات عامّة أعرض فيها ما يُفند ادّعاءات الحداثيين، بالشواهد من الأمثلة القرآنيّة، وقد ألقى محاضرتين عامّتين منها في قاعة المحاضرات الكبرى بجامعة أمّ القرى، بعنوان «صّور أدبيّة من القرآن المجيد».

ولما اجتمعت لديّ طائفةٌ حسنّة الكَمّ ظاهرة الدلالة على المقصود في هذا المجال، من هذه الصّور الأدبيّة المقرونة بالشرح والتحليل، ألهمني الله عزّ وجلّ أن أضُمّها إلى الأمثال القرآنيّة، وأجعلهما في كتابٍ واحد، نظراً إلى التشابه العام بين القسمين، ونظراً إلى التداخل بينهما أحياناً، وأن أضع للكتاب في صورته الجديدة عنوان: «أمثال القرآن وصّور من أدبه الرفيع».

وإذ قد نضجت الفكرة لديّ استعنتُ بالله العليّ الأعلى الوهاب، وأعدت النظر في كتاب الأمثال، فجوّدت منه ما يحتاج إلى تجويد، وأضفت إليه شرح أمثلة

تطبيقية، وضممت إليه قسم الصور الأدبية التي فتح الله عليّ في استخراجها من القرآن وشرحها وتحليلها تحليلًا أدبيًا.

وبعد أن أكملتُ بعون الله وتوفيقه وفتحهِ وتيسيره ترتيب الكتاب وفق خطته المعدلة المزیدة، كان عليّ أن أدفعه للطبع، رجاء أن ينفع الله به، وأن يكون خدمةً مبتكرة موفقة لكتابه المجید.

والحمد لله دواماً، وصلى الله وسلم وبارك على محمد النبي الأمي رحمة الله للعالمين، وعلى إخوانه النبيين والمرسلين، وصحابتهم، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

مكة المكرمة

في شهر رجب ١٤١١ هجرية

عبد الرحمن حسن جنيّة الميداني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الطَّبَعَةِ الْأُولَى

رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ، مَلَأَ السَّمَوَاتِ وَمَلَأَ الْأَرْضَ، وَمَلَأَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ،
أَهْلِ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، وَكُنَّا لَكَ عَبْدٌ. لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ.

وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ الَّذِي أَنْزَلْتَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ كِتَاباً مُعْجِزاً لَا يَخْلُقُ
عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَمَعِيناً ثَرّاً لَا يَنْضُبُّ، لِلدِّينِ وَالْخَلْقِ، وَعِلْمِ السُّلُوكِ، وَمَنَاهَجِ سَعَادَةِ
الْإِنْسَانِ، وَالْأَدَبِ، وَفُنُونِ الْقَوْلِ، وَطَرَائِقِ الْبَيَانِ، وَطَمَائِينَةِ النَّفْسِ، وَسَكِينَةِ الْقَلْبِ،
وَسَعَادَةِ الرُّوحِ لِمَنْ وَاضَبَ عَلَى تِلَاوَتِهِ وَتَدَبُّرِ مَعَانِيهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عُلُومٍ.

وبعد: فهذه دراسة للأمثال في القرآن، اعتمدتُ فيها على منهج الاستقراء
والتحليل والتدبر والتصنيف واستخلاص القواعد الكلية واكتشاف الخصائص.
وأرجو أن أكون قد وفقت في هذا العمل لاكتشاف منهج البيان القرآني في الأمثال،
وهو عمل متواضع في خدمة القرآن العظيم، إلا أنه مهمٌ بحد ذاته، ويمكن أن
يضاف إلى المكتبة القرآنية الزاخرة بروائع درر هذا الكتاب العظيم.

وما سبق إليه علماء البيان في هذا المضمار لم أهمله في هذه الدراسة، إلا
أنني لم أتقيد به ولا بمصطلحاته، وذلك لأنني قصدت من الإفادة مما توصّل إليه
السابقون التحرر من القيود التي قد توقف عن البحث الذي يجب أن يسعى إلى
الكمال، وينشده باستمرار، فلربما لم يترك الأول للآخر في بعض الجوانب شيئاً،
ولربما ترك في جوانب كثيرة أشياء كثيرة.

وفي التحرر من بعض مصطلحات علماء البيان أثرت الاستعمال القرآني،
واستخدام الألفاظ على وفق معانيها ودلالاتها العربية الأصيلة، عن طريق الحقيقة
أو عن طريق المجاز؛ فأرجو أن يلاحظ البلاغيون هذا، حتى لا يحاسبوني بمقتضى

مصطلحات متأخرة قفزت عنها إلى ما قبلها، لأدرس الأمثال القرآنية واضعاً في اعتباري الزمن الذي تنزل فيه القرآن، والأمة التي أنزل عليها غرضاً طرياً.

وما نذ عن فكري وملاحظتي، أوفاتني إدراكه في هذا الموضوع، أو ما يمكن أن أكون قد قصرت فيه - أو أخطأت - فسيأتي من بعدي من يتم، أو يستدرك، أو يصحح، من أهل البحث والتأمل والنظر.

ويمكن أن تكون هذه الدراسة فصلاً من فصول إعجاز القرآن، وفصلاً من فصول علم البلاغة، إذ فيه رسم لقواعد جانب مهم من جوانب البيان القرآني المعجز، وهو جانب الأمثال.

ربّ ألهمني الصواب، وسدّدني، وافتح لي فتحاً ميبناً، واجعل عملي خالصاً لوجهك، وارفعني به عندك، وانفع به، وأهد به عباداً من عبادك، وأتمم عليّ نعمتك، إنّك أنت الوهاب، ولا حول ولا قوة إلا بك، وأضف إلى صحيفة أبي ما تمّن به من أجر على ثمرات الأعمال المبرورة التي توفقني إليها، فأنا غرسه من غرساته الكثيرات، علّمني كثيراً، وأعطاني مفاتيح العلوم الإسلامية، وربّاني، وأرشدني إلى طاعتك والعمل في مرضاتك والجهاد في سبيلك، فاجزه عني وعن أمثالي خير الجزاء، واكتب في صحيفته مثل ثواب أعمال من علّمهم وكان السبب في هدايتهم، وتربيتهم حتى كانوا علماء أعلاماً، وقادة دعوة وجهاد في سبيلك، فقد بلغنا عن رسولنا الذي أرسلت لنا أنّك تمنح الأجر بفضلك العظيم على العمل الصالح وعلى ثمراته وآثاره وكلّ ما ينجم عنه من خير إلى يوم القيامة، دون أن ينقص ذلك من أجور العاملين شيئاً.

تباركت ربّنا وتعاليت، ولك الحمد على ما أنعمت به وأوليت، وصلّ اللهم ربّنا على نبيّك ورسولك محمّد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آل كل وصحب كلّ أجمعين.

مكة المكرمة

عبد الرحمن بن حنبل الميّداني

في ٢٠ شوال سنة ١٣٩٩ هجرية

يُنْقَسِمُ الْكِتَابُ إِلَى قِسْمَيْنِ

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ

حَوْلَ الْأَمْثَالِ الْقُرْآنِيَّةِ

الْقِسْمُ الثَّانِي

صُورُ مِنْ أَدَبِ الْقُرْآنِ الرَّفِيعِ

القِسمُ الأول

حول الأمثال القرآنية

وفيه بابان

الباب الأول : القواعد العامة للأمثال القرآنية .

الباب الثاني : تطبيقات عامة على الأمثال القرآنية .

الباب الأول

القواعد العامة للأمثال القرآنية

وفيه أربعة فصول

- الفصل الأول : مقدمات عامة.
- الفصل الثاني : أقسام الأمثال.
- الفصل الثالث : أغراض ضرب الأمثال.
- الفصل الرابع : خصائص الأمثال القرآنية.

الفصل الأول

مُقَدِّمَاتُ عَامَّةٌ

مُقَدِّمَاتُ عَامَّةٌ

تَعْرِيفَاتٌ

ما هو المراد من المثل في الاستعمالات القرآنية؟

(١)

المثل القائم على التشبيه

الأصل في المثل أنه قائم على تشبيه شيء بشيء لوجود عنصر تشابه أو تماثل بينهما، أو لوجود أكثر من عنصر تشابه.

ففي هذا الوجود الكبير أشباه ونظائر بحسب تقدير الله وإتقان صنعته، ألسنا نلاحظ في ظواهر الأشياء مما تدركه الحواس أشباهاً ونظائر في أنواعها وأجناسها وأصنافها وأفرادها؟ ألسنا نلاحظ مثل ذلك، في طبائع الأشياء من كل ما خلق الله من نبات، وماء، وهواء، ونار، وتراب، وقوى، وطاقات، وغير ذلك مما بث في كونه من حي؟ ألسنا نلاحظ مثل ذلك، في طبائع النفوس، وأحاسيسها، وسلوك ذوي الإرادات الحرة؟.

إن الملاحظة الذكيّة تستطيع أن تتصيّد للشيء الواحد عدّة أشباه ونظائر من هذا الوجود الكبير.

ولا يشترط في التشبيه أن يكون مطابقاً من كلّ الوجه، بل يكفي فيه أن يُلَمَح منه جانب فيه شبهة ما صالح لتحقيق غرض من أغراض التشبيه أو التمثيل. وتمثيل شيء بشيء قد يكون تمثيلاً بسيطاً وقد يكون تمثيلاً مركّباً، ففي كلّ منهما تُضَرَّبُ الأمثال.

أما التمثيل البسيط: فهو المشتمل على تمثيل شيء بشيء آخر مفرد يماثله بوجه من الوجوه، أو بجانب من الجوانب: كتمثيل من يحمل العلم ولا يتفجع به بالحمار الذي يحمل أسفار العلم على ظهره، وكتمثيل الجاهل بالأعمى، والعالم بالبصير، وكتمثيل الجهل بالظلمات، والعلم بالنور، وكتمثيل الجالس في مجلس العلم وهو لا يعي من العلم شيئاً بالخشبة المستندة إلى جدار، وكتمثيل القلوب القاسية التي لا تحركها عاطفة نبيلة بالحجارة الصلدة، وكتمثيل العلم المنزل من عند الله بالغيث الذي ينزل من السماء، وكتمثيل العلماء الدعاة إلى الله بنجوم الهدى، إلى غير ذلك.

وأما التمثيل المركب: فهو التمثيل الذي يُقدَّم على شكل لوحة تصوِّر أكثر من مفرد، والمماثلة الملاحظة بين هذه الصورة وبين الممثل بها ليست مأخوذة من مفرد بعينه، وإنما هي مأخوذة منه ومن غيره، إما على شكل عناصر مفردة متلاقية، وإما على شكل وحدة مركبة لا يشرط فيها التقابل الجزئي بين مفرداتها وبين مفردات ما ضرب له المثل.

فالتمثيل المركب الآتي على شكل عناصر مفردة متلاقية يمكن أن نمثل له بما جاء في القرآن من تمثيل الإنفاق في سبيل الله بإخلاص بالحبة التي تُزرع في أرض طيبة مباركة فتنبت سبع سنابل في كل سنبل مئة حبة، فلوحة التمثيل هنا تشتمل على حَبٍّ، وزرع، ونبات خصيب، وسنابل سبع لكل حبة، ومئة حبة في كل سنبل.

وإذا حللنا العناصر في هذا المثل أمكننا أن نرجعه إلى عدّة أمثال بسيطة، فالبذل يشبه عملية الزرع، وتنمية الله له تشبه النبت الجيد، ومضاعفة الأجر تشبه تكاثر السنابل من الحبة الواحدة وتكاثر الحب في كل سنبل.

وروعة مثل هذا التمثيل تأتي من الدقة في تلاقي العناصر وتناسقها في اللوحة التمثيلية، ومماثلة كل عنصر منها لعنصر مما ضرب له المثل.

والتمثيل المركب الآتي على شكل وحدة مركبة متداخلة، دون اشتراط

التقابل بين مفرداتها وبين مفردات ما ضُربَ له المثل، يمكن أن نمثل له بما جاء في القرآن من تمثيل المنافق المحتار المتردد بين الخوف والطمع، وبين الإيمان والكفر، وبين شهوات النفس المسيطرة على ساحتها وومضات الضمير، والذي استوقد ناراً في ليل مظلم، ليرى طريقه، فلما أضاءت النار ما حوله وانكشفت عنه الظلمات انطمس بصره بسبب منه، فانهجب عن إدراك النور الذي حوله، فعاد إلى ظلمة قاتمة كان هو السبب فيها. هذا إذا ارتدَّ بنفاقه ردة نهائية عن إدراك الحق والإيمان به، فاللُوحَةُ التمثيلية بجملتها تمثل حالته من دون اشتراط التقابل الجزئي بين مفردات المثل ومفردات ما ضُربَ له المثل. أمّا إذا ظَلَّ المنافق متأرجحاً بين الإيمان والكفر وهو إلى الكفر أقرب، فيمكن أن نُطَبِّقَ عليه المثل الثاني الذي جاء في القرآن للمنافق، وهو مثل الذي يمشي في الظلمات فتزل عليه صيب^(١) من السماء، مصحوب برعد وبرق، فإذا سمع الرعد الشديد جعل أصابعه في أذنيه من شدة الصواعق حذر الموت، وإذا لمع البرق فأضاء له طريقه مشى فيه قليلاً، ثم إذا عاد الظلام وقف مكانه، لا يسير في طريق الهدى. إنَّ هذا الصنف من المنافقين لم يفقد القدرة على رؤية طريق الهداية ولا على سماع إنذارات الجزاء العادل، لكنّه حيران تتجاذبه المتناقضات. فلوحة المثل بجملتها تمثل صورة هذا الصنف المنافق المتردد المتذبذب الحيران، الذي تتجاذبه المتناقضات وهو قادر على أن يسمع الإنذارات التي تهزّ قلبه، ولكنه يُعْرِضُ عنها، وحين يتلامع له نور الهداية الذي يكاد يخطف بصره لقوته يتأثر به، فيسير قليلاً في هدايته، ثم تغلبه نوازع نفسه، فتعود به إلى ظلمات الكفر. وإذا تُمَثَّلَ لوحة المثل هنا بجملتها هذا الصنف من المنافقين، فقد يبدو من العسير علينا أن نجري تقابلاً جزئياً بين عناصر المثل، وعناصر ما ضُربَ له المثل.

هذان المثلان للمنافقين قد جاءا في قول الله تعالى في أوائل سورة (البقرة/

٢ مصحف / ٨٧ نزول):

(١) الصَّيْب: المطر الغزير، والسحاب الممطر.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٧) ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِّي فُهْمٌ لَا يُرْجِعُونَ﴾ (٨) أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌّ يُجْعَلُونَ أَسْصِعُهُمْ فِي ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠﴾

فقد اشتمل هذا النص كما هو واضح على مثلين للمنافقين، ومن تدبر هذين المثلين تبين لي أنهما مثلان لصنفين من المنافقين، كما أوضحت آنفاً، وليساً جميعاً لأي منافق، فالتنوع في التمثيل يقصد منه - والله أعلم - الإشارة إلى صنفين من المنافقين:

(أ) فالأول للصنف الذي مَرَدَ على النفاق، فهو كافر ضمناً دون تردد، متظاهر بالإسلام كذباً وزوراً، لذلك جاء في وصف أفرادهِ:

﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِّي فُهْمٌ لَا يُرْجِعُونَ﴾.

(ب) والثاني للصنف المتذبذب بين الإيمان والكفر وهو إلى الكفر أقرب، وهذا الصنف لم تتطمس بصيرته انطماًساً تاماً، بل يتلامع له نور الحق أحياناً فيراه، فيسير قليلاً فيه، ثم يعود إلى حالته الأولى، ولذلك قال الله في شأن أفرادهِ:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾.

أي: إنهم لم يصلوا بعد إلى حضيض ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِّي﴾.

تلخيص:

فالأصل في المثل قائم على تمثيل شيء بشيء لوجود عُنْصِرٍ أو أكثر من عناصر التشابه بينهما.

والتمثيل إما بسيط، أو مركب.

فالتمثيل البسيط: هو المشتمل على تمثيل مفرد بمفرد.

والتمثيل المركب: هو الذي يُقَدَّم على شكل لوحة تُصَوِّرُ أكثر من مفرد، ووجه الشبه فيه لا يكون مأخوذاً من مُفَرِّدٍ بعينه، بل يكون مأخوذاً منه ومن غيره، أو من الصُّورَةِ العامَّةِ.

والتمثيل المركب: إمَّا أن يكون على شكل عناصر مفردة متلاقية، تقابل أمثالها في الممثل له. وإمَّا أن يكون على شكل وحدة مركبة متداخلة، تعطي بجملتها وجه الشبه، دون ملاحظة التقابل الجزئي بين مفردات المثل ومفردات ما ضُربَ له المثل. ولكن ربَّما يكشفُ التحليلُ الدقيقُ رجوعَ بعض أمثلة هذا القسم الثاني إلى القسم الأول، ولا يُدْرِكُ هذا إلَّا مَنْ وَهَبَهُ اللهُ دَقَّةَ ملاحظةٍ، وقُدْرَةً على تحليلِ المركَّباتِ إلى عناصرها البسيطة.



(٢)

إطلاق كلمة المثل بمعنى النموذج من ذي أفراد متعدّدة

ويُطلق المثل في القرآن ويُراد منه ذكر نموذجٍ أو أكثر لنوع من الأنواع، أو عمل من الأعمال، أو سُنّةٍ من سنن الله، نظراً إلى التشابه الموجود بين أفراد النوع الواحد، أو نظراً إلى اطراد سنن الله وأعماله الحكيمة.

ثمّ يأتي القياس المستند إلى مبدأ شمول الأحكام للمتماثلات الذي تقضي به أصول الحقائق، أو تقضي به حكمة الخالق في خلقه، وفي تصاريف عدله، وفي ثبات سُنّته، فينتج أحكاماً عامّة تشمل سائر الأفراد المماثلة لما جاء في المثل.

وضمن هذا الإطلاق نستطيع أن نفهم المراد من قول الله تعالى في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٨٩)

وقول الله تعالى في سورة (الزمر / ٣٩ مصحف / ٥٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكُرُونَ﴾ (٢٧)

وقول الله تعالى في سورة (الروم / ٣٠ مصحف / ٨٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ (٥٨)

فهذا التعميم الموجود في هذه الآيات إنما ينطبق على ذكر النماذج لكل نوع ليقاس عليها سائر الأفراد المشابهة.

ويمكن الاستدلال بهذه الآيات على حجّة القياس إضافة إلى الحجج التي ذكرها علماء أصول الفقه .

ومن الأمثلة على هذا الإطلاق القرآني ما يلي :

١ - ضَرْبُ مَثَلٍ لِلَّذِينَ كَفَرُوا عَنْ تَصْمِيمٍ وَعِنَادٍ بامرأة نوح وامرأة لوط، ومعلوم أنهما من أفراد هذا النوع .

٢ - وَضَرْبُ مَثَلٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي بَيْتَةِ الْكَفْرِ الطاغية ، بامرأة فرعون .

قال الله تعالى في سورة (التحریم / ٦٦ مصحف / ١٠٧ نزول):

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ الْفَقْمِ الطّٰغِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾ .

ويأتي القياس المستند إلى حكمة الله وعذله وثواب سنته فيصدر أحكاماً عامة على سائر أفراد النوع، بحكم التماثل بين الأفراد الذي نبّه عليه ضَرْبُ المثل ببعض منها، فكلّ اللواتي يُماثلن امرأة نوح وامرأة لوط ينطبق عليهنّ مثل ما انطبق عليهما، وكلّ اللواتي يُماثلن امرأة فرعون ينطبق عليهنّ مثل ما انطبق عليها، ويعمّ القياس الرجال أيضاً .

٣ - وما جاء في القرآن من ضَرْبِ الأمثلة القياسية، كتشثيل الخلق الثاني الموعود به بالخلق الأول الذي جرت وتجري أحداثه، وغداً يقيناً مشهوداً، فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (الأنبياء / ٢١ مصحف / ٧٣ نزول):

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

ومن الأمثلة القياسية ما جاء في قول الله تعالى في سورة (آل عمران /

٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ٥٩.

هذا المثل تضمن حجة قياسية، وفي هذه الحجة ردّ على النصارى الذين ادّعوا أنّ عيسى عليه السلام هو الله، أو ابن الله، أو هو ثالث ثلاثة، على اختلاف مذاهبهم في ذلك. وكانت شبهتهم في ذلك أنه وُلِدَ من أمّ بلا أب، وأنه قد كان من مُعْجَزَاتِهِ إحياء الموتى، فقال قائلون منهم: إذن هو ابن الله، وقال آخرون: بل هو الله ظَهَرَ على صورة إنسان، وقال الفريق الثالث: هو أحد أقانيم ثلاثة هي في مجموعها الله. وغلّوا في عيسى غُلُوءاً كبيراً، مع أنه عليه السلام لا يَزِيدُ على أنه عبد الله ورسوله، وقد جعله الله آيةً للناس، إذ خَلَقَهُ من أمّ بلا أب، وآتاه من المعجزات وخوارق العادات ما يَشْهَدُ له بصدق دعواه، إذ قال لهم: إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ أَتَانِي الْكِتَابُ وجعلني نبيّاً، وجعلني مباركاً أينما كُنْتُ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً.

ونقول في شرح الحجة القياسية التي اشتمل عليها هذا المثل: إذا كانت شبهة النصارى في عيسى عليه السلام تَسْتَنِدُ إلى أنه جاء من أمّ بلا أب، فإنّ آدم أحرى بذلك منه، فقد خلقه الله من التراب مباشرة من غير أب ولا أمّ، وإذ يوافق النصارى على أن هذا في آدم باطلٌ فحجّتهم في عيسى أشدُّ بطلاناً، لأن وجودها في عيسى أضعف من وجودها في آدم.

٤ - وما جاء في القرآن من بيانِ قَصَصِ الأولين، وما جرى لهم من أحداث، وما أجرى الله عليهم من سُنَنِ عِقَابٍ أو ثوابٍ، فَقَصَصُهُمْ أمثالاً ونماذج يُقَاسُ عليها نظائرها، بمقتضى التشابه بين أفراد النوع، وثبات سُنَنِ اللَّهِ المستندة إلى حكمته وعِلْمِهِ وعدْلِهِ.

وأما إحياءه الموتى فهي معجزة آتاه الله إياها لإثبات نبوته ورسالته، وهو لا يستطيع ذلك إلا بإذن الله، وهو نفسه لا يستطيع أن يدرأ عن نفسه الموت إذا أراد الله أن يهلكه، كما قال تعالى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

إن عرض عقوبات الأولين الذين كفروا وكذبوا رُسُلَ ربِّهم، أمثال قرآنية من هذا القبيل، وقد سَمَّاهَا الله أمثالاً، لأنها نماذجٌ مِنْ حِكْمَتِهِ فِي إِقَامَةِ عَذْلِهِ، وَقَطْعِ دَائِرِ الفسادِ المنتشرِ فِي الْأَرْضِ.

فمن ذلك عرض قصص إهلاك عادٍ وثمودَ وفرعونَ وجنوده وأصحابِ الأيكة وقومِ ثُبُعٍ وقومِ لوط، وسائر الأمم التي قصَّ الله علينا قصص إهلاكها.

قال الله تعالى في سورة (الزخرف / ٤٣ مصحف / ٦٣ نزول):

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُومُ آلِيَّ إِلَىٰ مُلْكِي مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثْلُي وَلَا يُكَادِيْنِي ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْنَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿آسَفُونَا﴾ أي: أغضبونا.

فهذا الانتقام الذي انتقمه الله من فرعون وجنوده، قد جعله الله مثلاً يتعظ به مَنْ يَأْتِي مِنْ بعدهم، فيقيسون عليه تصاريِفَ عَذْلِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، وَيُلَاحِظُونَ فِيهِ نَمُودَجاً مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ فِي مُعَاقِبَةِ الطُّغَاةِ، وَمُجَازَاةِ الْبَغَاةِ، وَسَمَاءِ اللَّهِ مَثَلًا، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾.

أي: مثلاً للذين يأتون من بعدهم من الأمم على عدل الله وانتقامه، مَنْ يَصِلُ إِلَى مِثْلِ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ.

وقال الله تعالى في سورة (النور / ٢٤ مصحف / ١٠٢ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

فأبانت هذه الآية تقسيماً ثلاثياً لما جاء في القرآن :

فالقسم الأول : آيات بينات ، وهي التي تتحدث عن حقائق الدين ، وتكشف طريقي الخير والشر في السلوك الإنساني .

والقسم الثاني : قِصَصُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وسَمَّاها الله مثلاً ، لأن الغرض من ذكرها التنبيه على سُنَّةِ الله في عباده ، نظراً إلى أنها نماذج من تَصَاريفِ الله وحكمته في مُجَازاة عباده .

وأبان الله هذا المعنى بقوله في سورة (الفتح / ٤٨ / مصحف / ١١١ نزول) :

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَحْدِلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ ﴿٣٣﴾ .

وبقوله في سورة (الأحزاب / ٣٣ / مصحف / ٩٠ نزول) :

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَحْدِلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ ﴿٦٢﴾ .

ونظير ذلك قول الله تعالى في سورة (فاطر / ٣٥ / مصحف / ٤٣ نزول) :

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يَحْدِلَ سُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَحْدِلَ سُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ ﴿٤٤﴾ .

وقول الله تعالى في سورة (الأنفال / ٨ / مصحف / ٨٨ نزول) :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ

سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿٢٨﴾ .

أي : فإنه يأتيهم ما أتى لِلأَوَّلِينَ مِنْ عَذَابٍ وَهَلَاكٍ ، لأن ذلك من سُنَّةِ الله في عباده فَلْيَقِيسُوا أحوالهم على أحوالِ مَنْ سَبَقُوهم من الكافرين وأعمالهم ، وَلْيَعْلَمُوا أَنَّ سُنَّةَ الله لها صِفَةُ الثبات ، وَأَنَّ عِقَابَ الله سينزل بهم كما نَزَلَ بالذين من قبلهم إذا استمروا على ما هم عليه من كفر ومقاومة لدعوة الحق .

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

والقسم الثالث: هو ما جاء في القرآن من موعظة للمتقين، وهو قسم النصائح والوصايا التي يرتقي بها المتقون إلى مراتب الأبرار، فمراتب المحسنين.
ومن الشواهد القرآنية على استعمال المثل بمعنى النموذج الذي يُقاس عليه من سنن الله في خلقه، ما يلي:

(أ) قول الله تعالى في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٢٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَرِّسْهُمْ تَدْرِيسًا ﴿٢٦﴾ وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٢٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيْرًا ﴿٢٩﴾﴾

أي: وكل قوم من هؤلاء الأقوام الذين أهلكوا قد ضرب الله لهم الأمثال بمن سبقهم من الأمم التي أهلكها بكفرها وتكذيب رسل ربها وتمرد لها وفسقها.

(ب) وقول الله تعالى في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ

مُحِبِّ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أُولَئِكَ تَكُونُوا آفَاسُهُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾
وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ
وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ .

أي : وضربنا لكم الأمثال مما أنزلنا من عقاب في الذين كفروا من القرون الأولى ، لِيَتَّعِظُوا بِهَا ، وَتَقْيِسُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَأَعْمَالَكُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، وَلَتَعْلَمُوا أَنَّهُ سَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ مِثْلُ الَّذِي حَلَّ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَتَى انْتَهت مُدَّةُ إِمْهَالِكُمْ ، وَبَقِيَّتُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ وَتَمَرُّدِكُمْ وَمُقَاوَمَتِكُمْ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ .

(ج) وقول الله تعالى في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ
الْبَاسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ
قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ .

فَمَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرِّسْلِ ، هُوَ أَنَّهُمْ لَمْ يَأْتِهِمُ النَّصْرُ حَتَّى
ابْتَلَاهُمُ اللَّهُ بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحَتَّى زُلْزِلُوا ، وَبِذَلِكَ اسْتَحَقُّوا النَّصْرَ وَدُخُولَ الْجَنَّةِ .
وَفِي الْآيَةِ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ : وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ مَا أَتَى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ
الَّذِي هُوَ مِثْلٌ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ فِيهِمْ .

(د) وقول الله تعالى في سورة (محمد / ٤٧ مصحف / ٩٥ نزول) :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَعَامَنُوا إِنَّمَا نُزِّلُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ .

﴿ وَأَصْلَحَ بِأَلْفِهِمْ ﴾ : أي : وَأَصْلَحَ أَحْوَالُهُمْ وَشُؤُونُهُمْ وَخَوَاطِرُهُمْ ، لِأَنَّ الْبَالِ
يَطْلُقُ لُغَةً عَلَى الْحَالِ وَالشَّأْنِ وَالْخَاطِرِ .

يبدو - والله أعلم - أن هذه الآيات تتحدث عن ناسٍ مُعَيَّنِينَ عاصروا النبي محمداً ﷺ، وهؤلاء فريق مِنْهُمْ كَفَرُوا وَصَدُّوا عن سبيل الله فأضلَّ الله أعمالهم، أي: حَكَمَ عليهم بالضلالة، وَالْحُكْمُ بالضلالة يستتبع الجزاء العادل بالعقاب. وَفَرِيقٌ مِنْهُمْ آمَنُوا بالله واليوم الآخر، وآمنوا بكلِّ ما نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ علماً منهم بأنه هو الحقُّ من ربِّهم، فكفَّر الله بذلك عنهم سيئاتهم، وَأَثَابَهُمْ ثَوَاباً مُعَجَّلاً فأصلح بالهم.

وَحُكْمُ الله بالضلالة على الذين كفروا، وَحُكْمُهُ بالهداية للذين آمنوا؛ من مظاهر حكمته جلَّ وعلا: فالذين كفروا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ، ومن اتَّبَعَ الْبَاطِلَ كان ضالًّا، فكان الْحُكْمُ عليهم بالضلالة هو الحكم الحقُّ العادل. والذين آمنوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ الْمُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ من ربِّهم، ومن اتَّبَعَ الْحَقَّ كان مهتدياً، فكان الْحُكْمُ لَهُمْ بِالْهُدَايَةِ هو الْحُكْمُ الْحَقُّ العادل، وهذا يستتبع بفضل الله الجزاء بالثواب.

وهؤلاء الذين تحدث القرآن عنهم من الفريقين، هم أمثالٌ ضربهم الله للناس: فكلٌّ من جاء بعدهم من الناس وجد فريق الذين كفروا مثلاً يتعظ به، فلا يتَّبِعْ طريقته، حَتَّى لَا يَكُونَ مِنَ الضَّالِّينَ، فينزل به جزاء الله العادل. وَوَجَدَ فريق الذين آمنوا مثلاً صالحاً يَقْتَدِي به، فيتَّبِعْ طريقته فيكون من المهتدين، فَيُظْفَرُ بفضل الله وثوابه الجزيل، وَيُكَفَّرُ الله عنه سيئاته، وَيُصْلِحُ باله.

وكهذه الأمثال التي ضربها الله للناس في هذه الآيات يضرب الله للناس أمثالهم.

(هـ) وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الكهف / ١٨ مصحف / ٦٩ نزول):

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْتَهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٢٢﴾ كُلَّتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْطَاهُ وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٢٣﴾ وَكَانَ لِمَنْ قَرَّبَا لَصِيحِهِ وَهُوَ يَحْمِلُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٢٤﴾﴾.

إلى آخر القصة المذكورة في هذه السورة، ففيها نموذجان لرجلين أحدهما مستكبر اغترَّ بما آتاه الله من مال وولد، فتطاول على صاحبه، فأعلن أن جتته لن تبيدَ، وأنكر بالظن قيام الساعة، فنصحه صاحبه فلم يستجب، فأُنزل الله بجتته هلاكاً جعلها خاويةً على عُروشها، والآخر مؤمن ناصح وثق بما عند الله من خير عظيم، فله عند ربه جنّات النعيم.



(٣)

إطلاق كلمة المثل بمعنى الوصف

وتُطلقَ كَلِمَةُ (المَثَل) في القرآن ويُرادُ مِنْهَا وَصْفُ الشَّيْءِ بِعِبَارَةٍ كَلَامِيَّةٍ، نظراً إلى أَنَّ الأوصافَ التي تُذَكِّرُ لشيءٍ ما تَرَسُّمٌ له مِثَالاً وَصْفِيّاً بِدَلَالَاتٍ تعبيرية.

فتقع كلمة (المَثَل) بَدَلُ كلمة (الْوَصْف) فمن ذلك ما يلي:

١ - قول الله تعالى في سورة (الرعد / ١٣ مصحف / ٩٦ نزول):

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ ﴿٢٥﴾.

أي: وصف الجنة التي وُعد المتقون أنها تجري من تحتها الأنهار، وأنَّ أكلها دائم، وأنَّ ظلُّها دائم كذلك.

فالمثال الذي رُسم للجنة في هذا النصِّ ضَمَّنَ لَوْحَةً تعبيرية، قد أُبْرِزَ فيه رَسْمُ أشجارها ذاتِ الثمار الدائمة التي لا تَنقُطُ، وأُبْرِزَ فيه رَسْمُ ظلِّها الدائم.

٢ - وقول الله تعالى في سورة (محمد / ٤٧ مصحف / ٩٥ نزول):

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْغَيِّرْ طَعْمَهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ...﴾.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾: أي: وصف الجنة.

و﴿الْمَاءُ الْآسِنُ﴾: هو الذي تغيّر طعمه وظهر ننته فهو غير صالح للشرب.

فالمثال الذي رُسم للجنة في هذا النصِّ ضَمَّنَ هَذِهِ اللُّوحَةَ التعبيرية، قد أُبْرِزَ

فيه رسمٌ لمجموعة أنهارٍ مختلفة الأنواع: فأنهارٌ من ماءٍ غير آسن، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغير طعمه، وأنهارٌ من خمرٍ لذةٍ للشاربين، وجاء في بيان آخر أنها لا غَوْلَ فيها ولا يُنزَف عنها شاربها (أي: لا يسكر ولا يذهب عقله) وأنهارٌ من عسل مُصَفًّى. وأبرزَ فيه أيضاً أن لأهل الجنة من كل الثمرات، وأنَّ لهم مغفرةً من ربهم.

٣ - وقول الله تعالى في سورة (الفتح / ٤٨ مصحف / ١١١ نزول):

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿ذلك مثلهُم في التوراة﴾: أي: ذلك وصفُهُم فيها.

﴿ومثلهُم في الإنجيل﴾: أي: وصفُهُم في الإنجيل.

﴿أخرج شطأه﴾: الشطء: فرخُ الزرع والنخل. وشطءُ الزرع نباته وفراخه.

فوصفُ أصحابِ محمد ﷺ في التوراة رسمته صورةً تعبيريةً كلاميةً أبرزَ فيها

ما يلي:

أولاً: شدةُ بأسهم في قتال الذين كفروا. وهذا الوصف يُلاحظُ فيه أبطال أشداء مؤمنون مُستعلون بقوتهم وبأسهم على الكفار.

ثانياً: رَحْمَتُهُم العظيمة، وتواضعُهُم فيما بينهم. وهذا الوصف يُلاحظُ فيه صورُ العطفِ والتآخي والتراحم والتوادُّ والتواضع فيما بينهم.

ثالثاً: عبادتهم الكثيرة المخلصة لله تعالى، فهم رُكَّع سُجُودٌ يدعون الله تعالى أَنْ يَهَبَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ في الدنيا والآخرة، وأن يُسَبِّلَ عليهم رِضْوَانَهُ، ويُلاحظُ في هذا الوصف مشهدُ عباداتهم في الصلوات والدعاء.

أمَّا وصفهم في الإنجيل فقد جاء على شكلِ مثلٍ تشبيهي من الزرع، وقد

صَوَّرَ هَذَا الْمَثْلَ التَّشْبِيهِي نَشَأَتُهُمْ، وَنَمَاءَهُمْ، وَتَكَاثُرَهُمْ، وَتَأْزُرَهُمْ، وَوَحْدَةَ جَمَاعَتِهِمْ.

٤ - وقول الله تعالى في سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾: أي: كَمَن وَصَفُهُ الَّذِي نُعْبِرُ عَنْهُ فِي صُورَةِ كَلَامِيَّةٍ تَمَاطِلُ حَقِيقَتَهُ، أَنَّهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا، وَهَذَا مَثَلُ الْكَافِرِ الْمَصْرُ عَلَى كُفْرِهِ، الَّذِي لَا يَرِيدُ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ يُمَثَّلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنْ لَا دِينَ لَهُ وَلَا إِيمَانَ فِي قَلْبِهِ بِالْمَيِّتِ، فَإِذَا آمَنَ وَأَسْلَمَ أَحْيَاهُ اللَّهُ، وَجَعَلَ لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ، فَالْحَيُّ مَثَلٌ لِلْمُؤْمِنِ الْمُسْلِمِ.

٥ - وقول الله في شأن يهود بني النضير في سورة (الحشر / ٥٩ مصحف /

١١١ نزول):

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَقْنِنُ لَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾: أي: كَصِفَةِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَهُمْ يَهُودُ بَنِي قَيْنَقَاقَ، ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وَقِيلَ: كَصِفَةِ كُفَّارِ أَهْلِ بَدْرٍ.

فَأَبَانَ النَّصَّ أَنَّ وَصْفَ بَنِي النَّضِيرِ كَوَصْفِ بَنِي قَيْنَقَاقَ الَّذِينَ ذَاقُوا قَبْلَهُمْ عَلَى

أيدي المسلمين بقيادة الرسول ﷺ وبآل أمرهم ، فأجلاهم الرسول من المدينة بسبب ما كان منهم من شرٍّ ، ونقضٍ للعهد والميثاق .

وعقب النص السابق من سورة (الحشر) قال الله عز وجل :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا اتِّمَامٌ فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

وفي هذا النص تشبيه حال المنافقين وحلفائهم من يهود بني النضير بحال الشيطان إذ قال للإنسان : اكفر . فلما كفر قال : إني بريء منك .

وذلك أن المنافقين قالوا لهم كما جاء في سورة (الحشر) :

﴿ لَئِنْ أَخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ... ﴿١١﴾ ﴾ .

ولكن الله قال في شأن المنافقين كما جاء عقبه في السورة نفسها :

﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أَخْرِجُوا لَا يَخْرُجُوا مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتُوا الْأَذْبَرَتُمْ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

وكذلك كان من أمرهم حين حاصرهم الرسول وأجلاهم عن المدينة ، لم ينصرهم إخوانهم المنافقون . فكان حال المنافقين وإخوانهم من يهود كحال الشيطان إذ قال للإنسان : اكفر . وكان الوصف هنا شبيه الوصف هناك .

٦ - وقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف /

٥٠ نزول) :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَعْلَى

أَدْبَرَهُمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ اُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ .

﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾ : أي : انظر كيف وصَّفوك بما ليس فيك ظلماً وعدواناً؛ فقالوا: رجل مسحور، وقالوا - كما جاء في نصوص أخرى - : شاعر، ومجنون، وكذاب .

ونظيره ما جاء في سورة (الفرقان / ٢٥ مصحف / ٤٢ نزول) :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَفْكٌ أَفْتَرْتَهُ وَآعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِبَ عَلَيْهَا فِيهِ تَمْثِلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُوبَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفَخِ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ اُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ .

أي : انظر كيف وصَّفوك بما أنت منه بريء؛ فقالوا: مفترٍ كذاب، وقالوا: رجلٌ مسحور .

٧ - وقول الله تعالى في سورة (الزخرف / ٤٣ مصحف ٦٣ نزول) :

﴿وَجَعَلُوا لَهُمِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ إِلَّا إِنْسَنَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ .

﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ : أي : بِمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ مِنْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ

بنات الله .

لَقَدْ وَصَفَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ اللَّهَ بِهَذَا الْوَصْفِ ، مَعَ أَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ لَأَنْفُسِهِمُ
الْبَنَاتَ ، فَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مَسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ، يَكْظُمُ غَيْظَهُ ، ﴿يَتَوَارَى
مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ، أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ
مَا يَحْكُمُونَ﴾ ؟ !

كما قال الله عز وجل في سورة (النحل / ١٦ مصحف ٧٠ نزول) في الآيتين

(٥٨ - ٥٩) .

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ : أي : وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ
مَوَالِيدَ لَهُ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا . وَذَلِكَ إِذْ زَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثٌ ،
وَأَنَّهُنَّ بَنَاتُ اللَّهِ .

ويقال لغة : أَجْزَاءُ الْمَرْأَةِ إِذَا وَلَدَتْ أُنْثَى ، وَعَلَيْهِ قَوْلُ الشَّاعِرِ الْعَرَبِيِّ :

إِنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ يَوْمًا فَلَا عَجَبٌ قَدْ تُجْزِئُ الْحُرَّةُ الْمَذْكَارُ أَحْيَانًا

أي : إِنْ وَلَدَتْ امْرَأَةٌ حُرَّةٌ بِنْتًا فَلَا عَجَبٌ ، فَقَدْ تِلَدُ الْإِنَاثُ أَحْيَانًا الْحُرَّةُ الَّتِي

مِنْ عَادَتِهَا أَنْ تَنْجِبَ الذَّكَورَ .

٨ - وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الشورى / ٤٢ مصحف ٦٢ نزول) :

﴿فَاطْرَأُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا

يَذَرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١١﴾ .

فيمكن أن نقول في ﴿ليس كمثله شيء﴾: ليس كوصفه شيء، أي: لا يُشبهه أوصافه شيء من الأشياء. وذلك لأنَّ المِثْلَ والمَثْلَ يستعملان بمعنى الوصف.

وبهذا ينحل الإشكال الذي ألجأ العلماء إلى تأويل اجتماع كلمتي تشبيه، هما: (الكاف) و (مثل) وهل الكاف زائدة، أو للتأكيد، أو أنَّ المراد نفي مثل المثل، فنفي المثل من باب أولى، إلى غير ذلك من كلام طويل حول هذا التعبير.

ونظيره ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ و﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ و﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ و﴿مَثَلِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ﴾.

والمعنى: ووصف من أخلد إلى الأرض واتبع هواه في كدحه سعيًا لبلوغ ما يهوى ويستهي من الحياة الدنيا يشبه وصف الكلب، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فهو لاهث باستمرار، وكذلك من أخلد إلى الأرض واتبع هواه هو لاهث سعيًا وراء أهوائه وشهواته باستمرار، لا يقر له قرار.

ووصف الذي يُنفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر يُشبه وصف من يزرع زرعاً في تراب رقيق على حجر صلد أملس، إذا نزل عليه الوابل من السماء انسحق التراب والحب، ولم يخرج الزرع.

ووصف المنافقين الذين مردوا على النفاق يُشبه وصف الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون.

ووصف الذين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ يَلْجَأُونَ إِلَيْهِمْ ويعتمدون عليهم، يشبه وصف العنكبوت التي اتخذت لنفسها بيتاً واهياً، وإنَّ أوهن البيوت لبنت العنكبوت.

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم نصوصاً قرآنية كثيرة، وبتفسير كلمة (مثل) أو (مثل) بمعنى الوصف تنحل إشكالات لفظية كثيرة يتعب كثير من

المفسرين في تخريجها وتوجيهها، مع أنَّ المفسرين قد ذكروا أنَّ كلمة (مَثَل) قد جاءت بمعنى الوصف في عدة آيات، منها «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ» قالوا: وَصَفُ الْجَنَّةِ. ومنها «وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى» أي: له الوصف الأعلى.

الخلاصة:

فتحصل لدينا أن كلمة (مَثَل) أو (مِثْل) قد ترد في القرآن بمعنى وصف الشيء بعبارة كلامية، نظراً إلى أنَّ الأوصاف التي تُذكرُ لشيء ما ترسم له مثلاً وصفيّاً بدلالات تعبيرية كلامية.

* * *

اعتراض الذين كفروا على بعض الأمثال القرآنية

ذكر المفسرون أنَّ فريقاً من المنافقين وفريقاً من المشركين وفريقاً آخر من اليهود، أوردوا شبهة تتعلق ببعض الأمثال القرآنية، وهي التي ضرب الله فيها مثلاً بالذباب، والعنكبوت، والنحل، والنمل، ونحو ذلك. فقالوا: لا يليق ذكر مثل هذه المحقرات بكلام البلغاء، واتخذوا ذلك حجةً للطعن في صحة نسبة القرآن إلى الله تعالى.

وقد ردَّ الله عزَّ وجلَّ هذه الشبهة بقوله في سورة (البقرة) / ٢ مصحف /

٨٧ نزول):

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

فأبان الله تعالى في هذا أنه لا يستحيي أن يضرب مثلاً أي مثل، سواء أكان

هذا المثل بعوضةً أو شيئاً آخر فوق البعوضة، لأن الله تعالى يقول الحق، والله لا يستحيي من الحق.

حين يكون التمثيل بالمخلوقات التي يراها الناس في أعينهم حقيرة طريقاً قريباً لبيان الحق، فليس في ذكرها والتمثيل بها ما يدعو إلى الاستحياء، يضاف إلى هذا أن الله تبارك وتعالى قد خلق جميع الكائنات الحية، من أدناها إلى أرقاها، وجعل في كل نوعٍ منها أدلةً كثيرة على كمال قدرته وكمال علمه وكمال حكمته. ووجه أنظار الناس إليها ليتفكروا في خلقها، ويتأملوا في إتقان صنعها، حتى تكون طريقهم لمعرفة خالقهم وخالق كل شيء. فهل استحيى سبحانه وتعالى من خلقها ووضعها أمام أسماع الناس وأبصارهم حتى يستحيى من ذكرها والتمثيل بها؟

إن في هذه المخلوقات التي يحتقرها الناس آياتٍ مدهشات على عظمة الخالق وحكمته، وقد ارتقت هذه المخلوقات في نظر العلوم الحديثة إلى مستوى الدراسات المستفيضة المضنية الجادة، وكتب فيها العلماء كتباً كثيرة، سجلوا فيها خصائص هذه المخلوقات وصفاتها وأنواع سلوكها، فلم يعد التمثيل بها لدى كبار علماء الكون أمراً مستنكراً ولا مستهجناً، بل مدعاةً لتوجيه الاهتمام بشأنها ودراسة أنواعها بإمعان، وقد كان استنكار الذين كفروا للتمثيل بها ناشئاً عن جهل أو تجاهل، فبعضهم كان جاهلاً، وبعضهم كان متجاهلاً.

أما المؤمنون فالعلماء منهم يفهمون الأمثال القرآنية ويتعظون بها، والآخرين الذين قد لا يصلون إلى مستوى الفهم المطلوب يعلمون أنها حق من عند ربهم، فيؤمنون بها، لأنهم آمنوا بأن القرآن كله تنزيل من لدن حكيم حميد.

وفي المؤمنين جميعاً قال الله تعالى :

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

ولما كان إنكار المنكرين ناشئاً عن كفرهم وفسقهم، كان من حكمة الله وعدله أن يحكم بضلالتهم.

ولمّا كان علم المؤمنين بأنه الحقّ من ربّهم ثمرة إيمانهم ، كان من حكمة الله أن يحكم لهم بالهداية .

وفي الحكم بالضلالة والحكم بالهداية على وفق الحكمة قال الله تعالى في ختام الآية :

﴿يُضِلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضلّ به إلاّ الفاسقين﴾ .

• • •

الفصل الثاني

أقسام الأمثال

أقسام الأمثال

(١)

تقسيم أول للأمثال

سبق في التعريفات بيان أن المثل القائم على تمثيل شيء بشيء لوجود عنصر أو أكثر من عناصر التشابه بينهما ينقسم إلى قسمين:

أولاً - التمثيل البسيط:

وهو المشتمل على التمثيل بمفرد، لأن الممثل له يشابه الممثل به من وجه من الوجوه أو جانب من الجوانب، كتمثيل الجاهل بالأعمى، والعالم بالبصير، والجهل بالظلمات، والعلم بالنور.

ثانياً - التمثيل المركب:

وهو الذي يُقدَّم على شكل لوحة تُصوِّر أكثر من مفرد، ووجه الشبه فيه لا يكون مأخوذاً من مفرد بعينه، بل يكون مأخوذاً منه ومن غيره، أو من الصورة العامة.

والتمثيل المركب ينقسم إلى قسمين:

(أ) إما أن يكون على شكل عناصر متلاقية تُقابل أمثالها في الممثل له، كتمثيل الإنفاق في سبيل الله بإخلاص، بالزرع الذي تُزرع فيه الحبوب في أرض طيبة مباركة فتنبئ الحبة منها سبع سنابل في كل سنبله مئة حبة. فالإنفاق يشبه عملية الزرع، وتنمية الله له يشبه النبت الجيد، ومضاعفة الأجر تُشبه تكاثر السنابل من الحبة الواحدة، وتكاثر الحب في كل سنبل.

(ب) وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ عَلَى شَكْلِ وَحْدَةٍ مُرَكَّبَةٍ مُتَدَاخِلَةٍ، تُعْطَى بِجَمَلَتِهَا وَجْهَ الشَّيْءِ، دُونَ مُلَاحَظَةِ التَّقَابِلِ الْجَزْئِيِّ بَيْنَ الْمُمَثِّلِ بِهِ وَالْمُمَثَّلِ لَهُ.

كالمثل الذي ضربه الله لفريق من المنافقين إذ قال في سورة (البقرة)

٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ۞ ﴾

وكالمثل الذي ضربه الله لفريق آخر من المنافقين إذ قال عقب النص السابق:

﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيْءِ أَذَانِهِمْ مِنْ الضَّوْعِ حَذَرَالْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ۞ ﴾

• • •

(٢)

تقسيم ثانٍ للأمثال من جهة كون الممثل به والممثل له مما يُدرَك بالحسّ الظاهر أو لا يدرَك به

كلُّ معلومٍ إمّا أن يكون شيئاً يُمكن إدراكه بالحواس الخمس الظاهرة، السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وإمّا أن يكون معنى من المعاني، أو شعوراً يحس به الوجدان، كالأفكار، والعواطف، والانفعالات، وكل أنواع الشعور النفسي الباطن.

وبتأمل قليل نستطيع أن نتبين أن تمثيل شيء بشيء قد يكون بين مدركين بالحسّ الظاهر، كمرئيين بالعين، وقد يكون بين مُدرَكين بالحسّ الباطن، كالمدرَكات الفكرية والوجدانية، وقد يكون الممثل به مُدرَكًا بالحسّ الظاهر، والممثل له غير مدرَك به، وقد يكون عكس هذا، وقد تأتي الصورة التمثيلية مختلطة من القسمين.

فالتقسيم العقلي يقدم لنا خمسة أقسام:

- القسم الأول: تمثيل مُدرَك بالحسّ الظاهر بمُدرَك بالحسّ الظاهر.
- القسم الثاني: تمثيل مُدرَك فكريّ أو وجدانيّ بمُدرَك فكريّ أو وجدانيّ.
- القسم الثالث: تمثيل مُدرَك فكريّ أو وجدانيّ بمُدرَك بالحسّ الظاهر.
- القسم الرابع: تمثيل مُدرَك بالحسّ الظاهر بمُدرَك فكريّ أو وجدانيّ.

القسم الخامس : الصُّورَةُ التمثيلية المختلطة التي تمتزج فيها الأشياء المُدْرَكَة بالحسِّ الظاهر بالمدركات الفكرية أو الوجدانية .

* * *

أمثلة لهذه الأقسام الخمسة

١ - فَيُمْكِنُ أَنْ نُمَثِّلَ لِلْقِسْمِ الْأَوَّلِ (وهو تمثيلُ مُدْرَكِ بالحسِّ الظاهر بِمُدْرَكِ بالحسِّ الظاهر) بتمثيل العودة إلى الحياة بعد الموت، بالنَّبات الذي يَعُودُ إلى الحياة عن طريق بزوره، بعد حصاده الذي يشبه موت حياته الخضراء .
فالصورتان بينهما تماثلٌ، وكلتاها ممَّا يدركُ بالحسِّ الظاهر .

ونظيره تمثيل أصحاب محمد وتكاثريهم بزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه . وتمثيلُ عيسى عليه السلام إذ جاء من أمٍّ فقط، بآدم عليه السلام إذ جاء من دون أبٍ ولا أمٍّ . فكلا المتماثلين في المثلين ممَّا يدركُ بالحسِّ الظاهر .

٢ - وَيُمْكِنُ أَنْ نُمَثِّلَ لِلْقِسْمِ الثَّانِي (وهو تمثيل مُدْرَكِ فكريٍّ أو وجدانيٍّ بِمُدْرَكِ فكريٍّ أو وجدانيٍّ) بتمثيل الخَشْيَةِ مِنَ النَّاسِ بالخشية من الله، قال الله تعالى في سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ (٧٧)

ويمكن أن نمثل له بأن نلاحظ شبهاً بين النُّفاق والخَيْرَةِ، أو بين النفاق والقلق النفسي، وشبهاً بين الإيمان وطُمَأْنِينَةِ النفس، أو بين الإيمان والسعادة، وشبهاً بين لَذَّةِ الوصول إلى المعرفة ولَذَّةِ تحقيق شهوة من شهوات النفس .

٣ - وَيُمْكِنُ أَنْ نُمَثِّلَ لِلْقِسْمِ الثَّالِثِ (وهو تمثيلُ مُدْرَكِ فكريٍّ أو وجدانيٍّ بِمُدْرَكِ بالحسِّ الظاهر) بتمثيل العلم بالنور، وتمثيل الإيمان بالبصر، أو بالهداية إلى

الطريق. وتمثيل الجهل بالعمى. وتمثيل الكفر بالسير في الظلمات. وتمثيل من يتخذ من دون الله أولياء بالعنكبوت التي تنسج لنفسها بيتاً واهياً. وتمثيل من ينقض العهد بالمرأة الحمقاء التي نقضت غزلها من بعد قُوَّة أنكاثاً. وتمثيل إبطال أعمال الذين كفروا برّبهم برّماذ اشتدّت به الرّيح في يوم عاصف فنسفته وبددته فلا تجدُ له أثراً. وتمثيل حال المنافق الذي مرّد على النفاق بالذي استوقد ناراً فلمّا أضاءت ما حوله ذهب بصره فهو لا يرى شيئاً. وتمثيل حال المنافق المتردّد المتذبذب بين الإيمان والكفر وهو إلى الكفر أقرب بمن يكون في صيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق، إنه يخشى الصواعق فيجعل أصابعه في أذنيه، وتندفع نفسه إلى النجاة فيمشي قليلاً في ضوء البرق المتلامع، ثم يرجع إلى حالته فيقف في الظلمات، هذه هي صورة الحالة النفسية للمنافق المتردّد الحيران.

وأمثلة هذا القسم كثيرة جداً لما فيه من تقريب المعنويات بالحسيات.

٤ - ويمكن أن نمثّل للقسم الرابع (وهو تمثيل مدرك الحس الظاهر بمدرك فكري أو وجداني) بتمثيل الأم بالمحبة. وتمثيل الأعداء بالأحقاد والكراهية. وتمثيل الانفجارات النارية والانفجارات البركانية بالغيظ العنيف في نفوس المغتاضين، ومنه وصف جهنم في قول الله تعالى في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ...﴾

فمثّل ضغط توقّدها الداخلي بالغيظ في نفوس المغتاضين، الذي يضغط داخل الصدر، فهي منه تكاد تتمزق وتتميز.

٥ - ويمكن أن نمثّل للقسم الخامس (وهو المشتمل على الصورة التمثيلية المختلفة التي تمتزج فيها الأشياء المدركة بالحس الظاهر بالمدركات الفكرية أو الوجدانية) بالتمثيل القرآني للحياة الدنيا المنحصرة باللعب واللّهو والزينة والتفاخر والتكاثر؛ بغيث من السماء أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فيصفر، ثم يأتي

حصاده فيتكسر وتحطم وينتهي . فالممثل له الحياة الدنيا، وفيها أشياء مدركة بالحس الظاهر، وأمور فكرية، وأمور نفسية وجدانية، وكل هذه الأمور ممتزجة في لوحة متحركة بحركة الزمن. ثم يأتي التمثيل، فنجده لوحة صغرى من الحياة نفسها، وفيها جملة عناصر: غيث من السماء، نجم عنه نبات بديع تحركت لمشهده نفوس الزراع بالإعجاب، وهذا أمر وجداني، ثم مر الزمن من اللوحة التمثيلية المتحركة، فأذن دور النبات بالانتهاء فهاج فاصفر، ثم تكسر وتحطم وانتهى، وكذلك الحياة الدنيا بكل ما فيها.

ففي هذه اللوحة التمثيلية دخلت أشياء تدرك بالحس الظاهر، وأشياء أخرى فكرية وجدانية، ومنها الحركة، والحياة، ومرور الزمن، وأحاسيس النفوس ومشاعرها، فالتمثيل بهذه اللوحات الممتزجة الجامعة من أرقى أنواع التمثيل.

والنص القرآني الذي اشتمل على هذا التمثيل هو قول الله تعالى في سورة (الحديد / ٥٧ مصحف / ٩٤ نزول):

﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتْرَتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَٰمَتَّعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾

﴿ أعجب الكفار ﴾ : أي أعجب الزراع.

﴿ يهيج ﴾ : أي يصفّر وييس.

• • •

(٣)

تقسيم ثالث للأمثال من جهة كون المثل صورةً منتزعةً من الواقع أو من الخيال

لدى تتبع الأمثال يتبين لنا أن الصورة الواردة في المثل: إما أن تكون صورة منتزعة من الواقع، وإما أن تكون صورة منتزعة من الخيال.

(أ) فمن أمثلة الصورة التمثيلية المنتزعة من الواقع تَمَثِيلُ الَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، بَزَارِعَ يَزْرَعُ بُزُورَهُ فِي تَرَابٍ رَقِيقٍ مَبْسُوطٍ عَلَى صَخْرَةٍ صَمَاءَ مَلْسَاءَ، إِذَا نَزَلَ عَلَيْهَا غَيْثُ السَّمَاءِ سَفَحَ التَّرَابَ وَالْبُزُورَ مَعَهُ، وَجَرَفَهَا السَّيْلُ، فَتَرَكَ مَزْرَعَتَهُ حَجَرًا صَلْدًا أَمْلَسَ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ، فَهُوَ لَا يَطْمَعُ بِنَبَاتٍ وَلَا يَنْتَظِرُ حَصَادًا. فَالصُّورَةُ التَّمثِيلِيَّةُ هُنَا مُنْتَزَعَةٌ وَمُقْتَبَسَةٌ مِنَ الْوَاقِعِ فِي الْأَحْدَاثِ الْكُونِيَّةِ.

ومنها أيضاً تَمَثِيلُ الَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيَتًا مِنْ نَفْسِهِ لِقَاعِدَةِ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ وَلِفَضِيلَةِ خُلُقِ الْجُودِ عِنْدَهُ، بَزَارِعَ حَصِيفٍ عَاقِلٍ، يَزْرَعُ حَبَّهُ فِي جَنَّةٍ سَمِينَةٍ التَّرْبَةِ، بِرَبْوَةٍ لَا تَجْرِفُهَا السَّيُولُ، فَتَزَلُ عَلَيْهَا الْمَطَرُ الْغَزِيرُ فَأَتَتْ أَكْلَهَا ضَعْفَيْنِ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا الْمَطَرُ الْغَزِيرُ كَفَاهَا الطَّلُّ - وَهُوَ الْمَطَرُ الْخَفِيفُ - لَتُعْطِيَ الثَّمَرَ الطَّيِّبَ الْمَضَاعِفَ.

فهذه الصورة التمثيلية صورةً منتزعةً ومقتبسةً من الواقع.

(ب) ومن أمثلة الصورة التمثيلية المنتزعة من الخيال، تَمَثِيلُ طَلْعِ شَجَرَةٍ الرِّقُومِ الَّتِي تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ بِصُورَةِ رُؤُوسِ الشَّيَاطِينِ.

فالناس لا يعرفون صورة رؤوس الشياطين، ولكن في خيالهم صورة قبيحة منفرة مخيفة للشياطين ورؤوسهم، وهي أقبح وأخوف صورة يتخيلونها.

وقد جرى تمثيل طلع شجرة الزقوم في جهنم بأقبح صورة وأخوفها يمكن أن يتخيلها الناس. إن الشياطين أقبح وأخبث ما في الوجود، والصورة التي ينسجها خيال الناس لهم هي أقبح وأخبث صورة، فالتمثيل بها تمثيل متزع من الخيال، لا من الواقع، وقد يكون الواقع كذلك، لكن المخاطبين قد خوطبوا على مقدار ما في خيالهم. وفي عرض هذا التمثيل يقول الله تعالى في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف / ٥٦ نزول):

﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ ۖ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ۚ﴾ (٦٢) ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۖ﴾ (٦٤) ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ۖ﴾ (٦٥) ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا فَاكُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۖ﴾ (٦٦) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۖ﴾ (٦٧) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ۖ﴾ (٦٨).

﴿نُزْلاً﴾: التزل: المنزل. والتزل: الرزق وما يهيا للضيف من ضيافة، والجمع الأنزال وهي المأكَل التي يتقوت بها، وبهذا المعنى فسرت كلمة «نُزْلاً» هنا.

﴿شجرة الزقوم﴾: هي شجرة خبيثة تنبت في أصل الجحيم، وقد جاء ذكرها في القرآن في ثلاثة مواضع:

الأول: هذا الذي في (الصافات / ٣٧ مصحف / ٥٦ نزول).

الثاني: ماجاء في سورة (الدخان / ٤٤ مصحف / ٦٤ نزول):

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُومِ ۖ﴾ (٤٣) ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ ۖ﴾ (٤٤) ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۖ﴾ (٤٥) ﴿كَغَلِي الْحَمِيمِ ۖ﴾ (٤٦).

الثالث: ما جاء في سورة (الواقعة / ٥٦ مصحف / ٤٦ نزول):

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتَـهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ ٥١ لَا كُـلُونِ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ ٥٢ فَالْثَّـوْنُ مِنْهَا الْبَطُونُ ٥٣
فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ٥٤ فَشَرِبُونَ شَرَبَ الْهِيمِ ٥٥ هَذَا نَزَعُكُمْ يَوْمَ الدِّينِ ٥٦ ﴿

فشجرة الزُّقُومِ شجرةٌ جهنميةٌ كريهة المنظر، طَلَعُهَا كأنه رؤوس الشياطين، وهي طعام الأثيم من نزلآ جهنم المعذِّبين فيها، إِنَّهم فيها مضطرون أن يأكلوا منها، لأنهم لا يَجِدُونَ ما يأكلونه غيرها، حين يشتدُّ بهم الجوع، فيملؤون منها بطونهم، وما يُؤْكَلُ من هذه الشجرة الجهنمية يُشَبُّهُ الْمُهْلُ، والمُهْلُ اسم يطلق على المنصهر الذائب من المعادن، ويطلق على نوع من القطران، ويطلق على عَكر الزيت، ويطلق على العكر الذي يغلي من الزيت.

وما يؤكل من شجر الزُّقُوم يغلي في البطون من شدَّة حرارته، كما يغلي الحميم. فيشتدُّ ظمأ المعذبين الذين أكلوا من شجر الزُّقُوم في جهنم، فلا يجدون إلآ حميماً يشربونه، فيشربون منه لِيُطْفِئُوا ظمأهم، لكنّه لا يُطْفِئُ الظَّمأ، فيشربون ويشربون كما تشربُ الهيم، وهي الإبل المصابة بداء الهيام، وهو داء يجعلها لا تروى مهما شربت.

﴿لَشَوْبِأً مِنْ حَمِيمٍ﴾: الشَّوْبُ اسم عام لكل ما خلط بغيره. والحميم: الماء الحار المتناهي في الحرارة.

وَيَظْهَرُ أَنَّ الْمَعذِّبِينَ بهذا العذاب يُضْطَرُونَ أَنْ يَرْحَلُوا إِلَى أَصْلِ الْجَحِيمِ حين يشتدُّ بهم الجوع، ليأكلوا من شجر الزُّقُوم وَيَشْرَبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ، فإذا مَلَأُوا بَطُونَهُمْ عَادُوا إِلَى أَمَاكِنِهِمْ فِي جَهَنَّمَ، دَلٌّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾.

أَمَّا كَوْنُ شَجَرَةِ الزُّقُومِ فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ، فقد ذكر المفسرون في تأويلها عدّة آراء، وهي في جملتها لا تخلو من إشكالات. وبالرجوع إلى معاني كلمة (الفتنة) في اللّغة وجدت أن أصل هذه الكلمة مأخوذ من قول العربي: فَتَنْتُ الْفَضَّةَ والذهب، إذا أذا بهما بالنار ليميز الرديء من الجيد. ويقول العرب: دينار مفتون إذا

أَدْخَلَ النَّارَ لَإِكْتِشَافِ جَوْدَتِهِ . وَالْفِتْنُ : الإِحْرَاقُ . وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : «يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ» أَي يَحْرَقُونَ بِالنَّارِ . وَالْفِتْنَةُ : الإِحْرَاقُ بِالنَّارِ . وَيُسَمَّى الصَّائِغُ الْفِتَانُ ، لِأَنَّهُ يَسْتَخْدِمُ النَّارَ فِيمَا يَصُوعُ مِنْ حُلِيِّ (انظر لسان العرب).

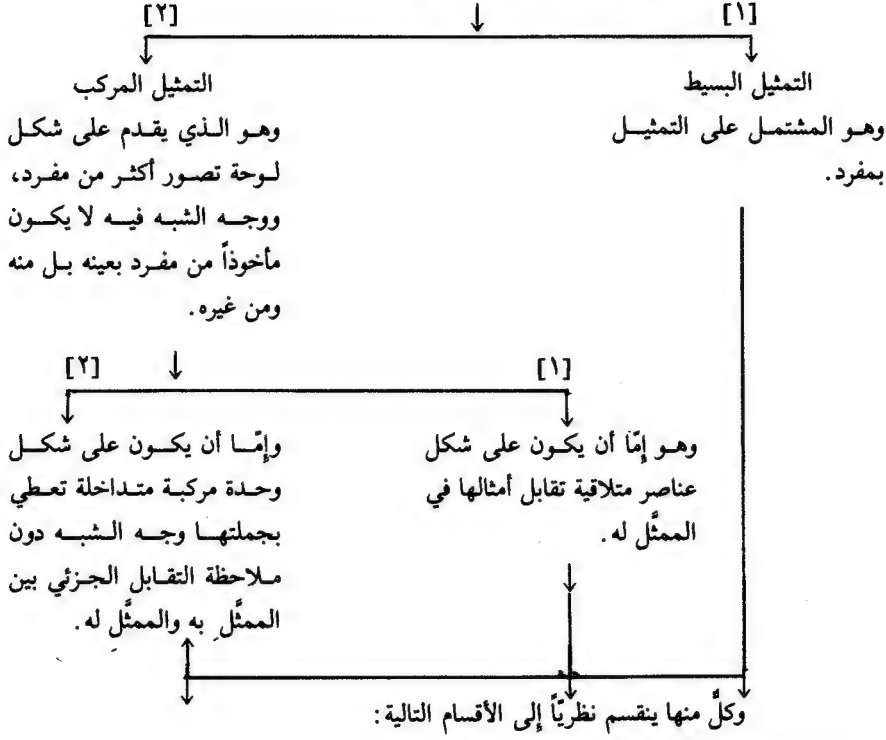
وباستطاعتنا في ضوء هذا المعنى أن نفهم دون أي إشكال قول الله تعالى في وصف شجرة الزقوم :

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ .

فإذا كانت الفتنة عَرْضاً على النار وإحراقاً بها ، وإذا كانت شجرة الزقوم طعاماً لاهباً يغلي في البطون كغلي الحميم ، كان من أوجه المعاني وأقربها أن نقول : إن شجرة الزقوم الجهنمية شجرة تعذيب للظالمين بإحراق داخلي في بطونهم ، إنهم يأكلون منها من شدة جوعهم ثم يكون ما أكلوه كنار لاهبة تحرقهم من داخل بطونهم .

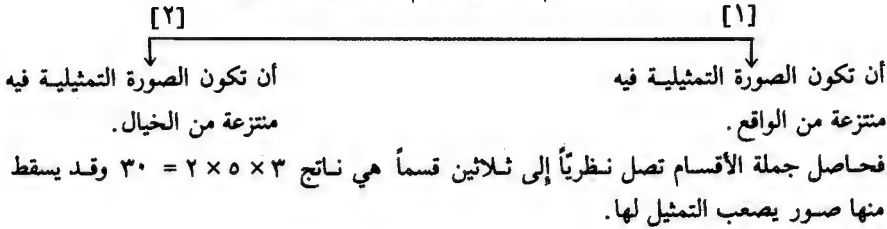
أما تأويلات المفسرين فمعظمها يدور حول معنى الافتتان بالشيء ، ومعنى الابتلاء والامتحان من معاني كلمة (الفتنة) ، لذلك كانت تأويلات لا تخلو من إشكال . ومعلوم أن الدار الآخرة دار جزاء ، لا دار ابتلاء ، وأما امتحان المكذابين في الدنيا بذكر شجرة تنبت في النار يوم القيامة فيفتنهم هذا فيبالغون في كفرهم ، فتأويل ضعيف جداً ، وخروج بالنص عن أصل غرضه الرامي إلى بيان عذاب الظالمين يوم الدين ، والله أعلم .

جدول أقسام الأمثال



- ← ١ - تمثيل مُدْرِكٍ بالحسِّ الظاهر بمُدْرِكٍ بالحسِّ الظاهر.
- ← ٢ - تمثيل مُدْرِكٍ فكريٍّ أو وجدانيٍّ بمُدْرِكٍ فكريٍّ أو وجدانيٍّ.
- ← ٣ - تمثيل مُدْرِكٍ فكريٍّ أو وجدانيٍّ بمُدْرِكٍ بالحسِّ الظاهر.
- ← ٤ - تمثيل مُدْرِكٍ بالحسِّ الظاهر بمُدْرِكٍ فكريٍّ أو وجدانيٍّ.
- ← ٥ - الصورة التمثيلية المختلطة التي تمتزج فيها الأشياء المدركة بالحسِّ الظاهر بالمدركات الفكرية أو الوجدانية.

وكلٌ من الأقسام السابقة ينقسم نظرياً إلى قسمين:



الفصل الثالث

أَعْرَاضُ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ

أَغْرَاضُ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ

مقدمة:

الأصل في البيان أن يتضمن التعريف بما يراد التعريف به بأسلوب مباشر، والخروج عن هذا الأصل لا يكون عند البلغاء والعقلاء إلا لغرض يقتضي ذلك.

ولمّا كانت الأمثال من الأساليب البيانية غير المباشرة للتعريف بما يراد التعريف به، وكانت من أساليب الكلام البليغ التي يلجأ إليها كبار البلغاء، ولمّا كانت تصاريف الربّ الحكيم منزّهة عن العبث – كان اللجوء إلى ضرب الأمثال في القرآن لا يخلو عن غرض يدعو إليه.

ولدى تتبع الأمثال القرآنية تكشف لي الأغراض التالية:

الغرض الأول: تقريب صورة الممثل له إلى ذهن المخاطب عن طريق المثل.

الغرض الثاني: الإقناع بفكرة من الأفكار، وهذا الإقناع قد يصل إلى مستوى إقامة الحجّة البرهانية، وقد يقتصر على مستوى إقامة الحجّة الخطائية، وقد يقتصر على لفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة.

الغرض الثالث: الترغيب بالتزيين والتحسين، أو التنفير بكشف جوانب القبح. فالترغيب يكون بتزيين الممثل له وإبراز جوانب حسنه، عن طريق تمثيله بما هو محبوب للنفس مرغوب لديها. والتنفير يكون بإبراز جوانب قبحه، عن طريق تمثيله بما هو مكروه للنفس، أو تنفير النفس منه.

الغرض الرابع: إثارة محور الطمع أو الرغبة، أو محور الخوف والحذر لدى المخاطب.

ففي إثارة محور الطمع والرغبة يتجه الإنسان بمُحَرِّضٍ ذاتيٍّ إلى ما يُراد

توجيهه له . وفي إثارة محور الخوف والحذر يتعد الإنسان بمحرض ذاتي عما يُراد إبعاده عنه .

الغرض الخامس : المَدْحُ أو الذَّمُّ ، والتَّعْظِيمُ أو التَّحْقِيرُ .

الغرض السادس : شَحْذُ ذَهْنِ الْمُخَاطَبِ ، وَتَحْرِيكُ طَاقَاتِهِ الْفِكْرِيَّةِ ، أو استرضاء ذكائه ، لتوجيه عنايته ، حتى يتأمل ويتفكر ويصل إلى إدراك المراد عن طريق التفكير .

والأمثال التي يَدْفَعُ إليها هذا الغرض يُخَاطَبُ بها الأذكياء ، وأهل التأمل والنظر والبحث العلمي ، وكبراء القوم .

الغرض السابع : تقديم أفكارٍ غزيرة جداً ودقيقة يحتاج بيانها عن غير طريق المثل كلاماً كثيراً قد يصل إلى عشرات الصفحات وأكثر من ذلك ، فيُدلُّ عليها المثل بأخصر عبارة ، لأنَّ المثل قد يكون بمثابة نموذج مشهود من نماذج الوسائل التعليمية ، فيكفي في العبارة أن يُقال : مثل هذا .

الغرض الثامن : إِيْشَارُ تَغْطِيَةِ المقصود من العبارة بالمثل ، تأدباً في اللَّفْظِ واستحياءً .

* * *

هذه الأغراض الثمانية هي الأغراض التي تَكشَّفَتْ لي من تتبع الأمثال القرآنية ، وقد يُرَادُ من ضرب المثل الواحد أكثر من غرض من هذه الأغراض في وقت واحد ، فبعض الشواهد القرآنية — التي سيأتي تفصيلها وشرحها إن شاء الله — تَصْلُحُ شواهدَ لأغراض متعددة : فقد يكون المثل الواحد لغرض تقريب صورة الممثل له إلى ذهن المخاطب به ، ولغرض الإقناع بالفكرة التي جاء المثل كدليل عليها ، ولغرض الترغيب ، وهكذا .

• • •

(١)

شرح الغرض الأول وهو تقريب صورة الممثل له إلى ذهن المخاطب عن طريق المثل

قد يكون لدى المخاطب نوع جهالة حول الممثل له، ويُراد رفعها عنه، والتمثيل قد يكون وسيلة سهلة للتعليم ورفع الجهالة، بل ربّما كان أحسن الوسائل عند تعذر إحضار الممثل له، أو إحضار صورته بالفعل، أمام المخاطب الذي يُراد رفع الجهالة عنه.

لكنّ الممثل له قد لا يكون ذا صورة مادية يُمكن أن تُدرك بالحسّ الظاهر، بل أمراً فكرياً ذهنيّاً، أو أمراً وجدانياً، وقد يكون ذا صورة مادية يمكن أن تُدرك بالحسّ الظاهر: ويراد من المثل في الحالة الأولى تقريب الصورة الذهنية أو الوجدانية، وفي الحالة الثانية تقريب الصورة المادية لذهن المخاطب.

* * *

أمثلة:

١ - يحدثنا الله تبارك وتعالى عن الحور العين في الجنة، وهنّ ذوات صورٍ يمكن أن تُدرك بالحسّ الظاهر، ولكنّهنّ مجهولات لنا، بعيدات الآن عن إدراكنا الحسي، وعن تصوراتنا الخيالية، فيَقْرُبُ الله لنا طرفاً من صورة لون بشرتهنّ ونعومتها، فيقول الله تعالى في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿وَحُورٌ عِينٌ ۖ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوفِ الْمَكْنُونِ﴾

فاللؤلؤ المكنون المحفوظ مثالاً لألوان بَشَرَتِهِنَّ ونعموتها بصفة تقريبية، مع الفارق العظيم بين الممثل له والممثل به .

ونظير هذا ما جاء في وصف الولدان المخلّدين، وهم خَدَمُ المؤمنين في الجنة، قال الله تعالى في سورة (الإنسان / ٧٦ مصحف / ٩٨ نزول):

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا ۝١١ ﴾ .

فضرب الله مثلاً لألوان بشرتهم ونعموتها، ولمشهد توزّعهم في الجنة للخدمة، باللؤلؤ المنشور، وهو مثل تقريبي، والحقيقة أعظم من ذلك وأرفع .

* * *

٢ - وضرب الله مثلاً لفريقين من الناس:

الفريق الأول: الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله .

الفريق الثاني: الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربّهم، أي تواضعوا وخشعوا لربّهم وسكنت إليه قلوبهم ونفوسهم .

فمثل الفريق الأوّل كمثل الأعمى الذي لا يرى شيئاً، والأصمّ الذي لا يسمع شيئاً، فهو مُنْطَمِسٌ أدوات الإدراك الحسي، وبانطماسها تُحْجَبُ عنه المعرفة .

ومثل الفريق الثاني كمثل البصير شديد البصر حادّه، والسميع قويّ السمع مُرْهَفَه، فهو دَرَاكٌ لما يجري حوله، قادر على اكتساب المعارف .

فالفريقان لا يستويان مثلاً، إذ حقيقتاهما متفاوتتان وهما على طرفي نقيض، وهل يستوي العمى والبصرُ الحديد؟ وهل يستوي الصّمُّ والسّمْعُ المرهفُ الشديد؟

قال الله تعالى في سورة (هود / ١١ مصحف / ٥٢ نزول):

﴿ الَّذِينَ يَصْدُدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝١١ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانْ لَهُمْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءٍ يَضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ۝١٢ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ

عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣١﴾ لَاجِرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسَرُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآخَبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْبَحِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٤﴾ *

فحالة الصّدّ النفسي والقلبي والفكري عن الهداية الربّانية وعن الاستجابة لنداءاتها، يُمكنُ تمثيلها بحالة الأعمى الذي لا يرى شيئاً والأصمّ الذي لا يسمع شيئاً، فهو لا يَهْتَدِي إلى طريقه.

وحالة الاستجابة النفسية والقلبية والفكرية لآيات الهداية الربّانية ولنداءاتها البيانية، يُمكنُ تمثيلها بحالة البصير الذي يرى طريقه وكلّ ما حوله، ويسمع أصوات الأدلاء والمرشدين، وكلّ الأصوات التي تصل إلى سمعه. والممثل له من قبيل الفكريّات والوجدانيات، والممثل به من قبيل الحسيّات الظاهرة.

ومن أغراض ضرب هذا المثل تقريبُ صورة الممثل له إلى ذهن المخاطب مع غرض الترغيب والتنفير، ومع غرض المدح والذمّ.

* * *

٣ - وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِحَالَةِ اللَّهْثِ النَّفْسِي وَالظُّمَأِ لِمَطَالِبِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لَدَى الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنسَلَخُوا مِنْهَا بَعْدَ أَنِ آتَاهُمُ اللَّهُ إِيَّاهَا، إِخْلَادًا إِلَى الْأَرْضِ وَطَلَبًا لِلطَّمَانِينَةِ فِيهَا وَالِاسْتِمَاعِ بِلَذَاتِهَا، بِحَالَةِ الْكَلْبِ الَّذِي يَلْهَثُ بِاسْتِمْرَارٍ، إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ، أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ. هَكَذَا حَالُ طُلَّابِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، يَنشُدُونَ الطَّمَانِينَةَ وَالسَّكِينَةَ وَالرَّاحَةَ وَالسَّعَادَةَ بِالْإِخْلَادِ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِذَا بِهِمْ يَكْذَحُونَ كَذْحًا دَائِمًا لِتَحْقِيقِ مَطْلَبِهِمْ فِيهَا، فَهُمْ لَا يَزَالُونَ يَلْهَثُونَ وَهُمْ يَكْذَحُونَ فِي طَلِبِهَا، ثُمَّ لَا يَبْلُغُونَ مَا يَرِيدُونَ، وَتَأْتِيهِمْ مَنَايَاهُمْ وَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ.

قال الله تعالى في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول):

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنفَلَخَ مِنْهَا فَٱتَّبَعَهُ الشَّيْطٰنُ فَكَانَ

مِنَ الْفَاوِيتِ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ﴿١٧٧﴾ .

فهذا المثل المقدم في صورة تدرك بالحس، قد جيء به لتقريب صورة الحالة النفسية للمكذبين بآيات الله الذين أخلدوا إلى الأرض طلباً للذاتها وتحقيق السعادة عن طريقها، فإذا بهم لا يظفرون منها بطائل، ويظل الظم النفسى لديهم على حاله، ويستمرّون في لهث نفسي متواصل، فحالتهم النفسية هذه كحالة الكلب الحسية إذ يلهث باستمرار، سواء أجهذته أم لم تجهذه، حملت عليه أم لم تحمل عليه.

* * *

٤ - وضرب الله مثلاً للصراع بين الحق والباطل وللصراع بين أنصار الحق ودُعائه، وجنود الباطل ودُعائه، ولنتيجة كل من الفريقين وعاقبته: بحالة الصراع بين ماء السيل الغامر وأكوام الزبد المتناثر. وبحالة الصراع بين المعادن المنصهرة وزبدها الذي يتميز عن جوهرها، ثم يطرح عنها فيذهب جفاء، وبالنتيجة التي تتحصل بعد هذا الصراع، وهي أن الزبد المخالط المصارع للجوهر النافع يذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، ويكون له الدوام ومجد النفع. وكذلك الحق، مهما صارعه الباطل، فالباطل إلى اضمحلال وزوال، والحق إلى دوام وثبات واستقرار. وكذلك المحقون الثابتون المجاهدون لنصرة الحق، مهما صارعهم المبطلون، فالمبطلون إلى اضمحلال وزوال، والمحقون إلى انتصارٍ ودوامٍ وثباتٍ واستقرار.

قال الله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف / ٩٦ نزول):

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثْلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ

جَفَاءً وَأَمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكُّهُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾: أي: يضربُ مثل الصراع بين الحق والباطل.

ويلاحظ في هذا النصّ مثلاً متشابهان: أحدهما مشهدٌ من المشاهد الكونية التي يُشاهدُها باستمرار الذين يعيشون في متقلبات الأحوال الجوية. وثانيهما مشهدٌ آخر يلاحظه أرباب الصناعات المعدنية داخل مصانعهم. وفي كلٍّ من المثلين ظواهرٌ تماثل حركة الصراع بين الحق والباطل، والمحقّقين والمبطلين، ونتائج هذا الصراع.

ولدى تحليل المثلين نرى أنهما مثلاً حسيّان يُدرَكَان بالحسّ الظاهر، مُثَلَّ بهما صراعٌ معنويٌّ لا يُدرَك بالحسّ الظاهر، وهو الصراع بين الحق والباطل. وصراعٌ حسيٌّ يُدرَك بالحسّ الظاهر، وهو الصراع بين المحقّقين والمبطلين.

أما الغرض من ضرب المثل هنا فربّما يكون لتقريب تصوّر حقيقة الممثل له، وذلك بتمثيله بمثال ماديٍّ يُدرَك بالحسّ الظاهر، وقد يكون للإقناع بأن الغلبة في النتيجة للحقّ والمحقّقين، وبأن البقاء والدوام للأصلح النافع، أمّا الباطل والمبطلون والزبد الذي لا ينفعُ النَّاسَ فعرضُ زائل. وقد يكون للغرضين معاً، ولغير ذلك من أغراض.

• • •

(٢)

شرح الغرض الثاني وهو الإقناع بفكرة من الأفكار

الإقناع بفكرة من الأفكار قد يصل إلى مستوى الحُجَّة البرهانية، وقد يقتصر على مستوى الحُجَّة الخطابية، وقد يقتصر على لفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة.

والحُجَّة البرهانية هي الحُجَّة الملزمة التي تُفيدُ اليقين. أما الحُجَّة الخطابية فهي حُجَّة إقناعية ظَنِّية تُفيدُ الظنَّ الراجح، ولفت النظر يكفي فيه إيراد المثل المشابه ولو لم يشتمل على آية حجة.

* * *

أمثلة:

١ - فمن الشواهد القرآنية على الأمثال التي يُقصدُ منها الإقناع بفكرة من الأفكار، وهذا الإقناع يشتمل على حجة برهانية، ما يلي:

ضرب الله المثل ببدء الخلق لإثبات قُدْرته على إعادة خلق الأحياء بعد إِمَاتَتِهِمْ وفناء أجسادهم.

قال الله تعالى في سورة (الأنبياء / ٢١ مصحف / ٧٣ نزول):

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (١٠٤)

وقال الله تعالى في سورة (يس / ٣٦ مصحف / ٤١ نزول):

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا

مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٢﴾

وقال الله تعالى في سورة (الروم / ٣٠ مصحف / ٨٤ نزول):

﴿ وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٧﴾

فضرب الله في هذه النصوص مثلاً ببَدْءِ الْخَلْقِ، وضرب مثلاً بخلقه للسموات والأرض الذي هو أكبر من خلق الناس؛ دليلاً على قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ وتعالى على إعادة خلق الناس بعد فناء أجسادهم.

وَضَرَبَ الْمَثَلَ بِكُلِّ مِنَ الْأَمْرَيْنِ قَدْ تَضَمَّنَ حُجَّةً بَرَهَانِيَّةً عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ عَلَى إِعَادَةِ الْخَلْقِ بَعْدَ فَنَائِهِ، لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى إِعَادَتِهِ، لَا اسْتِثْنَاءَ الْبَدْءِ وَالْإِعَادَةِ فِي الْوَاقِعِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ الْقَادِرِ، الَّذِي إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ الشَّيْءُ. وَلِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِ الشَّيْءِ الْعَظِيمِ الْكَبِيرِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى خَلْقِ مَا هُوَ أَقْلُ وَأَصْغَرُ مِنْهُ.

وباستطاعتنا أن نصوغ البرهان الذي تضمنه مثلُ بَدْءِ الْخَلْقِ وَمَثَلُ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى الْوَجْهِ التَّالِي:

إِنَّ مَثَلَ إِعَادَةِ الْخَلْقِ بَعْدَ فَنَائِهِ كَمَثَلِ بَدْءِ خَلْقِهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا، فَالْأَمْرَانِ مُسْتَوِيَانِ، بَلْ الْإِعَادَةُ أَهْوَنُ، فَمَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى بَدْءِ الْخَلْقِ فَهُوَ عَلَى إِعَادَتِهِ قَادِرٌ.

وَإِنَّ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلٌ أَعْلَى لِقُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى الْخَلْقِ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنْ

خلق الناس، وَمَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى مَا هُوَ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ إِعَادَةِ الْخَلْقِ بَعْدَ فَنَائِهِ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ لَا مُحَالَةَ.

ونظير ما سبق قول الله تعالى في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (٤٧) أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَتَأْتِنَا الْمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُمُونَ صُدُورُكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾: أي: نحن أعلم بالحالة التي يستمعون بها إليك يا محمد، وهي حالة الاستهزاء والإعراض والإنكار والتكذيب حين تدعوهم إلى التوحيد والإيمان باليوم الآخر. ونحن أعلم بما يتناجون به سرّاً فيما بينهم عنك وعن دعوتك، وذلك إذ يستمعون إليك حينما تدعوهم، وإذ هم نجوى.

قال أهل التفسير: أمر رسول الله ﷺ عليّاً رضي الله عنه أن يتخذَ طعاماً ويدعوَ إليه أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، ففعل علي رضي الله عنه ذلك، ودخل عليهم رسول الله ﷺ، وقرأ عليهم من القرآن ودعاهم إلى التَّوْحِيدِ، وقال لهم: قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حَتَّى تُطِيعَكُمْ الْعَرَبُ وَتَدِينَ لَكُمْ الْعَجَمُ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَكَانُوا عِنْدَ اسْتِمَاعِهِمْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ الْقُرْآنَ وَالْدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ يَقُولُونَ بَيْنَهُمْ مُتَنَاجِينَ: إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا، وما أشبه ذلك من القول (١).

(١) انظر تفسير الإمام الرازي عند تفسير هذه الآية.

﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾: أي: انْظُرْ كَيْفَ وَصَفُوكَ بِأَنَّكَ مسحور، أي مع أَنَّكَ نَبِيٌّ مرسل من عند الله.

﴿فَضْلُوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾: أي: فَلَمَّا رَفَضُوا سَبِيلَ الْحَقِّ ضَلُّوا فِي مَتَاهَاتِ الْبَاطِلِ، وَمِنْ تَنَكُّبِ سَبِيلِ الْحَقِّ الْوَاضِحِ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجِدَ سَبِيلًا آخَرَ يُوصِلُهُ إِلَى الْهِدَايَةِ وَالسَّعَادَةِ. إِنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ وَلَيْسَ بَعْدَ سَبِيلِ الْحَقِّ الْوَحِيدِ إِلَّا الْمَتَاهَاتُ وَالْمِهَالِكُ.

﴿وَرَفَاتًا﴾: أي: وَأَجْزَاءٌ مَتَفَتَّةً.

﴿فَسَيَنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ﴾: أي: فَسَيَحْرُكُونَهَا حَرَكَةً إِنْكَارٍ وَاسْتَهْزَاءٍ.

لَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا النَّصِّ مَقَالََةَ الْمُشْرِكِينَ، إِذْ جَاؤُوا بِمَثَلٍ مِنْ بَقَايَا أَجْسَادِ الْمَوْتَى، وَهِيَ عِظَامُهُمْ وَرَفَاتُهُمْ، وَقَالُوا: أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا؟!

لَقَدْ أوردوا مقالتهُم هذه على سَبِيلِ الاستفهام، إِلَّا أَنَّهُ اسْتَفْهَامُ الْمُتَعَجَّبِ الْمُنْكَرِ لَخَبَرِ الْبُعْثِ. وَنَصَّوْا أَنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ حُجَّةً تَدْحِضُ مَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَى الْحَيَاةِ لِلْحِسَابِ وَالْجِزَاءِ.

إِنَّهُمْ إِذْ لَمْ يُشَاهِدُوا شَيْئًا مِنَ الْعِظَامِ وَالرَّفَاتِ يَعُودُ إِلَى الْحَيَاةِ، وَقَعَ فِي تَوَهُّمِهِمْ أَنَّ عَدَمَ عَوْدَتِهَا فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا نَاشِئٌ عَنْ أَنَّ هَذِهِ الْعَوْدَةُ غَيْرُ مُمَكِّنَةٍ، وَقَاسُوا قُدْرَةَ الْخَالِقِ عَلَى قُدْرَتِهِمْ هُمْ، فَأَنْكَرُوا خَبَرَ الْبُعْثِ لِلْحِسَابِ وَالْجِزَاءِ.

فهذا مثلهم وهذا قياسهم، وكلُّ منهما مَنَزَعُهُ التَّوَهُّمُ الْفَاسِدُ.

أَمَّا الْبَرَهَانُ الرَّبَّانِيُّ فَقَدْ قَدَّمَ مَثَلًا وَاقِعِيًّا مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِمْ أَنْفُسِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، إِذْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا، وَهَذَا الْمَثَلُ مِنَ الْوَاقِعِ يُقَدِّمُ بَرَهَانًا عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ عَلَى إِعَادَتِهِمْ بَعْدَ فَنَاءِ أَجْسَادِهِمْ، لِاسْتِوَاءِ عَمَلِيَّتِي الْخَلْقِ فِي الْبَدْءِ وَالْإِعَادَةِ. وَالْفَارَقُ الزَّمَنِيُّ وَالْاِخْتِلَافُ بَيْنَ الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ لَا يُغَيِّرُ مِنْ

الحقائق شيئاً، فالله تبارك وتعالى أزليٌ أبديٌّ، وصفاته أزلية أبدية، لا يتغير منها شيء، ولا يتناقص منها شيء، وهذا ما أثبتته الحجج البرهانية التي هدت المؤمنين إلى وجود الله وكمال صفاته.

لقد قالوا متعجبين منكرين: أئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا؟!

فقال الله لرسوله: ﴿قُلْ: كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾: أي: افترضوا ما شئتم أن تفترضوا من مادة أو صورة تتحول أجسادكم بعد الموت إليها؛ كونوا حجارة أو حديدًا أو خلقًا آخر ممَّا يَكْبُرُ في صدوركم، لا مُجَرَّدَ عِظَامٍ وَرُفَاتٍ وأجزاء متفتتة.

بعد هذا الافتراض سيقولون: مَنْ يُعِيدُنَا إِلَى الْحَيَاةِ إِذَا تَحَوَّلَتْ أَجْسَادُنَا هَذَا التَّحَوُّلَ الْكَبِيرَ إِلَى حِجَارَةٍ أَوْ حَدِيدٍ، أَوْ عِنَصَرٍ آخَرَ مِنْ عُنَاصِرِ الْكَوْنِ؟ ولعلَّ في هذا إِشَارَةً إِلَى التَّحَوُّلَاتِ الَّتِي تَحْدُثُ لِلْأَجْسَادِ الْحَيَوَانِيَّةِ فِي الْأَحْقَابِ الْجَيُولُوجِيَّةِ، كما يقولون عن متحجرات الأسماك وغيرها، أَوْ تَحَوُّلَاتٍ مَا تَفَحَّمُ مِنْهَا إِلَى أَلْمَاسٍ يَكْبُرُ فِي صُدُورِهِمْ.

إِنَّ الْجَوَابَ هُوَ الْجَوَابُ نَفْسَهُ، وَإِنَّ الْبَرْهَانَ هُوَ الْبَرْهَانُ نَفْسَهُ، «قُلْ» يَا مُحَمَّد: ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فَمَنْ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَعِيدَ خَلْقَكُمْ، وَلَا يُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْ وَاقِعِ الْأَمْرِ أَنْ تَتَحَوَّلَ الْأَجْسَادُ إِلَى آيَةٍ مَادَّةٍ أَوْ آيَةٍ صُورَةٍ.

وَإِذْ تَنْقَطِعُ اعْتِرَاضَاتُهُمْ أَمَامَ هَذَا الْبَرْهَانِ الَّذِي لَا رَدَّ لَهُ فَسَيَسْكُتُونَ وَيُحَرِّكُونَ رُؤُوسَهُمْ حَرَكَةً تَعْجِبُ وَاسْتَهْزِءُ وَإِنْكَارٍ، وَهَذِهِ طَرِيقَةٌ مِّنْ انْقِطَعَتْ حُجَّتُهُ وَظَلَّ مُصَرًّا عَلَى بَاطِلِهِ.

ثم يلجؤون إلى السؤال عن زمن البعث، فيقولون: متى هو؟

فقال الله لرسوله: ﴿قُلْ: عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا. يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ

بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنَّ لَبِئْسَ مَا لَكُمُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١﴾ .

٢ - ومن الشواهد على الأمثال التي يُقصدُ منها الإقناع بحُجَّةِ خُطابِيَّةِ ما يلي :

(أ) يقول الله تعالى في سورة (الروم / ٣٠ مصحف / ٨٤ نزول) :

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَاءَ فِي مَارَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنَّفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

لقد اتخذ المشركون شركاء لله من خلقه، أي من عبيده ومما هو مملوك له، واعتقدوا أن الله قد اتخذهم شركاء له، ومنحهم قدرة على التصرف، وفوض إليهم أموراً من أمور خلقه، حتى استقلوا بكثيرٍ من الأمر، وغدوا مُستبدين منافسين، أو وسطاء شافعين، ومُقرِّبين إلى الله زُلْفَى .

وفي الإقناع بعقيدة التوحيد الإسلامية، وبأنه لا إله إلا الله وبأنه ليس لله ند ولا شريك؛ جاء في القرآن أدلة برهانية كثيرة، وجاء فيه أيضاً أدلة خطابية قد يكون لها تأثير على بعض النفوس أكثر من تأثير الأدلة البرهانية، لما فيها من تأثير على المشاعر النفسية، أمّا البراهين فقد تكون أدلة عقلية بحتة لا تحرك بعض مشاعر النفوس ولا تهزها.

ويبدو أن ما جاء في الآية من الأدلة الخطابية في هذا الموضوع، قد خاطب الله المشركين به فقال لهم :

﴿ هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنَّفُسَكُمْ ؟ ﴾ :

أي : يا أيها المشركون، هل ترضون لأنفسكم شركاء مما تملكون من أرقاء، حتى تجعلوهم مالكين معكم لما تملكون مما رزقكم الله؟ . هل تَرْضَوْنَ أَنْ يَكُونَ

عبيدكم شركاء لكم فيما تملكون من أشياء حتى ينازعوكم فيها؟. هل ترضون أن تفوضوا لهم الأمر في سلطانكم حتى تشتد قوتهم فتصل إلى درجة مساواتهم لكم، وحتى يكونوا قوة مخيفة لكم، كما تخافون أمثال أنفسكم من الأحرار ذوي القوة والسلطان؟

إذا كنتم لا ترضون شيئاً من ذلك لأنفسكم، لمنافاته مرتبة كمالكم في تصوّركم، ولأنه يقلل من سلطانكم فيما هو لكم، أفترضون مثله لبارئكم؟. أفعتقدون أن الله يرضى بذلك لنفسه مع أنكم تترفعون عنه ولا ترضونه لأنفسكم؟ لو قسّم الله على أنفسكم في أدنى الحدود لرفضتم أن تجعلوا الله شريكاً، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فالذي يبدو من هذا المثل أنه قد جيء به لإقامة حجة قياسية تتضمن دليلاً خطابياً، ولا يبعد - إذا تعمقنا في تحليل الدليل - أن يكون دليلاً برهانياً، والله أعلم.

* * *

(ب) ويقول الله تعالى في سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْزَلِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبِطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِثَارَ زَقَا حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ﴾: الحَفْدَةُ في اللغة: هم الأعوان والخدم، وهو جمع مفردة الحافد. وحفدة الرجل: بناته، وأولاد أولاده، وأصهاره. وأصل مادة الكلمة يدلُّ على معنى الخدمة بِخَفَّةٍ وسُرْعَةٍ. يقال لغةً: حَفَدَ الرجلُ يَحْفِدُ حَفْدًا وَحَفْدَانًا إِذَا خَدَمَ بِسُرْعَةٍ وَخِفَّةٍ.

ويرتجح عندي من أقوال المفسرين تفسير الحفدة ببنات الرجل، فهو الذي يتلاءم مع ذكر «بَيْنَ» في النص الذي عطف عليه «وحفدة» والعطف يقتضي التغاير، وبنات الرجل هُنَّ اللواتي يُسرِعْنَ في خدمته في بيته، وهُنَّ اللواتي جعلهنَّ الله للرجال من أزواجهن.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾: أي: فلا تُشَبِّهُوا الله بخلقه، ولا تَجْعَلُوا لِلَّهِ مِثْلًا ولا شَبِيهًا.

في هذا النص من سورة النحل ثلاثة أمثالٍ للإقناع بِحُجَجٍ خَطَّابِيَّةٍ في قضية التوحيد، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ في ربوبيته ولا في ألوهيته.

المثل الأول: فيه محاكمةٌ للمشركين بأنهم هم أنفُسُهُمْ مِثْلُ صالح يمكن أن يستفيدوا منه للإقلاع عن عقيدة الشرك بالله.

وذلك أَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا هُمْ أَنْفُسُهُمْ لَا يَقْبَلُونَ أَنْ يُمْلَكُوا وَيُسَلِّطُوا عِبْدَهُمْ وَأَرْقَاءَهُمْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ أَوْ عَلَى شَطَرِ مِنْهَا، حَتَّى يَكُونُوا هُمْ وَإِيَّاهُمْ سَوَاءٌ فِي الْمَلَكِيَّةِ وَالتَّسَلُّطِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى التَّصَرُّفِ، وَحَتَّى يَكُونُوا شُرَكَاءَ لَهُمْ وَهُمْ أَرْقَاؤُهُمْ، فَكَيْفَ وَقَعَ فِي تَصَوُّرِهِمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ مَعَ بَعْضِ مَنْ خَلَقَ، فَجَعَلَهُمْ شُرَكَاءَ لَهُ، مَعَ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ حُجَّةً مُنزَلَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى اعْتِقَادِهِمْ هَذَا.

وهذا ما تضمنه قول الله تعالى في النص:

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾.

أي: فإذا كانوا لا يقبلون هذا لأنفسهم فكيف ينسُبون إلى الله أَنَّهُ جَعَلَ قِسْمًا مِنْ خِصَائِصِ الْأُلُوْهِةِ لَشُرَكَائِهِمْ؟

إِنْ خَلَقَهُمْ وَرَزَقَهُمْ وَكُلَّ خَيْرٍ يَصِلُ إِلَيْهِمْ هُوَ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَشُرَكَائُهُمُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا تَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا تَمْلِكُ لَهُمْ شَيْئًا، وَلَا تَسْتَطِيعُ لَوْ أَرَادَتْ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ؟﴾.

﴿أَفَالْبَاطِلُ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ؟! وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ؟﴾.

المثل الثاني: أنهم في واقعهم الإنساني يرفضون التسوية بين عبدٍ مملوكٍ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، فَلَا هُوَ يُعْطَى وَلَا هُوَ يُنْعَمُ، وَبَيْنَ حُرٍّ مَرْزُوقٍ ذِي جُودٍ وَكَرَمٍ يُنْفِقُ مِنْ مَالِهِ سِرًّا وَجَهْرًا.

فكيف يرفضون مثل هذه التسوية في واقعهم الإنساني، ثم يعتقدون ما هو أقرب منها، إِذْ يُسَوُّونَ بَيْنَ اللَّهِ وَخَلْقِهِ، فَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مِنْ عِبَادِهِ أَوْ مِنْ جَوَامِدِ خَلْقِهِ كَالشَّجَرِ وَالْحَجَرِ شُرَكَاء؟!

وهذا ما تضمنه قول الله تعالى في النص:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمِنْ رِزْقِنَا مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا. هَلْ يَسْتَوُونَ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ. بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

المثل الثالث: أنهم في واقعهم الإنساني أيضاً يرفضون التسوية بين إنسانٍ أَبْكَمٍ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كُلُّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ، وَبَيْنَ عَاقِلٍ حَصِيفٍ فَصِيحٍ اللِّسَانِ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

فكيف يرفضون مثل هذه التسوية في واقعهم الإنساني ثم يعتقدون ما هو أقرب منها، إِذْ يُسَوُّونَ بَيْنَ اللَّهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ الْقَدِيرِ الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَبَيْنَ بَعْضِ خَلْقِهِ الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَلَا لغيرهم شَيْئًا فَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مِنْ خَلْقِهِ شُرَكَاءَ فِي الْوَهْيَةِ أَوْ فِي رَبوبيته؟!

هذه الأمثال اكتفت بحجتها الخطابية في عرضها الإقناعي، لاستثارة المشاعر

النفسية لدى المخاطبين، مع إمكان تقديم الحجة بطريقة برهانية، كما جاء في نصوص قرآنية كثيرة أخرى.

وفي الطريقة البرهانية نقول: إن المشركين يُسوون بين الخالق وبين بعض خلقه، إذ يعتقدون أنهم شركاء له، مع أن هؤلاء الشركاء فقراء لله لا يَقْدِرُونَ على شيء، والله هو الغني ذو الجود والمنّ، يُعْطِي سِرّاً وجهراً بغير حساب، وهؤلاء الشركاء لا يُرْجَى منهم نفع ولا يُخْشَى منهم ضررٌ، ولا تستفاد منهم هداية، والله تعالى لديه الخير كله، وهو الأمر بالعدل، وهو الهادي إلى الصراط المستقيم.

فالتسوية بين الله وأبي خلق من خلقه مرفوضةٌ بالبدهة العقلية، ولما كانت الربوبية والألوهية تتطلبان صفاتٍ خاصة لا تُوجَدُ إلا في الرب الخالق وحده، كان ادّعاء الألوهية أو الربوبية لغير الله تعالى أمراً باطلاً قائماً على تسوية مرفوضة بالبدهة العقلية بين الله سبحانه وتعالى وبين الشركاء.

(ج) ويقول الله تعالى في سورة (الزمر / ٣٩ مصحف / ٥٩ نزول):

﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٩).

﴿مُتَشَاكِسُونَ﴾: أي: مُتَخَالِفُونَ مُتَشَدِّدُونَ عسرو الأخلاق.

﴿سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾: أي: خالصاً له لا يُشَارِكُهُ في ملكيته رجل آخر يُشَاكِسُهُ ويختلف معه، فيكون المملوك بذلك معذباً تحت سلطان المتشاكسين المالكين له.

في هذه الآية مثلٌ تضمن إقناعاً بحجة خطابية بغية تخلي المشركين عن عقيدة الشرك بالله عز وجل.

لقد اختار المشركون لأنفسهم أن يتخذوا آلهة متعددة يعبدونها من دون الله، دون أن يكونوا مُلْزَمِينَ عقلاً ولا واقعاً بعبادتها، بل العقل والواقع يلزمانهم بالتوحيد، وأن يعبدوا الله وحده لا يُشْرِكُونَ بعبادته أحداً.

لقد اتخذ المشركون الآلهة المتعددة من دون الله استناداً إلى أوهام لا أساس لها، وباختيارهم لا تأخذ الآلهة المتعددة تركوا ما هو أكرم لهم وأشرف وأعز لنفوسهم، ألا وهو عبادة الله وحده، والخضوع لله وحده.

ولما كان الأمر يرجع إلى اختيارهم وإشارتهم الشرك على التوحيد، فمثلهم في هذا كمثل عبد رقيق، يُفَضَّلُ باختياره الحر أن يكون عبداً مملوكاً لعدد من الرجال هم فيه شركاء، وكل واحد منهم له عليه سلطان، وله منه مطالب، وهم فيما بينهم متشاكسون متخالفون، ويؤثر هذا الحال المتعب المذل له على أن يكون عبداً مملوكاً لرجل واحد فقط لا يئازعه فيه منازع.

إذا كان لا مناص من أن يكون عبداً مملوكاً، فلأن يكون مملوكاً لرجل واحد فقط أكرم له وأشرف من أن يكون مملوكاً له ولغيره من الشركاء المتشاكسين.

فالحجة في هذا المثل تثبت أن انفرد المالك الذي تجب طاعته أفضل وأكرم للمملوك من تعدد المالكين، فالأمران ليسا بمتساويين، فقال تعالى:

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا؟﴾.

ومن الواضح في هذه الحجة أنها لا تقدم برهاناً على نفي الشركاء، لكنها تقدم إقناعاً خطيباً للمشركين بأن التوحيد أكرم لنفوسهم وأشرف وأعز. فهي تثير في نفوسهم عنصر الكرامة، ليستبصروا بالحقيقة وينظروا إلى الأدلة البرهانية التي تثبت لهم أنه لا إله إلا الله.

وإذا كان التوحيد أكرم لهم فما بالهم يتعصبون لشركهم؟!

ونؤكد أن هذا الإقناع القائم على تحريض عنصر الكرامة في نفوس المشركين مسبوق بالأدلة العقلية البرهانية، التي تثبت أن لا إله إلا الله، وتثبت أن الرب الخالق واحد لا شريك له، وأنه هو وحده الذي يستحق أن يعبد عباده، وأنه هو وحده الذي يجب أن يعبدوه.

(٣)

شرح الغرض الثالث وهو الترغيب بالتزيين والتحسين أو التنفير بكشف جوانب القبح

أما الترغيب فيكون بتزيين الممثل له وإبراز جوانب حسنه عن طريق تمثيله بما هو محبوب للنفوس مرغوب لديها.
وأما التنفير فيكون بإبراز جوانب قبحه عن طريق تمثيله بما هو مكروه للنفوس، أو تنفير النفوس منه.

ومن الشواهد القرآنية على الأمثال التي يقصد منها الترغيب بأمر من الأمور، أو التنفير من أمر من الأمور ما يلي:

١ - ضرب الله مثلاً للكلمة الطيبة، ومثلاً للكلمة الخبيثة. فالمثل الأول يشد الرغبة إلى العناية بالكلمة الطيبة، والاهتمام بتقديمها وبذلها في مواطن نفعها. والمثل الثاني ينفر من الكلمة الخبيثة ويحرض على كفها وإمساكها، مهما وجدت الدواعي النفسية لإطلاقها.

قال الله تعالى في سورة (إبراهيم / ١٤ مصحف / ٧٢ نزول):

﴿الَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٤﴾ تُوْقَى أَكْلُهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿الكلمة الطيبة﴾: هي مثل كلمة التوحيد، وكلمة الدعوة إلى الله، وكلمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والكلمة الحلوة التي يسرّ بها المسلم أخاه المسلم في طاعة الله، والكلمة التعليمية التي يقدمها المعلم المسلم الناصح لمن يستمع إليه، والكلمة التربوية التي يبذلها المسلم المربي الناصح لمن يشرف على تربيته، والكلمة الرشيدة التي ينصح بها المسلم أخاه، هذه الكلمة ضَرَبَ اللَّهُ مثلاً لها بالشجرة الطيبة المزروعة في الأرض الطيبة، ذات الجذور والأصول الثابتة المتغلغلة في عمق الأرض، وذات الفروع الممتدة في السماء، وهي شجرة مثمرة لا ينقطع ثمرها النافع في أي فصل من فصول العام، فهي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وصورة هذا المثل منتزعة من الواقع المشاهد للناس، مع إضافة شيء من الخيال بالنسبة إليهم، وهي بالنسبة إلى ما خلق الله منتزعة من الواقع، فأشجار الجنة كذلك.

ويستفاد من هذا المثل أن الكلمة الطيبة ثابتة الأصل، نامية باستمرار، مثمرة في كل حين.

إن كل كلمة طيبة يقولها مؤمن مسلم يتبغي رضوان الله تعالى ويرجو ثوابه، تنمو عند الله، أما أصلها الثابت في إيمان صاحبها وإخلاصه لله في بذلها، وأما فروعها الممتدة في السماء فبلوغها مستوى القبول عند الله، وأما ثمرها فما تقدمه من أجر بفضل الله لبذلها وزارعها في أرض التقوى والبر والإحسان. فإذا كانت كلمة تعليم وهداية وإرشاد ونصح لعباد الله، حتى يهتدوا إلى صراط الله المستقيم، وكانت مقرونة بالإخلاص لله، بآرك الله بها، فامتدت وتسلسلت الهداية بها، فما انتفع بها منتفع، ولا اهتدى بها مهتد، إلا كان لبذلها الأول مثل أجور من اهتدى بها وتأثر بها فعمل صالحاً، وهكذا من ثمرها الذي تؤتيه كل حين بإذن ربها. والكلمة الطيبة تدل على عقل بذلها وحصافته.

وبهذا المثل الترغيبى الرائع تشدد القلوب المؤمنة للاهتمام ببذل الكلمة الطيبة، فقال الله عز وجل:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وفي مقابل الكلمة الطيبة تأتي الكلمة الخبيثة، وفي مقابل مثل الكلمة الطيبة يأتي مثل الكلمة الخبيثة.

إن مثل الكلمة الخبيثة شجرة خبيثة ضارة مؤذية، قد اجتثت من فوق الأرض، أي قطعت واستوصلت كل صِلَة جذريّة لها بالأرض، فليس لها قرار تثبت فيه وتستمد منه، حتى يكون لها نماء أو نفع.

وهذا المثل الذي يُنفّر العقلاء من الكلمة الخبيثة يرسم صورة لشجرة خبيثة قد لا يكون لأمثالها وجود مشهود للناس، ولا ضير أن لا يكون لمثل هذه الشجرة وجود مشهود، إذ يكفي أن يَصوّر المثل للأذهان المعالِم المميّزة لهذه الشجرة الخبيثة الضارة.

فهي أولاً خبيثة، أي: ضارة ليست بنافعة مكروهة المنظر والرائحة، تؤذي من يقرب منها أو تضره.

وهي أيضاً ليس لها فروع نامية في السماء حتى تنفع في ظل أو حطب. وليس لها أكل يستفيد منه إنسان أو حيوان.

وكذلك الكلمة الخبيثة هي مؤذية أو ضارة، وليس لها جذور من الخير حتى تمّدها بقوى النماء، فهي مقطوعة الصلّة بالعوامل القادرة على إمدادها بما ينمّيها.

إن الكلمة الخبيثة تُقذف إلى أَسْماع الناس من فم قائلها، فتؤذيهم، أو تضر من تضر منهم، أو تُفسد من تُفسد منهم ويشمئز العقلاء منها كما يشمئزون من

القمامات والأقذار التي تُطرح في طُرُقَاتِهِمْ، وتكون بمثابة العُثَرَاتِ من الحِجَارَةِ وأشجارِ الشوك التي تُعْرِقُ سبيلَ المارة.

والكلمة الخبيثة: مثل كلمة الكفر، وكلمة الإثم والظلم والعدوان، كَقَذْفِ الناس في أعراضهم، وسبِّهم وشتمهم بغير حق. ومثل كلمة الغيبة والنميمة، وكلمة الكذب المحرم، وكلمة الدعوة إلى الكفر والفجور والفسوق والعصيان، وكلمة الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، والكلمة التي يغش ويخدع بها مَنْ لا أمانة له، والكلمة المضلّة التي يُفْسِدُ بها رَجُلٌ التربية والتعليم مَنْ يشرف على تربيتهم وتعليمهم، والكلمة الباطلة التي يقدّمها المعلمُ الغاشُّ لتلاميذه، فيأخذونها عنه على أنها حق وعلمٌ صحيح، وكلمات الفُحْشِ والبذاءة، إلى غير ذلك من الكلمات، وكل أولئك خبيثاتٌ غير طيّبات، فقال تعالى:

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۖ﴾

إن الكلمة الخبيثة تدل على هبوط مستوى قائلها، وقلة عقله، أو نذالته وخُبث نفسه.

* * *

٢ - وضرب الله مثلاً للذين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ يَسْتَنْصِرُونَ بِهِمْ، وَيَعْتَـمِدُونَ عَلَيْهِمْ، ويرجون عندهم نفعاً يجلبونه لهم، أو ضرراً يدفعونه عنهم أو يقذفون به على أعدائهم، بالعنكبوت التي اتخذت لنفسها بيتاً تأوي إليه يحميها وبقاياها، وبيتها أوهى وأضعف بيوت الحيوان، وهو أشبه بنسيج الأوهام.

فقال الله تعالى في سورة (العنكبوت) / ٢٩ مصحف / ٨٥ نزول):

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۖ﴾ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۖ﴾ (٤٢) وَلَئِكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ۖ﴾ (٤٣)

لا يصعب على متدبر هذا المثل أَنْ يَلَاحِظَ ما فيه من تصوّر يُنْفِرُ أَهْلَ البصر من أَنْ يتخذوا مِنْ دُونِ الله أولياءَ . إِذْ يُصَوِّرُ اعْتِمَادَهُمْ عَلَى أوليائِهِمْ باعْتِمَادِ العناكبِ عَلَى بُيُوتِهَا الَّتِي تَتَّخِذُهَا مِمَّا تَغْزِلُ من خيوطها الَّتِي تُفَرِّزُهَا من عُذْدٍ في صدورِها .

حين نقولُ لِمَنْ يَتَّخِذُ من دُونِ الله أولياءَ : إِنَّ اعْتِمَادَكَ عَلَى أوليائكِ اعْتِمَادٌ ضائع لا يَنْفَعُكُ شيئاً ، إِنَّمَا نُقَدِّمُ له الفكرةَ مجردةً تجرِداً ذَهِنيّاً . لَكِنَّا إِذَا وَضَعْنَا له هذه الفكرةَ نَفْسَهَا في صُورَةٍ يُشَاهِدُ شَبِيهَهَا في الحِسِّ ، وهذا الشَّيْءُ لا يَحْتَاجُ بَيَانِ الْفِكْرَةِ فيه إِلَى شَرْحٍ أَوْ إِقَامَةِ حُجَجٍ كان ذلك أَدْعَى إِلَى وَضُوحِ الرُّؤيةِ ، مع ما في ذلك من إِرْضاءٍ لذكائه وَحِسِّه الأدبي الذي يَدُلُّ في نفسه عَقَبَةُ الإِعْرَاضِ والِرْفُضِ ، ويجعله يُقْبِلُ إِلَى مُحَدِّثِهِ للاستمتاع بمتعة الأدب الرفيع .

ولما كان أَهْلُ البصيرةِ يُفَرِّقُونَ من اتَّخَذَ بيوتَ واهيةٍ واهنةٍ لأنفسِهِمْ ، أمثالَ بيوتِ العناكبِ ، كان ضربُ المثلِ للعملِ الضائعِ والاعتمادِ الخائبِ ببيتِ العنكبوتِ بياناً حكيماً لغرضِ التنفيرِ من اتَّخَذَ أولياءَ من دُونِ الله .

إِلَّا أَنَّهُ لما كان التمثيلُ ببيتِ العنكبوتِ قد يسمحُ بتصوّرٍ مَنفَعَةٍ ما مهما كانت ضئيلةً وَحَقِيرَةً ، أَتَبَعَ اللَّهُ هذا المثلَ بقوله :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ :

أي : ليس الذين يدعونَهُمْ من شركائِهِمْ من دُونِ الله شيئاً أي شيء ، إِنَّهُمْ لا يدعونُ إِلَّا أَوْهَاماً ، ولا يَعْتَمِدُونَ إِلَّا عَلَى أَوْهَامٍ ، إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَوْهَا هُمْ وَأَبَاؤُهُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بها من سلطانٍ ، وليس لمسمياتِ هذه الأسماءِ نفعٌ ولا ضررٌ مطلقاً .

قوله تعالى :

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ :

أي : وما يفهم دلالاتها العميقة ويمسكُ بما تُرْشِدُ إليه إِلَّا الْعَالَمُونَ ، وهم المتصفون بصفاتِ العالمِ الْبَاحِثِ عن الحقيقةِ .

وَبَنَى اللَّهُ عَلَى الْمَثَلِ كَأَنَّهُ عَيْنُ الْمُثْمَلِ لَهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾
عَقِبَ ضَرْبُهُ الْمَثَلِ بَيَّتِ الْعَنْكَبُوتُ، أَي: لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ لَعَلِمُوا أَنَّ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ
دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ، كَمَنْ يَتَّخِذُ لِنَفْسِهِ بَيْتًا مِثْلَ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ.

* * *

٣ - وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا تَشْبِيهًا لِنَاقِضِي عُهْدِهِمْ، فَجَعَلَ مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الْمَرَأَةِ
الْحَمَقَاءِ الَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ (النَّحْلِ)
١٦ مَصْحَف / ٧٠ نَزُول):

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ
اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (١٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا
مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ
إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦﴾.

فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَضْرِبُ فِي هَذَا النَّصِّ مَثَلًا لِلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عُهْدَهُمْ
وَمَوَائِقَهُمْ، أَوْ يَنْقُضُونَ أَيْمَانَهُمْ الَّتِي يُؤْتِقُونَ بِهَا عُهْدَهُمْ، بِالْمَرَأَةِ الْحَمَقَاءِ الَّتِي مِنْ
شَأْنِهَا أَنْ تَغْزِلَ غَزْلَهَا، حَتَّى إِذَا أَحْكَمَتْهُ وَأَبْرَمَتْهُ إِبرَامًا مُنَاسِبًا، عَادَتْ فَفَقَضَتْهُ وَجَعَلَتْهُ
أَنْكَاثًا.

الْأَنْكَاثُ: جَمْعُ مُفْرَدِهِ (نَكَثٌ) وَالنَّكَثُ هُوَ مَا يُؤْخَذُ مِنَ الْخِيوطِ الْمُبْرَمَةِ (١) مِنْ
نَسِيجٍ قَدْ بَلِيَ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ فَيَنْقُضُ بَرْمَهُ، وَيُعَادُ إِلَى مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ سَابِقًا صُوفًا
أَوْ شَعْرًا أَوْ قُطْنًا، ثُمَّ يُخْلَطُ بِالصُّوفِ أَوْ الشَّعْرِ أَوْ الْقُطْنِ الْجَدِيدِ، وَيُضْرَبُ بِالْمِطَارِقِ
إِعْدَادًا لَهُ حَتَّى يَكُونَ صَالِحًا لِلْغَزْلِ.

إِنَّ هَذَا الْمَثَلَ يُقَدِّمُ صُورَةً لِعَمَلِ امْرَأَةٍ حَمَقَاءٍ، تَبْذُلُ جَهْدًا لِتَغْزِلَ غَزْلَهَا، ثُمَّ
تَبْذُلُ جَهْدًا آخَرَ لِتَنْقُضَ مَا غَزَلَتْ، وَتُعِيدَ صُوفَهَا أَوْ مَا غَزَلَتْ مِنْ شَعْرِ إِلَى مِثْلِ حَالَتِهِ

(١) بَرَمَ الْخِيوطَ أَوْ الْحَبْلَ وَأَبْرَمَهُ فَتَلَّهُ طَاقِينَ أَوْ أَكْثَرَ وَجَعَلَ مِنْ ذَلِكَ خِيَطًا أَوْ حَبَلًا أَغْلَظَ وَأَقْوَى.

الأولى ، فَتُضَيِّعُ جَهْدَيْنِ ، وَتُبَدِّدُ زَمَنَيْنِ مِنْ عُمْرِهَا ، مِنْ دُونِ أَنْ تَسْتَفِيدَ مِنْ جَهْدِهَا أَوْ زَمَنِهَا شَيْئًا .

وكذلك حال الذين يَنْقُضُونَ عُهُودَهُمْ ومَوَاقِفَهُم التي أَكَّدُوها بِأَيْمَانِهِمْ ، إِنَّهُمْ يَرْتَكِبُونَ حِمَاقَةً شَبِيهَةً بِحِمَاقَةِ الْمَرْأَةِ التي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا .

أَلَمْ يُعْطُوا كَلِمَةَ الْعَهْدِ؟ . أَلَمْ يُوَكِّدُوا مَوَاقِفَهُمْ بِالْأَيْمَانِ؟ . أَلَمْ يَجْعَلُوا اللَّهَ بِهِذِهِ الْأَيْمَانَ كَفِيلًا عَلَيْهِمْ إِذْ قَبِلَ مِنْهُمْ مَنْ أَعْطَوْهُمْ عُهُودَهُمْ وَأَيْمَانَهُمْ ، وَاعْتَبَرُوا هَذِهِ الْأَيْمَانَ بِمِثَابَةِ كِفَالَةٍ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ؟

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ :

للمفسرين في المراد من عهد الله هنا وجوه من الرأي ، وأرى أنه يشمل كل عهد يقدّمه المؤمن في أمرٍ لا معصية لله فيه . وحين يوثّق المؤمن عهده بالقسم بالله فإنَّ عهده يكون من قبيل عَهْدِ اللَّهِ ، أي عهده مع الله ، بشرط أن لا يكون في هذا العهد معصية لله عزَّ وجلَّ ، ولو كان هذا العهد مع غير المسلمين .

وَيَدْخُلُ فِي عَمُومِ الْعَهْدِ عَهْدُ الْإِيمَانِ ، وَعَهْدُ الْبَيْعَةِ عَلَى الطَّاعَةِ لِإِمَامِ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَهْدُ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَكُلُّ عَهْدٍ يَلْتَزِمُهُ الْإِنْسَانُ بِاخْتِيَارِهِ .
قال ابن عباس : وَالْوَعْدُ مِنَ الْعَهْدِ .

وسياق النص يفيد أن الْعَهْدَ يشمل كل ما يكون بين أُمَّةٍ وَأُمَّةٍ مِنْ عُهُودٍ سِيَاسِيَّةٍ أَوْ عَسْكَرِيَّةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ .

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ :

الدَّخْلُ والدَّغْلُ : الْغِشُّ والخِيَانَةُ ، وَكُلُّ مَا دَخَلَهُ عَيْبٌ فَهُوَ مَدْخُولٌ ، وَفِيهِ دَخَلٌ . والدَّخْلُ هو ما أُدْخِلَ فِي الشَّيْءِ عَلَى فساد .

فَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ : أَي : أَتَحْلِفُونَ الْأَيْمَانَ

لَتَخْدَعُوا بِهَا النَّاسَ وَتَغْشَوْهُمْ بِهَا، حَتَّى يَصَدَّقَكُمْ فِي عَهْدِكُمْ وَوَعُودِكُمْ، ثُمَّ تَنْقُضُونَهَا بِغَيْرِ حَقٍّ؟! إِنَّ هَذَا لَأَمْرٌ كَبِيرٌ شَنِيعٌ.

﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾:

أَرْبَى: أَي أَكْثَرُ، وَالْمَعْنَى اتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ الْكَاذِبَةَ وَسِيلَةً خَدِيعَةً لَتَكُونَ أُمَّتُكُمْ أَكْثَرُ وَأَقْوَى مِنْ أُمَّةٍ عَدُوَّكُمْ؟!!

وَوَاضِحٌ فِي هَذَا الِاسْتِفْهَامِ أَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ. أَي لَا تَتَّخِذُوا الْعَهْدَ وَالْأَيْمَانَ الْمَوْثِقَةَ لَهَا وَسِيلَةً غَشٍّ وَخَدِيعَةٍ، تَخْدَعُونَ بِهَا مَنْ تُعَاهِدُونَهُمْ، ثُمَّ تَنْقُضُونَ هَذِهِ الْعُهُودَ وَالْأَيْمَانَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَتُبَرِّزُونَ اتِّخَاذَ هَذِهِ الْوَسِيلَةِ الْمَحْرَمَةَ بِأَنْكُمْ تُرِيدُونَ غَايَةً نَبِيلَةً، وَهِيَ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةِ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ.

إِنَّ اللَّهَ يُحَرِّمُ هَذِهِ الْوَسِيلَةَ وَأَمْثَالَهَا، وَلَوْ كَانَ الْغَرَضُ مِنْهَا تَقْوِيَةُ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ. إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ فِي مَوْضِعِ الْامْتِحَانِ ﴿إِنَّمَا يَلْبِغُكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾، وَالْامْتِحَانُ يَتَطَلَّبُ مِنْكُمْ التَّزَامَ حُدُودِ اللَّهِ، وَلَوْ مَعَ أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَيَكْلَفُكُمْ أَنْ تَكُونُوا دَعَاةً هِدَاةً صَابِرِينَ، مُلتَازِمِينَ أَوَامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ، مُمَثِّلِينَ فِي أَعْمَالِكُمْ شَرِيعَةَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ.

إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ أُمَّةٌ تَبْلِيغٌ وَإِقَامَةٌ لِحُكْمِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَلِشَرِيعَتِهِ فِي النَّاسِ مَا اسْتَطَعْتُمْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، ضِمْنَ حُدُودِ أَوَامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ، فَإِذَا اتَّخَذْتُمْ أَيْمَانَكُمْ بِاللَّهِ وَسِيلَةً لِمَخَادَعَةِ أَعْدَائِكُمْ خَالَفْتُمْ أُسُسَ رِسَالَتِكُمْ لِلنَّاسِ، وَأَعْطَيْتُمْ مَثَلًا سَيِّئًا عَنْهَا بِتَصَرُّفَاتِكُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْكُمْ مَزَلَةٌ قَدَمٌ، وَصَدَّ عَمَلَكُمْ هَذَا النَّاسَ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، فَتَأْتِي النُّتِيجَةُ عَلَى عَكْسِ مَا تُرِيدُونَ، إِذْ تُمَسِّي أُمَّةَ الْكُفْرِ أَرْبَى مِنْ أُمَّةِ الْإِيمَانِ.

إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ لَمْ تَكْلَفُوا أَنْ تُحَوِّلُوا النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ حَتَّى تَتَّخِذُوا لِذَلِكَ أَيْةً وَسِيلَةً، كَالْإِكْرَاهِ، وَالْمَخَادَعَةِ بِالْعَهْدِ وَالْوَعْدِ وَالْأَيْمَانِ، إِنَّ اللَّهَ

لَوْ شَاءَ تَحْوِيلُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْإِكْرَاهِ لَتَوَلَّاهُ بِنَفْسِهِ؛ فَجَعَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ أُمَّةً مُوْمِنَةً وَاحِدَةً، فَسَلَبَ النَّاسَ إِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ وَجَعَلَهُمْ مُجْبُورِينَ غَيْرَ مُخَيَّرِينَ، وَإِذَا جَعَلَهُمْ مُجْبُورِينَ لَمْ يَجْبِرْهُمْ إِلَّا عَلَى الْإِيمَانِ الْحَقِّ، وَالْإِسْلَامِ الْكَامِلِ لَهُ جُلٌّ وَعِلَاءٌ، وَلَكِنْ يَبْطُلُ بِذَلِكَ الْإِبْتِلَاءُ وَمَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ مِنْ جَزَاءٍ.

ولذلك قال الله تعالى عقب الآية التي جاء فيها مثلُ الحمقاء في سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَنْخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَاقَدِمَ بَعْدَ بُيُوتِهِا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

فَنَقُضَ الْعُهُودَ مَزَلَّةً قَدَمٍ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ، وَعَقُوبَتُهَا الْمَعْجَلَةُ أَنْ يَذُوقَ نَاقِضُ عُهُودِهِمُ السُّوءَ فِي الدُّنْيَا، بِسَبَبِ عَمَلِهِمُ الَّذِي أَعْطَى صُورَةً سَيِّئَةً صَدَّتْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ تَكُونُ الْعُقُوبَةُ فِي الْآخِرَةِ عَذَابًا عَظِيمًا.

إِنَّ نَقْضَ الْعُهُودِ أَمْرٌ خَطِيرٌ وَإِثْمٌ عَظِيمٌ فِي الْإِسْلَامِ، وَلِذَلِكَ كَانَ حِمَاةً تُشَبَّهُ حِمَاةَ الَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا، وَهَذِهِ الْحِمَاةُ مِمَّا يَنْفِرُ الْعُقْلَاءُ مِنْهُ.

• • •

(٤)

شرح الغرض الرابع وهو إثارة محور الطمع والرغبة أو محور الخوف والحذر لدى المخاطب

ففي إثارة محور الطمع يتجه الإنسان بمُحَرِّضٍ ذاتي إلى ما يُراد توجيهه له . وفي إثارة محور الخوف والحذر يبتعد الإنسان بمُحَرِّضٍ ذاتي عما يُراد إبعاده عنه . وهذا من الأغراض التربوية المهمة، ونلاحظه بكثرة في البيانات القرآنية .

* * *

أمثلة :

١ - يقول الله تعالى في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ﴿٣١﴾ ۝ ﴾

في هذا المثل إثارة لمحور الطمع في الإنسان، ففي تمثيل بذل المال في سبيل الله بِبَذْرِ الْحَبِّ في الأرض الزراعية المعطاء الطيبة، إثارة قوَّة لمطامع الإنسان .

إنَّ النَّاسَ يَعْرِفُونَ قِيَمَةَ الْعَطَاءِ الزَّرَاعِيِّ إِذَا أَقْبَلَ، وَيَشْهَدُونَ أُمُثْلَتَهُ الْكَثِيرَةَ فِي الْوَاقِعِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا الْإِقْبَالُ فِي الْعَطَاءِ الزَّرَاعِيِّ قَدْ يَصِلُ بِعَمَلِيَّةٍ حِسَابِيَّةٍ سَهْلَةٍ إِلَى سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ، لِأَنَّ الْحَبَّةَ الْوَاحِدَةَ تَنْبِتُ سَبْعَ سَنَابِلٍ، وَالسُّنْبُلَةُ الْوَاحِدَةُ تَحْمِلُ مِئَةَ

حُبَّة، كانت إثارته لطمع الإنسان المزارع والتاجر بطبعه أعظم وأكثر، فأَيُّ إنسان لا يحبُّ الرِّيحَ؟. وأيُّ إنسان لا يطمعُ بفيوضِ الثروة؟

فالغرض من التمثيل في هذا النص، مع بيان حقيقة مضاعفة ثواب المنفقين في سبيل الله إلى أضعاف كثيرة جداً، إثارة محور الطمع بفضل الله في نفس المخاطبين، ليكون هذا الطمع مُحَرَّضاً ذاتياً في الأنفس على بذل الأموال في سبيل الله.

* * *

٢ - ويقول الله تعالى أيضاً في سورة (البقرة/ ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنْأً وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٦﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٦٧﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

في هذا النص إثارة لمحور الطمع للتحريض على البذل في سبيل الله، وإثارة لمحور الخوف من الخسارة للتحريض على البعد عن إبطال أثر الصدقة برذيلة المن والأذى، وإثارة لمحوري الطمع والخوف معاً للتحريض على الإخلاص لله وابتغاء مرضاته في بذل الصدقات، وللتحذير من مراءاة الناس وابتغاء الثناء والثواب منهم في بذل الصدقات.

لقد شبه الله الذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى بالذي يُنفق ماله رياء الناس ولا يُؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ثم ضرب مثلاً لهذا المرائي فكان في الحقيقة مثلاً له ولمن يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى نظراً إلى تشبيه هؤلاء به.

أما المثلُ فقد صَوَّرَ المنْفَقَ الذي ينفق ماله رثاء الناس، بزارعٍ على صخرةٍ صمَّاءٍ ملساءٍ، عليها طبقةٌ رقيقةٌ جدًّا من التراب، على قَدَرِ رياء المرائي.

قوله تعالى:

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾:

أي: فوصفه كوصف زارعٍ على صَفْوَانٍ عليه ترابٌ قليل.

الصَّفْوَانُ: الصَّخْرُ الأَمْلَسُ.

ثم ينزلُ غيثُ السماء الغزيرُ لإمداد الزَّرْعِ وإنباته، وهو مثلُ رحمة الله وجوده الشاملِ للبازِلين.

ولكنَّ الزارع على صفوانٍ لا يَمْلِكُ أرضاً سمينة تمتصُّ الغيث، وتُمدُّ منه الحبَّ المزروع. وكذلك قلبُ المرائي ونَفْسُهُ، ليس فيهما قابلية لامتناسص رحمة الله وثوابه.

والنتيجة التي تحصل أن يَجْرَفَ الغيثُ الكثيرُ الغِلالة التُّرابيَّة وما زرع فيها، ويظهرُ الصَّفْوَانُ على حقيقته صخرًا صلدًا أملس، وتظهر في المقابل نفس المرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر صمَّاءٍ ملساءٍ قاسيةً، ليس فيها لينٌ من رحمة، ولا رِقَّةً من إيمان، فَيَنْجَرِفُ عنها غيثُ رحمة الله، كما يَنْجَرِفُ الوابلُ عن الصَّفْوَانِ.

* * *

٣ - ثم يقول الله تعالى أيضاً في سورة (البقرة/ ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَاءَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٦٦﴾ أَيُودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

في هذا النصّ مثالان :

في الأول منهما إثارة لمحوّر الطّمع في الإنسان، للتحرّيش على الإخلاص لله، بابتغاء مرضاته والبذل في سبيله، حتى يكون الباعث ذاتياً من أنفسهم، بدافع من الإيمان بالله واليوم الآخر، ودافع من الرحمة وخلق الجود. في الثاني منهما إثارة لمحوّر الخوف في الإنسان، ليكون على حذر من إبطال الصدقات بالمن والأذى، وليكون لديه مُحَرِّض ذاتي يُبْعِدُهُ عَمَّا يَبْطُل صدقاته، فإِتِّبَاع الصدقة بالمن والأذى، بمثابة الإعصار ذي النار تُحْرِقُ الجنّات الخضِرَ المثمرات، مَعَ أَنَّ الباذِلَ أَمَامَهُ مُسْتَقْبَلٌ يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ.

أمّا المثل الأول فهو مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم، أي : تثبيتاً من أنفسهم لإيمانهم، وخلق الرحمة والجود فيهم. وقد ضرب الله لهؤلاء مثلاً بزراعٍ حَصِيفٍ زَرَعَ جَنَّةً كَثِيفَةَ الأشجار عَظِيمَتِهَا، بربوة^(١) مرتفعة من الأرض، سمينية التربة لا تَجْرِفُهَا السيول، أصابها وابلٌ من السماء، فَاتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ، عِلْماً بِأَنَّ أَكْلَهَا ثَرَوَةً عَظِيمَةً، وَأَضْعَافٌ مُضَاعَفَةٌ جَدّاً لَمَّا بُذِرَ فِيهَا، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ (وهو المطر الغزير) كفاها الطلّ (وهو المطر الخفيف).

وختم الله المثل بقوله : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، إلماحاً إلى واقع حال أنفس الباذلين، فمن الباذلين من يَسْتَحِقُّ قِيَضاً من رحمة الله ومضاعفة الأجر يُمَآئِلُهُ الوابل من المطر، ومن الباذلين من يَسْتَحِقُّ عَطَاءً يُمَآئِلُهُ الطلّ من المطر. فالوابل والطلّ صورتان لعطاء السّماء تُقَابِلَانِ التَّفَاوْتَ فِي ثَوَابِ الباذِلِينَ، إِذْ يُعَامِلُ اللَّهُ كُلَّ بَاذِلٍ عَلَى قَدَرِ عَمَلِهِ وَإِخْلَاصِهِ، فَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَسْتَحِقُّ وَابِلاً مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَجُودِهِ، وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَسْتَحِقُّ طَلّاً مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَجُودِهِ.

وأما المثل الثاني فهو مثل الذين يُبْطِلُونَ صَدَقَاتِهِمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى، وقد استشار الله به في الذين آمنوا رغبة المحافظة على ما غنموا من أجرٍ عظيمٍ، إذا هم أنفقوا

(١) الرِّبْوَةُ: الراية، وهي ما ارتفع من الأرض، فلا تجرف السيول تربتها.

في سبيل الله وابتغاء مَرْضَاتِهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ لِيُؤْمِنُوا بِهِ، وذلك بأن لا يأتوا إليه بما يَنْسِفُهُ وَيُتْلِفُهُ وَيُحْرِقُ ثَمَرَاتِهِ، ألا وهو إِعْصَارُ الْمَنِّ وَالْأَذَى، فالْمَنُّ والأَذَى بالنسبة إلى أجر الصدقات العظيم كالإِعْصَارِ النَّارِيِّ المحرق بالنسبة إلى جنة فيها أفضل الشجر وأَوْفَرُ الثمر. وفي عرض هذا المثل قال الله تعالى :

﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۖ﴾.

أي : لا تَتَّبِعُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى حَتَّى لَا يَكُونَ مِثْلُكُمْ كَمَثَلِ مَنْ عِنْدَهُ هَذِهِ الْجَنَّةُ ذَاتُ الشَّجَرِ الْكَثِيرِ، وَالثَّمَرِ الْوَفِيرِ، وَالْمَاءِ الْغَزِيرِ، وَلَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ مَا يَحِبُّ مِنَ الثَّمَرِ، وَقَدْ كَبُرَتْ سِنُهُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ يُرِيدُ أَنْ يَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ أَغْنِيَاءُ بِمَا يُورِثُهُمْ مِنْ هَذِهِ الْجَنَّةِ، حَتَّى إِذَا كَانَ وَضَعُهُ كَذَلِكَ فَاجَأَهُ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ، فَاحْرَقَ جَنَّتَهُ هَذِهِ، وَأَتْلَفَ كُلَّ شَيْءٍ فِيهَا. كذلك يفعل الْمَنُّ وَالْأَذَى فيما هو مُنْتَظَرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَجْرِ الصَّدَقَاتِ.

وَالْإِنْسَانُ يَحْتَاجُ فِي آخِرَتِهِ كُلَّ عَمَلٍ صَالِحٍ قَدَّمَهُ فِي دُنْيَاهُ، فَلَا يَأْتِ أَعْمَالُهُ الصَّالِحَاتِ الَّتِي قَدَّمَهَا بِمَا يُبْطِلُهَا وَيُلْغِيهَا، إِنَّ الْعَمَلَ الْقَلِيلَ الَّذِي يَرَاهُ فِي مَنْظَرِهِ قَلِيلاً، هُوَ كَزَرْعٍ قَلِيلٍ؛ إِلَّا أَنْ اللَّهَ يُنَمِّيهِ لَهُ وَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيراً، فإِبْطَالُهُ إِبْطَالٌ لِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ بِفَضْلِ اللَّهِ.

* * *

٤ - وَضَرَبَ اللَّهُ أَمْثِلَةً مُتَعَدِّدَةً مِنْ قِصَصِ الْأَوَّلِينَ أَبَانَ فِيهَا سُنَّتَهُ فِي مُعَامَلَةِ عِبَادِهِ وَمَجَازَاتِهِمْ بِالشَّوَابِ أَوْ بِالْعِقَابِ، لِيَحَرِّضَ طَمَعُ الطَّامِعِينَ بِفَضْلِهِ، حَتَّى يُؤْمِنُوا وَيُسَلِّمُوا وَيَعْمَلُوا صَالِحاً، وَلِيُثِيرَ خَوْفَ الْخَائِفِينَ مِنْ عَدْلِهِ، حَتَّى يَجْتَنِبُوا مَا يُسْخِطُهُ سَبْحَانَهُ مِنْ عَقِيدَةٍ أَوْ نِيَّةٍ أَوْ عَمَلٍ.

فَمِنْهَا مَا يَلِي :

(أ) مِثْلُ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ الَّتِي جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ، فَكَذَّبُوهُمْ وَهَدَدُوهُمْ بِالرَّجْمِ

إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَنْ إِرْشَادِهِمْ وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ، ثُمَّ جَاءَهُمْ مِنْ أَقْصَى مَدِينَتِهِمْ رَجُلٌ يَسْعَى، فَقَالَ لَهُمْ: يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ، اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ، فحَاكَمُوهُ عَلَى إِيْمَانِهِ بِرَسُولِ رَبِّهِ، فَأَعْلَنَ حُجَّتَهُ، وَأَبَانَ مَنْطِقَ إِيْمَانِهِ، ثُمَّ أَعْلَنَ تَحْدِيثَهُ لِقَوْمِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ، فَقَتَلُوهُ، فَكَانَ شَهِيدَ الْإِيْمَانِ وَالِدَعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَنَصْرَةِ الْحَقِّ بِالْحَقِّ، فَذَهَبَ إِلَى رَبِّهِ، فَقِيلَ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، إِشْعَارًا لَهُ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَالَ: يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ. وَأَمَّا أَهْلُ الْقَرْيَةِ مِنْ بَعْدِهِ فَلَمْ يَكُونُوا بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْزَالِ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ لِإِهْلَاكَهُمْ، إِنَّ هِيَ إِلَّا صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ صَوْتِ كَوْنِي مَمِيتٍ، فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ مَيْتُونَ.

قال الله تعالى في سورة (يس / ٣٦ مصحف / ٤١ نزول):

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطِيرُنَا بِكُمْ لَيْنَ لَمْ تَنْتَهُوا لَزَجْنَا جُحُومَكُمْ وَلِيَْمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفِقُونَ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُونَ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذَا لَفَى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنْ أَمِنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَحْضَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

إنَّه مثلٌ واقعيٌّ، وفي المثل الواقعيِّ عبرةٌ مُثيرةٌ للخوف من عقاب الله، ومحرِّكةٌ للطَّمَعِ بفضله، فالَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَهْلِكُوا فِي الدُّنْيَا بِالصَّيْحَةِ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ، وَالرُّجُلُ الْمُؤْمِنُ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَنَصَرَ رُسُلَ رَبِّهِ، وَاسْتَشْهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَغُفِرَ اللَّهُ لَهُ، وَجَعَلَهُ مِنَ الْمَكْرَمِينَ^(١).

ونلاحظ في عرض القصة أموراً مطويةً لم تذكر لفظاً، اعتماداً على أَنَّ النَظَرَ الذكيَّ يكشفها.

فمن المطويات ما جاء محذوفاً بين:

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُومُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ﴿٢١﴾.

وبين ما جاء بعده، وهو:

﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي...﴾ ﴿٢٢﴾.

والظاهر أَنَّ أهل القرية لما دعاهم هذا الرجل المؤمن منهم لاتباع الرُّسُلِ، اعتبروه صابئاً عن دينهم، وخارجاً عن ملَّتِهِمْ، فحاکموه، فقالوا له مثلاً: أتركت عبادة آلهتنا، وذهبتَ تعبدُ ما يدعو إليه هؤلاء الرُّسُلُ؟. فقال لهم: ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني...﴾ إلى آخر مقالته المملوءة بحجج الإيمان.

ولمَّا شَدُّوا عليه أعلنَ تحدِّيَهُ لهم، وإصراره على إيمانه بربهم خالقهم ورازقهم ومن بيده مقاليدُ أمورهم، لا بآلهتهم التي يعبدونها من دون الله، والتي

(١) ذكر بعض أهل التفسير أن اسم القرية التي جاءت في هذا النصِّ انطاكية، وانتقد ابن كثير هذا الرأي من وجوه قوية، وقيل: أسماء الرُّسُلِ الثلاثة «صادق وصدوق، وشلوم» وذكر المفسرون أن اسم الرجل المؤمن الذي نصرهم «حبيب النجار». ولا أرى لكلِّ هذه الأقوال سنداً يمكن الاعتماد عليه، من تاريخ مقبول، أو خبر صحيح عن رسول، على أنه لا يُهم معرفة ذلك، المهمُّ أَنَّ القصة وقعت، والمثلُ فيها كافٍ لعظة من آمن وعقل.

لا تغني شفاعتهم شيئاً، ولا ينقذونه من عذاب الله، فقال لهم منادياً بأعلى صوته ليسمع آخر الجمع من أهل قريته: إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون.

وبعد مقالة التحدي هذه كلام مطوي آخر، لم يصرح به النص للعلم به مما جاء وراءه، وهو ما يدل على أنهم حكموا عليه بالقتل فقتلوه، دل على هذا المطوي قول الله تعالى عقب حكايته لمقالة التحدي:

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

ويؤكد هذا أن النص الذي دل على إهلاك أهل القرية، أبان أن إهلاكهم بالصيحة قد كان من بعده، فقال تعالى:

﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ. إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

رحمة الله وبركاته على هذا المؤمن المجاهد الصابر الشهيد، قال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: «يا قوم اتبعوا المرسلين» وبعد مماته بقوله: «يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربِّي وجعلني من المكرمين».

ونتساءل: ما الذي جعل أهل القرية يقولون لرسولهم: «إنا تطيرنا بكم»؟

ويظهر لي في الجواب أنهم بسبب تكذيبهم لرسولهم أصيبوا بشيء مما يكرهون من قحط أو جوائح أو أمراض، وهو ما جرت به سنة الله قبل إنزال العقاب الشامل، لذلك تطيروا من رسولهم. فقال لهم رسولهم: طائرکم معکم، أي: أعمالکم هي سبب بلاكکم ومصائبکم، إِنْ ذُكِّرْتُمْ بِرَبِّكُمْ تطيرتم بنا وهددتمونا بالرجم والعذاب الأليم؟!

(ب) ومثل القرية التي قال الله في شأنها في سورة (النحل) / ١٦ مصحف /

٧٠ (نزل):

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ

مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ .

في هذا النصّ القرآني مثلٌ يحكي قصّة أصحاب قرية كانت آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان، فكفرت بأنعم الله، وكذّبت رسول ربّها، فبعث الله عليها جوعاً عاماً وخوفاً شاملاً كانا عليها كاللباس الشامل، عقوبة لها وإنذاراً، وعظةٌ وذكرى لمن شاء أن يتذكر.

أما المراد من هذه القرية فقد قال ابن عباس: إنّها مكة. كانت آمنة مطمئنة يُجَبّى لها ثمرات كلّ شيء، فكذب أهلها - وهم مشركو قريش - ومن تبعهم - رسول الله محمداً ﷺ، وكفروا بأنعم الله عليهم، فدعا الرسول ﷺ عليهم بسبعٍ من السنين شديدة كسبع يوسف، فذاقوا جوعاً شديداً، وقويت شوكة المسلمين في المدينة، فكانوا منهم في قلبي دائم، وخوفٍ من غزو مداهم.

وما قاله ابن عباس ذهب إليه مجاهد وقتادة والزهري ورجّحه ابن كثير.

والسياق يؤيد أنّ المقصود كفار قريش في عهد الرسول ﷺ.

ومثل الرجلين اللذين جعل الله لأحدهما جنتين من أعناب، وهو المثل الذي ذكره الله بقوله في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ ثَمَرًا ﴿٣٤﴾ وَأَعْرَضَ نِفَرًا ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَنَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ

دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنِّيًا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَا لَا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَى
رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾
أَوْ يُصْبِحُ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيط بِشَمْرِهِ فَاصْبِرْ يَقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ
فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةً يَنْصُرُونَهُ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ .

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ : أي : بستانين مليئين بالأشجار الكثيفة الساترة
بظللها ما تستر من أرضهما .

﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ : أي : وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين .

﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ : أي : ولم تنقص من أكلها شيئاً بل يأتي وافيّاً وافراً .

﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ : أي : وأقوى عشيرة وأصحاباً وأنصاراً . نفَرُ الرجل : عشيرته
وأصحابه وأعوانه الذين يدافعون عنه وينفرون معه إلى القتال إذا دعا الداعي .

﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ : أصلها لكن أنا هو الله ربِّي ، فحذفت همزة أنا
وألقيت حركتها على نون لكن فاجتمعت النونان فأدغمتا ، فصارتا نوناً واحدة
مشددة .

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ : الحُسْبَانُ : العذاب ، وهو على هذا
مصدر كالغفران . وقيل : الحسبان المرامي وهي الصواعق التي تنزل من السماء
فتدمر ما تقع عليه ، وعلى هذا فالحسبان جمع مفردة حُسْبَانَة .

﴿فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ : صعيداً : أي أرضاً ملساء لا شجر فيها ولا نبات .
زَلَقاً : أي لا تثبت عليها قدم بل تنزلق عنها .

﴿أَوْ يُصْبِحُ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ : أي : غائراً في الأرض . فالغورُ : مصدر وصف
به ، فهو بمعنى اسم الفاعل ، نحو رجل عدل ، أي عادل .

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾: أي: وهي خالية، لا ثمر فيها، لم يبق فيها إلا عيدان منبسطة على عروشها. عروش أشجار العنب: هي ما يُصنع من خشب ونحوه مرتفعاً عن الأرض لتمتد عليها قضبانها فتحمل أثقالها.

﴿هَٰئِلِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾: الْوَلَايَةُ بفتح الواو هي النصرَة والتولي. وبكسر الواو هي السلطان والملك^(١). وفي اللفظة قراءتان، والمعنى: هـالك النصرَة والتولي لله الحق، وهـالك السلطان والملك لله الحق.

واضح في هذا المثل أنه يشتمل على قصة رجلين سَلَفًا في الزمان الأول: أحدهما كان مؤمناً بالله واليوم الآخر، والآخر كان كافراً بربه مُنْكَرًا لليوم الآخر.

أما الكافر منهما فقد آتاه الله مَالاً وَخَدَمًا وولداً، وجعل له جَنَّتَيْنِ من أعناب، محفوفتين بنخل، بينهما زَرْعٌ، يَجْرِي خِلَالَهُمَا نَهْرٌ يَسْقِيهِمَا، تَوْتِيَانِ ثَمَرُهُمَا كاملاً غير ناقص.

وفي سنةٍ من سنوات الإنتاج الطيب، والثَّمَرُ على شجره بهيج، التقى الرجلان، فبدأ الكافر منهما يفتخر على المؤمن بكثرة ماله وأولاده وقُوَّةِ أعوانه، كأنه يدعو صاحبه إلى أن يَسْلُكَ مِثْلَ طريقته، ويَلُومُهُ على إيمانه، ويوحى له بأنَّ طريقة إيمانه أفقرته، ثم أخذ بيد صاحبه ودخل جَنَّتَهُ مفتوناً بِإِتْقَانِ زَرَاعَتِهَا وحمائيتها من الجوائح، وقال له: ما أَظُنُّ أن تبيدَ هذه أبداً، فهي محصنة بالأسوار، محصنة من الرياح الباردة بأشجار النخيل المحيطة بها، مخدومة أَحْسَنَ خِدْمَةٍ. وَتَمَادَى في غروره، فأعلن إنكاره للسَّاعَةِ، فقال: وما أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً. ثم تَمَادَى مَرَّةً ثَانِيَةً في غروره فزعم أَنَّهُ قد جاءه هذا الغنى لجِدَارَةٍ فيه، واستحقاقٍ ذاتي له، فقال: وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا.

أَيُّ: على الفرض والتقدير البعيد، إِنْ كَانَتْ تَوْجَدُ رَجْعَةً إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى، فَإِنَّ رَبِّي سَيُعْطِينِي جَنَّةً خَيْرًا مِنْ هَذِهِ الْجَنَّةِ، لِأَنِّي أَسْتَحِقُّ ذَلِكَ.

(١) كذا ذكر صاحب الكشف (عن الرازي).

أجابهُ صاحبه بأسلوب الاستفهام الإنكاريّ، المتضمّن أنّ ما ارتكبه من الظلم لنفسه أمرٌ عظيمٌ شنيعٌ، فقال له: أكفرتَ بالذي خلقك من ترابٍ ثمّ من نطفةٍ ثمّ سوّاك رجلاً؟! سواك رجلاً؟!

لقد أرشده في جوابه هذا إلى دلائل الإيمان، وذكّره بأصل نشأته، وأنّه كان تراباً، ثمّ كان نطفةً مهينةً، ولولا أنّ سوّاه الله رجلاً تامّ الصفات الإنسانية، لبقى تراباً أو نطفة مستقدرة.

وبعد هذا أعلن له عقيدته برّبّه، فقال له: لكنّا (أي لكن أنا) هو الله ربّي ولا أشرك برّبّي أحداً.

ثمّ نصحه بأن يذكر نعمة الله وفضله عليه، وبأنّه لولا مشيئة الله وإمداده له بالقوة لم تكن له جنةٌ، ولم تنبت له أشجار ولا ثمار، فقال له: ولولا إذ دخلت جنتك قلت: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. وفي هذا الذكر - الذي هو عقيدة المؤمن برّبّه في تصارييف الكون - تحصينٌ من عوارضِ السوء، واستجداءٌ لدوام إمداد الله، فالله هو الذي يدفع بمقاديره الجوائح، وهو الذي يمدّد بمقاديره بأسباب البقاء والنماء.

ثمّ وجّه نظره للدّار الآخرة، وما أعدّ الله للمؤمنين فيها من خيرٍ عظيمٍ وثوابٍ جزيل، وأبان له أنّ مكرّ الله غير مأمون، وأنّ معجّل عقابه في الدنيا ربّما يقع، وأنّ من معجّل عقابه أن يسلب النعمة التي كانت سببَ الفتنة.

وليُصرّف عنه أوهامه التي جعلته يقول: «ما أظنّ أن تبید هذه أبداً» ذكره بالمخاطر التي ربّما كان غافلاً عنها، وهذه المخاطر لا يملك التحصين منها، فلا مندوحة له من الإيمان بالله والالتجاء إليه والتوكل عليه، ليُدفع عنه عوارضِ البلاء: ومن هذه المخاطر أمطارٌ غزيرةٌ مُتلفّةٌ، وصواعقُ سماوية، ورياح عاتية تكسر الشجر وتتلّف الثمر وتجرف الجنة من أصولها، حتى تصبح صعيداً زلقاً، أي أرضاً لا تثبت عليها قدم، ولا ينبت فيها زرع. ومن هذه المخاطر أن يغور الله الماء في

الأرض، فلا يُبقي للجنة نهراً جارياً، ولا عيناً معينة، ولا مسرباً في باطن الأرض يمدّ بئراً، ومهما طلب الماء حفراً في الأرض فلن يستطيع الظفر به، لأن الله قد غوره. لذلك قال له: إن ترن أنا أقلّ منك مالاً وولداً فعسى ربّي أن يؤتيني خيراً من جنتك (أي في الدار الآخرة) ويُرسِلَ عليها (أي على جنتك) حُسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً، أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً.

وعاقب الله المغرور بجنتيه، الكافر برّبّه وباليوم الآخر؛ فأرسل عليهما ما أتلف ثمرهما، فأصبح يُقَلَّبُ كَفَّيْهِ حَسْرَةً وندماً على ما أنفق فيها، ويقول: يا ليتني لم أشرك بربّي أحداً، وَلَعَلَّهُ قَدْ كَانَ مِمَّنْ يُؤْمِنُ بِالْأَسْبَابِ وَلَا يُؤْمِنُ بِمُسَبِّهَا.

لقد أثرت فيه موعظة العقاب، بعد أن لم تؤثر فيه موعظة الخطاب. وهكذا نلاحظ في هذا المثل أنه يُشيرُ محورَ الخوفِ من عقاب الله لدى كلّ مَنْ تؤثر فيه العظات، وتَنفَعُهُ الذِّكْرَى.



(٥)

شرح الغرض الخامس وهو المدح أو الذم، والتعظيم أو التحقير

كثيراً ما نلاحظ في الأمثال أنها أسلوب بارع جداً لمدح من ضرب له المثل، أو ذمه، أو تعظيمه، أو تحقيره.

* * *

أمثلة:

١ - ما ضربه الله من مثل لأصحاب محمد ﷺ في التوراة والإنجيل، وذكره لنا في القرآن بقوله تعالى في سورة (الفتح / ٤٨ / مصحف / ١١١ نزول):
﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَرَجٍ أَخْرَجَ سَطْرَهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾: أي: وصفهم في التوراة.

من الظاهر أن الله تبارك وتعالى كما بشر بمحمد وأصحابه في التوراة والإنجيل بذكر صفاتهم، فقد مدحهم فيهما ببيان أوصافهم الرفيعة السامية.

فمثّلهم في التوراة جاء بذكر صفاتهم دون تشبيه.

ومثّلهم في الإنجيل جاء عن طريق تشبيههم بالزّرع الذي ينمو ويتعاضم بسرعة عجيبة.

فوصف أصحاب محمد ﷺ في التوراة قد اشتمل على ما يلي :

أولاً: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾: أي: هم شجعان أهل بأس وجهاد وجلاد، وتضحية وفداء، يقاتلون أعداء الله بقوة.

ثانياً: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾: أي: مجتمعهم مجتمع تأخٍ وتوادٍ وتعاونٍ وتراحم، كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسهر.

ثالثاً: ﴿تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَتَنَفَّسُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾: أي: هم عُبَادُ اللَّهِ مخلصون في عباداتهم له، إذ يتنفسون فضلاً من الله بالشواب الذي وَعَدَ به عباده المؤمنين الذين يعبدونه مُخلصين له الدين. ويتنفسون رضواناً من الله، لأنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ السَّعَادَةَ الْعَظْمَى تحصل لهم بالظفر برضوان الله. ولَمَّا كانوا من الذين يُكْثِرُونَ السُّجُودَ لِلَّهِ تَعَالَى وَيُطِيلُونَ مَدَّتَهُ كانت علامته ظاهرةً في وجوههم.

ومن هذه الصفات نستطيع أن نستخلص صفات المجتمع المثالي، فهو مجتمع مؤمن، عابد لربه، متراحم فيما بينه، مجاهد شجاع ضد أعداء الله.

أما وصف أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل، فقد تناول عن طريق التمثيل والتشبيه مظهر نماء الأمة الإسلامية وتكاثرها وتماسكها ووحدة كيانها، بدءاً من النواة الأولى لهذه الأمة، فالقلة المخلصة التي اجتمعت حولها، إلى التكاثر السريع، حتى أخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجا.

فمثلهم كزراع يبدأ نباتاً ضعيفاً، ثم يشتد شيئاً فشيئاً، ثم تنبت من جوانبه فرائحه وصغاره، ثم يقوى ويشتد عوده، ثم ينتشر في الأرض، عندئذ يعجب الزراع، وجاء في سورة «الحديد» تسمية الزراع باسم «الكفار»، فالكافر يُطْلَقُ في اللغة على الزارع، لأنه يكفر الحب في الأرض، أي: يستره.

ولما استكملت الصورة عناصرها في المثل، وحضرت صورة الممثل له في ذهن، كان المثل بمثابة الممثل له تماماً، فبنى النص على هذه الصورة الذهنية

التي أحضرها المثل، فقال الله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾، كأن الذي جاء قبلها هو: ومثلهم في الإنجيل يَبْدَوْنَ ضِعَافاً، ثم يتكاثرون وتقوى شوكتهم، ويتشرون في الأرض، ويشدُّ الله أَرْزَهُم، وينصُرُهُم على عَدُوِّهِمْ، ليغيظ بهم الكفار الذين كفروا به، ساترين أدلة التوحيد، وكفروا بالرسول وبما جاء به.

* * *

٢ - وضرب الله مثلاً للذين حُمِّلُوا التَّوْرَةَ من بني إسرائيل ثم لم يحملوها (أي: تعلَّموا الألفاظ وحفظوها، ثم لم يفهموا دلالاتها ولا عملوا بها، أو تعلموها وفهموا معانيها ولم يعملوا بها) بالحمار الذي يحمل على ظهره أسفار العلم، وهو لا يفقه ما فيها من دلالات، ولا يعمل بشيء منها، وظاهر أن الغرض من ضرب المثل لهم بهذا ذمُّهم بالجهالة المساوية لجهالة البهائم.

لقد كان من الممكن أن يُخْتَارَ في المثل بدلَ الحمار الجمل أو الحصان، فهما أيضاً لا يفقهان شيئاً ممَّا يُحْمَلُ على ظُهُورِهِمَا من أسفار العلم، لكنَّ التَّمثِيلَ بالحمار أبلغ في الذمِّ، لاشْتِهَارِ الْحِمَارِ عند الناس بالبلادة والغباء والجهالة المفرطة.

قال الله تعالى في سورة (الجمعة/ ٦٢ مصحف/ ١١٠ نزول):

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

* * *

٣ - ومن الشواهد التي يُلاحَظ أن الغرض من ضرب المثل فيها التعظيم، ضرب المثل للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، مع ما يَتَضَمَّنُ من أغراضٍ أخرى.

قال الله تعالى في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ

وَفَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوْقَى أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ .

وقد سبق شرح هذا النص .

* * *

٤ - ومن الشواهد التي يُلاحَظ أنَّ الغرض من ضرب المثل فيها التحقير، ما تكرر في القرآن من ضَرْبِ المثل لتحقير الحياة الدنيا، وتهوين شأنها وشأنِ لَدَاتِهَا ومتاعها، ولسرعة زوالها وفنائها؛ بِدَوْرَةٍ مِنْ دَوْرَاتِ الرَّبِّيعِ، وما يَظْهَرُ فيه من خُسْرَةٍ ونُضْرَةٍ، ولكنَّ سَرْعَانَ ما تَذْبُلُ وَتَصْفَرُ، ثُمَّ يَتَكَسَّرُ الزَّرْعُ وَيَتَحَطَّمُ، ثُمَّ يَزُولُ وَيَفْنَى، وَتَعُودُ الْأَرْضُ جَرْدَاءَ غِبْرَاءِ .

فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (الكهف / ١٨ مصحف / ٦٩ نزول):
﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْنِدًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا مَلَا ﴿٤٦﴾﴾ .

﴿هَشِيمًا﴾: الهَشِيمُ هُوَ النَّبْتُ الْيَابِسُ الْمُتَكَسِّرُ .

﴿تَذْرُوهُ﴾: تَنْسِفُهُ وَتَطْيِرُهُ .

وقول الله تعالى في سورة (يونس / ١٠ مصحف / ٥١ نزول):

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾ .

﴿دار السلام﴾: هي الجنة التي وعد المتقون.

وقول الله تعالى في سورة (الحديد / ٥٧ مصحف / ٩٤ نزول):

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي
الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿أعجب الكفار﴾: أي: أعجب الزُّرَّاع.

﴿ثُمَّ يَهِيْجُ﴾: أي: ثم يَيْسُ وَيَصْفَرُّ.

﴿ثم يكون حُطَمًا﴾: الحُطَام ما تكسَّر من الَيْس.

• • •

(٦)

شرح الغرض السادس

وهو شحذ ذهن المخاطب، وتحريك طاقاته الفكرية، أو استرضاء ذكائه، لتوجيه عنايته، حتى يتأمل ويتفكر ويصل إلى إدراك المراد عن طريق التفكير

هذا النوع من الأمثال يُخاطَبُ به الأذكياء وأهل التأمل والتفكير، ومعلوم أنَّ استخدام الأساليب الذكيَّة التي يحتاج إدراك المراد مِنْهَا إلى ذكاء، ممَّا يُرضي الأذكياء، ويحرِّك طاقاتهم الفكرية، ويُلَفِّتُ أَنْظَارَهُمْ بِقُوَّةٍ، ويدفعهم إلى توجِّيه عَنَائِتِهِمْ، لإدراك المراد بالتأمل وإمعان النظر.

ونظيرُهُ في آداب الناس ما يَضْرِبُونَهُ من أمثال في الأحاجي والألغاز، لِيَسْتَخْرِجَ الأذكياء المرادَ مِنْهَا، وليُقَاسَ بِهَا مقدار ذكاء المخاطبين أو سرعة انتباههم.

ومن الأمثال القرآنية التي قد تصلح شاهداً لهذا، قول الله تعالى في سورة (الحشر / ٥٩ مصحف / ١٠١ نزول):

﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِعًا مُّصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦١﴾﴾

إنَّ إنزال القرآن على جَبَلٍ من الجبال لَيَسَّ من خِبرَاتِ الناس، حتَّى يُضْرَبَ المَثَلُ به للإقناع أو للتقريب أو لغير ذلك من الأغراض التي سبق شرحها، لكنَّه مَثَلٌ يحرِّك في الأذكياء طاقاتهم الفكرية ويُوَجِّه عَنَائِتِهِمْ حتَّى يتَأَمَّلُوا ويتفكروا ويدْرُسُوا

ويتابعوا البحث، رجاء أن يصلوا إلى معارف يحلون بها لغز هذا المثل.

ويشير إلى هذا قول الله تعالى عَقَبَ ضَرْبَ المثل: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. فما جاء في المثل يحتاج إلى تفكير. وأشار إلى بُعد مدرك هذا النوع من الأمثال بقوله: ﴿وَتِلْكَ﴾ إذ من المعلوم أن هذه الإشارة تستعمل فيما هو بعيد حساً أو معنى أو منزلة.

ولدى التفكير في هذا المثل على مقدار أفهامنا يظهر لنا ما يلي:

أولاً: يوجد معنى قريب يدل عليه النصّ بجملته، وهو مطالبة المؤمنين بأن يقرؤوا القرآن ويستمعوا إلى آياته بخشوع وتدبر، حتى تهتزّ قلوبهم، وتتشعرّ جلودهم من خشية الله.

فمن خصائص هذا القرآن أن الله تعالى لو أنه أنزله على جبل في قسوته وكبر حجمه، لرأيته خاشعاً ساكناً متصدّعاً متكسراً من خشية الله، لما له من قوة تأثير جعلها الله فيه، عند إنزاله على شيء ما حياً.

ثانياً: وباستطاعتنا أن نتعمّق فنقول: إن القرآن كلام الله، وهو نور من نور الله، ونور الله إذا توجه لشيء ما في الوجود سواء أكان حياً أو جماداً خشع وتفجّرت منه الخشية على قدره، والشرط في هذا أن يكون مصحوباً بأنوار الإنزال الربّاني.

لذلك لما سأل موسى عليه السلام ربّه فقال: رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ، قال: إِنَّكَ لَنْ تَرَاني، ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تَرَاني، فلما تجلّى ربّه للجبل (أي كشف الحجب عن نور ذاته عز وجل) لم يقوَ الجبل على تحمّل مواجهة نور الله، فاندكّ بتأثير سطوة النور الربّاني، ورؤية موسى عليه السلام للجبل الذي تجلّى نور من نور الله له جعلته يخرّ صعباً لا حياة له، لأنّه لم يقوَ على تحمّل تجلّي النور الربّاني للجبل، فكيف به لو أنّه تجلّى له مباشرة؟!

بعد هذا نقول: لو أن نور القرآن أنزل على جبل لخشع وتصدّع من خشية الله ولرأى الراؤون أثر ذلك فيه.

وَيَذُلُّ عَلَىٰ هَذَا أَيْضاً قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الرعد / ١٣ مصحف /

٩٦ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوَكَلَّمُ بِهِ الْمَوْتَىٰ...﴾ (٣١)

أي: لكان هذا القرآن، إذ النور الرباني فيه يفعلُ الأعاجيب فتسير به الجبال عن أماكنها، وتُقطعُ به الأرض، ويُكلَّمُ به الموتى فتسمع وتُجيبُ.

ومن هذا تأثير الرقي القرآنية، كما ثبت ذلك في الصحيح من كلام الرسول، وفي التجارب.

ولكن ليس كل تالٍ للقرآن يُصاحِبُ تلاوته نور القرآن الرباني، ذلك لأنَّ رِبْطَ النُّورِ الرَّبَّانِيِّ بالألفاظ والحروف المجردة رِبْطٌ ضعيف لا دليل عليه، لكن نور القرآن يَتَفَجَّرُ على مقدار إيمان التالي لآياته، وعلى مقدار قُوَّةِ أسلاكه الروحية الموصولة بالله، فالنبيُّ عليه الصلاة والسلام يَتْلُو القرآن فيكون بتلاوته له نورٌ عَظِيمٌ، لو أذن الله له به أن يُسَيِّرَ الْجِبَالَ لَفَعَلَ، ومؤمنٌ ضعيفُ الإيمان يَتْلُو القرآن فلا يَتَفَجَّرُ من نور القرآن بتلاوته إِلَّا خَيْطٌ دقيق، أوردأذ من شعاعٍ يسير، وترتقي المراتب، وفي قمتها مرتبة النبي ﷺ.

وحين يَقْرَأُ الْقُرْآنَ إنسانٌ كافر بالله واليوم الآخر، لا يَتَفَجَّرُ من نور القرآن لَدَيْهِ شيء، لانقطاع صِلَتِهِ الرُّوحِيَّةِ الإيمانية بالله، فمن أين يستمدُّ النور.

إنَّ الألفاظ والحروف وحدهما إذا لم تكن موصولةً بالله عن طريق قلب المؤمن وروحه كانت عَدِيمة الأثر، والله أعلم.

وباستطاعتنا أن نفهم من قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحشر / ٥٩ مصحف /

١٠١ نزول):

﴿لَوْ أَنزَلْنَاهَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَشَعًا مُّتَصِدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ

الْأَمْثَلُ نُضْرٍ بِهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَنْفَكِّرُونَ﴾ (٥١)

وأشدَّ تحملاً لتلقِّي نور الله في القرآن منها، إذ كان يُنزل عليه الوحي بالقرآن
فيتحمَّل أنوار التنزيل العظمى، لكنه ﷺ كانت تظهر عليه علامات معاناة في
تحمله، وقد وصفت السيدة عائشة رضي الله عنها بعض حال الرسول عند نزول
الوحي فقالت: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فينقصم عنه،
وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

وورد أن راحلته كانت تبرك به إلى الأرض إذا نزل عليه الوحي وهو راكب،
ونزل عليه الوحي مرةً وفخذُه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت
ترضها.



(٧)

شرح الغرض السابع وهو تقديم أفكارٍ غزيرةٍ بعبارةٍ قصيرةٍ

إنَّ تقديمَ المَثَلِ لموضوعٍ من الموضوعات يُغني عن شرح هذا الموضوع بكلامٍ كثير، قَدْ يُكْتَبُ في صَفْحَاتٍ، وَقَدْ يُكْتَبُ في سِفْرِ كبير، وَقَدْ يُكْتَبُ في مُجَلَّدَاتٍ، وهو نظيرُ النماذجِ الَّتِي تُقَدَّمُ للأشياء بالوسائل التعليمية الَّتِي تُدْرِكُ بالحواسِّ الظَّاهِرَةَ.

فلو أراد المعلمُ شرحَ النموذجِ الحسِّيِّ بالكلامِ لاحتاجَ دُرُوساً عديدةً، وَلَمَّا وَصَلَ بَعْدَ الشرحِ الطويلِ في إِفْهَامِ تَلَامِيذِهِ إلى مِثْلِ ما يُدْرِكُونَهُ بِدَقَائِقِ مَعْدُودَاتٍ، حينَ يشاهدونَ النموذجَ الحسِّيَّ للشيءِ المرادِ التعريفَ به .
كَذلكَ قَدْ يُغْنِي المِثْلُ هَذَا الغِنَاءَ نَفْسَهُ، فيَقُومُ تقديمُ المِثْلِ مَقَامَ شرحِ طويلٍ جَدًّا.

* * *

أمثلة :

١ - إنَّ تشبيهَ الكافرِ بالأعمى يُغْنِي عن شرحِ طويلٍ يُفَصِّلُ فيه حَالَةَ الكَافِرِ في الحياةِ الدُّنْيَا، إِذْ يَتَخَبَّطُ عَلَى غيرِ هُدًى في كُلِّ تَصَرُّفَاتِهِ .
وَقَدْ جَاءَ هَذَا في نصوصٍ كثيرةٍ سَبَقَ شَرْحُ بعضها، وسيأتي إن شاء الله شرح بعضها الآخر .

* * *

٢ - وإنَّ وُصِفَ أَعْمَالُ الْكَافِرِ بِأَعْمَالِ السَّاعِي إِلَى سَرَابٍ، يُغْنِيكَ كَذَلِكَ عَنْ
شَرْحِ طَوِيلٍ يَصِفُ حَالَةَ الْكَافِرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا السَّاعِي إِلَى إِرْوَاءِ ظَمْئِهِ مِنْهَا، لَكِنَّهُ
لَا يَصِلُ إِلَى مَا يَرِيدُ، وَيَظَلُّ مُتَعَلِّقَ الْأَمَلِ بِمَا يَسْعَى إِلَيْهِ، حَتَّى يُذَكِّرَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ
عَلَى ذَلِكَ، وَيَرَى عِنْدَيْهِ حِسَابَهُ عِنْدَ رَبِّهِ عَلَى مَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.
وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْمَثَلُ فِي الْآيَتَيْنِ (٣٩ - ٤٠) مِنْ سُورَةِ (النُّورِ) وَسَيَأْتِي شَرْحُهُ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي خِصَائِصِ الْأَمْثَالِ.



(٨)

شرح الغرض الثامن وهو إيثار تغطية المقصود من العبارة بالمثل تأدباً في اللفظ واستحياء

قد يكون الموضوع المقصود التعبير عنه من الموضوعات التي يُستَحْيَا من التصريح بها، أو يُحَسَّنُ في أدب التعبير عدم التصريح بها، فيأتي استخدام المثل وسيلةً مُهذَّبةً للتعبير عن المراد.

ومن الأمثلة القرآنية على هذا الغرض قول الله عز وجل في سورة (البقرة) / ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (١٨٧)

فتمثيل الحالات الخاصة التي تكون بين الزوجين بأن كلا منهما لباس للآخر، أسلوبٌ مُحْتَشِمٌ مُهذَّبٌ للتعبير عن المراد. وسيأتي شرح هذا النص إن شاء الله.

ويمكن أن يكون من الأمثلة القرآنية على هذا الغرض قول الله عز وجل في سورة (القمر) / ٥٤ مصحف / ٣٧ نزول) في وصف المهلكين من عاد:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذِيرِ ﴾ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) ..

وقوله تعالى بشأنهم في سورة (الحاقة / ٦٩ مصحف / ٧٨ نزول):

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ﴿٧﴾

فوصف الله عز وجل المهلكين بالريح الصرصر العاتية من عاد قوم النبي هود عليه السلام، بأنهم يشبهون وهم هلكى أصول نخل منقلع من أرضه، وبانقلاعه يرتمي فتظهر أسافله ذوات المنظر القبيح، إن هذا يدل على أنهم منكفئون مرميون تبدو أسافلهم بصور قبيحة تشمئز منها النفوس، وتنفر منها الأعين.

وهذا أسلوب محتشم مهذب للتعبير عن المراد من ظهور أديارهم بصورها القبيحة التي انصب عليها سوط عذاب، وسيأتي إن شاء الله شرح هذين النصين.

• • •

(٩)

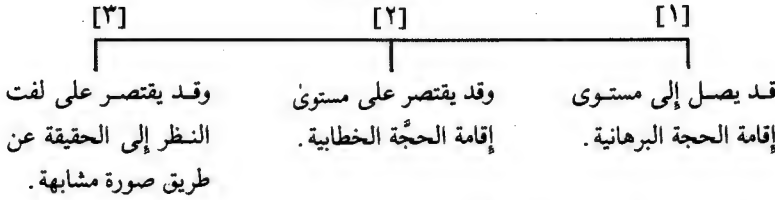
جدول أغراض ضرب الأمثال



← الغرض الأول: تقريب صورة الممثل له إلى ذهن المخاطب عن طريق المثل.

← الغرض الثاني: الإقناع بفكرة من الأفكار.

وهذا الإقناع



← الغرض الثالث: الترغيب أو التنفير.



← الغرض الرابع: إثارة محور الطمع أو الرغبة في الإنسان، أو إثارة محور الخوف
والحذر.

← الغرض الخامس: المدح أو الذم، والتعظيم أو التحقير.

← الغرض السادس: شحذ ذهن المخاطب، وتحريك طاقاته الفكرية، أو استرضاء
ذكائه، لتوجيه عنايته حتى يتأمل ويتفكر ويصل إلى إدراك المراد عن طريق التفكير.
وهذا النوع من الأمثال يُخاطَب به الأذكاء، وأهل التأمل والنظر والبحث العلمي،
وكبراء القوم.

← الغرض السابع: تقديم أفكار كثيرة، بعبارة قصيرة.

← الغرض الثامن: إثارة تغطية المقصود من العبارة بالممثل، تأدباً واستحياء.

الفصل الرابع

خصائص الأمثال القرآنية

خصائص الأمثال القرآنية

(١)

الخصائص

من تتبع الأمثال القرآنية نستطيع اكتشاف الخصائص التالية لها:

الأولى: دقة التصوير مع إبراز العناصر المهمة من الصورة التمثيلية.

الثانية: التصوير المتحرك الحي الناطق، ذو الأبعاد المكانية والزمانية، والذي تبرز فيه المشاعر النفسية والوجدانية والحركات الفكرية للعناصر الحية في الصورة.

الثالثة: صدق المماثلة بين المثل والممثل له.

الرابعة: التنويع في عرض الأمثال، مرةً بالتشبيه، ومرةً بالعرض المفاجيء، وبالتمثيل البسيط، وأخرى بالتمثيل المركب الذي يطابق كل جزء منه جزءاً من الممثل له، وأخرى بالتمثيل المركب الذي ينتزع منه وجه الشبه بنظرة كلية عامة، وغير ذلك من فنون القول وأساليبه.

الخامسة: البناء على المثل والحكم عليه كأنه عين الممثل له، على اعتبار أن المثل قد كان وسيلة لإحضار صورة الممثل له في ذهن المخاطب ونفسه، وإذ حضرت صورة الممثل له ولو تقديراً، فالبيان البليغ يستدعي تجاوز المثل، ومتابعة الكلام عن الممثل له، وتسقط صورة المثل لتبرز القضايا المقصودة.

السادسة: كثيراً ما يُحذف من المثل القرآني مقاطع من الصورة التمثيلية، اعتماداً على ذكاء أهل الاستنباط، إذ باستطاعتهم أن يتصوروا في أذهانهم كامل الصورة ويثموا ما حذف منها.

وعلى هذا فقد تُعَرَّضُ الصُّورَةُ التَّمثِيلِيَّةُ مِنْ وَسْطِهَا، أَوْ مِنْ مَشْهَدٍ آخِرٍ فِيهَا.
وقد يُحْذَفُ أَيْضاً مِنَ المُمَثِّلِ لَهُ مَقَاطِعٌ، فَتُعَرَّضُ مَثلاً بَدَايَاةَ، وَتُحْذَفُ
نَهَايَاةَ، أَوِ العَكْسَ، اعْتِمَاداً عَلَى أَنَّ المَثَلَ قَدْ ذُكِرَتْ فِيهِ الصُّورَةُ المِمَّاثِلَةُ لِمَا حُذِفَ
مِنَ المُمَثِّلِ لَهُ، فَيَدُلُّ المَعْرُوضُ فِي كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى المَحْذُوفِ مِنْ صَاحِبِهِ.

• • •

(٢)

الأمثلة

المثال الأول :

قال الله تعالى في سورة (هود/ ١١ مصحف / ٥٢ نزول) :

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَأَجْرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ .

﴿أَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ : أي : خَشَعُوا واطمأنَّتْ قلوبهم ونفوسهم إلى ربِّهم .

في هذا النص تمثيل الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله بالأعمى والأصم ، وتمثيل الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخْبَتُوا إلى ربِّهم بالبصير والسميع .

وذلك لأن الكافرين صَرَفُوا أَبْصَارَهُمْ عن رؤية آيات الله ، وتراكبت عليها غشاوة أهوائهم وشهواتهم ورغبات متاع الحياة الدنيا . وَصَرَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عن تفهم كلام الله وكلام رسوله ، وتراكبت عليها غشاوة أهوائهم وشهواتهم ورغبات الحياة الدنيا ، فكانوا بسبب ذلك كمن هو مُصَابٌ بالعمى والصمم .

أما الذين آمنوا فقد رأوا آيات الله فانتعفوا بها وآمنوا برَّبِّهم ، وتدبروا كلام الله

وكلام رسوله، ففهموا وانتفعوا واستجابوا، فمثّلهم بالنسبة إلى هذا القسم من المعارف الربانية كالبصير حديد البصر والسميع شديد السمع.

وقد كثر في القرآن تمثيل الكافرين بالعُمى الصّم، وتمثيل المؤمنين المهتدين بمن هو بصير سميع، وفي بعض النصوص لم يصرح باللفظ الذي يدل على التمثيل. وسيأتي إن شاء الله شرح النصوص الواردة حول هذا التمثيل.

تحليل المثل:

(أ) من الملاحظ في هذا المثل دقة التصوير، وصدق المماثلة بين المثل والمُمثّل له.

(ب) في هذا المثل تمثيل شيء معنويّ بشيء مَدْرَكٍ بالحسّ الظاهر.

* * *

المثال الثاني:

قال الله تعالى في سورة (إبراهيم / ١٤ مصحف / ٧٢ نزول):

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ
لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾

يُصَوِّرُ هذا المثل أَعْمَالَ الذين كَفَرُوا فِي مُقَاوَمَةِ رُسُلِ الله، ومُحَارَبَةِ دينه، تَجَاهَ نَصْرِ الله لِرُسُلِهِ وأوليائِهِ إِذَا شَاءَ، بِرَمَادٍ مُّجْتَمِعٍ لَا تَمَاسُكُ بَيْنَ ذَرَاتِهِ، وَهُوَ خَفِيفٌ لَا وَزْنَ لَهُ، فَاشْتَدَّتْ بِهِ رِيحٌ عَاتِيَةٌ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، فَانْفَتَتْ وَبَدَّدَتْهُ تَبْدِيداً.

فهل يَقْدِرُ صَاحِبُ الرَّمَادِ أَنْ يَجْمَعَ ذَرَاتَ رَمَادِهِ بَعْدَ أَنْ بَدَّدَتْهُ أَيْدِي الرِّيحِ الْعَاتِيَاتِ؟

كَذَلِكَ الذين كَفَرُوا تَغْدُو أَعْمَالُهُمُ الَّتِي أَعْدَوْهَا لِمُحَارَبَةِ رُسُلِ الله وَدِينِهِ أَمَامَ سُلْطَانِ نَصْرِ الله، مَثَلُ هَذَا الرَّمَادِ الَّذِي اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ. إِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ.

أَوَلَيْسَ ضَلَالُهُمْ فِي مُحَارَبَةِ دِينِ اللَّهِ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ؟

بلى : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ .

من الواضح في هذا المثل دَقَّةُ التَّصْوِيرِ المتحرك، مع صدق المماثلة بين المثل والممثل له .

* * *

المثال الثالث :

قال الله تعالى في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) :

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٧١) .

﴿ يَنْعِقُ ﴾ : أي : يصيح في الغنم ، والنَّعِيقُ : هو صياح الراعي في غنمه .

هذا مَثَلٌ لصنف من الكافرين ، وهم الذين رفضوا أن يستجيبوا لدعوة الإيمان ، لأنهم صَمُّوا على أن لا يؤمنوا ، واختاروا بكمال إراداتهم سُبُل الكفر على سبيل الإيمان .

وهم الذين قال الله بشأنهم في أوائل سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٧) .

هؤلاء قَسَمٌ من الكفار ، كفروا عن تَصْمِيمِ عَلَى رفض الإيمان ، وإرادة جازمة لهذا الرفض ، بعد وضوح دلائل الإيمان لهم ، ولم يكفروا عن جهلٍ أو غفلة ، أو انشغال بالشهوات . لذلك فَإِنَّ عَقْدَةَ هذا القسم من الناس تعمل في أعماقهم ، ومن كانت عَقْدَةُ كُفْرِهِ في أعماق نفسه ، كانت النتيجة الطَّبِيعِيَّةُ التي تقضي بها سُنَّةُ اللَّهِ في خلقه أن يَخْتِمَ على قلبه فلا يقبل الهداية ، وأن يكون على سَمْعِهِ غشاوة

لا تسمح بانتقال أقوال الهداية إلى مراكز إدراكه الواعي، وأن يَكُونَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةٌ لا تسمح بانتقال مراثيات الهداية إلى مراكز وعيه، فسواء أُنذِرْتَهُ أم لم تُنذِرْهُ، إِنَّهُ لا يؤمن، لأنه لا يريد أن يؤمن.

فإذا استوى لدى هذا القسم من الكافرين الإنذار وعدمه، ودعوتهم إلى الهداية وعدم دعوتهم، لأنهم أرادوا أن لا يؤمنوا، وصَمَمُوا على ذلك، فإنَّ باستطاعتنا أن نُثَلِّلَ مَنْ يدعُوهم بمن يدعو الجدار ويخاطبه، وأن نُثَلِّلَ مَنْ يُنذِرُهُمْ بمن يُنذِرُ الحجارة التي لا تستجيب لداعيها أو منذرها.

لكنَّ الجُدُرَ أو الحجارة لا تَسْمَعُ شيئاً وهم يَسْمَعُونَ، إلاَّ أنَّ ما يَسْمَعُونَهُ لا يَنفُذُ إلى مراكز وعيهم الذي يؤثر فيهم، فلا يَهْزُهُمْ بطمع ولا بخوف. إذن فأَحْسَنُ تمثيل لهم أن نُثَلِّلَهُم بالأنعام، وأن نُثَلِّلَ مَنْ يدعُوهم إلى الهدى ويُنذِرُهُمْ عاقبة كفرهم بخطيب يقف في قطيع من الغنم، فيخْطُبُ فيه خطبةً بليغة، إنَّ هذا هو التمثيل الملائم المطابق لَصُورَةِ الممثل له والمراعى فيه دقة التصوير، وهو ما جاء في المثل القرآني.

فَمَثَلُ مَنْ يدعو الذين كفروا مِمَّنْ استوى لديهم الإنذار وعدمه، كَمَثَلِ مَنْ يخاطب بصوته العالي قطعياً من الغنم، فلا يَسْمَعُ القطيع منه إلاَّ دُعَاءً ونداءً، لأنه لا يفهم ولا يعي الكلام الذي يخاطب به، ولا يدرك دلالاته، وهؤلاء كذلك، لأنَّ سمعهم الواعي عليه غِشَاوَةٌ من عُقْدَةٍ كُفْرِهِمْ، ومِثْلُ سمعهم سائر حواسهم، لذلك فهم بالنسبة إلى دَعْوَةِ الإيمان وآياته صُمُّ بُكْمٍ عُمِّيٍّ فهم لا يعقلون.

وهكذا وَضَحَتْ لنا دِقَّةُ التَّصْوِيرِ، وَوَضَحَتْ لنا أيضاً في الصورة التمثيلية الحركة الحَيَّةُ الناطقة، إذ بَدَأَ فيها نَاعِقٌ يخْطُبُ في قطيع من الغنم، والقطيع يَمْوُجُ بعضُهُ في بعض، وهو لا يَدْرِي من كلامِ الناعق الخطيب شيئاً، ونَفْسُ الخطيب تَمَرِّقُ بمشاعر الخيبة، وَعَدَمِ جَدْوَى عَمَلِهِ.

وفي هذا المثل إلماح للدعاة بأن لا يوجَّهوا اهتمامهم الكبير لهذا الصنف الميؤوس من إيمانه، إذ استوى عنده الإنذار وعدمه.

* * *

المثال الرابع :

قال الله تعالى في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول) :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٣٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿فيها صِرٌّ﴾ : أي : فيها بردٌ شديد.

أبان هذا النصُّ أنَّ الذين كفروا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُم التي يبذلونها في إعدادِ الْعُدَّةِ لِمُحَارَبَةِ دِينِ اللَّهِ ، وإقامة الحصون ، واستخدام الجنود ، ولن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أولادهم الذين يعينونهم في ذلك ، مِنْ بَأْسِ اللَّهِ شَيْئًا إذا أراد الله إنزال بَأْسِهِ وعقابه فيهم .

ثُمَّ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لَخِيَةِ أَعْمَالِهِمْ بقوم بذلوا أَمْوَالَهُمْ وَوَجَّهُوا أَعْوَانَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ لاستثمار أرضٍ في الزَّرْعَةِ ، فنبت الزَّرْعُ ونما ، ودَنَا وَقْتُ حَصَادِهِ والانتفاع به ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِيحًا بَارِدَةً فَأَهْلَكَتْهُ ، وَكَانَ ذَلِكَ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ .

فالممثل له ما يُنْفِقُونَ من أموال في هذه الحياة الدنيا لتدعيم قضايا الكفر ، وتهديم قضايا الإيمان ، وعاقبة ما ينفقون إذا أراد الله إفساد أعمالهم ، وإنزال بَأْسِهِ فيهم ، ونصرة أوليائه الصادقين عليهم ^(١) .

(١) يرى جمهور المفسرين أن مثل العاقبة الأخروية لما ينفق الكافرون في الحياة الدنيا ، كالزرع الذي تهلكه الريح الباردة ، فلا تبقي منه شيئاً ، وكذلك الكافرون لا يستفيدون من أعمالهم شيئاً يوم القيامة ، ولو كانت في الخيرات والصالحات ، لأنَّ كفرهم بالله يحبطها ويبطلها ، إلاَّ أنني أرجح أنَّ المراد خيبة أعمالهم في الدنيا لمحاربة الله ورسله وأوليائه ، ما وُجِدَ لدين الله أنصار مخلصون مطبقون لشريعته ، فالسَّبَّاق والسَّيَاق يدلُّ على هذا .

وَالْمَثَلُ هُوَ الزَّرْعُ الَّذِي أَهْلَكَتْهُ الرِّيحُ الباردة، وهذا الزرع لقومِ ظَلَمُوا
أنفسهم فعاقبهم الله بإهلاك زَرْعِهِمْ.

ثُمَّ تَحَدَّثَتْ الْآيَاتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ الشُّرُوطِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
أَنْ يَسْتَوْفَوْهَا حَتَّى يُؤَيِّدَهُمُ اللَّهُ بِنَصْرِهِ، وَيُبْطِلَ أَعْمَالَ أَعْدَائِهِمْ.

وَمِنْ هَذِهِ الشُّرُوطِ أَنْ لَا يَتَّخِذَ الْمُؤْمِنُونَ بَطَانَةً مِنْ دُونِهِمْ، وَمِنْهَا التَّزَامُ طَاعَةِ
الْقِيَادَةِ، وَعَدَمُ التَّأَثُّرِ بِمَطَامِعِ الدُّنْيَا.

ثُمَّ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلَيْنِ وَاقَعَيْنِ:

الأول: معركةُ أحد، وكيف تحوَّلت رِيَّاحُ النَّصْرِ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ، بِسَبَبِ
إِخْلَالِهِمْ بِالشُّرُوطِ الَّتِي يَتَوَقَّفُ التَّأْيِيدُ الرَّبَّانِيُّ الْكَامِلُ عَلَى اسْتِيفَاتِهَا.

الثاني: معركةُ بدرٍ، وكيف نصرَ الله المؤمنين، وهَزَمَ أَعْدَاءَهُمْ، هَزِيمَةً
مَنْكَرَةً، مَعَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا قَلِيلِينَ جَدًّا عُدَّةً وَعَدَدًا، بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَدُوِّهِمُ الْمُتَفَوِّقِ
عَلَيْهِمْ كَثِيرًا مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَادِيَةِ، وَلَكِنْ لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ نَصَرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ تُغْنِ أَمْوَالُ
الْكَافِرِينَ وَلَا جُمُوعُهُمْ عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا.

فَالنَّصْرُ يَدُورُ حَوْلَ بَيَانِ إِبْطَالِ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا لِأَعْمَالِ الْكَافِرِينَ وَإِعْدَادَاتِهِمُ الَّتِي
يَقْصِدُونَ مِنْهَا مُحَارَبَةَ دِينِ اللَّهِ، وَمُحَارَبَةَ جُنْدِهِ الْمُخْلِصِينَ الْمُطَبِّقِينَ لِشَرِيعَتِهِ،
تَحْقِيقًا لَوَعْدِهِ بِنَصْرِ أَوْلِيَائِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ.

وَالنَّصْرُ يُطْمِئِنُّ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جِهَةِ، وَيُلَوِّحُ لِلْكَافِرِينَ مُهَدِّدًا بِإِفْسَادِ
إِعْدَادِهِمْ وَتَدْمِيرِ مَا يَجْمَعُونَ لِمُحَارَبَةِ دِينِ اللَّهِ، وَمُحَارَبَةِ أَوْلِيَائِهِ، كَمَا يَبْعَثُ رِيحًا
بَارِدَةً عَلَى حَرْثِ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَتَهْلِكُهُ.

تحليل المثل:

(أ) يلاحظ أنه لم يعرض من صورة الممثل له إِلَّا مَقْطَعٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ:
«مَا يَنْفِقُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا».

وهذا المقطع يَسْتَلْزِمُ ماوراءه حَتَّى التَّيْجَةِ، فهو المقطع الأول من صورة الممثل له.

(ب) وَيُلَاحِظُ فِي صُورَةِ الْمَثَلِ أَنَّهُ قَدْ حُذِفَ مِنْهَا الْمَقْطَعُ الْأَوَّلُ، وَعُضِرَ الْمَقْطَعُ الْأَخِيرُ، وَالْمَقْطَعُ الْأَوَّلُ الْمَحْذُوفُ هُوَ: قَوْمٌ حَرَثُوا أَرْضاً وَزَرَعُوهَا، فَأَنْبَتَتْ لَهُمْ نَبَاتاً حَسِناً، وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يَجْمَعُوا نَتَاجَهَا. وَالْمَقْطَعُ الْأَخِيرُ الْمَذْكُورُ هُوَ: رِيحٌ فِيهَا بَرْدٌ شَدِيدٌ، أَصَابَتْ الْحَرْثَ فَأَهْلَكَتْهُ.

(ج) وَلَمَّا قَامَتِ صُورَةُ الْمَثَلِ مَقَامَ صُورَةِ الْمُمَثِّلِ لَهُ، جَاءَ الْبِنَاءُ عَلَى الْمَثَلِ وَالْحُكْمُ عَلَيْهِ كَأَنَّهُ عَيْنُ الْمُمَثِّلِ لَهُ، فَقَالَ تَعَالَى عَقِبَ ذَلِكَ مُبَاشَرَةً:

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وقد يقال: هذا البناء صَالِحٌ لِلْمَثَلِ وَالْمُمَثِّلِ لَهُ معاً.

(د) مِنَ الدَّقَّةِ فِي التَّعْبِيرِ مَا نُلَاحِظُهُ مِنَ الْقَيْدِ فِي الْمَثَلِ، الَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ إِهْلَاكَ الزَّرْعِ بِالرِّيحِ الْبَارِدَةِ إِنَّمَا جَاءَ لِحَرْثِ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَلَمْ يَأْتِ لِحَرْثِ قَوْمٍ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَمْتَحِنَهُمْ بِالْمُصِيبَةِ، وَهَذَا الْقَيْدُ يُتِمُّ التَّطَابُقَ فِي عُنَاوَرِ التَّمَاثُلِ بَيْنَ الْمَثَلِ وَالْمُمَثِّلِ لَهُ.

* * *

المشال الخامس:

قال الله تعالى في سورة (الرعد / ١٣ مصحف / ٩٦ نزول):

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرْدٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٧﴾﴾.

﴿أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾: أي: وَدِيَانٌ بِقَدَرِ اسْتِيعَابِ كُلِّ مِنْهَا.

﴿زَبَدًا رَابِيًا﴾: أي: الزَّبْدُ مَا يَحْتَمِلُهُ السَّيْلُ مِنْ شَوَائِبِ. رَابِيًا: نَامِيًا.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ : أي : المعادن وأشباهاها .
 ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾ : الحلية : اسمٌ لكلِّ ما يُتَرَيَّنُ به من مَصَاغِرِ الذهب والفضة . والمَتَاعُ : ما يُتَنَفَّعُ به في البيوت من آنية وأوعية .
 ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ : أي : يَضْرِبُ مَثَلَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ .
 ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ : أي : يَذْهَبُ مُضْمَحِلاً مُتَلَاشِياً لَا مُنْفَعَةَ فِيهِ وَلَا بَقَاءَ لَهُ .

تحليل المثل :

لقد سبق شرح هذا المثل ، ولدى تحليله هنا نلاحظ ما يلي :

(أ) دِقَّةُ التَّصْوِيرِ ، وَصِدْقُ الْمُمَاطَلَةِ بَيْنَ الْمَثَلِ وَالْمُمَثَّلِ لَهُ .

(ب) العَرَضُ الْمَفَاجِئُ لِلْمَثَلِ دُونَ سَابِقِ تَنْبِيهِ عَلَيْهِ .

(ج) التَّصْوِيرُ الْمُتَحَرِّكُ . وَالْجَمْعُ بَيْنَ مَثَلَيْنِ : أَحَدُهُمَا لِأَهْلِ الْبَوَادِي والثَّانِي لِأَهْلِ الصَّنَاعَاتِ .

(د) حَذْفُ مَا يُمَكِّنُ اسْتِبْطَاطَهُ مِنْ صُورَةِ الْمُمَثَّلِ لَهُ . وَإِبْرَازُ الْمُهِّمِّ مِنْ صُورَةِ المثل .

* * *

المثال السادس :

قال الله تعالى في سورة (النور / ٢٤ مصحف / ١٠٢ نزول) :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ تُونُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ .

لقد وصف الله نفسه بأنه نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَرَجَّحَ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ

التفسير أن المعنى : الله هادي أهل السموات والأرض ، بما أعطاهم من نور يُدركون به المعارف ، وبما أنزل عليهم من آيات مُبينات هي النور.

وقد وصف الله القرآن بأنه نور، فقال الله تعالى في سورة (النساء/

٤ مصحف / ٩٢ نزول):

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَ كُمْ بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿٧٤﴾﴾

وهو القرآن .

وقال الله تعالى في سورة (الشورى / ٤٢ مصحف / ٦٢ نزول):

﴿وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾

وقال الله تعالى في سورة (المائدة / ٥ مصحف / ١١٢ نزول):

﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ - وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

ويؤيد تفسير: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بأنه هادي أهل السموات والأرض ، ما جاء قبل الآية ، وهو قول الله تعالى :

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

أي : أنزل الله هذه الآيات من أجل هدايتكم ، فالْمَصْدَرُ الوحيد للهداية

هو الله، إذ هُوَ نُورُ السماوات والأرض، أي هَادِي مَنْ فِيهِمَا، وَاسْتَفِيدَ الحَصْرُ من اللُّزُومِ العقلي. وَمِنْ هِدَايَتِهِ لَكُمْ أَنْ أَنْزَلَ لَكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ هِيَ نُورٌ لَكُمْ، لعقولكم وقلوبكم ولأرواحكم.

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾: أي: مَثَلُ مَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ نُورٍ لِهِدَايَتِكُمْ فِي آيَاتِ كِتَابِهِ وَبَيَانَاتِ شَرِيعَتِهِ.

فهذا النور هو ما ضَرَبَ الله لَهُ المَثَلَ بقوله:

﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ...﴾.

إلى آخر صُورَةِ المَثَلِ.

وهذا هو الذي يَتَنَاسَبُ مَعَ سَوَابِقِ الْآيَةِ وَلَوَاجِحِهَا، وقد ذكره بعضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ، وهو الذي تَرَجَّحَ لَدَيْ، والله أعلم.

لَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ المَثَلَ لِنُورِ الْقُرْآنِ المَعْنَوِيِّ بِمِصْبَاحٍ أَرَضِيَّ مِنْ صُنْعِ النَّاسِ: ذِي نُورٍ صَافٍ مِنْ آيَةٍ شَائِبَةٍ، وهذا النور يتلألُ كَالْكَوْكَبِ الدَّرِّيِّ، وَالْقُرْآنُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى سَائِرِ كَلَامِ اللَّهِ كَقَطْرَةٍ مِنْ بَحْرٍ، وكذلك نُورُ المِصْبَاحِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى سَائِرِ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ نُورٍ فِي الْكَوْنِ الْكَبِيرِ.

وبهذا نلاحظ انطباقَ عُنْصُرٍ مِنْ عُنَاوِرِ خِصَائِصِ الْأَمْثَالِ الْقُرْآنِيَّةِ، وهو صِدْقُ المِمَّاثِلَةِ بَيْنِ المَثَلِ وَالمُمَثَّلِ لَهُ.

وصدق المِمَّاثِلَةُ يَظْهَرُ أَيْضاً فِي الصِّفَاءِ التَّامِّ الَّذِي وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نُورَ المِصْبَاحِ، وَالزَّيْتِ الَّذِي يُمِدُّهُ، وَالزُّجَاجَةَ الَّتِي تَنْشُرُهُ حَتَّى كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ، أَيْ يُشَبِّهُ الدَّرَّ فِي صِفَاتِهِ وَلَوْنِ نُورِهِ، وَأَهْدَأُ النُّورِ وَأَجْمَلُهُ هُوَ ذُو اللَّوْنِ الدَّرِّيِّ.

ومن البديع في صورة هذا المَثَلِ مَا جَاءَ فِيهَا مِنْ رِسْمٍ كَامِلٍ بِلَوْحَةٍ كَلَامِيَّةٍ رَاضِيَةٍ:

(أ) لَقَدْ بَدَأَتْ بِرِسْمِ مَكَانِ المِصْبَاحِ، وَهِيَ المِشْكَاةُ (وَهِيَ كُوَّةٌ فِي الْجِدَارِ غَيْرِ نَافِذَةٍ يَوْضَعُ فِيهَا المِصْبَاحُ).

(ب) ثُمَّ رَسَمَتْ زُجَاجَتَهُ الدَّرِّيَّةَ الْمُشَعَّةَ.

(ج) ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِحَرَكَةٍ سَرِيعَةٍ جَدًّا، فَعَرَضَتْ مَشْهَدَ الشَّجَرَةِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي تُمِدُّ الْمَصْبَاحَ بِالزَّيْتِ الصَّافِي، فَهِيَ نَابِتَةٌ فِي أَرْضٍ وَاسِعَةٍ لَا تُحْجَبُ عَنْهَا الشَّمْسُ عِنْدَ الشَّرُوقِ، وَلَا تُحْجَبُ عَنْهَا الشَّمْسُ عِنْدَ الْغُرُوبِ، فَهِيَ لَا شَرْقِيَّةَ تَحْجُبُهَا جِبَالُ الْوَادِي الْوَاقِعَةِ فِي شَرْقِهِ، وَلَا غَرْبِيَّةَ تَحْجُبُهَا جِبَالُ الْوَادِي الْوَاقِعَةِ فِي غَرْبِهِ، وَيَسَبِّبُ ذَلِكَ تَكُونُ الشَّجَرَةِ خَضِرَةً نَضِرَةً، صَافِيَةً الزَّيْتِ.

(د) ثُمَّ رَسَمَتْ صُورَةَ الزَّيْتِ، فَأَبَانَتْ أَنَّهُ مِنْ شِدَّةِ صَفَائِهِ يَكَادُ يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمَسُّهُ نَارٌ، وَصَفَاءُ الزَّيْتِ مِنَ الشُّوَابِّ يُعْطِي نُورًا صَافِيًا خَالِيًا مِنْ شَوَابِّ الظُّلْمَةِ..

وكذلك نور آيات الله وكلماته.

(هـ) وَتَرَكْتَ الصُّورَةَ التَّمثِيلِيَّةَ لِلخِيَالِ أَنْ يَسْتَكْمِلَ بِنَفْسِهِ مَشَاهِدَ أَخَذِ الزَّيْتُونَ بَعْدَ صَلَاحِهِ، وَعَصْرِهِ فِي مَعَاصِرِهِ، وَاسْتِخْلَاصِ الزَّيْتِ مِنْهُ. وَقَدِّمْتَ مَشْهَدَ الزَّيْتِ الصَّافِي الْمَتْلَاعِ، الَّذِي يَكَادُ يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمَسُّهُ نَارٌ.

(و) وَلَمَّا اجْتَمَعَ صَفَاءُ الزَّيْتِ، وَصَفَاءُ نُورِ الْمِصْبَاحِ، وَصَفَاءُ الزُّجَاجَةِ الدَّرِّيَّةِ الْمُشَعَّةِ، الَّتِي تَزِيدُ النُّورَ وَتُضَاعِفُهُ بِانْعِكَاسَاتِهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾.

وهنا نلاحظ أن الممدد بالزيت بالغ درجة كماله. والزيت بالغ درجة كماله. والمصباح بالغ درجة الكمال في جوهره، والقدر المناسب في نسبته. والزجاجة بالغة درجة كمالها في جوهرها ودريتها. أما المشكاة التي هي الكوة التي فيها المصباح فهي المكان الأنسب لوضع المصابيح التي من هذا النوع.

فَاللُّوْحَةُ التَّمثِيلِيَّةُ قَدْ اسْتَكْمَلَتْ كُلَّ عُنَاصِرِهَا بِدَقَّةٍ تَامَّةٍ، وَهَذَا يَكْشِفُ لَنَا انْطِبَاقَ عُنْصُرٍ آخَرَ مِنْ عُنَاصِرِ خُصَائِصِ الْأَمْثَالِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَهُوَ دَقَّةُ التَّصْوِيرِ مَعَ إِبْرَازِ الْعُنَاصِرِ الْمَهْمَةِ مِنَ الصُّورَةِ التَّمثِيلِيَّةِ، يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ بَعْضُ الْأَبْعَادِ الْمَكَانِيَّةِ

والزمانية. فما أنزل الله من هداية قد جاء من مصدر كامل، وجاء مددّه كاملاً، وظهر نوره لأهل الأفهام السليمة صافياً، وقد وُضع ضَمَنَ كلامٍ بليغٍ واصلٍ إلى درجة الكمال، مُشِعٌّ بالنور من كماله، وقد وضع في المكان المناسب له، إذ أنزل على العَرَبِ وبلغَتهم الدقِيقَةُ، أو وُضِعَ في قلب المؤمن يهديه وينير له السبيل.

(ز) ولما انتهت صورة المثل قال الله تعالى :

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

وبهذا ينكشف عنصر آخر من عناصر خصائص الأمثال القرآنية، ألا وهو البناء على المثل والحُكْمُ عليه كأنه عينُ الممثل له، وعلى اعتِبار أن المثل كَانَ وَسِيلَةً لإحضار صُورَةِ الممثل له في ذهن المخاطب ونفسه. وعندئذ طُويت صورة المثل، وبرزت توابِعُ الممثل له فجأة، وكأن معنى التمثيل تلاشى،، وظهرت حقيقة الممثل له ظهوراً تاماً، فَحَسُنَ استغلالُ المشاعر النفسية لترتيب النتيجة المقصودة بالذات، فقال الله تعالى :

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

فمن استجاب لدعوة الإيمان، وتدبَّرَ آياتِ الله بصدق، وكان من طُلَّابِ المعرفة، ظهرت له أنوارُ المعرفة الربَّانية من كتابه.

(ح) ومن البديع في اللوحة التمثيلية أنها أتمَّت الصُّورَةَ فرَسَمَتِ البُيُوتَ التي توضع فيها هذه المصابيح، ورَسَمَتِ مَنْ في هذه البيوت من الناس. أما البيوت فهي بيوتُ العبادة لله تعالى، التي أذنَ اللهُ أن تُرفعَ ويُذكرَ فيها اسمه. وأما مَنْ فيها فهم رجالٌ يُسَبِّحُونَ الله فيها بالغدو والآصال، لا تُلْهِيهِمْ تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تَتَقَلَّبُ فيه القلوب والأبصار، ليجزيهم الله أحسنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ.

ومن الرائع في هذه التتمة أن المنتفعين بمصباح المثل هم الذين يَتَنَفَّعون بما أنزل الله مِنْ نُورٍ في كتابه وآياته، إِنَّهُمْ أَهْلُ بُيُوتِ الله والذِّكْرِ والصَّلَاةِ والزكاة،

وَهُمْ طُلَّابُ الْآخِرَةِ وَالثَّوَابِ الْجَزِيلِ عِنْدَ اللَّهِ. فَمَثَلُ آيَاتِهِ لَهُمْ كَمَثَلِ الْمَصْبَاحِ الَّذِي وُصِفَ لَهُمْ إِذَا كَانَ فِي بَيْوتِ عِبَادَتِهِمْ لِرَبِّهِمْ. وَقَدْ جَاءَ الْمَثَلُ كَذَلِكَ لِيَكُونَ ذَا مَضْمُونٍ تَوْجِيهِي يَجْمَعُ تَصَوُّرَاتِ الْمَخَاطَبِ فِي دَائِرَةِ مَا ضُرِبَ لَهُ الْمَثَلُ.

* * *

المثال السابع :

وقال الله تعالى في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُمْ فَوْقَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٦﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكْدِرْنَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿كَسْرَابٍ﴾: السَّرَابُ: هو ما يراه المُسَافِرُ فِي الصُّحْرَاءِ مِنْ بَعِيدٍ مِثْلَ الْمَاءِ فِي وَسْطِ النَّهَارِ، وَمَا هُوَ بِمَاءٍ، إِنَّمَا هُوَ انْعِكَاسَاتٌ مِنْ أَشْعَةِ الشَّمْسِ، إِذَا جَاءَهَا الْوَارِدُ لَمْ يَجِدْهَا شَيْئًا، وَظَهَرَ لَهُ أَنَّهَا كَانَتْ سَرَابًا.

﴿بِقَيْعَةٍ﴾: الْقَيْعَةُ وَالْقَاعُ: مَا اسْتَوَى مِنَ الْأَرْضِ.

﴿فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾: اللَّجِّيُّ: هُوَ الْمُنْسُوبُ إِلَى اللَّجَّةِ، وَاللَّجَّةُ مِنَ الْبَحْرِ مَا كَانَ مِنْهُ عَظِيمًا عَمِيقًا، وَهِيَ أَوَاسِطُهُ. أَيِ فِي بَحْرِ عَظِيمٍ عَمِيقٍ.

﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾: أَيِ: يَغْلُوهُ مَوْجٌ.

﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْدِرْهَا﴾: أَيِ: لَمْ يَقْرُبْ مِنْ رُؤْيَيْهَا فَضْلًا عَنْ أَنْ يَرَاهَا وَكَثِيرًا مَا يَسْتَعْمَلُ الْعَرَبُ مِثْلَ هَذِهِ الصِّيغَةِ بِمَعْنَى فَعَلَ بَعْدَ شِدَّةٍ وَإِطْءَاءٍ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾: أَيِ: فَعَلُوا بَعْدَ إِطْءَاءٍ. فَيَصِحُّ فِي اسْتِعْمَالِ الْعَرَبِ أَنْ تَقُولَ: مَا كَادَ فَلَانُ يَقُومُ، بِمَعْنَى قَامَ بَعْدَ إِطْءَاءٍ، إِلَّا أَنْ أَصْلَ تَرْكِيبِ الْكَلَامِ يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الْمَقَارَبَةِ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ نَفْيِ الْفِعْلِ، وَهُوَ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ الَّذِي نَفَهُمْ بِمَوْجِبِهِ: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْدِرْهَا﴾. وَلَعَلَّ الْعَرَبَ فِي الْاسْتِعْمَالِ

الثاني لاحظوا تسليط النفي على الفعل بعد «كَادَ» لا على فعل «كَادَ» ففهموا المعنى الثاني فكانهم يقولون في «مَا كَادَ فُلَانٌ يَقُومُ»: «كَادَ فُلَانٌ أَنْ لَا يَقُومَ»، وهذا مما خَرَجَ عن أصلِ وَجْهِ تركيب الكلام، إلا أنه استعمال شائع عند العرب في هذه اللفظة.



الشرح:

بَعْدَ المَثَلِ الذي ضَرَبَهُ اللهُ لِنُورِهِ في الناس، بِمَشْكَائِهِ فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجَة كأنها كوكبٌ دُرِّيٌّ، إلى آخر صورة المثل الذي سبق شرحه. ضَرَبَ اللهُ مثلاً آخر مُقَابِلًا لَهُ، مَثَلٌ فيه أَعْمَالُ الذين كفروا.

إِنَّ المَثَلِ السابقَ مَثَلٌ لَهْدَايَةِ اللهِ في الناس، وهو النورُ المعنويُّ الذي يَنْبُعُ من كتابِهِ وبياناتِ شريعته، فانتفع به المؤمنون، إِذْ كَانَ هَادِيًا لَهُمْ، فَصَلَحَتْ أَعْمَالُهُمْ، وَاسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَظَفَرُوا بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ وَالْفَضْلِ الْجَمِيلِ من الله تعالى، وَكَانَ عَرَضُ هذا المَثَلِ مبتدئاً بتمثيل نور الهداية الربانية للناس، ومنتهاً ببيان العاقبة الحُسْنَى لِمَن انتفع به وَعَمِلَ بِهَذَا.

وَضَرَبَ هذا المَثَلِ اقتضى ضَرَبَ مَثَلٍ آخَرَ لِمَن أَعْرَضَ عن نور الهداية الربانية، وَذَهَبَ في صَحْرَاءِ حَيَاتِهِ يَلْتَمِسُ سَعَادَتَهُ بِوَسِيلَةٍ أُخْرَى، هَذَا مَا تَقْضِي بِهِ حِكْمَةُ التَّقَابُلِ بَيْنَ الْأَضْدَادِ، وهو الأمر الذي دَرَجَ عَلَيْهِ الْأَسْلُوبُ الْقُرْآنِيُّ في بياناته.

وَاقْتَضَتْ بِلَاغَةُ التَّنْوِيعِ في حَرَكَةِ رَسْمِ الصُّورَةِ أَنْ يَأْتِيَ المَثَلُ هُنَا مبتدئاً بتمثيل عَاقِبَةِ أَعْمَالِ الذين كَفَرُوا، وَمُشْتَبِهاً بتمثيل تَخْبِطِهِمْ في الضَّلَالَةِ، وَهُمْ يَقُومُونَ بِالْأَعْمَالِ الَّتِي يَرْجُونَ مِنْهَا سَعَادَاتِهِمْ: أَمَا نَتِيجَةُ سَعْيِهِمْ لِتَحْصِيلِ سَعَادَاتِهِمْ، فَمَثَلُ نَتِيجَةِ السَّاعِي إِلَى سَرَابٍ وَهُوَ يَحْسِبُهُ مَاءً. وَأَمَّا تَخْبِطُهُمْ فِي الضَّلَالَةِ إِذْ أَعْرَضُوا عَنِ نُورِ الْهَدَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّذِي هُوَ النُّورُ الْوَحِيدُ في الوجود، فَمَثَلُ تَخْبِطٍ مِنْ هُوَ فِي

ظُلُمَاتٍ متراكمة بعضها فوقَ بعض، في بَحْرِ لُجِّيٍّ تُحِيطُ بِهِ المخاوفُ والمخاطرُ من كلِّ جانب.

مَنْ لَمْ يَلْتَمِسْ نُورَ الْهُدَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ لِيَهْتَدِيَ لَمْ يَجِدْ بَعْدَهُ فِي الوجودِ نُورًا يَهْدِيهِ فِي الظُّلُمَاتِ، فَهُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى، وَهُوَ الْحَقُّ وَحْدَهُ، وَلَيْسَ بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ.

وفي تَدَبُّرِ المثل وتحليله نلاحظ أَنَّهُ اشْتَمَلَ على صورتين تمثيليتين:
الصورة الأولى: صورة السَّاعي إلى سراب، وهو ظمآنٌ يحسُّبه ماءً، فلمَّا وصل إليه أَصابته خيبة أمل قاتلة، إذ لم يجده شيئاً.

الصورة الثانية: صورة المتخبط في الظُّلُمَاتِ المتراكمة.
والمثلُ بِصُورَتَيْهِ يَحْكِي واقعَ حالِ الكافرين، سلوكاً في الحياة، وخبيةً مُهْلِكَةً في العاقبة.

إِنَّ الْكَافِرِينَ أَعْرَضُوا عَنْ نُورِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ الْمَصْدَرُ الْوَحِيدُ لِلْهُدَايَةِ، وَانْطَلَقُوا يَلْتَمِسُونَ أَسْبَابَ سَعَادَتِهِمْ فِي ظُلُمَاتِ الْهَوَى وَالشَّهَوَاتِ وَالْجُحُودِ وَالْكُنُودِ، وَالْكَبْرِ وَالْفُجُورِ، فَأَخَذُوا يَتَعَثَّرُونَ فِي كُلِّ وَادٍ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ وَالْقَلَقِ وَضِيقِ الصَّدْرِ وَالْوَانِ الْخَيْسَةِ، وَيَتَجَدَّدُ عِنْدَهُمُ الْأَمَلُ فَيُكْرَّرُونَ الْمَسْعَى، وَهَكَذَا، حَتَّى تَأْتِيَهُمْ مَنَائِمُهُمْ وَهُمْ ظَامِثُونَ لِلظُّفْرِ بِسَعَادَاتِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَجِدُونَهَا، وَعِنْدئِذٍ يَرَوْنَ أَنَّ الدُّنْيَا الَّتِي سَعَوْا وَرَاءَهَا بِمِثَابَةِ سَرَابٍ خَادِعٍ وَعِنْدئِذٍ يَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِمْ يُحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، لِيُجَازِيَهُمْ بِالْعَدْلِ.

هذا مَا يَحْكِيهِ الْمَثَلُ بِصُورَتَيْهِ:

أما الصورة الأولى: فيقولُ اللهُ تعالى فيها:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٩﴾﴾.

في صورة هذا المثل تمثيل أعمال الذين كفروا في الحياة الدنيا. وعلينا أن نتفكر في هذه الأعمال من عدة وجوه:

(أ) في العمل نفسه.

(ب) في الغاية منه.

(ج) في الفكرة التي جعلت هذا العمل سبباً لتحقيق الغاية منه.

أما الغاية التي يسعى إليها الكافرون بعد أن رفضوا نور الهداية الربانية وكذبوا باليوم الآخر، فهي تحقيق السعادة لأنفسهم عن طريق متاع الحياة الدنيا، وقصروا همهم على طلب ما في هذه الحياة من متع ولذات.

وأما مخطط العمل الذي رسموه لأنفسهم لتحقيق هذه الغاية، فلا يعدوا اتخاذ الوسائل لكسب المال، أو الظفر بالجاه أو السلطان، أو الاستمتاع بالشهوات واللذات، أو اللهو واللعب، أو السبق فيما يستعلون به ويفتخر به بعضهم على بعض.

وأما العمل نفسه فالكدح الدائم المتواصل.

ولكنهم يكدحون للظفر بالسعادة التي يشدون، فلا يصلون، لأن لذات الحياة كلها غير قادرة على منح السعادة الحقيقية، على أن القليل منها لا يأتي إلا مقروناً بالمنغصات والأكدار، فيا خيبة المسعى!! إن سعيهم وكدحهم كساع إلى سراپ في صحراء، وهو شديد الظمأ ذو حاجة ملحة إلى الماء. وإذا كان مكان السراپ نهاية مسعى هذا الظامىء المسافر في الصحراء، وقد ينتهي عنده صبره، فيقع فيه صريعاً هالكاً، فإن نهاية مسعى الكافر الكادح لتحقيق سعادته في ظروف الحياة الدنيا نزول المنية به، وعندئذ يلقى الله ربه، فيحاسبه ويؤفيه حسابه، ويلقى بكفره عذابه.

وفي هذا المثل الرائع يظهر لنا من خصائص الأمثال القرآنية صدق المماثلة بين المثل والممثل له. ويظهر لنا أيضاً عنصر البناء على المثل والحكم عليه كأنه

عَيْنُ المُمَثِّلِ لَهُ، عَلَى اعتبار أَنَّ المَثَلَ كَانَ وَسِيلَةً لِإِحْضَارِ صُورَةِ المُمَثِّلِ لَهُ فِي ذَهْنِ
المَخَاطَبِ وَنَفْسِهِ. وَإِذْ حَضَرَتْ صُورَةُ المُمَثِّلِ لَهُ حَسُنَ طَيُّ المَثَلِ. وَهَذَا مَا نَلَاظُهُ
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ﴾ بعد قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ
يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾.

فَالنَّصُّ يَتَقَلُّ بِشَكْلِ مُفَاجِئٍ مِنَ المَثَلِ إِلَى المُمَثِّلِ لَهُ، وَيَأْتِي تَرْتِيبُ النَتِيجَةِ
المَقْصُودَةِ عَلَى المَثَلِ كَأَنَّهُ عَيْنُ المُمَثِّلِ لَهُ.

وَيُظْهِرُ لَنَا أَيْضاً مِنَ الْخَصَائِصِ حَذْفُ مَقَاطِعَ مِنَ الصُّورَةِ التَّمثِيلِيَةِ اعْتِمَاداً
عَلَى ذِكَاةِ أَهْلِ الاستنباط، وَكَذَلِكَ حَذْفُ مَقَاطِعَ مِنَ المُمَثِّلِ لَهُ.

فَفِي المَثَلِ أُبْرِزَتْ صُورَةُ السَّرَابِ، ثُمَّ صُورَةُ الظَّامِءِ الَّذِي ظَنَّهُ مَاءً، ثُمَّ
خَبِئَتْهُ عِنْدَ وُصُولِهِ إِلَيْهِ، وَحَذْفُ مَا عَادَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْخَيَالَ يَتِمُّ رَسْمَهَا.

وَفِي المُمَثِّلِ لَهُ لَمْ يُذَكَّرْ إِلَّا عَمَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَطُويَ مَا عَادَ ذَلِكَ، لِأَنَّ
الْفِكْرَ قَادِرَ عَلَى أَنْ يَسْتَدْعِيَهُ، وَهَذَا مِنْ بِلَاغَةِ الْقُرْآنِ.

وَأَمَّا الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ: فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا:

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ
بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُوكُمْ يُكْدِرُهَا﴾.

فَهَذَا المَثَلُ يُصَوِّرُ الْحَالَةَ النَفْسِيَّةَ وَالْفِكْرِيَّةَ وَالْقَلْبِيَّةَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ أَنْ تَرَكَوا
نُورَ الْهُدَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ.

إِنَّهُمْ يَطْلُبُونَ سَعَادَتَهُمْ فِي الظُّلُمَاتِ، فَقَلْبُهُمْ مَظْلَمَةٌ بِالْكَفْرِ، وَنَفْسُهُمْ تَائِهَةٌ
فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ مِنْ ظُلُمَاتِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ، وَأَفْكَارُهُمْ تَسْبِخُ فِي ظُلُمَاتِ أَسْبَابِ
لَذَاتِ الدُّنْيَا، وَإِرَادَاتُهُمْ تَحْتَ كُلِّ هَذِهِ الظُّلُمَاتِ.

فَمَثَلُهُمْ كَمَنْ هُوَ فِي ظُلُمَاتٍ قَاعٍ بِحَرٍّ عَمِيقٍ، فَوْقَهُ أَمْوَاجٌ فِي الْعُمُقِ تَزِيدُ
الظُّلْمَةَ، فَوْقَهَا أَمْوَاجٌ فِي السُّطْحِ تُضَاعِفُ الظُّلْمَةَ، فَوْقَهَا سَحَابٌ يَزِيدُ الظُّلَامَ
ظُلَاماً، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ.

﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾: أي لم يَرَهَا وَلَمْ يُقَارِبْ رُؤْيَهَا لشدَّة الظلمة.

ومن كان كذلك فلا بدَّ أن يَسْلُكَ مسالك المهالك، وكذلك حال الذين كفروا في أعمالهم، وفي تحديد الغاية من أعمالهم، وفي ما يقرِّرون من أسباب لذلك. ولَمَّا حَضَرَتْ صُورَةُ الممَثَّل لَه عن طريق المثل، حُسِّنَ طَيِّ المثل، والبناء عليه كأنه عينُ الممَثَّل له، فقال الله تعالى:

﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾.

أي: فمن لم يستنر بنور الهداية الربَّانية، فلا جَرَمَ أن يتيه في الظلمات، ويضلَّ ضلالاً بعيداً، ويخيب مسعاه.

وهكذا يظهر لنا في هذا المثل من خصائص الأمثال القرآنية ما يلي:

- (أ) صدق المماثلة بين المثل والممَثَّل له.
 - (ب) البناء على المثل والحُكْم عليه كأنه عينُ الممَثَّل له.
 - (ج) دقَّة التَّصْوِير مَعَ إبراز العنَاصِر المُهمَّة من الصُّورَةِ التَّمثِيلِيَّة.
 - (د) التَّصْوِيرُ المتحرِّكُ الحيُّ الذي تَبَرَّز فيه المَشَاعِر النَّفْسِيَّة.
 - (هـ) حذفُ مَقَاطِعِ استطيعِ الذِّكْرِ أن يَسْتَوْعِبَهَا وَيَتَخَيَّلَهَا بذكائه.
- إلى غير ذلك من أمور يكشفها المتأمل الباحث.

• • •

(٣)

جدول خصائص الأمثال القرآنية



- ← الأولى: دقة التصوير مع إبراز العناصر المهمة من الصورة التمثيلية.
- ← الثانية: التصوير المتحرك الحي الناطق، ذو الأبعاد المكانية والزمانية، والذي تبرز فيه المشاعر النفسية والوجدانية والحركات الفكرية للعناصر الحية في الصورة.
- ← الثالثة: صدق المماثلة بين المثل والممثل له.
- ← الرابعة: التنوع في عرض الأمثال مرةً بالتشبيه، ومرةً بالعرض المفاجيء، وبالتمثيل البسيط، وأخرى بالتمثيل المركب الذي يطابق كل جزء منه جزءاً من الممثل له، وأخرى بالتمثيل المركب الذي يتترع منه وجه الشبه بنظرة كلية عامة.
- ← الخامسة: البناء على المثل والحكم عليه كأنه عين الممثل له، على اعتبار أن المثل كان وسيلة لإحضار صورة الممثل له في ذهن المخاطب ونفسه، وإذ حضرت صورة الممثل له ولو تقديراً، فالبيان البليغ يستدعي تجاوز المثل، ومتابعة الكلام عن الممثل له، وتسقط صورة المثل لتبرز القضايا المقصودة.
- ← السادسة: قد يُحذف من المثل القرآني مقاطع، اعتماداً على ذكاء أهل الاستنباط. وقد تُحذف من الممثل له مقاطع أيضاً، ويبقى في دلالات الألفاظ أو لوازم المعاني ما يدل على المحذوف.



الباب الثاني

تطبيقات عامة على الأمثال القرآنية

وفيه فصلان

الفصل الأول : أمثال هي بمثابة فرائد الجواهر .

الفصل الثاني : أمثال تكرر في القرآن ورودها حتى

صارَت بمثابة حقائق في مصطلحاته .

الفصل الأول

تطبيقات عامة على
أمثال هي بمثابة فرائد الجواهر

مُقَدِّمَةٌ

في هذا الفصل تطبيقات عامة على طائفة من النصوص القرآنية التي اشتملت على أمثال.

وفي هذه التطبيقات عَمَدْتُ إلى تفسير النصّ القرآني مستهدياً بما ذكره المفسرون، وبقواعد التدبُّر التي انتهت إليها بعد تأمل طويل في كتاب الله، وهي التي دونتها في كتابي «قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله عز وجل».

وَعَمَدْتُ أيضاً إلى تحليل الأمثال وَلَفَّتِ النَّظْرَ إلى ما جاء فيها، وفق ما سبق أن انتهت إليه في هذه الدراسة للأمثال القرآنية، وهو ما جاء في الفصول السابقة:

- ١ - التعريفات.
- ٢ - أقسام الأمثال.
- ٣ - أغراض الأمثال القرآنية.
- ٤ - خصائص الأمثال القرآنية.

ولدى التحليل في هذه التطبيقات قَدْ لَا أُستوفي ذَكَرَ كُلِّ العناصر الذي اشتمل عليها المثل، أقساماً وأغراضاً وخصائص، لأترك للقارئ فرصة التأمل الحرّ، واستكمال ما أغفلته، وقياس ما لَمْ أَذْكَرْهُ على ما ذَكَرْتُهُ، فالتدرب والتأمل يسمحان باستنباط أمور جديدة لم يَصِلْ إلى استنباطها المتأمل السابق، ولم يتنبّه إليها، وبهما يظهر من سنة الله في خلقه سُنَّةُ التكامل المتلاحق.

وفيما يلي التطبيقات على النصوص:

التطبيق الأول

قال الله تعالى في سورة (الفيل / ١٠٥ مصحف / ١٩ نزول):

﴿الْفَتْرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

﴿أصحاب الفيل﴾: هُم أَبْرَهَةُ الْحَبَشِيِّ وَجَيْشُهُ الَّذِينَ جَاؤُوا لِهَدْمِ الْكَعْبَةِ.

﴿كَيْدُهُمْ﴾: الْكَيْدُ: هُوَ تَدْبِيرُ أَمْرٍ مُّضِرٍّ بِالْغَيْرِ. وَأَكْثَرُهُ يَكُونُ فِي الْخِفَاءِ. وَيَكُونُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ، فَإِذَا كَانَ بِالْحَقِّ فَهُوَ خَيْرٌ وَإِذَا كَانَ بِالْبَاطِلِ فَهُوَ شَرٌّ. فَالْكَيْدُ لِإِيقَاعِ الْمَجْرِمِينَ فِي الْفِتْنَةِ وَإِنْزَالِ الْعُقُوبَةِ بِهِمْ هُوَ كَيْدٌ فِي الْخَيْرِ، وَالْكَيْدُ لِإِبْطَالِ حَقٍّ وَإِحْقَاقِ بَاطِلٍ، أَوْ لِقَتْلِ الْبَرَاءِ وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، هُوَ شَرٌّ.

قال الله تعالى في سورة (الطارق / ٨٦ مصحف / ٣٦ نزول):

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَالَهُمْ رُويًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾: أَي: فِي تَضْيِيعٍ وَإِبْطَالٍ. وَكَذَلِكَ ضَاعَتْ جُهُودُ أَبْرَهَةَ، وَتَبَدَّدَ كَيْدُهُ، وَعَاقَبَهُ اللَّهُ وَمَنْ مَعَهُ عِقَابًا شَدِيدًا، فَأَهْلَكَهُمْ.

﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾: طَيْرًا: أَي: نَوْعًا مِنَ الطَّيُورِ. أَبَابِيلَ: أَي: جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَاتٍ، تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ لِتَعْمَهُمْ بِمَا تَرْمِي عَلَيْهِمْ مِنْ قَوَاتِلٍ. قِيلَ: هُوَ جَمْعٌ وَاحِدُهُ (إِبَالَةٌ). وَقِيلَ: وَاحِدُهُ (إِبُولٌ) كَعَجُولٍ وَعَجَاجِيلٍ. وَقِيلَ: هُوَ جَمْعٌ لَا وَاحِدَ لَهُ.

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾: سِجِّيلٌ: جَاءَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ أَقْوَالٌ أَقْرَبُهَا: أَنَّ السِّجِّيلَ نَوْعٌ مِنَ الطِّينِ يَتَحَجَّرُ بِالنَّارِ.

وَيَقَالُ لُغَةً: سَجَلَهُ بِالشَّيْءِ إِذَا رَمَاهُ بِهِ مِنْ فَوْقِ.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾: الْعَصْفُ: هُوَ وَرَقُ الزَّرْعِ. وَالْعَصْفُ الْمَأْكُولُ: هُوَ الزَّرْعُ الَّذِي أَكَلَ حَبُّهُ وَتَرَكَ وَرَقَهُ، أَوْ تَرَكَ مِنْهُ مَا لَا تَأْكُلُهُ الدَّوَابُّ عَادَةً، فَهِيَ تَدُوسُهُ بِأَقْدَامِهَا. أَوْ هُوَ الزَّرْعُ الَّذِي أَكَلَتْهُ الدَّوَابُّ وَخَرَجَ رَوْثًا.

في هذه السورة ضَرَبَ الله مثلاً لصُورة أَصْحَابِ الْفِيلِ بعد هلاكهم بصورة الْعَصْفِ الْمَأْكُولِ.

لقد رمتهم الطَّيْرُ الْأَبَابِيلُ بِالْحِجَارَةِ الَّتِي كَانَتْ تَحْمِلُهَا بَأَرْجُلُهَا وَمَنَاقِيرُهَا لِإِهْلَاكِهِمْ، فَمَا تُصِيبُ وَاحِداً مِنْهُمْ إِلَّا أَهْلَكَتْهُ وَقَتَلَتْهُ.

وقد جَاءَ في الخبر أَنَّ الْحَجَرَ مِنْ هَذِهِ الْحِجَارَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي لَا يَتَجَاوَزُ كَبِيرُهَا مِقْدَارَ الْحِمَصَةِ، كَانَ يَصِيبُ أَحَدَهُمْ عَلَى رَأْسِهِ فَيَخْتَرِقُهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ أَسْفَلِ. وعن سعيد بن جُبَيْرٍ أَنَّ هَذِهِ الْحِجَارَةَ كَانَتْ تَحْمِلُ دَاءَ الْجُدَرِيِّ، فَمَا تُصِيبُ أَحَداً مِنْهُمْ إِلَّا نَفِطَ جِلْدَهُ وَثَارَ بِهِ الْجُدَرِيُّ حَتَّى يُهْلِكَه.

إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمْ اللَّهُ بِهَذَا النَّوعِ مِنَ الْإِهْلَاكِ قَدْ تَرَامَتْ جُثَثُهُمْ فِي الرَّمَالِ وَالْوُدْيَانِ، فَكَانَتْ صُورَةُ كُلِّ جُثَّةٍ مِنْ جُثَثِهِمُ الْمَصَابَةِ بِالْوَبَاءِ الْفَتَّاكِ كَالْعَصْفِ الْمَأْكُولِ، أَيْ كَرُوثِ الْبَهَائِمِ الَّتِي تَأْكُلُ الْعَصْفَ. وهذا المعنى أرجح عندي لا سيما إِذَا أَخَذْنَا بِعَيْنِ الْإِعْتِبَارِ أَنَّ الدَّاءَ الَّذِي أَهْلَكَهُمْ هُوَ دَاءُ الْجُدَرِيِّ.

فالتصوير مع الاحتشامِ فِي اللَّفْظِ تَصْوِيرٌ دَقِيقٌ.

* * *

التطبيق الثاني

ضَرَبَ الله أَمْثِلَةً تَقْرِيبِيَّةً لِمَا يَجْرِي مِنْ أَحْدَاثٍ فِي الْكَوْنِ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَتَغْيِيرِ نِظَامِ الْكَوْنِ الْقَائِمِ، وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَبُعْثِ النَّاسِ إِلَى الْحَيَاةِ الْآخَرَى.

فَضَرَبَ مثلاً لَصُورَةِ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ بِالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ، وَبِالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ (القارعة) / ١٠١ مصحف / ٣٠ نزول):

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾

وقال تعالى في سورة (القمر) / ٥٤ مصحف / ٣٧ نزول):

﴿ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴾ (٧) مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ
الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ (١).

فالناس عند خروجهم من الأرض تكون صورهم تشبه صورة الجراد المنتشر، في كثرتهم وتجمعهم وتتابعهم وتدافعهم وتصادم بعضهم ببعض. وحين يذركون الموقف للحساب والجزاء، تطيش أحلامهم، فينبشون، ويقذفون بأنفسهم هائمين على مواطن يتوهمون فيها نجاتهم، فتكون صورتهم في هذه الحالة مثل صورة الفراش المبعوث الطائش المتفرق في كل جهة. وضرب الله سبحانه مثلاً لهم وهم يخرجون من قبورهم سراعاً متجهين إلى الداعي الذي يدعوهم إلى الموقف، بصورة عبّاد الأوثان الذين يسرعون متدافعين إلى أوثانهم، فقال تعالى في سورة (المعارج / ٧٠ مصحف / ٧٩ نزول):

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ (١٦).

﴿الأجداث﴾: القبور.

﴿نُصُب﴾: أي: أنصاب.

﴿يُوفِضُونَ﴾: أي: يسرعون.

وضرب الله مثلاً للرجال يومئذ إذ تفقد صخورها قوامها المتماسك، وتصبح هشة متنفخة، بصورة العهن المنفوش. (العهن: هو الصوف المصبوغ ألواناً مختلفة، والمنفوش: هو المندوف الذي تفرق أجزاؤه المتبلدة عن بعضها).

فهذه الصورة تبين أن الرجال منقوشة كالصوف، ولكنها مع ذلك تحافظ على ألوانها التي كانت عليها سوداً وحمراً وبيضاً وغير ذلك، ولهذا جاء تمثيلها بالعهن، وهو اسم للصوف المصبوغ بالوان مختلفة، لا بمطلق الصوف، فقال تعالى في

(١) مهطعين إلى الداع: أي ناظرين إليه قد رفعوا رؤوسهم نحوه.

سورة (القارعة / ١٠١ مصحف / ٣٠ نزول):

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ ٥

وقال تعالى في سورة (المعارج / ٧٠ مصحف / ٧٩ نزول):

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ ٦

وضرب الله مثلاً للسماء يومئذ بصورة المَهْل، وهو النحاس المذاب. وبصورة الوردة الحمراء إذا تخيلنا وردة أوراقها من مادة ذائبة رجاجة تشبه الدهن.

قال الله تعالى في سورة (المعارج / ٧٠ مصحف / ٧٩ نزول):

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ ٨

﴿المهل﴾: النحاس المذاب. ويُطلق أيضاً على دُردي الزيت أي عكر الزيت. وقد رجحت هنا المعنى الأول.

وقال تعالى في سورة (الرحمن / ٥٥ مصحف / ٩٧ نزول):

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ ٣٧ ﴿فَإِيَّاءَ الْآءِ رِيَّكُمْ تُكْذِبَانِ﴾ ٣٨

﴿وَرْدَةً﴾: أي: مثل الوردة الحمراء.

﴿كالدهان﴾: أي: وهذه الوردة الممثلة بها تشبه الدهان، الدهان: جمع مفردة الدهن، وهو يُجمع أيضاً على أدهان.

ولعل لوصف الوردة بأنها تشبه الدهان دلالة مقصودة تتحقق بالجمع ولا تتحقق بالمفرد، أي تشبه أنواع الدهن، الذي يوجد منه ما هو سائل رقيق، وما هو كثيف أخف سيولة، وما هو قريب من درجة التماسك بنفسه. وهكذا تظهر السماء للناظرين يومئذ.

وهذه الصورة للسماء يومئذ ناتجة عما يحدث فيها من حركة تشبه حركة

الدَّوَامَةُ فِي الْبَحْرِ، فَهِيَ تَمُورُ مَوْرًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الطُّورِ) ٥٢ مَصْحَفٍ / ٧٦ نَزُولٍ):

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝١﴾ .

فَإِذَا ضَمَمْنَا إِلَى هَذِهِ الْحَرَكَةِ اللَّوْنُ الْأَحْمَرُ النَّحَاسِيُّ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الْمَعَارِجِ) ٧٠ مَصْحَفٍ / ٧٩ نَزُولٍ):

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِّ ۝٨﴾ .

كَانَ النَّاضِرُ لَهَا مِنْ بُعْدٍ يَرَاهَا كَوَرْدَةٍ حَمْرَاءَ كَبْرَى مَصْنُوعَةٍ مِنْ أَنْوَاعٍ مِنَ الدَّهْنِ، تَتَحَرَّكُ أَوْرَاقُهَا الذَّائِبَةُ، وَيُمُوجُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَهَذِهِ الصُّورَةُ هِيَ الَّتِي رَسَمَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ۝٣٧﴾ .

إِنَّهَا لَدَقَّةٌ فِي التَّصْوِيرِ بِالْغَةِ، مَعَ إِيجَازٍ فِي اللَّفْظِ مَتَّاهٍ .

* * *

التطبيقات الثالث

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِقَضِيَّةِ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، بِحَيَاةِ النَّبَاتِ فِي دَوْرَاتِهِ الْمُتَكَرِّرَةِ مِنْ بَزْوَرِهِ، عِنْدَ تَوَافُرِ شُرُوطِ نَبَاتِهِ مِنْ جَدِيدٍ .

فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ (ق) ٥٠ مَصْحَفٍ / ٣٤ نَزُولٍ):

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝١ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝٢ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۝٣﴾ .

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُ فِي سُورَةِ (الْأَعْرَافِ) ٧ مَصْحَفٍ / ٣٩ نَزُولٍ):

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا يَنْفِثُ بِأَيْدِي رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا

ثَقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَاهُ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَاهُ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

ثم أنزل الله تعالى قوله في سورة (فاطر / ٣٥ مصحف / ٤٣ نزول):

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿١﴾﴾

ثم أنزل الله تعالى قوله في سورة (الزخرف / ٤٣ مصحف / ٦٣ نزول):

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَنْشَرْنَاهُ بِلَدَةٍ مَيِّتَةٍ كَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ ﴿١١﴾﴾

ثم أنزل الله تعالى قوله في سورة (الروم / ٣٠ مصحف / ٨٤ نزول):

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ
نُخْرِجُكُمْ ﴿١١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿١٠﴾﴾

وهذه النصوص مكية.

ثم أنزل الله تعالى في أواسط العهد المدني قوله في سورة (الحج /

٢٢ مصحف / ١٠٣ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ
ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّكُمْ وَنُقِىَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى
أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤَفَّقُ
وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدِّ إِلَى أَزْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ
هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ
اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ
اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾

﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾: أي: وحبّ الزرع المَحْصُود، وهو يَشْمَلُ كُلَّ حَبٍّ يُنْتَقَعُ به، لأيّ زرع تمّ حصاده بعد أن بلغ درجة نضجه.

﴿وَالنَّخْلَ بِاسِقَاتٍ﴾: أي: عالياتٍ طوالاً.

﴿لَهَا طَلَعٌ نَضِيدٌ﴾: أي: لها ثَمَرٌ مَنْضُودٌ، وَالْمَنْضُودُ هو المجموع المتراصف المتراكب بعضه إلى بعض باتّساق جميل، ونظامٍ بديع.

﴿سَحَاباً ثِقَالاً﴾: السَّحَاب: جمع مفردة سحابة. وثقَالاً: أي مثقلات بالماء الذي تحمله.

﴿لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾: أي: لَأَرْضٍ لَا نَبَاتَ فيها، فهي كالميتة لانعدام حَيَاةِ النَّبَاتِ منها.

﴿فَثِيرٌ سَحَاباً فُسْقَنَاهُ﴾: أي: تُحَرِّكُ السُّحُبَ من داخل تجمُّعاتها وتُهيِّجُها وهي محمّلة بالماء، وتُسَوِّقُها في السماء إلى بَلَدٍ محتاج للمطر لينبت فيه الزرع.

وأعيد الضمير على السحاب بالمفرد (فسقناه) مع أن السحاب جمع سحابة، كما تقول المعاجم اللُّغَوِيَّةُ، ملاحظة للماء الذي تحمله، والذي هو المقصود من السوق، فكأنه قيل: فثير سحاباً ثِقَالاً بالماء فسقناه، أي فسقنا الماء، أو هو اسم جنس جمعي يُفَرِّقُ بينه وبين واحدة بالتاء، فَيُعَامَلُ معاملة المفرد، مثل، نخل وتمر كما يقول النحاة.

﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾: أي: فأحيينا به بلدة ميتاً.

﴿مِنْ عَلَقَةٍ﴾: مِنْ دَمٍ مُتَجَمِّدٍ.

﴿مِنْ مَضْغَةٍ﴾: مِنْ قِطْعَةٍ لَحْمٍ صَغِيرَةٍ. وقد سَمَّيتَ بذلك لأنها بقدر ما يُمَضَّغُ.

﴿مُخَلَّقَةً وَغَيْرَ مُخَلَّقَةٍ﴾: هما طُورَانِ من مراحل الجنين: طُورُ تكون فيه المَضْغَةُ مُخَلَّقَةٌ: أي: ظاهرة التقسيمات للأعضاء. وطُورُ تكون فيه غير مُخَلَّقَةٍ: أي: غير ظاهرة تقسيمات الأعضاء.

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾: أي: وترى الأرض ميّنة لا حياة فيها ولا نبات.
﴿اهتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾: أي: تحرّك النبات فيها، ونمت زروعها، وظهرت فيها الحياة.

﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ﴾: أي: من كلّ صنفٍ من النبات حسنٍ ذي نضارة.
في هذه النصوص ضَرَبَ الله عزَّ وجلَّ لمنكري البعثِ الواقعين أسرى مدركات حواسِّهم الظاهرة مثلاً إقناعياً، لتقريب فكرة الحياة بعد الموت من أجل الحساب والجزاء وإقامة مقتضيات حكمته وعدله في عباده.

وهذا المثلُّ هو دَوْرَةُ الحياة النباتية، التي تنتهي بالحصاد فتَعُودُ به الأرض ميّنة لا حياة فيها، ولا خُضرة ولا نضرة، ثم تبدأ الدورة من جديد، فيُسَوِّقُ الله السحاب المثقلة بالماء، فتَنَزِّلُ الأمطارُ على الأرض الميّنة، فتتحرّك بقضاء الله وقدره عوامل الحياة الكامنة في البزور المتناثرة المدفونة في الأرض، فتمتصّ البزور ماءها وغذاءها من الطين، ثم تنبت من جديد، فتتشقّق الأرض، وتخرجُ الزروع المختلفة، وتنبُتُ الجناتُ على أمثال أسلافها ممّا تركت من بُزورها.

هذه الدَّوْرَةُ الحيّاتيّة التي تتكرّر باستمرار في النبات، تكفي مثلاً مُقْبِعاً يُقَرِّبُ لأذهان الذين يتعجّبون ممّا لا يشاهدون له نظائر في الواقع فكرة إمكان عودة الحياة للذين يموتون من الأحياء، وتَفْنِي أجسادهم، وتَبْلِي عِظَامَهُمْ، إنّ الأمر لا يحتاج أكثر من تَوَجُّه إرادة الخالق وقُدْرته للتنفيذ.

فإذا كانت البزور المتناثرة، ونَوَيَاتُها الصغرى جدّاً، مستعدّة بقضاء الله وقدره لأن تنبت منها شجرة عظيمة جديدة، تماثل الشجرة التي كانت أنتجتها من قبل، ثم ييسر وماتت، فما المانع من أن تكون نوياتٌ صغرى لا تدركها الأبصار في أجسام الناس مستعدّة بقضاء الله وقدره لأن تنشأ منها حياة جديدة، متى جاءت دورة هذه الحياة الجديدة، وبعث الله الأسباب الكفيلة بقضائه وقدره لإعادة النشأة من جديد، ولِرَجْعَةِ الأرواح التي فارقت من قَبْلُ أجسادها، إلى أجسادٍ هي نظير أجسادها الأولى، ناشئة من نوياتها الصغرى المنبئة في الأرض؟

إِنَّ البديهة العقلية تقول: إِنَّه لا يُوجَدُ مانع عقلي من عودة الحياة هذه.
على أَنَّ أهل الفكر المتجرّد من المؤثرات الحِسِّيَّة، الذين لَيْسُوا أسرى
مُدْرَكَاتِ حواسِّهم الظاهرة، والذين تكفيهم الأدلّة البرهانية العقلية، لا يَحْتَاجُونَ إلى
ضرب أمثالٍ تقريبيّة كهذا المثل، بل يكفيهم البرهان العقلي الذي تَضَمَّنَه قول الله
تعالى في سورة (الأنبياء / ٢١ مصحف / ٧٣ نزول):

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ... ﴾ ﴿١٠٤﴾

فإِذْ قد ثبت لهم ببرهان العقل أَنَّ الله تعالى هو الذي خلق الخلق الأوّل،
فإنهم بالبداهة يقولون: إِنَّه عزَّ وجلَّ قادر على أن يُعيدَ الخلقَ بَعْدَ مَوْتِ الأحياء
وفناء أجسادهم، فالبداة والإعادة بالنسبة إلى قُدْرته العظيمة سواء.

* * *

التطبيق الرابع

قال الله تعالى في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿٤٠﴾

﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾: في بيان المراد من هذا أقوال:

الأول: لا تفتح أبواب السماء لأقوالهم ولا لأعمالهم، إِذْ لَيْسَ لهم كلام
طَيِّبٌ وَلَا عَمَلٌ صَالِحٌ.

وهذا المعنى ينطبق على ما جاء في قوله تعالى في سورة (فاطر /
٣٥ مصحف / ٤٣ نزول):

﴿ ...إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ ﴿١٠١﴾

وينطبق أيضاً على ما جاء في قوله تعالى في سورة (المطففين) / ٨٣ مصحف / ٨٦ نزول):

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينَ﴾

﴿سجين﴾: مشتق من السجن . وهو في مكان سافل . بخلاف كتاب الأبرار، فهو في عليين في السماء كما قال الله تعالى فيها:

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾

الثاني: لا تُفْتَحُ أبواب السماء لأرواحهم عند موتهم، إذ أرواحهم تظل حبيسة دون السماء.

وهذا المعنى يؤيده ما جاء في بيان الرسول ﷺ عن أرواح المؤمنين وأرواح الكافرين، وهو أظهر المعاني.

الثالث: لا تُفْتَحُ أبواب السماء لهم لأنهم من أهل النار، والنَّارُ لَيْسَتْ في السماء، والذين تُفْتَحُ أبواب السماء لهم هم أهل الجنة.

الرابع: لا تفتح لهم أبواب السماء، بمعنى لا تنزل عليهم بركات السماء من الله.

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾:

يلج: يدخل. الجمل: الحيوان المعروف.

في سَمِّ الْخِيَاطِ: في ثَقْبِ الْخِيَاطِ. وكلُّ ثَقْبٍ لطيف دقيق فهو «سَمٌّ» بفتح السين وضمها. والخياط: الإبرة. وكلُّ ما يخاط به يقال فيه: الْخِيَاطُ وَالْمِخِيطُ.

وقد ضرب الله دخول الجمل في سَمِّ الْخِيَاطِ مَثَلًا لِعَدَمِ إِمْكَانِ دُخُولِهِمْ الْجَنَّةَ، أي: كما أنَّ نظام الخلق قائم على عدم إِمْكَانِ دُخُولِ الجمل بجثته الكبيرة في ثَقْبِ الإبرة للفتاوت الكبير بين جسم الجمل وفراغ ثَقْبِ الإبرة مع بقاء كلٍّ منهما على مستوى أبعاده، كذلك قوانين عَدَلِ الله وحكمته تقضي بأن لا يَدْخُلَ الذين

كذبوا بآيات الله واستكبروا عن الخضوع لها، جنته التي أعدها للذين آمنوا ولم يستكبروا عن طاعة الله والخضوع لجلاله، وسُلطان أمره التكليفي.

ويلاحظ في هذا المثل صدق المماثلة، فالُمَثَلُ به مَظْهَرٌ من مظاهر قوانين الله في الخلق والمُمَثَّلُ لَهُ مظهر من مظاهر قوانين الله في العدل، ويلاحظ فيه تجسيد الفكرة بصورة تُدرك بالحس الظاهر. ويلاحظ التنوع في ضرب المثل، وذلك إذ جاء بيان عدم إمكان دخولهم الجنة بصيغة توهم في مقدمتها إمكان دخولهم الجنة.

* * *

التطبيق الخامس

قال الله تعالى في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول):

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ فِي تَسْحِطِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ

هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

في هذه الآية تمثيل للغضب بمحرّضٍ ملحاحٍ داخل النفس يُحرّض بكلامه على الثورة، وعلى قيام الجسم وأعضائه بأعمال الانتقام ضد الذي حرّك الغضب. فهيجان الغضب مثله كمثل صياح هذا المحرّض الملحاح. وسكون الغضب مثله كمثل سكوت هذا المحرّض عن الصياح، وعودته إلى حالة الصمت والهدوء.

كل هذه الصورة التمثيلية توحى بها كلمة (سَكَتَ) في الآية، بدل كلمة (سَكَنَ) التي كان من الممكن أن تؤدي المعنى المراد، ولكن دون إعطاء هذه الصورة النفسية مثلاً من الصور المدركة بالحس الظاهر، وهذه الصورة مأخوذة من صياح صائغٍ ناثراً.

ويلاحظ في المثل دقة التصوير، والإيجاز البديع، وصدق المماثلة، ولوفرة عناصر التماثل نُزِل المُمَثَّلُ به مُنْزَلَةُ المُمَثَّلِ له.

* * *

التطبيق السادس

ضرب الله عز وجل الأنعام مثلاً للذين كفروا، بل جعلهم أضلّ من الأنعام.

فقال الله تعالى في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

وقال الله تعالى في سورة (الفرقان / ٢٥ مصحف / ٤٢ نزول):

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

وقال الله تعالى في سورة (محمد / ٤٧ مصحف / ٩٥ نزول):

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَا كُفُونَا كُلُّ الْأَنْعَمِ وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ ﴿١٢﴾﴾

﴿ذَرَأْنَا﴾: أي: خلقنا. الذرء: الخلق.

﴿مَشْوَى لَهُمْ﴾: أي: منزّل لهم. ثوى الرجل بالمكان يثوي ثواءً، أي: طال

مقامه فيه.

في هذه النصوص ضرب الله الأنعام مثلاً للذين كفروا، وذلك لأنهم لم يستعملوا ما وهبهم الله من قلوب وعقول وأبصار وأسماع فيما خلقت من أجله، وهو استعمالها في معرفة أدلة وجود الله والغاية من الخلق.

إنهم بتعطيل هذه الأجهزة العظيمة عن استعمالها فيما خلقت من أجله غدّوا في الحياة الدنيا بمثابة الأنعام التي ترى ولكن لا ترى آيات الله في الكون ولا دلائل وجوده، وتسمع ولكن لا تسمع براهين وجود الله، ولا الوصايا التي تأمر بالخير وتنهى عن الشر، فعقولهم محجوبة عن معرفة الحقائق الكبرى المتصلة بالنجاة والسعادة العظمى. وقلوبهم لا تفقه شيئاً من ذلك.

إِنَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَأْكُلُونَ وَيَتَمَتَّعُونَ، وَلَيْسَ لَهُمْ وَرَاءَهَا هَدَفٌ أَسْمَى يَسْعَوْنَ إِلَيْهِ، فَهُمْ إِذَنْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ.

وفي هذا المثل تَبْدُو دَقَّةُ التَّصْوِيرِ، وَصِدْقُ الْمِثَالَةِ بَيْنَ الْمُمَثِّلِ بِهِ وَالْمُمَثَّلِ لَهُ. وَالتَّمثِيلُ هُنَا قَائِمٌ عَلَى التَّشْبِيهِ الصَّرِيحِ الْبَسِيطِ.

وَقَرَّرَ النَّصَانِ الْأُولَانِ أَنََّّهُمْ أَضَلَّ مِنَ الْأَنْعَامِ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأَنْعَامَ لَمْ تُؤْتَ أَدْوَاتِ الْكِمَالِ فِي أَصْلِ فِطْرَتِهَا، بِخِلَافِ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَإِنَّهُمْ قَدْ أُوتُوا هَذِهِ الْأَدْوَاتِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَسْتَعْمِلُوهَا فِيمَا خُلِقَتْ مِنْ أَجْلِهِ، بَلْ عَطَلُوهَا وَاسْتَعْمَلُوهَا اسْتِعْمَالًا أَوْدَى بِهِمْ إِلَى الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الْخَالِدِ. فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ.

* * *

التطبيقات السابعة

ضَرَبَ اللَّهُ أَمْثَلَةً قَرَّبَ بِهَا لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا صُورَةَ جَمَالِ الْحُورِ الْعَيْنِ فِي دَارِ النِّعَمِ.

فَفِي وَصْفِ مَا لِلسَّابِقِينَ الْمُقْرَبِينَ مِنْ نَعِيمٍ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الْوَاقِعَةِ / ٥٦ مَصْحَفٍ / ٤٦ نَزُولٍ):

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۖ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوءِ الْمُكْنُونِ ۚ جَزَاءً لِّمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ ﴾ (٢٤)

﴿ حُورٌ ۖ ﴾ : جَمْعُ حُورَاءَ. وَهُنَّ زَوَاجَاتُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ.

﴿ عِينٌ ۖ ﴾ : جَمْعُ عَيْنَاءَ، وَهِيَ ذَاتُ الْعَيْنِ الْوَاسِعَةِ الْجَمِيلَةِ.

﴿ اللَّوْلُوءُ الْمُكْنُونُ ۖ ﴾ : هُوَ اللَّوْلُوءُ الْمُخَبَأُ الْمُحْفُوظُ الْمَصُونُ لِصَاحِبِهِ.

وَفِي وَصْفِ نَعِيمِ عِبَادِهِ الْمُخْلِصِينَ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الصَّافَّاتِ / ٣٧ مَصْحَفٍ / ٥٦ نَزُولٍ):

﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ۚ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۚ ﴾ (٤٨)

﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾: خَفِرَاتٌ لَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ مِنْ عَفَّتِهِنَّ.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾: أَي: بِيَاضٍ بَشَرْتَهُنَّ يُشَبِّهُ الْبَيْضَ الْمَحْفُوظَ الْمَكْنُون.

وفي وصف نعيم من خاف مقام ربه، قال الله تعالى في سورة (الرحمن) ٥٥ مصحف / ٩٧ نزل):

﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ٥٦﴾ فَإِنَّ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ٥٨﴾ .
﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾: أَي: لَمْ يَمَسْسَهُنَّ .
﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾:

الياقوت: من الحجارة الكريمة الشفافة، وفيه ذو اللون الأحمر والأبيض.

المرجان: صغارُ اللؤلؤ، وهي أشدَّ بياضاً من كباره.

أي: فمواطن الحمرة الجميلة فيهن كَلَوْنُ الياقوت، ومواطن البياض الجميل فيهن كَلَوْنُ صِغَارِ اللؤلؤ.

ففي هذه النصوص ضرب الله أمثلة لجوانب من حُسْنِ الحور العين في الجنة.

فَلَوْنُ بَشَرَاتِهِنَّ يُشَبِّهُ لَوْنَ اللؤلؤِ المحفوظ المصون لصاحبه، وَشِبْهُ لَوْنِ الْبَيْضِ المحفوظ المصون من الأوساخ. ومواطنُ جَمَالِ اللُّونِ الأحمر من أجسادِهِنَّ كَوَجَنَاتِهِنَّ وَشِفَاهِهِنَّ يُشَبِّهُ لَوْنَهَا لَوْنَ الياقوت الأحمر.

ووصفهنَّ الله بأنَّهِنَّ عَفِيفَاتٌ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ. وبأنَّهِنَّ وَاسِعَاتُ الْعِیُونَ جَمِیلَاتُهُنَّ. وبأنَّهِنَّ أَبْكَارٌ لَمْ يَمَسْسَهُنَّ قَبْلَ مَنْ هُنَّ لَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ.

وفي هذا دلالة على أَنَّ الْجَنَّ يَعَاشِرُونَ الزَّوْجَاتِ كَالْإِنْسِ.

* * *

التطبيق الثامن

قال الله تعالى في سورة (يونس / ١٠ مصحف / ٥١ نزول):

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْشِلُهَا وَتَرَهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِن لَّهِ مِن عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ : أي : لا يَغْشَى وجوههم . يقال : رَهَقَهُ يَرْهَقُهُ رَهَقًا ، أي : غَشِيَهُ .

﴿قَتَرٌ﴾ : القَتَرُ جمعُ القَتَرَةِ ، وهي الغبرة التي يعلوها سَوَادٌ كالِدُخَانِ .

﴿وَتَرَهُمْ ذِلَّةٌ﴾ : أي : وتغشاهم علاماتُ الذِّلَّةِ وأماراتها .

﴿مَّا لَهُمْ مِن لَّهِ مِن عَاصِمٍ﴾ : أي : ما لهم من عاصم يَعْصِمُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ .

في هذا النص ضرب الله مثلاً لِمَا يَغْشَى وُجُوهَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَسَبُوا السيئات من علامات الذِّلَّةِ وَالْكَمَدِ وَالْحُزْنَ وَالنَّدَمَ ، بِالْقَتَرِ الذي يَغْشَى بَعْضَ وجوه النَّاسِ الَّذِينَ يَعْملُونَ في أماكن يكثر فيها الغبار والدخان . وَضَرَبَ لَهُ مثلاً أيضاً بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ المظلم .

الصورة الأولى صورةٌ منتزعة من الواقع . أمَّا الثانية فهي صورةٌ منتزعةٌ من الخيال .

ويلاحظ في المَثَلَيْنِ دَقَّةَ التصوير . وَلَوْفَرَةٍ عناصر التشابه في المثل الأول نُزِلَ الممثلُ به منزلة الممثل له فكأنه هو .

ونظيره قوله تعالى في سورة (عبس / ٨٠ مصحف / ٢٤ نزول):

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ .

* * *

التطبيق التاسع

قال الله تعالى في سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اثْنًا قُلْ إِنِّي هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِّلْمُسْلِمِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

هذه الآية تُعَلِّمُ الرسولَ والمؤمنينَ جواباً إقناعياً للمُشركين، إذ يدعون المؤمنين إلى الإيمان بـشركائهم، أو إلى عبادة شركائهم، أو إلى رجعة من آمن منهم إلى ما كان عليه قَبْلَ الإيمان.

وَالْجَوَابُ يَتَلَخَّصُ بِحُجَّةٍ بَرَهَانِيَّةٍ جَاءَتْ عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِفْهَامِ التَّعْجِيبِيِّ، وَبِتَصْوِيرِ الْأَخْذِ بِمَذْهَبِ الشُّرْكَ بِأَنَّهُ رَجْعَةٌ عَلَى الْأَعْقَابِ إِلَى هَاوِيَةِ الْهَلَاكِ، بَعْدَ الْهَدَايَةِ إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ، وَبِتَصْوِيرِ الدَّعْوَةِ إِلَى ذَلِكَ بِأَنَّهُ رَدٌّ عَلَى الْأَعْقَابِ لِمَنْ هَدَاهُمُ اللَّهُ، ثُمَّ بِتَقْدِيمِ هَذِهِ الصُّورَةِ فِي لَوْحَةٍ تَمَثِيلِيَّةٍ.

تحليل المثل:

١ - أَوَّلُ مَا تُبْرِزُهُ اللَّوْحَةُ التَّمَثِيلِيَّةُ فِي هَذَا الْمَثَلِ صُورَةُ إِنْسَانٍ يَهْوِي إِلَى هَاوِيَةٍ سَحِيقَةٍ مَهْلَكَةٍ، فَهُوَ يَخْطُو فِي مَنْحَدٍ إِلَى أَسْفَلٍ، ثُمَّ تُبْرِزُ أَشْبَاحُ شَيَاطِينٍ مِنْ أَسْفَلٍ مِنْهُ يَسْتَهْوُونَهُ، أَيْ يَسْتَدْرِجُونَهُ إِلَى الْهَاوِيَةِ، إِذْ يُزَيِّنُونَ ذَلِكَ لَهُوَى نَفْسِهِ، وَهَذَا تَرَسُّمُ الصُّورَةِ بَعْضَ مَا تَهْوَى نَفْسُ أَهْلِ الْإِنْجِدَارِ، ثُمَّ تَكْشِفُ الصُّورَةَ مُشْهَدَ تَحْيِيرِ الرَّجُلِ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ.

لماذا هو حيران؟

هُنَالِكَ فِي أَعْلَى الصُّورَةِ وَعَلَى الْقِمَّةِ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ، فِيهِ نُورٌ وَهَدَايَةٌ، فِيهِ طَمَآنِينَةٌ وَسَلَامَةٌ، غَايَتُهُ نَجَاةٌ وَنَجَاحٌ وَفَلَاحٌ، وَعَلَى الطَّرِيقِ أَصْحَابٌ نَاصِحُونَ مُخْلِصُونَ لِلرَّجُلِ، يَنَادُونَهُ: ائْتِنَا وَإِيَّاكَ أَنْ تَضِلَّ، وَإِيَّاكَ أَنْ يَسْتَدْرِجَكَ الشَّيَاطِينُ إِلَى هَلَاكِكَ.

فهو لذلك حيران، هل يَسْتَجِيب لأصحابه المخلصين الناصحين؟ أو يُرْضِي أهواءَ نفسه وشَهَوَاتِهَا العاجلة وَيَسْتَجِيبُ لدعوة الشياطين، وَرُبَّمَا كَانَ مِنْ وَرَاءَ ذَلِكَ هلاكه؟.

وفي ظلال الصورة التمثيلية ما يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مَعَ أَصْحَابِهِ سَائِراً عَلَى الصِّرَاطِ، إِلَّا أَنَّهُ عَدَلَ عَنْهُ مُنْحَدِراً، استجابةً لاستهواء الشياطين له، فَهُوَ مُرْتَدٌّ عَلَى عَقِبِهِ.

٢ - ما أروعَ هَذِهِ الصُّورَةَ التَّمثِيلِيَّةَ الْمُتَنَزَّعَةَ مِنَ الْوَاقِعِ الْحَسِّيِّ وَمِنَ الْخِيَالِ. إِنَّهَا تُمَاطِلُ بِصِدْقٍ تَامٍّ مَنْ يَرْتَدُّ عَنْ صِرَاطِ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، إِلَى هَاوِيَةِ الْكُفْرِ بِاللَّهِ أَوِ الشَّرْكِ بِهِ، وَإِلَى حَالَةِ الْقَلْتِ وَالْحَيْرَةِ وَالْخَوْفِ مِنَ الْمَصِيرِ، وَشَيَاطِينِ الشَّرِّ وَالضَّلَالِ يَسْتَهْوُونَهُ بِزِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا.

٣ - فِي هَذِهِ الصُّورَةِ التَّمثِيلِيَّةِ مُعْظَمُ خَصَائِصِ الْأَمْثَالِ الْقُرْآنِيَّةِ، ففِيهَا دَقَّةُ التَّصْوِيرِ مَعَ إِبْرَازِ الْعُنَاوَرِ الْمَهْمَّةِ مِنَ الصُّورَةِ. وَفِيهَا التَّصْوِيرُ الْمُتَحَرِّكُ الْحَيُّ النَّاطِقُ، الَّذِي تَبَرَّزَ فِيهِ الْمَشَاعِرُ النَّفْسِيَّةُ وَالْوُجْدَانِيَّةُ وَالْحَرَكَاتُ الْفِكْرِيَّةُ. وَفِيهَا صِدْقُ الْمِمَاطِلَةِ إِلَى مَا يَقْرُبُ مِنَ التَّطَابُقِ. وَفِيهَا حَذْفٌ مَا يُمْكِنُ اسْتِدْعَاؤُهُ وَاسْتِكْمَالُهُ بِمَقْتَضَى اللَّزُومِ الَّذِي يَدْرِكُهُ الذَّهْنُ.

٤ - وَيَبْدُو أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ هَذَا الْمَثَلِ التَّحْذِيرُ مِنَ الرَّدَّةِ، وَمِنَ اسْتِهْوَاءِ الشَّيَاطِينِ إِلَيْهَا، مَعَ الْإِقْنَاعِ بِلَفْتَ النَّظَرِ إِلَى الْحَقِيقَةِ عَنْ طَرِيقِ صُورَةٍ مُشَابِهَةٍ لَهَا.

٥ - وَلَمَّا انْتَهَتْ الصُّورَةُ التَّمثِيلِيَّةُ وَحَقَّقَتْ أَغْرَاضَهَا طُوِيََتْ وَاسْتَمَرَّ النَّصُّ يَتَّبِعِي عَلَى الْمُمَثِّلِ لَهُ، أَوْ عَلَى مَا قَبْلَ الْمَثَلِ، كَأَنَّ الْمَثَلَ قَدْ جَاءَ مُعْتَرِضاً شَفَافاً غَيْرَ حَاجِزٍ، يُرَى مِنْهُ الْمُمَثِّلُ لَهُ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ:

﴿ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَأَمْرًا لِلْإِسْلَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٦١).

أي: أَمَرْنَا بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لِنُسَلِّمَ قُلُوبَنَا وَنُفُوسَنَا وَأَهْوَاءَنَا

وإرادتنا لله رب العالمين، خالقنا ورازقنا ومربينا ومُحيينا ومُميتنا، ومُجازينا بالعدل والفضل بقدرته، على وفق علمه وحكمته.
فالواجب علينا ألا نعبُد أحداً سوى الله ربنا.

* * *

التطبيق العاشر

قال الله تعالى في سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٥)

في هذه الآية يُمثل الله ضيق الصدر المعنوي الذي يُصيب الذين لا يؤمنون حينما يُدْعَوْنَ إلى الإسلام، ويُهدَوْنَ إلى أن يَسْمُوا إليه وَيَرْتَفِعُوا عن الإخلاق إلى الأرض، بضيق الصدر المادي الذي يحصل لمن يصعد في السماء، إذ تتناقص عليه في الطبقات العليا من الجو نسبة الأكسجين اللازمة لتنفسه، فيضيق صدره ويكاد يَخْتِنُقُ شيئاً فشيئاً كلما ارتفع صاعداً.

وكذلك الذي عُرِضَ عليه الإيمان الحق فلم يؤمن بالله واليوم الآخر، فإذا دُفِعَ به صُعوداً إلى الإسلام الذي هو التطبيقات السلوكية لما يُوجِبُه الإيمان، فإنه يَجْدُ صدره ضيقاً حرجاً، نافراً من التطبيقات الإسلامية التي لم يؤمن بجداها، ويكاد يَخْتِنُقُ إذا أُلْزِمَ بها، لأنه يَشْعُرُ بأن إرادته مُقَيَّدَةٌ غير حرّة، وبأن أهواءه مُحْبُوسَةٌ محجورٌ عليها.

تحليل المثل:

١ - نلاحظ هنا تمثيل ضيق الصدر بسبب نفسي هو الكفر، بضيق الصدر بسبب نقص الهواء وقلة كمية الأكسجين فيه.

٢ - صورةُ هذا المثل صورةٌ منتزعة من الواقع، إلا أن هذا المثل لم يكن معروفاً للناس عند نزول النص، لقد كان بالنسبة إليهم أمراً من أمور الغيب، ولما اكتشف الناس هذه الحقيقة بعد صعودهم إلى طبقات الجو العليا ظهرت إحدى معجزات القرآن العلمية.

٣ - إن التماثل بين المثل والممثل له قد بلغ من الدقة حداً قريباً من التطابق، فالإسلام في مكان السمو المعنوي، والإقبال عليه صعود، فهو يماثل من يصعد في طبقات الجو.

إلا أن المؤمن يحمل نسمات الحياة في قربة إيمانه فلا يضيق صدره، بل ينشرح للإسلام، بخلاف الكافر فإن الصعود إلى الإسلام يجعل صدره ضيقاً حرجاً لأنه لا يحمل نسمات الحياة معه.

٤ - في هذا المثل التصوير المتحرك الحي، الذي تبرز فيه المشاعر النفسية.

٥ - في هذا المثل صدق المماثلة بين المثل والممثل له.

٦ - يبدو أن الغرض من هذا المثل تقريب صورة الممثل له، بأمر يمكن أن يحس به الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم، فضيق الصدر من نقص الهواء من الأمور التي يشترك الناس جميعاً بالإحساس بها.

بحث اعتقادي حول مضمون المثل:

يستشهد بعض الناس بهذه الآية لتأييد مذهب الجبريين، الذين يرون أن الإنسان لا اختيار له، وإنما هو مجبور إما على الإيمان وإما على الكفر، إما على الطاعة وإما على المعصية.

وهذا خطأ في التصور، وعدم بصيرة في فهم النص.

وذلك لأن لله عز وجل في كونه المادي سنناً وقوانين، وهذه السنن والقوانين

مستمرة بقضاء الله وقدره العام، لا يتخلف منها شيء إلا بإرادة خاصة، ولحكمة تقتضي خرق السنة.

فَمَنْ أَلْقَى النَّارَ عَلَى شَيْءٍ قَابِلٍ للاحتراق السريع، احترق ذلك الشيء بسرعة، ضَمِنَ سُنَنُ اللَّهِ وقوانينه المستمرة، مع العلم بأن الله تعالى لو شاء لَمْ يَسْمَحْ بحصول هذا الاحتراق، ولعطل أثر القانون، وأوقف تأثير السبب. فالاحتراق أثر من آثار قانونه الذي أوجده هو في طبائع المحترقات، فهو من فعله تعالى، ولكن الذي ألقى شرارة النار بإرادته من الناس على ما مِنْ طَبْعِهِ الاحتراق في قانون الله، هو المسؤول عما كسب بإرادته.

ومن نَطَحَ الصَّخْرَةَ برأسه نطحاً ينكسر به رأسه، كَسَرَ اللَّهُ رأسه ضمن سننه الثابتة وقوانينه الدائمة. ولو شاء الله لَمْ يَسْمَحْ بِحُصُولِ هذا الكسر، ولعطل أثر القانون، وأوقف تأثير السبب، لكن تغيير قوانينه ليس ألوبة في أيدي اللاعبين. ومسؤولية ناطح رأسه مسؤولية تامة عن انتحاره بغير إذن من الله، أما تحقق أثر السنة الثابتة فَقَدْ تَمَّ بخلق الله عز وجل.

ومن قَطَعَ رَأْسَ إِنْسَانٍ بالسيف قَتَلَ اللَّهُ بِهِ ذَلِكَ الْإِنْسَانَ ضَمِنَ سُنَنُهُ الثابتة وقوانينه الدائمة. ولو شاء الله تعالى لَمْ يَسْمَحْ بِحُصُولِ القطع، ولا بتحقيق نتيجة القتل، ولعطل أثر القانون، وأوقف تأثير السبب، كما سَيَحْصُلُ لأفضل الشهداء الذي يتحدى الدجال فلا يستطيع الدجال بعد المرة الأولى قتله. ولكن الله تعالى لا يجعل تغيير قوانينه وسُنَنِهِ ألوبة في أيدي اللاعبين.

ونظير هذه السُنَنِ والقوانين الكونية الظاهرة، تُوجَدُ في طبائع النفوس سُنَنُ وقوانين، فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهَا عِبَادَهُ، وَأَثَارُهَا تُنْسَبُ إِلَى النَّاسِ كَسْباً، وَيُعْتَبَرُونَ مَسْئُولِينَ عَنْهَا مَسْئُولِيَّةً تَامَةً، لِأَنَّ كَسْبَهَا يَخْضَعُ لِإِرَادَاتِهِمْ الْحُرَّةِ، وَهِيَ فِي نَتَائِجِهَا تُنْسَبُ إِلَى اللَّهِ خَلْقاً. فَمَثَلُهَا فِي الْوَاقِعِ النَّفْسِيِّ، كَمَثَلِ مَنْ يُلْقِي شَرَارَةَ النَّارِ عَلَى الزَّيْتِ فيحترق الزيت بخلق الله، ضَمِنَ سُنَنُهُ الثابتة وقوانينه الدائمة في الواقع الحسي المشاهد.

وهكذا فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بما أَوْجَبَ الله الإيمان به، أي: اختار بإرادته الحرّة سبيل الكفر، لِكَبْرِ في نَفْسِهِ، أو لرَغْبَةٍ بالفجور، أو لعلّةٍ أخرى من عِلَلِ النفس، انطبَقَتْ عَلَيْهِ من سُنَنِ الله وقوانينه في الأنفس، ظاهرةٌ ضَيِّقُ الصَّدْرِ وَحَرَجُهُ، إذا هُوَ دُعِيَ إلى الإسلام، أي: إلى الاستسلام لأوامر الله ونواهيه، ولطاعة الله في ذات نفسه وفي ألوان سلوكه.

كَيْفَ يَقْبَلُ الاستسلامَ لله والطاعةَ له، وكيف يَنْشَرِحُ لذلك صَدْرُ مَنْ لَمْ يَخْطُ مِنْ جِهَتِهِ خُطْوَةَ الإيمان؟

إِنَّ الذي لا يؤمن بمبدأ من المبادئ لا يَقْبَلُ على فعل مقتضياته إِلَّا مَكْرَهًا مُنْقَبِضَ النَّفْسِ، غَيْرَ مُنْشَرِحِ الصَّدْرِ، وإذا فَعَلَهُ فَإِنَّهُ يَفْعَلُهُ وَنَفْسُهُ مِنْهُ في ضَيْقٍ شَدِيدٍ.

وهذا من طبائع النفوس، وطبائع النفوس مِنْ خلق الله، وهي من سُنَنِ الله وقوانينه، وهي في النفوس نظيرُ سُنَنِ الله وقوانينه الأخرى في طبائع الأشياء. يُوضِّح هذه الحقيقة قول الله تعالى في آخر الآية:

﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

أي: كذلك الرِّجْسُ الذي هو ضَيِّقُ الصَّدْرِ وَعَدَمُ انشراحه للإسلام الذي هو نتيجةٌ طَبِيعِيَّةٌ تقضي بها سُنَّةٌ من سنن الله في نفوس عباده، لرفض الإيمان وعدم قبوله، مع وضوح دلائله، يَجْعَلُ الله كُلَّ أنواعِ الرِّجْسِ وأفراده على الذين لا يؤمنون، ومنها عبادة الأوثان، ورجس الخمر والميسر وسائر الكبائر الجالبة للفساد والشرّ.

أَمَّا من آمن بالله واليوم الآخر، وصَحَّ يَقِينُهُ واطمأنَّ قلبه، فَإِنَّهُ سينشرح صَدْرُهُ للإسلام، نظرًا إِلَى أَنَّ الإسلامَ إِنَّمَا هو السَّلُوكُ الإرادي الذي يقتضيه الإيمان، ولا يَقِفُ دُونَ التَّطَبُّقِ ضَيْقٌ وَلَا حَرَجٌ في الصَّدْرِ، وقد يتعثّر التطبيق بعقبات الأهواء والشهوات، إِلَّا أَنَّهَا عوارضُ نَفْسِيَّةٍ، وَلَيْسَتْ مِنْ مَعْدِنِ الإرادة التي تَسْتَمِدُّ أَصْلَ توجيهها من جَذْرِ الإيمان.

وهكذا يظهر لنا أن المُنْطَلَقَ الأوَّلَ يَبْدَأُ مِنْ عِنْدِ الْإِنْسَانِ، إِذْ يَخْتَارُ بِإِرَادَاتِهِ
الْحُرَّةِ سَبِيلَ الْإِيمَانِ، أَوْ يَخْتَارُ سَبِيلَ الْكُفْرِ، فَإِنْ اخْتَارَ سَبِيلَ الْإِيمَانِ انْشَرَحَ صَدْرُهُ
لِتَطْبِيقَاتِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنَ النَّاتِجِ الطَّبَعِيِّ الَّتِي تَقْضِي بِهَا سُنَنُ اللَّهِ وَقَوَائِينُهُ
فِي نَفُوسِ عِبَادِهِ.

أَمَّا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ. وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ
صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾.

فَفَهْمُهُ يَتَوَقَّفُ عَلَى تَصَوُّرِ كُلِّ حَلَقَاتِ السَّلْسَلَةِ، مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى آخِرِهَا:

الحلقة الأولى: هي إيمان الإنسان بإرادته الحرة، أو كفره.

الحلقة الثانية: مَنْ آمَنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، أَي: لِلإِسْتِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ
ضِمَّنَ سُنَنَهُ وَقَوَائِينَهُ الَّتِي فَطَرَ عَلَيْهَا طِبَاعَ النَّفُوسِ. وَمَنْ كَفَرَ لَمْ يَشْرَحِ اللَّهُ صَدْرَهُ
لِلْإِسْلَامِ كَذَلِكَ.

الحلقة الثالثة: مَنْ أَسْلَمَ وَأَطَاعَ هَدَاهُ اللَّهُ بِإِرَادَتِهِ، أَي: حَكَمَ لَهُ بِالْهُدَايَةِ
وَجَعَلَهُ مَهْدِيًّا غَيْرَ ضَالٍّ. وَمَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلَّهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ بِإِرَادَتِهِ، أَي: حَكَمَ عَلَيْهِ
بِالضَّلَالَةِ، وَجَعَلَهُ ضَالًّا غَيْرَ مَهْدِيٍّ.

فَالْحُكْمُ مِنَ اللَّهِ بِهُدَايَةِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِرَادَةُ رَبَّانِيَّةٍ حَكِيمَةٍ، مُسْتَنَدَةً إِلَى إِسْلَامِ
الْعَبْدِ لِرَبِّهِ بَعْدَ إِيمَانِهِ بِهِ.

وَالْحُكْمُ مِنَ اللَّهِ بِضَلَالِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِرَادَةُ رَبَّانِيَّةٍ حَكِيمَةٍ، مُسْتَنَدَةً إِلَى تَمَرُّدِ
الْعَبْدِ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ بَعْدَ كُفْرِهِ بِرَبِّهِ، أَوْ بَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ.

فَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَبْدَأَ التَّعْبِيرَ مِنْ آخِرِ السَّلْسَلَةِ حَتَّى أَوَّلِهَا اسْتِقَامَ الْكَلَامِ إِذَا قُلْنَا
كَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ:

﴿فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ. وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ

صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴿٤٠﴾ .

فلا دليل في الآية لمذهب الجبريين، بل هي دليل لمذهب أهل السنة والجماعة . والحمد لله على ما وهب، ونسأله صحة الفهم، وحسن التبصر، وحسن التدبر.

التطبيق الحادي عشر

قال الله تعالى في سورة (الكهف / ١٨ مصحف / ٦٩ نزول):

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ .

﴿أَكِنَّةٌ﴾: جَمْعُ كَنٍّ . الكِن: هو البيت وكل ما يقي ويستتر وما يردُّ الحرَّ والبرد من الأبنية والمساكن . والأَكِنَّةُ: الأَغْطِيَةُ السَّاتِرَةُ الواقية .

﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾: أي: أَنْ يَفْهَمُوهُ فَهْمًا صَحِيحًا مُسْتَوْعِبًا مَعَانِيَهُ .

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾: أي: وفي آذانهم ثِقَلًا وَجَبَابًا يخف به سمعهم، وقيل: الوقْرُ هو الصَّمُّ الكَامِلُ الذي يذهب معه السَّمْعُ كُلُّهُ . والمعنى الأول هو الأقرب لآتساقه مع نفي الفقه الذي هو العلم القائم على الفطنة ودقة التأمل .

في هذه الآية ضرب الله مثلاً للصَّوَرِ المعنويَّة التي تصرف قلوب الكافرين الذين لا يعيرون بآيات الله إذا ذُكِّروا بها، فيعرضون عنها، ولا يهتمون بتذكر جرائمهم التي فعلوها وملاحظة عدل الله الذي هو نازل بهم لا محالة، بالأَكِنَّة التي تحجب مَنْ فيها عن الشعور بما وراءها، فتحجبُه عن نور الشمس وعن رؤية ما في مدى البصر من أشياء . وبالْوَقْرِ الذي يُحجَّب به السمع عن أصوات كثيرة .

إِنَّ انْصِرَافَ إِرَادَاتِهِمْ عَنِ الِاسْتِجَابَةِ لِلْحَقِّ تَسَبَّبَ فِي حَجَبِ قُلُوبِهِمْ عَنْ أَنْ تَفْقَهُ مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ آيَاتُ اللَّهِ الَّتِي يُذَكِّرُونَ بِهَا. وَتَسَبَّبَ فِي حَجَبِ آذَانِهِمْ عَنْ سَمَاعِ هَذِهِ الْآيَاتِ، فَكَأَنَّ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا مِنْ نَوْعِ خَاصٍّ يَحْجُبُ عَنْ سَمَاعِ آيَاتِ اللَّهِ الْمَنْزَلَاتِ.

وَقَدْ قَضَتْ الْمَقَادِيرُ الرِّبَانِيَّةُ فِي سُنَنِهَا الَّتِي لَا تَخْلُفُ - إِلَّا إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ بِتَخْلُفِهَا - أَنْ مَنْ رَفَضَ الِاسْتِجَابَةَ لِلدَّلَائِلِ الْإِيمَانِ بِإِرَادَتِهِ قَامَتْ عَلَى قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ الْحُجُبُ الصَّارِفَةُ لَهُ عَنِ الِانْتِفَاعِ بِالْمَذْكُورَاتِ مَهْمَا كَانَتْ أَنْوَارُ الْهَدَايَةِ فِيهَا مُشْرِقَةً سَاطِعَةً. فَمَهْمَا دَعَاهُمُ الدَّاعِي إِلَى الْهَدْيِ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْتَدُوا إِذَا أَبَدًا.

لَكِنَّهُمْ إِذَا تَغَيَّرَتْ إِرَادَاتُهُمْ فَاتَّجَهَتْ لِلِاسْتِجَابَةِ لِلْحَقِّ، زَالَتْ الْحُجُبُ الْمَعْنَوِيَّةُ الصَّارِفَةُ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَسَائِرِ حَوَاسِّهِمُ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَعَلَى مِقْدَارِ تَوَجُّهِ الْإِرَادَةِ الصَّادِقَةِ نَحْوَ ابْتِغَاءِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْهَدْيِ تَنَكَّشُفُ أَمَامَهُمْ دَلَائِلُ الْهَدَايَةِ، وَتَسْتَيِّرُ بَصَائِرُهُمْ لِفَهْمِ الْحَقِّ وَرُؤْيَةِ سُبُلِهِ.

فَمَثَلُ الصُّوَارِفِ الْمَعْنَوِيَّةِ لِقُلُوبِ الْكَافِرِينَ عَنْ فِقْهِ آيَاتِ اللَّهِ كَمَثَلِ الْأَكْنَةِ، وَمَثَلُ الصُّوَارِفِ الْمَعْنَوِيَّةِ لِآذَانِهِمْ عَنْ سَمَاعِ آيَاتِ اللَّهِ الْمَنْزَلَاتِ كَمَثَلِ الْوَقْرِ.

وَلَوْفَرَةِ عَنَاصِرِ التَّمَاثُلِ بَيْنَ الْمُمَثَّلِ بِهِ وَالْمُمَثِّلِ لَهُ نُزِّلَتِ الْأَكْنَةُ مَنَزَلَةَ الْحُجَبِ الْمَعْنَوِيَّةِ لِلْقُلُوبِ فَكَأَنَّهَا هِيَ، وَنُزِّلَ الْوَقْرُ مَنَزَلَةَ الْحُجَبِ الْمَعْنَوِيَّةِ لِلْسَّمْعِ فَكَأَنَّهَا هِيَ، وَبَيَّنَّتِ الْأَحْكَامُ عَلَى الْمَثَلِ كَأَنَّهُ عَيْنَ الْمُمَثِّلِ لَهُ.

وَيَلَاحِظُ فِي الْمَثَلِينَ دَقَّةَ التَّصْوِيرِ، وَصِدْقَ الْمِثَالَةِ، وَالِإِيجَازَ الْبَدِيعِ.

وَالْخَلْقُ الْقَدِيرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

هُوَ نَظِيرُ قَوْلِنَا: مَنْ ضَرَبَ رَأْسَهُ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ بَعْنَفٍ شَدِيدٍ كَسَرَ اللَّهُ

رأسه، ومن دخل في التنور الملتهب ناراً أحرقهُ الله فيه، ومن رمى نفسه في البحر واستسلم للغرق أغرقهُ الله فيه، ومن شرب سُمّاً ليقتل به نفسه قتله الله بسُمِّه، وكلّ هذه أسباب إرادية لها نتائج قدرية ضمن سنن الله الثابتة التي إذا أراد الله أوقفها لحكمة هو يَعْلَمُها.

ونظير ما جاء في هذه الآية ما جاء في قول الله تعالى في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُمْ وَلَوْ أَعْلَىٰ أَدْبَرُهمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾.

أما قول الله تعالى في سورة (لقمان / ٣١ مصحف / ٥٧ نزول):

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا نَتَلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

فقد جاء فيه التصريح بما يدل على التمثيل:

﴿كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا﴾:

أي: فالصوارف المعنوية التي تصرفه عن استماع آيات الله التي تتلى عليه، تشبه الوقر الذي تُصاب به آذان المرضى بثقل السمع أو الصمم.

بخلاف النصين السابقين فقد نُزِّلَ فيهما الوقْر منزلة هذه الصّوارف، ونُزِّلَتِ الأَكِنَّة منزلة الصّوارف التي تصرف القلوب عن فهم آيات الله، فكأنها هي، نظراً إلى وفرة عناصر التشابه.

وأما قول الله تعالى في سورة (الكهف / ١٨ مصحف / ٦٩ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِعَ عَنْهُمْ جَمْعًا ۝١٨ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝١٩﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝٢٠﴾.

فقد جاء فيه تمثيل الصّوراف المعنوية التي تصرّف أعين الكافرين عن رؤية الآيات الكونية التي تُذكر بالله، بالغطاء الذي يُغطي العين فيحجبها. ونُزل الغطاء في التعبير منزّل هذه الصّوراف المعنوية نظرًا إلى وفرة عناصر التشابه بينها وبين الغطاء.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾، فيه دلالة على أن تصميم إراداتهم على الكفر قد تسبّب عنه حجب أسماعهم حجباً كاملاً عن سماع أيّ قول يُذكرهم بالله، فهم بذلك لا يستطيعون السمع، كما لا يستطيع العاشق أن يسمع كلام اللّائمين، لأنّ نفسه تشمئز وتنفّر نفرةً شديدة من سماع مثل هذا الكلام؛ كذلك هؤلاء، فإن كراهيتهم للإيمان بعد تصميمهم على الكفر قد جعلت نفوسهم تشمئز وتنفّر نفرةً شديدة من سماع أيّ كلام يُذكرهم بالله واليوم الآخر، ويدعوهم إلى عدم الافتتان بالحياة الدنيا وزينتها، ويأمرهم بفعل الخير وعمل الصالحات، وترك الشرّ وعمل السيئات.

* * *

التطبيق الثاني عشر

قال الله تعالى في سورة (الأنبياء / ٢١ مصحف / ٧٣ نزول):

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ نَقْذِفُ: أي: نرمي.

﴿فَيَدْمَغُهُ﴾: أي، فيكسر رأسه حتى يُصيب دماغه. يقال: دَمَغَهُ يَدْمَغُهُ دَمْغًا، أي: ضرب رأسه فكسره فأصاب دماغه فقتله.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾: أي: فإذا هو مغلوبٌ مضمحلٌ مُتلاشٍ باطلٌ لا حياة فيه ولا حركة له.

في هذه الآية تمثيلٌ للصراع المعنوي بين الحق والباطل وانتصار الحق الربّاني على الباطل، بصورة قذيفة صلبة، وهي تُمثلُ حُجج الحق وبراهينه وقوى الربّانيين المناصرين له، فتصيبُ رأسَ هدفها فتكسره وتنفذُ إلى دماغه وترديه صريعاً قتيلاً متلاشياً، وهذا الهدفُ يُمثلُ الباطلَ وحججه الزائفة وهياكله المزخرفة المبهرجة، والقوى المادية التي تدعّمه وتنصره.

ويلاحظ في هذا المثل الإبداع في التصوير الحسي، وتجسيدُ الفكرة التي يُراد بيانها بمثال بالغ الروعة، ونظراً إلى التطابق بين صورة المثل وما ضرب له المثل، جعل المثلُ جزءاً مما ضرب له، فكأنه منه، وامتزج الممثلُ به بالممثل له الفاظاً وأحكاماً ونتائج، وبهذا تظهرُ خاصّة التنوع من خصائص الأمثال القرآنية. ويلاحظ في هذا المثل أيضاً دقّة التصوير مع الإيجاز المعجز، والتصوير المتحرّك.

* * *

التطبيق الثالث عشر

وقال الله تعالى في سورة (الأنبياء / ٢١ مصحف / ٧٣ نزول):

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذْ أَهْمُ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرَكَضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَنْوِيلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿قَصَمْنَا﴾: الْقَصْمُ كَسْرُ الشَّيْءِ الشَّدِيدِ حَتَّى يَبِينَ بَعْضُهُ عَنْ بَعْضٍ. وَمِنْهُ قَصْمُ الظَّهْرِ بِمَعْنَى كَسْرِهِ. وَيُقَالُ: قَصَمَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ إِذَا دَقَّهُ فَكَسَرَهُ فَبَانَ بَعْضُهُ

عَنْ بَعْضٍ . وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْقَصْمِ وَالْفَصْمِ - بِالْفَاءِ - أَنَّ الْقَصْمَ هُوَ أَنْ يَنْصَدِعَ الشَّيْءُ دُونَ أَنْ يَبِينَ بَعْضُهُ عَنْ بَعْضٍ ، بِخِلَافِ الْقَصْمِ ، فَفِيهِ زِيَادَةٌ مَعْنَى انْفِصَالِ بَعْضِهِ عَنْ بَعْضٍ انْفِصَالًا كَامِلًا .

﴿أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ : أَيُ : أَصَبْتُمْ فِيهِ تَرْفًا . وَالتَّرَفُ : هُوَ التَّوَسُّعُ فِي التَّنَعُّمِ بِمَلَاحِظَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا . وَالمُتَرَفُ : هُوَ الَّذِي أَبْطَرَّتْهُ النِّعْمَةُ وَسَعَةُ الْعَيْشِ . وَيُقَالُ : أَتْرِفْتُهُ النِّعْمَةَ . أَيُ : أَطْعَمْتُهُ .

﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ : أَيُ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ هَلَكِي كَالزَّرْعِ الْمُحْصُودِ بِالْمَنْجَلِ ، الزَّرْعِ الْحَصِيدُ : هُوَ الزَّرْعُ الْمُحْصُودُ .

﴿خَامِدِينَ﴾ : أَيُ : مَيِّتِينَ لَا حَرَكَةَ لَهُمْ وَلَا صَوْتَ ، فَلَا تَسْمَعُ لَهُمْ حِسًّا . وَعَنِ الرَّجَاجِ فِي ﴿خَامِدِينَ﴾ : أَيُ : سَاكِتِينَ قَدْ مَاتُوا وَصَارُوا بِمَنْزِلَةِ الرَّمَادِ الْخَامِدِ الْهَامِدِ .

وَأَصْلُ الْخُمُودِ سُكُونُ لَهَبِ النَّارِ ، فَقَدْ يَكُونُ الْمَرَادُ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنْ نَارَ بَغْيِهِمْ وَشَرِّهِمْ وَطَغْيَانِهِمْ قَدْ انْطَفَأَتْ بَعْدَ إِهْلَاكِهِمْ ، وَقَصْمَ حَيَاتِهِمْ وَكُلَّ قَوَاهِمِ .

فِي هَذَا النَّصِّ يَخْبِرُنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ أَقْوَامًا كَثِيرِينَ سَلَفُوا قَدْ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِظُلْمِهِمْ .

وَأَنَّ إِهْلَاكَهُمْ قَدْ جَاءَتْ قَبْلَهُ إِنْذَارَاتُ بَأْسِ الْعَذَابِ وَاقَعَ بِهِمْ ، كَرِيحِ عَاتِيَاتٍ ، وَتَغْيِيرَاتٍ مَخِيفَاتٍ فِي سَمَاءِ بُلْدَانِهِمْ وَقُرَاهِمُ ، وَأَنَّهُمْ لَمَّا أَحْسَوْا أَنَّ بَأْسَ اللَّهِ وَاقِعٌ بِأَرْضِهِمْ حَاوَلُوا أَنْ يَهْرُبُوا مِنْهَا ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي النَّصِّ :

﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ .

لَكِنَّ الْعَذَابَ مُحِيطٌ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَمَا يَتَّجِهُونَ إِلَى جِهَةٍ إِلَّا وَيَجِدُونَ الْعَذَابَ مُقْبِلًا عَلَيْهِمْ مِنْهَا ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى قُرَاهِمُ وَمَسَاكِنِهِمْ ، كَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ حَوْلِهِمْ يَقُولُ لَهُمْ :

﴿لَا تَرْكُضُوا. وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾.

إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ عَنِ الظُّلْمِ الَّذِي كَانُوا مِنْهُمْ، وَمُعَاقِبُونَ عَلَيْهِ بِعَذَابِ الْقَصَمِ
والاستئصال.

وَحِينَ رَأَوْا أَنَّ لَا نَجَاةَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ النَّازِلِ بِهِمْ مَهَّمَا حَاوَلُوا الْفِرَارَ، أَخَذُوا
يَصْرُخُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْوَيْلِ، وَيَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ، لَكِنَّ هَذَا الْاعْتِرَافَ
لَا يَنْفَعُهُمْ بَعْدَ أَنْ أَمْسَوْا تَحْتَ ضَرْبَةِ الْعَذَابِ الَّذِي قَضَى اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَلَقَدْ انْتَهَى
زَمَنُ التَّوْبَةِ.

لَمْ يَبْقَ أَمَامَهُمْ إِلَّا أَنْ يُرَدِّدُوا مَقَالَتَهُمُ الَّتِي صَارَتْ دَعَاءَهُمْ:

﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

وَتَتَابَعَتْ عَلَيْهِمُ الْمَهْلِكَاتُ الْقَاتِلَاتُ فَوْجًا بَعْدَ فَوْجٍ حَتَّى صَارُوا حَصِيدًا، أَيْ:
كَالزَّرْعِ الْمَحْصُودِ الَّذِي تَسَاقُطُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَحَتَّى خَمَدَتْ نَارُ شَرِّهِمْ
وَبَغْيِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ، وَانْقَطَعَتْ أَنْفُسُهُمْ، وَسَكَنَتْ أَجْسَادُهُمْ.

فِي هَذَا النَّصِّ نَلَاظُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ ضَرَبَ مَثَلًا لِإِهْلَاكِ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ
الظَّالِمِينَ، بِالْحَصِيدِ الَّذِي تَقْصِمُهُ الْمَنَاجِلُ، فَيَتَسَاقُطُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَتَأْتِي عَلَيْهِ
نَارٌ فَتُحْرِقُهُ بِسُرْعَةٍ، ثُمَّ تَخْمُدُ هَذِهِ النَّارَ، فَيَكُونُ الْحَصِيدُ رَمَادًا.

إِنَّهُ تَمَثِيلٌ فِيهِ حَرَكَةٌ، وَتَتَابُعٌ، وَدَقَّةٌ فِي التَّصْوِيرِ، وَإِبْدَاعٌ، وَإِيجَازٌ رَائِعٌ.

وَنَظَرًا إِلَى وَفَرَةِ عَنَاصِرِ التَّمَاثُلِ بَيْنَ الْمَثَلِ وَمَا ضَرَبَ لَهُ، نُزِّلَ الْمَثَلُ بِهِ مَنَزَلَةً
الْمَثَلِ لَهُ فَكَأَنَّهُ هُوَ، وَصَارَ الْمَثَلُ جُزْءًا مِنْ أَصْلِ الْمَوْضُوعِ الَّذِي يَتَحَدَّثُ عَنْهُ
الْبَيَانُ الْقُرْآنِيُّ.

* * *

التطبيق الرابع عشر

وصف الله عز وجل المهلكين من قوم عاد بالريح الصرصر العاتية بأنهم صاروا صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، وبأنهم أعجاز نخل منقر.

فقال الله تعالى في سورة (الحاقة / ٦٩ مصحف / ٧٨ نزول):

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾.

﴿بالطَّاغِيَةِ﴾: الطاغية صفة للمهلكة التي أهلكتهم، وهي من الطغيان الذي هو تجاوز الحد.

وقد جاء في سورة (هود) أن إهلاك ثمود قد كان بالصيحة، فهي إذن الصيحة العظيمة الطاغية التي كانت السبب في إهلاكهم، وقد أثبت التجارب العلمية أن من الأصوات ما يقتل، وما جاء في سورة (هود / ١١ مصحف / ٥٢ نزول) هو قول الله تعالى:

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثَمِينَ ﴿٦٧﴾ كَانُوا لَمْ يَعْنُوا فِيهَا إِلَّا إِنَّا ثَمُودٌ أَكْفَرُوا بِهِمْ ﴿٦٨﴾ أَلَا بَعْدَ لَثَمُودٍ ﴿٦٩﴾﴾.

وجاء في شأنهم أيضاً في سورة (القمر / ٥٤ مصحف / ٣٧ نزول):

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ مُخَضَّرٍ ﴿٢١﴾﴾.

الهشيم: هو النبت اليابس المتكسر. والمحتظر: هو صاحب الحظيرة.

﴿بريحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾: أي: بريح باردة، ذات صوتٍ، شديدة السرعة، ومثل هذه الريح قاتلة مدمرة، وهي معروفة في أحداث الكون، والريخ متى اشتدت وعتت اضطدمت بالأشياء فكان لها صوت مزعج مخيف، وهذا الصوت يُسمى

صَرْصَرَةً. ويقال أيضاً للريح شديدة البرد: ريحٌ صَرْصَرٌ. ومعنى (عَاتِيَةٌ) متجاوزةٌ للحدِّ، كالطاغية، ولا تكون الريح كذلك إلا إذا كانت عنيفة شديدة السرعة، لا تحتملها الأحياء ولا الأشياء.

﴿حُسُومًا﴾: أي: متتابعةٌ مُتَوَالِيَةٌ، فلم تَقْطُرِ الرِّيحُ الصَّرْصَرُ العاتية عنهم خلال هذه الأيام واللَّيالي المتتابعة، وإنما اسْتَمَرَّتْ عليهم كلُّ هذه الأيام واللَّيالي المتتابعة لتَحْسِمَ مَادَّتَهُمْ فلا تَبْقِيَ منهم أحداً، وأصلُ معنى الحَسْمِ في اللُّغة الْقَطْعُ والاستئصال، واكْتَسَبَ معنى التتابع لأن الدواء الحاسم والكيَّ الحاسم إنما يكونان بعد تكرار العلاج وتتابعه.

﴿صَرْعَى﴾: أي: هَلَكَى قد ماتوا. وصرعى: جَمْعُ صريع.
﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٌ﴾: أعجازُ النخل: أَصُولُ النَّخْلِ.
خاوية: أي: أجوافها فارغة بآلية لا شيء فيها.

وقال الله تعالى في سورة (القمر) / ٥٤ مصحف / ٣٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذْرٍ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذْرٍ ﴿٢١﴾﴾.
﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾: أي: أصول نخلٍ مُنْقَلَعٍ من أرضه.

نلاحظ أن الله تبارك وتعالى قد ضرب مثلاً لصورة الهلكى من ثمود بصورة (هَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ).

أي: بصورة أكوام النَّبْتِ اليابس المتكسّر بعضه فوق بعضٍ في حظيرة صَاحِبِ أُنْعَامٍ.

وَتَرِكَ لِلْخِيَالِ أَنْ يَسْتَكْمِلَ صُورَةَ هَذَا الْهَشِيمِ الَّذِي تَدُوْسُهُ الدَّوَابُّ بِأَرْجُلِهَا وَتُلْقِي مَا تُلْقِي عَلَيْهِ مِنْ فَضْلَاتِهَا.

إِنَّ الصَّيْحَةَ الْوَاحِدَةَ قَدْ أَهْلَكَتْهُمْ فِي مَكَانٍ تَجْمَعُهُمْ، وَلَمْ تَسْمَحْ لَهُمْ بِأَنْ
يَتَفَرَّقُوا، فَكَانُوا كَهَشِيمٍ فِي حَظِيرَةٍ.

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّصُورَةِ الْهَلَكَى مِنْ عَادٍ بِصُورَةِ أَعْجَازِ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ مِنْ أَرْضِهِ،
ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْأَعْجَازَ قَدْ بَلَيْتْ حَتَّى غَدَتْ أَجْوَافُهَا خَالِيَةً.

إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ أَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، صَارَتْ تَقْلَعُهُمْ مِنْ مَنَازِلِهِمْ
وَأَمَاكِنِهِمْ قَلْعًا عَنِيفًا وَتَرْمِيهِمْ صَرْعَى.

فَصُورَتُهُمْ وَهُمْ صَرْعَى مُتَفَرِّقُونَ كَصُورَةِ أَعْجَازِ النَّخْلِ الْمُنْقَعِرِ. وَصُورَتُهُمْ
بعد أن بَلَيْتْ أَجْوَافُهُمْ كَصُورَةِ أَعْجَازِ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ.

تحليل المثلين:

في هذين المثلين تبدو دِقَّةُ التَّصْوِيرِ، مع إبرازِ الْعَنَاصِرِ الْمَهْمَةِ مِنَ الصُّورَةِ
التمثيلية. وفيهما صِدْقُ الْمِثَالَةِ بَيْنَ الْمَثَلِ وَالْمُمَثِّلِ لَهُ.

وَالْمَثَلَانِ مِنْ قِبَلِ تَمَثُّلِ مُدْرِكٍ بِالْحَسِّ الظَّاهِرِ بِمُدْرِكٍ بِالْحَسِّ الظَّاهِرِ. إِلَّا أَنَّ
صُورَةَ الْمُمَثِّلِ لَهُ أَصْبَحَتْ غَائِبَةً مِنْ أُمُورِ الزَّمَانِ الْمَاضِي، وَصُورَةُ الْمُمَثِّلِ بِهِ صُورَةٌ
حَاضِرَةٌ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا، فَفِي كُلِّ زَمَانٍ مُحْتَظَرٌ لَهُ هَشِيمٌ فِي حَظِيرَتِهِ. وَفِي
كُلِّ زَمَانٍ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ، وَأَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ.

والصورة التمثيلية في المثلين منتزعة من الواقع.

وفي سورة (المؤمنون / ٢٣ مصحف / ٧٤ نزول):

قال الله تعالى، في شأن ثمود وهو الأرجح فيما أرى، أو في شأن عاد، كما
ذكر كثير من المفسرين:

﴿فَاخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدَ اللَّقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤١).

فقد أبان النصُّ هنا أن مَثَلَهُمْ بعد إهلاكهم كان كَمَثَلِ الْغُثَاءِ، الغشاء: هو

ما يعلو السيل من زبد وهشيم وقُمَامَات، فهو كقوله: ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمٍ مُّحْتَضَرٍّ﴾،
إِذِ الصُّورَتَانِ مُتَقَارِبَتَانِ.

* * *

التطبيق الخامس عشر

خَاطَبَ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):
﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا
يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ
اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٧٤).

في هذه الآية ضَرَبَ اللَّهُ الْقَسْوَةَ المَادِيَّةَ فِي الْحِجَارَةِ مَثَلًا لِلْقَسْوَةِ المعنوية في
قُلُوبِ الْمُخَاطَبِينَ.

أي: فَإِذَا قَارَنَّا بَيْنَ الْقُلُوبِ، وَوَجَدْنَا مِنْهَا مَا هُوَ هَيِّنٌ لِّئِنْ سَهَّلُ الاستجابة
لِلْحَقِّ وَلِمَوَاعِظِ الْهَدَايَةِ وَدَعْوَةِ الْخَيْرِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ أَخْفُ لِينًا، وَمِنْهَا مَا هُوَ قَاسٍ،
وَمِنْهَا مَا هُوَ أَشَدُّ قَسْوَةً. ثُمَّ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى الْأَشْيَاءِ المَادِيَّةِ، وَوَجَدْنَا مِنْهَا مَا هُوَ هَيِّنٌ
لِّئِنْ سَهَّلُ العريكة كعجين الدقيق الرطب، وَمِنْهَا مَا هُوَ أَخْفُ لِينًا كالعجين الذي
أَخَذَ يَجِفُّ، وَمِنْهَا مَا هُوَ قَاسٍ كَالطِّينِ الْيَاسِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ أَشَدُّ قَسْوَةً كَالْحِجَارَةِ
شَدِيدَةِ الصَّلَابَةِ.

إِذَا أَجْرَيْنَا هَذِهِ الْمُقَارَنَةَ وَجَدْنَا أَنَّ نِسْبَةَ قَسَاوَةِ قُلُوبِ الْمُخَاطَبِينَ مِنْ
بَنِي إِسْرَائِيلَ المعنوية تُمَازِلُ نِسْبَةَ قَسَاوَةِ الْحِجَارَةِ الصُّلْدَةِ المَادِيَّةِ، بَلْ قُلُوبُهُمْ أَشَدُّ
قَسْوَةً، لِأَنَّهُ لَا تَتَفَجَّرُ بِعَطَاءِ الْخَيْرِ مُطْلَقًا، مَعَ أَنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ فِي الْجِبَالِ مَا يَتَفَجَّرُ
مِنْهُ الْأَنْهَارُ، وَمِنْ الْحِجَارَةِ مَا يَشْقُقُ وَلَوْ بِصُعُوبَةٍ وَكَلْفَةٍ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ الْقَلِيلَ بَعِیُونَ
صَغِيرَةً، أَوْ يَرشَحُ مِنْهُ الْمَاءَ رَشْحًا، وَلَئِنْ قُلُوبُهُمْ مُتَعَالِيَةٌ مُسْتَكْبِرَةٌ لَا تَخْضَعُ
لِجَلَالِ اللَّهِ وَلَا تَسْجُدُ لَهُ وَلَا تَخْشَى مِنْ خَشْيَتِهِ، مَعَ أَنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ فِي شَاهِقَاتِ

الجبال ما يتشقق ويهبط إلى سفوحها أو إلى الوديان بمؤثرات الأمطار والسيول وغيرها.

ولما كان كل شيء في الوجود يُسَبِّحُ بحمد الله كما قال الله تعالى في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾ .

ولما كان كل شيء يَسْجُدُ لله تعالى كما قال الله تعالى في سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿ أَوْ لَعَلَّيْكُمْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفِيوْا ظِلَالَهُ عَنِ الْأَيْمَنِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۝٤٨ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩﴾ .

﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالَهُ﴾ : أي : يَرْجِعُ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ .

﴿دَاخِرُونَ﴾ : أي : صَاغِرُونَ أَذْلَاءَ .

وكما قال تعالى بشأن نباتات الأرض وأشجارها في سورة (الرحمن / ٥٥ مصحف / ٩٧ نزول):

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ .

﴿النَّجْمُ﴾ : كُلُّ مَا نَجَمَ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ نَبَاتٍ مِمَّا لَمْ يَكُنْ عَلَى سَاقٍ كَالْعُشْبِ وَالْبَقْلِ .

ولما كانت ظواهر حَرَكَاتِ الْأَشْيَاءِ الْمَادِّيَّةِ أَثَرًا مِنْ آثَارِ سُلْطَانِ اللَّهِ الْقَهْرِيِّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، ومَقْرُونًا بِمَعْنَى تَسْبِيحِ اللَّهِ وَالسُّجُودِ لَهُ ، كان هُبُوطُ الْحَجَارَةِ مِنْ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ هُبُوطًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، فَهُوَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ السُّجُودِ لَهُ سُبْحَانَهُ ، وَالْخُضُوعِ لِسُلْطَانِ قَهْرِهِ فِي قَضَائِهِ وَقَدْرِهِ .

* * *

التطبيق السادس عشر

قال الله تعالى في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ...﴾ (١٨٧)

﴿الرَّفَثُ﴾: الجماع ومُقَدَّماته. وقال: ﴿الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ على تضمين الرَّفَثِ مَعْنَى الإفشاء، فكأنه على تقدير: أحل لكم ليلة الصيام الرفث مفضين به إلى نسائكم.

في هذا النَّصِّ ضَرَبَ اللَّهُ اللَّبَاسَ مَثَلًا لِمَا يَكُونُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَزَوْجَتِهِ مِنْ مَبَاشَرَةِ الْجَسَدِ لِلْجَسَدِ، وَتَلَاصُقِهِمَا، وَتَدَاخُلِهِمَا، وَإِحَاطَةِ كُلِّ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ، وَطُولِ مُلَازِمَتِهِ لَهُ، مَعَ مَا فِي كُلِّ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ مِنْ سِتْرٍ وَدِفءٍ وَحَفِظٍ.

فالزوجةُ مِثْلُ اللَّبَاسِ لَزَوْجِهَا، والزَّوْجُ مِثْلُ اللَّبَاسِ لَزَوْجَتِهِ، نظرًا إلى أن اللَّبَاسَ مَبَاشِرٌ لِلْجَسَدِ، وَمُلَاصِقٌ لَهُ، وَمُدَاخِلٌ، وَمُحِيطٌ، وَسَاتِرٌ، وَحَافِظٌ، وَفِيهِ دِفءٌ، وَمُلَازِمٌ لِلإِبْسَةِ مُدَّةً طَوِيلَةً، وكذلك حالُ كُلِّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ الأَلْيَفَيْنِ لِصَاحِبِهِ.

هذه المعاني التفصيلية قد استغني عن ذكرها بقوله تعالى:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾.

ونظرًا إلى وفرة عناصر التشابه بين الممثل به والممثل له حَسُنَ تَنْزِيلُ الممثلِ به منزلة الممثل له فكأنه هو، وفي هذا التنزيل إشعارٌ بهذه الوفرة.

وَيُلَاحَظُ في هذا التمثيل دَقَّةُ التصوير، وصدق المماثلة، ووفرة عناصر التماثل، والإيجاز في ضرب المثل، وتنزيل الممثل به منزلة الممثل له.

* * *

التطبيق السابع عشر

قال الله تعالى في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥٦﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (لقمان / ٣١ مصحف / ٥٧ نزول):

﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿الرُّشْدُ﴾: والرُّشد والرَّشَادُ: نقيض الغي والضلال، وهو السداد في الأمور وإصابة وجه الحق والصواب والهداية. وإرشاد الضال، هو هدايته إلى الطريق وتعريفه بها.

﴿الْغَيِّ﴾: نقيض الرُّشد، وهو الضلال والخيبة، والفساد، وعصيان من تجب طاعته، وتنبك طريق الحق والنجاة.

﴿الطَّاغُوتِ﴾: من الطغيان وهو تجاوز الحد، وهو اسم يقع على كل ما يُعبد ويُطاع من دون الله، من شيطان، أو قائد من الإنس أو الجن مُضِلٍّ، أو غير ذلك. ولفظ (الطَّاغُوت) يطلق على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث.

﴿اسْتَمْسَكَ﴾: أي: اعتصم وأمسك بكل قبضته. قال الجوهري: أمسك بالشيء وتمسكت به واستمسكت به وأمتسكت، كله بمعنى اعتصمت. وكذلك مسكت به تمسيكاً.

﴿بِالْعُرْوَةِ﴾: عروة الدلو والكوز ونحوه مقيضه. وعرى المزايدة: آذانها. وعروة القميص: مدخل زرّه.

﴿الْوُثْقَى﴾: أي: شديدة الإحكام قوية الارتباط. والوُثْقَى مؤنث أوثق.

﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾: أي: لَا انْقِطَاعَ لَهَا، وَلَا انْكِسَارَ فِيهَا. وَالْانْفِصَامُ هُوَ
الانقطاع أَوْ الْانْكِسَارُ. وَالْفَصْمُ هُوَ الْكَسْرُ مِنْ غَيْرِ بَيْنُونَةٍ.

وَنَفْيُ الْانْفِصَامِ الَّذِي هُوَ الْكَسْرُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبِينُ الْمَكْسُورُ عَنْ أَصْلِهِ أَبْلَغُ مِنْ
نَفْيِ الْانْقِطَاعِ.

فِي هَذَيْنِ النَّصِينِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَمَثِيلٌ لِكُلِّ مَنْ الْإِيمَانِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ،
وَالْإِسْلَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى.

إِنَّ النِّجَاةَ وَالسَّعَادَةَ لَا يَتَحَقَّقَانِ إِلَّا بِرِضَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرِضَى اللَّهِ إِنَّمَا يَكُونُ
بِالْإِيمَانِ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَبِالْإِيمَانِ بِمَا أَمَرَ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَبِالْكَفْرِ بِالطَّاغُوتِ.
وَبِالْإِسْلَامِ لِلَّهِ تَعَالَى.

فَمَنْ يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَقَّقَ لِنَفْسِهِ شَرْطَ النِّجَاةِ، وَمَنْ يُسْلِمُ
وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُخْبِئٌ فَقَدْ حَقَّقَ لِنَفْسِهِ شَرْطَ السَّعَادَةِ.

وَمَنْ بَدِيعَ التَّمَثِيلِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ مَثَّلَ الْقُرْآنَ بِالْحَبْلِ الْمَدْلَى مِنْهُ لِعِبَادِهِ،
وَأَمَرَهُمْ بِالْإِعْتَصَامِ بِهِ، وَهُوَ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ (آلِ عِمْرَانَ /
٣ مَصْحَفٍ / ٨٩ نَزُولٍ):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٤﴾ وَأَعْتَصِمُوا
بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴿١٠٥﴾﴾.

وَقَدْ جَاءَ فِي بَيَانِ الرَّسُولِ ﷺ: أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينِ. فَتَأْوِيلُ الْحَبْلِ
هَنَا بِالْقُرْآنِ أَوْجُهُ وَجُوهُ التَّأْوِيلِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَحَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينِ هَذَا فِيهِ عُرْوَتَانِ، كُلُّ مِنْهُمَا عُرْوَةٌ وَثْقَى:

الْأُولَى: عُرْوَةُ الْإِيمَانِ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ، فَمَنْ تَمَسَكَ بِهَا نَجَا.

الثَّانِيَّةُ: عُرْوَةُ الْإِسْلَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ تَمَسَكَ بِهَا نَالَ السَّعَادَةَ الْعَظْمَى.
فَتَكَامَلَتِ الصُّورَةُ التَّمَثِيلِيَّةُ: حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَهُ عُرْوَتَانِ وَثِيقَتَانِ عُرْوَةٌ

الإيمان وعروة الإسلام، فمن تمسك بعروة الإيمان نجا، ومن تمسك معها بعروة الإسلام نال السعادة العظمى.

ويستطيع الذهن أن يتابع تكميل لوازم هذه الصورة التمثيلية، فمن تمسك بعروة الإيمان من حبل الله جذبهُ الله إلى النجاة وكان سعيداً، ومن تمسك بعروتي حبل الله الإيمان والإسلام جذبهُ الله إلى السعادة الخالدة العظمى.

* * *

التطبيق الثامن عشر

قال الله تعالى في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ يَأْتُهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾.

﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾: أصل الخَبَطُ الضَّرْبُ الشديد. والخَبَطُ ضَرْبُ البعير الشيء بخفَّ يده. والخَبَطُ الوطء الشديد على الأرض. وقيل: الخَبَطُ كُلُّ سير على غير هدى. ويقولون: خَبَطَهُ الشَّيْطَانُ وَتَخَبَّطَهُ إِذَا مَسَّهُ بِأَذَى وَأَفْسَدَهُ. والخَبَاطُ دَاءٌ كالجنون وليس بالجنون، ويُطلق على الصَّرْع.

﴿يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾: أي: يتوطؤه فيصرعه. والمس: الجنون.

(عن لسان العرب)

فريق من الناس رفضوا حُكْمَ الله في تحريم الربا، واعترضوا عليه بقولهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾، مع أن الحقيقة تثبت أن البيع ليس مثل الربا، فالربا ظلم واستغلالٌ بغير حق، ووسيلة لمنع التعاطف والتعاون الاجتماعي بالقرض الحسن، فكيف يكون البيع مثل الربا ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا؟!﴾.

إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ رَفَضُوا حُكْمَ اللَّهِ فِي تَحْرِيمِ الرِّبَا، فَكَفَرُوا بِهَذَا الرِّفْضِ، سَيَعَاقِبُونَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أَكْلِهِمُ الرِّبَا عِقَابًا فَوْقَ عِقَابِ الْكُفْرِ الَّذِي يَجْعَلُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

وهذا العقابُ الخاص الذي يُنَاسِبُ حالَهُم وهم يأكلون الرِّبَا إِذِ يَسْلُبُ الْإِثْرَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ عَاطَفَتَهُمُ الْإِنْسَانِيَّةَ. ويجعلُ أَفْكَارَهُمْ وَنَفُوسَهُمْ مُضْطَرِبَةً دَائِمَةً التَّطَلُّعَ لِمُضَاعَفَةِ رُؤُوسِ أَمْوَالِهِمْ مِنْ جَهْدِ الْآخَرِينَ وَشَقَائِهِمْ وَاسْتِغْلَالِ ضَرُورَاتِهِمْ، قَدْ ضَرَبَ اللَّهُ لَهُ مَثَلًا بِصُورَةِ الْمَجْنُونِ ذِي الْحَرَكَاتِ الْمُضْطَرِبَةِ فِي جُنُونٍ نَائِرٍ، يَمْشِي وَيَتَعَثَّرُ، وَيُضْطَلِّمُ بِالْأَشْيَاءِ، فَيَخْبِطُهَا جِدَارًا مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ، ثُمَّ جِدَارًا مِنْ ذَاتِ الشِّمَالِ، ثُمَّ شَجَرَةً، أَوْ صَخْرَةً، أَوْ حَيَوَانًا، أَوْ يَسْقُطُ فِي حُفْرَةٍ، أَوْ يَتَعَثَّرُ فَيَتَقَلَّبُ عَلَى دَرَكٍ، أَوْ يَنْزِلِقُ إِلَى هَاوِيَةٍ، فَتَأْتِيهِ الْخَبَطَاتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَهُوَ لَا يَرَى الشَّخْصَ الْمَسْئُولَ عَنِ الضَّرْبَاتِ الَّتِي تَتَهَاوَى عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، فَكَأَنَّمَا يَتَخَبَّطُهُ شَيْطَانٌ خَبِيثٌ عَدِيمُ الرَّحْمَةِ، خَفِيٌّ لَا تَرَاهُ أَعْيُنُ النَّاسِ.

وَكَانَ الْعَرَبُ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّ الَّذِي بِهِ مَسٌّ (أَي: جُنُونٌ) إِذَا تَارَ جُنُونُهُ وَاضْطَرَبَتْ حَرَكَاتُهُ وَأَخَذَ يَتَخَبَّطُ فِي الْأَشْيَاءِ، فَإِنَّمَا يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ جَنِيًّا شَيْطَانًا قَدْ تَسَلَّطَ عَلَيْهِ هَذَا التَّسَلُّطُ الْخَبِيثُ.

هَذِهِ الصُّورَةُ الَّتِي رَسَمْتُ لَنَا هَذَا اللَّوْنُ مِنَ الْعَذَابِ، قَدْ ضَرَبَ اللَّهُ بِهَا مَثَلًا لِعَذَابِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا فَلَا يُقْلِعُونَ عَنْهُ، وَلَا يُتَوَبُّونَ إِلَى بَارِئِهِمْ مِنْهُ، وَيَرَوْنَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَ شَيْئًا مُنْكَرًا، وَيَعْتَرِضُونَ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَيَرْفُضُونَهُ.

وَالصُّورَةُ فِي هَذَا الْمَثَلِ صُورَةٌ مُتَزَعَّةٌ مِنَ الْوَاقِعِ وَخَيَالِ النَّاسِ مَعًا، فَهِيَ مَزِيجٌ مِنْهُمَا.

* * *

التطبيق التاسع عشر

قال الله تعالى لرسوله في سورة (الأنفال / ٨ مصحف / ٨٨ نزول):

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾
يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ .

فريق من المؤمنين خرجوا مع الرسول ﷺ يوم بدر وهم كارهون لهذا الخروج، لأنهم لا يريدون قتال قريش والتعرض لِنِقْمَتِهَا.

وقد وعد الله رسوله والمؤمنين إحدَى الطائفتين: غير قريش وما في العير من أموالها، والنصر على نفير قريش الذين خرجوا بأسلحتهم ومؤونتهم لحماية العير. والله قضى بحكمته الثانية، ليُحَقِّقَ الحق بكلماته، والمؤمنون كانوا يودّون الأولى، لما فيها من حيازة الغنائم دون قتال كبير.

ولما نَجَتْ العير ولم يعد بإمكان المسلمين اللُّحوق بها تبين لهم أن وعد الله سيَتَحَقَّقُ بالنصر على النفير لا بالظفر بالعير.

ومع أن هذا الأمر قد تبين لهم وهم مؤمنون لا يشكون بوعد الله أخذ فريق منهم يُجَادِلُونَ الرسول في هذا الحق، تأثراً بالظواهر السببية، فالمشركون يَزِيدُونَ على ثلاثة أضعاف المؤمنين، ومعهم الأسلحة الكافية والمؤون الكثيرة، والمؤمنون قَلَّةٌ أَذِلَّةٌ لَمْ يُعِدُّوا للقتال عُدَّتَهُ، وغفلوا عن حقيقة يؤمنون بها وهي أن الله عز وجل إذا قضى أمراً حَقَّقَهُ بقدرته ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ .

ولما تقرر أمر القتال بعد استشارة الرسول ﷺ لأصحابه، وأبدى كبارهم وزعماءهم استعدادهم لما يُريد الرسول منهم، وجد الفريق الكارِه منهم أنفسهم أمام الأمر الواقع، فأخذوا يَسْتَعِدُّونَ لدخول معركة القتال ولكن بخوف شديد.

وقد ضرب الله مثلاً لحالة هؤلاء النفسية يومئذ بالحالة التي يُمكن أن يكونوا عليها لو أنهم كانوا يُسَاقُونَ إلى قتل مُحَقَّقٍ، على يد جَلَادٍ حَكَمَ عليهم بالموت، وهم ينظرون مشهَدَ أَعْمَالِ الْقَتْلِ التي تَسَاقُطُ فيه الرؤوس.

ففي هذا المثل تمثيل حالة نفسية قائمة مجهولة الكيفية، بحالة نفسية أخرى لا يجهل المخاطبون كفيّتها، أو باستطاعتهم تصوّر كفيّتها ومقدار الذعر فيها، ومآلها من آثار في الوجوه وحركات الجسم.

* * *

التطبيق العشريون

قال الله تعالى في سورة (الأحزاب / ٣٣ مصحف / ٩٠ نزول):

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٨)
 أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ ينظرون إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالْأَسِنَّةِ حَدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١٩).

﴿الْمُعَوِّقِينَ﴾: أي: المشبطين. وهم قوم من المنافقين كانوا يُشَبِّطُونَ المؤمنين عن نصره رسول الله ﷺ في غزوة الأحزاب، ويقولون لإخوانهم: تعالوا إلينا واتركوا مواجهة الأحزاب من المشركين المحاصرين وراء الخندق.

﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾: أي: تعالوا إلينا. هَلُمَّ: في لغة أهل الحجاز يُخَاطَبُ بها على الإفراد: المفرد والمثنى والجمع.

﴿سَلَقُوكُمْ بِالْأَسِنَّةِ حَدَادٍ﴾: أي: أسمعوكم ما تكرهون من القول مع صياح ورفع صوت، وأذكوم في الكلام بالأسنة سليطة جارحة. يقال: سُيِفٌ حَدَادٌ، أي ماضية لركة شفراتها وصلابة حديدتها. ويقال: الأسنة حَدَادٌ، على تشبيهه الأسنة الجارحة للمشاعر بالسُيُوف الجارحة للأبدان.

وأصل السَّلَقِ شِدَّةُ الصَّوْتِ.

﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ - أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ﴾: أي: أَشْحَةً بأموالهم عليكم، وَأَشْحَةً

بأموالهم على وجوه الخير. الشُّحُّ: أشدُّ البخل، يقال لغةً: شَحَّ بالشيء، وعلى الشيء بمعنى بَخِلَ به وحرَّص عليه.

إِنَّهُمْ منافقون ليسوا بمؤمنين، فتظاهروهم بالإسلام تظاهراً بما لا يعتقدون، وتظاهروهم بالولاء للمؤمنين تظاهراً يخالف ما يضمرون.

والبذلُّ الصادقُ إنما يكونُ بدافعٍ داخليٍّ، والمنافقون لما كانَ ولاؤُهُم للمؤمنين ولاءً كاذباً، ولا يُعبِّرُ عن دافعٍ داخليٍّ فيهم فَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَكُونُوا أَشْحَةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. ولما كانَ إِسلامُهُم إِسلاماً ظاهرياً يخالفُ ما في قلوبهم من كُفْرٍ، فمن الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَكُونُوا أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ، لأنَّ البذلَ فيما يأمرُ الإسلامُ بالبذل فيه هو بذل في الخير.

﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾: إحباط العمل إبطاله، وإيقافه عن تحقيق أثره.

لقد عمِلَ المنافقون في غزوةِ الْأَحْزَابِ أَعْمَالاً مُخْتَلِفَةً فِيهَا تَشْبِيهُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَخَذْلٌ وَتَهْرُبٌ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

وقد وصف الله الحالةَ النفسيَّةَ للمنافقين عِنْدَ الْخَوْفِ الَّذِي يَتَعَرَّضُ الْمُؤْمِنُونَ لَهُ بِقَوْلِهِ:

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾.

إِنَّهُمْ بِحَسَبِ مَا يُخْشَوْنَ فِي صُدُورِهِمْ لَا مَصْلَحَةَ لَهُمْ فِي قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ، وَالتَّعَرُّضُ لِلْمَخَافِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَبِحَسَبِ مَا يُظَاهَرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِسْلَامٍ وَوَلَاءٍ مُضْطَرُونَ أَنْ يَتَّظَاهَرُوا بِمُوَافَقَةِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى قِتَالِ عَدُوِّهِمْ، فَيَقَعُونَ فِي حَالَةِ التَّنَاقُضِ بَيْنَ مَا يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّظَاهَرُوا بِهِ، وَمَا يُرِيدُونَ أَنْ يَحْقُقُوهُ فِعْلاً بِأَعْمَالِهِمْ ذَاتِ الْأَثَارِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَعِنْدَ الْخَوْفِ تَشْتَدُّ حَالَةُ التَّنَاقُضِ هَذِهِ، لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ مُطْلَقاً

أَنْ يُضَحُّوا بِأَنْفُسِهِمْ فِي أَمْرِ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُضْطَرُّونَ أَنْ لَا يَكْشِفُوا مَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ كُفْرٍ، وَيُلِحُّ عَلَيْهِمُ الْخَوْفُ فَيَنْظُرُونَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَإِلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنْ أَعْيُنُهُمْ تَدُورُ مِنْ أَثَرِ اضْطِرَابِ نُفُوسِهِمْ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ. وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِحَالَتِهِمْ هَذِهِ بِحَالَةِ الَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَتَدُورُ عَيْنَاهُ. أَيْ: إِنَّ الذَّعَرَ يَكَادُ يُوَصِّلُهُمْ إِلَى حَالَةٍ تَشْبَهُ حَالَةَ مَنْ أَخَذَ الْمَوْتَ يَغْشَاهُ.

* * *

التطبيق الحادي والعشرون

قال الله تعالى في سورة (الرعد / ١٣ مصحف / ٩٦ نزول):

﴿لَهُدَّوْعَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيَّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾﴾.

في هذا النص القرآني تمثيلُ دُعَاءِ الكافرين الذين يدعون من دون الله ويرجؤون من دُعَائِهِمْ خيراً لهم، بمن يَسْطُ كَفَّيَّهِ من بعيد إلى الماء ليلبغ فاه، ثم لا يستخدم وسيلةً صحيحةً ينقل بها الماء إلى فمه، فهل ينفعه عَمَلُهُ شيئاً؟ كذلك الذين يدعون من دون الله لَا يَنْفَعُهُمْ دُعَاؤُهُمْ شيئاً.

تحليل المثل:

١ - يلاحظ في هذا التمثيل أنه من قبيل التمثيل البسيط، فالممثل به: إنسانٌ باسِطٌ كَفَّيَّهِ إلى الماء عن بُعْدٍ ليلبغ فاه، دون أن يتَّخِذَ الوسائل الصحيحة التي تُوصِلُ الماءَ إلى فيه.

وقد يقال: هو من التَّمثِيلِ المركَّبِ إذا جزأنا العناصر، فجعلنا وَقُوفَ الإنسان بعيداً عن الماء جزءاً من الصورة، وَبَسْطَ يَدَيْهِ جزءاً آخر، والماء جزءاً ثالثاً، ورغبة هذا الإنسان في أن يلبغ الماءَ إلى فيه جزءاً رابعاً.

وعلى هذا يُمكنُ إجراءُ التقابل الجزئي بين عناصر المثلِ وعناصر الممثلِ.

لَهُ. فِدْعَاءُ الدَّاعِي الَّذِي يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ كَبَسَطَ الْكَفَّيْنِ لَطَالِبِ الْمَاءِ، وَمَا يَرْجُوهُ مِنْ أَوْثَانِهِ كَالْمَاءِ الَّذِي يَطْلُبُهُ الظَّامِيُّ بِأَسْطِ كَفِّهِ، وَحَاجَتُهُ النَّفْسِيَّةَ كَحَاجَةِ الظَّامِيِّ، وَعَدَمُ تَحَقُّقِ الْمَطْلُوبِ لِلدَّاعِي كَعَدَمِ تَحَقُّقِ الْوُصُولِ إِلَى الْمَاءِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى بَاسِطِ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ عَنْ بُعْدٍ.

٢ - وهذا التمثيلُ هو من قبيل تمثيل مُدْرِكٍ بالحسِّ الظاهر ومُدْرِكٍ فِكْرِيٍّ ووجداني، بِمُدْرِكٍ بالحسِّ الظاهر ومُدْرِكٍ وُجْدَانِيٍّ، فهو من قبيل الصورة التمثيلية المختلطة.

٣ - والصورة التمثيلية في هذا المثل صورةٌ منتزعةٌ من الخيال، إِذْ لَا نَجْدُ إِنْسَانًا سَوِيًّا أَوْ غَيْرَ سَوِيٍّ يَقِفُ عَنْ بُعْدٍ عَنِ الْمَاءِ وَيَبْسُطُ كَفَّهُ إِلَيْهِ لِيَلْغُ فَاهُ.

٤ - والغرضُ من هذا المثل - مع تقريب صورة الممثل له إلى ذهن المخاطب - التَّنْفِيرُ مِنْ دُعَاءِ غَيْرِ اللَّهِ، وَالْإِقْنَاعُ بِلَفَتْ النَّظَرِ إِلَى الْحَقِيقَةِ عَنْ طَرِيقِ صُورَةٍ مُشَابِهَةٍ.

٥ - ومن الواضح في هذا المثل دَقَّةُ التَّصْوِيرِ، مع إبرازِ العناصرِ المهمَّةِ من الصورة التمثيلية. وَصِدْقُ المماثلة بين المثل والممثل له.

٦ - والتنويع في عرض المثل، فقد جاء هنا عقب استثناء يُشْعِرُ في مقدمته بحصول شيء من الاستجابة فإذا بالمثل يُوَكِّدُ في مَضْمُونِهِ عَدَمَ حُصُولِ أَيِّ مَقْدَارٍ مِنَ الاستجابة.

٧ - ودَقَّةُ التصوير تظهر لنا حينما نتابع الصورة التمثيلية، فنشاهد في لوحتها إِنْسَانًا مُنْدَلِجَ اللِّسَانِ مِنْ شِدَّةِ الظَّمَا، تَبْدُو عَلَيْهِ عَلَامَاتُ الْبَلَاهَةِ، وَاقِفًا عَلَى شَفَا بئرٍ فيها ماء، بِأَسْطِ كَفِّهِ فِي اتِّجَاهِ الْمَاءِ، يَدْعُوهُ وَيَرْجُوهُ أَنْ يَأْتِيَ إِلَى فَمِهِ لِيَشْرَبَ مِنْهُ وَيُرْوِيَ ظَمَاهُ، وَيَظَلُّ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ دُونَ أَنْ يَتَخَذَ الْوَسَائِلَ الَّتِي تَنْفَعُهُ، فَلَا الْمَاءُ بِالْغَى إِلَى فَمِهِ، وَلَا هُوَ عَائِدٌ إِلَى رَشْدِهِ.

هذه اللوحة التمثيلية تصوّر بلاهة الرجل، وخيبة مسعاه، وتعريض نفسه للهلاك، وهو يظنُّ أنه يفعل شيئاً لنجاته، أو لتحقيق مطالبه.

وكذلك حال الذين يدعون من دُون الله، إنهم يرجون مطالبَ حياتهم ممَّا اتَّخذوه شركاءَ لله، أو يرجون نجاتهم منهم، وهم لا يجلبون لهم نفعاً، ولا يدفعون عنهم ضرراً، فيقفون لشركائهم متوسلين داعين، ولا يتخذون الوسائل الحقيقية التي تنفعهم، فتنتهي قصة حياتهم بالخيبة، ويثبتون على أنفسهم أنهم كانوا بلهياً، وأنهم خسروا أنفسهم بحماقاتهم، كما فعل ذلك الأبله الظالم إذ بسطَ كفيه إلى الماء داعياً ليلبغ فاه.

٨ - ولا يخفى علينا أن بعض ما طوي في اللفظ من المثل من السهل استكماله، إذ يستدعيه التصوّر الذكي.

٩ - ولما انتهى عرض لوحة المثل طويت واستمر النص بيني على ما يستدعيه الممثل له، فقال الله تعالى:

﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

وهذا كما عرفنا من خصائص الأمثال القرآنية، إذ قد تعرض صورة المثل، ثم تطوى، ويستمر النص بانياً القضايا على ما كان قبل المثل، أو بانياً القضايا على الممثل له.

التطبيق الثاني والعشرون

قال الله تعالى في سورة (الحجّ / ٢٢ / مصحف / ١٠٣ / نزول):

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿عَلَى حَرْفٍ﴾: أي: على طَرَفٍ، حرفٌ كلُّ شيءٍ طَرَفُهُ.

إِنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ ذاتُ مستويات بعضها أرقى من بعض، فبعضُ النَّاسِ يَعْبُدُ اللَّهَ من مُستوى مَحَوِّرِ المَحَبَّةِ. وبعضهم يَعْبُدُ اللَّهَ من مُستوى مَحَوِّرِ التَّعْظِيمِ والإِجْلَالِ والانتِماءِ إِلَيْهِ بِالْعُبُودِيَّةِ، وبعضُهم يَعْبُدُ اللَّهَ من مُستوى مَحَوِّرِ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ. وبعضُهم يَعْبُدُ اللَّهَ من مُستوى مَحَوِّرِ الطَّمَعِ وَالْخَوْفِ، وَمَنْ عبدَ اللَّهَ من مُستوى أرقى هو عابدُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ المِستوياتِ التي هي دونه، ولا عكس.

وَأَدْنَى مُستوياتِ العِبَادَةِ هِيَ العِبَادَةُ من مُستوى مَحَوِّرِ الطَّمَعِ والخوفِ. وَلِهَذهِ الدَّرَجَةُ الدُّنْيَا وَسَطٌ وطرف، أَمَّا وَسَطُهَا فيكونُ بمِلاحِظَةِ الآخِرَةِ وما فيها من نعيمٍ وعذابٍ، وَأَمَّا طَرَفُهَا فيكونُ بمِلاحِظَةِ ثَوَابِ العاجِلَةِ وَعِقَابِهَا فقط، وَمَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ على هذا الطَّرَفِ لَا يَثْبُتُ لِلْفِتْنَةِ، سواءً أَكانَتْ الفِتْنَةُ مِنْ قَبِيلِ الْمُغْرِبَاتِ المادِيَةِ والمِطامِعِ الدُّنيويَةِ، أو كانت من قَبِيلِ المِصائبِ والآلامِ، وهذا الصَّنْفُ من النَّاسِ هو الصَّنْفُ الَّذِي ذَكَرَهُ النِّصُّ هُنا، فَهو يَعْبُدُ اللَّهَ على طَرَفِ المِطامِعِ والمِخاوِفِ الدُّنيويَّةِ العاجِلَةِ فقط.

لِذلكَ فمَوقِعُهُ في الدِّينِ مَوقِعٌ قَلْبٌ غَيْرُ مِطمَئِنٍّ، إِنَّ أَصَابَهُ بانِتمائِهِ لِلدِّينِ خَيْرٌ دُنْيويٌّ سِواءً أَكانَ يَجْلِبُ نِفعٌ لَهْ أو يَدْفَعُ ضَرٌّ عَنْهُ اِطمِئنانٌ في مَوقِعِهِ بِسَبَبِ هَذا الخَيرِ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ فَمَسَّهُ ضَرٌّ وَهو في مَوقِعِهِ أو جِاءَهُ إِغراءٌ يفتِنُهُ عَن دِينِهِ لِيُخْرِجَهُ مِنْهُ، تَرَكَ مَوقِعَهُ الكائِنَ على الطَّرَفِ وَذهبَ مُرتَدًّا كَافِرًا.

وحيثُ يَكْفُرُ بِاللَّهِ وَيَتْرَكَ عِبادَتَهُ، فَسَيَجِدُ نَفْسَهُ أَمامَ مِطالبِ حِياتِهِ التي لَيسَ في اسِطِطاعتِهِ أَنْ يَجلبِها لِنَفْسِهِ، مَدفوعاً إِلى عِبادَةِ أَوثانٍ يَدْعُوها، وَهي لا تَمْلِكُ لَهْ ضَرًّا ولا نِفعاً، أو إِلى عِبادَةِ أربابٍ مِنَ الْإِنسِ أو الْجِنِّ يَدْعُوها مِنَ دُونِ اللَّهِ، وَضَرُّها أَقربُ مِنْ نِفعِها، فَهو إِذْنٌ كَما قالَ اللَّهُ تَعالَى:

﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نِفعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾، وَهي الْأوثانُ وَأَشباهاها، أو هُوَ كَما قالَ اللَّهُ تَعالَى:

﴿يَدْعُو لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبِئْسَ الْمَوْلَى وَلِبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾، وهم الأرباب من الإنس والجنّ.

وهكذا حصل لمن أنكر وجود الله، واتّخذ من الناس أرباباً يُطِيعُهُمْ في الشرّ، ويَخْدُمُهُمْ، وَيَنْفِذُ أوامره ونواهيهم، إِنْ حَصَلَ على بعضِ منافعِ ماديةٍ بسبب طاعته لهم أصابَهُ بلاءٌ كبيرٌ وضرٌّ كثيرٌ من قبلهم، لأنَّهُمْ أَرَادُوا التَّخْلُصَ مِنْهُ بعد أن اسْتَفْتَدُوا أَغْرَاضَهُمْ من خِدَمَاتِهِ، أو مِنْ قِبَلِ أعدائِهِمْ، لأنَّ من كان مِنْ جُنْدِ الأعداء كان هو من الأعداء، فيصيبُهُ من الانتقامِ مثلُ ما يُصِيبُهُمْ وأكثر.

والأرباب من الإنس أو الجنّ هم أسوأ الإنس والجنّ أخلاقاً، إِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ إِلَّا مَصَالِحَ أَنْفُسِهِمْ، وَمَتَى وَقَعَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِهِمْ فِي الْبَلَاءِ تَخَلَّوْا عَنْهُ فَلَمْ يَنْصُرُوهُ، وَإِذَا كَانَ فِي عِشْرَتِهِمْ أَيَّامُ الدَّعَةِ وَالرَّخَاءِ وَالنُّصْرَ اسْتَأْثَرُوا مِنْ دُونِهِ بِالْخِيَرَاتِ وَالْمَنَافِعِ، وَرُبَّمَا أَلْقَوْا إِلَيْهِ فُتَاتَ مَوَائِدِهِمْ فَقَطْ، إِنَّهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿لِبِئْسَ الْمَوْلَى وَلِبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾.

هذا ما نفهمه من جملة النصّ، ولكنّ الذي يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ، قد جاء تصويره في صورةٍ بديعةٍ امتزج فيها الممثلُ له بالمُمَثَّلِ به.

فالممثلُ لَهُ هو من يَعْبُدُ الله من مستوى المطاعم والمخاوف الدنيوية فقط، فهو لَا يَثْبُتُ أمامَ الفتنَةِ، سواء أكانت من قبيل المغريات أو المصائب والآلام الدنيوية.

والممثلُ به من يَدْخُلُ مع قوم دُخُولَ طَالِبِ الْمَغْنَمِ فقط، فهو يَجْلِسُ على طَرَفِ مَنَازِلِهِمْ، وفي أواخرِ مَوَاقِعِهِمْ قَلْباً مُسْتَوْفِزاً مُسْتَعِدّاً لِلْهَرَبِ، فَإِنْ وَجَدَ معهم مَغْنَمًا اسْتَقَرَّ فِي مَوْقِعِهِ واطْمَأَنَّ وَأَصَابَ مِنَ الْمَغْنَمِ، وَإِنْ وَجَدَ أَنْ مَصِيبَةً يُمَكِّنُ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ فَيَصِيبُهُ مِنْهَا شَيْءٌ، أَوْ لَاحَتْ لَهُ مَغْنَمٌ عِنْدَ أَعْدَائِهِمْ تَرَكَهُمْ وَانْقَلَبَ عَلَيْهِمْ.

ولكنّ الصُّورَةَ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ أَدَقَّ مِنْ هَذِهِ الصُّورَةِ، إِنْ الْمَرْتَدُّ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ

مُتَّكِسٌ عَلَى وَجْهِهِ، وَسَاقِطٌ إِلَى مُنْحَدَرٍ، فَهُوَ كَمَنْ يَنْقَلِبُ عَلَى وَجْهِهِ بَعْدَ أَنْ يَتْرَكَ الْقَوْمَ الَّذِينَ دَخَلَ فِي طَرَفِ مَوَاقِعِهِمْ طَمَعاً بِالْمَغَانِمِ لَدَيْهِمْ، كَذَلِكَ جَاءَ تَصْوِيرُ الْمَثَلِ.

ومن البديع في هذا المثل أنه استعير منه للممثل له الفقرة التالية فقط من النص:

﴿عَلَى حَرْفٍ. فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾.

وما قبل هذه الفقرة وما بعدها كلامٌ يتعلق بالممثل له، وهو من يعبد الله على طرف من الدين، كما سبق في البيان.

وبهذا نلاحظ أن المثل قد جاء مُمْتَزِجاً بالممثل له، وبمثابةٍ جُزْئٍ من أجزائه، وهذا من روائع التنويع في ضَرْبِ الأمثال.

ومن دقة التصوير في هذا المثل ما نَلَمَحُهُ فِيهِ مِنْ وَضْعِ الدَاخِلِ فِي الْقَوْمِ الْجَالِسِ عَلَى حَرْفٍ مَنَازِلَهُمْ، فَالْصُّورَةُ تُوحِي بِأَنَّ مَنَازِلَهُمْ عَلَى مَرْتَفَعٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَقَدْ جَلَسَ هَذَا الدَاخِلُ فِيهِمْ عَلَى حَرْفِ الْمَرْتَفَعِ، فَهُوَ عَلَى شَفَا هَاوِيَةٍ. وَالصُّورَةُ تُوحِي بِأَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ نَحْوَ الْقَوْمِ تَمَاماً، بَلْ يُعْطِيهِمْ طَرَفَهُ، وَيَلْتَفِتُ إِلَيْهِمُ التَّفَاتِياً لِيَعْنَمَ مِنْ مَغَانِمِهِمْ، لِأَنَّهُ عِنْدَ الْفِتْنَةِ يَنْقَلِبُ إِلَى الْهَآوِيَةِ عَلَى وَجْهِهِ، وَلَوْ كَانَ كُلُّ صَدْرِهِ وَوَجْهِهِ إِلَى الْقَوْمِ لَكَانَ التَّصْوِيرُ الدَّقِيقُ يَسْتَدْعِي أَنَّهُ عِنْدَ الْمَفَاجَأَةِ يَنْقَلِبُ عَلَى رَأْسِهِ مِنْ جِهَةِ ظَهْرِهِ.

وَلَمَّا وَقَعَتِ الْفَقْرَةُ مِنَ الْمَثَلِ مَوْقِعَ الْمُمَثِّلِ لَهُ تَمَاماً بَنَى النَّصُّ عَلَيْهَا الْكَلَامَ كَمَا لَوْ كَانَتْ عَيْنُ الْمُمَثِّلِ لَهُ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

أَمَّا خُسْرَانُ الدُّنْيَا فَهُوَ خُسْرَانُ سَعَادَتِهِ فِيهَا، وَخُسْرَانُ حَيَاتِهِ إِذَا حَكَمَتْ عَلَيْهِ

الدولة الإسلامية بالردّة، وأمّا خسران الآخرة فيظهر فيما يحقّق به من عذاب أليم في جهنم مأوى الظالمين. وذلك هو الخسران المبين.

ففي المثل الإبداع، ودقّة التصوير، والتصوير الحي المتحرك، وصدق المماثلة بينه وبين الممثل له، والإيجاز بحذف ما يمكن أن يستدعيه ذهن الألمي، والبناء على المثل والحكم عليه كأنّه عين الممثل له، والإبداع هنا يتمثل بالمزج الرائع بين المثل والممثل له حتى ليكاد الأمر يخفى، ولا يكشفه إلا التأمل الدقيق.

* * *

التطبيق الثالث والعشرون

قال الله تعالى في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (٢١)

في هذه الآية تمثيل لا يتكاس الإنسان بشركه بالله، وسقوطه السريع على رأسه، من سماء عبوديته للرّب الأعلى وشرف هذه النسبة، إلى أسفل سافلين، إلى مكان تمزّقه وسحيق هلاكه.

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، ورفعه بالتكوين إلى مرتبة عبوديته له، وتحرّره من العبودية لمن سواه، فإذا اختار الإنسان بإرادته أن يشرك بربه، أي: أن يجعل نفسه عبداً لبعض ما خلق الله، أو لبعض من خلق، فقد أسقط نفسه من مرتبته، وبسقوطه انتكس على رأسه، فخرّ من مرتبة السموّ، وهوى إلى سحيق مهلك، ونفسه في سقوطه تتمزّق من كلّ جانب، لأنه لا يجد الطمأنينة، ولا سعادة الحياة الدنيا فيما هو فيه من شرك، ثم إذا انتهت حياته ووافته منيته لقي حسابه وعذابه عند ربه.

فما جاء في المثل يحاكي محاكاة تامّة هذا الواقع.

إِنَّ مِنْ أَشْرِكٍ بِاللَّهِ مِثْلُهُ كَمِثْلِ مَنْ خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ، فَتَخْطَفُ الطَّيْرُ، وَهَذَا تَصْوِيرٌ لِحَالَةِ التَّمَرُّقِ النَّفْسِيِّ الَّذِي يَعْتَرِي الْمُشْرِكَ بَرَبَّهُ، أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ، وَتَصْوِيرٌ لِلنَّهَايَةِ التَّعْيِيسَةِ الَّتِي يَنْتَهِي إِلَيْهَا الْمُشْرِكُ. فَحَالَةُ الْمُشْرِكِ فِي شَرْكَهِ تَشْبَهُ حَالَتِهِ لَوْ أَنَّه خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، ثُمَّ هَوَتْ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ.

تحليل المثل:

- ١ - في هذا المثل تمثيلُ أمرٍ معنويٍّ بمُدْرَكٍ بالحسِّ الظاهر.
- ٢ - صورةُ هذا المثل صورةٌ منتزعةٌ من الواقع والخيال معاً.
- ٣ - في هذا المثل دقَّةُ التصوير مع إبراز العناصر المهمة من الصُّورة التمثيلية، وترك الباقي ليستكمله ذهن المخاطب.
- ٤ - في هذا المثل التصوير المتحرك الحيّ، الذي تبرزُ فيه المشاعر النفسية.
- ٥ - في هذا المثل صدقُ المماثلة بين المثل والمُمَثَّلِ له.
- ٦ - يبدو أن الغرض من هذا المثل تقريبُ صورةِ الحالةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْمُشْرِكُونَ، والتعريفُ بحقيقةِ انتكاسهم، والتنفيرُ الشَّدِيدُ مِنَ الشَّرْكِ.

* * *

التطبيق الرابع والعشرون

قال الله تعالى في سورة (الحج / ٢٢ مصحف / ١٠٣ نزول):

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورِبَ كُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾

في هذا النصَّ ضَرَبَ الله مثلاً لحالة الذهول التي تصيب الناس عند قيام الساعة بحالة ذهول الشكاري المخمورين الذين طار صوابُهُمْ، وذهب وعيهم. ولوفرة عناصر التماثل نُزِلَ الممثل به منزلة الممثل له.

* * *

التطبيق الخامس والعشرون

قال الله تعالى في سورة (الحج / ٢٢ مصحف / ١٠٢ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

في هاتين الآيتين يكشفُ الله تعالى عَجَزَ الشركاء الذين يزعمُ المشركون أنهم شركاء الله، عَنْ أن يَخْلُقُوا حيواناً مهما كان حقيراً، وعجزهم أيضاً عما دون ذلك بكثير.

ومن الأمثلة على ذلك هَذَا الذبابُ الذي يَرُونَهُ حيواناً حقيراً، ولا يُقِيمُونَ له وزناً، ويتأذون منه فيذُبُونَهُ، ويَقْتُلُونَهُ، ويَحَاوِلُونَ إبَادَتَهُ، إِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا أن يَخْلُقُوا مثله مُنفَردين ولا مُجْتَمعين:

﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾

وفي هذا تَحَدٍّ شامل لكلِّ الشركاء، ومن ورائهم من يَعْبُدُونَهُمْ من دون الله.

ومن أمثلة عجزهم عما هو دون عملية الخلق، عجزهم عن التحكم والتصرف بالأشياء الدقيقة الصغيرة جداً، التي يستطيع الذباب أن يُحَسَّ بها، ويقبض عليها، وَيَسْلُبُهَا إِيَّاهَا، ولا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ أن يُحَسُّوا بها، ولا أن يَقْبِضُوا عليها، ولا أن يَسْتَنْقِذُوهَا مِنَ الذُّبَابِ، لِذِقَّتِهَا وصِغَرِهَا، وَضَعْفِ أَبْصَارِهِمْ عن

رؤيتها، وضَعَفِ حَوَاسَّهم عن إدراكها، وعدم قُدْرَتِهِم على التحكُّم أو التصرف بها، فقال الله تعالى :

﴿وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ .

إنَّ التحديّ بالأُمور الصغيرة جدًّا يشبه التحديّ بالأُمور الكبيرة جدًّا، ف رؤية الذرَّة وإخضاعها للتجربة المخبريَّة أشقَّ وأعقد من الوصول إلى القمر ودراسة عناصره وخريطة كُرته . وإن صِناعة ساعة متقنة صغيرة الحجم بمقدار حبة الذرة أو حبة القمح أشقَّ وأعقد من صِناعة ساعة كبيرة جدًّا تملأ ميداناً كبيراً لمدينة عظيمة .

وقد أعجبني في هذا تَبَيُّهُ ذَكَرَهُ الدكتور مصطفى محمود في بعض أحاديثه «التليفزيونية» استناداً إلى ما تَوَصَّلْتُ إليه الدَّرَاسَاتُ العلمية على الذباب، إذ ذكر أن الذباب قد انفرد عن سائر الحيوان بأنه يُفَرِّزُ الهواضم على جزئيات طعامه فِيهِضُمُهُ في مكانه قبل أن يَمْتَصَّهُ بخرطومه، فهو لا يَمْتَصُّه بخرطومه إِلَّا مُتَحَوِّلاً مَهْضُوماً، وبسبب ذلك فإنه متى سلب شيئاً وامْتَصَّهُ فعلاً فقد سلبه متغيراً متحولاً، تعجز كل وسائل العلماء مهما كانت متقدمة عن استنقاذه منه، لقد صار مهضوم طعام ذباب، ولم يَعُدْ جزِيئةً مِنْ سُكَّرٍ أو دَقِيقٍ أو دَمٍ أو غير ذلك مثلاً .

فالآية بهذا شاهد من شواهد الإعجاز العِلْمِيِّ في القرآن .

وهكذا فقد تحدَّاهم الله تعالى بِالْخَلْقِ، وَضَرَبَ لَهُمْ مَثَلاً على ذلك عملية خلق الذباب، وتحَدَّاهم بما هو دون عملية الخلق، وضَرَبَ لَهُمْ مَثَلاً على ذلك عَجْزُهُمْ عن استنقاذ ما يَسْلُبُهُمُ الذباب من شيء .

فكَيْفَ يتخذ المشركون شُرَكَاءَ لِلَّهِ، وهي عاجزةٌ هذا العجز الذي يتنافى مع صفتي الربوبية والألوهية؟! .

إنَّ هذا الأمر مرفوضٌ بَدَاهَةٌ في منطق التفكير السليم والعلم الصحيح .

فإطلاق المثل في هذا النصِّ يراد منه ذكر نموذجٍ لِنَوْعٍ من الأنواع، وهو هنا

نوع الخلق، ونوع استنقاذ الأمور الدقيقة الصغيرة جداً، والتحكم بها، مما تقدر على التحكم به حشرات صغيرة من خلق الله.

التطبيق السادس والعشرون

قال الله تعالى في سورة (المنافقون / ٦٣ مصحف / ١٠٤ نزول):

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَةٌ يَخْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤﴾﴾.

في هذه الآية وصف الله فئة من المنافقين الذين كانوا في عصر الرسول ﷺ، ومنهم عبد الله بن أبي بن سلول بعدة صفات:

الصفة الأولى: أنهم ذوو أجسام مهيبة تُعْجِبُ الناظرين، دلَّ على هذه الصفة فيهم قول الله تعالى لرسوله:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾.

الصفة الثانية: أنهم ذوو ألسنة فصيحة وكلام يُعْجِبُ السامعين، وقد دلَّ على هذه الصفة فيهم قول الله تعالى لرسوله:

﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾.

الصفة الثالثة: أنهم يجلسون في مجالس الرسول ﷺ وهو يتحدث أو يخطب أو يتلو آيات الله، لكنهم لا يَفْقَهُونَ مما يقول شيئاً، لأنَّ قلوبهم وأسماعهم منصرفة عن أقواله، فهم غير مؤمنين به حتى يحفلوا بما يقول، وحتى يوجهوا له انتباههم.

وقد دلَّ على هذه الصفة من صفاتهم ما ضربه الله من مثلٍ لهم، إذ شبههم بالخشب المستندة على الجدر. فقال تعالى:

﴿كَأَنْهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَةٌ﴾.

إِنَّ صُورَتَهُمْ وَهُمْ يَجْلِسُونَ فِي مَجَالِسِ الرَّسُولِ ﷺ وَقَدْ أَسْنَدُوا ظُهُورَهُمْ إِلَى
الْجِدْرِ، وَتَظَاهَرُوا بِالْوَقَارِ، وَأَعْطَوْا لَأَنْفُسِهِمْ أَفْضَلَ الْأَمَاكِنِ فِي مَجَالِسِهِ، وَقُلُوبُهُمْ
وَنَفُوسُهُمْ وَأَفْكَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ مَنْصَرَفَةً كُلَّ الْإِنْصِرَافِ عَمَّا يَقُولُهُ الرَّسُولُ وَيُحَدِّثُ بِهِ
مِنْ أُمُورٍ تَتَعَلَّقُ بِالْأَدِينِ وَأَحْكَامِهِ، هَذِهِ الصُّورَةُ تُشَبِّهُ صُورَةَ الْخُشْبِ الْمُسْنَدَةِ عَلَى
الْجِدْرِ، إِنَّ الْخُشْبَ ذَاتُ مَنْظَرٍ وَهِيَ أَكْلٌ عَظِيمَةٌ رَفِيعَةُ الْقَامَةِ، لَكِنَّا فَاقِدَةُ الْحَيَاةِ،
لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَعِي شَيْئًا، وَهُمْ ذُوو مَنْظَرٍ مُعْجِبٍ وَهِيَ أَكْلٌ عَظِيمَةٌ رَفِيعَةُ الْقَامَةِ
بَيْنَ النَّاسِ، لَكِنَّهُمْ أَجْسَادٌ فَقَطْ، خَالِيَةٌ مِنْ رُوحِ الْإِيمَانِ، وَقُلُوبُهُمْ وَحَوَاسُّهُمْ لَا تَعِي
شَيْئًا مِمَّا يُوجِّهُ لَهَا مِنْ بَيَانٍ وَمَوَاعِظٍ وَإِرْشَادَاتٍ.

وَيَلَاحِظُ فِي هَذَا الْمَثَلِ دَقَّةَ التَّصْوِيرِ وَخَلَاوَتَهُ، وَيُظْهِرُ مِنَ الْأَغْرَاضِ فِيهِ
التَّوْبِيخَ وَالتَّهْكَامَ.

الصفة الرابعة: أَنَّهُمْ جَبْنَاءُ، يَخَافُونَ أَنْ تَنْكَشِفَ خِيَانَتُهُمْ، وَيُظْهِرَ نِفَاقَهُمْ،
لِذَلِكَ فَهَمُ كَثِيرُ الْخَذَرِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَمَا يَسْمَعُونَ صِيحَةً إِنْذَارٍ أَوْ تَهْدِيدٍ إِلَّا
وَيَحْسَبُونَهَا عَلَيْهِمْ. وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ فِيهِمْ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾.

الصفة الخامسة: أَنَّهُمْ شَدِيدُو الْعَدَاوَةِ لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ خَطَرُهُمْ عَلَى
الْمُسْلِمِينَ أَشَدُّ مِنْ خَطَرِ الْكَافِرِينَ الصَّرَحَاءِ، لِأَنَّهُمْ مُخَالِطُونَ مَدَاخِلَهُمْ، لَا يَعْلَمُ
عَدَاوَتَهُمْ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ فِيهِمْ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ﴾.

أَي: هُمُ الْعَدُوُّ الْبَالِغُ الْعَدَاوَةِ، الشَّدِيدُ الْخَطُورَةِ، فَيَجِبُ الْحَذَرُ الشَّدِيدُ مِنْهُمْ.

* * *

التطبيق السابع والعشرون

قال الله تعالى في سورة (الحجرات / ٤٩ مصحف / ١٠٦ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

في هذه الآية نهى الله الذين آمنوا عن طائفة من القبائح الاجتماعية:

الأولى: اتِّهَامُ الناس بالسيئات ومنكرات الأفعال والأقوال والنيات وأفعال القلوب وحركات النفوس، استناداً إلى الظُّنون الضَّعِيفَةِ التي لم يأذن الله ببناء أحكامٍ عليها.

وفي النهي عن هذه القبيحة الاجتماعية أَمَرَ الله عزَّ وجلَّ باجتناب مُسَبِّاتِهَا، وهي أنواع الظنون الضعيفة، فقال الله تعالى:

﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

وذلك لأنَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ الذي لَا يَصْلُحُ لِلْحُكْمِ والإِدَانَةِ وَلَا لِتَحْصِيلِ المعارفِ، يجعلُ الإنسانَ دائماً السَّجَّحَ في الظنون، سريعَ إصدارِ الأحكامِ بمجردِ الظنِّ، وهذا يُوقِعُهُ في كثيرٍ من الخطأ، وهذا الخطأ قد يكونُ أمراً هيناً لا إثمَ فيه، كالأخطاء التي ليس فيها ظُلْمٌ لأحد، ولا فَهْمٌ فاسدٌ في الدين، ولا فهمٌ يفضي إلى ضررٍ بصاحبه، ولكنَّ قد يَكُونُ أمراً ليس هيناً نظراً إلى ما فيه أو يفضي إليه من الوقوع في الإثم الذي يؤاخذ الله عليه.

وهنا تظهر لنا الدقَّةُ البالغة في قول الله تعالى:

﴿إِنْ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

بعد قوله:

﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾.

على أن الأمر باجتنب كثير من الظن يفيد أن من الظن ما لم يأمر الله باجتنبه، كالظنون التي تُبنى عليها شرعاً أحكام قضائية، وتُستنبطُ بها أحكام شرعية ومفاهيم دينية، فحكم القاضي بشاهدين صحيحي الشهادة حُكْمٌ بالظن لا باليقين، لاحتمال خطئهما ونسيانهما، واحتمال فسقهما مع ظهور عدالتهما. والاستنباطات الظنية الاجتهادية من قِبَل ذوي أهلية الاجتهاد استنباطات مقبولة شرعاً، ومن اجتهد فأصاب كان له أجران، ومن اجتهد فأخطأ كان له أجر واحد.

الثانية: التجسُّس على المسلمين، لاكتشاف عوراتهم التي يتوارون بها، ويخفونها عن أعين الناس، إن كانت لهم عورات. وفي النهي عن هذه القبيحة الاجتماعية قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾.

الثالثة: الغيبة، وهي ذكر المؤمن أخاه بما يكره، وفي النهي عن هذه القبيحة الاجتماعية قال الله تعالى:

﴿وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

وللتفجير الشديد من هذه الخصلة القبيحة ضرب الله مثلاً لمن يغتاب أخاه المؤمن بمن يأكل لحم أخيه ميتاً.

ونظراً إلى وفرة عناصر التشابه بين الممثل به والممثل له نُزِّلَ الممثل به منزلة الممثل له فكأنه هو، إذن فحكمه مثل حُكْمِهِ.

ومن الإبداع في عرض المثل الإتيان به على سبيل الاستفهام التقريري جزءاً من الممثل له، وهو من يغتاب أخاه، ولم يأت فيه لفظ يدل على التشبيه أو التمثيل، فقال الله تعالى:

﴿أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا؟ فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

ويبدو في هذا التمثيل أنه من قبيل التمثيل المركب: فَعَرَضَ المؤمن مثل لحم جسده. وَغَيَّبَهُ عن مجلس من يتحدث عنه مثل جسده الذي لا حياة فيه، إذ ليس

لديه قدرة الدفاع عن نفسه في كلتا صورتين. وذكره بما يكره مثل أكل لحمه وهو ميت.

والغرض من المثل التنفير، وتقبيح صورة الغيبة في نفوس المؤمنين.

وهذا المثل هو من قبيل تمثيل أمرٍ حسيٍّ كلامي ذي أثر معنوي في أعراض الناس بأمرٍ حسيٍّ ذي أثر حسي في أجساد الناس، فهو من قبيل تمثيل أمرٍ حسي ومعنوي بصورة حسية.

وفي المثل هذا من الخصائص: دقّة التصوير، والتّصوير الحي المتحرك، وصِدْق المماثلة، والتنويع الإبداعي في عرض المثل.

أما قوله تعالى بعد عرض المثل: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: كرهتم أن يأكل أحدكم لحم أخيه ميتاً، فيبدولي أنه معطوف على محذوف، ويمكن أن نقدره بنحو قولنا: إنكم عرفتم قبح أن يأكل أحدكم لحم أخيه ميتاً فكرهتموه، أي: لذلك فأنتم لا تفعلونه بطبعكم؛ إذن فلا تفعلوا ما هو مثله وهو أن يغتاب بعضكم بعضاً.

وإشارة إلى أن الغيبة إنَّه يعاقب الله عليه، قال الله تعالى في آخر الآية: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، وتحريضاً على التوبة من هذه القبيحة الاجتماعية قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾.

* * *

التطبيق الثامن والعشرون

قال الله تعالى في سورة (الصف / ٦١ مصحف / ١٠٩ نزول):

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾.

﴿بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾: أي: بنيان متلاصق، مُحَكَّم، مجموع بعضه إلى بعض، وَيَشُدُّ بعضه بعضاً.

في هذه الآية ضَرَبَ اللَّهُ الْبُنْيَانَ الْمَرْصُوصَ مثلاً لما ينبغي أن يكون عليه

المقاتلون في سبيله، في تماسكهم وتقوية بعضهم بعضاً، ومساندة بعضهم لبعض،
واجتماعهم في وحدة جماعية ذات هيكل متكامل.

ويلاحظ في هذا المثل دقة التصوير، وصدق المماثلة، وهو من قبيل تمثيل
أمر معنوي وحسي، بشيء حسي.



الفصل الثاني

تَطْبِيقَاتُ عَامَّةٌ عَلَى
أَمْثَالِ تَكَرُّفِ الْقُرْآنِ وَرُودُهَا
حَتَّى صَارَتْ بِمَثَابَةِ حَقَائِقٍ فِي مُصْطَلَحَاتِهِ

وفيه ثلاث مقولات

المقولة الأولى : حول الظلمات والنور .

المقولة الثانية : حول البصر والعمى والغشاوة، والسمع
والصمم والوقر، والحياة والموت، ونحو ذلك .

المقولة الثالثة : حول البيع والشراء والتجارة والربح
والخسارة، ونحو ذلك .

المَقُولَةُ الْأُولَى حَوْلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ

مقدمة :

١ - مِمَّا تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ اسْتِعْمَالُ الظُّلُمَاتِ مَثَلًا لِلْكَفْرِ، وَمَثَلًا لِلْجَهْلِ، وَالِاسْتِغْنَاءُ بِالْمَثَلِ فِي ذَلِكَ عَنِ الْمُمَثِّلِ لَهُ.

وَفِي الْمَقَابِلِ تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ اسْتِعْمَالُ لَفْظِ النُّورِ مَثَلًا لِلْعِلْمِ، وَمَثَلًا لِلْإِيمَانِ، وَالِاسْتِغْنَاءُ بِالْمَثَلِ فِي ذَلِكَ عَنِ الْمُمَثِّلِ لَهُ.

٢ - وَسَمَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ مِنْ لَدُنْهِ نُورًا، وَسَمَّى مَا أُنْزِلَ عَلَى رُسُلِهِ مِنْ حَقٍّ نُورًا. وَسَمَّى الْحَقَّ وَالْإِيمَانَ نُورًا.

٣ - وَوَصَفَ اللَّهُ رُسُلَهُ مُحَمَّدًا بِأَنَّهُ سَرَاجٌ مَنِيرٌ، أَيْ : كَالسَّرَاجِ يَبْعَثُ ضِيَاءً يُنَوِّرُ اللَّهُ بِهِ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ تَأَثَّرُوا بِهِ وَانْتَفَعُوا مِنْهُ، وَفِي مَقْدَمَتِهِمْ خَيْرَةٌ أَصْحَابُهُ، فَيَبْعَثُ مِنْهُمْ نُورٌ مَنَعَكُسٌ يَكُونُونَ بِهِ هَادِينَ لِلنَّاسِ فِي أَقْوَالِهِمْ، وَفِي أَعْمَالِهِمْ.

٤ - وَوَصَفَ اللَّهُ مَا أُنْزِلَ عَلَى رُسُلِهِ مِنْ كُتُبٍ بِأَنَّهَُا كُتُبٌ مَنِيرَةٌ، أَيْ : هِيَ كُتُبٌ تَبْعَثُ ضِيَاءً يَنْتَفِعُ مِنْهُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَدَبِّرُونَ، وَيُنَوِّرُ اللَّهُ بِهِ قُلُوبَهُمْ، فَيَبْعَثُ مِنْهُمْ نُورَ عِلْمٍ وَإِيمَانٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ، فَيَكُونُونَ بِذَلِكَ هَادِينَ لِلنَّاسِ، كَالْقَمَرِ الَّذِي يَعْكُسُ ضِيَاءَ الشَّمْسِ نُورًا.



التحليل :

إنَّ الظلمات هي أكثر شيء في الحسيَّات يُشبه الجهل، ويشبه الكفر بالحق، فجعلها الله عزَّ وجلَّ مثلاً للجهل، ومثلاً للكفر بالحق.

وإنَّ النُّور هو أكثر شيء في الحسيَّات يُشبه العِلْم، ويُشبه الإيمان بالحق، فجعل الله عزَّ وجلَّ النُّور مثلاً للعِلْم بالحق، ومثلاً للإيمان بالحق.

ولمَّا كانت الكتُب الرِّبانيَّة مشتملةً على العِلْم الحقِّ الذي يهدي مَنْ عِلْمه وعَمَل به في حياته إلى سبيل سعادته العاجلة والآجلة، كانت حَرِيَّة بأن تُسمَّى نوراً، وبأن توصف بأنها مُنيرة، أي: باعثة للنور، وتجعل مَنْ يَعْلَم ما فيها وَيَعْمَل به يبعث نوراً بأقواله وأعماله، يكون سبباً لهداية طالبي الهداية من الناس، إذ يكون إماماً للمتقين، وقُدوةً حسنة.

ولمَّا كان الرسول ﷺ قد وهبه الله من الصفات وأنزَلَ عليه من الوحي ما جعله منبعاً ضوئياً معنوياً، كالشمس في الحسيَّات، وكان من صفاته أن يبعث ضياءً يُنور مَنْ اقتبس منه، فينبعث منه بالانعكاس نورٌ يهدي المستفيدين، وصَفَه الله بأنه سراجٌ منير، أي: هو سراج يبعث ضياءً، كالشمس، وهذا الضياء يجعل مَنْ اقتبس منه ذا نورٍ يهدي، فيكون إماماً للمتقين، وقُدوةً حسنة في أقواله وفي أعماله، وكذلك كان أصحاب رسول الله.



فإذا أُطْلِقَت كَلِمَةُ النُّور في القرآن بمعنى حقائق الدين وشرائعه وأحكامه ووصاياه، أسرع ذهن المخاطب إلى فهم المراد منها، لِتَكَرَّر هذا الإطلاق فيه.

وإذا أُطْلِقَت كلمة الظُّلُمات فيه بمعنى الكفر، أو الجهل بحقائق الدِّين وشرائعه وأحكامه ووصاياه، وبمعنى اتِّباع غير هُداها، أُسْرِعَ ذَهْنُ المخاطب إلى فهم المراد منها، لتَكَرَّر هذا الإطلاق فيه.

وجاءت الأحكام السابقة والأحقّة ملائمةً لِلْمُمَثِّلِ له، مع استخدام بعض الألفاظ الملائمة للفظ الممثل به.

وأصل التمثيل الوارد في النصوص المشتملة على الصور التي سبق بيانها هو من قبيل تمثيل أمرٍ معنويٍّ بأمرٍ مُدْرِكٍ بالحسِّ الظَّاهر، وهو من التمثيل البسيط، والصورة التمثيلية فيه منتزعةٌ من الواقع.

وَيُلَاحَظُ في التمثيل الوارد في النصوص التي يأتي استعراضها ما يلي:

- ١ - دقّة التصوير.
 - ٢ - صدق المماثلة بين المثل والمُمَثِّلَ لَهُ.
 - ٣ - التنوع في عرض المثل بتغيير الأساليب في النصوص.
 - ٤ - البناء على المَثَلِ والحكْمُ عليه كأنّه عَيْنُ المُمَثِّلِ له.
- واستعراض النصوص القرآنية فيما يلي مع قدرٍ ما من الشرح والتحليل.

* * *

النَّصَّ الْأَوَّل

في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول) قال الله عزَّ وجلَّ بشأن عذابه ورحمته حكاية لما خاطب به موسى عليه السلام، بعد أن دعا موسى ربَّه لنفسه ولقومه بني إسرائيل بالمغفرة والرحمة، وبعطاءٍ من خَيْرِ الدنيا والآخرة، ورفع عَذَابِ الرجفة عنهم:

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ ﴾ (١٥٦)

بعد هذا خاطب الله في القرآن أهل الكتاب المعاصرين للبعثة المحمدية فمن يأتي بعدهم منهم، بشأن رحمته تعالى، وبشأن من سيكتبها لهم منهم، فقال تعالى:

﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۚ
الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ
عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا
بِهِ وَعَزَّزُوا وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۚ ﴾ (١٥٧)

نلاحظ في هذا النصَّ أن الله عزَّ وجلَّ سَمَّى ما أنزل على رسوله من القرآن نوراً.

وذلك لأنه بالنسبة إلى النفوس والقلوب والأفكار، كالنور للأبصار، إذ يَكْشِفُ لها المريَّات بمقتضى سُنَّةِ اللَّهِ في كونه، وكانور الذي يقع على الأشياء فيمدها

بعاملٍ من عوامل فائدتها وخيرها وصلاحها، وقد عرفنا من العلوم التجريبية أنَّ النور أحد عوامل نماء النبات، وأحد عوامل الصلاح للأحياء، كما له تأثيرات كثيرة مفيدة في الكون.

ونظراً إلى وفرة عناصر التماثل بين المثل هنا والممثل له جاء التعبير بالممثل كأنه عين الممثل له، وجاء في النص الاستغناء بذكر المثل عن ذكر الممثل له، والاكتفاء لمعرفة المراد بدلالة القرائن.

* * *

بعد هذا البيان المتعلق بموضوع الكتاب من النص، نتابع فقراته بشيء من التدبر.

﴿قَالَ: عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾:

أي: قال الله عز وجل لموسى: هذا الذي تطلبُ مني يا موسى رفعه عن المختارين من بني إسرائيل، وهي الرجفة التي أخذتهم إذ طلبوا منك أن يروا الله جهرةً، هو عذابٌ من عذابي الذي أصيب به من أشاء.

ويفهم بعض أهل التأويل من إطلاق المشيئة في هذا النص وأمثاله، أنَّها مشيئة لا يُشترط أن تكون مبنية على قاعدة العدل في العقاب، فيقعون في المفاهيم الجبرية.

وأقول: لما كانت صفات الله متكاملة فيما بينها، ولا يطغى بعضها على بعض، كان لا بد أن تكون مشيئته سبحانه حكيمةً دوماً، لا تناقض صفات عدله ورحمته وأنه لا يظلم أحداً شيئاً، ولو مثقال ذرة.

ولهذا كان علينا أن نفهم أن عذابه وهو عقابه إنما ينزل به من يستحقه من المذنبين.

وقد جاء التنبيه على أن عذابه إنما يقع بمشيئته للدلالة على أنه سبحانه وتعالى لا مكره لإرادته، وكذلك لا يفعل أفعاله بالضرورة غير الاختيارية، كأفعال

القوى الكونية التي لا حياة فيها ولا اختيار لها، وإنما يفعلها بالمشيئة المختارة المقرونة بحكمته سبحانه، وبسائر صفات الكمال التي هي له.

ولهذا نظائر من الواقع البشري والله المثل الأعلى، فالقاضي العادل حينما يحكم بالعدل على أحد المجرمين، فإنه يحكم عليه بمشيئته الحرة، غير مجبور ولا ملجأ، لكن مشيئته الحرة لا تحكم إلا بالعدل، وذلك لأن صفة مشيئته مقرونة بصفة عدله، وكلاهما صفتان له لا تتناقضان ولا تتعارضان، بل تتكاملان بتواؤم وتلاؤم، وليس من طبيعة صفة المشيئة الحرة أن تطغى على كمال صفة العدل وحدود مجالاتها.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾:

رحمة الله صفة من صفاته، من آثارها فيض العطاء والمعونة في تحقيق رغبات وحاجات ومطالب أي مخلوق له شيء من ذلك.

وسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ: أي: لم تضق عن شيء، يقال لغة: وَسِعَ الشَّيْءُ الشَّيْءَ، أي: لم يضق عنه، والمعنى: لديه مساحة لاستيعابه.

المتبادر في فهم هذه الجملة، والذي تواطأ عليه فهم المفسرين، أن رحمة الله وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ قابل بتكوينه لأن يستفيد منها، والمعنى أن كل قابل لعطاءات ومعونات الرحمة هو مشمول برحمة الله بوجه من الوجوه، وهذا يدل على أن الكفرة والمجرمين مع سائر العصاة يُصِيبُهُمْ من رحمة الله مقداراً ما في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما معاً، كشفاة الرسول لأهل الموقف يوم القيامة حتى يتخلصوا مما هم فيه من طول الانتظار مع الغم والكرب.

فالذين يُعَذَّبُونَ بسبب ذنوبهم ومعاصيهم يُصِيبُونَ شيئاً من رحمة الله بالعتو عن بعضها، كما قال عز وجل في سورة (الشورى / ٤٢ مصحف / ٦٢ نزل):

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٢٠).

وهذا العفو هو من عطاءات رحمته تبارك وتعالى.

لكن هذه الجملة تحتل معنى آخر، وهو أن رحمة الله وسعت في مداها كل شيء يمكن في التصور أن يكون ذا فائدة أو نفع أو خير للمخلوق الذي تصيئه، فتشمل في مداها أنواع السعادات وأفرادها واللذات القلبية والنفسية والفكرية والجسدية، وما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر منها، وتشمل في مداها دفع الآلام والهموم والأكدار وكل ما يسوء ذا حس حي، وتشمل مضاعفة الحسنات، ومحو السيئات، والغفران والعفو وتبديل السيئات حسنات، إلى غير ذلك من كل ما فيه نفع أو دفع ضرر أو مكروه.

وهذا المعنى لا يتعارض مع المعنى الأول، ولكل منهما ما يؤيده في النصوص.

فقد جاء مما يؤيد المعنى الأول قول الله عز وجل في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف / ٦٠ نزول):

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَرِيمِ﴾.

وجاء مما يؤيد المعنى الثاني وصف الجنة وما فيها من راحة ونعيم وخيرات حسان بأنها رحمة الله، فقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ (واللفظ للبخاري)، قال:

«تَحَاجَّتِ النَّارُ وَالْجَنَّةُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوْثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضَعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَعَجْزُهُمْ؟!»

فقال الله لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وقال للنَّارِ: أَنْتِ عَذَابُ أُعَذِّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، ولكل واحدة منهما ملؤها.

فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِي حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ، فَتَقُولُ: قَطُّ. قَطُّ. قَطُّ. فَهَنَالِكَ

تَمْتَلِيْ وَيُزَوِّى بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا ، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُشِىءُ لَهَا خَلْقًا .

عَجَزُهُمْ : أي : عَجَزَتُهُمْ جمع «عَاجِز» وهو الضعيف ، والذي لا حزم له .
قوله تعالى :

﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٥٦)
الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ
عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا
بِهِ وَعَزَّزُوا وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٥٧) .

الذي ظهر لي أن هذه الفقرات من النص الذي نتدبره تتضمن بياناً موجهاً
لأهل الكتاب في التنزيل القرآني ، يدعوهم الله فيه للإيمان بخاتم النبيين والمرسلين
محمد ﷺ ، ولاتباعه ، ويعدهم فيه بأنه سيكتب جنته التي هي مظهر رحمته العظمى
الخالدة للذين ذكر أوصافهم فيها ، وليست من توابع ما قال الله لموسى ، كما سبق
لأذهان بعض المفسرين ، بدليل ذكر الإنجيل فيها ، وهو كتاب متأخر التنزيل عن
عهد موسى ، ولا دليل على أن الله بشر به بني إسرائيل في عهده ، والذي يتدبر
أسلوب هذه الفقرات وصياغة جملها يدرك أنها توجيه مستأنف ، وليست من توابع
ما خاطب الله به موسى عليه السلام .

أما الموعودون فيها برحمة الله العظمى التي هي جنته ، فهم الذين ذكر الله
أوصافهم في الجمل التالية :

١ - ﴿ الَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ :

أي : الذين يتابعون في مسيرة حياتهم اتقاء عذاب الله وسخطه ، بفعل
الواجبات ، وترك المحرمات .

٢ - ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾:

أي: وَيُؤَدُّونَ بِالتَّابِعِ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ مِنْ زَكَاةٍ لِمُسْتَحَقِّهَا، فِي الْمَوَاسِمِ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْهِمْ فِيهَا دَفْعُهَا.

وهذا تخصيصٌ بعد تعميم، لأنَّ أداءَ الزكاة المفروضة من التقوى، والغرض من هذا التخصيص بالذكر توجيهُ الاهتمام بعناية خاصّة لهذا الركن من أركان الإسلام، لأنَّ اليهود من أهل الكتاب الذين توارثوا الشَّحَّ هُمُ الْمُخَاطَبُونَ الْأَوَّلُونَ فِي النَّصِّ، إِذْ جَاءَ فِي مَعْرِضِ الْحَدِيثِ عَنْهُمْ.

٣ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾:

أي: وَالَّذِينَ يُتَابِعُونَ الْإِيمَانَ بِكُلِّ مَا يَتَلَقَّوْنَهُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ، لَا يَشْكُونَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا وَلَا يَجْحَدُونَ.

ونفهم من هذا أَنَّ الشَّكَّ أَوْ الْجَحْدَ بِبَعْضِ آيَاتِ اللَّهِ يَنْقُضُ الْإِيمَانَ، فَلَا بَدَّ مِنْ مُتَابَعَةِ الْإِيمَانِ بِكُلِّ مَا يَتَلَقَّوْنَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فِي نَجْمِ التَّنْزِيلِ، إِذِ السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، نَزَلَ بِعَدِّهَا سُورٌ كَثِيرَةٌ.

٤ - ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾:

أي: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ فِي مَسِيرَةِ حَيَاتِهِمْ مُحَمَّدًا الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُ أَهْلَ الْكِتَابِ ذَكَرَ اسْمِهِ وَبَعْضَ صِفَاتِهِ مَكْتُوبًا عَنْدهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ.

﴿الْأُمِّيُّ﴾: أي: الَّذِي لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ، وَهَذِهِ مِنْ خِصَائِصِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ، الَّتِي تُبَيِّنُ صِدْقَ رِسَالَتِهِ، وَتُورِثُ الْقِنَاعَةَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ حَقًّا، فَالرَّسُولُ الَّذِي بَلَّغَهُ عَنْ رَبِّهِ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ. وَهُوَ أَيْضًا أُمِّيٌّ فِي نَظَرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ قَسَمُوا النَّاسَ إِلَى قَسَمَيْنِ، هُمَا: بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَأُمِّيُّونَ، وَيُطْلَقُونَ عَلَيْهِمْ عِبَارَةُ «جَوِيمٍ» بِلِسَانِهِمْ.

﴿يجدونهُ﴾: أي: يجدون ذكر اسمه وبعض صفاته، وهذا من تنزيل الاسم والصفات منزلة الذات، لأنها دالة عليها، فهو من إطلاق الدال على المدلول عليه، وهو في اصطلاح علماء البلاغة من المجاز المرسل.

ومن صفاته التي يجدونها لديهم:

● أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر إذا آمنوا به وأتبعوه.

﴿المعروف﴾: ما دلّ الشرع على أنه مطلوب إلزاماً أو ندباً من قول أو عمل ظاهر أو باطن، وهو في غير التعدييات من الأمور التي يدرك العقل السليم حسنها.

﴿المنكر﴾: ما دلّ الشرع على أنه مطلوب في الدين تركه إلزاماً، من قول أو عمل ظاهر أو باطن، وهو في غير التعدييات من الأمور التي يدرك العقل السليم قبحها.

● أنه يحلّ لهم من المطاعم والمشارب وغيرها الطيبات، ويحرّم عليهم الخبائث.

أي: يبيّن لهم أن الله عز وجل أحلّ الطيبات وحرّم الخبائث.

﴿الطيبات﴾: هي كل مال تستطيعه الطباع البشرية السوية ولا تستقذره، وخلا مع ذلك من أنواع الضرر والأذى المساوية أو الزائدة على ما فيه من منافع ومصالح، وخلا أيضاً من المفساد الدينية والدنيوية التي توجب اجتنابه أو تركه.

﴿الخبائث﴾: هي أضداد الطيبات، ولو باختلال وصف من أوصافها.

● أنه يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

﴿الإصر﴾: العهد المؤكد بالترام ما أخذ عليه العهد، والإصر كالعهد يضاف إلى آخذه، وإلى مُعْطيه، وقد أضيف هنا إلى أهل الكتاب، إذ كانوا يُعْطُونَ إصرهم على الالتزام بأحكام دينهم، وبطاعة رسلهم وأنبيائهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه، وقد كان هذا الإصر مُشَدِّداً على أهل الكتاب، وقد يسّر الله في الإسلام

الأمر، فوضع عَمَّنْ يَتَّبِعْ مُحَمَّدًا ذَلِكَ الْإِصْرَ الْمَشْدَدَ، ومن الْإِصْرِ الَّذِي أُخِذَ عَلَيْهِمْ تبعاً لأنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويتبعوه وينصروه متى بعثه الله، كما جاء في الآية (٨١) من سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول).

ولا أرى تفسير «الْإِصْرِ» بالثقل، وذلك لثلاث تكون «الأغلال» من الإطناب الذي لا يُضِيفُ معنىً غير معنى الإصر، والذين فَسَّرُوا الإصر بالثقل، شرحوه بأنه التكاليف الشاقة، وبها فَسَّرُوا الأغلال أيضاً.

﴿الأغلال﴾: جمع «غُلٍّ» وهو طوقٌ من حديد أو من جلد، يُجعلُ في عُقِ الأسير، ونحوه، أو في يديه، وقد تُجَمَّعُ يَدُ المَغْلُولِ إلى عنقه وتُطَوَّقَانِ بِالْغُلِّ، وتُعَقَّدُ بِالْغُلِّ سلسلة من حديد، أو سَيْرٌ من جلد، لِيَجْرَهُ بِذَلِكَ. والمراد من الأغلال في النَّصِّ التكاليفُ الشاقةُ التي كانت عليهم، فلفظُ الأغلال مستعارٌ للدلالة على التكاليف الشاقة الشديدة، والأصل فيها تشبيه هذه التكاليف بالأغلال.

والناظر في سفر التثنية من أسفار العهد القديم عند أهل الكتاب يلاحظ عدداً كثيراً من التكاليف الشاقة قَدْ كَلَّفُوهَا. ولَمَّا جاء الإسلام رفع الله به أغلال التكاليف التي في الرِّسَالَاتِ السَّابِقَاتِ، نظراً إلى أنه الدين الخاتم، الذي قضى الله لأحكامه الدوامَ حتى قيام الساعة.

قوله تعالى:

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾:

﴿آمَنُوا بِهِ﴾ أي: بالرسول النبي الأمي محمد ﷺ.

﴿وَعَزَّرُوهُ﴾: يأتي التعزير في اللغة بمعنى التوقير والتعظيم، وبمعنى الإعانة

والتقوية، والنصر، وبمعنى التأديب الذي يكون باللوم، والمنع، والضرب دون الحد.

والمناسبُ هنا من المعاني التوقير والتعظيم والإعانة والتقوية، أمّا النصر فقد جاء مُصَرَّحاً به في النصّ، فيكون من قبيل التخصيص بالذكر، بعد دخوله في معاني التعزير، للتنبيه على أهمية نُصْرَةِ الرَّسُولِ على أعدائه.

﴿وَنَصْرُوهُ﴾: أي: أيّدوه وأعانوه ودافعوا عنه ضدّ أعدائه، باللسان وبالسلح والقوى الماديّة.

﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾: أي: واتبِعُوا القرآن، وقد سمّاه الله نوراً، نظراً إلى أنه يكشف للناس صراط سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة، والمراد من اتّباعه اقتفاء أحكامه ووصاياه والعملُ بها.

ونلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ قال بشأن القرآن: ﴿أُنْزِلَ مَعَهُ﴾، وقال في نصوص أخرى: ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ وقال: ﴿أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ وبالتأمل ندرك أنّ لكلّ تعبيرٍ منها دلالة الخاصّة:

● فحين يُلاحَظُ ما فيه من تكاليف يكون من المناسب أن يكون التعبير: ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾.

● وحين يُلاحَظُ ما فيه من علوم ومعارف قدّمها الله هديّةً منه إلى عباده، يكون المناسب أن يكون التعبير: [أُنْزِلَ إِلَيْهِ].

● وحين يُلاحَظُ أنه نورٌ يهدي السالكين فيه عبر مسيرتهم في حياتهم، يكون المناسب أن يكون التعبير: ﴿أُنْزِلَ مَعَهُ﴾: أي: أُنْزِلَ بالغاً إليه فهو نور مصاحبٌ له دوماً، يكشف له صراط الهدى، وهو كذلك لمن تدبّره واتبّعه.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: أي: أولئك هم الفائزون الظافرون بما يُريدون وفَوْقَ ما يريدون. الفلاح: الفوز والظفر بتحقيق الأمانى والآمال والمطالب.

* * *

النص الثاني

وفي سورة (فاطر / ٣٥ مصحف / ٤٣ نزول) قال الله عز وجل خطاباً لرسوله

محمد ﷺ :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

﴿ خلا ﴾ : أي : سلف في القرون الماضية .

﴿ نذير ﴾ : أي : رسول مبلغ معلم ومُنذِر من كفر بعذاب الله .

﴿ فقد كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ : أي : كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ ، وَكَذَّبُوا بِمَا

جاءوهم به .

﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ : أي : بالآيات البينات المعجزات الدالات على أنهم رُسُلُ الله حقاً وصدقاً ، وبالآيات المنزلات المشتملات على أصول الدين وأحكامه .

﴿ وبالزُّبُرِ ﴾ : الزُّبُرُ في اللغة الكتابة ، يقال لغةً : زَبَرَ الكتاب يَزْبُرُهُ زَبْرًا إِذَا كَتَبَهُ .

فالزُّبُور : الكتاب المكتوب ، وَجَمْعُهُ الزُّبُرُ .

وقد سَمَّى الله الكُتُبَ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرُّسُلُ وَبَلَّغُوهَا أَقْوَامَهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ زُبْرًا ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ تَنْزِيلًا مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ بَلَّغَهُ قَوْمَهُ ، يَدْخُلُ تَحْتَ عَمُومِ لَفْظِ « الزُّبُرِ » وَمِنْهَا صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وخصَّ من هذه الزُّبُرِ السَّابِقَةِ لِلْقُرْآنِ الْمَجِيدِ التَّوْرَةَ بِعَنْوَانِ (الكتاب المنير) لما فيه من شرائع وأحكام .

ووصفه بأنَّه منير لأنَّ ما فيه من تعاليم وبيانات تهدي متبعيها إلى صراط الله المستقيم ، الذي يُنْجِي مَنْ سَلَكَه مِنَ الْهَلَاكِ ، وَيُحَقِّقُ لَهُ الْفَوْزَ وَالسَّعَادَةَ .

* * *

النص الثالث

وفي سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول) بشأن مقالة قالها بعض اليهود في عصر التنزيل وهي : «ما أنزل الله على بشرٍ من شيءٍ» إنكاراً لرسالة محمد ﷺ ، قال الله عز وجل :

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا طَائِفَةٌ يُبَدِّلُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْمَلُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ .

في هذه الآية وصف الله عز وجل الكتاب الذي جاء به موسى ، وهو التوراة ، بأنه نور ، إذ النور في الحسيات يهدي السالكين ، والكتاب الذي جاء به موسى يشتمل على علم حق يهدي من علمه وعمله به إلى سبيل سعادته العاجلة والآجلة ، فكان جديراً بأن يُسمَّى نوراً ، تمثيلاً لأسباب الهداية الفكرية والنفسية والقلبية ، بأسباب الهداية الحسية البصرية .

فالذين قالوا من اليهود : ما أنزل الله على بشرٍ من شيءٍ ، ناقضوا برهان العقل ، وتناقضوا مع أنفسهم فيما يعتقدون .

● أما مُناقضتهم لبرهان العقل ، فقد نبّه الله عليها بقوله :

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ :

أي : ما أعطوه من صفات الكمال ما يجب له ، إذ زعموا أن الله عز وجل لم تبلغ حكمته إلى أن يصطفي بشراً من الناس ، ويُنزِل عليه كتاباً ليلبّغهم إياه عن ربه ، حتّى يكون هادياً لهم في مسيرتهم في حياة الابتلاء .

إنه لو لم يفعل ذلك لكان خلقُ الناس عبثاً ، والله عز وجل منزّه عن العبث .

● وأما تناقضهم مع أنفسهم فيما يعتقدون ، فهو أنهم يؤمنون بالتوراة التي

أنزلها الله على موسى عليه السلام، وهو بشرٌ، وقد نبّه الله عزّ وجلّ على تناقضهم هذا بقوله خطاباً لرسوله فكلّ مناظرٍ لهم من بعده:

﴿قُلْ: مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ؟﴾:

وجواب هذا السؤال لدى عامّة اليهود أن يقولوا: لقد أنزلّه الله عليه، وعندئذٍ تلزمهم الحجّة، فتسقط مقالة من قال منهم: «ما أنزل الله على بشرٍ من شيء».

﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾:

﴿قَرَأِطِيسَ﴾: جمع «قِرطاس» وهي الصحيفة التي يُكتب عليها.

أي: تجعلونه مُجزّأً في قراطيسٍ متفرّقة ليسهل عليكم إظهار بعضها وإخفاء بعضها الآخر، بحسب أهوائكم، وهذا من مكر اليهود قديماً.

أمّا تحليل الجملة فكما يلي: تجعلون الكتاب المجتمع الذي جاء به موسى، مُفرّقاً مُجزّأً قراطيسَ تُبْدُونَهَا، وتُخْفُونَ منه كثيراً من قراطيسٍ أخرى لا تُحبّون أن يُطلع عليها غيركم، لئلا يُقيّم عليكم الحجّة بها، أو يُدينكم بأعمالكم المخالفة لها.

﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾:

أي: وعَلَّمْتُمْ في هذا القرآن الذي تبحّدونه ولا تؤمنون بأنه كتاب من عند الله، علماً جديداً مُنزّلاً من عند الله زائداً على ما في كتبكم الأصول، وهذا العلم الجديد لم يسبق لكم أن علمتموه عن طريق رُسلكم أنتم ولا آبائكم من قبلكم.

فإذا قلّتم حسبنا ما عندنا، فإنّ الله يقول لكم: بل ما جدّ من تنزيل يجب عليكم أن تعلموه وتعملوا به كما أمركم الله.

﴿قُلْ: اللهُ، ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾:

أي: وإذا لم يعترفوا بأنّ الله هو الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، فقل

أيها المناظر: الله هو الذي أنزله عليه، وأمهلهم عسى أن يفيء بعضهم إلى الحق، ثم إذا أصرُّوا على باطلهم بعد الإمهال فذرهم في خوضهم في باطلهم يلعبون.

﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾: أي: في الكذب والباطل من القول. أصل الخوض هو المشي في الماء الضحل الذي يثير من الأرض الأتربة ونحوها وما يكون تحت الماء من طين أسود إذا كان راكداً، وهو أمرٌ يفعلُه أحياناً اللاعبون ولذلك جاء في النص:

﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾:

والمتلاعب بالأقوال في الجدل بالباطل، يحاول تعكير صفو الأفكار والمعارف ليستر الحقائق، ولتسني له المخادعة بالزيف الذي يُقدِّمه، فإذا وصل المُبْطِلُ إلى مثل هذا التلاعب فإنَّ على صاحب الحق أن يدعُه وينصرف عنه ويتركه في خوضه يلعب وحده، فداعي الحق ليس من شأنه اللعب في الحق الذي يدعو إليه، ولا تضيق جهده ووقته مع اللاعبين.

ونظير ما جاء في هذا النص ما في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المائدة/

٥ مصحف/ ١١٢ نزول) بالنسبة إلى التوراة:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ...﴾ ﴿٤٤﴾

وما جاء في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول)

أيضاً بشأن الإنجيل عقب الحديث عن النبيين من بني إسرائيل:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ

الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤٦﴾

وما جاء في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول)

بشأن القرآن:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ فَذُكِّرُوا كُمُ بِرُهْنٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ ﴿١٧٤﴾

وما جاء في قول الله عز وجل في سورة (التغابن / ٦٤ مصحف / ١٠٢ نزول):

﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٨)

فظهر أن الكتب الربانية المنزلة هي نور، وفيها هدى ونور.
ولعل الفرق بين الهدى والنور، أن النور كاشف صراط الله، وأن الهدى هو
المحدد لمعالمه، والمبين لحدوده من حافتيه، والآخذ بيد السالك إلى بلوغ الغاية
المرجوة.

* * *

النص الرابع

وفي سورة (لقمان / ٣١ مصحف / ٥٧ نزول):

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (٢٠)

ومثل هذه الآية في سورة (الحج / ٢٢ مصحف / ١٠٣ نزول) أيضاً في الآية
(٨) منها.

أي: ومن أصناف الناس صنف يُجادل في قضايا تتعلق بالله الرب الخالق
عز وجل، وفي ذاته، أو في صفاته، أو في مظاهر خلقه وتدبيره وقضائه وقدره
وحكمته، جاحداً وجوده، أو مشركاً به، أو جاحداً بعض صفاته، أو مُتهماً حكمته،
أو رافضاً حقه على عباده في الطاعة والعبادة، أو شاكاً في شرائعه وأحكامه، ومؤثراً
غيرها عليها، أو شاكاً في وعده ووعيده أو منكراً لهما، ونحو هذه الأمور.

ومجادلة هذا الصنف من الناس مجادلةً بالباطل، فهو يُزخرف فيها الأقوال،
ويراوغ ويُغالط ويحتال، ويتهرب من الحق بصناعة الأكاذيب واعتماد الأساطير
والإيهام والتليس، والتحريف، وإلباس الباطل ثياب الحق تزيفاً وتزويراً.
فمُجادلته لا تقترب بأي دليل صحيح مقبول، فهي:

١ - لا تقترن بما يؤيد آراءه من دليلٍ عِلْمِيّ تقبله العقول السليمة، وتُسَلِّمَ

به .

٢ - ولا تقترن بما يؤيد آراءه من بيانات صحيحة هَدَى إليها رسولٌ صادق أمين، فيما أنزل عليه من كتاب، أو فيما جاء به عن ربّه، أو هدى إليها نبيٌّ من أنبياء الله فيما صحَّ عنه .

٣ - ولا تقترن بما يؤيد آراءه من بيانات اشتمل عليها كتاب ربّاني منير، كالنور والقرآن .

فوصف الله النور والقرآن ونحوهما بأنها مُنيرة، أي: تبعثُ نوراً، أو تبعثُ ضياءً، وهذا الضياء ينور عقول المؤمنين بها ونفوسهم وقلوبهم، المتبعين لما جاء فيها، بمقتضى سنة الله فيها .

* * *

النص الخامس

وفي سورة (الزمر / ٣٩ مصحف / ٥٩ نزول) قال الله عز وجل:

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَوَيْلٌ لِلْفَاسِقِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْ لَيَأْتِيَنكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ .

أي: أيسّوي من شرح الله صدره للإسلام، فاستسلم لأحكام الله، وأسلم قيادته له، فأطاعه في أوامره ونواهيه، ومن كان صدره ضيقاً حرجاً لا ينشرح لطاعة الله والاستسلام لأحكامه وأوامره ونواهيه؟!

إنهما بالبداهة العقلية لا يستويان، فمن شرح الله صدره للإسلام يسعى في مسيرته في حياته وهو على نور من ربّه، بمعنى أنّه يمشي على صراط مستقيم ومنهاج واضح، وقد سمى الله صراطه المستقيم نوراً، لأنّ من سلكه اهتدى حتماً إلى نجاته وسعادته الخالدة .

وليس في هذه الآية دليلٌ على قول الجبريّين في موضوع القضاء والقدر، لأنّ

شرح الصدر للإسلام معونة ربّانية يمنحها الله لمن آمن بأركان القاعدة الإيمانيّة أولاً، فمن بدأ من عنده بالإيمان شرّح الله صدره للإسلام، أي: للاستسلام والطاعة له سبحانه.

دلّ على هذا التحليل ما جاء في سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول) السابقة نزولاً بقول الله عز وجلّ:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٥)

أي: كذلك الضيق والحرج في الصدر الذي يجعله الله في صدر من يريد أن يضلّه، يجعل أيضاً الرّجس كالشركيّات وعبادة الأوثان وأعمال الفسق والفجور والفواحش رجساً متراكماً على الذين لا يؤمنون بالقاعدة الإيمانية.

فضيق الصدر عن الإسلام لله عزّ وجلّ، وتراكم أنواع الرّجس على الإنسان، إنّما تكون في سنة الله وأنظّمته في عبادته بسبب عدم إيمانه بالقاعدة الإيمانية.

من غرس زرعاً وتعهّد بما يحتاج إليه، أنبت الله له، وأخرج له منه الثمرات الطيبات اللينعات، كذلك من آمن وتعهّد بإيمانه شرّح الله صدره للإسلام، ومن كفر فلم يؤمن جعل الله صدره ضيقاً حرجاً لا يقبل الإسلام، وأخذت تتراكم عليه أرجاس الباطل من المفاهيم والعقائد، وأرجاس الأعمال السيئة. قوله تعالى:

﴿قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾:

﴿وَيْلٌ﴾: كلمة عذاب، أي: هلاك ومشقة وعذاب شديد للقاسية قلوبهم من

ذكر الله، ولكن كيف تقسو قلوبهم من ذكر الله؟ هل لفظ «من» هو بمعنى «عن» أو بمعنى السببية، أي: بسبب ذكر الله؟ رأيان جاءا في كتب التفسير.

والمعنى فيما أرى: عذاب شديد للقاسية قلوبهم من جهة ذكر الله، فهم

لا يذكرون الله، وإذا ذُكِّروا بالله تحجَّرت قلوبهم، أي: وأما من جهة أهوائهم وشهواتهم ومطالبهم من الحياة الدنيا، ومن جهة العواطف المتصلة بكفرياتهم، فإن قلوبهم تلين وتناثر ولا تتحجَّر.

فهم إذا ذُكِّروا بالله لم تَلِنْ قلوبُهم فلم يتأثروا بشيء، بل صَدُّوا عنه صدوداً، واشمأزَّت قلوبُهم، وإذا ذُكِّرْ شُرَكَاءُهم لَأَنْتَ قلوبُهم، واستبشروا، كما قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الزمر / ٣٩ مصحف / ٥٩ نزول):

﴿وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿اشْمَأَزَّتْ﴾: أي: تقبَّضَتْ وانكمشت ونفرت، وهذا أمرٌ زائد على القسوة، لِأَنَّهُ استجابة عكسيَّة.

﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾:

أي: أولئك البعداء عن رحمة الله هم في محيط من الضلال المبين الواضح الذي لا شك في ضلاله ولا شبهة.

* * *

النص السادس

وفي سورة (الشورى / ٤٢ مصحف / ٦٢ نزول) قال الله عزَّ وجلَّ خطاباً لرسوله محمَّد ﷺ:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾.

سمَّى الله في هذه الآية القرآن روحاً، لأنَّه بالنسبة إلى القلوب والنفوس والأفكار، مثُلُ الروح بالنسبة إلى الأجساد، فكما أنَّ الروح تجعل الأجساد حيَّةً إذا دخلت فيها، فإنَّ القرآن إذا خالط القلوب والنفوس والأفكار كان بمثابة الحياة لها.

وسمى الله القرآن أيضاً نوراً، لأنه يكشف للقلوب والنفوس والأفكار صراط
نجاة أصحابها وسعادتهم في الدنيا والآخرة، فهو مثلُ النور الذي يكشف للأبصار
الأشياء، فيهدي الناس به في سبيل حياتهم وفي أعمالهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ :

أي: كذلك الوحي الذي أوحيناه إلى من سبقك من الرسل يا محمد أوحينا
إليك قرآناً مِنْ أَمْرِنَا نزل به عليك رسول الوحي جبريل، وهو كالروح الذي به حياة
الأجساد، إذ هو حياة للقلوب والنفوس والأفكار، يحيى به من تلقاه وآمن به وتدبر
معانيه وتأثر بها.

﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ؟﴾ :

أي: ما كنت تدري قبل الوحي إليك جواب السؤال التالي: مَا الْكِتَابُ؟
مَا الْإِيمَانُ؟ لأنك كنت لا تعلم عنهما شيئاً.

﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نَوْراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ :

أي: ولكن جعلنا القرآن نوراً هادياً للقلوب والنفوس والأفكار، فمن آمن به
وتلقاه وتدبره هديناه به وفق مشيئتنا الحكيمة إلى صراط نجاته وسعادته، وإذ جعلناه
كذلك اصطفيك للرسالة وأوحينا به إليك لتبلغه للناس، فصرت تدري.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ :

أي: وإذ صرت تدري بعد أن أوحينا إليك، فإنك بما أوحينا ونوحى إليك
لتهدي إلى صراط مستقيم، هو صراط الله لعباده، الضامن لنجاتهم وسعادتهم
الخالدة.

* * *

النص السابع وأشباهه

وفي سورة (إبراهيم / ١٤ مصحف / ٧٢ نزول) خاطب الله عز وجل رسوله

بقوله:

﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ
إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾.

في هذه الآية سمى الله عز وجل الكُفْرَ والجَهْلَ بعناصر القاعدة الإيمانية،
والجهل بمفاهيم الإسلام وشرائعه وأحكامه ومنهاجه للناس ظلمات، وأبان أن
السالك في حياته على غير صراط الله سالك في الظلمات على غير هدى.

وسمى الإيمان والعلم بعناصر القاعدة الإيمانية، وبمفاهيم الإسلام وشرائعه
وأحكامه ومنهاجه للناس نوراً، وأبان أن السالك في حياته على صراط الله سالك في
النور على بصيرة.

وأبان أن وظيفة القرآن ووظيفة الرسول اتخاذاً للأسباب لإخراج الناس من
الظلمات إلى النور، عن طريق إراداتهم الحرة، بوسائل دعوتهم إلى الحق
وتعليمهم وهدايتهم وتربيتهم. واتخاذاً للأسباب والتأثير والتأثر بها يكون بإذن الرب
الخالق عز وجل، وهذا شأن أفعال ذوي الإرادات الحرة دوماً. والإذن هو تمكين
لذوي الإرادات الحرة من تحريك الأسباب الكونية لتجري ضمن أنظمتها حتى
تتحقق بها مسبباتها بلا جبر، إذ ليس فيه إكراه للإرادات، ولا منع للأسباب من أن
تجري ضمن أنظمتها حتى يتم بها تحقيق مسبباتها.

وعلى هذا ينبغي أن نفهم معنى: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ جمعاً بين مفاهيم مختلف النصوص.

﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، بَدَلٌ مِنْ: ﴿إِلَى النُّورِ﴾، فجعل الله صراطه
نوراً.

ونظير ما جاء في هذه الآية ما جاء في قول الله عز وجل في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف / ٧٢ نزول) أيضاً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥٥﴾﴾

أكتفي عن التعليق على هذه الآية في موضوع الظلمات والنور بما أوضحته في الآية السابقة.

قوله تعالى لموسى :

﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ :

آيَاتُ الله : يُرَادُ مِنْهَا الْأَحْدَاثُ وَالْوَقَائِعُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى النَّعْمِ وَالنَّقَمِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ أَجْرَاهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَا مَضَى ، فَالْعَرَبُ تُطْلِقُ لَفْظَ (الْآيَاتِ) عَلَى الْوَقَائِعِ وَالْأَحْدَاثِ .

فمن النعم ما سبق أن أكرم الله به بني إسرائيل في عهد يوسف عليه السلام .

ومن النقم ما سبق أن أنزل الله عز وجل بقوم نوح وعاد وثمود من إهلاك وعذاب ، لأنهم كذبوا رُسُلَ رَبِّهِمْ ، وَطَغَوْا وَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ :

أي : إِنَّ فِي آيَاتِ اللَّهِ السَّابِقَةِ لَآيَاتٍ دَالَّةٍ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُمَهِّلُ الْمَجْرِمِينَ ثُمَّ يَنْتَقِمُ مِنْهُمْ ، وَيَأْخُذُهُمْ أَخْذٌ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ، وَأَنَّهُ يُجَازِي أَوْلِيَاءَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ بِالْعَزِّ وَالنُّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ ، وَيُمِدُّهُمْ بِخَيْرَاتٍ كَثِيرَاتٍ ، وَنَعَمٍ جَلِيلَاتٍ ، مَعَ مَا أَدَّخَرَ لَهُمْ مِنْ نَعِيمٍ يَنَالُونَهُ يَوْمَ الدِّينِ .

ويستفَع من دلالات هذه الآيات كُلُّ صَبَّارٍ عَلَى مُخَالَفَةِ نَفْسِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، شَكُورٍ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ لِأَنْعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ .

* * *

ونظيرهما ما جاء في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) بقول الله عز وجل

فيها:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

الطاغوت: لفظ يستوي فيه الواحد وغيره والمذكر والمؤنث، ويجمع على طواغيت، وهو يطلق على كثير الطغيان، فيدخل فيه إبليس وسائر الشياطين، وكل رأس في الضلال، وكل ما صد عن الله والدين الحق.

* * *

وقول الله عز وجل في سورة (الأحزاب / ٣٣ مصحف / ٩٠ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أذكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾: الصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار ودعاء.

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: أي: لِيَتَابَعَ مع اللَّحَظَاتِ وَالسَّاعَاتِ عَمَلِيَّاتٍ إِخْرَاجِكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْمَعَاصِي وَالْمَخَالَفَاتِ إِلَى نُورِ الطَّاعَاتِ وَالْقُرْبَاتِ، بِالْمَغْفِرَةِ وَالْعَفْوِ وَالْمَعُونَةِ، بِسَبَبِ ذِكْرِكُمْ اللَّهَ بِكَثْرَةٍ، وَتَسْبِيحِكُمْ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، فَالذِّكْرُ وَالتَّسْبِيحُ يُسَاعِدُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى تَرْكِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَالتَّزَامِ الطَّاعَاتِ وَالْقِيَامِ بِالْقُرْبَاتِ، فَتَأْتِي رَحْمَاتُ اللَّهِ بِالْمَغْفِرَةِ وَالْعَفْوِ وَالْمَعُونَةِ، وَاسْتِغْفَارُ الْمَلَائِكَةِ وَدَعَاؤُهُمُ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَتَزِيدُهُمْ تَرْكِهً وَإِخْرَاجاً مِنْ أَنْوَاعِ ظُلُمَاتِ النُّفُوسِ وَالْقُلُوبِ وَالْأَفْكَارِ وَالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، إِلَى نُورِ رِضْوَانِ اللَّهِ وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَفَضَائِلِ السُّلُوكِ، وَأَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ وَالْقُرْبَاتِ.

* * *

وقول الله عز وجل في سورة (الحديد / ٥٧ مصحف / ٩٤ نزول) خطاباً للناس :

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾

أي: يتابع تنزيل الآيات البينات على عبده محمد في نجوم التنزيل ليخرجكم بها من الظلمات إلى النور، إذا استجبت لها، وعلمتم بما جاء فيها.

* * *

وقول الله عز وجل في سورة (الطلاق / ٦٥ مصحف / ٩٩ نزول):

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ... ﴿١١﴾﴾

أي: قد أنزل الله إليكم ذكراً هو القرآن، وأرسل إليكم رسولاً هو محمد بن عبد الله، يتلو عليكم آيات الله حالة كونها مبينات لصراط الله المستقيم، وقريء ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ بفتح الياء، أي: جعلها الله ظاهرات الدلالات على المطلوب الديني من الناس، فهي تجمع الوصفين، وفي القراءتين تكامل فكري.

لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ ظُلُمَاتِ الْأَفْكَارِ وَالْقُلُوبِ وَالنَّفُوسِ وَسَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى نُورِ رِضْوَانِ اللَّهِ وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ.

* * *

وقول الله عز وجل في سورة (المائدة / ٥ مصحف / ١١٢ نزول) خطاباً لأهل الكتاب:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ

اللَّهُ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ
السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ .

سَمَّى الله رسوله في هذا النصَّ نوراً، لأنه ﷺ يهدي إلى صراط الله
المستقيم .

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ :

أي : يهدي الله بهذا القرآن مَنِ اتَّبَعَ رضوان الله عقيدةً وعملاً وفهماً لآيات
كتابه المشتملة على سُنَنِه الدينية، والإرشاد إلى التزام سننه الكونية، يَهْدِيهِمْ سُبُلَ
السَّلَامِ في الحياة الدنيا، فإذا سلكوها حَمَوْا أنفسهم من الشرور والمصائب التي
تكسبها أيدي الناس، ودفعوا بها شرور أعدائهم عنهم .

ويُخْرِجُهُم القرآن من ظلمات الكفر وسُبُل الكفر الفكرية والنفسية والعملية،
إلى نور الإيمان والعمل الصالح، بإذن الله .

ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم، هو صراط الله الموصول مَنْ سَلَكَهُ إِلَى جَنَّاتِ
النَّعِيم .

* * *

النص الثامن وما يشبهه

وفي سورة (الصَّف / ٦١ مصحف / ١٠٩ نزول) سَمَّى الله عزَّ وجلَّ ما جاء في
القرآن وما جاء به الرسول ﷺ نوراً، وأنَّ الْكَافِرِينَ لا سيما اليهود والنصارى يريدون
إطفاءه بأفواههم، أي : بأقوالهم المضللة، فقال الله عزَّ وجلَّ :

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ
رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١﴾ .

هذا النصَّ أُنْزِلَ في أواسط المرحلة المدنية، ثُمَّ أُنْزِلَ الله في أواخر المرحلة

المدنية، قَوْلُهُ فِي سُورَةِ (التوبة / ٩ مصحف / ١١٣ نزول) بشأن محاولات اليهود والنصارى أيضاً:

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ .

فِي كُلِّ مِنْ هَذَيْنِ النَّصِّينِ سَمَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ بَيَانِ دِينِيَّ نُورًا، وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا سِيَّمَا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْهُمْ كَمَا تَدُلُّ قِرَائَتُ النَّصِّينِ يُرِيدُونَ إطفاءَ هَذَا النُّورِ بِأَفْوَاهِهِمْ، لَكِنَّهُمْ إِبَّانَ نَزُولِ النَّصِّ الْأَوَّلِ كَانَتْ إِرَادَاتُهُمْ تَتَوَجَّهَ لِاتِّخَاذِ مُرَادَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ يَتَّخِذُونَهَا وَسَائِلَ لِيُطْفِئُوا بِهَا عَنْ طَرِيقِ أَقْوَالِهِمْ بِأَفْوَاهِهِمْ نُورَ اللَّهِ، فَانْزَلَ اللَّهُ قَوْلَهُ:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾:

أَي: يُرِيدُونَ مُرَادَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ يَتَّخِذُونَهَا وَسَائِلَ لِيُطْفِئُوا بِهَا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ. وَلَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إِلَى تَهْيِئَتِهَا وَاتِّخَاذِهَا، لِذَلِكَ جَاءَ التَّعْقِيبُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾:

فَجَاءَتِ الصِّيغَةُ التَّعْبِيرِيَّةُ هَادِئَةً خَالِيَةً مِمَّا يَدُلُّ عَلَى التَّهَيُّؤِ لِلرَّدِّعِ وَالْمَقَاوِمَةِ.

لَكِنَّهُمْ إِبَّانَ نَزُولِ النَّصِّ الثَّانِي الَّذِي فِي سُورَةِ (التوبة) قَدْ اتَّخَذُوا الْوَسَائِلَ، وَأَعَدُّوا الْعُدَّةَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، فَانْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَهُ:

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾:

أَي: إِنَّهُمْ وَصَلُوا فِعْلًا إِلَى إِرَادَةِ الإِطفَاءِ نَفْسَهُ، بَعْدَ أَنْ أَعَدُّوا الْوَسَائِلَ، وَانْتَهَوْا مِنْ مَرَحَلَةِ الْإِشْتَغَالِ بِتَهْيِئَتِهَا عَلَى مَا فَكَّرُوا وَقَدَّرُوا، فَالْوَسَائِلُ بِحَسَبِ تَصَوُّرِهِمْ قَدْ صَارَتْ جَاهِزَةً وَمَا عَلَيْهِمْ إِلَّا التَّنْفِيزُ، فَجَاءَ التَّعْقِيبُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾:

وهكذا جاءت الصيغة التعبيرية حارةً دالةً على التحرك للرّدع والمقاومة والانتقام، والمراد توجيه العناية لإحباط مخططاتهم وتدابيراتهم.

فالنصّ الأول جاءت صيغته ملائمة للمرحلة التي نزل فيها، والنصّ الثاني جاءت صيغته ملائمة للمرحلة التي نزل فيها، وظهر لنا أنّ النصّين مختلفان صيغةً وأداءً بيانيّاً، ومختلفان دلالةً، وقد جاءت حركة الأداء البياني ملائمة لحركة الواقع، وهذا من الإعجاز القرآني.

* * *

النصّ التاسع.

وفي سورة (الأحزاب / ٣٣ مصحف / ٩٠ نزول) قال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ
وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾.

في هذا النصّ وصف الله عزّ وجلّ رسوله بأنّه سراجٌ وبأنّه منير، من فعل «أَنَارَ» المتعدّي، تقول أَنَارَ فلانُ البيت إذا جعل فيه نوراً، وَأَنَارَ المصباح إذا جعل النور ينبعث منه، وَأَنَارَ الأمر إذا وَضَّحَهُ وَبَيَّنَّهُ.

أي: هو منبع يشعّ ضياءً، ونلاحظ أنّ الله وصف رسوله بأنّه سراج، كما وصف الشمس بأنّها سراج، وأبان تعالى في سورة (يونس / ١٠ مصحف / ٥١ نزول) في الآية الخامسة أنّه جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً، وقد عرفنا بما صار يقيناً في العلوم الإنسانية أنّ نور القمر إنما هو انعكاس أشعة الشمس التي تصل إلى سطحه، إذ هو كوكب باردٌ كالأرض، فدلّنا هذا على أنّ الرّسول محمداً ﷺ يشبه الشمس في أنّه يَبْثُ ضياءً، وأنّ هذا الضياء إذا استقبله مؤمن مستعدٌ لاستقباله انعكس عنه نور يهدي، كما أنّ نور القمر يهدي في الظلمات، فمعنى وصف الرسول بأنه منير على هذا: أنّه مُنَوِّرٌ غَيْرُهُ، وبهذا نستطيع أن نصف

خيرة أصحاب الرسول ﷺ بأنهم أقمار هداية، أخذاً من هذه الدلالة القرآنية. وكون الرسول ضياءً يلاحظ في كونه أسوةً حسنة مؤثرة، مع تأثير ضيائه فيمن يلقاه من المؤمنين الصادقين، وجاء الاستغناء بذكر أنه سراج عن التصريح بأنه يث ضياءً.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾: أي: مُبَلِّغًا ما أوحينا إليك لتُبَلِّغَهُ، وشاهدًا على الذين بَلَّغْتهم يوم الدين، بأنك بَلَّغْتَ الرسالة وأَدَيْتَ الأمانة، وَنَصَحْتَ الأُمَّة.

﴿وَمُبَشِّرًا﴾: أي: وَمُبَشِّرًا مَنْ آمَنَ بما جاء عن الله، وَاتَّبَعَهُ بما أَعَدَّ الله للمؤمنين من أَجر عظيم يوم الدين في جنات النعيم، مع ما كتب لهم مِمَّا يَحْبُونَ في الحياة الدنيا من نَصْرِ وتوفيق وسعادة قلبية ونفسية.

﴿وَنَذِيرًا﴾: أي: وَمُنْذِرًا مَنْ كَفَرَ بما جاء عن الله، وَلَمْ يَتَّبِعْهُ، بعقاب شديد يوم الدين في جهنم وبئس المصير، مع ما يَنْزِلُ بهم في الحياة الدنيا مِمَّا يَكْرَهُونَ من أمور مادية ومعنوية.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾: أي: وداعياً إلى الله وإلى صراطه المستقيم، بمقتضى منهاج الدعوة الذي أذن به، وفي هذا دلالةٌ ضمنيةٌ على أَنَّ الدَّعوة إلى الله على غير المنهاج الرباني للدَّعوة أمرٌ لم يأذن الله به لرسوله، مع كمال أخلاقه صلوات الله عليه، وعظيم حكمته، فالدَّعَاةُ إلى الله من بعده مُلْزَمُونَ بالتقيُّدِ بمنهاج الدعوة الرباني الذي أبان أَصُولُهُ الْعَامَّةُ قَوْلُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥)

• • •

المَقُولَةُ الثَّانِيَّةُ حَوْلَ الْبَصَرِ وَالْعَمَى وَالْغِشَاوَةِ وَالصَّمَمِ وَالْوَقْرِ وَالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ

مقدمة:

مما تكرر في القرآن المجيد ما يلي:

- ١ - أَنْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ضَرَبَ مَثَلًا لِلْكَافِرِ بِالْأَعْمَى ، وَلِلْمُؤْمِنِ بِالْبَصِيرِ .
٢ - وَشَبَّهَ قُلُوبَ الَّذِينَ لَا يَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ بِأَنَّهَا مَحْجُوبَةٌ بِحُجُبٍ وَسُدُودٍ ، وبأنَّهَا فِي أَكِنَّةٍ (أي : مغلفة بأغطية وستور ، أو حبيسة في بيوت أو مغارات) .

وأبان أن في أبصارهم نوع عمى ، هو عمى عدم رؤية ما يدلُّ على الحق من آيات ، وأبان أن في آذانهم نوع صمم أو ما هو قريب من الصمم ، وهو الوقر (أي : ضعف السمع) ألا وهو صمم أو وقر يحجب سماع نداء الحق ، ودعوة الحق ، ويحجب عن الذهن إدراك آيات الله المنزلات .

- ٣ - وضرب الله مثلاً للمهتدين بما أنزل للناس من هدى بالأحياء ، ولغيرهم بالأموات ، وضرب مثلاً للاهتداء بما أنزل للناس من هدى بالحياة ، وضرب مثلاً لعدم الاهتداء بذلك بالموت .

إنَّه كما يوجد في الحسيَّات عمى الألوان ونحوه ، يوجد في الفكريَّات عمى عن رؤية آيات الحق ، وإدراك حُججه وبراهينه .

وكَمَا يوجد في الحسيَّات صمم يحجب جهازَ السمع ، فلا يسمع الأصوات ،

يوجد في الفكريّات صَمَمٌ أو وَقْرٌ يحجُبُ عن الفكر إدراكَ نداءِ الحقِّ، أو إدراكَ معنى الكلام الذي يدلُّ عليه نداءُ الحقِّ، أو تدلُّ عليه دعوة الحقِّ.

وكَمَا توجد في الحسيّات علّةٌ عدم الإحساس بالطُّعومِ، أو بالروائحِ، توجدُ في المعنويّات علّةٌ عدم تذوّق طَعْمِ الإيمانِ، أو طعم الفضيلةِ، وعلّةٌ عدمُ الشُّعورِ بشذا العملِ الصالحِ، وعدمُ الشُّعورِ بَتَّنِ الكُفْرِ والرديلة والعملِ القبيحِ، وهكذا....

والشواهد على هذه الأنواع من الأمثال كثيرة في القرآن المجيد. وفيما يلي استعراض ما تيسّر لي أن أجمعه منها، مع قَدْرٍ ما من الشرح والتحليل:

* * *

النص الأول

في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول) قال الله عز وجل بشأن قوم نوح عليه السلام:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ ﴿٦٤﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: في هذا إيجاز لكل ما كان من قوم نوح في مقابل دعوته لهم إلى سبيل ربهم.

إن قوماً قد كذبوا رسولهم، وهم ذوو قوة ومنعة، واستمروا على تكذيبهم أحقاباً عديدة، لا بد أن تكون منهم أمور كثيرة، فيها إيذاء للرسول ولمن آمن به، ومقاومة لدعوته، وإصرار على الظلم والطغيان، والفسق والفجور والعصيان، والبغي والعدوان.

أما العاقبة في الدنيا فكانت كما يلي:

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾:

وفي هذا إيجاز للحدث الأخير من قصة نوح وقومه، تضمن إلماحاً إلى الطوفان العام الذي أغرق الله به المكذبين، وإلماحاً إلى الأحداث التي نتج عنها ركوب نوح ومن معه وما معه في الفلك، وإلى جريها بعناية الله وحفظه، حتى مُستقر النجاة.

وأخيراً أبان الله عز وجل الصفة الدائمة التي سببت لقوم نوح التكذيب والعناد والإصرار على الكفر والظلم والطغيان، حتى نزل بهم الإهلاك العام الشامل بالطوفان، فقال تعالى في آخر النص:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ :

﴿عَمِينَ﴾ : جمع «عم» بمعنى «أعمى» أي : هم عُمُونَ عن رؤية الحق ، وعن رؤية آياته ودلائله وبراهينه ، وعُمُونَ عن الاهتداء بها ، وعُمُونَ عن رؤية أنوارها البينانية والفكرية والوجدانية .

وهذا العمى هو من نوع العمى في القلوب والبصائر .

* * *

النص الثاني

وفي سورة (فاطر / ٣٥ مصحف / ٤٣ نزول) قال الله عز وجل :

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٦﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿١٧﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿١٩﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ .

في هذا النص بيّن الله عز وجل لرسوله ولكل داعٍ إلى دين الله من بعده طائفة من ظواهر سنته الكونية في الأحياء وفي الأشياء ، وبيّن أن هذه السُنن قوانين ربّانية ذوات ثبات ، ولا يستطيع المخلوقون تغييرها ، ولا يستطيعون تبديل شيء فيها ، وكل استطاعتهم منحصرة في أن يستفيدوا منها ضمن أنظمتها وصفاتها وخصائصها ، والقادر الوحيد على تغييرها أو التبديل فيها هو الله الرّب الخالق إذا شاء بحكمته أن يُغيّرَها .

١ - فمن السُنن الثابتة أنه لا يستوي الأعمى والبصير ، إذ الأعمى لا يرى ، فهو ناقص صفة الرؤية ، والبصير يرى ، فهو فاضل على الأعمى بهذه الصفة ، سواء أكان ذلك في الحسيّات أو في المعنويّات ، وهل يُعقل أن يُحكّم بتساوي المفضول والفاضل ، أو الناقص والزائد ، من الجهة نفسها التي يوجد فيها التفاضل .

٢ - ومن السُّنن الثابتة المشاهدة أنَّه لا تستوي الظُّلُمات إذ هي فيما بَيْنَها متفاوتات متفاوتات، فبعضُها أشدُّ من بعض.

٣ - ومن السُّنن الثابتة أنَّه لا تستوي أفراد جنس النور، إذ هي على درجاتٍ متفاوتاتٍ جدًّا، بدءاً من أدنى النور، فإلى ما لا نَعْلَمُ من غايات شدَّته. ولا يُعَقَّلُ أَنْ يُحَكَمَ بتساوي المتفاوتات.

٤ - ومن البدْهيِّ أن لا تستوي الظلمة والنور، فالظلمة تنعدم معها الرؤية أو تقلُّ، والنور بالنسبة إلى أبصارنا شرطٌ للرؤية على اختلاف درجاتها.

٥ - ومن السنن الثابتة أنَّه لا تستوي أفراد جنس الظِّل إذ هي على درجاتٍ متفاوتاتٍ في نسبتها المشاهدة بالبصر، وفي مقادير الحرارة التي تصاحبها.

٦ - ومن السُّنن الثابتة أنَّه لا تستوي أفراد جنس الحُرور (وهو حرُّ أشعة الشمس الممتدَّة إلى الأرض)، إذ هي ذوات درجات متفاوتات شدَّة وضعفًا.

٧ - ومن البدْهيِّ أن لا يستوي الظِّلُّ والحُرور.

٨ - ومن السُّنن الثابتة أنَّه لا يستوي الأحياء في حيواتهم، إذ الحيوانات في الأحياء متفاوتات، فحياة النبات غير حياة الحيوان، وحيوات الجراثيم والفيروسات ذوات الحواسِّ القليلة، غير حيوات ما فوقها في سلَم الحياة، حتى مرتبة حياة الإنسان، فحياة الملائكة.

٩ - ومن السُّنن الثابتة أنَّه لا يستوي الأموات، فمن الأموات من يعدُّون في مدَّة البرزخ، وهؤلاء على دركات متفاوتات، ومن الأموات من يُنَعَّمون وهم في مدَّة البرزخ، وهؤلاء على درجات متفاوتات، ومنازلُ أرواح كلِّ من هؤلاء وهؤلاء منازلٌ مختلفة متفاوتة متفاوتة.

١٠ - وكذلك لا يستوي الأحياء والأموات، في المادِّيَّات وفي المعنويَّات. فمن أراد أن يتَّخَذَ سبباً لأمرٍ ما فليَتَقَيَّدَ بِسُنَنِ اللَّهِ وقوانينه في كونه، وإلَّا خَابَ

في سَعْيِهِ، وَعَصَى قَوَانِينِ اللَّهِ وَسُنَنَهُ السَّبِيَّةَ، وَعَصَى أَوَامِرِهِ الدِّينِيَّةَ، الَّتِي أَمَرَتْ بِاتِّخَاذِ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَهَا سَبْحَانَهُ فِي كَوْنِهِ لَتَحْقِيقِ الْغَايَاتِ الْمَطْلُوبَةِ.

وقد خاطب الله رسوله وكلَّ داعٍ إلى سبيل ربِّه من بعده بقوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ * إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ :

أي : وما أنت بقادرٍ على أَنْ تَحْرِقَ سُنَّةَ اللَّهِ فَتُسْمِعَ الْمَوْتَى وَهُمْ فِي قُبُورِهِمْ، أَوْ تُسْمِعَ أَشْبَاهَ الْمَوْتَى، وَهُمْ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ عِنَادًا، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَّلَاتِ، وَقَطَعُوا صِلَةَ كُلِّ حَوَاسِّهِمْ بِقَضَايَا الدِّينِ، فَكَانُوا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا مَوْتَى مَقْبُورِينَ.

فمن الحكمة أن لا تهتمَّ لهم، وَلَا تُكَلِّفَ نَفْسَكَ مُحَاوَلَةَ اتِّخَاذِ وَسَائِلَ لِإِسْمَاعِهِمْ دَعْوَةَ الْحَقِّ، وَهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا مَوْتَى، إِنَّ مُحَاوَلَتَكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ هِيَ مُحَاوَلَةٌ مِنْ يَجْتَهِدُ لِغَيْرِ سُنَنِ اللَّهِ، وَهُوَ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى تَغْيِيرِهَا، فَمَا أَنْتَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَبْلَغٌ مُنْذِرٌ لَهُمْ، وَلَسْتَ مُكَلَّفًا أَنْ تَحُولَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ.

إِنَّ الْقَادِرَ عَلَى تَغْيِيرِهَا هُوَ اللَّهُ وَاضْعُهَا، وَمَحْدُدُ حَدُودِهَا، وَمَنْظُمٌ أَنْظَمْتُهَا، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يُغَيِّرُهَا إِلَّا فِي خَارِقَةٍ تَقْتَضِيهَا حُكْمَتُهُ، فَقَالَ تَعَالَى :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ :

وَلَكِنْ لَا تَقْتَضِي حُكْمَتُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الَّذِينَ وَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ أَنْ يُسْمِعَ بَعْضَهُمْ بِإِرَادَةٍ مِنْهُ جَبَرِيَّةً، إِذَا رَفَضُوا عَلَى عِلْمٍ الْإِسْتِمَاعَ بِاخْتِيَارِهِمْ، ضَمِنَ سُنَنُ اللَّهِ فِيهِمْ، قَاطِعِينَ الصِّلَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قَضَايَا الدِّينِ، وَلَا تَقْتَضِي حُكْمَتُهُ تَعَالَى أَنْ يَعَامِلَهُمْ مُعَامَلَةً مُخَالَفَةً لِمُعَامَلَةِ نُظَرَائِهِمُ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ، وَاسْمَعُوا بِاخْتِيَارِهِمُ الْحَرَّ، ضَمِنَ سُنَنُ اللَّهِ وَأَنْظَمْتَهُ فِيهِمْ، الَّتِي وَضَعَهَا فِي النَفُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى نِسْبَةٍ سَوَاءٍ.

وقد وصف الله الكافرين المعاندين المصِّرِّين على التزام الباطل، والتولِّي عن

الحقّ، بوصفٍ من لوازمه أن يكونوا مقبورين، لأنّهم بالنسبة إلى دعوة الحقّ الرّبّانية موتى.

فالمعاني المستفادة من الأمثال التي اشتمل عليها هذا النصّ مع دلالتها على معانيها الأصليّة هي كما يلي:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾:

أي: وما يستوي الكافر والمؤمن، إذ الكافر مثل الأعْمَى والمؤمن مثل البصير.

وقد وُضِعَ الممَثَّلُ به موضعَ الممَثَّلِ له تأكيداً لِلْمِثَالَةِ.

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾:

أي: ولا تستوي أنواع الكفر، ودرجات الإيمان، فالكُفْر بأنواعه مثل الظلمات بأنواعها، والإيمان بدرجاته ومراتبه، مثل أنواع أفراد النور ومراتبها ودرجاتها.

وقد وُضِعَ الممَثَّلُ به موضعَ الممَثَّلِ له تأكيداً لِلْمِثَالَةِ.

﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾:

أي: ولا تستوي الراحة التي تكونُ في الإيمان على اختلاف مراتبه ودرجاته، ومتاعب الكفر على اختلاف أنواعه ومراتبه ودرجاته.

فراحة الإيمان كراحة المقيم في الظلّ، ومتاعب الكُفْرِ كمتاعب المقيمين في حرّ الشمس، على اختلاف درجات حرارة أشعتها شدّة وإيذاءً، وقد لوحظ في اختلاف درجات حرارتها اختلاف أحوال الكافرين، بالنسبة إلى تفاوت دركاتهم في الكفر ولوازمه.

وقد وُضِعَ الممَثَّلُ به موضعَ الممَثَّلِ له تأكيداً لِلْمِثَالَةِ.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾:

أي: وما يستوي المؤمنون الذين هم كالأحياء، في نسبة حيواتهم للتفاضل

فيما بينهم في الإيمان، ولا يستوي الكفار الذين هم كالأموات، في دركات كفرهم، ولا يستوي الفريقان أيضاً بداهة.

فالإيمان كالحياة للأنفس، والكفر كالموت لها.

* * *

النص الثالث

وفي سورة (النمل / ٢٧ مصحف / ٤٨ نزول) قال الله عز وجل بشأن الذين أنكروا الآخرة من مشركي العرب:

﴿بَلْ أَذْرَكَ عَلِمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

وقرأ ابن كثير المكي، وأبو عمرو ويعقوب البصريان، وأبو جعفر المدني: (بَلْ أَذْرَكَ).

ومعنى ﴿أَذْرَكَ﴾: تَتَابَعَ. ومعنى (أَذْرَكَ) الشيء: لَحِقَ بِهِ حَسًّا أَوْ مَعْنَى.

أي: إن أمر الآخرة ليس خبراً جديداً عليهم جاءهم في القرآن وعلى لسان محمد خاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام، بل هو خبر قديم تتابع عليهم من الرسائل السابقة لرسالة محمد ﷺ، فعندهم علم به، من بقايا الدين الذي ورثوه عن إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، وعندهم علم به مما بلغهم عن اليهودية والنصرانية.

ومن لم يَتَّبَعَ عليه هذا الخبر منهم أدركه بوجه من الوجوه أخذاً من القراءة الثانية:

﴿بَلْ أَذْرَكَ عَلِمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾:

ومن أدرك الخبر أو أَدَارَكَهُ فَقَدْ حَصَلَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ مَا.

والمعنى لم يَأْتِهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ نبأ جديد غريب عليهم في موضوع الآخرة، بل

أَدْرَكُوهُ بِعِلْمٍ خَبْرِي، أَوْ تَتَابَعَ عَلَيْهِمُ الْعِلْمُ بِهِ، عَنْ طَرِيقِ الْأَخْبَارِ السَّابِقَةِ، الَّتِي بَلَغَهَا الْمُرْسَلُونَ السَّابِقُونَ.

إِنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ جَاءَهُمْ بِخَبَرٍ جَدِيدٍ لَمْ يَسْبِقْ لَهُمْ إِدْرَاكُ الْمَعْرِفَةِ بِهِ عَنْ طَرِيقِ الْأَخْبَارِ.

بَلْ هَذَا الْعِلْمُ الْخَبْرِيُّ هُمْ فِي شَكٍّ نَفْسِيٍّ مِنْ صَدَقِهِ، لِأَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ تَصْدِيقَهُ، حَتَّى لَا يَمْنَعَهُمُ الْإِيمَانُ بِهِ - وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْحِسَابَ وَالْجَزَاءَ يَوْمَ الدِّينِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا - مَنْ أَنْ يَفْجُرُوا عَلَى مَا يَشْتَهُونَ وَيَهْوَوْنَ، وَحَتَّى لَا يَمْنَعَهُمْ مَنْ أَنْ يَتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ ظَالِمِينَ فَاسِقِينَ مُسْتَكْبِرِينَ.

بَلْ هُمْ فَوْقَ ذَلِكَ مُحْجُوبُونَ بِالْعَمَى الْقَلْبِيِّ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ بِاتِّبَاعِهِمْ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَسَائِرَ جَوَامِحِ نَفْسِهِمْ، لِذَلِكَ فَهَمُ مِنْ جِهَةِ رُؤْيَا حَقِيقَةِ خَبَرِ الْآخِرَةِ عَمُونَ، لَا يَرَوْنَ أَدْلَتَهَا الْعَقْلِيَّةَ، وَلَا يُصَدِّقُونَ أَنْبَاءَهَا النُّقْلِيَّةَ عَنِ الْمُرْسَلِينَ.

﴿عَمُونَ﴾: جَمْعُ «عَمٍ»، بِمَعْنَى «أَعْمَى».

وَنُلاحِظُ فِي هَذَا النَّصِّ أَنَّهُ قَدْ وُضِعَ الْمَثَلُ بِهِ مَوْضِعَ الْمَثَلِ لَهُ، تَأْكِيداً لِلْمِثَالَةِ.

* * *

النَّصُّ الرَّابِعُ

وَفِي سُورَةِ (النَّمْلِ / ٢٧ / مَصْحَفٍ / ٤٨ / نَزُولٍ) أَيْضاً قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ مُنْكَرِي الْقُرْآنِ وَمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ حَقٍّ حَوْلَ مُخْتَلَفِ قَضَايَا الدِّينِ:

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٧١) إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الضَّمَمَ الدَّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾.

﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ :

أي إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الَّذِينَ هُمْ مَوْتَى بالنسبة إلى قضايا الدين، إذ فقدوا كُلَّ حواسِّهم التي تستجيب لمثيرات دعوة القرآن، التي تستثير من كانت لديهم هذه الحواسِّ، وظاهر أن فقد كُلَّ الحواسِّ الظاهرة والباطنة التي تستثيرها دعوة القرآن، هو نوعٌ من الموت لجانبٍ من جوانب المُحسَّات، وهو الجانب الذي كان لديه بالفطرة استعدادٌ لأن يُحسَّ بالمثيرات المتعلقة بقضايا الدين الحق.

وقد سمَّاهم الله موتى، لأنَّ نفوسهم منصرفة عن كُلِّ القضايا التي تتصل بالله واليوم الآخر انصرافاً كلياً، فليس بينهم وبينها وسائل اتصال، وبانقطاع الاتصال ينعدم التلقِّي، وتنعدم الاستجابة، فهم بالنسبة إليها كالموتى، وقد وُضع الممثل به موضع الممثل له تأكيداً للمماثلة.

﴿وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ :

أي : وإنَّكَ لَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الذين نزل بهم الصَّمم بالنسبة إلى دعوة الدِّين الحق، ففقدوا القدرة على استماع أيِّ دعاء أو نداءٍ يتعلَّق بها، لأنَّ كُلَّ أجزاء أسماعهم متَّصلةٌ بأمور شهواتهم وأهوائهم ومطالبهم من دنياهم، فليس فيها خطُّ استماعيٍّ يَسْتَجِيبُ لمثير يتعلَّق بالله واليوم الآخر والواجبات الدنيئة، فهم بالنسبة إلى النداءات التي تتعلَّق بهذه الموضوعات مصابون بداء الصمم، ولَفَرَزَ حالة الصمم هذه عن حالة العمى قيَّدها الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾. وذلك لأنَّ الأصمَّ البصير إذا كان يُواجه ببصره من يناديه، فإنه قد يفهم من حركات شفاهه ووجهه بعض ما اشتمل عليه نداؤه، وبسبب ذلك لا تُكشَفُ حالة الصمم كشفاً تاماً إلا إذا كان الأصمُّ قد ولَّى مُدْبِراً.

﴿وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ : أي : أدبروا وابتعدوا وانصرفوا، مقابلين جهة الداعي بأدبارهم، وقد جاء لفظ ﴿مُدْبِرِينَ﴾ حالاً مؤكَّدةً، لتأكيد أن توليهم لم يكن مجرد ابتعادٍ وانصرافٍ مقرونٍ بشيءٍ من ملاحظتهم لما وراءهم، بل هم مُدْبِرُونَ لا يُبْصِرُونَ شيئاً ممَّا هو وراءهم، ولا يَتَّجِهَ لهم غير النداء الصوتي.

وقد سَمَّاهُمْ اللهُ صُمًّا لِأَنَّ نفوسهم منصرفة عن استماع كُلِّ نداء يتعلَّق بقضايا الإيمان بالله واليوم الآخر وسائر قضايا الدين انصرافاً كلياً، فليس بينهم وبينها وسائل اتِّصالٍ سمعي، وبانعدام الاتِّصال ينعدمُ التلقِّي، وتنعدمُ الاستجابة، فهم بالنسبة إليها كالصُّمِّ، وقد وُضِعَ الممَثَّلُ به موضع الممَثَّلِ له تأكيداً للمماثلة.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾:

أي: وإنَّكَ لَا تهدي العميَ بأنوار معرفة آيات الله، مهما وَجَّهَتْها لأبصار بصيرتهم.

إنَّهم لَا يرونها، فهم لَا ينصرفون عن ضلالتهم التي هم فيها، إذ فقدوا القدرة على رؤية الحقِّ الذي جاء في القرآن مهما كشفتهُ الأنوار، بسبب أنَّهم عُمَى بالنسبة إلى القضايا التي تتعلَّق بالدين، وإنَّ كانوا حديدي الأبصار بالنسبة إلى شؤون دنياهم وأهوائهم وشهواتهم ولذاتهم فيها.

وقد سَمَّاهم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عُمَى، لِأَنَّ نفوسهم وبصائرهم منصرفة عن رؤية كُلِّ ما يتصل بقضايا الدين انصرافاً كلياً، فليس بين بصائرهم وبينها وسائل اتصال بصري، وبانعدام الاتِّصال البصريّ تنعدمُ الاستجابة بالرؤية، فهم بالنسبة إليها كالْعُمَى، وقد وُضِعَ الممَثَّلُ به مَوْضِعَ الممَثَّلِ لَهُ تأكيداً للمماثلة.

وأبان اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السببَ الحقيقي الذي جعلهم صُمًّا وَعُمَى وأشباه الموتى، وهو أنَّهم لم يؤمنوا بآياته، ومعلوم في طبائع النفوس أنَّ من لَا يؤمن بالشَّيء فإنه لَا يهتم له، وَلَا يستجيب لدعوته، بخلاف الذين آمنوا بآيات الله فإنَّهم يرون سعادة أنفسهم منوطةً بالعمل بما جاء فيها، فهم يستمعون إليها، وَيُسَلِّمُونَ طائعين، مجتهدين أن يعملوا بما جاء فيها، فقال تعالى:

﴿إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾:

أي: لَا تُسْمِعْ إِلَّا الَّذِينَ يُتَابِعُونَ الإيمان بكلِّ ما ينزل من آياتنا، وهم

حريصون على معرفة منهاج سعادتهم، مستسلمون، ومن استسلم وأسلم اجتهد في أن يعمل بما علم مما آمن به، وارتبطت بالعمل به سعادته.

النص الخامس

وفي سورة (طه / ٢٠ مصحف / ٤٥ نزول) قال الله عز وجل في حكاية ما قاله لآدم وزوجه إذ أهبطهما من الجنة:

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمًى وَقَدِ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ أَتُكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِيْكَ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهٖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾:

أي: أعطى عارضه آيات الله فلم يتدبرها ولم يعمل بها.

﴿مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾:

أي: معيشة ضيقة لا سعة فيها، الضنك: الضيق من كل شيء يستوي فيه المذكر والمؤنث.

﴿فَنَسِيْنَهَا﴾:

أي: فتركناها وأهملت العمل بها، أصل معنى النسيان يدور حول الترك، ثم اشتهر بمعنى غيابه عن الذاكرة.

يبين الله عز وجل حالة من أعرض عن ذكر الله بعد أن آمن به، وأبصر نوره، فجره إعراضه إلى نسيان ذكر الله بتركه، وترك العمل به، وغيابه عن ذاكرته، حتى

كان كالكاfer به الأعمى عن رؤية نوره، وأنه بسبب ذلك يُحشَر أعمى مع الكفرة العميان، والمراد أعمى البصيرة عن رؤية الحقِّ الربَّاني الذي هو مطلوب الدِّين من العالمين.

وبما أنه كان من المؤمنين المبصرين نورَ ذكر الله، فإنه يقول يوم الحشر متسائلاً عن سبب حشره أعمى:

﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾:
أي: ربِّ لِمَ حَشَرْتَنِي كالكَفَّارِ أَعْمَى وقد كنتُ مؤمناً؟ فيأتي جوابه من قِبَلِ رَبِّهِ:

﴿كَذَلِكَ. أَتَتَكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾:
أي: كذلك العمل الذي كان منك في الدنيا جاءكَ جزاؤكَ يوم الدِّين، وبالبيان التفصيلي نقول لك: أَتَتَكَ آيَاتُنَا فرأيتها وأبصرتها وآمنت بها، وعقب ذلك تركتها ولم تعمل بما جاء فيها، حتى نسيت ذكرها، فكان حالك كحال الكافر الأعمى الذي أدبر عنها فلم يرها، ولم يؤمن بها. فمن العدل أن تُترك مع العميان الكفرة إذ لم تَنفَعَكَ رؤيتُكَ وإيمانُكَ في سلوكك شيئاً.

وأبان الله عزَّ وجلَّ أنه يُجَازِي بمثل هذا الجزاء من أسرف في ظلمه وعدم إيمانه بآيات ربِّه ابتداءً، فيحشره أعمى، فقال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾:
وهذا من العذاب الذي يكون في موقف الحشر، ولكنَّ عذاب الآخرة الذي يكون بعد الحساب وفصل القضاء، ويبدأ مُنْذُ دخول أهل النارِ النارَ، هو أشدُّ وأبقى، فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾:
أي: أشدُّ كَمًّا وكَيْفًا، وأكثرُ بقاءً مع تتابع الأزمان، أعادنا الله منه ومن كلِّ عذاب.

* * *

النص السادس

وفي سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول) قال الله عز وجل:

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾

أي: ومن كان في هذه الحياة الدنيا القريبة الجارية أحدًا كافرًا أعمى البصيرة، لا يرى الحق الرباني المنزل في آيات الله، بسبب إدباره وتوليّه عنها، فهو يسير في متاهات الحياة ضالًّا تائهاً على غير صراط الله المستقيم، متبعًا أهواءه وشهوته ونزغات نفسه ونزغات الشياطين وخطواتهم، فإنه يُعاقب في الآخرة يوم الحشر بمثل ما اختار هو لنفسه في الحياة الدنيا.

فيكون في موقف الحشر أعمى البصر، لا يهتدي إلى مسالكه، وتحيط به المخيفات المرعبات من كل جانب، وهولاً يذري كيف يحيد عنها، وهذا نوع من العذاب شديد.

ويكون أيضاً في مسيرته وحركاته على أرض المحشر يوم الدين أضل سبيلاً منه، يوم كان في الحياة الدنيا ضالًّا بكفره وفجوره، وأتباعه خطوات الشياطين، وتوغله في متاهات المهالك، وأودية الشر والإثم، وارتكاب الجرائم، وفعل الكبريات من الموبقات.

النص السابع

وفي سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول) أيضاً قال الله عز وجل:

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائِكُمْ وَأَصْمَأُوتُهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدَّتُهُمْ سَعِيرًا ۝١٧﴾

ذَلِكَ جَزَاءُ هُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝١٨﴾

أي: وَمَنْ يَحْكُمِ اللَّهُ لَهُ بِالْهُدَايَةِ بِنَاءً عَلَى إِيمَانِهِ وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ، فَهُوَ المَهْتَدِي حَقًّا، إِذْ لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ. وَمَنْ يَحْكُمِ اللَّهُ عَلَيْهِم بِالضَّلَالَةِ بِنَاءً عَلَى كُفْرِهِمْ وَمَا قَدَّمُوا مِنْ سَيِّئَاتٍ، فَلَنْ تَجِدَ - يَا أَيُّهَا السَّامِعُ أَيَّا كُنْتَ - لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَحْكُمُونَ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مَهْدِيِّينَ، وَتَكُونُ أَحْكَامُهُمْ نَافِذَةً الْأَثَرِ، لِأَنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَلِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

وبما أَنَّ هؤلاء الكفرة الضالِّين الذين يَحْكُمُ اللَّهُ عَلَيْهِم بِالضَّلَالَةِ، قَدْ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَمْثَالَ الْبَهَائِمِ، مُكَبِّينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ، لَا يَرْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ لِاسْتِقْبَالِ مَا يَنْزِلُ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ مِنْ آيَاتِ كِتَابِهِ، وَكَانُوا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا كَالْعُمَى لَا يَرَوْنَ الْحَقَّ الَّذِي تَهْدِي إِلَيْهِ، وَكَالْبُكْمِ لَا يَعْتَرِفُونَ بِمَا يَصِلُونَ إِلَى إِدْرَاكِهِ مِنَ الْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ. وَكَالْصُّمِّ لَا يَسْمَعُونَ نِدَاءَاتٍ مِنْ يُذَكِّرُهُمْ بِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبُكْمًا وَصُمًّا، مَجَازَةً لَهُمْ بِمَثَلِ عَمَلِهِمْ، ضَمَّنَ قَاعِدَةً: «الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ».

وبعد الحشر والحساب وفصل القضاء يَكُونُ مَاوَاهُمْ الْأَخِيرُ جَهَنَّمَ الَّتِي يَأْتِيهَا الْمَدَدُ بِالْوُقُودِ دَوَامًا، وَكُلَّمَا خَبَتْ (أَي: سَكَنْتْ وَخَمَدَ لَهَبُهَا) جَاءَهَا بِأَمْرِ اللَّهِ مَدَدٌ مِنَ الْوُقُودِ، فزادهم بِذَلِكَ سَعِيرًا (السَّعِيرُ: النَّارُ، وَلَهَبُهَا) أَي: زَادَهُمُ اللَّهُ لَهَبًا بِالْوُقُودِ الَّذِي تُمَدُّ بِهِ، لِاسْتِمْرَارِ تَعْذِيبِهِمْ، وَاسْتِمْرَارِ تَذْوِقِهِمْ لِلْعَذَابِ.

والسبب فِي مَجَازَاتِهِمْ بِهَذَا الْجَزَاءِ، أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مُعْطَّلِينَ أَبْصَارَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ وَسَمْعَهُمْ، وَأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِنَبَأِ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، لِمَحَاسَبَتِهِمْ وَمَجَازَاتِهِمْ، جَاحِدِينَ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَى إِحْيَائِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ فَنَاءِ أَجْسَادِهِمُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الْأُولَى، مَعَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ لِلْحَيَاةِ الْأُولَى وَلَمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا: إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَوْنَا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾:

يطرحون تساؤلهم على طريقة استفهام المنكر المتعجب الذي يرى أن البعث إلى الحياة بعد الموت والفناء أمرٌ مستبعد مستحيل.

* * *

النص الثامن

وفي سورة (يونس / ١٠ مصحف / ٥١ نزول) قال الله عز وجل خطاباً للرسول ويلحق به الدعاة إلى الله من بعده:

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٢) **وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ** ﴿٤٣﴾.

يُبين الله عز وجل في هذا النص حقيقة من حقائق التكوين السمعي والبصري في الناس، وهي أن السمع الظاهر والبصر الظاهر جهازان ناقلان، وأن السمع الحقيقي والبصر الحقيقي إنما يكونان في مراكز السمع والبصر في الدماغ، وهي التي تُدرك وتعقل ما ينقله جهاز السمع والبصر، وأنه حين يكون في داخل النفس صوارف أو حجب تصرف أو تحجب ما تنقله أجهزة السمع والبصر الظاهرة، فإن هذه المراكز في الدماغ لا تُدرك ولا تعقل بقواها شيئاً من المُدركات التي تنقلها أجهزة السمع والبصر، فصاحبها أصم وأعمى في مراكز السمع والبصر داخل دماغه، بسبب الصوارف والحجب.

وتكون النتيجة أن ترى من تحدّثه يستمع إليك بأذنه، لكنّه لا يسمعك بمراكز السمع في دماغه، وأن تحسب أن من تبصره بآيات الله في كونه ليُدرك دالاتها الفكرية، ينظر إليك ببصره، بيد أنه لا يرى بمراكز البصر في دماغه شيئاً ممّا تبصره به، فهو في الحقيقة أعمى بالنسبة إلى مراكز الرؤية في دماغه، بسبب الصوارف والحجب.

وقد جاء البيان بصيغة الاستفهام الدالّ على النفي، فقال الله عز وجل:

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾:

أي: أنت لا تسمع الصَّمَّ صَمًّا دَاحِلِيًّا، وهم الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ في مراكز السَّمْع في أدمغتهم، ما تنقله من مسموعات أجهزة نقل الأصوات في آذانهم.
وقال الله عز وجل:

﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾:

أي: أنت لا تهدي الْعُمْيَ عَمَى دَاحِلِيًّا يَمْنَعُ مراكز البصر في أدمغتهم من أن تُبْصِرَ ما تنقله من مراثيات أجهزة نقل المراثيات في أعينهم.

والمعنى: إنك لا تستطيع ذلك، لأننا لم نعطك سلطة الإجبار التكويني، بعد أن منحنا الناس حُرِّيَّة الاختيار بإراداتهم، لابتلائهم في ظروف الحياة الدنيا.
إنَّ القادر على فعل مثل هذا الجبر هو الله الرَّبُّ الخالق، لكنَّه سبحانه لم يشأه، لمنافاته لمشيئة التخيير التي شاءها لعباده، ومشئآت الله لا تتناقض فيما بينها

* * *

النص التاسع

وفي سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قال الله عز وجل:

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا

تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

جاء هذا النص في معرض الحديث عن فريق الكافرين الذين افتروا على الله كذباً، وَيَصُدُّون عن سبيل الله ويغونها عِوَجاً، وقد حُجِبَتْ بِحُجُبٍ من نفوسهم، مراكز سمعهم ومراكز بصرهم، فهم لا يستطيعون سماع نداءات الحق، ولا رؤية آياته. وفي معرض الحديث عن فريق المؤمنين الَّذِينَ آمَنُوا وعملوا الصالحات وأُخْتُبُوا إلى رَبِّهِمْ (أي: خَضَعُوا وخَشَعُوا له واطْمَأْنَأُوا إليه).

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾:

أي: وُصِفَ الفريقين.

والمعنى: وُصِفَ الفريقين كما يلي: فالفريق الكافر كالأعمى والأصم بالنسبة إلى قضايا حق الله على عباده، إذ جمع في ذاته صفة الأعمى من جهة البصر، وصفة الأصم من جهة السمع. والفريق المؤمن كالبصير والسميع، بالنسبة إلى قضايا حق الله على عباده، إذ جمع في ذاته صفة البصير شديد البصر، وصفة السميع شديد السمع.

فهل يستوي هذان الفريقان وُصفًا؟!

إنهما لا يستويان بدهةً.

بعد هذا البيان يحضُّ الله عزَّ وجلَّ على حُسْنِ التَّذَكُّرِ لحقائق الأمور بعد معرفتها، وعلى وضعها في الذاكرة للاستدعاء عند المناسبات الداعيات، فقال تعالى:

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟﴾.

* * *

النص العاشر

وفي سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول) قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

أي: لا يستجيب للدعوة الربَّانية المبيِّنة لِحَقِّ الله على عباده إلا الذين يسمعون في مراكز سمعهم الداخليَّة نداء دعوة الحقِّ، وهؤلاء هم الأحياء حقيقة، الحريصون على سعادتهم الخالدة.

أما الذين لا يستجيبون لهذه الدعوة الربَّانية فهم في الحقيقة موتى، إذ قد انقطعت صلة حواسِّهم الباطنة بما يحقِّق سعادتهم الأبدية، فهم بالنسبة إليها

كالموتى تماماً، وسيظلّون وفق سُنَنِ الله السَّيِّئَةِ موتى، لأنَّ أحداً غير الله الرَّبِّ الخالق المجبر لا يستطيع أن يعثهم إلى الحياة القلبيَّة، فيبصروا ببصيرتهم حقائق الدِّين، وواجباتهم تجاه ربهم، التي إذا أدَّوها كانت سبب سعادتهم الحقيقيَّة، والله لا يجبرهم بعد أن وضعهم وهم ذوو إرادات حرَّة موضع الامتحان.

لقد اختاروا لأنفسهم هذا الموت، بسبب توجيههم كلِّ حواسِّهم لشؤون دُنْيَاهم من شهوات وأهواء ولذاتٍ وتفاخُرٍ وتكاثرٍ ونحو ذلك من زينة الحياة الدُّنيا، وستأتيهم مناياهم التي يموتون بها الموت الجسدي بعد أن كانوا ميّتين الموت القلبيِّ والنفسيّ. ثمَّ يعثُّهم الله إلى يوم الدين، فهم إلى حساب الله وعذابه يُرجعون.

* * *

النص الحادي عشر

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُفُّوا فِي الظُّلُمَاتِ﴾ (٣٩)

أي: والَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَاتِ على رسوله، هم في مراكز السَّمْع الحقيقيَّة لديهم داخل أدمغتهم صُفُّوا عن استماع نداءات دعوة الحقِّ، بسبب الحجب النفسيَّة القائمة بين آذانهم ومراكز السمع في أدمغتهم، أو في عقولهم.

وهم أيضاً بُكِّمُوا عن الاعتراف بالحقِّ ولو عَرَفُوهُ، وذلك بسبب الموانع النفسيَّة التي تمنعهم من أن يعترفوا بالحقِّ أو يدعوا إليه. وهم أيضاً مُقَيَّمُونَ في داخل الظلمات كَالْعُمَى، لا يرون آيات الله الدَّالَّاتِ على عظيم صفاته وبديع إنقائه، وجليل حكمته، فيما خلق وبرَّاً وصور.

فكيف يكون حالُّهم، وقد حُجِّبَتْ عن الحقِّ والخير والفضيلة وعن أسباب سعادتهم في دنياهم وآخرتهم، أَجَلُ حواسِّهم التي تَصِلُهُم بالحقائق، التي تدلُّ عليها آيات الله في كونه، وتدلُّ عليها آيات الله فيما أنزل على رسوله من كتاب حكيم مجيد؟!!

وما داموا كذلك فلا بد أن يكذبوا بآيات الله المنزلات .

* * *

النص الثاني عشر

وقول الله عز وجل في سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول) أيضاً، يأمر فيه رسوله محمداً ﷺ أن يقول للكفرة المتعنتين الذين يتخذون التعنت بطلب الآيات والخوارق المادية ذريعة تعجيزية لجعل إصرارهم على الكفر أمراً يعذرون به :

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ .

أي : قل يا محمد لأصحاب المطالب المتعنتة : أنا حينما أقول لكم إنني رسول الله إليكم أبلغكم ما أوحى الله به إليّ ، وأمرني أن أبلغكم إياه ، فإنني لا أقول لكم عندي خزائن الله ، حتى تطالبوني بالمطالب المتعنتة على ما تشتهون ، ولا أقول لكم إنني أعلم الغيب ، حتى تسألوني من علوم الغيب ما لا أعلم ، كسؤالكم عن زمن قيام الساعة ، ولا أقول لكم إنني ملك ، حتى تطالبوني بأن تكون لي صفات الملائكة ، إنما أقول لكم : إنني عبدٌ بشرٌ مثلكم أوحى الله إليّ ، وأرسلني إليكم لأبلغكم دينه ، وهذه هي حدود ذاتي ، وحدود خصائصي وحدود مهمتي ووظيفتي فيكم ، فما هذه المطالب المتعنتة التي تطالبوني بها؟!

إنني لا أملك من الأمر إلا أن أتبع ما يوْحَى إليّ :

﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ .

وبعد هذا البيان قل لهم يا محمد : إن ما أقدمه لكم من حقائق دينية مؤيدة بالبراهين العقلية ، والأدلة العلمية ، إنما يدرئها من يتفكر فيها ، وهم أهل البصر الذين يبصرون بجهاز التفكير لديهم حقائق الأمور ببرهاناتها .

لكنكم قد حجبت عقولكم عن هذه الإدراكات ، واخترتم لأنفسكم أن تكونوا عمياناً بالنسبة إليها ، فماذا أفعل لكم؟!

إِنَّ هذه الحقائق الدينية التي أوحى الله بها إليَّ قد استطاع أن يُدركها غيرُكُمْ من أهل الإيمان، أهل البصر الفكريّ النافذ الدِّرَّاك لحقائق المعارف الربَّانية، وأهل البصيرة التي لم تطمسها الأهواء والشهوات، ولم تحجُبها غشاوات وسائوس الشياطين وتسويلاتهم، وظلمات مطالبهم من الحياة الدُّنيا.

وبناءً على هذا البيان فإنني أسألكم قائلاً:

﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ؟!﴾:

إنَّهُما لا يستويان بحُكم البديهة العقلية.

وإنني أدعوكم بعد ذلك إلى التفكر السليم فأقول لَكُمْ:

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

واعلموا أَنَّ العدل الربَّاني يقضي بأن يُعامل مَنْ عَمِيَ عن الحقِّ بإرادته بجزاء من جنس عمله، وبأن يعامل من أبصر الحق واستجاب له طائعاً مختاراً بجزاء من جنس عمله، وأن لا يُسَوَّى سبحانه بين الفريقين.

﴿قُلْ: هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ؟!﴾.

* * *

النصّ الثالث عشر

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول) أيضاً يُعَلِّمُ رسوله ما يقوله للناس، ويُلَحِّقُ بالرَّسول كلُّ داعٍ إلى الله من بعده:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ

بِحَفِيفٍ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿بَصَائِرُ﴾: جمع «بَصِيرَةٍ» وتُطْلَقُ على العِلْم، والحجَّة، والعبرة، وكلُّ

ما ينفع العِلْمُ والعملُ به من بيانات ونصائح وإرشادات.

أي : هذه الآيات القرآنية، والبيانات والحجج والعبر المنزلة لهدايتكم، هي بصائر من الرب الخالق الرحمن الرحيم مُهداة إليكم.

فمن أبصرها بتفكير، وأدرك دالاتها، وفهم معانيها، وعمل بما جاء فيها، واعتبر بعبرها، فلنفسه كسب خيراً وسعادة عاجلة في الدنيا، وآجلة إلى يوم الدين، وهي يومئذ تكون سعادة خالدة.

ومن تولّى عنها، فلم يستقبلها، ولم يتفكر فيها، ولم يتفهم دالاتها، ولم يعمل بما تضمنته من هداية، وكان بالنسبة إليها أعمى، فعلى نفسه جنى شراً وإثماً عظيماً، وعذاباً أليماً.

﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ :

أي : لست مكلفاً أن أكون حفيظاً عليكم، مسؤولاً عن حفظكم من النار كمسؤولية الولي عن القاصرين من رعيتيه. وإنما مسؤوليتي منحصرة في أن أبلغكم وأنذركم، ثم أنتم المسؤولون عن أنفسكم.

* * *

النص الرابع عشر

وقول الله عز وجل في سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

أي : أو من كان كالميت الذي لا يذوق من طعم الحياة الروحية القلبية شيئاً فأحييناه حين أمّن باختياره الحر بالله ورسوله وبما أنزل على رسوله، فذاق حلاوة الإيمان، وجعلنا له قرآناً ذا نور لفكره وقلبه ونفسه، يهديه في داخله، ويعمل بمقتضاه، فيمشي به في الناس سويّاً على صراط مستقيم.

كمن وصفه أنه بقي كالميت، بالنسبة إلى أنوار الهداية، فهو لا يدرك منها

شيئاً، وهو يتخبط في الظلمات على غير هدى، بسبب كُفْرِهِ، وعدم استجابته لدعوة الحق الربّانية، وهو في ظلماته يحاول أن يجد طُرْقاً يسلكها غير صراط الله، عسى أن يخرج من الظلمات التي هو فيها، لكنه لا يستطيع، بل يظل في الظلمات غير خارج منها، لأن كل الطرق غير صراط الله طرقاً مظلمات لا نور فيها، ولا يوجد له مخرج من ظلماته إلا صراط الله، لكنه رفض عبوره، وأخذ يبحث عن غيره، ولن يهتدي، إذ لا يوجد في الواقع طريق منير غيره.

لَقَدْ زُيِّنَ لَهُ أَنْ يَعتمد على آرائه وأوهامه ووساوس الشياطين، فقد اقترنت بزخارف الأفكار والأقوال والمذاهب والآراء المضلّة الصارفة عن صراط الله المستقيم، وزُيِّنَ لَهُ أَنْ يعمل بها ويتبع فيها خطوات الشيطان، إذ وجد فيها ما يشتهي ويهوى من متاع الحياة الدنيا.

كذلك التزيين الذي حصل له زُيِّنَ لسائر الكافرين من قبله في تاريخ البشرية ما كانوا يروّون من باطل، وما كانوا يعملون بمقتضاه من أعمال ترضي نفوسهم، فاستحقوا نعمة الله وعذابه.

ونتابع فقرات النصّ بشيء من التحليل:

﴿أَوْمَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾:

أي: أومن كان جاهلاً لا يعرف شيئاً عن قضايا الإيمان كالـميت، فهديناه إلى المعارف الإيمانية فأمن فصار بالإيمان حياً.

فجعل الله الكفر الناتج عن الجهل بمثابة الموت، لأن الكفر للقلوب والنفوس كالموت للأجساد وأنواع الإحساسات الجسدية.

وجعل الله الإيمان الذي هو ثمرة العلم الصحيح بمثابة الحياة للقلوب والنفوس ومالها من إحساسات باللذات وأنواع السعادات.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾:

أي : وأوضحنا له طريق حياته السعيدة، بما أنزلنا من تعاليم وشرائع ووصايا وأحكام.

فضرب الله تعالى النور مثلاً لتعاليم دينه الذي أنزله لعباده، فاهتدى به المؤمنون، ومشّوا به في حياتهم على بصيرة من أمرهم.
ووضع الممثل به موضع الممثل له، حتى كأنه هو، تأكيداً للمماثلة بينهما، واستغناءً بلفظ المشبه به عن المشبه.

وذلك لأن النور في الحسيّات الظاهرة يكشف طريق الماشي على الأرض، ويعرّفه بما حوله، فهو مثل التعاليم والشرائع والوصايا والأحكام الربّانية التي تهدي المؤمنين لفعل الخير وترك الشرّ، وتنجي من المزالق والضلالات وأنواع المهالك.
﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ :

أي : كمن وصفه أنه بقي في كفره وأنواع جهله، أرفضه أتباع ما ينجيه ويُسعده من فعل الخير وترك الشرّ، وهو ما تهدي إليه التعاليم والشرائع والوصايا والأحكام الربّانية.

فضرب الله عز وجلّ الظلمات مثلاً لأنواع جهل الكافر بهذه المنجيات المسعّدة، أرفضه أتباعها والسّير بهداها.

ووضع الممثل به موضع الممثل له، فكأنه هو، تأكيداً للمماثلة بينهما.

وذلك لأن الظلمات في الحسيّات تجعل الماشي فيها يتعرّض للمخاطر والمهالك، فهي كالجهل بدين الله لعباده، أرفض أتباعه والعمل به، إذ كلاهما يوقعان الإنسان في المخاطر والمهالك وسوء المصير.

هذا النّصّ البديع الذي اشتمل على تمثيل الإيمان بالحياة، والكفر بالموت، وتعاليم دين الله لعباده بالنور، وأتباعها بالمشي بين الناس بالنور، وتمثيل الجهل بهذه التعاليم بالظلمات، وعدم أتباعها بالمشي في الظلمات والمتاهات، يلاحظ فيه أن وفرة عناصر التشابه بين الممثل به والممثل له قد حسّنت تنزيل الممثل به منزلة

الممثل له، فكأنه هو، إيجازاً في اللفظ، واختصاراً في التعبير.

وفي هذا ما فيه من تقديرٍ لذكاء المخاطبين وقدراتهم على فهم المراد، وحلٍّ للأمثال وإرجاعها إلى أصولها.

ولو أردنا أن نبسط الكلام، وندلّ على كلّ فكرة بعبارة مساوية لها دون اعتماد الإيجاز بالحذف، والإيجاز بتزليل الأمثال منزلة ما ضربت له الأمثال، لكان علينا أن نقول في هذه الآية ما يلي :

أومن كان كافراً بالله واليوم الآخر، غير مهتدٍ بهدي دين الله وشرائعه لعباده، فكان مثله في داخل نفسه كمثل الميت الذي لا حياة في جسده من جهة، وكمثل الضالّ الذي يسير في الظلمات، فيتعرّض لأنواع المخاطر والمهلكات من جهة أخرى، فهديناه إلى الإيمان فاستجاب باختياره الحرّ، فأمن واهتدى، وأنزلنا عليه الشرائع والوصايا، فاتّبعها ومشى بهديها على بصيرة، فأسعدناه بذلك، وأنجيناه من المهالك، فكان في داخل نفسه كمثل الجسد الذي نفخنا فيه الروح فأحييناه، وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس.

هل يستوي هذا الذي ذكرنا وصفه، هو ومن بقي في كفره، فهو في واقع حاله النفسي كالميت من جهة، وهو في أعماله في حياته ضالّ تائه يتعرّض للمخاطر والمهالك من جهة ثانية، فمثله كمثل من يمشي في الظلمات ليس بخارج منها، وهو مع ذلك راضٍ بواقعه، ويرى فيه متعة نفسه، ومريضات شهواته :

﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

هل يستوي هذان الفريقان؟!

إنهما لا يستويان بداهةً.

* * *

النص الخامس عشر

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (غافر / ٤٠ مصحف / ٦٠ نزول):

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨)

أي: وما يستوي الأعمى في بصره الظاهر أو في بصيرته القلبية، والبصير في بصره الظاهر أو في بصيرته القلبية.

كيف يستوي الفريقان في مقاييس الحق والواقع، وفي مقاييس الآثار والنتائج، وفي التقدير والجزاء؟!.

إنهما لا يستويان أبداً.

وكذلك لا يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لأنَّهم على درجات ومستويات متفاوتاتٍ متفاوتاتٍ، إيماناً وعملاً صالحاً.

كيف يستوي الفاضل والمفضول، رغم وجود التفاضل والتفاوت بينهما، ولو اشتركوا في أصل الصفة العامة التي هي بمثابة الجنس الذي يجمع أنواعاً متفاوتة، أو بمثابة النوع الذي يجمع أفراداً متفاوتة فيما بينها؟!.

وكذلك لا يستوي أفراد الفريق المُسيء، إذ هم على دركاتٍ ومستويات متفاوتاتٍ في الإساءة، وفي نسبة الكسب السيئ عقيدهً وعملاً.

فَمِنَ الْبَدْهِىٰ إِذْنٌ أَن لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ، وَأَنْ لَا يَسْتَوِي الْمُسْلِمُونَ وَالْمَجْرُمُونَ.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

أي: هذا علَّمْ تقدمه لكم لتعلموه، ثم لتذكروه عند المقتضيات الداعيات لتذكُّره، ولكن قليلاً ما تذكُّرون، إهمالاً وتهاوناً واتباعاً للأهواء والشهوات.

* * *

النص السادس عشر

وقول الله عز وجل في سورة (فصلت / ٤١ مصحف / ٦١ نزول):

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاحِقَةٌ أَلْهَبَتْ هَهُنَ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٧٨﴾﴾ .

أي: وأمّا ثمود قوم النبي صالح عليه السلام فهديناهم بالدعوة إلى الحق، وسلوك الصراط المستقيم، على لسان رسولهم، فرفضوا الاستجابة لهذه الدعوة، فاستحبوا (أي: أحبوا بشدة) الضلال الذي هو كالعَمَى، وآثروه على الهدى الذي هو كالبصر، فكفروا بما جاءهم به رسول ربهم، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون (أي: العذاب المقرون بما ينزل بهم الخزي) بسبب ما كانوا يكسبون من كفر وأعمال سيئة.

وقد وضع الممثل به موضع الممثل له، تأكيداً للمماثلة، إذ سَمِيَ الله الكُفْرَ والضلالة عن الحق عَمَى.

وأمّا الذين آمنوا من ثمود، وأتبعوا رسول ربهم، وكانوا يتقون الوقوع في المعاصي والآثام، ويتقون عذاب الله وعقابه، فقد نجّيناهم من الإهلاك العام الذي أنزلناه بتمود.

وهكذا نلاحظ أنّ الله عز وجل سَمِيَ الكُفْرَ ورفض قبول الحق عَمَى، ونُذِرَ بالمقابل أنّه سَمِيَ قبول الحق والإيمان به بَصْرًا، وفق المصطلح القرآني الذي تكرر في نصوصه.

* * *

النص السابع عشر

وقال الله عز وجل في سورة (فُصِّلَتْ / ٤١ مصحف / ٦١ نزول) أيضاً، بشأن القرآن المجيد:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْهُو عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۝٤٤﴾

لقد أنزل الله عز وجل القرآن عربياً، وشرف به العرب إذ أنزله بلسانهم، فكفر به من كفر منهم، فقال الله بشأن هؤلاء الذين كفروا به من العرب، وفي مقدمتهم كفار مكة هذا القول.

والمعنى: ولو جعلناه قرآناً أعجمياً، أي: مُنْزَلاً بلسان آخر من السنة الأعاجم، لقال الذين كفروا به من العرب: لولا أنزل مُفْصَّل الآيات باللسان العربي، ولقالوا معترضين: أأعجمي وعربي، أي: أقرآن باللسان الأعجمي ونبي عربي؟!

وفي عرض هذه القضية بيان لجانب من جوانب حكمة تنزيله قرآناً عربياً، بعد أن اختار الله خاتم رسله من أمة العرب.

بعد هذا علم الله عز وجل رسوله ما يقوله لهم: وقد تضمّن التعليم ما يلي:

قل: إن القرآن هو للذين آمنوا بالله ورسوله هُدًى يَهْدِيهِمْ إلى سواء السبيل، وهو شفاء لِعِلَلِ أفرادهم ومجتمعاتهم إذا اتَّبَعُوا ما أنزل الله فيه.

والذين لا يؤمنون بالله ورسوله، يوجد في آذانهم وَقْرٌ (أي: صمم، أو ثقل في السمع قريب من الصمم) بحسب اختلاف أحوالهم.

﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾:

أي: والقرآن بالنسبة إليهم شيء غير مُدْرِك وغير مفهوم، لأنهم لم يستمعوه

حَتَّى يُفَكِّرُوا فِيهِ، فَبَيْنَ مَعَانِيهِ وَبَيْنَ عَقُولِهِمْ حِجَابُ الْعَمَى فِي الْبَصِيرَةِ وَالْقَلْبِ،
أَوِ الْقَوَى الْإِدْرَاكِيَّةِ فِي النَّفْسِ.

جاء في كتب اللُّغَةِ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ غَيْرِ مَفْهُومٍ وَلَا مُدْرَكٍ بِالْأَفْكَارِ وَالْعُقُولِ فَهُوَ
عَمَى بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا، وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ فِي الْأَصْلِ مِنْ إِطْلَاقِ الْعَمَى عَلَى الْمَحْجُوبِ عَنْ
الْإِدْرَاكِ بِسَبَبِهِ.

وَلَمَّا كَانَ حَالُهُمْ كَذَلِكَ فَإِنَّ مَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ آيَاتِ اللَّهِ لِيَسْتَمِعُوا إِلَيْهَا كَأَنَّهُ
يُنَادِيهِمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ مِنْ نِدَائِهِ إِلَّا صَوْتًا مُخْتَلِطًا، لَيْسَ فِيهِ
حُرُوفٌ وَلَا كَلِمَاتٌ حَتَّى يَفْهَمُوا دَلَالَاتِهَا.

فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾:

وهكذا وُضِعَ الْمُثَمِّلُ بِهِ مَوْضِعَ الْمُثَمِّلِ لَهُ تَأْكِيدًا لِلْمِثَالَةِ، إِذْ سُمِّيَ عَدَمُ
الاسْتِمَاعِ لآيَاتِ اللَّهِ وَقَرَأَ، وَسُمِّيَ عَدَمُ فَهْمِ دَلَالَاتِهَا عَمَى.

* * *

النَّصُّ الثَّامِنُ عَشَرَ

وقول الله عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الزَّخْرَفِ / ٤٣ / مَصْحَفِ / ٦٣ / نَزُولِ) خُطَابًا
لِلرَّسُولِ فَكُلَّ دَاعٍ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ مِنْ بَعْدِهِ، بِشَأْنِ الْكُفْرَةِ الَّذِينَ حَجَبَهُمْ زُخْرُفُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَنْ سَمَاعِ كَلِمَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، وَعَنْ رُؤْيَا آيَاتِ الْهُدَايَةِ بِمَرَاكِزِ الْإِدْرَاكِ
الْفِكْرِيِّ وَالْقَلْبِيِّ لَدَيْهِمْ:

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٤٠).

اسْتِفْهَامٌ يُقْصَدُ مِنْهُ النَّفْيُ، وَيُوْتَى بِهِ لِتَلَقِّيِ الْاعْتِرَافِ بِالنَّفْيِ مِنَ الْمَخَاطَبِ بِهِ.
وَالْمَعْنَى: أَنْتَ لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الَّذِينَ أُصِيبُوا بِالصَّمَمِ الْفِكْرِيِّ وَالنَّفْسِيِّ تَجَاهَ
مَوْضُوعَاتٍ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَسْمَعُوا عَنْهَا شَيْئًا، إِنَّ مُحَاوَلَةَ مَنْ يَرِيدُ إِسْمَاعَهُمْ وَهُمْ

صُمِّ، محاولةً منه لخرق أحد أنظمة الله العامة في النفوس البشرية، وهذا الخرقُ لا يُقدَّر عليه إلاَّ الله الرَّبُّ الخالق واضع الأنظمة والسنن، وهو سبحانه لا يفعلُهُ بعد أن وضع الناس موضع الاختيار الحرَّ للابتلاء.

وأنت لا تستطيع أيضاً أن تُوصِل الهداية إلى مراكز الاهتداء في نفوس العُمى، الذين أُصِيبُوا بِالْعَمَى الفكري والقلبيّ تجاه موضوعات لا يريدون أن يغيروا من مفاهيمهم حولها شيئاً، فمحاولة إيصال الهداية إلى قلوبهم وأفكارهم محاولةً خائبة، لأنَّها محاولةٌ لخرق أحد أنظمة الله العامة في النفوس الإنسانية.

وكذلك الحال بالنسبة إلى هداية من هو في ضلالٍ مُبين، ويعلمُ أنه في ضلالٍ مُبين، لكنَّه غارقٌ في لذاته التي يجلبُها له واقعه الضَّال.

* * *

النصّ التاسع عشر

وقوله الله عزَّ وجلَّ في سورة (الجاثية) / ٤٥ مصحف / ٦٥ نزول):

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤٢).

أي: أفرأيت أيُّها الداعي إلى سبيل ربِّك أيّاً كُنْتَ، حالٌ من اتَّخَذَ إِلَهُهُ الذي يَتَوَجَّهُ لَهُ بالطاعة التامة والاستسلام الكامل في أموره كُلِّها، هَوَاهُ الذي يَجُرُّهُ إلى مَهَالِكِهِ، ويجعله يستجيب لوساوس الشيطان، ويتَّبِع خطواته السائرة به إلى النار وعذابه الأبديّ.

لقد جعل معبوده هواه، فصار بذلك ضالاً موعلاً في ضلالته، وميؤوساً من إصلاح حاله، وخروجه من ظلمات ضلالته.

وقد علم الله حاله، فحكم عليه بالضلالة، بناءً على علمه سبحانه بحالته الداخليّة التي وصل إليها، فأجرى سنته فيه، وهي أن كلَّ من وصل في ضلاله إلى

حالة اتَّخَذَ فيها إِلَهه هَوَاهُ، أَقْفَلَ سَمْعَهُ وَقَلْبَهُ بالنسبة إلى دعوة الحق، فهو لَا يَسْمَعُ وَلَا يفهم شيئاً مما يَتَّصِلُ بقضايا الدين الحقِّ، ووضع على القفل ختماً، إِيذَاناً بأنَّ المقفول ممنوع الفتح، أو صار ممتنع الفتح.

وَجَعَلَ على بصره غشاوةً (أي: سترًا وغطاءً) وهذه الغشاوة تمنع عنه كلَّ رؤيةٍ تَتَّصِلُ بقضايا الدِّينِ الحقِّ.

والمعنى: لَا تَكْلُفْ نَفْسَكَ أَيُّهَا الدَّاعِي إلى سبيل رَبِّكَ عناءَ إبلاغِ دعوة الحقِّ إلى قلب إنسانٍ وصلت به حالة الإِدْبَارِ والتَّوَلَّى إلى أَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ، فقد صار إنساناً مَيُوسَافاً منه، فلا تصل إلى داخل فكره ونفسه دعوة الحقِّ، بسبب وصوله إلى حالة الصُّمِّ والعَمَى المعنويَّين.

ولذلك لَا تحاولُ أَنْ تتخذَ له أعذاراً تجعله بها قابلاً للهداية، أو معذوراً في ضلَّالته، فقد تواردت عليه بيانات دعوة الحق، فرفضها وأبأها وتولَّى عنها، فهو بالنسبة إليها أَصَمُّ أَعْمَى لَا يَعْقِلُ.

لقد حكم الله عليه بالضلالة بناءً على عِلْمٍ منه بحاله، فأضله على علم به، قال تعالى:

﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾.

وأجرى سبحانه فيه سنته التي يُجرِّبُها في كُلِّ الذين وصلوا إلى حالةٍ مَيُوسٍ منها:

﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوةً﴾.

فَلَا أَحَدٌ يستطيع أن يحكِّمَ له بالهداية من بعد الله:

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ؟﴾:

أي: لَا أَحَدٌ يهديه من بعد الله، إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لَهُ سبحانه.

ولما كان في الدُّعَاةِ إلى سبيل الله من لَا يُدْرِكُ هذه الحقيقة من حقائق

الصفات البشرية، ويظل طامعاً بهداية من وصل إلى مثل هذه الحالة من أهل الكفر، قال تعالى :

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

استفهام فيه معنى الإنكار عليهم إذ لم يفهموا هذه الحقيقة، ولم يضعوها في ذاكرتهم دوماً، لاستدعائها عند المناسبات الداعيات .

* * *

النصّ العشرون

وقول الله عز وجل في سورة (الروم / ٣٠ مصحف / ٨٤ نزول) خطاباً للرسول فكلّ داعٍ إلى الله من بعده :

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ .

نلاحظ في هذا النصّ أن الأوصاف التالية : (الموتى - الصمّ - العمى) قد أريد بها الكافرون الذين رفضوا الإيمان وأصرّوا على الرّفص بعد وُضوح أدلّته لهم، فأمسّوا بسبب كفرهم القائم على رفض الحقّ محرومين من الحياة القلبية والنفسية المطمئنة التي يكونون بها سعداء، فهم كالموتى بالنسبة إلى هذا الجانب من ذواتهم .

ومن رفض الحقّ بإصرارٍ وعنادٍ انصرفت سمعه عن سماع الدعاء لهذا الحقّ، والدعاء لاتباعه، وألقيت على سمعه الداخلي الحُجبُ نتيجةً لما كان منه من رفضٍ إراديٍّ بإصرارٍ وعناد، فكان بالنسبة إلى نداءات الحقّ المرفوض من قبله كالأصمّ .

وكذلك انصرفت بصره عن رؤية دلائل الحقّ، ومعالم طرق الهداية التي يشتمل عليها، وألقيت على بصره الداخلي الغشاوات، فكان بالنسبة إلى هذه المربّيات كالأعمى .

إِنَّمَا يَسْمَعُ السَّمَاعُ الْمُؤَثَّرَ، وَيُبْصِرُ الْإِبْصَارَ الْمُؤَثَّرَ، مِنْ خَطَا بِإِرَادَتِهِ مِنْ أَوَّلِ الطَّرِيقِ خُطْوَةَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِآيَاتِهِ، فَانْتَقِلَ بِهَذَا الْإِيمَانِ انْتِقَالًا تَلْقَائِيًّا إِلَى الْإِسْلَامِ لِلَّهِ، وَالْإِسْتِسْلَامِ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، فَهُوَ عِنْدُنَا يَسْمَعُ دُعَاءَ الْهَدَايَةِ، إِذْ لَا حِجَابَ وَلَا غِشَاوَةَ عَلَى سَمْعِهِ، وَهُوَ عِنْدُنَا يَرَى وَيُبْصِرُ مَعَالِمَ طَرِيقِ الْهَدَايَةِ، مَتَى لَفَتَ الدَّاعِيَ الْهَادِيَ نَظْرَهُ إِلَيْهَا، إِذْ لَا حِجَابَ وَلَا غِشَاوَةَ عَلَى بَصَرِهِ، دَلٌّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

ونفهم من هذا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ ضَرَبَ مَثَلًا لِلْكَافِرِ الْمَصْرَّةِ عَلَى كُفْرِهِ بَعْدَ وَضُوحِ أدَلَّةِ الْإِيمَانِ لَهُ، بِالْمِثِّ الْأَصَمِّ الْأَعْمَى.

ونظراً إِلَى وَفَرَةِ عُنَاصِرِ التَّمَاثُلِ بَيْنَ الْمُمَثِّلِ بِهِ وَالْمُمَثَّلِ لَهُ أَنْزَلَ الْمُثَّلُ بِهِ مَنَزِلَةَ الْمُثَّلِ لَهُ فَكَأَنَّهُ هُوَ، تَأْكِيداً لِلْمُمَاثَلَةِ، وَاسْتِغْنَاءً بِالْأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَى الْمُمَثَّلِ بِهِ عَنِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْمُمَثِّلِ لَهُ.

وأصل التمثيل هنا هو من قبيل تمثيل أمرٍ معنويٍّ بأمرٍ مُدْرَكٍ بِالْحَسِّ الظَّاهِرِ، وَهُوَ مِنَ التَّمْثِيلِ الْبَسِيطِ، وَالصُّورَةُ التَّمْثِيلِيَّةُ فِيهِ مَنْتَزَعَةٌ مِنَ الْوَاقِعِ.

ويلاحظ في هذا التمثيل من الخصائص دَقَّةَ التَّصْوِيرِ، وَصَدْقَ الْمُمَاثَلَةِ بَيْنَ الْمُمَثِّلِ بِهِ وَالْمُمَثَّلِ لَهُ، وَالتَّنَوُّعَ فِي عَرْضِ الْمَثَلِ، إِذْ نُزِّلَ الْمُمَثِّلُ بِهِ هُنَا مَنَزِلَةَ الْمُمَثَّلِ لَهُ فَلَمْ يُشَرِّ فِي اللَّفْظِ إِلَيْهِ، ثُمَّ الْبِنَاءُ عَلَى الْمَثَلِ وَالْحُكْمُ عَلَيْهِ كَأَنَّهُ عَيْنُ الْمُمَثِّلِ لَهُ.

وَمِنَ الدَّقَّةِ فِي التَّصْوِيرِ مَا نَلَاظُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.

وذلك لِأَنَّ الْأَصَمَّ إِذَا لَمْ يُؤَلَّ مُدْبِرًا فَقَدْ يَفْهَمُ بَعْضَ النِّدَاءِ مِنْ حَرَكَاتِ الْفَمِّ وَإِشَارَاتِ الْوَجْهِ، لَكِنَّهُ إِذَا وَلَّى مُدْبِرًا لَمْ يَفْهَمْ شَيْئًا، وَكَذَلِكَ حَالُ الْكَافِرِينَ الْمُدْبِرِينَ بِإِصْرَارٍ وَعِنَادٍ عَنْ كُلِّ أدَلَّةِ الْهَدَايَةِ إِلَى اللَّهِ.

وفي هذا النص يؤكد الله عز وجل لرسوله ما سبق أن أنزله في سورة (النمل / ٢٧ مصحف / ٤٨ نزول) ليقطع رجاءه بشأن تحويل الكافرين إلى الإيمان وهم غير مستعدين لذلك بإراداتهم، وليؤكد له أن وظيفته هي التبليغ فقط، لا الإصلاح الفعلي والتحويل من الكفر إلى الإيمان.

وهذا التوجيه هو في الحقيقة توجيه للدعاة من بعد الرسول ﷺ، لأن أعظم مشكلة نفسية يتعرضون لها هي أن الناس لا يستجيبون لدعوتهم، ويحسبون أن عملهم في الدعوة يجب أن يحقق ثمرات استجابة فعلية من الناس بنسبة كبيرة، تحقق زيادة نسبة الصالحين على الفاسدين، حتى يكون لهم السلطان في الأرض، ويغفلون عن أن الحياة الدنيا كلها هي دار امتحان للجميع، وأن الدار الآخرة هي دار الجزاء، وأن المؤمنين إذا لم يكن لهم تمكين في الأرض لقلّة عددهم، فليس ذلك بسبب سخط الله عليهم، بل لأن الله عز وجل لا يخرق سنته الثابتة في المجتمع الإنساني، من أجل رغبات الناس، مهما كان شأنهم، ولو كانوا رؤساء، فكيف بالصالحين الدعاة إلى سبيل الله من بعد الرسل؟!

هذا إذا استوفى الدعاة في أنفسهم ما يجب عليهم علماً وعملاً وإخلاصاً لله في دعوتهم، والتزاماً بمنهاج الدعوة القويم.

* * *

النص الحادي والعشرون

وقول الله عز وجل في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) بشأن الذين كفروا معاندين بعد معرفة الحق:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ .

أي: إن الذين كفروا بالله ورسوله وبما بعث الله به رسوله، جُحوداً وعناداً بعد أن وضحت لهم أدلة الحق فستروها وجحدوها، قوم لا تجدي فيهم الإنذارات مهما

بَلَّغَتْ شِدَّتُهَا، وهؤلاء سواءٌ عليهم الإنذارُ وعدُّهُ، إنَّهم مهمما تتابعت عليهما الإنذاراتُ لا يؤمنون.

وذلك بسبب أنَّهم أَصْرُوا على الكفر مع عِلْمهم بالحقِّ، وهذا يتولَّد عنه بمقتضى سُنَّةِ اللَّهِ أن تنصرف قلوبُهم وسَمْعُهم وأبصارُهم عن استقبال آيَةِ بَيِّنَاتٍ تتَّصل بالَّذين الحقِّ، ومتى انصرفت هذه الأجهزة لديهم عن استقبال بَيِّنَاتِ الحقِّ قامت على منافذها حُجُبٌ كثيفة، وأغلقت أبوابها إغلاقاً تاماً، وأقفلت هذه الأبواب وضربت الأختامَ على أقفالها، إعلاماً بأنَّها غير قابلة لأن تُفْتَحَ، أمّا أبصارُهم فقد وُضِعَتْ عليها ستورٌ وحُجِبَ تَمَنُّعُها من رؤية آياتِ الله في كونه، كآثار إهلاكه الكافرين من أهل القرون الأولى، إنَّهم إذا رأوها لم يُدْرِكُوا مِنْهَا عِبَرَهَا ودلالاتها، لأنَّ على أبصارهم غشاوة، بل شاهدوا معالمها الماديَّة فقط، فاستمتعوا بمشاهدة الآثار، ولم يكن لهم بها اعتبار، فقال تعالى :

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾.

* * *

النص الثاني والعشرون

وقول الله عز وجل في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) أيضاً بشأن

المنافقين :

﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٨).

أي : بالنسبة إلى أجهزة إدراكهم الداخلي صُمُّ محجوبون عن استماع بَيِّنَاتِ الحقِّ، بُكْمٌ لا تندفع نفوسُهم للاعتراف بالحقِّ، عُمَى لا تَتَفَتَحُ بصائرُهم لرؤية أنوار الهداية، ورؤية صراطها المستقيم.

وبما أنَّهم منطلقون في غوايتهم فإنَّهم لا يَرْجِعُونَ عن غيِّهم إلى الحقِّ والخير والفضيلة.

وهذا الوصف هو لصنف من المنافقين، وهم الذين وصفهم الله عز وجل بقوله:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٧).

وقد شرحتُ كامل النص في غير هذا الموضع (١).

* * *

النص الثالث والعشرون

وقول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف / ٨٧ نزول) أيضاً بشأن الذين كفروا:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَكُمْ عَمًى فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٣١).

﴿يَنْعِقُ﴾: أي: يصيح في الغنم. النعيق: هو صياح الراعي في غنمه.

في هذا النص مثلٌ لصنفٍ من الكافرين، وهم الذين رفضوا أن يستجيبوا لدعوة الإيمان، لأنهم صَمُّوا على أن لا يؤمنوا، واختاروا بكمال إراداتهم سبيل الكفر على سبيل الإيمان، لأنهم حريصون على أن ينالوا ما يشتهون ويهوون من الحياة الدنيا، من دون أن يشعروا في داخلهم بأنهم سيحاسبون ويُجازون على أعمالهم وكل ما اكتسبوه من إثم في الحياة الدنيا.

وهؤلاء هم الذين قال الله عز وجل بشأنهم في أوائل سورة (البقرة) نفسها:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشوةً ولهم عذابٌ عظيمٌ (٧).

(١) انظر شرح كامل النص في باب الصور الأدبية من هذا الكتاب.

إِنَّ هَؤُلَاءِ هُمْ قِسْمٌ مِنَ الْكُفَّارِ، وَهُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا عَنْ تَصْمِيمٍ عَلَى رَفْضِ
الْإِيمَانِ، وَإِرَادَةِ جَازِمَةٍ لِهَذَا الرَفْضِ، بَعْدَ وَضُوحِ دَلَائِلِ الْإِيمَانِ لَهُمْ، وَلَمْ يَكْفُرُوا
عَنْ جَهْلٍ أَوْ غَفْلَةٍ أَوْ انْشغالٍ بِالشَّهَوَاتِ.

لِذَلِكَ فَإِنَّ عُقْدَةَ هَذَا الْقِسْمِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَاتِ أَثَرٍ فِي أَعْمَاقِهِمْ، وَمَنْ كَانَتْ
عُقْدَةُ كُفْرِهِ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهِ، كَانَتْ النَتِيجَةُ الطَّبِيعِيَّةُ الَّتِي تَقْضِي بِهَا سُنَّةُ اللَّهِ فِي
خَلْقِهِ، أَنْ يُخْتَمَ عَلَى قَلْبِهِ فَلَا يَقْبَلُ الْهَدَايَةَ، وَأَنْ يُخْتَمَ أَيْضاً عَلَى سَمْعِهِ، فَهُوَ
لَا يَسْمَعُ أَقْوَالَ الْهَدَايَةِ، أَوْ تَكُونُ الْغِشَاوَةُ عَلَى سَمْعِهِ فَلَا تَسْمَعُ بِانْتِقَالِ أَقْوَالِ الْهَدَايَةِ
إِلَى مَرَاكِزِ إِدْرَاكِهِ الْوَاعِي، وَأَنْ يَكُونَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةٌ لَا تَسْمَعُ بِانْتِقَالِ الْمَرْتَبَاتِ
الْمَتَضَمِّنَةِ عَبْرًا وَعِظَاتٍ وَأَيَّاتٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، إِلَى مَرَاكِزِ وَغْيِهِ.

فَسَوَاءٌ عَلَيْهِ أَأَنْذَرْتَهُ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُ، إِنَّهُ لَا يُؤْمِنُ، لِأَنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يُؤْمِنَ.
وَإِذَا اسْتَوَى لَدَى هَذَا الْقِسْمِ مِنَ الْكَافِرِينَ الْإِنْذَارُ وَعَدْمُهُ، وَكَانَتْ دَعْوَتُهُمْ إِلَى
الْهَدَايَةِ مَسَاوِيَةً لِعَدَمِ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الْهَدَايَةِ، لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ لَا يُؤْمِنُوا، وَصَمُّوا عَلَى
ذَلِكَ، فَإِنَّ بَاسِطَاتِنَا أَنْ نُمَثِّلَ مِنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْهَدَايَةِ بِمَنْ يَدْعُو الْجِدَارَ وَيَخَاطِبُهُ،
وَأَنْ نُمَثِّلَ مِنْ يُنْذِرُهُمْ بِمَنْ يُنْذِرُ الْحِجَارَةَ الَّتِي لَا تَسْتَجِيبُ لِدَاعِيهَا أَوْ مَنذَرِهَا.

لَكِنَّ الْجُدْرَ أَوْ الْحِجَارَةَ لَا تَسْمَعُ شَيْئاً، وَهُمْ يَسْمَعُونَ، إِلَّا أَنْ مَا يَسْمَعُونَهُ
لَا يَنْفِذُ إِلَى مَرَاكِزِ وَعِيهِمْ الَّذِي يُوَثِّرُ فِيهِمْ، فَلَا يَهْزُهُمْ بِطَمَعٍ وَلَا بِخَوْفٍ.
إِذَنْ فَأَحْسَنُ تَمَثِيلٍ لَهُمْ أَنْ يُمَثِّلُوا بِالْأَنْعَامِ، وَأَنْ يُمَثِّلَ مِنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْهَدْيِ
وَيُنْذِرُهُمْ عَاقِبَةَ كُفْرِهِمْ بِخَطِيبٍ يَقِفُ فِي قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ، فَيَخْطُبُ فِيهِ خُطْبَةً بَلِيغَةً،
إِنَّ هَذَا هُوَ التَّمَثِيلُ الْمَلَائِمُ الْمُنَاطِقُ لَصُورَةِ الْمُمَثِّلِ لَهُ، وَالْمَرَاعَى فِيهِ دَقَّةُ التَّصْوِيرِ،
وَهُوَ مَا جَاءَ فِي الْمَثَلِ الْقُرْآنِيِّ.

فَمَثَلُ مَنْ يَدْعُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِمَّنْ اسْتَوَى لَدَيْهِمُ الْإِنْذَارُ وَعَدْمُهُ، كَمَثَلِ مَنْ
يَخَاطَبُ بِصَوْتِهِ الْعَالِي قَطِيعاً مِنَ الْغَنَمِ، فَلَا يَسْمَعُ الْقَطِيعُ مِنْهُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً، لِأَنَّهُ
لَا يَفْهَمُ وَلَا يَعِي الْكَلَامَ الَّذِي يُخَاطَبُ بِهِ، وَلَا يُدْرِكُ دَلَالَاتِهِ، وَهَؤُلَاءِ كَذَلِكَ، لِأَنَّ
سَمْعَهُمُ الْوَاعِي عَلَيْهِ خَتَمٌ أَوْ غِشَاوَةٌ مِنْ عُقْدَةِ كُفْرِهِمْ، وَمِثْلَ سَمْعِهِمْ سَائِرَ حَوَاسِّهِمْ،

لذلك فهم بالنسبة إلى دعوة الإيمان وآياته صمُّ بُكْمٌ عُميُّ فهم لا يعقلون .

وهكذا وضحت لنا دقة التصوير، ووضحت لنا أيضاً في الصورة التمثيلية الحركة الحيّة الناطقة، إذ بدا فيها ناعقٌ يخطب في قطع من الغنم، والقطيع يموج بعضه في بعض، وهو لا يدري من كلام الناعق الخطيب شيئاً، ونفس الخطيب تتمزق بمشاعر الخيبة، وعدم جدوى عمله .

والغرض لفت نظر الدعاة أن لا يكونوا في دعوتهم كمن يخطب في قطع غنم، بل إذا وجدوا المدعوين ميؤوساً منهم فعليهم أن ينصرفوا إلى من يطمعون في أن يدركوا دعوتهم .

* * *

النص الرابع والعشرون

وقول الله عز وجل في سورة (الأنفال / ٨ مصحف / ٨٨ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ .

في سياق حثّ الذين آمنوا على قتال الكافرين، الذين أخرجوهم من ديارهم وأموالهم، يخاطبهم الله عز وجل بأسلوب النداء، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ .

وعقب النداء يأمرهم بطاعته، ويأمرهم بطاعة رسوله فيما يأمرهم به، وينهاهم عن أن يتولّوا عنه منصرفين مبتعدين عن الاستجابة له، وهم يسمعون دعوته لأمر من الأمور كأمر القتال في سبيل الله، فقال لهم:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ :

﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ :

أي: ولا تَنَآؤُوا وَتَبَعِدُوا عَنْهُ، يَأْتِي فَعْلٌ «تَوَلَّى عَنْ كَذَا» بِمَعْنَى «نَآى» وَبِمَعْنَى «أَدْبَرَ» وَقَدْ يَكُونُ التَّوَلَّى نَآيَا وَابْتِعَاداً دُونَ إِدْبَارٍ، فَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْإِعْرَاضِ، بِمَعْنَى إِعْطَاءِ الْعَارِضِ، وَهُوَ الْجَانِبِ، وَمِنْهُ: ﴿لَتَوَلَّوْا عَنْهُ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

وَيَنْهَاهُمْ عَنْ أَنْ يَكُونُوا مِثْلَ الْمُنَافِقِينَ الْكَذَّابِينَ الَّذِينَ قَالُوا لِلرَّسُولِ سَمِعْنَا دَعْوَتَكَ وَأَوَامِرَكَ وَنَوَاهِيكَ، وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ مَنْصَرِفُونَ عَنْهَا فِي نَفْسِهِمْ لَمْ يَسْمَعُوهَا، وَلَوْ كَانُوا حَاضِرِينَ شَاهِدِينَ مَجَالِسَ دَعْوَتِهِ، فَالَسَّمْعُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ السَّمْعُ الدَّاخِلِيُّ، لَا سَمْعُ الْأُذُنِ، فَقَالَ تَعَالَى لَهُمْ:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا: سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾:

أَي: وَهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا سَمْعاً حَقِيقِيّاً فِيمَا سَبَقَ، وَلَا يَسْمَعُونَ دَوَاماً، لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ بَاطِئاً، فَنَفْسُهُمْ مَنْصَرِفَةٌ عَنِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ.

بَعْدَ ذَلِكَ وَصَفَ اللَّهُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ شَرُّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ، وَبِأَنَّهُمْ ضُمُّ بُكْمٍ لَا يَعْقِلُونَ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾:

﴿الدَّوَابِّ﴾: جَمْعُ «دَابَّةٍ» وَهِيَ كُلُّ مَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ حَيَوَانَ، وَمِنْهُ الْإِنْسَانُ، وَاشْتَهَرَ بِغَلْبَةِ الْإِسْتِعْمَالِ إِطْلَاقُ «الدَّابَّةِ» عَلَى مَا يُرَكَبُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ، فِيهِ إِطْلَاقُ لَفْظِ الدَّوَابِّ عَلَى الْمُنَافِقِينَ إِشْعَاراً بِالْمَآخِي بِأَنَّهُمْ أَمْثَالُ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تُرَكَبُ، فَهُمْ أَحْسُّ مِنَ الْأَنْعَامِ الَّتِي لَا تُرَكَبُ، كَالْغَنَمِ، الَّتِي يُشَبَّهُ بِهَا الْكَافِرُونَ.

وَبِمَا أَنَّهُمْ مُنَافِقُونَ «مُسْلِمُونَ ظَاهِراً كَافِرُونَ بَاطِئاً»، فَإِنَّهُمْ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ يَسْمَعُونَ، لَكِنَّهُمْ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ ضُمُّ لَا يَسْمَعُونَ الْأَقْوَالَ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِأُمُورِ الدِّينِ الْحَقِّ، وَمَنْ كَانَ أَصَمَّ كَانَ أَبْكَمَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي هُوَ فِيهَا أَصَمَّ، وَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونُوا لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً مِمَّا يُوجَّهُ لَهُمْ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، لَا عَقْلَ حَفِظٍ، وَلَا عَقْلَ فَهْمٍ، وَلَا عَقْلَ إِرَادَةٍ تَكْفُهُمْ عَنْ اتِّبَاعِ الْهَوَى وَفِعْلِ الْقَبَائِحِ وَالسَّيِّئَاتِ.

هذه لوازم سببية ظهرت لذئهم بسبب كونهم في باطنهم كافرين، وهي من سنن الله الدائمة في أنظمة النفوس البشرية.

وبسبب ذلك فإنه لا يستطيع أحد أن يوصل إلى سمعهم الحقيقي دعوة الحق وبياناته حتى يفهموها غير الله عز وجل الذي لديه القدرة على خرق سننه متى شاء، لكنه سبحانه لا يخرق سنته الثابتة من أجلهم، إنهم فيها كسائر الناس، ولو أنهم كانوا قد اختاروا لأنفسهم الإيمان لما صممت أسماعهم، ولما أصيبت ألسنتهم بالبكم بالنسبة إلى دعوة الحق الربانية، وكانوا أسوياء في سمعهم وألسنتهم كالمؤمنين.

على أن الله عز وجل لو علم أنه يوجد فيهم استعداد داخلي إرادي لقبول الحق، فيما لو أصلح لهم سمعهم، لخرق سنته فأصلح سمعهم وأسمعهم بيانات الحق، وأفهمهم دلالاتها.

لكنه سبحانه لو فعل ذلك فأسمعهم، مع أنهم لا خير فيهم مطلقاً، إذ ليس لديهم استعداد إرادي للإيمان وأتباع آيات الله، لكان من أمرهم أن يستمعوا الآيات المنزلات، ويفهموا دلالاتها، ثم يتولوا مبتعدين عنها، غير عاملين بها، في حين أن أسماعهم تتلقاها من جهة عارضهم، وهو جانبهم.

إنهم باعتبار كونهم منافقين لا يدبرون كما يفعل الكافرون الصرحاء، بل يعطون عارضهم، إشعاراً بأنهم ما زالوا مسلمين، لكنهم يتدعون في إيمانهم وفي سلوكهم، وهذا هو شأن المنافقين دواماً، فقال تعالى بشأنهم:

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

بعد هذا نادى الله الذين آمنوا نداءً ثانياً قائلاً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾:

أي: يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله في كل ما دعاكم ويدعوكم له، واستجيبوا للرسل إذا دعاكم بمقتضى كونه قائدكم والحاكم الإداري لكم، إذا

دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ حَيَاةً طَيِّبَةً كَرِيمَةً، كَبَذَلَ الْأَمْوَالَ وَالْأَنْفُسَ جِهَاداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ،
وَالسِّيَاقُ وَالسَّبَاقُ يَدْلَانِ عَلَى هَذَا.

فَسَمَّى اللَّهُ مَا يُصِيبُهُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ خَيْرٍ بِاسْتِجَابَتِهِمْ لِمَا يَدْعُوهُمْ لَهُ الرَّسُولُ
حَيَاةً، إِمَارَةً إِلَى أَنَّ عَدَمَ اسْتِجَابَتِهِمْ يُسَبِّبُ لَهُمْ أَمْوراً كَرِيهَةً تُشَبِّهُ الْمَوْتَ الْكَرِيهَ.

وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْبَذْلُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ أَمْراً صَعْباً عَلَى النُّفُوسِ وَالْقُلُوبِ،
وَكَانَتْ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ تُصَابُ نَحْوَهُ بِالتَّرَدُّدِ وَالضَّعْفِ، وَقَدْ يَمَسُّهَا الْجَبْنُ وَالشُّحُّ،
فَتَتَخَاذَلُ وَلَا يُوجَدُ لَدَيْهَا ائْتِدَاعُ الِاسْتِجَابَةِ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ، ذَكَرَهُمُ اللَّهُ بِأَنَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ
حَرَكَاتِ نَفْسِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ، مُطَّلِعٌ عَلَيْهَا أَطْلَاعاً مُبَاشِراً، وَأَنَّهُ يَعْلَمُهَا قَبْلَ أَنْ تَصِلَ
إِلَى مَشَاعِرِهِمُ الْوَاعِيَةِ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾.

إِنَّ حَرَكَاتِ الْإِنْسَانِ الصَّادِرَةَ عَنْ وَعْيٍ فِكْرِيٍّ يَدْرِكُهُ الْإِنْسَانُ، هِيَ آثَارُ
لِحَرَكَاتٍ قَلْبِيَّةٍ إِرَادِيَّةٍ، وَهَذِهِ الْحَرَكَاتُ الْقَلْبِيَّةُ الْإِرَادِيَّةُ تَمُرُّ بِأَسْلَافٍ عَصَبِيَّةٍ حَتَّى تَصِلَ
إِلَى مَرَكَزِ الْوَعْيِ الظَّاهِرِ.

وَلَمَّا كَانَ عِلْمُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ نَافِذاً إِلَى الْقُلُوبِ، فَإِنَّهُ يَتَلَقَّى مَا يَصْدُرُ عَنْهَا
مُبَاشَرَةً، كَحَائِلِ شَفَافٍ يَعْلَمُ مَا يَمُرُّ وَلَا يَمْنَعُ مَرُورَهُ، نَظِيرَ جِهَازِ مَسْجَلِ الصَّوْتِ
الْمُثَبِّتِ فِي الْهَاتِفِ، يُسَجِّلُهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى أُذُنِ الْمُخَاطَبِ عَنْ طَرِيقِهِ.

وَالتَّذْكِيرُ بِهَذَا الْعِلْمِ يَسْتَدْعِي التَّذْكِيرَ بِيَوْمِ الْحِسَابِ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

وَفِي هَذَا الْإِمَاحِ تَهْدِيدِيٌّ لِمَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ.

تَحْلِيلُ كَوْنِ اللَّهِ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ:

لِلْمُفَسِّرِينَ عِدَّةُ آرَاءٍ فِي فَهْمِ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾

وبعض هذه الآراء متأثرٌ بالتصورات الجبرية في موضوع القضاء والقدر. وبعضها قاصر الدلالة على بعض العناصر، والذي ظهر لي بعد طول تدبّر لهذا النص، أن كون الله عز وجل يحول بين المرء وقلبه يحمل عدّة دلالات:

الدلالة الأولى: هي ما سبق بيانه من علم الله بكل أعمال القلوب قبل أن تصل إلى الشعور الظاهر في مراكز وعي الإنسان، فلا يصدر عنها شيء دون أن يمرّ على رقابة علم الله.

ونظير هذا علم الله بكل أعمال النفوس وحركاتها قبل أن تصل إلى القلب، وتحرّكه بشيء ما.

الدلالة الثانية: أنه لا يصل شيء من مستويات دائرة النفس إلى القلب إلا بإذن الله وعلمه.

ومن ذلك نزغ الشيطان ووساوسه وتسويلاته، وحركات الشهوة، والغضب، والحب، والكراهية، ونحو ذلك، مما تتحرّك به دوائر النفس من وراء القلب.

فمثلاً: إذا استعاذ المؤمن بالله عز وجل السميع العليم من الشيطان الرجيم استعادةً صادقة، سمع الله دعاءه، فحال بين هذه النزغات والوساوس وبين قلبه، فلم يأذن لها بأن تصل إلى القلب، حتّى لا يتأثر بها، فتصدّر عنه إرادات فيها معصية لله عز وجل، وهذا مساعدة من الله للمؤمن الذي يستعيذ بالله ويستجير به.

بخلاف من لا يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، فإن الله عز وجل قد لا يمنع نفوذها إلى قلبه مع علمه بها.

ونظير ذلك حركات النفس المختلفة، كمحركاتها المتعلقة بالشهوات والأهواء والغضب والحب والكراهية ونحو ذلك، فإن المؤمن إذا دعا الله أن يصرفها عنه، فإنه تبارك وتعالى قد يحول بينها وبين قلبه، فيمنعها من التغلغل في النفس، ومن الوصول إلى القلب، حيث تنطلق الإرادات.

الدلالة الثالثة: أنه لا يخرج شيء من القلب إلى مستويات دائرة النفس إلا بإذن الله وعلمه.

وإذن الله بشيء ما ليس من الجبر في شيء، بل هو تمكين لذوي الإرادات الحرة من تنفيذ مراداتهم.

ولكن حين لا يأذن الله بوارد علم أو حركة إرادية أن تمر من القلب إلى مراكز الشعور الظاهر، فهو فيما أرى يكون على وجهين:

● أما بالنسبة إلى المؤمنين فيكون على سبيل المساعدة لهم، مكافأة لهم على استعانتهم به في أمورهم، وعلى صدق رغبتهم في طاعته، ليصرف عنهم ما هو شرُّ لهم، وهذا فضل من الله عليهم ليزكيهم من رجاسات الإثم، وسببه إيمانهم وصدق استعانتهم برَّبهم.

● وأما بالنسبة إلى الكافرين وذوي الفجور الراغبين في المعاصي من عمق قلوبهم، فيكون على سبيل الطمس لبصائرهم الذي كانوا هم السبب فيه، وربما يكون لصرفهم عن فعل ضرٍّ أو أذى بمن أراد الله كف الأذى والضرر عنه. إلى غير ذلك من أشباه هذه الأمور، وليس شيء منها له صبغة جبرية.

* * *

النص الخامس والعشرون

وقول الله عز وجل في سورة (محمد / ٤٧ مصحف / ٩٥ نزول) بشأن المنافقين الذين يحضرون مجالس الرسول، ولا يعون مما يقول شيئاً، فإذا خرجوا من عنده قالوا للمؤمنين الذين سمعوا وانتفعوا: ماذا قال آتفاً؟ (أي: ماذا قال في المجلس الذي مضى قريباً؟):

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ﴾

وقال بشأنهم بعد ست آيات من السورة نفسها:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۖ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ۚ أَلَمْ يَأْمُرْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَفْعَالُهَا ۚ﴾.

﴿أَنفَاءً﴾: أي: في الماضي القريب.

﴿وَمِنْهُمْ﴾: أي: ومن المنافقين.

إنهم يكونون في مجلس الرسول متصدّرين، مُسْنِدِينَ ظُهُورَهُمْ إلى الجُدُرِ أو السُّواري، كَالْخُشْبِ الْمُسْنَدَةِ، يُعْجِبُونَ من ينظر إليهم، بقاماتهم الفارعة، وَأَجْسَامِهِمُ الضخمة، ولكنَّهُمْ كَالْخُشْبِ لَا يَفْهَمُونَ مِمَّا يُقَالُ شيئاً، كما قال الله بشأنهم في سورة (المنافقون / ٦٣ مصحف / ١٠٤ نزول):

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۖ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُّسْنَدٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَٰحِحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمْ أَعْدَاؤُكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ فَنَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۚ﴾.

دلّت هذه النصوص على أَنَّ المنافقين محجوبون من داخل نفوسهم عن إدراك الأقوال والبيانات والآيات التي تتضمن علماً يهدي إلى صراط الله المستقيم.

وقد اكتشفنا بالتحليل النفسي أَنَّ رفضهم للإيمان ابتداءً، أو ما تعرّضوا له من كُفْرٍ بعد إيمان، قد نتج عنه بمقتضى سُنَنِ اللَّهِ السَّبِيَّةِ قِيَامُ حُجُبٍ من داخل نفوسهم، تمنع عن مراكز سمعهم الداخليّة، ومراكز فهمهم، وإردات المعارف والعلوم المتصلة بقضايا الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، لذلك فهم لا يسمعون ولا يفهمون ولا يعقلون شيئاً من هذه الوردات.

وقد جاء التعبير عن هذه الحقيقية بالعبارات التالية:

١ - ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: أي: كان من نتيجة كفرهم وتوليهم عن

دعوة الدين الحق، أن جرت سُنَّةُ الله فيهم، فأَقْفِلْتُ قُلُوبَهُمْ إِقْفَالاً كاملاً، وَطَبَعَ على هذه الأَقْفَالِ للإشعار بأنَّها غير مستعدَّةٍ لَأَنْ تُفْتَحَ.

الطَّبْعُ: هو في المادِّيات كالختم، فقد كان من عادة الملوك وغيرهم إذا أرسلوا رسائل، وأرادوا المحافظة على سرِّيَّة ما فيها، أقفلوها بإحكام ووضعوا عند مكان إقفالها طيناً خاصاً يَطْبَعُونَ عليه خاتمهم الخاص بهم، فيجف الطين ومثال الخاتم مطبوعٌ عليه، فلا يمكن معرفة ما في داخل الرسالة إلاَّ بكسر خاتم الطين.

وعلى سبيل التوسع في التعبير بنقل ما هو للمادِّيات للمعنويات، جاء في القرآن التعبير بالطَّبْعِ والخَتْمِ على القلوب للدلالة على أنها صارت محجوبة عن إدراك أي شيءٍ يتعلَّق بما هي محجوبة عنه.

٢ - ﴿فَأَصْمَهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾:

أي: جعل بمقتضى سنته في خلقه مراكز سمعهم وبصرهم الداخلية محجوبة عن أن تصل إليها بيانات الحق من مسموعات ومرئيات.

٣ - ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾: أي: بل على قلوبهم أقفالها وبسبب ذلك صارت محجوبة عن إدراك ما يوجَّه لها من بيانات دعوة الحق.

ونلاحظ في هذه العبارة إبداعاً في الأداء البياني.

﴿أَمْ﴾: هي المنقطعة بمعنى «بل» مع استفهام.

﴿قُلُوبٍ﴾: جاءت منكرة والمراد قلوبهم.

﴿أَقْفَالُهَا﴾: مضافة إلى ضمير ﴿قُلُوبٍ﴾ للإشعار بأنَّ هذه الأقفال لم تأت من خارج عن قلوبهم بوسيلة جبريَّة، وإنَّما هي من قلوبهم أنفسهم، إذ الأمرُ تابع لاختيارهم الحرِّ، فكأنَّه قال: أم أقفلوا قلوبهم بأقفالها التي تكون عليها حينما يتبعون الشياطين وجوامح نفوسهم النزاعة إلى الإثم وفعل السيئات.

وقد علمنا أنَّ مَنْ كفر بالحقِّ، واتَّبَعَ أهواءه وشهواته وسائر جوامح نفسه،

وَاتَّبَعَ وساوس الشياطين، وخطواتهم، نزل به الصمم الداخلي، والطبع والختم على قلبه، بالنسبة إلى بيانات الحق الرباني وحججه وبراهينه وآياته البينات.

النص السادس والعشرون

وقول الله عز وجل في سورة (الرعد / ١٣ مصحف / ٩٦ نزول) خطاباً لرسوله
فلكل داعٍ إلى الله من بعده:

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ
نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ
خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾.

وقوله تعالى فيها:

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنْ مَا يَنْذَكُرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴿١٦﴾﴾.
تضمنت الآية (١٦) تعليماً جديلاً حول توحيد الإلهية لله الرب الخالق
عز وجل.

والجدال في هذا التعليم يبدأ بمرحلة إثبات توحيد الربوبية لله وحده، وحينما
ينتزع المجادل المؤمن من المشرك الذي يُناظره الاعتراف بأن الله هو وحده رب
السموات والأرض، يثبت معه هذه الحقيقة، لينقله إلى الحقيقة الثانية المبنية
عليها، وهي أن من كان هو الرب الخالق لا شريك له، وجب عقلاً أن يكون هو
الإله المعبود وحده لا شريك له.

ومتى انتزع منه الاعتراف بهذه الحقيقة، وجه له وللمشركين جميعاً الانتقاد
حول اتخاذهم من دون الله أولياء شركاء له، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً،
بأسلوب الاستفهام الإنكاري.

وإذا انتصر على المشركين في الجدال بالحق، وأصر المشركون على

شُرِكِهِمْ، ولم يفارقوا طريقتهم وجَّه لهم الوخزات الفكرية، التي تكشف جهالتهم الشديدة بأسلوب التشبيه البليغ الذي يُنزلُ الممثلُ به منزلة الممثل له، فجاء في التعليم:

﴿قُلْ: هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ؟﴾:

أي: هل يستوي الكافر الموغل في الجهالة فهو كالأعمى، والمؤمن العارف بربه فهو كالبصير؟ والجواب بداهة: لا يستويان.

فصور الله عز وجل الكُفْرَ والجهالة النفسية بصورة العمى الحسي، على سبيل التمثيل.

وصور الإيمان والمعرفة النفسية بصورة البصر الحسي، على سبيل التمثيل أيضاً.

وجاء في التعليم:

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ؟﴾:

أي: هل تستوي الجهالة والعلم؟! والجواب: لا يستويان.

فصور الله عز وجل أنواع الجهل بالظلمات، ومنها جهالات الكُفر، وهو على سبيل التمثيل.

وصور العلم والمعرفة بالنور، وهو على سبيل التمثيل أيضاً، والمراد هنا المعرفة بمسائل الإيمان وقضايا الدين.

وتضمنت الآية (١٩) بياناً موجهاً للرسل وصف الله فيه من يؤمن بأن ما أنزل إليه من ربه الحق، مستنداً لإيمانه إلى علم صحيح، بأنه بصير، ووصف من يكفر بذلك إذ لم يسمع لأجهزة المعرفة لديه بأن تعلم الحق، بأنه أعمى. والجواب بداهة: أنهما لا يستويان، فقال تعالى:

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى؟﴾.

لقد وصفه الله بأنه أعمى لأنه في واقعه النفسي والفكري يشبه الأعمى في واقعه الحسي الظاهر.

* * *

النص السابع والعشرون

وقول الله عز وجل في سورة (الحج / ٢٢ مصحف / ١٠٣ نزول):

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: أفلم يسيروا في الأرض فينظروا آثار من أهلكهم الله بذنوبهم وتكذيبهم رسل ربهم ونذره، فتكون لهم بهذا النظر قلوب يعقلون بها أن الله حق، وأن ما جاء به رسله حق، وأن سنة الله في عباده ثابتة، وأنه سيصيبهم من العذاب مثل ما أصاب الذين من قبلهم، إذا هم أصرّوا على كفرهم وعنادهم، وتكون لهم بهذا النظر المثير إلى إدراك الحق آذان يسمعون بها آيات القرآن ويتدبرونها.

بعد هذا الحث على السير في الأرض للنظر في آثار المهلكين الأولين، قرّر الله حقيقة من حقائق النفس الإنسانية.

هذه الحقيقة هي أن إدراك الحقائق لا يتوقف على كون الأبصار الحسية الظاهرة سليمة، فالعمى الحاجب عن رؤية الحقيقة ليس هو عمى الأبصار الظاهرة، إنما هو عمى القلوب التي في الصدور.

فالبصيرة الفكرية القلبية هي المسؤولة عن إدراك الحقائق من وراء الظواهر المادية، سواء أكانت بصرية أو سمعية أو غيرهما من الحواس الأخرى، أو كانت مما يدرك بمنطق الفكر أو الحس الوجداني في داخل النفس.

* * *

النص الثامن والعشرون

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المائدة / ٥ مصحف / ١١٢ نزول) بشأن الذين كفروا بالحقَّ من بني إسرائيل:

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَ هُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ .

في هذا النص بيان خلاصة قصة بني إسرائيل الدنيّة في تاريخهم قبل نزول القرآن.

١ - ففي بدء الأمر أخذ الله عليهم الميثاق بأن يحافظوا على الإيمان بعناصر القاعدة الإيمانية كلها، وبأن يسيروا على منهاج الدين الذي اصطفاه لعباده، وقد أعطوا على ذلك موثيقهم.

ونلاحظ أنه جاء في القرآن بيان بعض ما أخذ الله به عليهم الميثاق، كما في الآيتين (٨٣ - ٨٤) من سورة البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

والميثاق لأمة من الأمم يلزم كل من ينتمي إليها في جيلها الأول، وفي كل الأجيال اللاحقة، لأن الانتماء للأمة يقتضي الالتزام بكل العناصر والأصول الصحيحة التي قام عليها وجودها، وتميزت بها شخصيتها عقيدة ومفاهيم وسلوكاً، فالميثاق اللازم للأولين منها هو ميثاق لازم لكل من يأتي بعدهم منضماً إليهم.

هذا البدء دَلٌّ عليه في النص:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ .

٢- ثُمَّ انْحَرَفُوا وَنَقَضُوا عَهْدَهُمْ وَمَوَاقِفَهُمْ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ

إليهم رُسُلًا يذكرونهم بمواثيقهم وعهودهم، ويُعلمونهم ما نسوه من أمور دينهم،
ويُحذرونهم من نعمة الله عليهم، ومن إنزال عقابه فيهم.

دلٌّ على هذا في النصِّ مع ملاحظة اللوازم الفكرية:
﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِم رُسُلًا﴾.

٣ - فكان أمرُ بني إسرائيل مع من جاءهم من رُسُلٍ يعلمونهم ويُذكرونهم
ويحذرونهم وينذرونهم، أنَّهم كانوا يحاولون الاستفادة من رسولهم فيما يتعلَّق بأمور
دنياههم، كرفع بلاء، وجلب رخاء، ونصرٍ على الأعداء، أو بالإشراف على بعض
الطقوس الدينية التي لا تخالف أهواءهم.

لكن إذا جاءهم رسولهم بما لا تهوى أنفسهم، فنهاهم عن القبائح والمنكرات
التي يرتكبونها، ناصبوه العدا، وقاوموه.

هذا الحال منهم يُفهم من لوازم دلالة المقطع من النصِّ الآتي في الفقرة
التالية.

٤ - أما النظرة الكلية العامة لحالهم مع رسلهم الذين تتابعوا عليهم، فتدلُّ
على أنَّهم كذبوا كلَّ الرسل الذين جاؤوهم بما لا تهوى أنفسهم.

ولكنَّهم اقتصروا بالنسبة إلى فريق منهم على مجرد التكذيب، وأضافوا إلى
التكذيب بالنسبة إلى فريق آخر منهم الملاحقة بالتنكيل والتعذيب حتَّى القتل.

دلٌّ على هذا وعلى الذي قبله من النصِّ:

﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾:

أي: كلُّما جاءهم رسولٌ بما لا تهوى أنفسهم ناصبوه العدا وقاوموه، وفريقاً
من هؤلاء الرُّسل كذبوهم فقط دون أن يقتلُوهم، وفريقاً آخرين كذبوهم ولاحقوهم
بالتنكيل والتعذيب حتَّى قتلوهم أخيراً، كزكريَّا ويحيى عليهما السلام.

دلٌّ على هذه الملاحقة استعمال الفعل المضارع: ﴿يقتلون﴾ الذي يدلُّ على
الحركة المتكرِّرة بتتابع.

إنه لما كان القتل وحده للرسول لا يحتمل هذه الحركة المتكررة بتتابع، كان علينا أن نفهم أن المراد الملاحقة بالتنكيل والتعذيب وأنواع الكيد الشنيعة التي تنتهي بالقتل، إذ هي بمثابة قتل جزئي متكرر ينتهي بالقتل النهائي الذي تتوقف عنده عمليات الملاحقة.

وهذا فيما أرى هو سر استعمال الفعل الماضي في ﴿كَذَّبُوا﴾، واستعمال الفعل المضارع في ﴿يَقْتُلُونَ﴾.

فالتكذيب يحصل دفعة واحدة لأنه عملية نفسية وكلامية، فجاء التعبير عنه بقوله تعالى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾.

وعمليات الملاحقات الكيدية التي تنتهي بالقتل ذوات أعمال متكررات، فجاء التعبير عنها بقوله تعالى: ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

٥ - وَغَرَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِمْهَالُ اللَّهِ لَهُمْ حَتَّى تَوَهَّمُوا أَنَّ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِعْفَاءً خَاصًّا مِنَ الْعَذَابِ عَلَى جَرَائِمِهِمْ، زَاعِمِينَ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ.

فهو لا يُنزل بهم عقابه مهما ارتكبوا من قبائح وآثامٍ جسام، وبسبب ذلك انطلقوا وراء أهوائهم وشهواتهم وخطوات الشيطان، فسقاً وفجوراً وظلماً وبغياً في الأرض وعدواناً.

وأحاطت بالمراكز الداخلية لأبصارهم وسمعهم حجب أهوائهم وشهواتهم، فَعَمُوا وَصَمُّوا بالنسبة إلى قضايا الدين، وقضايا الدينونة على الأعمال التي يُعَامِلُ الله فيها الناس جميعاً بالعدل.

دل على هذا من النص مع ملاحظة اللوازم الفكرية:

﴿وَحَسِبُوا أَنَّ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾.

﴿وَحَسِبُوا﴾: أي: وتوهموا باطلاً. ففعل «حَسِبَ» ومشتقاته لم يستعمل في القرآن إلا في الظن الضعيف الباطل.

﴿فتنة﴾: المراد من الفتنة هنا: العقاب والعذاب الذي يُعاقب الله به المجرمين والعصاة.

أصل الفتنة في اللغة العرضُ على النار والصَّهْرُ بها لاختبار المعدن. واستعملت الفتنة بمعنى مطلق الاختبار، واستعملت بمعنى التعذيب، واستعملت في غير ذلك.

وجاء هنا إطلاق العمى والصَّم على ما يكون في الفكر والقلب، وهما عمى وصَم خاصان بما يتعلّق بقضايا الدِّين، وحقوق الله على عباده، وما يرتبط بذلك من جزاء.

٦ - ثم عاقبهم الله، فَأَنزَلَ بِهِمْ عَذَابَهُ الَّذِي لَمْ يَكُن مَاحِقاً مُسْتَأْصِلاً شَافَتْهُمْ، فَتَابُوا إِلَى رَبِّهِمْ، فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ مِنْ تَارِيخِهِمْ فِي النَّصِّ مَع مَلاحِظَةِ اللّوَاظِمِ الْفِكْرِيَّةِ: ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

ويظهر أن هذه المرحلة من تاريخهم قد كانت بتعذيب الله لهم على يد «نبوخذ نصر» الذي استباحهم وسباهم، ثُمَّ أَنْقَذَهُمْ عَلَى يَدِ «كورش» الفارسي، الَّذِي خَلَّصَهُمْ مِنَ الْأَسْرِ، وَأَعَادَهُمْ إِلَى فِلَسْطِينَ.

٧ - ثُمَّ عَادُوا إِلَى انْحِرَافِهِمْ، فَطَغَوْا وَبَغَوْا وَظَلَمُوا وَفَجَرُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، وَحَسِبُوا مَرَّةً أُخْرَى أَنْ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ مِنْ تَارِيخِهِمْ مَع مَلاحِظَةِ اللّوَاظِمِ الْفِكْرِيَّةِ:

﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾.

٨ - وَتَوَقَّفَ النَّصُّ عِنْدَ هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ مِنْ تَارِيخِهِمْ، وَخَتَمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ

بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: والله بصير دوماً بما يعملون جيلاً بعد جيل، فَيُجْرِي فِيهِمْ سِنَّتَهُ الْإِمْهَالِيَّةَ وَالْجَزَائِيَّةَ وَفَقْ مَجَارِي حِكْمَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ.



المَقُولَةُ الثَّالِثَةُ حَوْلَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالتَّجَارَةِ وَالْبَيْعِ وَالْخَسَارَةِ وَالْقَرْضِ

مقدمة :

مما تكرر في القرآن المجيد أن الله عزَّ وجلَّ ضرب فيه البيع والشراء والتجارة والربح والخسارة والقرض والفوائد عليه أمثلةً للتعامل معه سبحانه وتعالى .

* * *

التحليل :

● إنَّ من يفعل الخير الذي رَغِبَ الله عزَّ وجلَّ فيه أو أمر به ، فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ عَطَاءً يسيراً جداً من ذاته ، أو ممَّا يملك التصرف فيه ، وهذا العطاء اليسير يجازيه الله عليه بعطاء وفير عظيم جداً ، وهو يبلغ في التقديرات الأولى عشرة أضعاف ، إلى سبعين ضعفاً إلى سبعمئة ضعف ، ثم إلى أضعاف لا يعلم مقدارها إلا الله الكريم الوهاب .
فصورة هذا التعامل مع الله عزَّ وجلَّ تُماثل صورة البيع والشراء بين الناس ، وهذا التابع بين الناس يحقق لهم فوائد وأرباحاً .

ولكن حين يُعامل العبدُ المؤمنُ ربَّه ، فيُقَدِّمُ ابتغاء مرضاته من ذاته أو ممَّا يملك التصرف فيه كَسَباً يُرضيه سبحانه ، فإنَّ تعامله هذا يحقق له عند الله ثواباً عظيماً ، وفوائد جسيمة ، فهو إذن يشبه التجارة الرباحة .

● وإنَّ من يفعل الشرَّ الذي نهى الله عنه ، فَإِنَّهُ يَقَدِّمُ من ذاته ، وعمره ، ومما

يملك التصرف فيه، كسباً يسخط الله عز وجل، وهذا الكسب ينجم عنه ضرر كبير له، إذ يعرضه لعقاب الله بالعدل.

فصورة هذا التعامل مع الله تماثل صورة من باع نفسه لمن يعذبه، فعمله يماثل عمل ذي تجارة خاسرة، ولكن الخسارة هنا لا تقتصر على خسارة المال، بل قد تتعداها إلى خسارة الذات، وخسارة السعادة، والوقوع في العذاب الأليم.

ولكن حين يُعامل العبد ربّه، فيَكسِبُ بعمله كسباً يسخطه، فإنَّ تعامله هذا يُعرضه لعقاب الله وعذابه، وخسارة من ذاته وسعادته، فهو مثل التجارة الخاسرة.

● وإنَّ من يبذل من ماله في وجوه الخير التي أمر الله أو رغب بالبذل فيها، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُضاعِفُ له الأجر على ما بذله أضعافاً مضاعفة.

فصورة هذا التعامل مع الله عزَّ وجلَّ تماثل صورة من يُقرض من ماله، ويأخذ عليه من الفوائد أضعافاً مضاعفة.

إنَّ التعامل بالقرض الربوي محرَّم بين الناس، لأنَّه ظلم لا يَرْضَى الله به، والنَّاسُ يَطمَعُونَ به جدًّا، لأنَّه يُحقِّقُ لهم مغانم دُونَ مَخاطرات ولا مُعاقبات، ودُونَ جَهْدٍ يُبذل، لكنَّه مع الله عزَّ وجلَّ يكون مختلفاً تماماً، لأنَّ التعامل مع الله تبارك وتعالى تعاملٌ كُلُّهُ قائمٌ على أنَّ العبدَ يُقدِّم ابتغاءَ مرضاة ربِّه ما أمر الله به أو رغب فيه فعلاً أو تركاً، وأنَّ الله يتفضَّلُ على العاملين بمراضيه بالعطاءات الوافرات الكثيرات مِنَّةً منه وجوداً وكرماً، فالفائدة بهذا التعامل مع الله ببذل المال في وجوه الخير مضمونةٌ حتماً بلا مخاطرة، وبدون جَهْدٍ يُبذل، غير بذل المال، كما يدفعُ المرابي ماله ليجني منه الفوائد الربوية، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ هو المالك لما بذلوا وهو المالك لما يُعطِيهم، ولا ينفعه شيءٌ ممَّا بذلوا، ولا ينقص من ملكه شيءٌ مهما أعطى منه عباده.

ولمّا كان الفضل الربّاني على العمل الصالح مكافأة من الله على مقدار قيمته
في ميزان رحمته، كان جزاءً وثواباً، وإطلاق عبارة العوض عليه إطلاقٌ بحسب
الصورة لا بحسب الحقيقة.

وفيما يلي استعراض النصوص مع مقدار ما من الشرح والتحليل.

* * *

النص الأول

في سورة (فاطر / ٣٥ مصحف / ٤٣ نزول) يقول الله عز وجل :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ .

﴿يَرْجُونَ تَجَارَةً﴾ : أي : يتوقعون أرباح تجارية عظيمة .

التجارة : أعمال البيع والشراء بممارسة وامتهان .

﴿لَّنْ تَبُورَ﴾ : أي : لن تكسد ولن تتعطل ولن تخسر أو تهلك . يقال لغة : بَارَ الشيءُ يَبُورُ بُورًا وَبَوَارًا، أي : كَسِدَ وَتَعَطَّلَ . أَوْ هَلَكَ . وَبَارَ الْعَمَلُ إِذَا لَمْ يُحَقَّقْ المقصود منه فهو بائر .

فسمى الله عز وجل في هذا النص تعامل المؤمنين معه بأعمال العبادات والطاعات التي منها تلاوة القرآن وإقامة الصلاة والإنفاق من أموالهم في سبيله سرًّا وَعَلَانِيَةً، سَمَاءُ تَجَارَةً، لأنه بمثابة تبادل بين بائع ومشتري، فالله عز وجل يتقبل منهم العمل الصالح الذي يرضاه لهم، ويُقابلهم عليه بعباء من لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا فيه ربح محقق عظيم لَهِمْ، مع أن أعمالهم هي لخيرهم ومصلحتهم أفراداً وجماعات، إذ هي لا تزيد في مُلْك الله شيئاً .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ : أي : يتبعون بتدبرهم وأعمالهم ما ينزل من

كتاب الله على رسوله، فالسورة من أواسط ما نزل في المرحلة المكية من القرآن، فهم باستمرارٍ يَتَلَقَّوْنَ مَا يَنْزِلُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُ، لَتَدَّبَّرِهِ وَالْعَمَلُ بِهِ، تَبَاعاً.

وهم يَتْلُونَ آيَاتِهِ بِالسُّتُورِ تَعْبُدًا، لِيَكُونُوا مَعَ اللَّهِ فِي الذِّكْرِ وَالْمُنَاجَاةِ، مَعَ تَدَبُّرِ آيَاتِهِ وَالْعَمَلِ بِمَا يُكَلِّفُهُمْ مِنْ عَمَلٍ وَمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ.

يقال لغة: تَلَاَهُ يَتْلُوهُ تُلُوًّا إِذَا تَبِعَهُ. وَيُقَالُ: تَلَاَ الْكِتَابَ وَنَحْوَهُ تِلَاوَةً إِذَا قَرَأَهُ. وَتَلَاَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ إِذَا اتَّبَعَ مَا فِيهِمَا، وَعَمِلَ بِهِ.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾: أي: وثبت فيما مضى من أمرهم أنهم أقاموا الصلاة.

﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: أي: وثبت فيما مضى من أمرهم أنهم أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ أَمْوَالٍ فِي حَالَتِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، فَكُلَّمَا اقْتَضَى الْأَمْرُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْفَاقُ سِرًّا أَنْفَقُوا سِرًّا، وَكُلَّمَا اقْتَضَى الْأَمْرُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْفَاقُ عَلَنًا أَنْفَقُوا عَلَنًا.

وهذا وصف لحال أصحاب رسول الله الأولين في العهد المكيّ قبل نزول سورة (فاطر) وإِبَانِ نزولها.

﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾: أي: يَتَوَقَّعُونَ وَيَتَرَقَّبُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةٌ بَاقِيَةٌ الرَّوَاجِ دَوَامًا، نَامِيَّةٌ الْقِيَمَةِ، ثَقَّةٌ بِوَعْدِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ، فَلَا تَهْلِكُ وَلَا تَكْسَدُ.

﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾: أي: إِنَّهُمْ يَرْجُونَ دَوَامَ رَوَاجِ تِجَارَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلِيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ فَيُضَّ عَطَاءٍ مِنْ لَدُنْهُ زَائِدٌ عَلَى الْأَجْرِ الْمَوْعُودِ بِهِ.

﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾: أي: يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ لِأَنَّهُ غَفُورٌ يَغْفِرُ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ، وَهَذَا مِنَ الزِّيَادَةِ، وَهُوَ شَكُورٌ يَضَاعَفُ لَهُمْ أَجُورَهُمْ، وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الزِّيَادَةِ.

* * *

النص الثاني

وفي سورة (النحل / ١٦ / مصحف / ٧٠ / نزول) يقول الله عز وجل خطاباً للمؤمنين :
﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
﴿١٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

نزل هذا النص في الثلث الأخير من التنزيل المكي خطاباً للمؤمنين، وقد كانوا يبايعون الرسول ﷺ، ويعطونه العهد على السمع والطاعة، والعهد مع الرسول عهد مع الله، ومبايعته مبايعة لله.

وكان كثير منهم يتعرضون لضغوط شديدة من المشركين، منها اضطهادية، ومنها إغرائية، فاقضت الحكمة التربوية توجيه التحذير لهم من نقض عهودهم مع الرسول ﷺ، تأثراً بهذه الضغوط.

ولما كان رفع الاضطهاد عن المضطهد منهم، أو حصول المرغوب من مصالح ومنافع لدى المشركين لمن يتعرض للإغراء منهم، مشروطاً بنقض عهده مع الرسول، كان ذلك بمثابة ثمن يقبضه، مقابل عهد يقبضه، ويجعله بمثابة سلعة يدفعها للمشركين، لينتفعوا منها، خاطبهم الله عز وجل بقوله:

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

يطلق الشراء على العمل الذي يقوم به كل من المتبايعين، لأنهما يتبادلان مملوكين لهما، فكل منهما يملك مملوك صاحبه، على سبيل المبادلة والمعاوضة في عقد المبايعة، وكل منهما يشتري مملوك صاحبه، ويدفع مملوكه ثمناً له.

كذلك كل منهما بائع، يبيع مملوكه لصاحبه، ويقبض مملوك صاحبه ثمناً له.

لهذا يتبادل لفظا البيع والشراء في الاستعمال، والباء في فعل «اشترى» تدخل غالباً على المبدول لا على المقبوض، تقول: اشترى الكتاب بدينار. وتدخل في فعل (باع) على المقبوض لا على المبدول، تقول: بعث الكتاب بدينار.

وقد يأتي فعل «شَرى» مثل فعل «باع» في التعدية، فتدخل الباء على المقبوض، وكذلك فعل (اشترى).

وجاء في النصّ فعل ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ من الاستعمال الغالب، فجاءت الباء داخلةً على المبذول، وهو عهد الله، أمّا المقبوض فهو الثمن القليل، فجاء في النصّ منصوباً من دون اقترانه بالباء.

وقُدِّمَ في النصّ المبذول على المقبوض لتهويل أمر هذه المبادلة التي لا تُعَادِلُ بين طرفيها، فمن أساليب البيان أن يقدّم في اللفظ الأخطر والأهم والأكثر قيمة، كما تقول مستكراً على من يُعَادِلُ بين الشمس ومصباحه: أِبَالشَّمْسِ تُعَادِلُ مصباحك.

واختير في النصّ فعل الشراء دون فعل البيع، للإشعار بأن دافعهم الأصلي موجّه لقبض الثمن المرغوب، لا لنقض العهد، فالْمُؤْمِنُ قد يَنْقُضُ عهد الله وهو كاره، لدفع الضرّ عن نفسه، أو لجلب المنفعة لها.

وأبان الله لهم أنّ ما أعدّه للمحافظين على عهودهم هو خير لهم ممّا تتوجّه نفوسهم له ثمناً لنقض عهودهم، فقال تعالى لهم:

﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

أي: إنّ الذي هو عند الله مُدْخَرٌ لَّكُمْ تنالونه إذا حافظتم على عهودكم التي عاهدتم الله ورسوله عليها، هو خير لكم من كلّ ما يجلبه لكم نقضُ العهود من رفع أذى واضطهاد، أو جلب منافع ومصالح دنيويّة. إنّ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ حقيقة ما ادّخره الله وأعدّه للمحافظين على عهودهم، وإن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ مِقْدَارَهُ ما نَقَضَ عَهْدَ الله منكم أحد. مهما تعرّض لبلاء، أو لإغراء.

فالذي أراه أنّ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قِصَّةٌ شَرْطِيَّةٌ حُذِفَ جَوَائِبُهَا لِإِلْعَامِ بِهِ، من القرائن.

وأبان الله من الفروق بين مُغْرِيَّاتِ الحياة الدنيا بالغى ما بلغت، وبين

ما عند الله من خير للمؤمنين المتقين، والمحافظين على عهودهم، ممّا أعده لأهل جنات النعيم، أن ما في الحياة الدنيا فإن زائل، لا دوام له، وأن ما عند الله من نعيم وأجرٍ عظيم باقٍ خالد، وبنظرة حسابية قريبة يُدرك المتدبر أنه لا تُقَارَنُ السنوات المحدودة بالخلود الذي لا نهاية له، فقال تعالى:

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾.

ولمّا كان المحافظون على عهودهم يُضْطَرُّونَ إلى تحمّلِ مرارة الصّبر، زادهم الله عزّ وجلّ وعداً بأنّ يَجْزِيَهُمْ جزاءً خاصّاً فوق نظام الجزاء العامّ للمتقين، وهو أن يرفع درجات مُفردات أعمالهم الصالحة ذات المستويات غير الرفيعة، فيجعلها مساويةً لأحسن ما كانوا يُقدِّمون من عمل صالح، ويُشَبِّهُم على كلّ عمل منها ثواباً مساوياً لثواب أحسن ما كانوا يَعْمَلُونَ، فضلاً منه وكرماً، فقال تعالى:

﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

* * *

النّصّ الثالث

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف / ٨٧ نزول) بشأن المنافقين:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتِ بِخَرْتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٦).

أي: أولئك المنافقون البُعْدَاءُ عن رَحْمَةِ الله، والبُعْدَاءُ في الدركات، لأنهم يوم الدّين في الدَّرَكِ الأسفل من النار، الذين يَنْطَبِقُ عليهم وصف أنهم اشْتَرَوْا، بمعنى أَجَرُوا تَبَادُلًا في صَفْقَةٍ تُشَبِّهُ الصَّفَقَاتِ التَّجَارِيَّةِ، فامتلكوا فيها الضَّلَالَةَ، وبذَلُوا مِنْ جَانِبِهِمْ فيها الْهُدَى.

أمّا الضَّلَالَةُ التي امتلكوها في هذه الصّفقة فهي إِبْطَانُ الكفر، وسلوكهم

بأعمالهم في السرِّ بعيداً عن مراقبة المسلمين سُبُل الكُفر المظلمة التي يَتَعَرَّضُونَ فيها للقلْبِ وللْعذاب والشقاء في الدنيا والآخرة، وهي في الحقيقة النفاق.

وأما الُهدى الذي بذلوه فهو ظاهر انتمائهم للإسلام، والعملُ ببعض الظواهر الإسلامية التي يَضْطَرُّهُمْ نِفَاقُهُمْ أَنْ يُشَارِكُوا فِيهَا المسلمين، إِنَّهُمْ يَبْذُلُونَهَا لِلشَّيْطَانِ لأنَّهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ مِنْهَا بِشَيْءٍ، مهما أَتَقَّنُوا فِيهَا بحسب الظاهر الْمُطَابَقَةَ بَيْنَهَا وبين أعمال المؤمنين المسلمين الصادقين، لأنها فاقدة شرط العمل الصالح الأول وهو الإيمان.

إِنَّهُمْ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهم بهذه المُبَادَلَةِ القائمة على النفاق يربحون ما عند المسلمين من أَمْنٍ وغنائم، وما عند الكافرين الصُّرْحَاء من مصالح ومنافع، لكنَّ تجارتهم في الواقع تجارةٌ غيرُ رابحةِ الربح الذي يقصدونه من الدنيا، ولا يربحون ثواباً في الآخرة عند الله، فقال تعالى:

﴿فَمَا رَبَحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾.

ولسلا يُفْهَمَ من النَّصِّ أَنَّهم كانوا على هُدى حقيقيٍّ فَارْتَدُّوا عنه، أو أَنَّهم يَنْجُونَ من عذاب الله يوم الدين ولو لم يحققوا ربحاً، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

أي: وما كانوا مُهْتَدِينَ في الحقيقة، بل بَذَلُوا هُدىً ظاهرياً غير حقيقيٍّ، لذلك فهم سيعذبون في النار بسبب كفرهم واختيارهم سُبُل الضلال.

النص الرابع

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً خطاباً لبني إسرائيل:

﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيتَنِي

فَازْهَبُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ﴿٤١﴾ ﴿٤٠﴾

الكلام على قوله تعالى :

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ .

نظير الكلام الذي سبق لدى تحليل قوله تعالى في النص (٢) من سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول) :

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ ﴿١٥﴾

فلا داعي إلى إعادته هنا .

والمراد من قوله : ﴿بِآيَاتِي﴾ آيات الله التي يبدّلونها ليأخذوا بدلاً منها عرضاً من عرض الحياة الدنيا ثمناً لها ، وهي آياتُ الله المنزلة في القرآن الذي يدعّوهم الله إلى الإيمان به ، وآياتُ الله المنزلة في كتبهم التي تدعّوهم إلى الإيمان بمحمدٍ وبما يأتي به من عند الله ، وقد أخذَ الله عليهم العهد أن يؤمنوا به ويتبعوه حين يبعثه الله .

وقد ظهر لنا أن كُفّر الذين كفروا من بني إسرائيل بمحمد ﷺ ، وبما أنزل الله عليه وهو القرآن ، إنما كان الدافع إليه مصالح دنيوية ، وتحقيق أهواء نفسية ، ورغبات عرقية ، فهي الثمن الذي يحصلون عليه مقابل تركهم العمل بآيات الله التي لديهم ، التي تكلفهم الإيمان به واتباعه ، ومقابل تركهم ما عرفوا من أن محمداً هو الرسول المبشّر به في كتبهم ، وأن القرآن المنزل عليه هو كلامُ الله حقاً وصداً .

﴿يا بني إسرائيل﴾ : إسرائيل هو سيدنا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . قالوا : ومعنى «إسرائيل» في لغتهم : عبد الله .

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ : أي : جدّدوا في تصوّراتكم الحاضرة في أذهانكم وقلوبكم تذكّر نِعَمِ الله الّتي أنعم بها عليكم ، وهي كثيرةٌ جاء بيانها في طائفة من النصوص القرآنية ، وهم يعلمونها من تاريخهم ، والغرض من تذكّرها أن يكون تذكّركم لها دافعاً لهم إلى الإيمان برسول الله الخاتم ، والإيمان بما جاء به عن ربّه ،

وشكر نعم الله عليهم بالعمل بما في القرآن، وبطاعة الرسول محمد ﷺ واتباعه.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾: عَهْدُ اللَّهِ هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالرَّسُولِ مُحَمَّدٍ وَبِمَا يُنْزِلُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَتَّبِعُوهُ، وَيَعْمَلُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَبِسُنَّةِ رَسُولِهِ.

وَعَهْدُهُمُ الَّذِي أَعْطَاهُمُ اللَّهُ إِيَّاهُ هُوَ أَنْ يُجَازِيَهُمْ بِثَوَابٍ مُضَاعَفٍ وَيَمْنَحَهُمُ التَّمَكِينَ فِي الْأَرْضِ.

لَكِنَّهُمْ لَمْ يُؤْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ، فَلَمْ يَكُونُوا مُسْتَحَقِّينَ أَنْ يُوفَى اللَّهُ بِعَهْدِهِمْ. إِنَّ وِفَاءَهُمْ بِعَهْدِ اللَّهِ شَرْطٌ، وَوِفَاءُ اللَّهِ بِعَهْدِهِمْ جَزَاءٌ.

﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾: أَصْلُهَا: فَارْهَبُونِي. وَفِي هَذِهِ الصِّيغَةِ مَعْنَى الْقَصْرِ، أَي: ارْهَبُونِي وَحْدِي، وَلَا تَقْدَمُوا رَهْبَةً غَيْرِي عَلَى رَهْبَتِكُمْ مِنِّي.

﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾: أَي: آمِنُوا بِالْقُرْآنِ فَهُوَ مُصَدِّقٌ لِلتَّوْرَةِ وَلِمَا مَعَهُمْ مِنْ كِتَابِ رَبَّانِيَّةِ أَصُولٍ غَيْرِ مُحَرَّفَةٍ.

﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾: أَي: وَلَا تَكُونُوا فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ مِنْ صُفُوفِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ، فَانْتَمِ عَالَمُونَ بِأَنَّهُ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ، فَإِذَا كَفَرْتُمْ بِهِ كُنْتُمْ فِي مَقَدِّمَةِ الْكَافِرِينَ بِهِ عَنْ عِلْمٍ لَا عَنْ جَهْلِ، وَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ تَكُونُوا أَوَّلَ مُؤْمِنٍ بِهِ.

﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾: أَصْلُهَا فَاتَّقُونِي، وَنَقُولُ هُنَا مِثْلَ مَا قُلْنَا فِي: ﴿فَارْهَبُونِ﴾ وَالْغَرَضُ مِنْهُمَا التَّهْدِيدُ وَالتَّحْذِيرُ.

* * *

النص الخامس

وقول الله عز وجل في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) أيضاً بشأن اليهود الذين يفترون على الله الكذب، فيكتبون الكتب والصحف والأسفار بأيديهم من افتراءاتهم ويزعمون أنها من عند الله ليضلوا بها جماهيرهم الذين لا يعلمون من العلم إلا أنهم يقرؤون ما يقدمه لهم أحبارهم من مكتوبات يدعون لهم أنها من عند الله، والكتب المفترون يفعلون ذلك مقابل منافع دنيوية ينالونها:

﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

أي: ليأخذوا ثمنًا قليلًا من مالٍ أو منافع ومصالح دنيوية، مقابل هذا الذي يقدمونه ويبدلونه من مكتوبات أيديهم المفتريات على الله، التي يقولون كاذبين: إنها من عند الله.

إنهم يفعلون ذلك لتبرير أباطيلهم التي يمارسونها، ولإرضاء ملوكهم وحكامهم الفاسقين الفاجرين الضالين، ولإرضاء ذوي المال والجاه فيهم مقابل منافع ورشوات يحصلون عليها من قبلهم.

فجعل الله عز وجل هذه المبادلة، بمثابة الشراء والبيع، فهم يشترون الثمن القليل ويبدلون الكذب المفترى على الله. وبقية التحليل قد سبق في النص (٢) من هذه النصوص.

﴿وَيْلٌ﴾: كلمة عذاب، وفيها وعيدٌ بحُلُولِ عقاب الله فيهم، وورد أن «ويل» وادٍ في جهنم، وهي مبتدأ وما بعدها خبرٌ له، قالوا: وجاز الابتداء بها لأنها تتضمن معنى الدعاء، أقول: هي في القرآن وعيد من الله، فمسوخ الابتداء بها أنها تحمل وصفاً مقدراً، أي: ويلٌ عظيم. عذابٌ جسيم. وإذا كانت اسماً لوادٍ في جهنم فهي علمٌ على هذا الوادي.

* * *

النص السادس

وقول الله عز وجل في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) أيضاً بشأن بني إسرائيل الذين خالفوا أحكام دينهم، وعَصَوْا الله في أهل ملّتهم، فكانوا يسفكون دماء بعضهم، ويخرجون فريقاً منهم من ديارهم، يتظاهرون عليهم بالإثم والعدوان، وإن يأتوهم أسارى يُفادوهم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ

يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

أي: أولئك البُعْدَاء عَنْ رَحْمَةِ الله، الَّذِينَ أَخَذُوا مطامعهم من الحياة الدنيا وزينتها، وتركوا مُقَابِلَ ذلك الآخرة وما فيها من نعيم مقيم عند الله، وقد كانت في أيديهم بمقتضى إيمانهم بموسى وأنبياء بني إسرائيل، وما أنزل الله عليهم في كتبهم.

لكنهم آمَنُوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه، والإيمان لَا يَقْبَلُ التجزئة والتبعض، فمن كفر ببعض ما أنزل الله فقد كَفَرَ كُفْرًا مُخْلَداً في عذاب النار.

إذن فهم يوم الدين لَا يُخَفَّفُ عنهم العذابُ مراعاةً لأنهم آمَنُوا ببعض الكتاب، وهم أيضاً لَا يَجِدُونَ ناصراً ينصرهم فينقذهم من عذاب ربهم.

فجعل الله في هذه الآية المبادلة ببذل الآخرة وأخذ الحياة الدنيا بمثابة الشراء، لأن العملية صفقة مباحة مع الله، كأنهم يقولون فيها لربهم الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، وهو مالك كل شيء: أعطنا الحياة الدنيا وزينتها وشهواتنا وأهواءنا منها، ونُحِذُّ نعيم الحياة الآخرة الخالد.

* * *

النص السابع

وقول الله عز وجل في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) أيضاً وبشأن اليهود أيضاً إذ كفروا بالقرآن وكفروا بالرسول محمد ﷺ، مع أنهم عرفوا أن القرآن حق منزل من عند الله، وأن محمداً هو المبشر به في كتبهم:

﴿بِسْمَا أَشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ١٠.

أي: بشئ الشيء الذي أخذوه وبذلوا مقابلته أنفسهم، فدفعوها لنقمة الله وغضبه عليهم، وعقابه وعذابه.

باء التعديّة هنا دخلت على المقبوض مثل فعل «باع» وهذا على خلاف الغالب من استعمال فعل «اشتري»، لأن الغالب فيه أن تدخل الباء على المبذول، كما سبق بيانه لدى تحليل النص الثاني من هذه النصوص.

﴿بِسْمَا﴾: أورد النحاة عدداً من الاحتمالات بالنسبة إلى «ما» من بشما، فقال بعضهم هي اسم موصول، وقال بعضهم هي نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بش، وقيل غير ذلك.

ومهما يكن من أمر فإن النص يفيد المعنى الذي سبق شرحه، وندع الصناعة النحويّة للنحاة، فالمعنى هو الأهم.

فما هو الذي قبضوه وبذلوا أنفسهم مقابلته؟

إن تدبر النص يكشف لنا أنه هو كفركهم بما أنزل الله بدافع الحسد، إذ اختار الله للرسالة الخاتمة الخالدة، محمداً من العرب لا من بني إسرائيل، فقال تعالى في بيان هذا تفسيراً للشئ الذي اشتروا به فقبضوه أنفسهم التي بذلوها:

﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ : أي : أخذوا الكُفْرَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، والذي أَنْزَلَهُ هو القرآن .

﴿بَغْيًا﴾ : أي : حسداً ، فمن معاني البغي في اللُّغة الحسد ، وهو المراد هنا ، ويُسمَّى الظلم بغياً أيضاً ، لأنَّ الحاسد يظلم المحسود جهده .

ويدور أصل معنى البغي على الطلب ، وعلى تجاوز الحد . والحاسدُ يطلب لنفسه ما عند المحسود ، أو يطلب مثله ، وقد يتجاوز الحد فيظلم محسوده ويعتدي عليه . ومن معنى تجاوز الحد يطلق البغي على الكبر .

واليهود قد حَسَدُوا العرب إذ جاء الرسول الخاتم المُبَشِّرُ به في كتبهم من العرب ، لا من بني إسرائيل ، كما كانوا يُحِبُّونَ أَنَانِيَّةَ عَرَقِيَّةَ .

إِنَّ الرُّسَالَةَ اصْطَفَاءً واختياراً من الله ، يَتَفَضَّلُ بها على مَنْ يَشَاءُ من عباده ، وقد اختار للرسالة الخاتمة محمداً من العرب المستعربة ، المنحدرين من إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

﴿فَبَاؤُوا بَغْضَ عَلَى غَضٍ﴾ : أي : رجعوا بغضب من الله عليهم ، مَحْمُولٌ عَلَى غَضٍ آخر كان عَلَيْهِمْ بِأسبابٍ كثيرة كانت منهم ، ومنها تحريفاتهم في دين الله ، وكُفْرِيَّاتِهِمْ وشناعاتهم الكثيرة ، التي كانت ملازمة لكثير منهم قبل البعثة المحمَّديَّة .

فعل [باء] يأتي بمعنى : رجع ، وبمعنى : اعترف ، والمناسب هنا معنى «رجع» .

﴿وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ : أي : وللكافرين منهم ومن غيرهم عذابٌ من عند الله مُهِينٌ مُذِلٌّ لهم جزاء كفرهم وكبرهم .

* * *

النص الثامن

وقول الله عز وجل في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) أيضاً بشأن أهل الكتاب لا سيما اليهود منهم :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ .

﴿يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ : أي : يُعْطُونَ من عملهم كتمان ما يريدون كِتْمَانَهُ مما أنزل الله من الكتاب، مُقَابِل ما يحصلون عليه من ثمنٍ لهذا الكتمان .

دخلت باء التعدي هنا على المبدول لا على المقبوض ، وهو الغالب في فعل اشترى كما سبق بيانه لدى تحليل النص الثاني من هذه النصوص .

والْعُمُوم الوارد في ﴿يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يُرَاد منه خُصُوص ما يريدون كتمانهم منه ، واستُخِذَ اللفظ العام للإشعار بأنهم مُسْتَعِدُّون لأن يكتموا جميع ما أنزل الله إذا كان لهم هوى بكتمانه ، فمن كَتَم بعض الحق كَمَن كَتَم كُلَّ الحق ، وهذا المعنى دلَّ عليه قول الله عز وجل في سورة (المائدة / ٥ مصحف / ١١٢ نزول) :

﴿مَنْ أَجَلَ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا... ﴿٣٢﴾﴾ .

إن علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب الأم عنده ، مما تبلغوه عن طريق رُسُلهم ، لأنهم إذا أظهروه كان حُجَّةً عليهم ،

أو لم يُحَقِّقُوا ما يريدون من مصالح ومنافع أو شهوات وأهواء من متاع الحياة الدنيا وزينتها.

فالدافع لهم على كتمان ما يكتُمونه من الكتاب الرَّبَّاني هو تحقيق منافع ومصالح دنيوية لأنفسهم، كرشوات، أو محافظةً على مكاناتٍ وزعامات، أو انطلاقٍ في ارتكاب المحرَّمات، أو أكلٍ لأموال الناس بالباطل، ونحو ذلك.

إنَّهم يبذلون من أنفسهم معصية الكتمان وهي من كبائر الإثم، مقابل ما يحصلون عليه من ثَمَنِ قليل، هو من متاع الحياة الدُّنيا، وهم يحصلون عليه بالإثم والعدوان ومعصية الله.

ونعلم أنَّ مَّا كتموه، ما لديهم من بشائر بالنبيِّ مُحَمَّد ﷺ. وكذلك حُكْمُ الرجم الذي ستروه عن الرسول مُحَمَّد ﷺ حين طلب من بعض علمائهم تلاوة ما يتعلَّق بحكم الزاني والزانية في كتبهم، ليحكم في الزانين منهم اللَّذِينَ طلبوا منه أن يحكم بشأنهما بحكم الله.

ونقرأ الآن في سفر التثنية من كتابهم حكم الرجم، في الإصحاح (٢٢). ونقرأ أيضاً في إصحاحات أخرى أحكاماً بقتل الزاني والزانية، في صُورٍ خاصة، وقتل الزاني فقط إذا كان للزانية عُذْرٌ يدلُّ على أنها استسلمت من ضعف لا من رغبة، وأحكاماً كثيرة بالقتل لارتكاب الفواحش المحرَّمة في شريعتهم.

ولمَّا كان معظمُ ما يحصلون عليه أموالاً ينفقونها في مطاعمهم ومشاربهم، كان جزاؤهم العادلُ يَوْمَ الدين أن تحترق بطونهم ممَّا يُضْطَرُّون أن يأكلوه من طعام شديد الحرارة في جَهَنَّمَ، وهو طعامٌ فيه موادٌ تعطي حرارةً شديدةً في البطون كحرارة النار الملتهبة، مثل شَجَرَةِ الرُّقُوم التي هي في جهنم طعامُ الأثيم، وقد وصفها الله عزَّ وجلَّ بقوله في سورة (الدخان / ٤٤ مصحف / ٦٤ نزول):

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرُّقُومِ ۖ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۖ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۖ ﴿٤٥﴾

كَغَلِي الْحَمِيمِ ۖ ﴿٤٦﴾ .

﴿الْمُهْلُ﴾: المعدن المذاب - والقطران - وعَكَرَ الزَّيْتُ المحمي .

﴿الْحَمِيمُ﴾: الْمَاءُ الْحَارُّ الذي يغلي ويفور من شِدَّةِ حرارته . دلَّ على هذا النوع من التعذيب للذين يكتُمون ما أنزل الله ، قوله تعالى في النَّصِّ الذي نتدبرُهُ :

﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ :

أي : أولئك البعداء عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، الْمُقِيمُونَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ ، مَا يَأْكُلُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَهْضُمُونَ فِي بُطُونِهِمْ الْجَائِعَةُ الطَّالِبَةُ لِلطَّعَامِ إِلَّا طَعَاماً حَارّاً كَالْجَمْرِ مِنَ النَّارِ ، فَسَمَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الطَّعَامَ الذي يَأْكُلُونَهُ ناراً ، لَأَنَّهُ كَالنَّارِ حَرَارَةً وَإِيلَاماً .

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ :

أي : ولا يكَلِّمُهُمُ كلاماً برفق وتكريم ، أو كلاماً بمواجهة وخطاب ، بل يحاسبهم كخطاب الغائب إِعْرَاضاً عَنْهُمْ ، لَأَنَّهُمْ كَتَمُوا كَلَامَهُ الْمُنَزَّلَ ، فَهُوَ يَجَازِيهِمْ بِمِثْلِ عَمَلِهِمْ .

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ :

أي : ولا يغفر ذُنُوبَهُمْ ، وَلَا يَغْفُو عَنْهُمْ ، لَأَنَّ مَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ يَوْمَ الدِّينِ فَإِنَّهُ يُزَكِّيهِ ، بِمَعْنَى أَنَّهُ يَطْهِّرُهُ مِنْ ذُنُوبِهِ بِالْمَغْفِرَةِ وَالْعَفْوِ ، وَهَذَا فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ الْعَاصِي ، لَكِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَا يُزَكِّيهِمُ اللَّهُ .

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ :

أي : وَلَهُمْ عَذَابٌ مُؤَلِّمٌ لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ ، إِضَافَةً إِلَى آلامِ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ مِمَّا هُوَ كَالنَّارِ .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ :

أي : أُولَئِكَ الْبُعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَالْبُعْدَاءُ فِي دَرَكَاتِ الْعَذَابِ فِي جَهَنَّمَ ، الَّذِينَ يَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ وَصْفُ أَنَّهُمْ اشْتَرَوْا بِمَعْنَى أَجَرُوا تَبَادُلًا فِي صَفْقَةٍ تُشَبِّهُ الصَّفَقَاتِ التِّجَارِيَّةِ ، فَامْتَلَكُوا فِيهَا الضَّلَالََةَ بِكَتْمَانِهِمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَبَدَّلُوا مِنْ جَانِبِهِمْ فِيهَا الْهُدَى الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ ، وَهُوَ عَلِمُهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَبِوَاجِبِ تَبْلِيغِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ .

وامتلكوا فيها العذابَ النازلَ بهم، وبذلُّوا من جانبهم فيها ما كان في ملكهم بفضل الله، وهو مغفرة الله لذنوبهم التي لا تصل إلى الكفر، ولا تصل إلى كتمان ما أنزل الله.

﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾:

أي: فما أشدَّ حاجتهم للصَّبر الشَّدِيد الطويل على النار وعَذَابِهَا الأليم، أو فما أشدَّ جُرْأتَهُمْ على ارتكاب الكبائر العظمى التي تُفْضي بهم إلى عذاب النار التي يحتاجون فيها إلى صبر شديدٍ طويل. أو فما أشدَّ عذاب النار عليهم الذي يَسْتَهْلِكُ منهم صبراً شديداً طويلاً، فهم فيها دائمو تحمُّلِ العذاب بالصَّبر، إذ هو لا يتحوَّل إلى أمرٍ مألوفٍ معتاد، وهُمْ لا يَتَلَذَّذُونَ به كالأجرب الذي يَحْكُ مواضع الداء فيَجْمَعُ بالحكِّ بين اللذة والألم.

* * *

النص التاسع

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف / ٨٧ نزول) أيضاً:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ

بِالْعِبَادِ ۝٢٧﴾.

تحدَّث هذه الآية عن فريق من المؤمنين ذوي تفوُّقٍ في أعمال البرِّ والإحسان، فهم أبرارٌ أو محسنون، ومن صفاتهم أنَّهم يبذلُّون أنفسهم وأموالهم مقابل حصولهم على مرضاة الله، فإذا دعا داعي الجهاد بالأموال بذلوا من أموالهم ابتغاءَ مرضاة الله، وإذا دعا داعي الجهاد بالأنفس بذلوا نفوسهم ابتغاءَ مرضاة الله، وخرجوا مقاتلين في سبيله.

استُعْمِلَ فعل «يَشْرِى» هنا في التعدية مثل فعل «يبيع» فنَصَبَ المبدول في صفقة المبايعة، أما المقبوضُ فمحذوفٌ دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾،

أي: يشري نفسه بثواب الله العظيم في الجنة، الذي يناله من بذل نفسه في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

﴿ابتغاء مرضاة الله﴾:

أي: طلب وإرادة رضا الله عز وجل. ابتغاء الشيء: إرادته وطلبه. «مرضاة» مصدر رضي: تقول لغة: رضي الشيء يرضى رضا، ورضاء، ورضواناً، ومرضاةً، ويُعدى بحرف الجر، فتقول: رضي به، ورضي عنه، ورضي عليه. والرضا هو القبول بارتياح وحب.

﴿والله رؤوف بالعباد﴾:

أي: لا يكلفهم إلزاماً بذل أنفسهم رافة بهم، وشفقة عليهم، لكن يندبهم إلى ذلك أحياناً لنصرة دينه، فيتندب فريق منهم باذلاً نفسه ابتغاء مرضاة الله.

* * *

النص العاشر

وقول الله عز وجل في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

سبب النزول:

روى البخاري ومسلم وأصحاب السنن وغيرهم عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ».

فَقَالَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ : فِيَّ وَاللَّهِ كَانَ ذَلِكَ ، كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ
أَرْضٌ ، فَجَحَدَنِي ، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :
«أَلَاكَ بَيِّنَةٌ؟» .

قُلْتُ : لَا . قَالَ لليهودي : «إِخْلِفْ» .

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْنٌ يَخْلِفُ فَيَذْهَبُ مَالِي ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ الآية :

أي : إِنَّ الَّذِينَ يَبْذُلُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَأَيْمَانَهُمْ كَاذِبِينَ ، مُقَابِلَ ثَمَنٍ قَلِيلٍ مِنْ مَتَاعِ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَحْصُلُونَ عَلَيْهِ ، أُولَئِكَ الْبَعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ يُعَاقَبُونَ يَوْمَ الدِّينِ
بِالْعُقُوبَاتِ التَّالِيَاتِ :

١ - ﴿لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ :

أي : لَا يَكُونُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا يُحِبُّونَ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ يَوْمَ الدِّينِ ، كَنَصِيبِ
أَهْلِ الْإِيمَانِ الْمُتَّقِينَ ، لِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِعَهْدِ اللَّهِ الْمَأْخُودِ عَلَيْهِمْ أَنْ
يُؤْمِنُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ، وَأَنْ يَلْتَزِمُوا أَتْبَاعَهُ ، وَالْمُسْتَهْزِئِينَ بِأَيْمَانِهِمُ الَّتِي حَلَفُوهَا تَوْثِيقًا
لِهَذِهِ الْعُهُودِ .

٢ - ﴿وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ :

أي : لَا يُوَاجِهُهُمْ اللَّهُ بِالْخُطَابِ عِنْدَ الْحِسَابِ ، بَلْ يُحَاسِبُهُمْ كَخُطَابِ
الْغَائِبِ ، إِعْرَاضًا عَنْهُمْ ، لِأَنَّهُمْ نَقَضُوا عُهْدَهُمْ مَعَ رَبِّهِمْ ، وَلَمْ يَفُوا بِأَيْمَانِهِمُ الَّتِي
حَلَفُوهَا .

٣ - ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ :

أي : وَلَا يَرَعَاهُمْ بِرَأْفَةٍ وَرَحْمَةٍ وَعُطْفٍ ، لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ ، لِعِظَمِ
جَرِيْمَتِهِمْ ، إِذْ كَفَرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ وَبِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا كَفَرُوا بِهِ حَقٌّ
وَصَدَقَ ، فَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ السَّابِقِ ، وَعِنْدَهُمْ مِنَ الْبَشَائِرِ مَا يَكْفِي لِتَصْدِيقِ الرَّسُولِ
مُحَمَّدٍ ﷺ .

٤ - ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ :

أي : ولا يَغْفِر ذُنُوبَهُمْ ولا يعفو عنهم ، لأن من يغفر الله له يوم الدين أو يعفو عنه فإنه يُزَكِّيهِ ، بمعنى أنه يُطَهِّرُهُ بالمغفرة والعفو ، وهذا يكون فضلاً من الله على عباده العصاة ، لكن هؤلاء الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً لا يُزَكِّيهِمُ الله ، إذ لَيْسُوا أَهْلًا لأن يتفضل الله عليهم بالعفو أو بالمغفرة .

٥ - ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ :

أي : وَلَهُمْ عَذَابٌ مُؤَلَّمٌ لهم في جهنم ، جزاء كفرهم وعدم وفائهم بعهد الله ، وجزاء استهانتهم بالأيمان التي حلفوها ، ووثقوا بها العهود التي أعطوها الله عز وجل على أن يؤمنوا بالرسول الخاتم ويتبعوه .

* * *

النص الحادي عشر

وقول الله عز وجل في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول) أيضاً :

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْباً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦) **﴿إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** (١٧٧) .

ارتدَّ بعض الذين أسلموا عن الإسلام في العهد المدني فحزنَ الرسول ﷺ من أجلهم ، فنهى الله رسوله عن أن يحزن من أجل الذين يُسَارِعُونَ في طريق الكفر ابتعاداً عن الإسلام بعد أن ارتدوا عنه ، وأبان الله تعالى لرسوله الأسباب التي تستدعي ألا يحزن من أجلهم :

● فالسبب الأول : أَنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً ، أي : فلا تحزن من أجل ربك ، دلَّ على هذا السبب قوله تعالى :

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ .

● والسبب الثاني: أن الله بعد أن ارتدوا وأخذوا يُسارعون مبتعدين عن الإسلام موعلين في طريق الكفر يُريد ألا يجعل لهم حظاً من السعادة والنعيم في الآخرة، فينبغي الرضا بمراد الله فيهم، دلّ على هذا السبب قوله تعالى:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾.

● والسبب الثالث: أن الله أعدّ لهم عذاباً عظيماً، أي: فلا تحزن من أجل المسلمين الذين يتعرّضون لأذاهم ومكرهم وكيدهم، دلّ على هذا السبب قوله تعالى:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

بعد هذا أبان الله أن هؤلاء المرتدين وأمثالهم ينطبق عليهم وصف أنهم اشتروا الكفر فقبضوه امتلاكاً، وبذلوا مقابلته من جانبهم الإيمان الذي كانوا يمتلكونه، أي: أجزوا تبادلاً في صفقة تشبه الصفقات التجارية، بذلوا فيها الإيمان وأخذوا بدله الكفر.

وقد تكرر في القرآن استخدام هذا المثل مراعاة لطبيعة البيئة العربية، التي نزل القرآن بلغة أهلها، وقد كانوا يعتبرون التجارة وهي أعمال البيع والشراء في مقدّمة الأعمال الشريفة التي يجمعون عن طريقها ثرواتهم، أمّا الزّراعة فقد كانت قليلة في بيئتهم، وأمّا الصناعة فقد كانت شبة منعدمة، والذين يمارسونها بينهم لا يُعتبرونهم من ذوي المكانة العالية فيهم، وبعض الأعمال الصناعية كانت محترقة لديهم، وأمّا تربية الأنعام واستثمارها التي كانت من أعمالهم المنتشرة فالتبادُل فيها يتم عن طريق التجارة والبيع والشراء، فكان تكرير هذا المثل في المناسبات المختلفة هو الأسلوب الملائم للبيئة العربية إبان تنزيل القرآن، فقال تعالى في هذا النص:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾.

إذن: فينبغي ألا نحزن من أجل الله إذا ارتد عن الإسلام مرتدون، لأنهم لن يضرُوا الله شيئاً.

وينبغي ألا نحزن من أجل إضرارهم بجماعة المسلمين، فقد أعدَّ الله لهم عذاباً أليماً، جزاء ما جنوا وأجرموا، فقال تعالى:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

* * *

النص الثاني عشر

وقول الله عز وجل في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول) أيضاً:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١٧٧).

وقوله تعالى فيها:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَدِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايِدَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٦٩).

يأمر الله المؤمنين المسلمين بأن يعلموا ويذكروا دوماً كبيرة من كبائر الإثم الذي سقط فيه أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهي نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم، وعدم قيامهم بما أوجب الله عليهم بالنسبة إليه، وهو بيانه وتوضيح معانيه، وعدم كتمانهم، وقد أخذ الله عليهم الميثاق أن يؤدوا هذا الواجب، فلم يكن منهم وفاء بما عاهدوا الله عليه.

وإعلام علماء المسلمين بهذا الأمر، وتكليفهم أن يذكروه دوماً، يتضمن تحذيرهم من أن يسقطوا فيما سقط فيه أهل الكتاب من قبلهم، فيكتموا ما جاءهم

عن الله من علم في القرآن وفي بيانات الرسول محمد ﷺ، ولا يبينوه للناس، فإذا فعلوا ذلك استحقوا نعمة الله وعقابه.

وأبان الله عز وجل أن السبب الذي جعل علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى يكتُمون عن الناس ما أنزل الله في كتبهم ولا يُبينونه لعامةِهم، ما كانوا يحصلون عليه من ثمنٍ مُقابل هذه الجريمة من جرائمهم، وهذا الثمن لا بد أن يكون مالاً، أو مصالح ومنافع دنيوية، أو تحقيق شهوات ورغبات، أو اتباع أهواء، أو استجابة لمطالب ذوي السلطان والجاه الذين يذلون لهم الرشا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾:

أي: اعلم واذكر دوماً يا مَنْ تحملُ علم كتاب الله في القرآن هذه المعلومة عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى:

هي أن الله أخذَ ميثاقَهُم. الميثاق: العهدُ المؤكّد المشدّد المعقود بحبال الإيمان، أو نحو ذلك من مُبايعة.

﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾:

جُمْلَةُ ﴿لَتُبَيِّنَنَّ﴾ مؤكّدة بلام الابتداء، وبنون التوكيد المشدّدة، أي: يجب عليكم وجوباً مؤكّداً أن تُبينوا الكتاب للناس، ولا تكتُموا منه شيئاً.

واستعمال صيغة فعل المضارع الخبرية في الفعلين دون صيغة فعل الأمر، للدلالة على أن المطلوب فيهما من الأمور التي لا تحتل المعصية والمخالفة، بل لا بد أن يكون أمراً واقعاً، فهو في مثل هذا الموقع أدلُّ على شدّة الإلزام من استعمال صيغة فعل الأمر.

﴿فَنَبِّذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

النَّبْذُ: طَرَحُ الشيء مع الاستهانة به، وأصله واقع على نبذ النواة بعد أكل ما حولها.

وزيادة في الاستهانة، وإبعاداً للمنبوذ عن ساحة النظر، فقد يُنبذ آكلُ التمرِ
النوى وراء ظهره.

فالعبارة تدلُّ على توَعَّل أهل الكتاب من اليهود والنصارى في ارتكاب كبيرة
إهمالهم لما أخذ الله عليهم به الميثاق، من بيان كتاب الله وعَدَمِ كتمانهِ، حتى كان
فيهم بمثابة النوى الذي يُنبذ وراء الظهر.

ولنا أن نجعلها من باب الكناية، أو من باب الاستعارة القائمة على تشبيه
كتمانهم كتاب الله وإهمالهم بيانه للناس بنبذ النوى وراء الظهر.

﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

أي: واشتروا بالميثاق الذي يجب عليهم أن يُحافظوا عليه، فبدَّلوه في صفقة
تُشبه الصفقات التجارية، وامتلكوا بدلَه ثمنًا قليلًا من متاع الحياة الدنيا.

﴿فَبَشَّسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾:

أي: فبشَّسَ عملاً اشتراؤهم هذا، فاعل «بشَّسَ» في أقرب الوجوه التي ظهرت
لي من أقوال النحاة ضميرٌ يعودُ على ما فهم من الجملة السابقة، ولم يُميَّز بلفظ
«ما» لثلاث يجتمع في العبارة لفظان متماثلان. و«ما» في «مَا يَشْتَرُونَ» مصدرية.

ومن المحتمل أن تكون «ما» اسم موصول، وعلى هذا فالتقدير: فبشَّسَ ثمنًا
الذي يشترونه، أي: يأخذونه بدلاً عن عدم وفائهم بالميثاق الذي أخذه الله عليه،
وعن نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم.

ولئلا يفهم أنَّ جميع أهل الكتاب من اليهود والنصارى ارتكبوا هذه الكبيرة
العظمى، قال تعالى في السورة بعد إحدى عشرة آية:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ
خَاشِعِينَ لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
الْحِسَابِ﴾.

* * *

النص الثالث عشر

وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا

السَّبِيلَ﴾ (٤٤).

أي: أَلَمْ تَرَ أَيُّهَا الرَّائِي الْمُتَفَكِّرُ رُؤْيَةً عِلْمِيَّةً فِكْرِيَّةً حِينَ نَظَرْتَ مُتَفَكِّرًا فِي أَحْوَالِ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ، حَالَةً كُونَهُمْ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ، إِذْ يَكْفُرُونَ بِالرَّسُولِ مُحَمَّدٍ وَبِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَأْخُذُونَ الضَّلَالَةَ، وَيَبْذِلُونَ الْهُدَى الَّذِي يَعْلَمُونَهُ مِنْ كِتَابِهِمْ، وَلَا يَكْتَفُونَ بِأَنْ يَخْتَارُوا لَأَنْفُسِهِمِ الضَّلَالَةَ، بَلْ يُرِيدُونَ مِنْكُمْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ الْحَقَّ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ، فَتُخْرِجُوا عَنْهُ، وَتَنْطَلِقُوا تَائِهِينَ فِي سُبُلِ الضَّلَالِ وَالْغَوَايَةِ.

إِنَّ سَبِيلَ الْحَقِّ وَاحِدًا، أَمَّا الْبَاطِلُ فَلَا حَصْرَ لِسُبُلِهِ، وَكُلُّ سُبُلِهِ الَّتِي لَا حَصْرَ لَهَا ضَلَالٌ، وَضِياعٌ، وَمَتَاهَاتٌ، وَشَرٌّ وَضُرٌّ وَعَذَابٌ.

وَالْمُرَادُ مِنْ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: انْظُرُوا تَرَوْا، فَهِيَ دَعْوَةٌ إِلَى النَّظَرِ بِأَسْلُوبِ الْاسْتِفْهَامِ.

﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾:

هُمُ الْيَهُودُ أَوَّلًا، فَالنَّصَارَى.

﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾:

أي: يَعْقِدُونَ صَفَقَةً مُّبَادَلَةً يَبْذِلُونَ فِيهَا الْهُدَايَةَ، وَيَأْخُذُونَ بِدَلِّهَا الضَّلَالَةَ، كَصَفَقَاتِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ فِي التِّجَارَةِ.

وَفِي التَّنْبِيهِ عَلَى هَذِهِ الْجَرِيْمَةِ مِنْ جَرَائِمِ أَهْلِ الْكِتَابِ تَحْذِيرٌ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ أَنْ يَعْمَلُوا مِثْلَ عَمَلِهِمْ.

* * *

النص الرابع عشر

وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول) أيضاً:

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٧٦﴾.

﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ :

أي: الَّذِينَ يَبْذُلُونَ الحياة الدنيا، لِنَيْلِهَا سَعَادَةَ الحياة الآخرة ونعيمها في الجنة خالدين.

«يَشْرُونَ» هُنَا مِثْلُ «يَبِيعُونَ» إِذْ دَخَلَتْ الْبَاءُ عَلَى الْمَقْبُوضِ لَا عَلَى الْمَبْذُولِ. وَالَّذِينَ يَبْذُلُونَ الحياة الدنيا لِنَيْلِهَا نَعِيمَ الجنة فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ الصَّادِقُونَ الْحَرِيصُونَ عَلَى أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْأَبْرَارِ أَوْ الْمُحْسِنِينَ، لِذَلِكَ كَلَّفَهُمُ اللَّهُ أَنْ يِقَاتِلُوا فِي سَبِيلِهِ، تَكْلِيفًا إِنْزَامِيًّا فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ :

وَقَدْ دَلَّنَا هَذَا عَلَى أَنَّ تَكْلِيفَ الطَّامِحِينَ إِلَى مَرْتَبَةِ الْأَبْرَارِ أَوْ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ أَشَدُّ مِنْ تَكْلِيفِ الْمُكْتَفِينَ بِمَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُوَدُّونَ الْوَاجِبَاتِ الْعَامَّةَ، وَيَتْرَكُونَ الْمُحَرَّمَاتِ الْعَامَّةَ، الْمَوْجَهَةَ لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ.

﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ :

رَبَّ اللَّهُ اسْتَحَقَّ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ الَّذِي وَعَدَ بِهِ، عَلَى تَحَقُّقِ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِهِ، سِوَاءِ اسْتَشْهَادِ الْمُقَاتِلِ أَوْ لَمْ يُسْتَشْهَدْ، لِأَنَّ الْقِتَالَ هُوَ الَّذِي يَكُونُ مِنْ كَسْبِهِ، أَمَّا الْاسْتَشْهَادُ فَهُوَ مِنْ تَدْبِيرِ اللَّهِ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَكُلُّ مِنَ الشَّهِيدِ وَغَيْرِهِ كَانَ مُعَرَّضًا لِلْقَتْلِ وَالسَّلَامَةِ.

أَمَّا تَعْوِضُ الشَّهِيدِ فَيَكُونُ مَكَافَأَةً خَاصَّةً عَلَى مَا نَزَلَ فِيهِ قَضَاءٌ وَقَدْرًا.

وَنَلْمَحُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ أَنَّ هَذَا الصَّنْفَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

الذين باعوا الحياة الدنيا بالآخرة لا يَقْعُ في تصوّرهم إلا أَحَدُ احتمالين : إمّا أن يُقْتَلُوا وإمّا يَغْلِبُوا أعداء الله ، أما أن يَنْهَزِمُوا أو يَنْتَصِرَ عليهم عدوّ الله فهذان أمران معزولان عن خواطرهم .

* * *

النصّ الخامس عشر

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الصّفّ / ٦١ مصحف / ١٠٩ نزول) :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تَحَرِّقٍ تُنَجِّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١١﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَجُهِدْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ
مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ .

جاء في هذا النصّ ندبُ عامّة الذين آمنوا إلى ممارسة تجارة رابحة مع الله عزّ وجلّ ، والتجارة كما نعلم تقومُ على قاعدة البيع والشراء ، لتحقيق المكاسب ، واغتنام الربح بالمبادلات التي يأخذ فيها التاجرُ قيمة سلعته زائداً على القيمة التي اشتراها به ، تعويضاً عن خدماته ، أو تجميد قيمة السلعة ريثما يأتي راغبها ، ومهارته في الاستيراد والتصدير والجلب والتوزيع ، وعن المخاطرة التي قد يتعرض لها في بعض السلع بنزول قيمتها عمّا اشتراها به أو تلفها .

لكنّ التجارة مع الله تحقّق للمؤمنين الرّبح قطعاً من دون احتمال خسارة ما ، فالمؤمن يقدّم العمل الذي يرضي الله ، فيقبّله الله ويُعطيه عليه ربحاً عظيماً ، إلى سبعين ضعفاً إلى سبعمئة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة لا يعلم غيرُ الله مقدارها كمّاً ولا كيفاً .

وقد شبّه الله هذا التّعامل معه من عباده بالتجارة الرابحة ، لأنّ نفوسَ الناس تُحبُّ الثروات التي تُجَنّي عن طريق الأرباح التجارية ، إذ يُشعرُ الرّابحُ فيها أنّه

لم يقدّم لمن ربح منه إنتاجاً جديداً قد اجتهد في إيجاده أو استخرجه، ولم يقدّم خدمة تستحق كلّ الربح الذي حصل عليه.

وبعد هذا التشبيه جعل الله اسم المشبّه به عنواناً للمشبّه، أو نقول: جعل اسم الممثل به عنواناً للمثل، وجرى هذا الاستعمال في القرآن حتى كأنه اصطلاح واضح الدلالة، لا يحتاج إلى قرائن.

وجاء التوجيه هنا في هذا النصّ بأسلوب الندب: ﴿هَلْ أَدْلُكُمْ؟﴾ لا بأسلوب التكليف الإلزامي، لأنّه مُوجّه لعموم المؤمنين، لا لخصوص الذين يَشْرُونَ الحياة الدنيا بالآخرة، وهم أهل مرتبة البرّ وأهل مرتبة الإحسان، كما جاء في النصّ السابق من سورة (النساء/ ٤).

وأبان الله عزّ وجلّ أنّ أوّل أرباح هذه التجارة معه، أنّها تُنْجِي المؤمنين من عذاب أليم، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدْلُكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ؟﴾:

﴿هَلْ أَدْلُكُمْ؟﴾: عَرَضَ فِيهِ إِغْرَاءً.

﴿تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: أي: تُخَلِّصُكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ قَدْ تَتَعَرَّضُونَ لَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتُخَلِّصُكُمْ يَوْمَ الدِّينِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تَسْتَدْعِيهِ مَعَاصِيكُمْ.

أما ما تَبَدَّلُونَهُ فِي هَذِهِ التِّجَارَةِ ابْتِغَاءً مَرْضَاةَ اللَّهِ شَرْطاً لِتَحَقُّقِ الْأَرْبَاحِ فَهُوَ:

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: أي: تُجَدِّدُونَ دَوَاماً فِي قُلُوبِكُمْ وَتَصَوُّرَاتِكُمْ حَرَكَةَ

الإيمان بالله ورسوله، مع تجدد الأحداث في حياتكم، وهذا التجديد يتولّد عنه أنّ تذكروا الله ذكراً كثيراً، وأنّ تطيعوا الله ورسوله في جميع الأوامر والنواهي، أداءً لحقوق مرتبة التقوى، التي تستدعي فعل الواجبات وترك المحرّمات.

﴿وَتَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾: أي: وتُتَابِعُونَ أعمال المجاهدة في سبيل الله، ببذل ما تَسْتَطِيعُونَ مِنْ جَهْدٍ، في مغالبة نفوسكم وأهوائكم وشياطين الإنس والجن، ابتغاء مرضاة الله، مع التزام السير في سبيله، الذي هو صراطه المستقيم.

وهذه المجاهدة تكون بالبذل من أموالكم كلِّما دعا داعي البذل في سبيل الله، لنشر الدين، ومقاومة المضلِّين، وإعداد المستطاع من القوة لإرهاب عدوِّ الله وعدوِّكم المَعْرُوفِينَ لكم، وإرهاب آخرين من دونهم لا تَعْلَمُونَهُمْ، الله يَعْلَمُهُمْ.

وتكون بالبذل من أنفسكم في الصَّبْرِ والمصابرة والدعوة إلى الله، وتَحْمِلِ الأذى، ثم بالقتال إذا صار أمراً لازماً لا مندوحة عنه، لقمع المعتدين، وإزاحة الطغاة المضلِّين عن مراكز القوة التي تُمكنُهُمْ من اضطهاد أنصار الحق، ونشر الضلال، والإفساد في الأرض.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾: أي: ذلكمُّ الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم خيرٌ لكم من البخل والجبن والقعود والكسل، في دنياكم وآخرتكم.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أي: إن كنتم تعلمون ما في ذلكم الجهاد من خير عظيم لكم في دنياكم وأخراكم عِلْمُ شُهودٍ أو قريب منه ما قعد عنه قاعد منكم، ولا تباطأ فيه متباطيء، ولا تكاسل متكاسل، ولا بخل أحد منكم ولا جبن. فجواب الشرط فيما ظهر لي محذوف تدلُّ عليه القرائن.

بعد هذا أبان الله بالتفصيل كُليَّاتِ الأرباح التي ينالها المؤمنون إذا مارسوا هذه التجارة الرباحة مع الله، وهي كما يلي إن مارسوها صادقين مخلصين ملتزمين منهاج الله:

١ - ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾:

جواب شرط محذوف مقدَّر ذهنأً، وهو يُفهم من السِّباق، أو مجزوم بجواب

الطلب المفهوم ضمناً من الفعلين الخبريين: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ و﴿تُجَاهِدُونَ﴾ لأنهما بمعنى فلتؤمنوا و لتجاهدوا يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ .

إن مغفرة الذنوب التي لا يسلم منها أحد من بني آدم، مطلبٌ أساسي لكل مؤمن مسلم، حتى ينجو من عقاب الله الأليم، في عاجل حياته وآجلها.

٢ - ﴿وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ :

وهذا ثواب عظيم يكون يوم الدين.

﴿جَنَّاتٍ﴾ : أي : أقسام في جنة الخلد العظمى ، كلُّ قسمٍ منها يصحُّ أن يُسمَّى وَحْدَهُ جَنَّةً .

ولما كانت الجنات لا تستكمل أوصافها المثلى إلا بالأنهار، تكرر في القرآن وصف الجنة التي وُعد المتقون بأنها تجري من تحتها الأنهار.

٣ - ﴿وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ :

أي : ويدخلكم مساكن تسكن فيها نفوسكم بما هي عليه من جودة وحسن وطهارة، وتسكنون فيها إلى أزواجكم من الحور العين الطيبات الطاهرات الزكيات الحسان، وهذه المساكن تكون في جنات عدن، أي : في جنات إقامة دائمة .

وجاء اختيار التعبير بلفظ «مساكن» للإشارة إلى معاني السكون النفسي والقلبي فيها، نظراً إلى ما فيها من أمنٍ كامل، مع تحقيق المطالب من النعيم المقيم مهما امتدت المطامع والآمال والأمانى، ولما فيها من زوجات حسان يسكن إليهن المنعمون فيها.

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ :

أي : جنات إقامة دائمة، يقال لغةً : عَدَنَ يَعْدِنُ بالمكانِ عَدْنًا وَعُدُونًا، إذا أقامَ به إقامة مستقرّة، ونظراً إلى كونها جنات خالدات، وكون أصحابها المنعمين فيها خالدين، كانت جديرة بأن توصف بأنها جنات عدن.

بعد هذا أبان الله عزَّ وجلَّ أنَّ الظَّفَرَ بهذا الرِّيحِ العظيم الذي سبق تفصيلُ بعض عناصره هو الفوز العظيم، فقال تعالى :

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ :

﴿الْفَوْزُ﴾ : يأتي بمعنى النجاة من الشرِّ، وهذا قد تحقَّق بمغفرة الذنوب . ويأتي بمعنى الربح ، وهذا المعنى قد تحقَّق بما يتفضَّل الله به عليهم في جناتِ عَدْنٍ، وهو يُناسب لفظ التجارة التي جاء النَّدْبُ إليها في مقدِّمة النصِّ . ويأتي بمعنى الظَّفَر وهو الحصول على الشيء غنيمة بعد جهاد ومغالبة، وهذا المعنى قد تحقَّق بالحصول على النعيم العظيم في جناتِ عَدْنٍ، بمغالبةِ يَسِيرَةِ للنفس والشیطان . وهو يُناسب الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله . فكان اختيارُ لفظة «الفوز» هنا من أحكم الاختيارات، لما فيها من الدِّلالة على كلِّ هذه المعاني المناسبة لما جاء في النصِّ .

بعد هذا جاء في النصِّ وعدُّ من الله للمؤمنين المجاهدين بتحقيقِ شيءٍ معجل في الدنيا يُحبُّونه، فقال تعالى :

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا : نصرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ :

أي : ولكم أيضاً نعمةٌ أخرى معجَّلةٌ تُحبُّونها، لأنَّكم تحبُّون النِّعمَ العاجلة، هذه النعمة هي نصرٌ من الله لكم على عدوِّكم وَفَتْحٌ قَرِيبٌ يفتح الله لكم به ديارهم، وقد حصل هذا النصرُ والفتحُ القريبُ للمؤمنين المجاهدين في سبيل الله بقيادة الرسول ﷺ .

وأخيراً أذن الله لرسوله بأن يُبشِّرهم بهذا النصر والفتح القريب، فقال تعالى

له :

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

* * *

النص السادس عشر

وقول الله عز وجل في سورة (التوبة / ٩ مصحف / ١١٣ نزول):

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

في هذه الآية تمثيل بديع للتعامل مع الله بعملية البيع والشراء.

ونلاحظ أن الله عز وجل يبين فيها أنه فتح عقد مبيعة مع المؤمنين، أبرم فيه من جانبه أنه اشترى شراءً جازماً أنفسهم وأموالهم، مقابل ثمن يدفعه لهم جزماً هو الجنة.

وبقي أن يُبرم من يشاء من المؤمنين من جانبه عقد المبيعة، بأن يئذل طائعا مختاراً بإرادة حرة من ماله أو نفسه، جهاداً في سبيل الله عز وجل.

أما بذل المال لإعداد وسائل الجهاد، ووسيلة جهادية، فأمره واضح، ويكون بتقديم المال والخروج عن ملكيته، لتحقيق إعلاء كلمة الله، ونشر الإسلام في الأرض، وقمع الكفرة المحاربين للإسلام والمسلمين، وتأليف القلوب على دين الله.

وأما بذل الأنفس فقد جاء بيانه في الآية بأن المؤمنين يُقاتلون في سبيل الله أعداء الله، الأمر الذي ينتج عنه بحسب سنن الله الكونية أن يقتلوا من عدوهم، وأن يقتل عدوهم منهم.

والثمن المقرر في هذه المبيعة هو وعد من الله جازم لا يمكن أن يتخلف، وهذا الوعد جاء بيانه في الكتب الربانية الثلاثة، التوراة والإنجيل والقرآن، ففي

اليهودية والنصرانية دعوة إلى القتال في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ونشر دينه في الأرض، وإقامة الحق والعدل، كما هو موجود في الإسلام.

ولما كان وعد الله محقق الوفاء قال الله عز وجل:

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟﴾:

استفهام جوابه حتماً: لا أحد أوفى بعهده من الله. وإذا تقررَت هذه الحقيقة في قلوب المؤمنين بعد هذا البيان وجه الله عز وجل للمؤمنين الذين يعقدون من جانبهم صفقة هذه المبايعة، بأن يبدلوا فعلاً من أموالهم لدعم القتال في سبيل الله، وبأن يجندوا أنفسهم مقاتلين في سبيل الله، فقال لهم:

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾:

استبشروا بالشيء: أي: فرح به وسر، حتى ظهرت على بشره وجهه أمارات ذلك.

فالمعنى: فافرحوا أيها المؤمنون المبايعون، واستمتعوا بالسُرور الذي ينزل بكم، بسبب النعيم المقيم في الجنة، الذي تنالونه عوضاً عما تبدلونه ببيعكم الذي بايعتم به ربكم، وإشارة إلى ذلك العوض المفرح السار، قال الله عز وجل:

﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾:

أي: وذلك العوض الرفيع المنزلة، هو وحده الفوز العظيم، الذي لا يساويه ولا يفوقه فوز آخر.

﴿الفوز﴾: هو النجاة، والربح، والظفر، وكل هذه المعاني تتحقق في هذه المبايعة مع الله.

* * *

النص السابع عشر وأشباهه

وقول الله عز وجل في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) حثاً على الإنفاق في سبيل الله لدعم قوة الجهاد في سبيله:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافاً كثيرةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٤٥).

وقول الله عز وجل في سورة (الحديد / ٥٧ مصحف / ٩٤ نزول) حثاً على الإنفاق في سبيل الله لدعم قوة الجهاد في سبيله أيضاً:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافاً كثيرةً وَاللَّهُ يَكْرَهُ أَلَّا تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافاً كثيرةً﴾ (١١).

وقوله تعالى فيها:

﴿إِنَّ الْمُضِدِّقِينَ وَالْمُضِدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١٨).

وقوله تعالى في سورة (التغابن / ٦٤ مصحف / ١٠٨ نزول) خطاباً للذين آمنوا:

﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفْ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٧).

في هذه النصوص شبه الله عز وجل من يتدلل من أمواله في سبيل الله وابتغاء مرضاته بمن يُقرض الله مقابل فائدة ربوية عظيمة، تبلغ أضعافاً مضاعفة كثيرة، لأن الله يثيب على ما يتدلل عباده في سبيله وابتغاء مرضاته أضعافاً مضاعفة كثيرة.

فمن يتعامل مع الله بالبذل في سبيله وابتغاء مرضاته كمن يعقد عقد رباً مُتَحَقِّقَ الفائدة البالغة أضعافاً مضاعفة كثيرة بالنسبة إلى رأس المال المبذول.

ومثل هذا العقد مع الناس محرم في دين الله الذي اصطفاه لعباده، وما يُجْنَى

به من فائدة زائدة على رأس المال سُحِت، لما فيه من استغلال لضرورة ذوي الحاجات، ولما فيه من ظلم.

لكنه مع الله الرب الخالق عَمَلُ مبرور، وَعَقْدُ مشكور، والله عزَّ وجلَّ لا يناله شيءٌ مِمَّا يَبْدُلُ عِبَادَهُ فِي سَبِيلِهِ، إِنَّمَا يَنَالُهُ التَّقْوَى، وَالْعَمَلُ الصَّالِح، وَالنِّيَّةُ المبرورة، وهو يكافئ سبحانه عباده ثواباً، وَهُمْ جميعاً مُلْكُهُ، وَكُلُّ ما يملكونه هو مُلْكُهُ سبحانه.

وفي الترغيب بهذا التعامل مع الله الذي يشبه عقد الربا، اسْتِخْدَامُ أسلوب التربية بالتحويل لما يحبه الناس من فوائد ربوية لا يبذلون جهداً في الحصول عليها، بل هم يَدَّخِرُونَ أموالهم بعقد الربا ضامنين السلامة، لتربو بنفسها دون كدٍّ ولا تعب في أموال الناس، وتوجيهه لجهة الله عزَّ وجلَّ المالك لكل شيء، الذي لا تفنى خزائنه.

وفيه أيضاً استخدامُ أسلوب التربية بالتصعيد عن الفوائد الهابطة التي تُؤَخِّذُ من الناس، إلى الفوائد السَّامِيَّة التي يمنحها الله بفضله في العاجلة والآجلة.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا؟﴾:

استفهامٌ يتضمن معنى العرض والحثُّ على أمرٍ مندوبٍ إليه، غير واجب.

القرض: ما يُعْطِيهِ صَاحِبُ المَالِ مَنْ مَالٍ لغيره على أن يَرُدَّهُ إِلَيْهِ، بفائدة أو بغير فائدة.

﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾: المُراد من كونه حسناً هُنَا أن يكون في سبيل الله، وابتغاء مرضاته، وخالياً من رياءٍ وحبِّ شهرة، وليس وسيلة لتحصيل منافع دنيويَّة من الناس.

﴿فِيضَاعَفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾:

المضاعفة جعلُ الشَّيْءِ أو عوضه بِقَدَرٍ مِثْلِيَّهِ، وَضِعْفُ الشَّيْءِ مِثْلُهُ، وَجَمْعُهُ أَضْعَاف.

وبهذا نلاحظ أنَّ هذه العبارة القرآنيَّة اشتملت على المضاعفة أوَّلًا، وبعد ذلك جَعَلَتْ هَذِهِ المضاعفةَ أضعافاً بصيغة الجمع ثانياً، ثُمَّ ارتقت ثالثاً فوصفت الأضعاف بأنَّها كثيرة، كلُّ هذا قبل تقرير الثواب، فالعمل نفسه يضاعف في التسجيل، ثم يأتي الثواب بعد ذلك.

وهذا أسلوبٌ مؤثر في تحريك الطمع بتصاعد وارتقاء، أكثر من تأثير الوعد بالعطاء العظيم من أول الأمر، لا سيما في موضوع القرض الذي اعتاد المرابون أن تتحرَّك مطاعمهم لتنمية فوائده كلما مرَّ الزمن.

﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَسْطُ﴾ :

أي: إِنَّ ما عند الناس من أموال هو من عطاء الله وفضله وتيسيره الأسباب، فهو الذي يقبض عن بعض عبادته من أرزاقهم، وهو الذي يسط لهم الرزق، نظير قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (العنكبوت / ٢٩ مصحف / ٨٥ نزول):

﴿اللَّهُ يَسْطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦٦) ﴿

﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ :

أي: وَسَتَرْكُونَ فِي الدُّنْيَا كُلَّ ما تجمعون منها، فلا ينفعكم لأخرتكم إلا ما بذلتموه في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

وجاء في آية (الحديد) (١١):

﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ :

أي: وَلِمَن يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً أَجْرٌ كَرِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ فَوْقَ المضاعفةِ، والكريم هو النفيس الرفيع في أوصافه، فأضاف هذا النصَّ نفاسةَ الأجر إلى مضاعفته أضعافاً كثيرة.

وجاء في الآية (١٨) منها:

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ :

أي: إِنَّ الْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ، وهم باذلو الصدقة.

الصَّدَقَةُ: هي ما يُبَذَلُ من عطاء على وجه القُرْبَةِ لله عزَّ وجلَّ في وجوه البرِّ والإحسان.

﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾:

جمع الله في هذه العبارة بين المضاعفة والأجر الكريم.
وجاء في آية (التغابن) (١٧) بيان شرطٍ وجَزَاءٍ، فالشرط:
﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

والجزاء:

١ - ﴿يُضَاعَفُهُ لَكُمْ﴾: كما جاء في النصوص السابقة.

٢ - ﴿وَيَغْفِرُ لَكُمْ﴾: وهذا فضل من الله مضافٌ إلى فضل المضاعفة،
والمؤمن شديد الحرص على المغفرة، لأنَّ كلَّ بني آدم خطاء.
وختم الله الآية بقوله:

﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾: أمَّا كونه سبحانه وتعالى شكوراً، فهو يناسب قضية
مضاعفته القرض الحسن، وأمَّا كونه حلماً، فهو يناسب قَوْلُهُ: ﴿وَيَغْفِرُ لَكُمْ﴾.

* * *

أمَّا النصوص التي جاء فيها استعمال الخسران والخسارة ومشتقات هذه المادَّة
فكثيرة تَرَبُّو على الخمسين، وقد وردت في خسارة الأنفس، وخسارة المسعَى في
الحياة الدنيا، ونحو ذلك.

والأصل فيها خسارة التاجر في تجارته.

• • •

خاتمة قسم أمثال القرآن

هذا ما فتح الله به عليّ في موضوع الأمثال القرآنية، بعد أن سبرتها، وتاملت في أصولها، وأقسامها، وأغراضها، وخصائصها. وقد تأنيت في التدبر ولم أستعجل، ونظرت في كتب التفسير وفيما قاله المفسرون ولم أستقل بالرأي. أما علوم البلاغة، وما كتب الكاتبون حول إعجاز القرآن البياني، فقد كانت عندي حصيلة علمٍ أفدتُ منها كثيراً في بحثي هذا من دون أن أتقيد بمصطلحاتها، ولا بحدودها التي وقفت عندها. إلا أنني لم أنظر في كتابات مَنْ كَتَبَ قبلي في الأمثال القرآنية.

وأرجو أن أكون قد وفقت في بحثي هذا لخدمة كتاب الله المجيد، وأضفتُ إلى المكتبة القرآنية الكبيرة بعض ما هو نافع وجديد.

وما أحسنت فيه فهو توفيق من الله، ونفحة من نفحات جوده، وما أخطأت فيه فهو من كبوات فكري، ومن قصوري أو تقصيري.

والحمد لله على ما أعطى، وأسأله أن يغفر زلاتي، ويعفو عن خطيئاتي، وينفع بهذا العمل، ما دام في الناس مُتَنَفِّعٌ بعلم لدينه أو دنياه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



القِسمُ الثَّانِي

صُورٌ مِنْ أَدَبِ الْقُرْآنِ الرَّفِيعِ

مُقَدِّمَةٌ

أَجْمَعَ عُلَمَاءُ الْأَدَبِ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِ الْعَرَبِ، وَكَذَلِكَ أَسَاطِينُ الْبَلَاغَةِ الرَّفِيعَةِ، عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ كِتَابٌ مَصُوغٌ بِصِيَاعَةِ أَدَبِيَّةٍ بَلِيغَةٍ مُعْجَزَةٍ.

وَلَا يَخْفَى عَلَى كُلِّ ذِي فِكْرٍ نَظِيفٍ حَصِيفٍ مُنْصَفٍ، أَنَّ الْمَضَامِينَ وَالْأَهْدَافَ الْفِكْرِيَّةَ مَهْمَا كَانَ شَأْنُهَا قَابِلَةً لِأَنَّ تَقَدَّمَ بِصُورٍ مِنَ الْكَلَامِ، يَرْتَقِي بَعْضُهَا إِلَى أَسْمَى الْكَلَامِ الْأَدَبِيِّ الْبَلِيغِ الْمَعْجَزِ، وَتَتَنَازَلُ الْمَرَاتِبُ وَالدرجاتُ الَّتِي يَعْسُرُ حَصْرُهَا، حَتَّى تَصَلَ إِلَى أَدْنَى الْكَلَامِ الرَّكِيكِ الْهَابِطِ.

لَقَدْ أَطْلَقَ الْحَدَاثِيُّونَ مَقُولَاتِهِمُ التَّدْمِيرِيَّةَ الْمُسْتَوْرَدَةَ مِنْ مَصْنَعِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ الْيَهُودِ وَأَشْيَاعِهِمْ، وَالرَّامِيَةَ إِلَى تَجْرِيدِ كُلِّ النُّصُوصِ الْأَدَبِيَّةِ مِنْ كُلِّ الْمَعْنَانِي الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَقْصِدَهَا أَصْحَابُهَا وَيُشِيرُوا إِلَيْهَا بِدَلَالَاتٍ يُمْكِنُ أَنْ يَتَّفَقَ عَلَى إدْرَاكِهَا مِنَ النَّصِّ اثْنَانِ فَأَكْثَرُ، وَإِلَى جَعْلِ هَذِهِ النُّصُوصِ خَاضِعَةً لِتَفْسِيرَاتٍ بَاطِنِيَّةٍ لَا حَصْرَ لَهَا، تَتَّبِعُ أَهْوَاءَ الْمُتَصَدِّينَ لِهَذِهِ التَّفْسِيرَاتِ وَأَمْزَجَتْهُمْ.

وَكُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ الْغَرَضَ الْأَبْعَدَ لَدَى الْمَخْطُطِينَ الدُّوَلِيِّينَ وَأَشْيَاعِهِمُ التَّلَاعِبُ بِتَأْوِيلِ النُّصُوصِ الرَّبَّانِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ، تَوْسُلًا إِلَى حَرْبِ الدِّينِ، وَإِلْغَائِهِ مِنَ الْوُجُودِ، وَنَشْرِ الْإِلْحَادِ وَالْكَفْرِ وَالرَّدَّةِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، ضِمْنَ الْمَذْهَبِ الْبَاطِنِيِّ الْيَهُودِيِّ.

وَقَامَ الْمُؤْمِنُونَ الْغَيُورُونَ الْمُتَصَدِّقُونَ لِلدِّفَاعِ عَنِ الدِّينِ، وَعَنِ كِتَابِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَعَنِ سَنَةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ، بِقَضْحُونِ أَهْدَافِ هَذِهِ الْحَدَاثَةِ الْمُسْتَوْرَدَةِ الْمَدْمُورَةِ، الَّتِي تَلْبَسُ لِبَاسَ الْإِبْدَاعِ فَقَطْ فِي بَيْئَةٍ، وَتَلْبَسُ أَلْبَسَةَ أُخْرَى إِلْحَادِيَّةً أَوْ شَيْعُوِيَّةً أَوْ تَحَرُّرِيَّةً أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ فِي مَوَاطِنَ وَبَيِّنَاتٍ تَسْمَحُ بِذَلِكَ.

ورأى الحداثيون أنَّ مقولاتهم في البيئات المسلمة التقليدية، قد وجدت لدى الجماهير المؤمنة دروعاً وسدوداً، لا تسمحُ بأنْ تجتاز إلى نفوسهم وقلوبهم مغرباتها، مهما تستروا بشعارات الإبداع والتجديد، لأنَّ في هذه الجماهير طائفةً قويَّة الشكيمة مؤمنةً مسلمةً، تُقاتلُ قتالَ الأبطال الشرفاء، دفاعاً عن دينها وكتاب ربِّها وسنة نبيِّها ﷺ.

كما رأوا أنفسهم عاجزين عن تقديم نماذج أدبيَّة حديثة تخضع لمذهبهم وطريقتهم سالحةٍ لأنْ تتقبَّلها الجماهير بأذواقها الأدبيَّة، وتُفسِّرُها تفسيراتٍ شتى بعدد قُرَّائها، باستثناء بعض نماذجٍ فيها تجديدٌ في الشكل، مع التزامٍ في المضمون بفكرة ذات هدفٍ، فالقُرَّاء أو المستمعون يتفقون على فهمها، على خلاف دعاوى دُعاةِ الحداثة، وتعريفاتهم الأساسيَّة لها.

ولمَّا اصطدم الحداثيون بعقبة رفض الجماهير المؤمنة المسلمة لمقالاتهم، لأنَّ هذه الجماهير أدركت أنَّ كتاب الله وسنة رسوله هما في الحقيقة المستهدفان بالتدمير، من وراء لعبة الحداثة، حاولوا طرحَ مغالطة هي أكثر سُقوطاً وسخفاً من مقولاتهم الحداثيَّة.

فقالوا في مغالطاتهم، إنَّ القرآن كتابٌ تشريع، محدود المعاني بما وردَ من تفسيرٍ ماثور، فنصوصه لا تُعتبر من النصوص الأدبيَّة.

أليس عجيباً أن يطرحوا مثل هذه المغالطة، متوهِّمين أنَّ أحداً من غيرهم يقبلها، وينخدعُ بها؟!..

ألم يتحدَّ القرآن ببلاغته وأدبه الرفيع فصحاء الإنس والجنِّ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، أن يأتوا بمثله، أو بمثل عشر سورٍ منه، ولمَّا بدأت السور الطوال تنزل تحدَّاهم بأن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ مثله، فعجزوا جميعاً، وآثروا الفرار من معركة التحدي؟!..

ألم يكن القرآن المجيد النصَّ الأدبيَّ البليغ الرفيع الذي وضع علماء علم البلاغة (بفنونهِ الثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع) قواعد هذا العلم بهدي أنوار

أدب القرآن وبلاغته العظيمة، فكان الأدبُ القرآني هو الكاشف لهم عن عناصر الجمال الأدبي، وكانت نُجُومُه هي الهادية لهم في مسالك البحث والتنقيب، لاستخراج القواعد والأصول، واكتشاف صور الجمال الأدبي، للاقتداء بها، والاهتداء بهُديها، والقياس عليها، ثم الانطلاق إلى الابتكار والتجديد، في الأساليب والصُّور وطرائق أداء المعاني، كما كان جمالُ الكون الذي هو صَنَعَةُ الخالق عزَّ وجلَّ، هو المعلمُ لصور الجمال، والباعثُ على إدراك دقائقه وعوامله، والقياس عليه، والدافعُ إلى الابتكارات الجمالية في الأشكال والصور المختلفة.

ألم تزرخر كتب الأدب قديماً وحديثاً بروائع الأمثلة الأدبية في معظم فنون الأدب من القرآن المجيد، مصحوبةً بالتحليل والشرح الأدبي؟!.

إنَّ هذه المغالطة الحداثية تَتَضَمَّنُ إعلاناً بضرورة شطبِ كلِّ مثالٍ من القرآن الكريم قدَّمه أدباء القرون قديماً وحديثاً، مستشهدين به على لون من ألوان الأدب، أو صورة من صوره، وإلغاء كلِّ كتابٍ كُتِبَ في إعجاز القرآن الأدبي البلاغي، وفي تحليل بعضٍ ما توصَّل إليه الباحثون فيه من أدبٍ سامٍ رفيع.

ولكن لماذا نُلغي عقول كلِّ هؤلاء العلماء من علماء الأدب والبلاغة عبر التاريخ؟! الجواب الحداثيُّ يقولُ في سرِّه: ينبغي أن نُلغي كلَّ ذلك إكراماً لمشاعر ورغبات أئمة الحداث من يهود وملاحدة، وسائر السائرين إلى الوادي الجهنمي: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

وفي هذا القسم من الكتاب أقدم طائفةً من الأمثلة تشتمل على صُورٍ من أدب القرآن، مقترنة بشيءٍ من التحليل الأدبي، على مقدار قُدْراتي الإدراكية، لا على المقدار السامي لهذه الأمثلة البليغة ذات الأدب الرفيع، الذي تقف على سفوحه أفهامُ المحلِّلين والشارحين، لتلمَّح مدارِكُهم بعض ما اشتمل عليه من دلالات، وإشارات، ولوازم فكرية ذات سلاسل مترامية الأطراف.

وفيما يلي الصُّورُ الأدبية المختارة المشروحة، وبالله التوفيق:



الصُّورَةُ الْأُولَى

في سورة (الملك / ٦٧ مصحف / ٧٧ نزول) يقدّم القرآن المجيد أدلةً عقلية، وأدلة من الظّاهرات الكونيّة المشهودّة، وهذه الأدلة ذات دلالات برهانيّة وإقناعيّة على جملة من صفات الرّب الخالق عزّ وجلّ، ويُحاصِرُ نفوسَ المكذّبين بالرّغَب والرّهب من مختلفِ جوانبها، حتّى لا يُبقِيَ لِذِي فِكْرِ سَلِيم، ولُبِّ حَصِيفٍ واعٍ مَهْرَباً من هذا الحصار الفكري والنفسيّ.

عند هذا الموقف نلاحظُ أنّ البيان الأدبيّ الرّفيّع القرآنيّ يتوجّه للتّنبيه على أنّ مَنْ لم يُؤثّر فيه هذا الحصارُ الفكريّ المقنع لأرباب العقول وأولي الألباب، ولا هذا الحصار النفسيّ المحرّك لمحاوَر الرّغَب والرّهب في النّفسِ الإنسانيّة، فهو كالِدَوَابِّ التي تَمْشِي على أربع، أو كالأنعام، وعليه أنّ لا يَضَعُ نفسه في نَوْعِ البَشَر الذين فَضَّلهم الله، فخلقهم في أحسنِ تقويم، وجعلَ لهم قَامَاتٍ مُتَنَصِّبَاتٍ، ورؤوساً مرتفعةً، لأنّ مكانَهُ إذْ هذِهِ حالته أنّ يَمْشِي مع اللّواتي تَمْشِي على أربع، خافِضُ الرّأس مُكَبِّاً على وجهه، ضِمْنَ قطعانِ الأنعام والدّوابِّ التي تَمْشِي على أربع.

لِكنّ النّصّ القرآنيّ الأدبيّ الرّفيّع لم يَقُلْ عند هذا الموقف: فَمَنْ لَمْ يُؤثّر فيه هذا الحصار الإقناعيّ الفكريّ والنفسيّ فهو من الحمير أو غيرها من الدّواب، أو فهو من البقر أو غيرها من الأنعام.

بل طوى هذا الحكم التشبيهيّ، وقَدَّمَ ما يُشِيرُ إليه إشارةً بارعةً يُدْرِكُهَا الذّكيُّ باللمح، على طَريقَةٍ تَسْأُولُ طَرَحَهُ لانتزاع الاعترافِ بِنَفْيِ التّساوي بين الإنسان

المفكر الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِي حَيَاتِهِ بِمَقْتَضَىٰ فَهْمِهِ السَّلِيمِ لِلْأُمُورِ، وَبَيْنَ الدُّوَابِّ الَّتِي تَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ، وَالْأَنْعَامِ الَّتِي تَتَدَفَّعُ فِي قُطْعَانِهَا عَلَىٰ غَرَائِزِهَا وَشَهَوَاتِهَا.

وقد جاء في هذا التساؤل استخدام إحدى الظواهر التي هي من خصائص الدُّوَابِّ والأنعام، وهي ظاهرة مَشْيِهَا عَلَىٰ أَرْبَعٍ وَأَعْنَاقُهَا وَرُؤُوسُهَا مُتَطَامِنَةٌ، فَهِيَ مُكَبَّةٌ عَلَىٰ وُجُوهِهَا.

ولم يُذَكَّرْ فِي التَّسْأُولِ لَفْظُ الدُّوَابِّ أَوْ النَّعَمِ، وَلَا مَا يُقَابِلُهُ، مِثْلَ لَفْظِ النَّاسِ أَوِ الْبَشَرِ، بَلْ جَاءَ فِيهِ لَقْطَةٌ وَصْفِيَّةٌ لِحَاثِ جُزْئِيٍّ مِنَ الصُّورَةِ الدَّالَّةِ عَلَى النَّوعِ غَيْرِ الْإِنْسَانِيِّ، وَلَقْطَةٌ وَصْفِيَّةٌ أُخْرَى لِحَاثِ جُزْئِيٍّ مِنَ الصُّورَةِ الْمُقَابِلَةِ الدَّالَّةِ عَلَى النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ.

وذلك لِأَنَّ لَقْطَةً تَصْوِيرِيَّةً مَا أَثَرَتْ لَقْطَةً هِيَ مِنْ خَوَاصِّ نَوْعٍ مِنَ الْأَنْوَاعِ كَافِيَةٌ لِأَن تَدُلَّ عَلَيْهِ فِي الْأَسَالِيبِ الْأَدْبِيَّةِ الرَّاقِيَةِ الْبَارِعَةِ الْمَهْدَبَةِ.

فقال الله عز وجل في طرح التساؤل لانتزاع الاعتراف الدال على المقصود:

﴿أَفَنَ يَمْشِي مُكَبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٦٢﴾:

﴿مُكَبًّا﴾: يُقَالُ لُغَةً: أَكَبَّ الرَّجُلُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يُكَبُّ إِكْبَابًا إِذَا نَكَسَ رَأْسَهُ. وَيُقَالُ: أَكَبَّ الرَّجُلُ عَلَىٰ وَجْهِهِ إِذَا سَقَطَ عَلَىٰ وَجْهِهِ.

وقد ذكر المفسرون في تصوير حال من يمشي مُكَبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ وَجُوهًا، مِنْهَا مَا يَلِي:

(أ) أَنَّهُ الَّذِي يَمْشِي وَيَتَعَثَّرُ فِي مَشْيِهِ فَيَخِرُّ عَلَىٰ وَجْهِهِ مُكَبًّا وَهَكَذَا دَوَالِيكَ.

(ب) أَنَّهُ الْمَتَعَسِّفُ الَّذِي يَمْشِي عَلَىٰ غَيْرِ هُدًى فَلَا يَعْلَمُ لَهُ طَرِيقًا.

(ج) أَنَّهُ الَّذِي انْتَكَسَ فَصَارَ يَمْشِي عَلَىٰ وَجْهِهِ، بَدَلًا أَنْ يَمْشِيَ عَلَىٰ قَدَمَيْهِ، وَقَامَتُهُ مُتَنْصِبَةً سَوِيَّةً، يَرَىٰ طَرِيقَهُ.

(د) أنه الذي يمشي مُنْكَسّاً رَأْسَهُ كَمَا يَمْشِي الحمار، لا كما يمشي الإنسان السوي.

ويبدولي من التقابل المتباين بين من يمشي مكبّاً على وجهه ومن يمشي سوياً على صراط مستقيم أنه لا بُدَّ من التخالف في الأمور التالية:

١ - الثاني يمشي على صراطٍ مستقيم، بخلاف الأول، فهو تائه ضالٌّ لا يعرف لنفسه طريقاً مستقيمةً واضحة.

٢ - الثاني يمشي سوياً عالماً طريقه مُشاهداً له، بخلاف الأول، فهو يمشي غير سويّ، وهو مُكبٌّ على وجهه لا يرى طريقه.

٣ - الثاني يتابع سيره دون أن يتعرض إلى عثرات، لأنه يمشي سوياً مشاهداً طريقه، وعلى صراطٍ مستقيم غير مُتعرِّج من ذات اليمين أو ذات الشمال، وليس في سطحه ارتفاعات وانخفاضات وحُفَرٌ وَعَقَبَاتٌ وَمَسَاقِط. بخلاف الأول، فهو يتابع سيره في متاهاته فيتعرض إلى عثرات كثيرات يَنْكَبُ فيها على وجهه، لأنه يمشي غير سوي، ولا يُشاهدُ طريقه، ومتاهاته لا استقامة فيها، بل هي متعرّجة وفيها ارتفاعات وانخفاضات وحُفَرٌ وَعَقَبَاتٌ وَمَسَاقِط وَمَزَالِق.

فأيّ المتقابلين أهدى؟

سؤال لا يحتاج جواباً لبدايته، وكذلك فعل القرآن.

ولقد ضرب الله في هذا مثلاً للكافر الذي يسير في حياته على غير هدى، فهو كالمكبّ على وجهه، ومثلاً للمؤمن المتقي الذي يسير في حياته على صراط الله المستقيم، فهو كالذي يمشي سوياً على طريق مستقيمة.

* * *

تحليل المثل:

١ - اشتمل النص على مثلين لفريقين مُتَقَابِلَيْنِ كِلَاهُمَا يمشي في الحياة إلاّ

أنهما عَلَى وَصْفَيْنِ مُتَبَايِنِينَ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَيَمْشِي مَشْيًا سَوِيًّا عَلَى هَدًى وَهُوَ الْمُؤْمِنُ
التَّقِي، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيَمْشِي عَلَى غَيْرِ هَدًى مَشْيًا غَيْرَ سَوِيٍّ، وَهُوَ الْكَافِرُ الْعَاصِي.
فهو من قبيل تَمَثُّلِ أَمْرٍ مَعْنَوِيٍّ بِأَمْرٍ يُدْرَكُ بِالْحَسِّ الظَّاهِرِ:

٢ - إِذَا حَلَّلْنَا الْمَثْلَ أَمَكْنَا أَنْ نَجْعَلَهُ مِنْ قَبِيلِ التَّمَثُّلِ الْمَرْكَبِ، وَإِذَا تَتَبَعْنَا
العناصر أَمَكْنَا أَنْ نَعْتَبِرَهُ مِنْ قَبِيلِ العناصر المتلاقية التي تُقَابِلُ أَمْثَالَهَا فِي الْمَثَلِ
له.

فإيمان المؤمن يشبه حالة السوي، الذي لم يُفْسِدْ فطرته بَانكِبَابٍ وَلَا
انْتِكَاسٍ. وعمله الصالح في الحياة، يُشْبِهُ حالة السَّوِيِّ الماشي على صراط
مستقيم.

وسعادته وهدايته إِلَى نَجَاتِهِ وَفَلَاحِهِ، تُشْبِهَانِ حالةَ الماشي على الصراط
المستقيم، وعاقبة مسعاه.

وكُفْرُ الْكَافِرِ، يُشْبِهُ حالةَ الْمَكِيبِ عَلَى وَجْهِهِ الَّذِي لَا يَرَى طَرِيقَهُ، فَهُوَ
كَالْأَعْمَى، إِنَّهُ بِعَمَلٍ مِنْهُ قَدْ يَحْجُبُ عَنْ نَفْسِهِ أَبْعَادَ مَسَالِكِهِ، لِأَنَّهُ مَكْبٌ عَلَى وَجْهِهِ
بِإِرَادَةٍ مِنْهُ.

وَعَمَلُ الْكَافِرِ فِي الْحَيَاةِ، يُشْبِهُ حالةَ الْمَكِيبِ عَلَى وَجْهِهِ الَّذِي يَمْشِي فِي
مَتَاهَاتِهِ عَلَى غَيْرِ هَدًى.

وتعاسته وضلالته، تُشْبِهَانِ حالةَ الَّذِي يَمْشِي فِي مَتَاهَاتِهِ ضَالًّا، فَيَتَعَثَّرُ كُلَّمَا
مَشَى، وَيَتَعَرَّضُ لِلْعَثَرَاتِ وَالْعَقَبَاتِ وَالْمَزَالِقِ وَالْحُفَرِ، فَهُوَ كَادِحٌ مَكْدُودٌ، كُلَّمَا انْتَهَى
مِنْ وَرْطَةٍ وَقَعَ فِي وَرْطَةٍ أُخْرَى، وَيَظَلُّ يَتَنَقَّلُ مِنْ مَتَاهَةٍ إِلَى مَتَاهَةٍ، وَمِنْ ضَلَالَةٍ إِلَى
أُخْرَى.

٣ - الصُّورَةُ التَّمَثِيلِيَّةُ فِي الْمَثَلَيْنِ مُنْتَزَعَةٌ مِنَ الْوَاقِعِ، مَعَ بَعْضِ فَقَرَاتٍ قَدْ
تَكُونُ مُنْتَزَعَةً مِنَ الْخَيَالِ، إِذْ قَدْ لَا نَجِدُ سَائِرًا فِي مَتَاهَةٍ مَكْبًا عَلَى وَجْهِهِ، إِذَا فَسَّرْنَا
الْمَكِيبَ عَلَى وَجْهِهِ بِالْمَتَكْسِ الَّذِي يَمْشِي عَلَى وَجْهِهِ بَدَلِ أَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ.

٤ - يَبْدُو أَنَّ الغرضَ من المثلِ تقريبُ صورةِ الممثلِ له، وتجسيدها، مع غرضِ التنفيرِ من الكُفْرِ وضلالَتِهِ، والترغيبِ بالإيمانِ وهدايته، ومع الإقناعِ بِلَقَبِ النظرِ إلى الحقيقةِ عن طريقِ المثلِ.

٥ - في المثلِ دَقَّةُ التَّصْوِيرِ مَعَ إِبْرَازِ العُنَاصِرِ المَهْمَةِ مِنَ الصُّورَةِ التَّمثِيلِيَّةِ. وفيه التصويرُ المتحرِّكُ. وفيه صِدْقُ المِثَالَةِ بينه وبين الممثلِ له. وفيه حَذْفُ ما يمكن استكمالُه من دُونِ عَناءٍ، لأنَّ اللُّوازمَ تَسْتَدْعِيهِ.

٦ - يلاحظُ في هذا المثلِ التَّنَوُّعُ، فقد جاءتِ المفاجأةُ فيه على طريقة الاستفهامِ الذي لَيْسَ له عند العقلاء إلا جواب واحد، ولم يَأْتِ في النص ما يدلُّ على أَنَّهُ مَثَلٌ، بل نُزِلَ الممثلُ به منزلةَ الممثلِ له تماماً، فكانه هو.

* * *

الشرح الأدبي:

١ - إن عبارة: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾ تدلُّ بِلَقْطَتِهَا التَّصْوِيرِيَّةِ عَلَى الدَّوَابِّ، أَوْ عَلَى النَّعَمِ، لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَمْشِي مُكِبَّةً عَلَى وَجْهِهَا، أَي: تَمْشِي وَوَجْهَهَا مُكِبَّةً غَيْرُ مُرْتَفَعَةٍ وَصُورَةُ الْوَجْهِ الْمُكِبِّ فِي اتِّجَاهِ الْأَرْضِ لِمَاشٍ عَلَيْهَا تَسْتَدْعِي فِي الذِّهْنِ تَلَقُّائِيًّا أَنَّ وِراءَهَا جِسْمَ حِمَارٍ أَوْ بَعْلِ أَوْ ثَوْرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الدَّوَابِّ وَالنَّعَمِ الَّتِي لَا تَفْهَمُ وَلَا تَعِي دَلَالَاتِ النُّصُوصِ الْكَلَامِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ، وَلَا تَقْتَنِعُ بِالْبَيِّنَاتِ الْخَاصَّةِ بِنَوْعِ الْإِنْسَانِ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ.

واستخدام كلمة «مَنْ» الخاصة بالعقلاء، يُشْعِرُ بَأَنَّ المقصود بالوصف إنسان مَسَخَ نَفْسَهُ بِتَوَلِّيهِ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَبَيِّنَاتِهِ، وَعَدِمَ اسْتِجَابَتَهُ لَوْسَائِلِ مُحَاصَرَتِهِ الْفِكْرِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ، فَجَعَلَهَا بِمِثَابَةِ وَاحِدٍ مِنْ قِطْعَانِ الدَّوَابِّ أَوْ النَّعَمِ.

٢ - وعبارة: ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ تدلُّ بِلَقْطَتِهَا التَّصْوِيرِيَّةِ عَلَى إِنْسَانٍ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَتَدُلُّ ضَمْنًا عَلَى خِصَائِصِهِ الْفِكْرِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ.

٣ - وعبارة: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تدلُّ عَلَى المقصودِ مِنْ طرح التساؤلِ الهادِفِ إِلَى نَفْيِ التَّساوِي بَيْنَ النُّوعَيْنِ.

فنفى التَّساوِي لَيْسَ المقصودُ مِنْهُ مَجَرَّدُ التَّبَايُنِ فِي الصُّورَةِ الْخَلْقِيَّةِ بَيْنَ مُكَبٍّ عَلَى وَجْهِهِ وَمَاشٍ نَاصِبٍ الْقَامَةِ سَوِيٍّ. وَلَكِنْ بَيْنَ مَاشٍ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يُوصِلُهُ إِلَى الْغَايَةِ السَّعِيدَةِ الْمُنْشَوْدَةِ بِمُوجِّهِ مِنْ عَقْلِهِ وَإِنْسَانِيَّتِهِ، وَمَاشٍ عَلَى غَيْرِ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَهُوَ يَتَخَبَّطُ فِي الْمَتَاهَاتِ، وَيَضِلُّ فِي السُّبُلِ، وَلَا يَصِلُ إِلَى غَايَتِهِ السَّعِيدَةِ الْمُنْشَوْدَةِ.

وَكَتَفَى النَّصُّ بِذِكْرِ الْمَشْيِ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ بِجَانِبِ نَاصِبِ الْقَامَةِ السَّوِيٍّ عَنْ ذِكْرِ مُقَابِلِهِ، إِذِ الصُّورَةُ فِي الْمُقَابِلِ تَدُلُّ عَلَى ضِدِّهَا فِي الْمُقَابِلِ الْآخَرَ، لِأَنَّ الطَّرْحَ قَدْ بَدَأَ بِتَسْأُولٍ يَعْضُضُ فِي مَضْمُونِهِ نَفْيَ التَّساوِي بَيْنَ مُتَبَايِنَيْنِ. وَقَدْ فَهَمْنَا بِالذِّكَاةِ ضِمْنَ أَسْلُوبِ التَّقَابُلِ بَيْنَ الصُّورِ الْمُتَضَادَّةِ أَنَّ الْكَلَامَ عَلَى تَقْدِيرٍ:

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكَبًّا عَلَى وَجْهِهِ كَالدُّوَابِّ أَوْ النَّعَمِ يَتَخَبَّطُ فِي السُّبُلِ عَلَى غَيْرِ هُدًى، أَهْدَى أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا نَاصِبَ الْقَامَةِ مَرْفُوعِ الرَّأْسِ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يُوْصِلُهُ إِلَى سَعَادَتِهِ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِ وَأَقْوَمِهِ.

وَكَتَفَى النَّصُّ أَيْضاً بِدَلَالَةِ عِبَارَةِ: ﴿مُكَبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾ فِي النَّوعِ الْأَوَّلِ، عَنْ ذِكْرِ عِبَارَةِ: «نَاصِبَ الْقَامَةِ مَرْفُوعِ الرَّأْسِ» فِي النَّوعِ الثَّانِي، لِأَنَّ التَّقَابُلَ بَيْنَ النَّوعَيْنِ هُوَ تَقَابُلٌ تَضَادٌّ فِي الصِّفَاتِ.

وَكَتَفَى النَّصُّ أَيْضاً بِدَلَالَةِ عِبَارَةِ: ﴿سَوِيًّا﴾ فِي النَّوعِ الثَّانِي، عَنْ ذِكْرِ ضِدِّهَا فِي النَّوعِ الْأَوَّلِ.

فَإِذَا أَرَدْنَا إِبْرَازَ الْمَطْوِيَّاتِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا النَّصُّ بِإِشَارَاتِهِ، وَبِلَوَازِمِهِ الْفِكْرِيَّةِ، وَبِمَقْتَضَى التَّقَابُلِ بَيْنَ النَّوعَيْنِ فِي صِفَاتِهِمَا الْمُتَضَادَّةِ، وَمَا لَا بُدَّ أَنْ نَفْهَمَهُ بِمَقْتَضَى التَّقَابُلِ وَالتَّكَامُلِ، وَجَدْنَا أَنْفُسَنَا أَمَامَ الْبَيَانِ التَّحْلِيلِيِّ التَّالِي:

أَفَمَنْ مَسَخَ نَفْسَهُ واحداً من الدُّوَابِ أو الأنعام، فصار كالذي يمشي على أربع مُكَبَّاً على وجهه، يَتَخَبَّطُ في السُّبُلِ، والمتاهات على غير هُدًى، ضالاً عن الصراط المستقيم، بسبب تولّيه عن آيات الله وبياناته، ورفضه لوسائل إقناعه الفكري والنفسي التي قدّمها له القرآن المجيد، أكثر هدايةً مُوصلةً إلى ما يَتَمَنَّى من وجوده في الحياة، أَمَّنْ أَبْقَى لِدَاثِهِ إِنْسَانِيَّتَهُ العاقلة الراشدة، فهو يَمْشِي ناصِبَ القامة مرفوع الرأس على صراطٍ مستقيم، يُوصِلُهُ إلى غاية ما يَتَمَنَّى من وجوده في الحياة.

إنَّ الجواب الحتمي لهذا التساؤل الذي يجيب به أولوا الألباب: إنَّ النوع الثاني هو الأهدى لا محالة، أمّا النوع الأول فليس له من الهداية شيء، بل هو ضالٌّ تائه غبيٌّ كالأنعام أو هو أضلُّ سبيلاً.

وجاءت عبارة: ﴿أهدى﴾: التي قد تدلُّ على المشاركة في أصل الهداية انسجاماً مع حال المشبه به، إذ الدُّوَابُّ والأنعامُ لَهَا هداية ما بغرائزها.

أمّا الإنسان الذي مَسَخَ نَفْسَهُ برفضه آيات الله البينات، فهو أضلُّ سبيلاً من الأنعام، لأنّه يَتَّبِعْ هَوَاهُ، وَتَسْتَحْذِرْ عليه الشياطين، فليس له هدايةً مطلقاً، وقد تُرِكَ فَهْمُ هذا لِدَكَاءِ المتدبّر لمرامي النص.

بعد هذا أقول: أفليس من النصوص الأدبية الرفيعة المعجزة قولُ الله عزَّ وجلَّ بعد تقديم وسائل الإقناع الفكري والنفسي المحاصرة:

﴿أَفَن يَمْشِي مُكَبَّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٢٢﴾!؟

الذي دلَّ على هذه المعاني الثِّرة التي استطعنا على قدرنا أن نستنبطها

منه؟؟!!

إذا لم يكن هذا النصّ القرآني وأمثاله نصّاً أدبياً فأَيُّ كلام بعد هذا يُمكنُ أن نضع على رأسه تاج الأدب.

إنَّ أئمة الحداثيين لا يعترفون بأدب ما لم يكن على رأسه قلنسوة حاخامٍ سوداء، أو قبعة غربي زرقاء، أو إشارة شيوعي حمراء.

• • •

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ

في سورة (المرسلات / ٧٧ مصحف / ٣٣ نزول) جاء بيان أن الله عز وجل قد جعل للمكذبين بالدين، ورسالات رسل رب العالمين، مكاناً سحيقاً لتعذيبهم في جهنم، هو وادي «ويل».

وبفنية رائعة، جاء تذييل كل مفصل من مفاصل هذه السورة بجملته:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

واقترضى البيان البلاغي الأدبي الرفيع أن يصف الله عز وجل للمكذبين بالدين موقعهم في قاع هذا الوادي السحيق، بعد حسابهم، وقرار معاقبتهم، يوم الحساب والجزاء والدينونة.

ففاجأهم بالانتقال بهم من الخطاب وهم في واقع حياة الامتحان والابتلاء، إلى خطابهم وكأنهم في موقفهم يوم الدين بعد الحساب وقرار الجزاء. وهو مشهد مقتطع بفنية بارعة عجيبة، مما سيكون حتماً في يوم الجزاء، فيخاطبهم الله عز وجل بقوله:

﴿أَنْظِلُّوْا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُوْنَ ﴿٢١﴾ أَنْظِلُّوْا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٢٠﴾ لَا ظِلِّيلٍ وَلَا يَفْنَىٰ مِنْ أَلْهَبٍ ﴿٢١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٢٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿جَمَالَةٌ﴾: اسم جمع طائفة من الجمال، وهذه قراءة حمزة والكسائي وحفص وخلف.

وقرأ جمهور القراء «جَمَالَاتٌ» بالجمع، وهو في المعنى جمع جمع.

وقرأ «رويس» عن يعقوب «جُمالات» جمع «جُمالة» وهو الحبلُ العظيم الذي تُشدُّ به السفينة، ويسمى «الْقَلَس».

فلننظر في تحليل هذا النص، لاكتشاف الأسلوب الأدبي الرفيع الذي جاء فيه، ولاستجلاء التصوير الرائع الذي لامس بعض الظواهر من الصورة، وترك للفكر اللامح استكمال سائرهما، بإبداعٍ عجيبٍ رائع.

يقول النص لهم في مضمونه وكأنهم في نهاية موقف الحساب وفصل القضاء:

انطلقوا إلى نُزْلِكُمْ في دارِ العذابِ في قاعِ وادي «ويل».

لكن النص لم يستعمل هذا الأسلوب التلقائي الساذج، وإنما قال لهم مُذكرًا بعبارات الوعيد يوم كانوا في حياة الابتلاء:

﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

فالنار، ووادي «ويل» فيها، ومعاقبتهم بالعذاب يوم الدين، هو ما كانوا به يُكذِّبون.

وجاء في التعبير فعل (انْطَلِقُوا) دون اذهبوا أو انصرفوا أو نحو ذلك، ليدل هذا الفعل على أن المكذبين يكلّفون يوم الدين، بعد الحساب وفصل القضاء، أن يُسرِعوا في الذهاب إلى دار العذاب، وإلى نُزلهم فيها، إذ الانطلاق في اللغة هو سُرْعَةُ الذهاب.

وفي هذا التكليف حَزْمٌ لا تساهل معه ولا تهاون، فَقَدْ أُبْرِمَ الأمر، وتمّ بشأنهم الحُكْم، فليُسْرِعوا إلى منازلهم، ومُسْتَقَرَّاتِهِمْ في دارِ العذاب، جهنّم وبَيْتِسَ القَرار.

وتصويراً بارعاً لموقعهم في قاعِ وادي «ويل» موطنِ تعذيبهم، رَسَمَتِ الكلمةُ الفنيّةُ الأدبيّةُ الموقع، بيّثَ لَقَطَاتِ تصويريّةٍ يستطيعُ الذكاءُ اللامح من خلالها تحديدَ معالِمِهِ، بِمَلَأِ الفراغاتِ المتركّةِ بَيْنَ هَذِهِ اللَّقَطَاتِ، وهذا من أروعِ التصويرِ الفنيِّ الأدبيِّ.

فجاء التعبير التالي من فقرات هذا التصوير الفني الرائع :
﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٥﴾ لَا ظِلِّيلٌ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣٦﴾﴾ .
ففي هذا التعبير تحديدٌ وصفيٌ لِلْمَكَانِ الَّذِي يُؤْمَرُونَ بِالْإِسْرَاعِ إِلَيْهِ .
﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ﴾ :

أي : انطلقوا إلى مكانٍ ظلٌّ ، وهذا التعبير يدلُّ على أَنَّهُ مكانٌ مظلمٌ ظُلْمَةً
وسَطَى ، إِذْ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شُعَاعٌ إِشْرَاقِي ، كَشُعَاعِ الشَّمْسِ فِي الضُّحَى الَّذِي هُوَ ضِدُّ
الظِّلِّ . فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ ضَوْءُ لَهَبِ النَّارِ ، بسبب حاجبٍ يحجبُ عَنْهُ ضَوْءُ
اللَّهَبِ .

لَكِنَّ الَّذِي يَحْجُبُ الضَّوْءَ عَنْهُ لَا يَحْجُبُ الْحَرَارَةَ ، بدليل :
﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ .

فما هو هذا الحاجب ؟

إِنَّ الذَّهْنَ لَيْسَتْ دَعِيَّةٌ دُونَ كُفَّةٍ ، إِذْ يُدْرِكُ أَنَّهُ حَاجِبٌ دُخَانِ لَهَبِ النَّارِ الموقدة ،
فهو يُعْطِي ظِلًّا ، لَا ظِلْمَةً دَامِسَةً فَأَهْلُ هَذَا المَوْقِعِ يُشَاهِدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيُرَوْنَ
مَسَالَكَهُمْ فِيهِ ، لَكِنَّ الظِّلَّ لَا يَحْجُبُ عَنْهُمْ حَرَارَةَ اللَّهَبِ .

أَلَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي وصفه :

﴿لَا ظِلِّيلٌ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ .

فهو غير ظليلٍ : أي : غير دائم ، وغير ساتر للحرارة ، ومن طبيعة الظِّلِّ أَنَّهُ
لَا يَحْجُبُ الرُّوْيَةَ .

وقد جاء في كُتُبِ اللُّغَةِ : مكانٌ ظليلٌ ، أي : ذو ظلٍّ ، وقيل : الدائم الظِّلُّ .
وصيغة «ظليل» على وزن «فَعِيل» هي من صيغ المبالغة ، ونفي كونه ظليلاً يدلُّ
على نفي ما تقع عليه المبالغة ، وهي تقع على الدوام ، وتقعُ على ما هو المقصودُ
من الظِّلِّ ، وهو سِتْرُ الحرارة وحجبُها .

ويدلُّ على عدم الدوام لهذا الظلُّ أنَّ المقيمين فيه يَرَوْنَ شَرَّ نارِ جَهَنَّمَ ،
إذْ جَاءَ بعد ذلك وصفُ النارِ حَوْلَ موقعِ وادي «ويل» بقوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّمَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَاصِرِ ﴿٣٢﴾ كَانَتْ جَحَلَتْ صُفْرًا ﴿٣٣﴾ ۝ ﴾ .

فهذا الشرُّ العظيم الذي يَرَاهُ أَهْلُ وادي «ويل» يُعْطِي ضياءً يَشُقُّ الظلُّ
فيجعلُهُ ظلاً غير دائم .

ويدلُّ أيضاً عن طريق اللزوم الذهني ، على أنَّ لفحات لَهَبِ النارِ تأتيهم
بالوَهجِ اللَّاهِبِ السَّمُومِ حيناً بعد حين ، في أوقات أكثرها ظِلٌّ .

وجاء تأكيد أنَّ هَذَا الظِّلُّ هو بسبب الحاجب من دُخانِ نارِ جَهَنَّمَ في قول الله
عزَّ وجلَّ في سورة (الواقعة / ٥٦ مصحف / ٤٦ نزول) :

﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ۝ ﴾ .

﴿اليحْمُومُ﴾ : هو الدُّخان . والأسودُّ من كُلِّ شيءٍ ، فهو دخان أسود .

بهذا تَمَّتِ اللَّقْطَةُ السَّريعةُ الأولى من تصوير موقع المكذبين ، في قاعِ وادي
«ويل» .

وهنا يَنْتَقِلُ بنا الدَّهْنُ إلى موقع المنعمين في الجنة ، فقد جاء في القرآن أنَّهم
يكونون في ظلٍّ ظليلٍ دائمٍ ممدود .

فقال تعالى في سورة (المرسلات / ٧٧) :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ ۝ ﴾ .

وقال في سورة (النساء / ٤) :

﴿ هُمْ فِيهَا أزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدَّخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۝ ﴾ .

وقال في سورة (الرعد / ١٣) في وصف الجنة :

﴿ أَكُلُوا دَائِمًا وَظِلُّهَا ﴿٢٥﴾ ۝ ﴾ .

وقال في سورة (يس/ ٣٦):

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ ﴿٥٦﴾﴾

وقال في سورة (الإنسان/ ٧٦):

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَطْوَافُهَا نَذِيلًا ﴿١٤﴾﴾

وقال في سورة (الواقعة/ ٥٦):

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾

بعد هذه اللقطة السريعة نعود إلى النص الذي ندرسه دراسة أدبيةً بلاغيةً من سورة (المرسلات).

أما اللقطة الثانية من الصورة التي وصف الله بها موقع المكذبين في قاع وادي «ويل» فهي وصف مكان الظل الذي يكلّفون الانطلاق إليه بأنه ذو ثلاث شعب.

وباستطاعة الذهن اللماح، مستدعيًا الأشباه والنظائر في المشاهدات الحسية، أن يدرك أن مكان هذا الظل غير الظليل في جهنم، يقع في أسفل وادٍ من وديانها، وفي سماء هذا الموقع يموّج الدخان الأسود الذي يلقي ظله عليه.

لكن كيف يكون هذا الموقع ذا ثلاث شعب؟

إننا نستطيع بآناة وتأمل أن ندرك أن الوديان لا بُدَّ أن تقع بين جبال، وأن المداخل أو المخارج من هذه الوديان هي شعب، أو شعاب، في المضايق التي تتقارب فيها الجبال.

﴿شعب﴾: جمع شعبة، وهي صدع في الجبل بمثابة طريق، أو مضيق بين جبلين.

فإذا كَانَ مَكَانَ الْمَكْذِبِينَ فِي قَعْرِ وَادِي «وَيْل» الْمَجْلَلِ بِالظَّلِّ الْمَوْصُوفِ
ذَا ثَلَاثِ شُعَبٍ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَكَانًا وَاسِعًا وَسَطَ وَادٍ تُحِيطُ بِهِ ثَلَاثَةُ جِبَالٍ مِنْ
جِهَاتٍ ثَلَاثٍ.

وَمِنَ الطَّبْعِيِّ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ لِهَذَا الْوَادِي مَخَارِجٌ فِي أَطْرَافِهِ، هِيَ شُعَبٌ
ثَلَاثٌ.

إِذَنْ: لَقَدْ تَمَّ بِهَذَا رَسْمُ صُورَةِ الْمَوْقِعِ فِي أَسْفَلِ هَذَا الْوَادِي، الَّذِي يُطْلَقُ
عَلَيْهِ اسْمُ «وَيْل».

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ حَبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ وَالْحَاكِمُ
فِي مُسْتَدْرَكِهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَيْلٌ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَهْوِي فِيهِ
الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ».

لَمْ يَرُقْ سَنَدُهُ إِلَى دَرَجَةِ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ إِلَّا أَنَّهُ يَلْتَقِي مَعَ دَلَالَةِ الْبَيَانِ
الْقُرْآنِيِّ فِي هَذَا النَّصِّ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَكُونُ وَادِيًّا إِلَّا أَنْ يَكُونَ بَيْنَ جِبَالٍ، وَتَحْدِيدُ الشُّعَبِ الثَّلَاثِ
لِهَذَا الْوَادِي يَدُلُّ عَنْ طَرِيقِ اللَّزُومِ الذَّهْنِيِّ عَلَى أَنَّهُ بَيْنَ ثَلَاثَةِ جِبَالٍ غَيْرِ مُتَلَاصِقَةٍ،
وَهَذِهِ الشُّعَبُ الثَّلَاثُ هِيَ الْمَخَارِجُ الضَّيِّقَةُ لِهَذَا الْوَادِي.

فَالَّذِينَ يَكُونُونَ مِنْ أَهْلِ الْعَذَابِ فِي هَذَا الْوَادِي لَا مَخْرَجَ لَهُمْ إِلَّا بِأَنْ يَصْعَدُوا
عَلَى جَبَلٍ مِنْ هَذِهِ الْجِبَالِ، وَهَذَا الصُّعُودُ يَتَحَمَّلُونَ بِهِ عَذَابًا أَشَدَّ، لِأَنَّهُ إِرْهَاقٌ مِنْ
جِهَةٍ، وَاقْتِرَابٌ مِنْ مَصَادِرِ اللَّهَبِ وَشِدَّةُ الْحَرِّ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى. أَوْ بَأَنْ يَدْخُلُوا فِي
إِحْدَى هَذِهِ الشُّعَبِ الثَّلَاثِ، وَهِيَ مَضَايِقُ أَشَدَّ حَرًّا، وَأَشَدَّ عَذَابًا، فَاللَّهَبُ مُحِيطٌ
بِالْوَادِي، وَبِجِبَالِهِ، وَبَشُعْبِهِ.

وَأَمَّا اللَّقْطَةُ الثَّلَاثَةُ مِنْ تَصْوِيرِ الْمَوْقِعِ، فَقَدْ جَاءَ فِيهَا وَصْفٌ مَا تَرْمِي بِهِ النَّارُ
مِنْ حَوْلِهِ إِلَى سَمَاءِ وَادِي «وَيْل» مِنْ شَرِّرٍ، وَاحْدَتِهِ شَرَرَةٌ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنهَاتَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جُمِلَتْ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ .

بهذا التعبير يُضَيَّفُ النَّصُّ لِقِطْعَةً تَصْوِيرِيَّةً لِلْمَوْقِعِ الَّذِي يُؤَمِّرُ الْمَكْذُوبُونَ بِأَن يَنْطَلِقُوا إِلَيْهِ .

إِنَّ الْمَوْقِعَ الَّذِي يُصَوِّرُهُ النَّصُّ هُوَ جُزْءٌ مِنْ جَهَنَّمَ الَّتِي تَوْقَدُ فِيهَا النَّارُ الْحَامِيَّةُ ، فَكَانَ مِنَ الْأَدَبِ الرَّفِيعِ التَّحَدُّثُ عَنِ النَّارِ بِالضَّمِيرِ «إِنَّهَا» وَالْخَبْرُ قَرِينَةٌ تَعَيَّنَ الْمُرَادُ ، إِذْ لَا يَرْمِي بِالشَّرَرِ غَيْرُ النَّارِ ، فَهِيَ تَرْمِي إِلَى جَوْ وَادِي «وَيْل» بِالشَّرَرِ الْمَوْصُوفِ .

وَمِنْ طَبِيعَةِ الشَّرَرِ أَنَّهُ جَمْرِيٌّ مُتَوَهِّجٌ وَلَهُ ضَوْءٌ مَا ، فَيَكْفِي ذِكْرَ الشَّرَرِ عَنْ وَصْفِهِ بِالتَّوَهُّجِ وَبَثِّ الضَّوئِ الْقَاطِعِ أحياناً لِدَوَامِ الظِّلِّ فِي وَادِي «وَيْل» .

﴿الشَّرَرُ﴾ : اسْمُ جَنْسٍ جَمْعِي ، وَاحِدَتُهُ شَرَرَةٌ .

وَقَدْ وَصَفَ التَّعْبِيرُ الشَّرَرَ بِالْقَصْرِ ، وَهُوَ الْبِنَاءُ الْعَظِيمُ الْعَالِي الْوَاسِعُ الْمَحْصَنُ .

إِنَّ هَذَا الْوَصْفَ الْقُرْآنِي يُوحِي بِأَنَّ النَّارَ تَرْمِي مِنْ أَعْلَى الْجِبَالِ الْمَحِيطَةِ بِوَادِي «وَيْل» بِشَرَرٍ قَدْ اجْتَمَعَ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ اجْتِمَاعاً فِي أَشْكَالٍ هَنْدَسِيَّةٍ تُشَبِّهِ الْقَصْرَ الْعَظِيمَ ، فِي مَرْتَفَعَاتِهِ وَمُنْخَفِضَاتِهِ ، وَشُرُفَاتِهِ ، وَنَوَافِذِهِ ، وَأَسْوَارِهِ ، وَحَدَائِقِهِ وَأَشْجَارِهِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ .

هَلْ رَأَيْتُمُ الْأَسْهُمَ النَّارِيَّةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي تَنْطَلِقُ صَارُوخِيَّةً ، ثُمَّ تَنْفَجِرُ فِي الْجَوِّ ، فَتُصَوِّرُ أَشْكَالاً مُخْتَلِفَةً ؟

إِنَّ الْقُرْآنَ قَدْ قَدَّمَ لَنَا صُورَةً تَعْبِيرِيَّةً فِيهَا أَكْثَرُ تَشْكِيلًا هَنْدَسِيًّا رَائِعًا ، مِنْ هَذِهِ الْمُسْتَحْدَثَاتِ الْمَعَاصِرَةِ لَنَا الْيَوْمَ .

فَقَدْ جَاءَ وَصْفُ الشَّرَرِ بَعْدَ تَشْبِيهِهِ مَجْتَمِعاً فِي الْجَوِّ بِالْقَصْرِ ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ : «كَأَنَّهُ جِمَالَاتٌ صُفْرٌ» .

وَفِي قِرَاءَةِ أُخْرَى مُتَوَاتِرَةٍ : «كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ» .

وفي قراءة الثالثة متواترة أيضاً: «كَأَنَّهُ جُمَالَاتٌ صُفْرٌ».

إنَّ هذا الوصفَ اللَّاحِقَ من دون حَرْفِ عطفٍ يوحي بإشارته السَّريعة الخفيفة إلى أَنَّ الشَّرَرَ المجتمع الذي يكون أولاً كالقصر، يتشكَّلُ تشكُّلاً آخر، فتكونُ كُلُّ شَرَرَةٍ منه على شكلِ جَمَلٍ أَصْفَرٍ، فيكونُ المشهدُ الكُلِّيُّ «كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ»، أي: طائفةٌ من الجمالِ الصفرِ المجتمعة، وهذا ما دلت عليه قراءة ﴿جِمَالَةٌ﴾.

وَبَعْدَ ذَلِكَ تَتَوَزَّعُ في الجهات، فيكونُ المشهدُ الكُلِّيُّ «كَأَنَّهُ جُمَالَاتٌ صُفْرٌ»، أي: قُطْعَانٌ من الجمال، كُلُّ قُطْعٍ منها يَهْوِي إلى جهةٍ من الجهات، على محيط الدائرة، وهذا ما دلت عليه قراءة جمهور القراء العشرة.

وبعد ذلك يكونُ تَشَكُّيلُ الْمَشْهَدِ يُشَبِّهُ جِبَالاً عَظِيمَةً مُتَدَلِّيةً في اتِّجَاهِ بَطْنِ الوادي، ومن كُلِّ جِهَاتِهِ. وهذا ما دلت عليه قراءة رُؤِيس «كَأَنَّهُ جُمَالَاتٌ صُفْرٌ»، وقد عرفنا أَنَّ جُمَالَاتَ جَمْعَ جُمَالَةٍ، وهو الجبلُ العظيم الذي تُشَدُّ به السفينة. فتكاملتِ القراءات في رسم المشهد العجيب، مع غاية الإيجاز.

ولا يخفى ما في مشهد الجَمَالِ النَّارِيَّةِ الهاجمة بشكلٍ مخيفٍ من أعلى إلى أسفل حيثُ موقع المكَدِّبِينَ، وبعدهُ الجبالُ النَّارِيَّةُ العظيمة الممتدة، من إثارة للرَّهَبِ في النفوس، مع ما فيه من دَقَّةٍ حركيَّةٍ في التَّصْوِيرِ الفَنِّيِّ الأدبي.

وتتبعاً للدَقَّةِ الرَّائِعَةِ البديعة في التصوير جاءتْ عبارة التشبيه اللَّاحِقِ، للحركة التالية بعد الشَّرَرِ المجتمع كالقصر، بصيغة «كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ»، «كَأَنَّهُ جُمَالَاتٌ صُفْرٌ»، «كَأَنَّهُ جُمَالَاتٌ صُفْرٌ»، في حركاتٍ ثَلَاثٍ متواتراتٍ من دون فاصل بعطف، مع المحافظة على الوصفِ بالصفرة، للدَّلالة على أَنَّ الشَّرَرَ قد وصل إلى مرحلة الجبال العظيمة ولم ينطفئ.

والتشبيه يَصُورُ المرحلةَ الْجَمَلِيَّةَ كُلَّ شَرَرَةٍ بِجَمَلٍ أَصْفَرٍ، فهي أَوَّلًا قُطْعٍ واحدٌ ضَخْمٌ مِنَ الجمالِ الصُّفْرِ، وهي ثَانِيًا قُطْعَانٌ مِنَ الجمالِ المتدافعة الساقطة في الْجَوِّ بانتظام في كُلِّ الجهات.

وأخيراً تَدَلُّ على شَكْلِ جِبَالٍ عَظِيمَةٍ في اتِّجَاهِ أَسْفَلِ الوَادِي، حيثُ مَوْقِعُ
المَكْذِبِينَ.

إنَّه لَمُشْهَدٌ مَرْعَبٌ حَقًّا، وَقَدْ جَاءَ التَّتَابُعُ في التَّشْبِيهِ من دُونِ عَطْفٍ دَلِيلًا على
التَّتَابُعِ السَّرِيعِ في حَرَكَةِ الوَاقِعِ، حَتَّى كَأَنَّ الأَحْدَاثَ المَتَلَاخِقَةَ تَأْتِي في وَقْتٍ
وَاحِدٍ.

هَذَا هُوَ الصَّدْقُ الفَنِيُّ حَقًّا، إِذْ يَكُونُ الأَدَاءُ التَّعْبِيرِيُّ مُطَابِقًا لِحَالَةِ الشُّعُورِ
النَّفْسِيِّ، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى المَتَكَلِّمِ، فَبِالنِّسْبَةِ إِلَى المُشَاهِدِ، أَوِ المَخَاطَبِ.
وَنَلَاظِظُ أَنَّهُ لَمْ يُوصَفِ القَصْرُ بِالصُّفْرَةِ اكْتِفَاءً بِأَمْرَيْنِ:
الأَوَّلُ: أَنَّهُ جَاءَ وَصْفًا لِلشَّرِّ، وَالشَّرَّ جَمْرٌ أَصْفَرُ.

وَحِجَارَةُ القُصُورِ لَدَى المَخَاطِبِينَ مِنَ العَرَبِ أَكْثَرُهَا ذَاتُ لَوْنٍ أَصْفَرٍ.
الثَّانِي: أَنَّ مَرَاجِلَ (الجَمَالَاتِ) فـ (الجَمَالَاتِ) فـ (فَالْجَمَالَاتِ) قَدْ وَصِفَتْ
بِالصُّفْرَةِ.

هَذَا تَحْلِيلٌ أَدَبِيٌّ عَلَى مَقْدَارِنَا لِهَذَا النِّصِّ مِنْ سُورَةِ (الْمُرْسَلَاتِ).
أَفَلَا تَرَوْنَ مَعِيَ أَنَّهُ مِنْ رَوَائِعِ النُّصُوصِ الأَدَبِيَّةِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي لَا تَرْقَى إِلَى
أَدْنَاهَا عَمَالِقَةُ الأَدَبِ؟!

إِذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا النِّصُّ مِنَ الْقُرْآنِ المَجِيدِ نَصًّا أَدَبِيًّا، فَأَيُّ كَلَامٍ بَعْدَ هَذَا
يُمْكِنُ أَنْ نَضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجَ الأَدَبِ.
إِنَّ أُمَّةَ الحَدَاثِيِّينَ لَا يَعْتَرِفُونَ بِأَدَبٍ مَا لَمْ يَكُنْ عَلَى رَأْسِهِ قَلَنْسُوءَةٌ حَاخَامٌ،
سُودَاءٌ، أَوْ قُبْعَةٌ غَرْبِيٌّ زَرْقَاءٌ، أَوْ شَارَةُ شَيْوَعِي حُمْرَاءٌ.



الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ

قول الله عزَّ وجلَّ لرسوله ولكلِّ داعٍ إلى سبيل ربِّه من بعده في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول):

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ
الْفَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ
كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ﴿١٧٧﴾﴾.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾:

أي: على المكذِّبين بالقرآن والرسالة من مشركي مكة الذين عرفوا الحقَّ،
واستكبروا عن اتِّباعه، أو حسدوا الرسول أن يصطفيه الله بالرسالة ويُنزِّل عليه
القرآن، أو أرادوا الفجور في الأرض فأبعدوا عن قلوبهم حقائق أركان الإيمان، أتلَّ
عليهم:

﴿نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَاوِينَ﴾.

الذي يظهر لي أن قصَّة هذا الشخص أو هذا الصنف قد ذكرها الله في
القرآن، بدليل قوله عزَّ وجلَّ في صدرِ النصِّ: ﴿وَاتْلُ﴾، فالتلاوة بحسب الظاهر
أمانة على أن الأمر مذكور في آيات القرآن التي تُتلى، وحين نتفكَّر فيما جاء في
القرآن من قصص الأولين الذين آتاهم الله آياته، فأحاطت بهم بياناتها ودلائلها،
ولبسوها كجلودهم، وتعهَّدوا بالتزام ما جاء فيها، فانسَلَخوا منها خروجاً عن

مقتضياتها، هم من عُلماء اليهود وعُلماء النصارى، الذين خرجوا من أحكام آيات الله بالتحريف والتبديل، وخرجوا عن تطبيقاتها اتِّباعاً للهوى، وإيثاراً للحياة الدنيا ولذاتها، وتحقيق شهواتهم منها، ومن هذه الآيات البشائر بالرسول الخاتم، والعهود المذكورة عندهم في التوراة والإنجيل، التي أُخِذَتْ عليهم أن يتَّبَعُوا الرسول النبي الأمي، متى بعثه الله، فلمَّا جاءهم ما عرفوا كفروا به، فأنسلخوا من آيات الله بكفرهم، ورفضهم دلائل البشائر، ونقضهم العهود والمواثيق.

هذا ما رأيته لدى تدبر النص مع سوابقه ولواحقه في السورة، منضمّاً إلى مفاهيمها في وحدة موضوعها، ومع ما أنزل من سور قبل سورة (الأعراف) في التنزيل المكي، ومع المرحلة الزمنية التي أنزل فيها، وما أنزل بعدها بشأن علماء أهل الكتاب.

ولست أرى ما طرحه المفسرون من احتمالات لم يُنقل فيها عن الرسول ﷺ شيء صحيح السند، فقد جاء في احتمالاتهم التي طرحوها، أن المُسَلِّخَ: «بَلْعَمُ بْنُ بَاعوراء» أو «النعمان الخزرجي النصراني أبو عامر بن صَيْفِي الرّاهب» فحادثته مدنيّة والنص تنزيل مكّي، أو أميّة بن أبي الصلت الثقفي، إذ لم يثبت أنه قد أنزل بشأنه آيات تتلى.

لكن جاء فيما سبق هذا النص من نصوص ما فعله اليهود والنصارى، كما أسلفت، ونزل في القرآن بعده عدّة نصوص تتلى وهي تتعلّق بعلماء أهل الكتاب الذين لم يعملوا بما لديهم من آيات الله المتعلقة بالرسول محمد ﷺ، وأنسلخوا من دلالات كثير من آيات الله المنزلة في كتبهم.

وقد جاء التعبير بالافراد لا بالجمع في قوله عز وجل: ﴿الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا﴾، إبرازاً للمسؤوليّة الفرديّة لدى هؤلاء المُسَلِّخين، وإعلاماً بأنّ قضية هؤلاء ليست قضية جماعيّة تؤثر فيها ضواغط الجماعة، بل هي قضية إيمانيّة سلوكيّة فرديّة، وتمثّل في القادة الذين علّموا مضمون آيات الله، وأحاطت بهم دلالاتها من كلّ جانب، إحاطة جلد الحيوان بكلّ جسده، لا في الأتباع المقلّدين الذين

لَا يَفْقَهُونَ دَلَالَاتِ آيَاتِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ قَادَتَهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِدِينِهِمْ، وَلَفْظُ (الَّذِي) كَلَفَظَ (الَّذِي) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى بِشَأْنِ صِنْفٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ: ﴿مِثْلُهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾.

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ عَدَدٌ مِنَ الْأَفْرَادِ لَا فَرْدٌ وَاحِدٌ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي النَّصِّ: ﴿ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

أَي: مِثْلُ الْكَلْبِ الَّذِي إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ هُوَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى أَيْضًا فِي النَّصِّ: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

وَدَلُّ الْإِنْسِلَاخِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْجُلُودَ قَدْ لَازَمَتْهُمْ حَقَبَةٌ مِنَ الزَّمَنِ، أَي: أَنَّهُمْ حَافَظُوا عَلَى إِحَاطَةِ آيَاتِ اللَّهِ بِهِمْ كَمُحَافَظَةِ الْحَيَوَانِ عَلَى جِلْدِهِ، وَإِشْعَارًا بِهَذِهِ الْإِحَاطَةِ السَّابِقَةِ جَاءَ التَّعْبِيرُ بِالْإِنْسِلَاخِ اللَّاحِقِ، مَعَ دَفْعِ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ هَذَا الصِّنْفِ مِنَ النَّاسِ بِأَنَّهُ كَالْحَيَّةِ الَّتِي تَنْسَلِخُ مِنْ جِلْدِهَا، لَأَنَّهُ مَلَامِسُ أَبْدَانِهَا، وَفِيهَا السَّمُّ الزُّعَافُ، وَالْأَنْيَابُ النَّوَهِشُ الْقَوَاتِلُ.

وَكَتَفَى النَّصَّ بِذِكْرِ: ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ وَتَرَكَ لَذِكَاءِ التَّالِيِ وَالسَّامِعِ اسْتِكْمَالَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْإِنْسِلَاخُ الَّذِي يَعْرِفُهُ فِي الثَّعَابِينَ، إِذْ يَرَى جُلُودَهَا الَّتِي انْسَلَخَتْ مِنْهَا، فَيَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ يَنْطَوِي بِإِنْسِلَاخِهِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَلَى اللَّؤْمِ وَالْخَسَةِ الَّتِي تَنْطَوِي عَلَيْهَا الْحَيَّةُ الَّتِي تَنْسَلِخُ مِنْ جِلْدِهَا.

وَأَبْرَزَ النَّصَّ أَنَّ هَذَا الْمَنْسَلَخَ لَمَّا انْسَلَخَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَمْ تَبْقَ لَدَيْهِ وَقَايَةُ تَحْمِيهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، إِذْ فَقَدَ بِإِنْسِلَاخِهِ جِهَازَ الْمَنَاعَةِ.

﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾: أَي: فَاسْرَعَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ حَتَّى لَحِقَهُ، فَأَخَذَ يُوَسَّوِسُ لَهُ، وَمَا زَالَ يَسْتَبْدِرْجُهُ، وَيُدْلِّيهِ بِغُرُورٍ حَتَّى أَغْوَاهُ.

﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾: أَي: بِإِرَادَتِهِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ، أَي: فَرَدَّ اللَّهُ بِسَبَبِ هَذِهِ الْغَوَايَةِ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ، فِي حَضِيضِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ،

بعد أن مكَّنه من صناعة مصيره باختياره الحرّ، الذي لا جبر فيه ولا إلزام، بل هو تخييرٌ وتمكينٌ للمسخراتِ من تحقيق المختارات بالإرادة الحرّة.

وهنا لا بدّ من استدراكٍ لبيان أنه قد كان من الممكن جعله مجبوراً غير ذي اختيار، ولكنّه في هذه الحالة سيرفعه الله بآياته، ولا يجعله ينزل إلى هذا الحضيض، فقال عز وجلّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي: ولو شئنا رفعه بهذه الآيات لجعلناه مجبوراً غير مختار، فرفعناه بها. لكنّا جعلناه حرّاً مختاراً لنمتحنه في ظروف هذه الحياة الدنيا، فاستعمل حرّيّة إرادته، بإيثار الحياة الدنيا، واتباع أهوائه.

إنّه لم يعمل بما يُحقّق له السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة، مع علمه بذلك، فأياتُ الله بدلالتها قد كانت محيطّة به، كإحاطة جلده به، وكان مستمسكاً بها، قبل امتحانه بتطبيق مضمونها، فلما جاء دور التطبيق، ودُعِيَ إلى الإيمان بالرّسول، لم يؤمن به، ولم يرتفع بآيات الله التي كانت محيطّة به، ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾، أي: اطمأن إلى الأرض، ولزّمها، وآثر شهواتها ولذاتها وأنواع متاعها العاجل، غير متعالٍ إلى سَمَاوات الكمالات ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ فضلّ وغوى. وهنا يطوي النصّ تساؤلاً يقدّمه المتفكّر في قصة هذا المنسلخ، يقول هذا التساؤل المطوي:

هل حقّ هذا المنسلخ من آيات الله بإشارته الحياة الدنيا، وإخلاده إلى الأرض، واتباعه هواه، ما يصبو إليه، وما يُريد من مطالب من دُنياه؟

ويأتي الجواب فيدلّ بإشارته الأدبيّة الرفيعة، على أنه لم يُحقّق ذلك لنفسه، بل ظلّ يتابع أهواءه، ويلاحقها دوماً في كدّ لاهث، يتناول معه رذاذ لذات عابرات وهو في محيط من الكدح والملاحقة، كملاحقة أمواج البحر لسفح الجبل، بغية أن ترقى إلى أعلاه، فتتكسر على صخراته، ويظلّ يُعاود مُحاولاته من دون أن يُحقّق ما يصبو إليه.

وأحرّ بهذا الكادح الكادّ اللاهث الذي يتغي الوصول إلى ما يشتهي من متاع الحياة الدنيا وزينتها متبعاً هواه، أن يكون مثلاً كدّه ولَهْثِه فيه، وأن تكون صورة

حياته النفسية وصورة حياته المعاشية ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾.

واكتفى النص القرآني بهذا المثل عن كل الجواب الذي فصلته آنفاً، مثل من كلمات معدودات، دلّ بإشعاعاته على جواب طويل يُشرح بمقالة مستفيضة.

وهذا المثل على إيجازه البديع، هو صورة تمثيلية رائعة لحالة اللّهث النفسي والظماً لمطالب الحياة الدنيا، لدى الذي كذب بآيات الله، بعد أن آتاه الله إياها، وعلم دلائلها، وأنسلخ منها، فأتبعه الشيطان مُسرِعاً إليه حتى أدركه وقبض على ناصيته.

وكانت علته النفسية أنه أخذ إلى الأرض طلباً للطمانينة فيها، والاستمتاع بلذاتها، وأنه اتبع هواه، فمثل حالته كمثل حالة الكلب الذي يلهث باستمرار، سواء حملت عليه أو لم تحمل.

ما أبدع هذه الصورة الدالة على الدوام في الحركة الظاهرة في المثل، والمشيئة إلى الحرمان من تحقيق المطالب المدركة في الممثل له.

إن هؤلاء اللاهثين لا يظفرون من دنياهم للذاتهم الحقيقية بطائل، ولو جمعوا وملكوا كل كنوزها، ويظل الظم النفسي لديهم على حاله، ويستمرّون في لهث نفسي متواصل.

أفليس هذا النص مع إيجازه الكامل هو من روائع الأدب الرفيع ونفائسه، الذي تتدحرج دون سفوحه هامات أساطين البلاغة والأدب من الإنس والجن.

إذا لم يكن هذا النص من القرآن المجيد نصاً أدبياً، فأى كلام بعد هذا يمكن أن نضع على رأسه تاج الأدب.



الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ

سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) أول سورة نزلت في المدينة، بعد هجرة الرسول ﷺ إليها، وظهور النفاق والمنافقين بين صفوف المسلمين، وفيها ضرب الله عز وجل للمنافقين مثلين يدلان على أنهم صنفان، لا صنف واحد، صنف مرد على النفاق، وصنف ما زال مُدْبِذاً، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء لكنه إلى الثبات في موقع الكفر أقرب، فقال الله عز وجل فيها بعد عرض طائفة من صفاتهم الكلية الجامعة.

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ١٧ ﴾ ضُمُّ بُكْمٍ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ مِنَ الضَّوْعِ حَدَرِ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

في هذا النص مثلاًن ضربَهُمَا اللَّهُ لمجموع المنافقين، ولدى تحليلِهِمَا بنظرات ثاقبات، يتبين لنا أَنَّهُمَا يدلان على أَنَّ الْمُنَافِقِينَ صِنْفَانِ، وَأَنَّ كُلَّ مَثَلٍ مِنْهُمَا يُلْقِي الضُّوءَ الكاشف على صِنْفٍ من صِنْفِي المنافقين.

فالمثل الأول منهما تَضَمَّنَ تشبيهاً لحالة الصنف الأشد من صِنْفِي المنافقين، وهو الصنف الذي مَرَدَ على النفاق، بعد رؤيته أضواء هداية القرآن، وسماعه إنذارات عذاب الله للكافرين، ولَمَّا مَرَدَ على النفاق ملتزماً الثبات في موقع الكفر، طَمَسَ اللَّهُ بصيرته، بقانونه الْقَدِيرِي.

والمثلُ الثاني منهما تضمَّن تشبيهاً لحالة الصنف الثاني المذبذب الذي ما زال متردداً محتاراً بينَ الإيمان والكفر، وهو إلى الثبات في موقف الكفر أقرب، فهذا لم يطمس الله بصيرته إمهالاً له، وَلَيَمْنَحْهُ آخِرَ نُقْطَةٍ فِي كَأْسٍ بِصِيرَتِهِ، ولو شاء الله لَطَمَسَ بصيرته، حُكماً عليه بالجانب الغالب الأرجح من واقعه، لكنَّهُ سبحانه لم يشأ ذلك رَحْمَةً بِهِ.

١ - فالصنف الأول مثله (أَي: وَصْفُهُ) كَمَثَلِ (أَي: كَوَصَفِ) الذي استوقد ناراً في مفازة مظلمة موحشة ضَمَنَ لَيْلٍ دَامِسٍ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ هَذِهِ النَّارُ مَا حَوْلَهُ مِنْ أَرْضِ الْمَفَازَةِ، وَرَأَى صِرَاطَهُ، وَعَرَفَ سَبِيلَ هِدَايَتِهِ، وَوَجَدَ أَنَّهُ عَلَى غَيْرِ مَا يَهْوَى وَيَشْتَهِي، اتَّخَذَ وَسِيلَةً أَبْعَدَ بِهَا عَنْهُ شُعَاعَ الضُّوءِ، رَافِضاً الْإِهْتِدَاءَ بِالنُّورِ، مُتَابِعاً أَنَّ يَسْلُكَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، إِصْرَاراً عَلَى الْبَاطِلِ، وَمَعَانِدَةً لِلْحَقِّ، فَوَقَعَ عَلَيْهِ قَانُونُ ذَهَابِ النُّورِ الَّذِي تَسَبَّبَ هُوَ فِي إِذْهَابِهِ، فَأَمْسَى كَالْأَصَمِّ الْأَبْكَمِ الْأَعْمَى، غَيْرَ مُسْتَعِدٍّ لِأَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَوْطِنِ النُّورِ.

وفي بيان حال هذا الصنف قال الله عز وجل:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٧) ضَمُّكُمْ عَنْهُمْ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

من هذا الإيجاز الخاطف في المثل، يَسْتَطِيعُ الْأَدِيبُ اللَّمَّاحُ أَنْ يَفْهَمَ قِصَّةَ طَوِيلَةٍ لِلْمُمَثِّلِ بِهِ، مُطَابَقَةً لِحَالِ الْمَنَافِقِ الْمُمَثَّلِ لَهُ، وَهُوَ الْمَنَافِقُ الَّذِي اخْتَارَ بِإِصْرَارٍ مَوْقِعَ الْكُفْرِ فِي الْبَاطِنِ، وَمَرَدَّ عَلَى النِّفَاقِ فِي الظَّاهِرِ.

مَنْ الَّذِي يَسْتَوْقِدُ النَّارَ ثُمَّ يُطْفِئُهَا وَيَبْقَى فِي الظُّلُمَاتِ لَا يُبْصِرُ، فَيَكُونُ كَالْأَصَمِّ الْأَبْكَمِ الْأَعْمَى، الَّذِي يَتَخَبَّطُ فِي ظُلُمَاتِهِ؟

لَا بُدَّ أَنْ يَفْهَمَ الذِّكِيُّ اللَّمَّاحُ أَنَّهُ إِنْسَانٌ فِي مَفَازَةٍ مُوحِشَةٍ مُظْلِمَةٍ، يَتَخَبَّطُ فِي ظُلُمَاتِهِ عَلَى غَيْرِ هُدًى.

ثُمَّ أَذْرَكَ أَنَّ بِلَمَّكَانِهِ أَنْ يَجْمَعَ حَطْبًا، وَيَقْدَحَ زِنَادًا، وَيَسْتَوْقِدَ بِذَلِكَ نَارًا،
تُضِيءُ لَهُ مَا حَوْلَهُ مِنَ الْأَرْضِ فَنُيِّرُ لَهُ طَرِيقَهُ، وَتَهْدِيهِ إِلَى صِرَاطِ نَجَاتِهِ.

فَفَعَلَ ذَلِكَ، وَاسْتَوْقَدَ النَّارَ الَّتِي أَرَادَ، وَأَضَاءَتْ لَهُ النَّارُ مَا حَوْلَهُ مِنَ الْأَرْضِ،
عَلَى مَحِيطِ دَائِرَةِ مَحْوَرِ مَكَانِهِ، لَكِنَّهُ رَأَى أَنَّ صِرَاطَ نَجَاتِهِ عَلَى خِلَافِ مَا يَهْوَى
وَيَشْتَهِي، فَفِيهِ تَكْلِيفٌ إِيْجَابِيٌّ بِعَمَلٍ لَا يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ، وَفِيهِ تَكْلِيفٌ سَلْبِيٌّ بِتَرْكِ
عَمَلٍ لَا يُحِبُّ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَاتَّخَذَ وَسِيلَةً لِلتَّخَلُّصِ مِنَ النَّارِ إِذْ رَفَضَ ضَوْءَهَا، فَأَجْرَى
اللَّهُ قَوَائِنَهُ الْجَبْرِيَّةَ الْقَدْرِيَّةَ، فَذَهَبَ بِنُورِهِ، وَهَكَذَا كُلُّ مَنْ اتَّخَذَ بِإِرَادَتِهِ وَسِيلَةً ذَاتَ
أَثَرٍ لِأَمْرٍ مَا، أَجْرَى اللَّهُ لَهُ قَوَائِنَهُ الْجَبْرِيَّةَ الْقَدْرِيَّةَ فَحَقَّقَ لَهُ مَا أَرَادَ مِنْ أَمْرٍ، سِوَاءِ
أَكَانَ فِيهِ نَفْعٌ لَهُ أَوْ ضَرٌّ.

فَصَارَ هَذَا الْمَتَخَبُّطُ فِي مَفَازَتِهِ يَتَحَسَّسُ بِاللَّمْسِ مَوَاقِعَ السُّبُلِ، وَيَتَنَقَّلُ مِنْ
مَوْقِعٍ إِلَى مَوْقِعٍ كُلَّمَا وَجَدَ فِي بَعْضٍ مَا تَقَعُ عَلَيْهِ لَا مِيسَاتَهُ مَا يُمْتِعُهُ وَيَلْذُّ لَهُ، وَمَعَ
كُلِّ تَنَقُّلٍ تَخَبُّطٌ وَأَشْوَاكٌ وَخُفَرٌ وَعَوَارِضٌ مُؤْلِمَاتٌ.

وهكذا ظلَّ في مَتَاهَاتِهِ حَتَّى انْحَدَرَ إِلَى تَهْلُكَتِهِ وَعَذَابِهِ الْأَلِيمِ.

لَكِنَّ كَلِمَاتِ الْمَثَلِ فِي الْقُرْآنِ اقْتَصَرَتْ مِنَ الْمَثَلِ بِهِ عَلَى عِبَارَةٍ:

﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾.

وَوَقَفَ النَّصُّ هُنَا فِي إِيْجَازٍ بَدِيعٍ، وَتَرَكَ لِدَكَاءِ الْمَتَدَبِّرِ الْحَصِيفِ أَنْ يَمْلَأَ بَقَايَا
هَذِهِ اللَّقْطَةِ مِنَ الْمَثَلِ بِهِ.

إِنَّ مُسْتَوْقَدَ النَّارِ إِنَّمَا اسْتَوْقَدَهَا لِلْإِضَاءَةِ، بِدَلِيلِ: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾.

وَالصُّورَةُ تُوحِي بِأَنَّهُ فِي لَيْلٍ دَامِسٍ، وَفِي صَحْرَاءٍ مُوحِشَةٍ، وَهَذَا مَا دَعَاهُ إِلَى
أَنْ يَتَكَلَّفَ بَحْثًا عَنِ الْوَسَائِلِ، وَيَطْلُبَهَا لِيَسْتَوْقِدَ النَّارَ الَّتِي يُرِيدُ، بِدَلِيلِ اسْتِعْمَالِ
فِعْلِ [اسْتَوْقَدَ] دُونَ فِعْلِ «أَوْقَدَ» وَبَدِيلِ حَالِ الْمَثَلِ لَهُ الَّذِي جَاءَ فِي وَصْفِهِ:
﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

لَكِنَّ هَذَا الَّذِي اسْتَوْقَدَ النَّارَ اتَّخَذَ وَسَائِلَ لِيَتَخَلَّصَ مِنْ ضَوْئِهَا الَّذِي كَشَفَ لَهُ مَا حَوْلَهُ فَذَلُّهُ عَلَى خِلَافِ مَا يَهْوَى، إِمَّا بَعْصَبِ عَيْنِهِ، وَإِمَّا بِإِطْفَاءِ النَّارِ، وَإِمَّا بِالْفِرَارِ مِنْ مَوْقِعِهَا إِلَى مَوْقِعٍ آخَرَ.

إِنَّ تَحْدِيدَ وَسِيلَةِ التَّخَلُّصِ مِنْ ضَوْءِ النَّارِ لَا تَتَعَلَّقُ بِهِ أَهَمِّيَّةٌ حَتَّى تُذَكَّرَ، وَالتَّعْمِيمُ أَوْلَى لِيَشْمَلَ كُلَّ الصُّورِ.

وقوانينُ الله عزَّ وجلَّ في الخلقِ تقضي بَأَنِّ مِنْ اتَّخَذَ وَسِيلَةً مِنَ الْوَسَائِلِ الْمُحَقِّقَةِ فِي نِظَامِ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيِّ لِأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ، فَإِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يُحَقِّقُ هَذَا الْأَمْرَ، فَمِنْ نَفْسِهِ مِنْ شَاهِقٍ عَلَى صَخْرٍ حَطَمَهُ اللَّهُ وَكَسَّرَ عِظَامَهُ وَقَتَلَهُ، كَذَلِكَ مِنْ اتَّخَذَ وَسِيلَةً لِإِطْفَاءِ النَّارِ أَوْ الْإِبْتِعَادِ عَنْهَا ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِ.

كُلُّ هَذَا يُذَكِّرُهُ الْفِكْرَ الذَّكِيَّ الْمَتَدَبِّرَ اللَّمَّاحُ مِنْ دُونِ أَنْ يُذَكَّرَ فِي الْعِبَارَةِ.

أفليس هذا من روائع الأدب الرفيع؟؟

وَيَنْتَقِلُ النَّصُّ مِنَ الْمُمَثِّلِ بِهِ إِلَى الْمُمَثَّلِ لَهُ، فَيَأْتِي بِنَاءُ الْحُكْمِ عَلَى الْمَثَلِ كَأَنَّهُ عَيْنُ الْمُمَثِّلِ لَهُ، عَلَى طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي أَمْثَالِهِ، وَالْمُمَثِّلُ لَهُ هُوَ الصَّنْفُ الْأَوَّلُ مِنْ صَنْفِي الْمُنَافِقِينَ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ.

وَقَدْ دَلَّ هَذَا الْحُكْمُ عَلَى هُويَّةِ هَذَا الصَّنْفِ، فَهُوَ صَنْفٌ رَفَضَ الْحَقَّ، وَأَصْرَّ عَلَى الْكُفْرِ، وَمَرَدَّ عَلَى النِّفَاقِ، فَقَالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ غَطَاءً لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾:

﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ (٧) صُمْ بِكُمْ عُمَى فَهَمَّ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

إِنَّ عِبَارَةَ: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ هِيَ مِنَ الْمُمَثِّلِ بِهِ، أَمَّا مَا جَاءَ غِطَاءً لَهَا

فهو حُكْمٌ يَتَعَلَّقُ بِالْمَثَلِ لَهُ، وَهُمْ الْمَنَافِقُونَ الْمُبْطِنُونَ لِلْكَفْرِ الْمَتَظَاهِرُونَ
بِالْإِسْلَامِ، وَقَدْ مَرَدُّوا عَلَى النِّفَاقِ، فَهُمْ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ لِلرُّجُوعِ إِلَى رَوْضَةِ الْإِيمَانِ،
بَعْدَ اخْتِيَارِهِمْ طَرِيقَ الْكَفْرِ بَاطِنًا وَالنِّفَاقِ ظَاهِرًا.

إِنَّهُمْ لَمَّا اخْتَارُوا أَنْفُسَهُمْ هَذَا الْاِخْتِيَارَ الْأَثْمَ بِإِرَادَاتِهِمْ، أَجْرَى اللَّهُ فِيهِمْ
قَانُونَهُ، فَذَهَبَ بِنُورِ بَصِيرَتِهِمْ الَّذِي يُوجِّهُ مَسَامِعَهُمْ لاسْتِمَاعِ آيَاتِ اللَّهِ، وَبَيَانَاتِ
الرَّسُولِ وَمَوَاعِظِ الْهَدَايَةِ، وَيُوجِّهُ أَلْسِنَتَهُمْ لِلْاعْتِرَافِ بِالْحَقِّ الدِّينِيِّ، وَالِدَعْوَةِ
إِلَيْهِ عَنِ إِيْمَانٍ وَصِدْقٍ، وَيُوجِّهُ أَبْصَارَهُمْ لِمَشَاهِدَةِ آيَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ دَوَامًا،
وَالانْتِفَاعِ مِنْهَا بِتَمَكُّينِ الْإِيمَانِ وَتَعَمِيقِهِ.

لِذَلِكَ فَهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قِطَاعِ الْهَدَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي تُقَدِّمُ لَهُمْ دَلَائِلَ السَّعَادَةِ
الْآخِرِيَّةِ الْخَالِدَةِ: [صُمْ بِكُمْ عُمِّي].

كَيْفَ لَا يَكُونُونَ كَذَلِكَ وَقَدْ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِ بَصِيرَتِهِمْ، إِذْ اتَّخَذُوا بِاخْتِيَارِهِمْ
الْحُرِّ الْوَسَائِلَ إِلَى ذَلِكَ، بِإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكَفْرِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِمْ دَلَائِلَ الْإِيمَانِ،
وَرُؤْيَتِهِمْ أَضْوَاءَ آيَاتِ اللَّهِ وَبَيَانَاتِ الرَّسُولِ ﷺ، وَابْتِغَائِهِمْ تَحْصِيلَ الْأَمْنِ وَالْمَنَافِعِ
مِنْ جِهَةِ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ، بِإِعْلَانِ الْإِسْلَامِ نِفَاقًا.

ثُمَّ إِنَّ مَنْ اخْتَارَ بِإِرَادَتِهِ الْجَازِمَةَ الْوَاعِيَةَ مِثْلَ هَذَا الْاِخْتِيَارِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَرْجِعَ
إِلَى مَوَاقِعِ النُّورِ وَالْهَدَايَةِ وَصِدْقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

هَلْ فِي أَقْوَالِ النَّاسِ أَدَبٌ رَفِيعٌ يَرْقَى إِلَى عَشْرِ مِئَاتِ هَذَا الْأَدَبِ الرَّفِيعِ
الْجَامِعِ بَيْنَ كَمَالِ الْمَعْنَى، وَدَقَّةِ الْأَلْفَافِ، وَالاعْتِمَادِ الْفَنِيِّ عَلَى لَوَازِمِ الْأَفْكَارِ
وَسِلَاسِلِهَا، وَإِشَارَاتِهَا وَرَمُوزِهَا الْإِيحَائِيَّةِ، الَّتِي يَتَّفِقُ عَلَى اسْتِخْرَاجِهَا وَإِدْرَاكِهَا
الْأَذْكِيَاءُ اللَّمَّاحُونَ الْمُحَلِّلُونَ لِلنَّصُوصِ الْأَدْبِيِّ الرَّفِيعَةِ.

* * *

٢ - أَمَّا جَمَاعَةُ الصَّنْفِ الثَّانِي مِنْ صِنْفِي الْمَنَافِقِينَ فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ جَمَاعَةٍ فِي
مَفَازَةٍ مَظْلَمَةٍ بَلِيلٍ دَامِسٍ، جَاءَهُمْ سَحَابٌ مُمَطِّرٌ، فَأَمْطَرَهُ عَلَيْهِمْ مَطَرًا غَزِيرًا،

فأصابتهُمُ الحيرةُ يبتغونَ النجاةَ، ورافقَ ذلكَ رعدٌ وبرقٌ، فكانوا ضَمَنَ هذا الحدثِ على مفازتهم، في مَطَرٍ غزيرٍ مخيفٍ، وفي ظُلُماتٍ مُوحِشاتٍ، وفي رَعْدٍ يُثِيرُ الرُّعبَ، وفي بَرَقٍ يتلامعُ بالضوءِ.

فَهُمْ كُلُّمَا تَوَاتَرَ عَلَيْهِمُ الرَّعْدُ الشَّدِيدُ المَخِيفُ القَازِفُ بالصَّوَاعِقِ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ خَوْفًا مِنَ الصَّوَاعِقِ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بِالمَوْتِ، وَكُلُّمَا أَضَاءَ لَهُمُ البَرَقُ مَشَوْا فِي ضَوْئِهِ عَلَى قَدَرٍ مَا يَكْشِفُ لَهُمْ وَمِيزُهُ. فَخُطَوَاتُهُمْ عَلَى طَرِيقِ الْهُدَى قَلِيلَةٌ بِقَدَرِ الْوَمُضَاتِ. وَكُلُّمَا انْتَهَتْ وَمَضَاتُهُ السَّرِيعَاتُ الخَاطِفَاتُ تَوَقَّفُوا فِي مَوَاقِعِهِمْ حَيَارَى، لَا يَدْرُونَ كَيْفَ يَتَصَرَّفُونَ.

إِنَّ أَهْلَ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إِلَى مَرَحَلَةِ الْعِنَادِ وَالْإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ، وَرَفَضَ قَبُولَ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ، وَبَيَّنَّ رِسُولُهُ الْكَرِيمَ، بَلْ مَا زَالَتْ لَدَيْهِمْ بَقِيَّةٌ خَيْرٌ تَنْزِعُ فِي دَاخِلِهِمْ إِلَى الِاسْتِجَابَةِ، لَكِنَّهَا بَقِيَّةٌ ضَعِيفَةٌ.

إِنَّهُمْ لَمْ يَفْقَدُوا الْقُدْرَةَ عَلَى رُؤْيَا طَرِيقِ الْهُدَايَةِ، كَمَا فَقَدَهَا أَفْرَادُ الصَّنْفِ الْأَوَّلِ، لَكِنَّهَا بَقِيَتْ لَدَيْهِمْ فِي مَسْتَوَى نَزَعَاتٍ تُشَبِّهُ خَوَاطِفَ الْبَرَقِ، وَهِيَ قُوَّةٌ بَاهِرَةٌ، إِلَّا أَنَّهَا قَصِيرَةُ الزَّمَنِ، بَيْنَمَا هُمْ بِحَاجَةٍ لِلاتِّزَامِ طَرِيقِ الْهُدَايَةِ إِلَى نُورٍ دَائِمٍ الْإِشْرَاقِ، أَوْ طَوِيلِ الْإِشْرَاقِ، حَتَّى يَمْلِكُوا دَوَامَ الْهُدَايَةِ.

وَلَمْ يَفْقَدُوا أَيْضًا الْقُدْرَةَ عَلَى سَمَاعِ إِنذَارَاتِ الْعِقَابِ الْأَلِيمِ جَزَاءً وَفَاقًا، لَكِنَّهَا بَقِيَتْ لَدَيْهِمْ فِي مَسْتَوَى نَزَعَاتٍ قَلِيلَاتٍ تُشَبِّهُ الْوَحْدَاتِ الزَّمْنِيَّةَ الْقَلِيلَةَ الَّتِي يَأْتِي فِيهَا مَعَ الْمَطَرِ الْغَزِيرِ رَعْدٌ يَقْذِفُ بِالصَّوَاعِقِ، وَهُمْ بِحَاجَةٍ لِاجْتِنَابِ سُلُوكِ سُبُلِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ إِلَى خَوْفٍ دَائِمٍ أَوْ طَوِيلِ الْبَقَاءِ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ الْأَلِيمِ، حَتَّى يَمْلِكُوا دَوَامَ اجْتِنَابِ سُبُلِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ.

فَهُمْ حَيَارَى بَيْنَ بَيْنٍ، مَا زَالَ يَتَجَادَبُهُمُ النَقِيزَانِ، الْكُفْرُ وَالْإِيمَانُ، وَهُمْ إِلَى الثَّبَاتِ فِي مَوْقِعِ الْكُفْرِ أَقْرَبَ، وَيَصْدُقُ فِي شَأْنِهِمْ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ أَنَّهُمْ مُتَرَدِّدُونَ مُدْبِدُّونَ.

إِنَّهُمْ يَسْمَعُونَ أحياناً آياتِ الوعيد التي تهزُّ قلوبهم هزّاً عفيفاً، فيخافون، وتنزع قلوبهم إلى اختيار الإيمان والثبات فيه.

وتتلامع أحياناً لعقولهم وألبابهم أضواء الحقِّ الشديدة القويّة، التي تُشبه أضواء البرق الذي يخطفُ الأبصار لقوّته وشدّته، فتتنزع قلوبهم لاختيار الإيمان والثبات فيه، واجتناب سُبُل الكفر والعصيان.

لكنّهم سرعاناً ما تغلبُهُم أهواؤهم وشهواتهم، فيقمعون نوازع الخير في قلوبهم، ويُحجّجون عن قبول الحقِّ، ويُعرِضون مائلين ميلاً شديداً إلى اختيار الثبات في موقع الكفر والعصيان.

فهم في وسطٍ بين السَّمع والصَّمم، بين البصر والعمى، وهم إلى الصَّمم والعمى أقرب، دلّ على هذا المشهد التمثيلي قول الله عزَّ وجلَّ في المثل الثاني:

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْدِعُهم فِيءَ إِذْ أَنهَم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾.

﴿كَصَيْبٍ﴾: الصَّيْبُ المطرُ الغزير. أو السحابُ الممطر مطراً غزيراً.

أي: أو المنافقون كجماعةٍ في مفازةٍ عمَّهم وأحاطَ بهم صيَّبٌ فيه ظلمات ورعدٌ وبرقٌ، وهذا الرعد قد يقذف بالصواعق.

وحرفُ «أو» للتقسيم في التمثيل المناظر للقسمين اللذين ينقسم إليهما المنافقون. كما تقول: الكلمة مثلُ: أكلٌ يأكلُ كُلُّ. أو سعيدٌ وسماءٌ وماء. أو في ولماً وثُمَّ. أي: الكلمة: إمَّا فعل أو اسم أو حرف. فليست كلمة (أو) للتشكيل، ولا للتنوع في ضرب المثل، إنّها للتقسيم.

وهؤلاء الجماعة الذين هم في مفازةٍ مغمورةٍ بسحابٍ مُمطرٍ مطراً غزيراً فيه رعدٌ وبرقٌ، يملكون أن يسمعوا صَوْتَ الرَّعْدِ الذي قد يقذف بالصواعق، فكلُّما

سَمِعُوا الرِّعْدَ وَأَحْسَوْا بِمَقْدَمَاتِ الصَّوَاعِقِ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنْ أَثَرِ قَعْقَعَةِ الصَّوَاعِقِ وَقَرَعَهَا الشَّدِيدِ، والدافع إلى ذلك خوف الموت.

وجاء التعبير بالأصابع بدل الأنامل لأن مشاعرهم تندفع لو استطاعوا أن يَدْخُلُوا كُلَّ أَصَابِعِهِمْ فِي آذَانِهِمْ، لِيَسُدُّوا عَنْهُمْ وَقَعَ الصَّوْتِ، الذي قد يكون مصحوباً بالصواعق التي تأتي بالموت، وهذا من الصدق الفني.

وهؤلاء كلما أضاء لهم البرق مَشَوْا فِي ضَوْئِهِ، وإذا انقطع فأظلم عليهم الجَوْ قَامُوا، أي: وقفوا في موقعهم في الظلمات حَيَارَى.

ودَلَّ النَّصُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الصَّنْفَ مِنْ صِنْفِي الْمُنَافِقِينَ يُحَكَّمُ عَلَيْهِ أَيْضاً بِالْكَفْرِ، وَإِنْ كَانَ لَدَيْهِ بَقِيَّةٌ أَمَلٌ بِالرَّجْعَةِ إِلَى الْإِيمَانِ الصَّادِقِ، لِأَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَقْبَلُ التَّنْصِيفَ، فَكَيْفَ وَهُمْ أَكْثَرُ مَيْلًا إِلَى جَانِبِ الْكُفْرِ الْجَازِمِ، وَإِلَى الثَّبَاتِ الدَّائِمِ فِي مَوْقِعِ الْكُفْرِ مِنْ دُونِ رَجْعَةٍ عَنْهُ. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

وما دام لدى هذا الصنف بَقِيَّةٌ أَمَلٌ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَوَانِينِهِ الْقَدَرِيَّةِ الَّتِي تَنْتُجُ نَتِيجَةُ إِرَادَاتِ عِبَادِهِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ، يَتْرَكُ لَهُمْ هَذَا الْمَقْدَارَ الْقَلِيلَ مِنَ الرِّغْبَاتِ الضَّعِيفَاتِ الضَّئِيلَاتِ الْبَاعِثَاتِ عَلَى اسْتِمَاعِ آيَاتِ الْوَعِيدِ، وَرُؤْيَةِ أَنْوَارِ الْحَقِّ، مَهْمَا قَلَّ هَذَا الْمَقْدَارُ، إِمَهَالًا لَهُمْ، وَلِيَتْرَكَ لَهُمْ كُلَّ فُرْصَةٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَدْ تَسَمَّحَ لَهُمْ وَلَوْ فِي أَوْفَى الْأَحْثَالِ، بِأَنْ يَتِمَّائِلُوا إِلَى الْعَافِيَةِ وَالشِّفَاءِ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا تَرَكَ لَدَيْهِمْ هَذِهِ الْبَقَايَا، عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّهَا بَقَايَا ضَعِيفَةٌ، غَيْرُ صَالِحَةٍ بِحَسَبِ الْعَادَةِ لِلتَّمَائُلِ إِلَى الْعَافِيَةِ، فَإِرَادَاتُهُمْ مَيْلًا بَرَجَحَانِ إِلَى جَانِبِ الْكُفْرِ الْجَازِمِ، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَحْمَةً بِهِمْ، وَاسْتِيفَاءً لظُرُوفِ امْتِحَانِهِمْ حَتَّى آخِرِ قَطْرَةٍ مِنَ الْإِمَهَالِ الْحَكِيمِ. دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٠).

أي: لجعلهم كأهل الصنف الأول صَمًّا بَكْمًا عُمِيًّا.

ولم يَدْمَعْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا الصَّنْفَ الثَّانِي بِأَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ، كَمَا ذَكَرَ بِجَانِبِ

الصف الأول، نظراً إلى أنهم لم يصلوا بعد إلى مستوى التصميم على الثبات في موقع الكفر عن وعي كامل لما قرروه لأنفسهم بالاختيار الحر، لذلك فهم لم يصلوا إلى حضيض:

﴿صُمُّكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٨)

إنَّ هذا الصف لم تَنطَمِسْ بصيرته انطماشاً تاماً، بل يَتَلَامَعُ لَهُ نور الحق أحياناً فيراه، فيسير فيه قليلاً، ويسمع إنذارات آيات الله أحياناً فيرهب، لكنه إذا اشتدت عليه سدَّ سمعه عنها، وهو بعد ذلك يعود إلى حالته الأولى.

وهكذا نلاحظ أنَّ لوحة المثل بجملتها تمثل صورة هذا الصف المتردد المذبذب الحيران من صنفى المنافقين.

ليست هذه اللوحة التمثيلية الدقيقة ذات الإحياءات الرائعات من روائع الأدب السامي؟؟

إذا لم يكن هذا من الأدب فأى شيء بعده هو من الأدب؟!

لكنَّ أئمةَ الحداثيين لا يريدون أن يعترفوا بأدب ما لم يكن على رأسه قلنسوةٌ حاخام سوداء، أو قبةٌ غربيٌّ زرقاء، أو شارةٌ شيوعيٌّ حمراء.

• • •

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ

قال الله تعالى في سورة (المذثر / ٧٤ مصحف / ٤ نزول):

﴿فَمَالَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾.

﴿التَّذِكِرَةُ﴾: التَّذِكِرَةُ لغة: مَا يُسْتَذَكَّرُ بِهِ الْأَمْرُ. ولما كان القرآن مُذَكِّراً بالحقائق وواعظاً بها وصفه الله بأنه تَذَكِيرٌ، وأطلق عليه اسم (التَّذِكِرَةُ).

﴿حُمُرٌ﴾: جَمْعُ حِمَارٍ.

﴿مُسْتَنْفِرَةٌ﴾: أي: نافرة بشدة إِذْ أَصَابَهَا الذَّعْرُ.

﴿قَسْوَرَةٍ﴾: على صِيغَةِ «فَعُولَةٍ» مِنَ الْقَسْرِ، وَهُوَ الْقَهْرُ وَالْأَخْذُ بِإِكْرَاهٍ.

الْقَسُورُ وَالْقَسْوَرَةُ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَسَدِ. وَالْقَسْوَرَةُ أَيْضاً جَمْعُ الْقَسُورِ، وَقَدْ سُمِّيَ الْأَسَدُ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَفْتَرَسُ صَيْدَهُ قَسْراً.

وَيُطْلَقُ الْقَسُورُ عَلَى الصَّيَادِ الرَّامِي، وَجَمْعُهُ «قَسْوَرَةٌ». فَالرُّمَاءُ الصَّيَادُونَ الَّذِينَ يَصِيدُونَ الْحَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةَ بِسَهَامِهِمْ، فَيَقْسِرُونَهَا بِوَسَائِلِهِمْ، وَيُكْرَهُونَهَا حَتَّى يَأْسُرُوهَا، يُطْلَقُ عَلَيْهِمْ لُغَةً لَفْظُ «قَسْوَرَةٍ».

إِنَّ الْمُعْرِضِينَ عَنِ الْقُرْآنِ النَّافِرِينَ مِنْ سَطَوَاتِهِ الْمُؤَثِّرَةِ فِيهِمْ، بِمَا فِيهِ مِنْ بَلَاغَةٍ رَفِيعَةٍ وَدَلَالَاتٍ مَنِيْعَةٍ، وَحَقَائِقَ لَا يَأْتِيهَا الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَلَا مِنْ خَلْفِهَا، وَأَنْوَارٍ سَاطِعَةٍ، وَهَدَايَةٍ قَاسِرَةٍ لِمَنْ اسْتَسْلَمَ إِلَيْهَا، قَدْ جَاءَ تَمْثِيلُهُمْ فِي هَذَا النَّصِّ بِالْحُمُرِ الَّتِي هَجَمَ عَلَيْهَا أَسَدٌ أَوْ أُسُودٌ لِيَفْتَرِسَهَا، فَأَصَابَهَا الدُّعْرُ الشَّدِيدُ فَفَرَّتْ وَفَرَّتْ لَا تَلْوِي عَلَى شَيْءٍ.

* * *

تحليل المثل :

١ - في هذا المثل تمثيلُ لصُورَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ مَقْرُونَةٍ بِظَوَاهِرٍ تُذَرِّكُ بِالْحِسِّ الظاهر، بِصُورَةٍ تُذَرِّكُ بِالْحِسِّ الظاهر مَقْرُونَةٍ بِحَالَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ نَفْسِيَّةٍ .

٢ - الصُورَةُ التَّمثِيلِيَّةُ فِي الْمَثَلِ صُورَةٌ مُتَزَعَةٌ مِنَ الْوَاقِعِ .

٣ - يَبْدُو أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ هَذَا التَّمثِيلِ التَّنْفِيرُ مِنَ الْإِعْرَاضِ عَنْ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ، مَعَ تَقْيِيحِ صُورَةِ الْمَعْرُضِينَ وَذَمِّهِمْ، إِذْ جَاءَ تَمَثِيلُهُمْ بِالْحُمْرِ، وَكَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ تَمَثِيلُهُمْ بِالْبَقَرِ أَوْ بِالطَّبَاءِ، لَكِنَّ الْحُمْرَ هِيَ الْمَعْرُوفَةُ عِنْدَ النَّاسِ بِالْبَلَادَةِ وَالْغَبَاءِ، فَالتَّمَثِيلُ بِهَا أَكْثَرُ تَقْيِيحاً وَذَمّاً لِحَالَةِ النُّفُورِ مِنَ السُّطُورَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي يَتَّصِفُ بِهَا الْقُرْآنُ .

وَالْفِكْرَةُ الَّتِي سَبَقَ لَهَا التَّشْبِيهُ فِي هَذَا النَّصِّ، هِيَ أَنَّ دَعْوَةَ الْإِسْلَامِ وَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ، دَعْوَةٌ تَذَكُّرَةٌ فِكْرِيَّةٌ بِحَقَائِقَ عِلْمِيَّةٍ، هِيَ فِطْرِيَّةٌ فِي فِكْرِ الْإِنْسَانِ وَوُجُودِهِ، أَوْ تَذَكُّرَةٌ بِحَقَائِقَ عِلْمِيَّةٍ مُنَزَّلَةٍ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ، يُطَلَّبُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَعْلَمُوهَا أَوَّلًا، ثُمَّ يَتَذَكَّرُوهَا دَوَامًا، لِتَكُونَ مُوجَّهَةً لِإِرَادَاتِهِمْ، وَأَنْوَاعٍ لِسُلُوكِهِمْ .

وَكُلُّ إِنْسَانٍ هُوَ خُرٌّ بَعْدَ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ هَذِهِ التَّذَكُّرَةُ فِي أَنْ يَسْتَجِيبَ لِمُضْمُونِهَا فَيُؤْمِنَ، أَوْ يَرْفُضَهَا فَيَكْفُرَ، فَهِيَ إِذَنْ لَيْسَتْ مُطَارَدَةً مُكْرِهٍ مُجْبِرٍ قَاسِرٍ، يُبْلِغُ طَرِيدَتَهُ لِيَفْتَرِسَهَا، أَوْ يَصِيدَهَا، كَمَا يَفْعَلُ الْأَسَدُ، أَوْ كَمَا يَفْعَلُ الرُّمَاءُ الصَّيَّادُونَ .

إِنَّ الْإِنْسَانَ ذَا الْفِكْرِ الْحَصِيفِ لَا يَفِرُّ مِنْ عَرْضِ التَّذَكُّرَاتِ الْفِكْرِيَّةِ عَلَيْهِ، بَلْ يَقْبَلُ عَرْضَهَا، وَمُنَاقَشَتَهَا، ثُمَّ هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ إِمَّا أَنْ يَقْبَلَهَا، وَإِمَّا أَنْ يَرْفُضَهَا .

فَإِذَا وَجَدْنَا قَوْمًا تُعْرَضُ عَلَيْهِمُ التَّذَكُّرَةُ الَّتِي لَا إِكْرَاهَ فِيهَا وَلَا جَبْرَ وَلَا قَسْرَ، فَيَسْتَنْفِرُونَ مِنْهَا، أَيْ: يَنْفِرُونَ مِنْهَا نُفْرَةً عَشَوَائِيَّةً عَلَى غَيْرِ هَدًى، كَالْمَذْعُورِينَ مِنْ مُطَارِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَقْتُلَهُمْ وَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ مُوَاجَهَتَهُ، فَأَقْرَبُ تَشْبِيهِ يَنْطَبِقُ عَلَى حَالِهِمْ

بدقة بالغة، تشبيههم بقطيع من حمر الوحش طاردها أسد، أو جماعة من الرماة الصيادين، فاستتفرت مذعورة ذات اليمين وذات الشمال.

إنه لا داعي لفترتهم إلا إذا كانوا كالحمير، لا يفرقون بين التذكرة القائمة على الفكر والعلم والمنطق والحجة والبرهان، وبين الافتراس الذي يفعله الأسد، أو الصيّد الذي يفعله الصيادون الرماة، والذي يشبهه الإكراه والقسر الفكري، بقوة السلاح والسلطان.

فالتشبيه في هذا النصّ ذو غرض فكري يدلّ عليه، وهو غرض دقيق جدّاً، وليس مُجرّد صياغة تشبيهية جمالية، فيها معنى التشفي من الذين رفضوا التذكرة وأعرضوا أو تولّوا عنها.

فهذه المعاني الثرة التي سلف بيانها يستطيع المتدبّر الذواق للأدب إدراكها من قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَمَالَهُمْ عَنِ التَّذِكْرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ (٤٩) كَانَهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ .

بصيغة الاستفهام الإنكاريّ عليهم، إذ يفرّون كالمذعورين من القرآن، وهو يُقدّم لهم التذكرة بحقائق دينية مغروزة في فطر عقولهم، وفطر ضمائرهم، وبمعارف دينية مؤيدة بالأدلة البرهانية والحجج المنطقية، ويطلبهم بتذكّرها دوماً لتكون دافعاً لهم إلى فعل الصالحات، وترك السيئات.

أفليس هذا من الأدب الرفيع، في تشبيه بديع، يؤدي أغراضاً توجيهية دقيقة، وبيانات فكرية حقيقية عن الدين، وعن وظيفة القرآن، ووظيفة الرسول الداعي إلى دين الله.

• • •

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ

في سورة (الغاشية / ٨٨ مصحف / ٦٨ نزول) يقول الله عز وجل موجّهاً أنظار الكافرين إلى مشهده من آياته في كونه، الدّالة على جُملة من جليل صفاته الّتي لو لم تكن له لما اتقن هذا الكون وأبدعه، وكلُّ مُثبتٍ للصفات هو مُثبتٌ لذات الموصوف، إذ لا تكون صفات بدون موصوف بها:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠﴾﴾.

أعالج في هذا النص من جوانبه الأدبية فنية ترتيب جملة فقط.

قد يهدف ترتيب الجمل القرآنية إلى عرض لوحة فنية من لوحات ما خلق الله في كونه، حتى كأنها رسمٌ قد روعيت فيه كل الشروط الفنية الّتي تراعى في الرسوم والصُّور الرفيعة، فتبدو الصُّورة مثلاً مطابقاً لحركة تتابع المشهد في نفس المشاهد.

تصوّر أنك جالسٌ في بادية، في خيمة، كواجدٍ من عربان البادية، وأمامك سهلٌ ممتد، وبعده سلسلة جبالٍ متتابعة، ومرّت قافلة جمالٍ في هذا السهل بينك وبين الجبال.

فكيف تتنقل نفسك في هذا المشهد، بعد هذا الحدث المتحرك المثير، وهو قافلة الجمال.

لقد تمثّلت هذه الصُّورة فوجدت أنني أتّقل في متابعتها مُركّزاً على بؤرة المشهد مَرحلةً فمرحلةً على الوجه التالي:

اللُّقْطَةُ الْأُولَى: صورةُ قافلةِ الجمالِ السَّائرة، إذْ كَانَتْ أَوَّلَ لَافِتٍ لنظري، بسببِ الحركة، وِغْرَابَةِ المشهد، وَرَغْبَةِ النفسِ في متابعةِ مشاهدته قبل أن يغيب عن النظر، فكانت في حِسِّي هي بُورَةُ المشهدِ البارزة، وما سواها كان أرضيَّةً لها.

اللُّقْطَةُ الثَّانِيَّةُ: صُورَةُ السَّمَاءِ من جهةِ الأفقِ البعيدِ وراءِ القافلة، إذْ شَبِعْتُ نفسي من مُتَابَعَةِ التَّركِيزِ عَلَى قافلةِ الجمالِ، فتركُتُها، وجعلْتُها مع أرضيَّةِ الصورة، وَأَنْتَقَلْتُ للتأملِ في السَّمَاءِ، فكانت السَّمَاءُ في حِسِّي هي بُورَةُ المشهدِ البارزة، وَتَوَجَّهَ بصري بالتركيزِ على السَّمَاءِ، بحثاً وتأملاً، حتَّى إذا شَبِعْتُ من ذلك ظَهَرْتُ في شعوري لقطه أخرى.

اللُّقْطَةُ الثَّالِثَةُ: هي صُورَةُ الجبالِ المتتابعةِ، إذْ أَخَذْتُ تَبَرُّزُ في حِسِّي، فتكوُنُ بُورَةَ المشهد، وَتَوَجَّهَ بصري للتركيزِ على الجبالِ بحثاً وتأملاً فيها.

وَأَدْرَكْتُ أَنَّ من طَبِيعَةِ النَّفْسِ لَدَى مُشَاهَدَةِ مشهدٍ مُتَعَدِّدِ العنصرِ، أنْ تَبْدَأَ بالمتحركِ لَّأنَّهُ أَكْثَرُ إثارةً، ثم تَنْتَقِلُ إلى أعلى المشهدِ، ثم تتدَلَّى شيئاً فشيئاً حتَّى أدناه.

ولَمَّا شَبِعْتُ مِنَ التَّأْمُلِ فِي الجبالِ ظَهَرْتُ فِي شعوري اللُّقْطَةُ الَّتِي وِراءَها.

اللُّقْطَةُ الرَّابِعَةُ: هي صورةُ الأرضِ المُنْبَسِطَةِ الممتدَّةِ أَمَامِي كَأَنَّهَا السَّطْحُ، إذْ أَخَذْتُ تَبَرُّزُ في حِسِّي، فتكوُنُ بُورَةَ المشهد، وَتَوَجَّهَ بصري للتركيزِ على الأرضِ بحثاً وتأملاً فيها.

عندئذٍ عِلِمْتُ الحِكمَةَ الَّتِي دَعَتْ إِلَى تَرْتِيبِ الجَمَلِ القِرْآنِيَّةِ فِي سورةِ (الغاشية) وما فيها من تصويرِ كلامي، مُتَابِعِ لِحَرَكَةِ النَّفْسِ لَدَى مُشَاهَدَةِ مِثْلِ هَذِهِ اللَّوْحَةِ الَّتِي عَرَضَهَا النَّصُّ:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠﴾﴾.

وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنَّهَا بِهَذَا التَّرْتِيبِ تُقَدِّمُ لَوْحَةً فَنِيَّةً ، تَطَابِقُ مَا يَحْدُثُ
لِمُشَاهِدٍ وَّاقِعٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَشْهَدِ .

إِنَّهُ لِمَشْهَدٌ يَأْسِرُ بِقُوَّةٍ نَظَرَ إِنْسَانٍ جَالِسٍ فِي خِيَمَتِهِ خَارِجَ الْعِمْرَانِ ، فِي أَرْضٍ
مِنْ أَرْضِ الْعَرَبِ ، وَأَمَامَهُ سَهْلٌ مَمْتَدٌّ ، وَمَرَّتْ قَافِلَةٌ مِنَ الْإِبِلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَفْقِ الْبَعِيدِ ،
وَجِبَالٌ قَائِمَاتٌ مُنْتَصِبَاتٌ دُونَهُ .

وَيَقْدِّمُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ هَذِهِ اللَّوْحَةَ الْفَنِيَّةَ ، لِيَلْفِتَ نَظَرَ الْمَشَاهِدِ مِنْ
خِلَالِهَا إِلَى إِدْرَاكِ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْخَالِقِ ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا آيَاتُ هَذَا الْمَشْهَدِ
الْبَدِيعِ ، وَمِنْهَا أَنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ قَدِيرٌ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قَدْ أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ
صُنْعًا .

• • •

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ

قول الله عز وجل في سورة (الفتح / ٤٨ مصحف / ١١١ نزول):

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَبْتَغُونَ
فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ
فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ
بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٩﴾﴾

﴿والذين معه﴾: أي: أصحابه صلوات الله عليه ورضي عنهم.

﴿أشداء﴾: جمع شديد، والشديد في اللغة القوي، والشجاع، ويأتي بمعنى
الأسد، فأصحاب محمد ﷺ أقوياء شجعان كالأسود.

﴿ركعاً﴾: جمع رايح، وهو من ركوع الصلاة المعروف، ويجمع رايح
على ركوع أيضاً.

﴿سجداً﴾: جمع ساجد، وهو من سجود الصلاة المعروف، ويجمع ساجد
على سجود أيضاً ويقفهم من كونهم ركعاً سجداً أنهم كثيرو الصلاة لربهم.

﴿يبتغون فضلاً من الله﴾: أي: يبتغون أن يمنحهم الله من فضله، أي: من
عطائه وجوده وما يفضلهم به على من سواهم، ومن فضله حفظهم من المعاصي.

﴿ورضواناً﴾: الرضوان بكسر الراء وضمة الرضا.

﴿سيماهم﴾: أي: علامتهم الظاهرة، السیما في اللغة العلامة.

﴿ذلك مثلهم﴾: أي: ذلك وصفهم.

﴿كَزَّرَعٍ﴾: أي: كنبات، الزَّرْع واحد الزروع، والزَّرْع اسم جنس يقع على القليل والكثير.

﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾: شَطْأُ الزرع والنبات فَرَأَحُهُ، وقال الأخفش: طَرَفُهُ.

﴿فَأَزَرَهُ﴾: أي: فَأَعَانَهُ وَقَوَّاهُ.

﴿فَاسْتَعْلَظَ﴾: أي: فَعَلَّظَ وَاشْتَدَّ.

﴿فَاسْتَوَى﴾: أي: فاعتدل، ووصلَ إلى دَرَجَةٍ كماله وقُوَّتِه.

﴿عَلَى سُوقِهِ﴾: سوق جمع «ساق» ساقُ الشجرة جذعُها، ودَلَّ استعمال السُّوق على أن المراد من الزرع عدد كثير منه لا نبته واحدة.

﴿يُعْجِبُ الزَّرْعَ﴾: أي: يُعْجِبُ الَّذِينَ زَرَعُوا الزَّرْعَ إِذْ يَرَوْنَ الْبَهْجَةَ فِيهِ، ومظهر العطاء الوفير.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾: لِيَغِيظَ اللَّهُ بِهِمُ الْكُفَّارَ إِذْ يَرَوْنَهُمْ أَشِدَّاءَ أَقْوِيَاءَ ذَوِي بَأْسٍ شَدِيدٍ وَاتْتِشَارٍ فِي الْأَرْضِ.

في هذه الآية من سورة (الفتح) شَهِدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِصِفَاتٍ وَصَفَ بِهَا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ الْكَرَامَ.

أَمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ فَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَفَّاهُ هَذَا الْوَصْفَ شَرَفًا وَمَجْدًا، إِذِ الرَّسُولُ يَكْتَسِبُ مَجْدَهُ وَشَرَفَهُ مِنْ قَدْرِ الْمُرْسَلِ، وَحُكْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ فِي الْإِصْطِفَاءِ.

وَأَمَّا الَّذِينَ مَعَهُ، وَهُمْ صَحَابَتُهُ الْكَرَامَ، فَقَدْ شَهِدَ اللَّهُ لَهُمْ بِصِفَاتٍ جَلِيلَاتٍ، بَعْدَ اخْتِبَارٍ فِي ظُرُوفٍ شَتَّى مَا بَيَّنَّ الْعَهْدَ الْمَكِّيَّ، وَمُعْظَمَ الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ، لِأَنَّ سُورَةَ (الفتح) قَدْ نَزَلَتْ قَبْلَ ثَلَاثِ سُورٍ هِيَ آخِرُ مَا نَزَلَ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، فَقَدْ نَزَلَتْ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي الطَّرِيقِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُوَ مَنْصَرِفٌ مِنْ صَلْحِ الْحَدِيثِ الَّذِي كَانَ فِي شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ سَنَةِ سِتٍّ لِلْهِجْرَةِ.

وَمِنْ بَدِيعِ هَذِهِ الشَّهَادَةِ أَنَّهَا جَمَعَتْ بِأَدَبٍ رَفِيعٍ بَيْنَ أَمْرَيْنِ:

الأمر الأول: الشهادة لَهُمْ بعد الاختبار بواقع دَلَّت عليه التجربة العملية والمشاهدة الحسية.

الأمر الثاني: الإعلام بأنَّ هذا الواقع المشهود قد كان بشارَةً في خَبَرٍ غَيْبِيٍّ بما سَيَكُونُونَ عليه، وَرَدَّ بَعْضُهُ في كتاب الله التوراة المنزَّل على مُوسَى عليه السلام، وَوَرَدَ بَعْضُهُ الآخر في كتاب الله الإنجيل المنزَّل على عيسى عليه السلام.

أي: فما كان خَبَرًا غَيْبِيًّا في التوراة والإنجيل عَمَّا سَيَكُونُونَ عليه حين يوجَدُونَ، وَيَتَّبِعُونَ مُحَمَّدًا الرَّسُولَ الْخَاتَمَ، ويكونون معه أصحابًا له، قد صار بَعْضُهُ واقعًا مشهورًا بَعْدَ مَحَكِّ التجربة العملية التي تَكْشِفُهَا المشاهدة الحسية، أمَّا بَعْضُهُ الآخر فهو سائر إلى كماله، وقد تحقَّق منه مقدار كبير.

هنا أقول:

هل جاء النصُّ بمثل السَّذَاجَةِ التي يَتَحَدَّثُ بها الناس فيقولون: لقد كنَّا ذَكَرْنَا وَصَفَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ فِي التَّوْرَةِ بِكَذَا، وَذَكَرْنَا وَصَفَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ بِكَذَا، وَهَذَا هُوَ وَاقِعُهُمْ بَعْدَ التَّجَرُّبَةِ الْكَافِيَةِ لِلْحُكْمِ بِالمطابقة قَدْ أَثْبَتَ مَا سَبَقَ أَنْ أَنْبَأْنَا بِهِ قَبْلَ أَنْ يَحْدِثَ بِقُرُونٍ؟

إنَّ أدب القرآن قد ارتفع كثيراً عن هذا المستوى الذي تُقَدِّمُهُ الأفكار بتلقائيتها الساذجة.

إنَّما كان أدب القرآن باختيار الأسلوب الذي يَشْهَدُ فِيهِ الْبَيَانُ عِنْدَ التَّنْزِيلِ بِمَا هُوَ قَائِمٌ مُتَحَقِّقٌ، مَعَ بَيَانِ أَنَّهُ هُوَ مَا سَبَقَ أَنْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي التَّوْرَةِ إِنْبَاءً غَيْبِيًّا، عَنْ مُسْتَقْبَلٍ سَيَتَحَقَّقُ فِيهِمْ.

أمَّا ما لم يَزَلْ فِي دَوْرِ التَّحَقُّقِ السَّائِرِ إِلَى كَمَالِهِ الْمُرْتَقِبِ، فَقَدْ اخْتَارَ الْبَيَانُ أَنْ يَنْقُلَ الْخَبَرَ الَّذِي كَانَ قَدْ نَزَلَ بِشَأْنِهِمْ فِي الْإِنْجِيلِ، لِيُعْلَمَ أَنَّ بَعْضَهُ قَدْ تَحَقَّقَ بِدَلِيلٍ

المشاهدة، وأنَّ بعضه الآخر آتٍ على أسلوب التَّنَامِي المتدرِّج قياساً على ما تحقَّق منه .

فلتتدبَّر النَصَّ بتأمُّلٍ وإمعانٍ نَظَرٍ . يقول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ﴾ .

فشهدَ الله في هذا النصِّ لأصحابِ محمد ﷺ الذين هُم معه بصفاتٍ هي :

أولاً : أَنَّهُمْ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ، أي : أقوياء شُجْعَان كَالْأَسُودِ ، وذلك في حالة المواجهة القتالية التي يَحْسُنُ أَنْ تظهر فيها الشدَّة .

والمراد من الكفار هم الذين اختاروا لأنفسهم بَعْدَ معرفة الحق سبيلَ الكُفْرِ جُحوداً وعناداً ، لا الَّذِينَ هُم بِالْحَقِّ والباطل جَاهِلُونَ . فلقد اتَّخَذَ الرَّسُولُ أو الدِّعَاءَ من المؤمنين مختلف الوسائل لتعريفهم بالحقِّ والباطل ، وهدايتهم وإرشادهم ، وترغيبهم وترهيبهم ، وتقديم ما فيه إقناع أي طالب حقٍّ ، حريصٍ عليه ، مستعدٍّ لأن يؤمن به متى اكتشفه وعرفه .

ثمَّ إِنَّهُمْ مع رُفُضِهِم للحقِّ لم يَقْتَصِرُوا على ما اختاروا لأنفسهم من الكفر القاصر على ذواتهم ، بل اختاروا لأنفسهم سُبُلَ صِدِّ النَّاسِ عن الإيمان بالدين الحقِّ ، وَكَمْ أَفْوَاهُ الدِّعَاءِ الْهَدَاةِ إِلَيْهِ ، وَمُقَاوِمَتِهِمْ وَمُقَارَعَتِهِمْ والتَّنْكِيلُ بهم ومُقَاتَلَتِهِمْ في مَعَارِكٍ حَرْبِيَّةٍ .

وبسبب ذلك يُضْطَرُّ دَعَاةُ الْحَقِّ أَنْ يُدَافِعُوا وَيُقَاتِلُوا ، وَيَرُدُّوا كَيْدَ الْكُفَّارِ ، وَكُلُّ مَنْ يَقِفُ في سبيلِ دَعْوَتِهِمْ مُعَارِضاً وَمُقَاوِماً انتشارها .

عندئذٍ يقفون أقوياء شُجْعَاناً كَالْأَسُودِ ، يُقَارِعُونَ الْكُفَّارَ وَيُقَاتِلُونَهُمْ بِكُلِّ بَسَالَةٍ وبأسٍ وتضحية .

لكنَّ شِدَّتَهُمْ على الْكُفَّارِ لَا تَجْعَلُ الْقِتَالَ وَالْقَتْلَ مِهْنَةً لَهُمْ تُشَوِّهُ صُورَةَ

نُفُوسِهِمْ، فَتَجْعَلُهُمْ أَشَدَّاءَ دَوَامًا، لِأَنَّهَا شِدَّةٌ عَارِضَةٌ وَلِغَرَضٍ مَحْدُودٍ، أَمَّا حَالَةُ نُفُوسِهِمُ الْأَصْلِيَّةِ فَهِيَ أَنَّهُمْ رُحَمَاءُ فِيمَا بَيْنَهُمْ دَاخِلَ مُجْتَمَعِهِمُ الْإِسْلَامِيِّ.

كَمَا أَنَّ رَحْمَتَهُمْ بِالنَّاسِ هِيَ الَّتِي جَعَلَتْهُمْ يُرِيدُونَ الْهَدَايَةَ وَالْخَيْرَ وَالسَّعَادَةَ لِلنَّاسِ كُلِّ النَّاسِ، وَيُضَحُّونَ بَأَنْفُسِهِمْ مِنْ أَجْلِ خَيْرِ الْبَشَرِيَّةِ، وَإِعْلَامُهَا بِالْحَقِّ الَّذِي أَصْطَفَاهُمْ اللَّهُ لِتَبْلِيغِهِ.

وَكُونُهُمْ رَحَمَاءَ بَيْنَهُمْ لَهُ ظَوَاهِرُ فِي سُلُوكِهِمْ مِنْهَا: إِرَادَةُ الْخَيْرِ لِكُلِّ الْمُسْلِمِينَ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالبَذْلُ وَالْعَطَاءُ، وَالْمَوَدَّةُ وَالْإِخَاءُ، وَمُسَاعَدَةُ ذَوِي الضَّرُورَاتِ وَالْحَاجَاتِ، وَالْإِثَارُ عَلَى الْأَنْفُسِ أحيانًا، إِلَى كُلِّ مَا فِيهِ شِدَّةٌ أَوْ أَصْرُ الرُّوَاطِ الْجَمَاعِيَّةِ.

ثَانِيًا: أَنَّهُمْ كَثِيرُو الصَّلَاةِ بِرَبِّهِمْ وَالْخُضُوعِ لَهُ، وَالتَّذَلُّلِ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْ تَرَاهُمْ أَيُّهَا الرَّائِي الْمُشَاهِدُ لَهُمْ أَيًّا كُنْتَ رُكْعًا سُجْدًا يَتَّبِعُونَ بِنِيَاتِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ، وَبِأَدْعِيَتِهِمْ بِالسُّتُهِمْ وَأَصْوَاتِهِمْ، أَنْ يَمْنَحَهُمُ اللَّهُ خَالِقُهُمْ وَبَارِئُهُمْ فَضْلًا مِنْ عَطَائِهِ وَكَرَمِهِ وَجُودِهِ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَأَنْ يَشْمَلَهُمْ بِرِضْوَانٍ مِنْهُ، الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ نَعِيمِ الْجَنَّةِ.

وَمِنْ عِلَامَاتِ كَثْرَةِ سَجُودِهِمْ فِي صَلَوَاتِهِمْ سِيَمَا (أَيُّ: عِلَامَةٌ) تَظْهَرُ عَلَى وَجُوهِهِمْ، فِي جِبَاهِهِمْ وَأَنْوْفِهِمْ مِنْ أَثَرِ السَّجُودِ، وَاكْتَفَى النَّصُّ بِذِكْرِ الْوُجُوهِ لِأَنَّ السُّجُودَ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى الْجَبْهَةِ وَالْأَنْفِ مِنَ الْوُجْهِ، فَفِيهِمَا يَظْهَرُ أَثَرُ السَّجُودِ الْمُتَكَرِّرِ الطَّوِيلِ.

وَيَلَاظُ الْمَتَدَبِّرُ أَنَّ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ بِكَثْرَةِ السَّجُودِ وَطَوِيلِهِ مَعْنَى تَمْجِيدِ كُلِّ مَنْ هُوَ كَثِيرُ السَّجُودِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْعَبْدَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ بَاطِنًا وَظَاهِرًا.

وَلَعَلَّ فِي اخْتِيَارِ تَنْزِيلِ هَذِهِ الصِّفَاتِ مِنْ صِفَاتِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي التَّوْرَةِ، تَوْجِيهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ مَادِيَّتِهِمْ الْمَفْرُطَةِ، وَجُبْنِهِمْ وَأَنَانِيَّتِهِمْ وَنَقْصِ خُلُقِ التَّرَاحِمِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَتَحْرِيكِ غَيْرَتِهِمْ لِلتَّشْبِيهِ بِأَصْحَابِ الرُّسُولِ الْخَاتَمِ

الذي نزلت المبشرات بمقدمه في كتابهم وعلى لسان رسولهم، وأخذ الله عليهم
العهد أن يؤمنوا به ويتبعوه حينما يبعثه.

أما الوصف الذي أنزله الله عز وجل في الإنجيل لأصحاب محمد
رسول الله ﷺ، فيقول الله بشأنه:

﴿وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ
يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.

فدل هذا التشبيه على أنهم في تناميهم وتكاثرهم واشتداد قوتهم، والمظهر
البهيج الذي يكونون عليه، والإنتاج العظيم الذي يقدّمونه، الذي يُعجب المؤمنين
زُرَّاع الخير، ويغيط الجاحدين كُفَّار الحق، كَزَرْع نبت نباتاً حسناً وفق نظام النبات
في أخصب أرضٍ وأحسن شروط، بدليل أنه أخرج شطأه (أي: فروحه من
جوانبه)، ولا يكون ذلك إلا في زرع خصيب، وبدليل أن هذا الشطء اشتدّ ونما
بسرعة فازر أصله بالقوة والحماية، فاستغلظ بذلك الأصل واشتدّ ونما، واعتدل
بذلك الزرع مستوياً على سوقه.

ودلّ العطف بالفاء لأفعال (فآزره - فاستغلظ - فاستوى) على التعاقب من
دون إبطاء عن مواعيدها النظامية في سنة التنامي، ومن دون أن تعوقها عقبات
ولا أية معوقات.

وإذ استوى الزرع على سوقه فإنّ الذهن يستطيع أن يُتمّ ما بقي من تصوير
حالة هذا الزرع من ظهور سنبله وثمراته ووفرة عطاء الخير، لذلك سكت عنه
النص، وتوقف عند ﴿فاستوى على سوقه﴾، وفي قول الله عز وجل بعد ذلك:
﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾، ما يتضمّن الإلماح إليه، لأنّ ما يُعجب الزُّرَّاع ليس مجرد نبات
اشتدّ ونما، ولكن ما يحمل من رزق وفير وخير كثير.

هكذا كان حال الذين مع محمد رسول الله ﷺ من أصحابه الأخيار الميامين،

تكاثراً ونماءً وشِدَّةً وقُوَّةً وثمراتٍ وفيراتٍ، فَهُم بِكُلِّ ذَلِكَ يُشِيرُونَ الإعجاب إلى حَدِّ الدَّهْشَةِ.

وَإِذْ اُنْتَهَى المثل عند هذا ودلَّ على ما يُرادُّ منه من تشبيه أصحاب محمَّد رسول الله ﷺ بالزرع في عدَّة عناصر مركَّبة يجتمع منها وجه الشَّبهِ، وَإِذْ أُحْضِرَتْ صورةُ المشبَّه في ذهن السامع أو التالي للنصِّ، عند هذا جاء الغطاء للمثل كأنَّه عَيْنُ الممثلِ له، فقال عزَّ وجلَّ في روعة إبداعِيَّةٍ على طريقة القرآن في أمثاله:

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾:

أي: ليغيظ الله بأصحاب محمد الذين معه، الكفَّارَ الذين جحدوا رسوله وكذَّبوا بما جاء به عن ربِّه، إنهم يشتدُّون غيظاً حينما يروُنَ تكاثر أصحاب محمَّد، وقُوَّتَهم المهيَّأة لاكتساح قُوَى الكفر، ودكَّ عروشه، وتحطيم زعاماته.

إِنَّ اختيار التعبير بإغاية الكفار يدلُّ على كُلِّ هذه المعاني، لأنَّ الغيظ حركة نفسِيَّة تولِّدها مشاعر ألم شديد من قُوَّة ضاغطة، وما دام الكفَّار حريصين على مُقارعة المؤمنين، وكتَّم أنفاس دعوتهم، والتغلُّب عليهم، حتى رغبة القضاء عليهم، فإنَّ تكاثرهم وتنامي قُوَّتِهم واشتداد بأسهم أمورٌ تمنع الكفَّار من تحقيق أهدافهم فيهم بقُوَّة ضاغطة، فيؤلِّمُهم ذلك ويغيظُهم أشدَّ الغيظ.

واقصر النصُّ بتعبير الإغاية ليدلَّ بإيحاءاته على كُلِّ هذه المعاني، وهذا من روائع الإيجاز، والاكتفاء باللمح، والاعتماد على ذكاء المتلقِّي، وكلُّ ذلك من نفيس الأدب والإبداع فيه.

وبين الكفَّار والزُّرَّاع تناسب، إِذْ يُطْلَقُ في اللُّغة على الزُّرَّاع اسم «كافر» وجمَّعه كُفَّار، فالزُّرَّاع كُفَّارٌ في مزارعهم، إِذْ يَغْطُونَ ساترين في أرضها البُزُور بالتراب، ومنه تُسمَّى المزارع والقرى كفوراً واحداً كُفْر.

والكُفَّار في الدِّين يَغْطُونَ وَيَسْتُرُونَ بُزُور الحقِّ والخير بالإنكار والجحود، ويُوْهِمُونَ بذلك أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ أَنَّهَا حقٌّ وخيرٌ، وَيَسْتُرُونَهَا أيضاً بزخرف القول

وإدعاءات أن ما هم عليه من باطل هو حق، وأن ما هم عليه من شر هو خير.

ولا شك أن استخدام لفظ «الكفار» ذي الدالّتين اللّتين تجمعهما المناسبة في النصّ الواحد، هو من الحيل الأدبيّة الجميلة، المُعجبة، لِدُوقِ الأديب، فجاء الاختيار للفظ «الكفار» في ﴿ليغيظ بهم الكُفَّار﴾ دون مُساويها من الألفاظ كالجاحدين والمكذّبين والمجرمين ونحو ذلك.

وهنا نلاحظ أن الله عزَّ وجلَّ قال في هذا النصّ: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعُ﴾ فلم يُطلق عليهم هنا لفظ «الكُفَّار» بمعنى الزُّرَّاع، مثلما ذكر في آية سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف / ٩٤ نزول):

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾.

﴿الكُفَّارُ﴾: أي: الزُّرَّاع.

ويبدو أن السبب في ذلك يرجع إلى أمرين:

الأمر الأول: أن الزُّرْعَ قد ضُرِبَ في سورة (الفتح) مثلاً للمؤمنين، فلا يناسب أن يُطلق على زُرَّاعِهِ اسم «كُفَّار» لاشتراك اللَّفْظِ بين معنى الزُّرَّاع ومعنى الكفار في الدين.

الأمر الثاني: أنه لو قال: «يُعجب الكُفَّارُ نَبَاتُهُ»، وقد قال بعده: «ليغيظ بهم الكُفَّار» لحصل شبه تَنَافٍ في ظاهر اللَّفْظِ، إذ كيف يعجبُ الكُفَّار ويغيظُ الكُفَّار معاً، واستخدامُ الجِناسِ التَّامِّ هنا من نوع الإلغاز الذي يُضَعِّف من قيمة النصّ أدبيّاً ولا يُحسِّنُه، مع ما في تكرير اللفظ بهذه الصورة من جَسٍّ غَيْرٍ مُحِبٍِّ للحسِّ الجمالي.

* * *

التوجيه الضمني من خلال التشبيه :

ويلاحظ في تشبيه أصحاب محمد ﷺ في نمائهم ونكاثرتهم وقوتهم، وكثرة ثمراتهم وخيراتهم بزرع أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعْجَبُ الزَّراع، التَّوجِيهُ الضَّمْنِيُّ للأسلوب الأمثل الذي يتحقَّقُ به بناء أمةٍ مُثَلِّى كَأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

إنَّ التَّشْبِيهَ بِالزَّرْعِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَمَلِيَّةَ تَبْدَأُ بِإِعْدَادِ الْأَرْضِ وَتَهْيِئَتِهَا لِبَذْرِ الْبُزُورِ الصَّالِحَةِ فِيهَا، حَتَّى تَنْبُتَ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِ. ثُمَّ بِاخْتِيَارِ الْبُزُورِ الصَّالِحَةِ وَوَضْعِهَا فِي مَوَاضِعِهَا مِنَ الْأَرْضِ عَلَى أَحْسَنِ طَرِيقَةٍ لِإِنْبَاتِ الزَّرْعِ الْمُعْجَبِ، وَبَسْطِهَا عَنِ الْأَنْظَارِ حَتَّى لَا تَأْكُلَهَا الطُّيُورُ وَحَشَرَاتُ الْأَرْضِ، ثُمَّ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ أَعْمَالُ السَّقْيِ بِمَوَاعِيدِهَا الْمُنَاسِبَةِ، وَأَعْمَالُ التَّعَهُّدِ وَالْحِمَايَةِ، وَالتَّرْبِيَةِ الْمَتَدَرِّجَةِ.

بذلك تنبت الزروع بفضل الله، وتخرج سوقها، ثم تخرج فروخ السوق، إذ تكون كلُّ بَزْرَةٍ بِمُثَابَةِ أُسْرَةٍ ذَاتِ أَصْلٍ غَلِيظٍ، حَوْلَهُ فُرُوحُهُ الَّتِي تَوَازَرُهُ وَتَقْوِيهِ، وَهَكَذَا يَنْمُو الزَّرْعُ وَيَمْتَدُّ وَيَفْرُخُ، وَيَشْتَدُّ وَيَقْوَى وَيَتَكَاثَرُ حَتَّى يُعْطِيَ أَحْسَنَ الْإِنْتِاجِ وَأَفْضَلَ الثَّمَرَاتِ بِفَضْلِ اللَّهِ.

على مثل هذه الصورة يكون بناء الأمة الفاضلة الرشيدة، وهذه هي سنة الله في الخلق.

إنَّ الْحَقُولَ الزَّرَاعِيَّةَ النَّبَاتِيَّةَ، وَحَقُولَ الزَّرَاعَةِ الْبَشَرِيَّةِ، سَوَاءٌ فِي خَطَّةِ النِّظَامِ الْكُلِّيِّ الْعَامِّ.

فَعَلَى الْمَرْتَبَيْنِ أَنْ يَنْتَفِعُوا مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي الزَّرْعِ، وَيَقِيسُوا عَلَيْهَا أَعْمَالَهُمْ فِي إِنْشَاءِ الْمَجْتَمَعِ الْفَاضِلِ الَّذِي يُرِيدُونَ إِنْشَاءَهُ.

وقد يلاحظ المتدبِّرُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ ذَكَرَ هَذَا الْوَصْفَ مِنْ أَوْصَافِهِمْ فِي الْإِنْجِيلِ، مَثَلًا فِيهِ عَلَيْهِمُ، لِتَوْجِيهِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِعَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَيْفَ يَنْشُرُونَ

دين الله، ويبنون المجتمع الرباني الأمثل، مع ما فيه من بشارة بمحمد وأصحابه القادمين من بعدهم.

* * *

ختم الآية :

وبعد أن شهد الله لأصحاب محمد بأنهم قد حققوا في واقعهم التطبيقي ما كان قد أخبر الله عز وجل به مبشراً بالتوراة والإنجيل، ختم سبحانه الآية بقوله : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٩).

فدل بهذا على أن المقصودين بقوله في أول الآية ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ هم الذين آمنوا إيماناً صادقاً، وعملوا الصالحات. فخرج بذلك المنافقون والذين في قلوبهم مرض، وهؤلاء هم الذين قد وعدهم بأمرين :

الأمر الأول: مغفرة عظيمة لسيئاتهم وخطاياهم، أي: فهم ليسوا بمعصومين عن الذنوب والمعاصي والخطايا مع ارتفاع منازلهم وعلو مقاماتهم، فقد يقعون بالذنوب والمعاصي والخطايا، لكنهم لا يصرون عليها بل يستغفرون.

الأمر الثاني: أجر عظيم لهم على إيمانهم وأعمالهم الصالحات، ومن أعمالهم الصالحة جهادهم في سبيل الله، ونشرهم لدينه، ونصرتهم لرسوله.

أفليس هذا النص من روائع نصوص الأدب، مع ما اشتمل عليه من حقائق فكرية؟؟!

• • •

الصُّورَةُ الثَّامِنَةُ

قولُ الله عزَّ وجلَّ في (سورة الأنفال / ٨ / مصحف / ٨٨ نزول) وهي ثاني سورة مدنيَّة :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَعْمَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿لِيَمِيزَ﴾: أي: لِيَفْصَلَ وَيَقَرِّرَ وَيَعَزِّلَ. يقال لغة: مَازَ أَشْيَاءَ مِنْ أَشْيَاءَ وَمِيزَهَا، إِذَا فَصَّلَهَا وَفَرَزَهَا وَعَزَّلَهَا.

﴿الْخَبِيثَ﴾: هو الرَّدِيءُ الفَاسِدُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَالْكَرِيهُ الْمُسْتَقْدَرُ. وَالْأَشْيَاءُ النَّجِسَةُ. وَالْخَبِيثُ مِنَ النَّاسِ السَّيِّئُ الْفَاسِدُ، وَالكَافِرُ الْمَجْرَمُ.

وَصَدَّهُ الطَّيِّبُ، وَوَصَفَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِأَنَّهُمْ طَيِّبُونَ وَطَيِّبَاتٌ، وَوَصَفَ الْكَافِرِينَ وَالْكَافِرَاتِ بِأَنَّهُمْ خَبِيثُونَ وَخَبِيثَاتٌ، كَمَا وَصَفَ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُمْ نَجَسٌ. وَبِأَنَّهُمْ رَجَسٌ. وَوَصَفَ الْكُفْرَ وَالشُّرْكَ وَطَائِفَةً مِنْ كِبَائِرِ الْإِثْمِ بِأَنَّهُمْ رَجَسٌ. كَمَا وَصَفَ كُلَّ ذَلِكَ بِأَنَّهُ خَبِيثٌ.

فَاشْتَرَكَتْ أَلْفَاظُ الْخُبْثِ، وَالرَّجْسِ، وَالنَّجَسِ، فِي أَنَّهَا تُطْلَقُ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَفْكَارِ وَالْعُقَائِدِ وَالنِّيَّاتِ الرَّدِيئَةِ الْفَاسِدَةِ الْمُسْتَقْدَرَةِ.

﴿فَيَرْكُمَهُ﴾: أي: فَيُلْقِي بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ مِنْ دُونِ آيَةٍ عِنَايَةٍ بِشَأْنِهِ.

الرُّكْمُ فِي اللُّغَةِ: إِلقَاءُ الْأَشْيَاءِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، كَمَا يَفْعَلُ النَّاسُ بِالتُّرَابِ، وَالرَّمَالِ، وَالْقَمَامَاتِ، وَالْأَنْقَاصِ الَّتِي يُرَادُ التَّخَلُّصُ مِنْهَا، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ بِالْمُسْتَقْدَرَاتِ وَالنَّجَاسَاتِ.

في هذا النصّ القرآني من سورة (الأنفال) صورةً بيانيّةً أدبيّةً بديعة، مع جوانب أخرى أدبيّة لمُحيّة الأداء، دقيقة التعبير، سامية الهدف.

النصّ هنا يلتقط لقطاتٍ من مشهدٍ طويل، وهذه اللّقطات كافيّات لتدلّ أهل التدبّر العميق، والتّفكير الدقيق، لتدلّ أهل اللّمع الذين تُسعفهم بديّتهم الذّكيّة، على سائر عناصر المشهد.

العنوان: [وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ] أي: مَسِيرُهُمْ، وغايّة رحلاتهم من الموت إلى البعث والنشور إلى الحشر إلى الحساب والمحاكمة والحكم الجزائي، إلى التمييز عن سائر الخلائق، إلى الجمع الرّكامي، إلى الإلقاء والنّبذ، إلى جَهَنَّمَ.

فجمع العنوان صفتهم في الدنيا، وغايّة أمرهم يوم الدين.

واقتصر البيان بعد العنوان على ما يلي:

اللّقطة الأولى: ﴿يُحْشَرُونَ﴾: أي: يُجمَعون يوم القيامة في أرض المَحْشَرِ، مع سائر الخلائق التي بعثت ونُشِرت للحساب والجزاء.

ودلّت لقطة [يُحْشَرُونَ] على لقطاتٍ هي قبّلها، فالْحَشْرُ مَسْبُوقٌ باستكمال رحلة الحياة الدنيا، فالموت، فالْبَرْزَخُ بين الموت والبعث، فالبعث والنشور، وبَعْدَ هذه اللّقطات المطوّية في النصّ يأتي الحشر.

ودلّت عبارة [يُحْشَرُونَ] على حركةٍ حشريّةٍ تَتَابُعيّةٍ، لا تتمّ دفعةً واحدة، بل تتوالى خلال مُدّة الزّمن.

ودلّت أيضاً مع قرائن آياتٍ نزلت قبل هذا النصّ من نجوم التنزيل على الغاية من الحشر وهي المحاسبة فالمحاكمة، فالحكم.

اللّقطة الثانية: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾: هذه اللّقطة البيانيّة تُبيّن علّة حدثٍ مطوّيٍّ من أحداثٍ شريط المشهد، فهي بهذا التعليل تدلّ عليه،

وباستِطَاعَةِ الذَّهْنِ أَنْ يَسْتَدْعِيَهُ بِالتَّأَمُّلِ ، فَبَعْدَ إِصْدَارِ الْحُكْمِ عَلَيْهِم بِالْكَفْرِ وَبِأَنَّهُمْ مُجْرِمُونَ ، وَبِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ جَهَنَّمَ ، لَا يُعَادُونَ إِلَى حَيْثُ كَانَتْ مَوَاقِفُهُمْ فِي الْمَحْشَرِ ، بَلْ يُسَاقُونَ إِلَى مَكَانٍ خَاصٍّ ، فَالْحُكْمُ عَلَيْهِمْ مَا رَزَهُمُ اللَّهُ بِهِ ، فَكُشِفَ أَنََّّهُمْ خَبِيثُونَ ، وَسُوقُهُمْ إِلَى مَكَانٍ خَاصٍّ بِهِمْ مَا رَزَ اللَّهُ بِهِ أَجْسَادَهُمْ وَنَفُوسَهُمْ ، مِنْ أَجْسَادِ الطَّيِّبِينَ وَنَفُوسِهِمْ ، وَجَعَلَهُمْ بِذَلِكَ مَفْرُوزِينَ مَعْرُوزِينَ .

وَهُنَا يَتَسَاءَلُ الذَّهْنُ : هَلْ سَيَكُونُونَ فِي مَكَانِهِمُ الْجَدِيدِ الَّذِي فُرِزُوا إِلَيْهِ ، مِثْلَ مَا كَانُوا فِي أَمَكْتَبَتِهِمْ فِي الْمَحْشَرِ ، مُخْتَلَطِينَ مَعَ الطَّيِّبِينَ ؟

وَيَأْتِي الْجَوَابُ فِي :

اللَّقْطَةُ الثَّالِثَةُ : ﴿ وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ﴾ : وَدَلَّتْ هَذِهِ اللَّقْطَةُ عَلَى أَنََّّهُمْ يُجْمَعُونَ مُمَيِّزِينَ مَفْرُوزِينَ جَمْعًا ضَاغَطًا ، يَكُونُ فِيهِ بَعْضُهُمْ ضَاغَطًا عَلَى بَعْضٍ .

وَحَتَّى لَا يُتَوَهَّمَنَّ أَنَّ هَذَا الْجَمْعَ الضَّاغَطَ مَصْحُوبٌ بِتَصْفِيْفٍ وَعَنَاقِيَةٍ وَتَرْتِيبٍ فِيهِ نِظَامٌ مَا جَاءَتْ :

اللَّقْطَةُ الرَّابِعَةُ : ﴿ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا ﴾ ، فَابْرَزَتْ هَذِهِ اللَّقْطَةُ مِنَ الْمَشْهَدِ أَنَّهُ جَمْعُ رُكَّامِيٍّ ، كَمَا يَجْمَعُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا الْقِمَامَاتِ وَالنَّفَايَاتِ ، وَالْمُسْتَقْدَرَاتِ ، وَالْأَشْيَاءَ الْخَبِيثَةَ النَّجِسَةَ .

وَعَلَى الْخِيَالِ أَنَّ يَرْسُمُ صُورَةَ هَذَا الرُّكَّامِ الْبَشَرِيِّ فِي الْمَحْشَرِ الضَّيِّقِ الَّذِي ائْتَمَزَ بِهِ الْمَجْرُمُونَ ، الْمَحْكُومُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ .

وَدَلَّتْ (الْفَاءُ) فِي : ﴿ فَيَرْكُمُهُ ﴾ عَلَى أَنَّ عَمَلِيَّةَ الرُّكْمِ تَأْتِي عَقِبَ السُّوقِ إِلَى مَكَانٍ تَمَيِّيزِهِمْ وَفَرَزِهِمْ فِي مَحْشَرٍ خَاصٍّ بِهِمْ .

حَتَّى إِذَا انْتَهَى فَرَزُهُمْ ، وَرَكُمُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي رُكَّامِ الْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثَاتِ ، بِدَلَالَةِ كَلِمَةِ ﴿ جَمِيعًا ﴾ جَاءَ دُورُ :

اللِّقْطَةُ الْخَامِسَةُ: ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾، فدلَّت هذه اللَّقْطَةُ عَلَى أَنَّ إلقاءَهُمْ فِي جَهَنَّمَ يَكُونُ عَقَبَ اسْتِكْمَالِ فَرْزِهِمْ وَرُكْمِهِمْ مِنْ دُونَ إِبْطَاءٍ وَلَا تَرَاحٍ زَمَنِيٍّ .
وَأَسْتَحَقُّوا مُنْذُ صَدَرَ الْحُكْمُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْلُبَهُمُ اللَّهُ وَصَفَ التَّكْرِيمِ الَّذِي كَرَّمَ بِهِ بَنِي آدَمَ، إِذْ ذَكَرَهُمْ تَحْتَ عُنوانِ صِنْفٍ خَبِيثٍ مِنْ خَبِيثَاتِ الْأَشْيَاءِ الرُّكَّامِيَّةِ .
وهذا مِنْ بَرَاةِ الْأَدَاءِ، فِي انتِقَاءِ الْأُسْلُوبِ التَّعْبِيرِيِّ الْمَلَائِمِ .

وَكَفَى النَّصَّ هَذَا بَعْبَارَةَ الْجَعْلِ فِي جَهَنَّمَ، لِأَنَّ صُورَةَ هَذَا الْجَعْلِ قَدْ جَاءَ تَقْدِيمُ لُوحَاتٍ لَهَا نَزَلَتْ قَبْلَ هَذَا النَّصِّ مِنْ سُورَةِ (الْأَنْفَالِ) وَذَلِكَ فِي :

١ - قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (ق / ٥٠ مصحف / ٣٤ نزول) خطاباً لِصِنْفِي قُرْآنٍ الْبَشَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ :

﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَقَارِ عَيْنٍ ۖ ﴿٢٤﴾ مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ۖ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخِرًا فَلْيُفَيْهِ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۖ ﴿٢٦﴾﴾ .

٢ - وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الشعراء / ٢٦ مصحف / ٤٧ نزول) :

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۖ ﴿١١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ آتِنَا مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ ﴿١٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ۖ ﴿١٣﴾ فَكَبَّكُوا فِيهَا هُمُ وَالْغَاوُونَ ۖ ﴿١٤﴾ وَخُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۖ ﴿١٥﴾﴾ .

٣ - وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النمل / ٢٧ مصحف / ٤٨ نزول) :

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۖ ﴿٩٠﴾﴾ .

فَالْجَعْلُ فِي جَهَنَّمَ يَكُونُ إِلقاءً، وَكَبْكَبَةً جَمَاعِيَّةً عَلَى رُؤُوسِهِمْ، وَوَصُولاً كَبَّاً فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، فَتَكَامَلَتْ بِذَلِكَ لُوحَاتِ النُّصوصِ فِي تَصْوِيرِ الْمَشْهَدِ، وَيَكُونُ نَبْذاً مُهيناً فِي الْحَطْمَةِ لِلْكَافِرِ الْهَمْزَةُ اللَّمْزَةُ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الْهَمْزَةُ / ١٠٤ مصحف / ٣٢ نزول)

وَبِاسْتِقْرَارِهِمْ فِي جَهَنَّمَ دَارٍ عِقَابِهِمْ عَلَى إِجْرَامِهِمْ فِي رَحْلَةِ ابْتِلَائِهِمْ، تَحَقَّقَتْ

خَسَرْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ، بحرمانهم من كلِّ لَذَّةٍ، وكلِّ سعادةٍ، وكلِّ راحةٍ، وبتَحْمِيلِهِمْ
الْأَمَّ مَا يُعَذِّبُونَ بِهِ مِنَ أَلْوَانٍ تَعَذِيبُ جَزَاءً وَفَاقًا.

أَمَّا اللَّذَاتُ الْعَاجِلَاتُ، وممتلكاتُ الحياة الدنيا التي من أجل الحصول عليها
بذلوا ما كَانَ مُعَدًّا لَهُمْ فِي دَارِ النِّعَمِ لَوْ آمَنُوا وَعَمِلُوا صَالِحًا، فلم يَبْقَ لَدَيْهِمْ مِنْهَا
شَيْءٌ، وَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهَا كَانَتْ سَرَابًا، وَمَتَاعًا سَرِيعًا، وَأَبْنِيَّةً مِنَ الْأَوْهَامِ وَالتَّخِيلَاتِ.

وإذا كانت الحياة الدنيا سُوقَ تِجَارَةٍ، تَقَامُ لَوَقْتٍ قَصِيرٍ، ثُمَّ تُقَوَّضُ خِيَامُهَا،
وَتُقْفَرُ أَرْضُهَا، فَمَنْ هُمْ أَعْظَمُ الْخَاسِرِينَ فِيهَا، الَّذِينَ خَسِرُوا كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى
أَنْفُسَهُمْ، وكلِّ راحةٍ وسعادةٍ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ؟

لَا شَكَّ أَنَّهُمْ هَؤُلَاءِ الْخَبِيثُونَ وَالْخَبِيثَاتُ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ:
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ
الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ... ﴿٣٧﴾.

إِذَنْ: فَمِنْ الْحَقِّ أَنْ يُخْتَمَ النَّصُّ بَعْدَ عَرْضِ هَذِهِ الصُّورَةِ الْبَيَانِيَةِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ
عَنْهُمْ، الْمَقْتَطَعَةِ مِمَّا سَيَجْرِي لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ﴾ أَي: الْخَاسِرُونَ لِكُلِّ شَيْءٍ.

أَمَّا الْخَسَارَاتُ الْجُزْئِيَّةُ فَتَكُونُ لِلْعَصَاةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَيْضًا.
وَنَقْصُ فَيُوضِ الْأَرْبَاحِ يَكُونُ لِلْمَقْصِّرِينَ عَنْ دَرَجَاتِ الْمَرَاتِبِ الْعُلْيَا فِي
جَنَّاتِ النِّعَمِ.

• • •

الصُّورَةُ التَّاسِعَةُ

في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول) قال الله عزَّ وجلَّ خطاباً لرسوله محمد ﷺ، ثُمَّ لِكُلِّ دَاعٍ مِنْ أُمَّتِهِ يَدْعُو إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ، فِي وَصَايَا التَّنْزِيلِ الْمَكِّيِّ:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٩) وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ ۖ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٤١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴿٤٣﴾

جاء هذا النص بعد إحدى عشر آية يعلم الله فيها رسوله والدعاة من أُمَّته مناظرة جدليّة يُناظرون بها المشركين، لإقناعهم بأنَّ ما هم فيه من شركٍ باطلٍ بلا شبهة، وأنَّ توحيد الله في ربوبيّته وإلهيّته هو الحق بلا شبهة.

وعقب هذا التعليم جاء قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ...﴾ الآيات.

إنَّ المتدبّر اللَّمَّاحَ يَدْرِكُ أَنَّ مُنَاطِرَةَ مُشْتَمِلَةً عَلَى حُجَجٍ بُرْهَانِيَّةٍ مُّقْنِعَةٍ لِمَنْ أَرَادَ الْحَقَّ، وَدَامِغَةٍ لِمَنْ أَصْرَّ عَلَى الْبَاطِلِ، كَالْمُنَاطِرَةِ الَّتِي أُرْشِدَتْ إِلَيْهَا الْآيَاتُ السَّابِقَاتُ لِهَذَا النَّصِّ، سَتَلْجِئُ الْمَصْرِئِينَ عَلَى بَاطِلِهِمْ، أَنْ يَتَّخِذُوا وَسَائِلَ يُغْطُونَ بِهَا هَزِيمَتَهُمْ فِي مَجَالِ الْمُنَاطِرَةِ الْفِكْرِيَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْحُجَجِ الْبُرْهَانِيَّةِ الدَّامِغَةِ، وَمِنْ هَذِهِ الْوَسَائِلِ اللَّجُوءُ إِلَى السَّبَابِ وَالشَّتَائِمِ، وَالتَّجْرِیحاتِ وَالْإِتِّهَامَاتِ الشَّخْصِيَّةِ، وَالشَّعْبِ وَالغَوْغَائِيَّةِ، وَالْهُرُوبِ إِلَى الْمَغَالِطَاتِ، وَالرَّوْغَانِ عَنْ سَاحَةِ الْمُنَاطِرَةِ.

فما هو موقف الدّاعي المناظر تُجَاه هذه الوسائل القذرة التي يلجأ إليها المنهزمون في مجال الفكر والعلم؟

أيتابعهم على طريقتهم، حتى تتحوّل حلبة المناظرة العلميّة الفكرية إلى حظيرة تشائمٍ وسبّابٍ، وعندئذ يكون أغلب الخصميين أكثرهم سفاهةً وأعلامهم نباحاً؟

أم ينفو، ويقطع ألسنة الشتائم بالعطاء، ويُعرض عن الجاهلين السفهاء؟
إنّ التوجيه القرآنيّ يقول لمن تعرّض لمثل هذا الموقف: [خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ].

هذه الآية على إيجازها البديع تحكي قصّة معاناة الداعي إلى الله، المناظر بالمنطق العقلي والحجج البرهانية العلمية، وما يلقاه من تصلّب على الباطل، وسفاهة وجهلٍ وعنادٍ، وسبّابٍ وشتائمٍ واتهامات بالباطل، وسُخريّة واستهزاء، وغير ذلك من ألوان غمزٍ ولَمزٍ وإيذاء.

إنّها تقول للداعي إلى الله: أيّها الدّاعي إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة، ستواجه أذىً وعداءً وكيداً، من الذين تدعوهم إلى دين الله، وتناظرهم ضمن أصول العقل السليم بالحجج المنطقية البرهانية المقنّعة.

وأنت أمام مواقف السّبّاب والشتائم والإيذاء والعداء وألوان الكيد من قبل الذين تدعوهم إلى سبيل ربّك:

● إمّا أن تواجههم بمثل أعمالهم، فتخرج عن منهج دعوتك، وتقيم بينك وبين الناس الذين هم في أكثريتهم أتباع المتصدّين للمواجهة، عقبات الخصومات فالعداوات، وهي عقبات كأداء تقيّمها في طريق دعوتك، فتمنعك من متابعة المسير.

● وإمّا أن تعفو عن يسيء إليك، وتبقي جسور الصّلة بينك وبين من تسعى

لهدايتهم قائمةً. وبسبب ذلك تَسْتَطِيعُ مُتَابَعَةَ مسيرتك، في الدعوة إلى سبيل ربك، لتَغْنَمَ الثواب عند الله، وعسى أن تَظْفَرَ بمن يَسْتَجِيبُ لك وَيَهْتَدِي.

وقد جاء التَّوْجِيهِ القرآني لضرورة العمل بِمُقْتَضَى الاحتمال الثاني وهو العفو.

ولكنَّ البديع في عبارة التَّوْجِيهِ أَنَّهَا كَانَتْ بِأُسْلُوبِ المطالبة بأخذ العفو، فقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾، دُونَ عِبَارَةِ: فَاعْفُ. أَوْ فَالْزَمِ الْعَفْوَ. أَوْ فَالْزَمِ سَبِيلَ الْعَفْوِ. أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ.

إِنَّ جُمْلَةَ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾، تُشْعِرُ بَأَنَّ الْعَفْوَ شَيْءٌ ثَمِينٌ يُؤْخَذُ، وَيُغْتَنَمُ، وَيُظْفَرُ به، وَأَمْرٌ يَحْرُصُ عَلَيْهِ أَهْلُ البصيرة الإيمانية.

ولدى التحليل يلاحظ المتدبر أَنَّ العفو لَهُ حَلَاوَةٌ فِي القلوب والنفوس، فمن عفا ذاق حلاوة العفو، والأشياء ذات الحلاوة فِي المَادِّيَّاتِ تُؤْخَذُ، وَتُسْتَعْمَلُ فِي الوجوه التي تُعْطِي بِهَا حَلَاوَتَهَا.

فجاء التعبير بالأخذ، وَلَمَّا كَانَ مَجْرَدُ أَخْذِ الْعَفْوِ يَسَبِّبُ فِي نفس المؤمن وَقْلَهُ مشاعر الحلاوة الإيمانية قال الله تعالى للداعي: [خُذِ الْعَفْوَ].

ثم يلاحظ المتدبر أيضاً أَنَّ العفو يثيب الله عليه ثواباً عظيماً جليلاً، والمؤمن شديد الحرص على الظفر بهذا الأجر العظيم.

ولمَّا كَانَ تحصيلُ هذا الأجر العظيم الذي يأخذه المؤمن عند رَبِّهِ إِنَّمَا يَأْخُذُهُ بسبب العفو، كَانَ مِنْ فَنِيَةِ الأداء البياني البديع، والأدب الرفيع، إسنَادُ الأخذِ إِلَى السَّبَبِ الَّذِي بِهِ يُؤْخَذُ الأجرُ العظيم عند الله.

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾: أي: وَلَا تَأْخُذِ التَّشْفِيَّ لِنَفْسِكَ بالانتقام، ومقابلة الإساءة بمثلها، ومعاقبة المسيء، فَحَلَاوَةُ الْعَفْوِ وَلَذَّتْهُ، مع ثواب الله العظيم، خَيْرٌ لَكَ مِنْ لَذَّةِ التَّشْفِيِّ العابرة، الَّتِي قَدْ لَا تَظْفَرُ بِهَا، وَقَدْ تَجَلَّبُ لَكَ شَرًّا كَبِيرًا، مَعَ مَا تُقِيمُ مِنْ عَقَبَاتٍ وَجُدُرٍ فِي سُبُلِ دَعْوَتِكَ، وَمَعَ مَا تُدَمِّرُ مِنْ جُسُورِ بَيْنِكَ وَبَيْنَ مَنْ تَدْعُوهُمْ.

إنَّ العفو عن إساءات المذعُورين وإيذاءاتهم يُعَبِّدُ للدَّاعي السُّبُلَ الوعرة، التي ينبغي أن يَسْلُكَهَا في دعوته، ابتغاءَ مرضاة ربِّه، وهذا أمرٌ يُرْضِي اللهَ عزَّ وجلَّ، لأنَّه أَكْثَرُ تَأْثِيرًا في هداية الناس، بما يَمْلِكُ من قلوبهم ونفوسهم وعواطفهم، وبما يُمَهِّدُ الطريق إلى استجابتهم، فَيُثِيبُ عليه ثواباً عظيماً.

قول الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾: أي: وَلْيَكُنْ هَمُّكَ أَنْ تَأْمُرَ بِالْعُرْفِ. وَالْعُرْفُ في هذه المرحلة المكيَّة هو ما يُسَمِّيهِ الْعَرَبُ عُرْفًا، وهو البذل والعطاء والمساعدة.

وهذا التوجيه يَدُلُّ بعمومه على أَنَّ الداعي إلى الله إذا اهتمَّ مع دعوته إلى سبيل ربِّه بقضايا ذوي الحاجات من الفقراء والمساكين والضعفاء، فدافع عنها، وأمرَ باصطناع المعروف معهم، وحثَّ على العطف عليهم ومساعدتهم، استعطفَ إلى دعوته قلوبَ الكثرةِ الكثيرة من جماهير الشعب ونفوسها.

إذ الكثرةُ الكثيرة من النَّاسِ في كُلِّ عَصْرِ وكلِّ أُمَّةٍ هم ذوو الحاجات والضعفاء.

والدَّعْوَةُ إلى صُنْعِ المعروف معهم تَسْتَعِظُفُهُم إلى الدَّاعي، وتَجْعَلُهُمْ يَلْتَفُّونَ حوله، وبذلك تَتَوَجَّهُ أَفْكَارُهُمْ بِقُوَّةٍ لقاعدة الإيمان التي يَدْعُوهُمْ إليها، فيَتَقَبَّلُونَهَا، وَيَسْتَجِيبُونَ لها.

ويَدُلُّ هذا التَّوجِيهُ بمناسبةُ وروده عقب ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ على التوجيه الإلماحيِّ لقطع لسان من يُسِيءُ إلى الدَّاعي بأن يأمرَ إخوانه أو أصحابه أو أنصاره بأن يصنعوا العُرفَ معه، فإذا رَأَى هذا المسيء أنَّ الدَّاعي الذي أساء هو إِلَيْهِ قد أمرَ أصحابه بأن يُقَدِّمُوا له العُرفَ، بعد أن ثارت فيهم الحميَّةُ وهُمُّوا بأن يَنكَلُوا به، وَيَتَصَبَّرُوا لقائدهم ورأيدهم وداعيهم إلى سبيل ربِّهم، فإنَّه لا بُدَّ أن يتصاعَرَ في نفسه، ويتراجعَ عَنْ موقفه، وَيُحَاوِلَ التَّكْفِيرَ عن إساءته.

وتحكي لنا قصص شمائل الرسول ﷺ شيئاً كثيراً مما يتضمن تطبيق هذا التوجيه الرباني .

إن هذه الجملة [وأمر بالعرف] على اقتضاها تحكي قصة الأسلوب الأنجع للداعي في دعوته، الذي يجذب به الجمهور الأوسع للإيمان برسالته، يُدرك هذا أهل التدبر، من أهل المعرفة بطبائع الناس وواقع الشعوب، وبأساليب استيعاف الجمهور الأعظم منهم .

قول الله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ : أي : قابل الذين يتمادون في الجاهالة عليك بعد العفو عن إساءاتهم وأذاهم ، وبعد أمرك بصنع العرف لهم ، قابلهم بمجرد الإعراض ، وهو إعطاء عارضك لهم ، والعارض جانب الوجه والجسم .

ونفهم من هذا أنه لا ينبغي إدارة الظهر لهم والتولي عنهم ، بل ينبغي الاكتفاء بمجرد الإعراض إذا تناولوا في السفاهة .

والإعراض هو منزلة بين المواجهة والإدبار .

والمراد بلفظ الجاهلين هنا هم الذين يتسافهون على الفضلاء ، فيخاطبونهم بالأقوال النابية القبيحة ، أو بالشتائم وأنواع السباب ، وهو ما عناه الشاعر العربي في قوله .

أَلَا لَا يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ
أفلا تلخص هذه الآية الموجزة بفقراتها الثلاث ، فصولاً ثلاثة من كتاب الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتحدد سياسة الداعي مع الذين يدعوهم إلى دين الله .

﴿خُذِ الْعَفْوَ . وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ :

إن ظاهر النص قد يؤهم أنها جمل اقتصرت على التوجيه المباشر لثلاث وصايا ، وأنها لا تحتوي صوراً أدبية .

لكن المتدبر الحصيف يعلم أن هذه الجمل المقتضبة، الحاملة لهذه
الصايا، إنما هي جُمْلٌ ملتقطة من ثلاثة فصول من كتاب الدعوة. وهي تدلُّ
بلوازمها الفكرية على كل عناصر فصولها.

وهذا لوْنٌ من ألوان الأدب الرفيع الذي يُدركه كبار البلغاء، ويعتمدون عليه
في بياناتهم.

إنك إذا سألت أديباً ذكياً: هل حضرت محاضرة فلان؟ وما رأيك فيها؟
فأجابك: أبدع، وأجاد، وكبّا. فإنك تُدرك أنه قسم محاضراته إلى ثلاثة أقسام.
فقسمُ أبدع فيه، إذ كان فيه مبتكراً، وقسمُ أجاد فيه بالعرض والتصنيف والصياغة،
وقسم لم يوفق فيه، إذ كان له فيه كبوات.

وحين يكون باستطاعتك الرجوعُ إلى نصِّ المحاضرة ودراسته، فإنك تستطيع
حينئذٍ أن تُحدّد بالتفصيل القسم الذي ابتكر فيه، والقسم الذي أجاد فيه، والقسم
الذي كبّا فيه.

وهذا من أدب اختيار الجملة الكُلّية الجامعة المُحكّمة، ذات الدلالات
الواسعات التي تُشرح بيان طويل.

وتُلاحَظ الدقّة المتناهية في اختيار كلمات الجمل الثلاث في هذه الآية، فهي
منتقاة بإحكام، لتدلّ على معانيها بتحديد، مع ما في الجملة الأولى ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾
من فنية إسناد ما هو لِلْمُسَبِّبِ والنتيجة إلى السبب، على اعتبار أن السبب هو
الموصل إلى النتيجة.

لو قال حدثني بتسهيّماته غير الواعية: «حَصَدْتُ مطري» لقام قارئه الشارح
لكلامه يقول: هذا من روائع الإبداع، إذ استعمل عبارة الحصاد للمطر، لأن
مشاعره في العقل الباطن قد انتقلت بسرعة فائقة من الشتاء إلى الربيع فالصيف،
حيث أَحْصَدَ الزُّرْعُ، فجمع بين الشتاء والصيف في لمحة سريعة خاطفة، وأدرك
الرُّبْط بين المطر وآثاره في الحصيد، فقال: «حَصَدْتُ مَطْرِي».

لكن إذا قال الله عز وجل للداعي : [خُذِ الْعَفْوَ] لم يجد هذا القرين في هذا القول البديع شيئاً من الأدب الرفيع ، وقال هذا مجرد تشريع .

ثم عالج النص دوافع نفس الداعي للتشفي ممن أساء إليه ، فأبان له أنه من نَزَغِ الشَّيْطَانِ ، أي : من تحريكه وتحريضه وإثارته إلى الغضب وفعل الشر انتقاماً للنفس ، وعلمه الدواء الذي يَصْرِفُ الله به عنه هذا النزغ ، وهو أن يستعيز بالله منه ، فإذا فعل ذلك سمع الله استعاذته ، وهو يعلم ما حدث في نفسه وقلبه من انفعال يستخفه للانتقام ، فصرفه عنه ، وبذلك يعود إلى حالة الهدوء والسكينة والطمأنينة ، فقال الله عز وجل :

﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وانتقل النص من توجيه الداعي إلى توجيه كل المؤمنين حول قضايا نَزَغِ الشَّيْطَانِ ووساوسه وتسويلاته ، فأبان الوصف الذي يتحلَّى به المتَّقُونَ ، بأسلوب الخبر ، لا بأسلوب التكليف ، وهذا من روائع أدب التوجيه التكليفي ، فقال الله عز وجل :

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾

طَائِفٌ : في قراءة جمهور القراء .

طَيْفٌ : في قراءة المكي والبصريين والكسائي .

وفي القراءتين أدب التكامل الفكري :

فَالطَّيْفُ : التخيلات والرؤى النَّفْسِيَّةُ .

وَالطَّائِفُ : هو الذي يحمل الوسوس والدسائس والتسويلات ويقذف بها .

تَذَكَّرُوا : أي : تَذَكَّرُوا الله فاستعاذوا به ، وهم حزب الله .

وأما إخوان الشياطين الذين يَسْتَجِيبُونَ لَوَسَاوِسِهِمْ ، فقال الله بشأنهم في النص :

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (١٠٢).

﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾: أي: إخوان الشياطين، وجاء الضمير العائد إلى الشيطان بصيغة الجمع تنبيهاً على أن «الشيطان» اسم جنس يعم كل شياطين الإنس والجن.

وإخوان الشياطين، هم كل من يتبعونهم، ويصاحبونهم، ويستجيون لوساوسهم وتسويلاتهم.

﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾: من فعل «مَدَّ يُمِدُّهُ» إذا أعطاه مَدَدًا، وزاده فيما هو فيه، وأعانه في شأنه، والمَدُّ هنا يكون في الماديات وفي المعنويات.

هذه قراءة جمهور القراء، وقرأ المدنيان نافعٌ وأبو جعفر:

﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾: من فعل «أَمَدَّهُ يُمِدُّهُ» وهو بمعنى «مَدَّهُ».

﴿فِي الْغَيِّ﴾: الغيُّ: مَصْدَرُ غَوَى يَغْوِي غَيًّا وَغَوَايَةً، وهو ضدُّ الرُّشْدِ، فيشمل كل ضلال وانحرافٍ وبعُدٍ عن الحقِّ والصِّراطِ السَّوِيِّ.

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾: أي: ثُمَّ لَا يَكْفُونَ وَلَا يُمْسِكُونَ، والمعنى أن الشياطين مهما غَوَى تابِعُهُمْ، وَأَوْغَلَ فِي ضَلَالَاتِهِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَتْرَكُونَهُ وَشَأْنَهُ يَتَخَبَّطُ بِنَفْسِهِ فِي الضَّلَالِ وَلَوْ طَالَ الزَّمَنُ، بَلْ هُمْ لَا يُمْسِكُونَ وَلَا يَكْفُونَ عَنْ إِمْدَادِهِ فِي الْغَيِّ، لِأَنَّ دَرَكَاتِ الْغَيِّ ذَاتُ سَحِيقٍ بَعِيدٍ، وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُوصِلُوهُ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ، وَلَا يَكْتَفُونَ بِمَا دُونَ ذَلِكَ مِنْ دَرَكَاتٍ، وَلِذَلِكَ جَاءَ التَّعْبِيرُ بِحَرْفِ الْعَطْفِ «ثُمَّ».

• • •

الصُّورَةُ الْعَاشِرَةُ

تَحَدَّثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الْكَافِرِينَ فِي سُورَةِ (القمر) / ٥٤ مصحف / ٣٧ نزول). وَأَبَانَ فِيهَا أَنَّهُمْ إِنْ يَرَوْا آيَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْكُونِيَّةِ مَهْمَا كَانَتْ عَظِيمَةً كَانَتْ شِقَاقَ الْقَمَرِ يُعْرَضُوا عَنْهَا، أَيْ: يُعْطُونَهَا جَانِبَهُمْ غَيْرَ مُتَأَثِّرِينَ بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ، وَصِدْقِ رَسُولِهِ الْمُبْلَغِ عَنْهُ. وَمَهْمَا يُقَالُ لَهُمْ: أَلَيْسَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْآيَاتِ الدَّلَالَةِ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ، يَقُولُوا:

﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾

أَيْ: سِحْرٌ قَوِيٌّ، ذُو مِرَّةٍ مُحْكَمٌ، أَوْ سِحْرٌ عَارِضٌ يَمُرُّ وَيَمْضِي ذَاهِبًا. وَأَبَانَ اللَّهُ فِيهَا أَنَّهُمْ كَذَّبُوا، وَأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، لَكِنَّ ذَلِكَ مِنْهُمْ لَمْ يُوَثِّرْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ، أَوْ فِي دِينِهِ وَتَأْيِيدِ رَسُولِهِ، وَلَمْ يُؤَثِّرْ فِي تَغْيِيرِ أَيْ شَيْءٍ مِنْ مَقَادِيرِ اللَّهِ التَّكْوِينِيَّةِ وَالْجَزَائِيَّةِ الْجَارِيَةِ وَالَّتِي سَتَأْتِي فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَقَضَاءُ اللَّهِ نَافِذٌ:

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾

وَأَبَانَ اللَّهُ فِيهَا أَنَّهُمْ قَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْكَافِرِينَ الْمَكْذِبِينَ السَّابِقِينَ لَهُمْ، وَمَا جَرَى لَهُمْ مِنْ إِهْلَاكِ عَامٍّ شَامِلٍ مَا فِيهِ عِظَةٌ وَاعْتِبَارٌ، وَمَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ، لَمْ يَشَأْ أَنْ يُعْتَبَرِ وَيَتَعَطَّ وَيَزْدَجِرْ، مُتَحَرِّرًا مِنْ أَهْوَاءِ نَفْسِهِ، وَنَوَازِعِ كِبَرِهِ، وَرَغْبَاتِ الْفُجُورِ عِنْدَهُ:

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾

وَدَلَّ فِيهَا عَلَى أَنَّ تَقْدِيمَ الْآيَاتِ وَأَنْبَاءِ الْكَافِرِينَ السَّابِقِينَ حِكْمَةً إِقْنَاعِيَّةً وَتَرْبُويَّةً بِاللُّغَةِ حَدُّ الْكُفَايَةِ لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَقْنَعَ وَيَتَعَزَّ، فَمَنْ لَمْ تَنْفَعِهِ الْآيَاتُ وَالْأَنْبَاءُ الْوَاقِعِيَّةُ، لَمْ تَغْنَهُ الْإِنْذَارَاتُ وَأَنْوَاعُ الْوَعِيدِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ:

﴿حِكْمَةُ بَلَاغَةِ فَمَاتَعِنِ النَّذْرُ ٥﴾.

وإِذْ بَلَّغُوا هَذَا الْمُسْتَوَى فَمِنْ الْحَرَصِ عَلَى وَقْتِ الدَّاعِي أَنْ يَتَوَلَّى عَنْهُمْ، وَيَشْتَغِلَ بِدَعْوَةِ غَيْرِهِمْ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ﴾.

وَكَانَ مِنَ الْمُنَاسِبِ بَعْدَ هَذَا عَرْضُ مَشْهَدٍ مُقْتَطَعٍ مِنْ بَعْثِهِمْ مِنْ أَجْدَائِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ.

وَبَعْدَ ذَلِكَ ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قِصَّةَ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ بِإِيجَازٍ تَعَرَّضَ فِيهِ لَذِكْرِ عَنَاوِينَ فُصُولِ هَذِهِ الْقِصَّةِ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ٩﴾ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُسِّرَ ١٣﴾ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ١٦﴾.

فَجَاءَ فِي هَذَا النَّصِّ بَعْضُ تَفْصِيلٍ لِقِصَّةِ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ، وَأُعِيدَ فِي هَذَا النَّصِّ الْعَنْوَانُ الَّذِي سَبَقَ إِنْزَالَهُ فِي سُورَةِ (ق / ٣٤ نَزُول) وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ لِيَكُونَ التَّفْصِيلُ الْمَوْجُزُ الْوَارِدُ هُنَا فِي سُورَةِ (الْقَمَر / ٣٧ نَزُول) مَبْنِيًّا عَلَيْهِ وَمَتَفَرِّعًا عَنْهُ، وَمَبْنِيًّا أَيْضًا عَلَى الْإِجْمَالِ الَّذِي جَاءَ قَبْلَهُمَا فِي سُورَةِ (النَّجْم / ٢٣ نَزُول) إِذْ جَاءَ فِيهَا أَنَّهُمْ أَهْلَكُوا، وَأَنَّهُمْ كَانُوا أَظْلَمَ وَأَطْغَى مِنْ عَادٍ وَثَمُودَ.

وَفِي هَذَا الْبَيَانِ الْمَوْجُزِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا. وَقَالُوا: مَجْنُونٌ. وَازْدُجِرَ﴾:

أي: فكذبوا عبدنا نوحاً، وتكذبه يشمل التكذيب بأنه رسول الله، والتكذيب بما أنبأهم به عن ربه.

● وطوى النص أمرين:

(أ) سوابق التكذيب المشتملة على دعوة نوح لهم، وما جاء في دعوته من مجاهدات إقناعية وبيانية وجدالية، وإنذارية.

(ب) ما كان منهم من اتهام له بعد تكذيبهم إياه، ولم يبرز من ذلك إلا شتمتهم له بأنه مجنون.

● وأجمل النص الأعمال التي قاوموا بها دعوته بعبارة «وازدجر» أي: منعه كبراء قومه، ونهوه بغلظة وعنف وشدة عن أن يدعوا عاتتهم إلى الدين الذي جاء به. الزجر: هو في اللغة المنع والنهي والانتهاز، وازدجره إذا أسرف واشتد عليه في المنع والنهي والانتهاز، أخذاً من زيادة المبنى الدال على زيادة المعنى. فازدجر على وزن «افتعل» من فعل «زجر» وأصل: «ازدجر» «ازتجر» قلبت التاء دالاً لوقوعها بعد الزاي، وهو قياس مطرد في صيغة «افتعل» مما فاء كلمة الفعل فيه «زاي» أو «دال» أو «ذال».

● وذكر النص لقطة موجزة سريعة مما كان من نوح عليه السلام بعد صبره الطويل في عمره المديد على قومه فقال تعالى:

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾ (١٠).

أي: فدعا ربه بعد صبر طويل على قومه دعوة تتضمن معنى «أني مغلوب فانتصر»

أي: أني مغلوب في دعوتي لقومي، لم أظفر منهم بمستجيبين للدين الذي أمرتني ياربّي بأن أبلغهم إياه، غير القلة القليلة جداً (دل على هذا الاستثناء نصوص أخرى)، فانتصر لدينك ولرسولك المغلوب من قبل قومه.

● وطوى النص أحداثاً كثيرة لم يذكرها، منها أمر الله إياه بأن يصنع الفلك،

ومنها سخرية ملأ قومه منه كلما مروا عليه وهو يصنعها، إلى غير ذلك من أحداث طواها فلم يذكرها.

وانتقل إلى ذكر ما يدل على استجابة الله لدعاء نوح، بعرض قصة إهلاك الكافرين من قومه بالطوفان، ونجاة نوح ومن كان معه وما كان معه، وما كان بعد النجاة، وعظمة هذه الحادثة التي هي من أعظم حوادث الدهر في تاريخ البشرية على الأرض، كل ذلك أوجزه النص في تسع فقرات، وهي:

١ - ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ ﴿١١﴾.

٢ - ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾.

٣ - ﴿فَالْتَفَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ ﴿١٢﴾.

٤ - ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِرَ﴾ ﴿١٣﴾.

٥ - ﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا﴾.

٦ - ﴿جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾ ﴿١٤﴾.

٧ - ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾.

٨ - ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ ﴿١٥﴾.

٩ - ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ﴿١٦﴾.

فاشتملت هذه الفقرات على إبداع اختزالي عجيب لكل قصة نوح مع قومه، ولواحقها، وعظاتها.

● فقولته تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ دل على أن الله عز وجل قد استجاب لدعاء نوح، فانتصر له، ففضي بإهلاك قومه بوسيلة الإغراق، فأنزل الأمطار غزيرة منصبة انصباباً شديداً، لكن النص لم يُعبر بمثل هذا التعبير الساذج، بل عبر بعبارة دل فيها على أن السماء كانت كخزان عظيم مليء بالماء، ولهذا الخزان أبواب، وفتح الله هذه الأبواب، فانهمرت المياه على مقاديرها،

منصبته انصباباً كأنها شلالات موزعة توزيعاً منظماً على مواقعها من الأرض .

وقوله تعالى : ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ دلٌّ على حركة تَفْجِيرٍ مائيٍّ من الأرضِ مناظرٍ لحركة الشلالات المنصبّة من السماء ، فالأرض المتحدّث عنها على امتداد مساحاتها قد فَجَّرَهَا الله عُيُونًا .

إِنَّ التفجير يدلُّ على أشدَّ صُور تدفُّق الماء وتدافعه من باطن الأرض إلى ما فوقها .

والتعميم في إسناد التفجير إلى كُلِّ الأرض يُوحى أولاً بأنَّ سطح الأرض قد تَفَجَّرَ ماءً ، ولفظ «عيوناً» الذي جاء تمييزاً قد حدّد الصورة التي تمّ تفجير الأرض على وفقها ، وهي صورة عيون مائيّة متفجرة موزّعة على ساحة الأرض كعيون الغربال .

ولا أحبُّ هنا متابعة النحويين في قولهم : أي : وفَجَّرْنَا عيون الأرض . فقولُهُمْ هذا يضعف رَوْعة الصورة الأدبيّة التي يرسمها قوله تعالى : ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ .

بل قد فَجَّرَ الله الأرض كلّها تفجيراً على صورة عيون مائيّة متدفقة متدافعة منبعثة بقوة .

ولا مانع من فهم الجملة على وفق أسلوب التضمين الذي يكون تأويلها معه كما يلي : وفَجَّرْنَا الأرض فجعلناها عُيُونًا مائيّة متدفقة .

أو على أن «عيوناً» نائب مفعول مطلق مبين لنوعه ، والتقدير : وفَجَّرْنَا الأرض تفجيراً عُيُونًا ، فنوع التفجير كان يبعث العيون المتدفقة ، ونظيره قولك : نسجت الخيوط بُسْطًا ، وخطت القماش سراويل ، وقطعت اللحم إرباً إرباً .

هذا ما تدلُّ عليه الجملة بصياغتها الأدبيّة الرائعة ، دون ذلك التخريج الذي يقصّر كثيراً عن دلالة النّصّ القرآني .

● فماذا حدث بعد انهمار الماء من السماء على مقادير أبواب خزاناتها، وتفجّر الأرض على مدى مساحاتها عيوناً مائية منبعثةً انبعاثاً قوياً؟

وتأتي الفقرة الثالثة من النص فتجيب على هذا التساؤل النفسي، فيقول الله عز وجل:

﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ۝١٢﴾

أي: فدون تراخِ التقى الماء المنهمر، والماء المتفجّر، على أمرٍ من أمرِ الله قد قضي وقدر.

وجاء الاستغناء بلفظ الأمر عن القضاء، لأنَّ الله عز وجل لا يأمر بشيءٍ إلا إذا قضاه، فأمر التكوين تابع للقضاء، وقضاء الله مسبوق بتقديره لكل كبير وصغير ممّا قضاه وفق حكمته وعلمه سبحانه، فاقتضت الحكمة البيانية الإعلام بأنّه قد قُدرَ، مع ما في ختم الجملة القرآنية بعبارة ﴿قَدْ قَدِرَ﴾ من روائع فيها إبداع وإتقان بياني.

● فقد جاءت الفاصلة مناظرة لما قبلها (فازدجر - فانتصر - منهم - قد قُدر) وموازنة لها.

● وجاءت مؤكدة بلفظ (قد) التي تدل على تحقق الخبر الذي تضمّنه البيان، في جملة (قُدرَ) بالبناء لما لم يُسمَّ فاعله، أي: نوّكّد لكم أنّ الأمر الذي تمّ بانهيارِ الماء وتفجّره أمرٌ قُدرَ بالتقدير الدقيق الشامل لكلّ الدقائق والتفاصيل، قبل الأمر به وقبل قضائه وإمضائه. وظاهرٌ أنّ خبراً من هذا القبيل يحتاج تأكيداً.

فما هو الأمر الذي قد قُدرَ والتقّى الماء على تحقيقه؟

إنّ الذهن ليستدعيه بداهةً ولو لم يُذكر في النصّ، فهو إهلاك قوم نوح الذين كفروا به، على أنّ ما سبق من تنزيل في النصّين الأول (من سورة النجم) والثاني (من سورة ق) قد دلّ على أنّهم قد أهلكوا، وأنهم قد حقّ عليهم وعيد الله الذي أنذرهم به نوح عليه السلام.

ونلاحظ في قول الله عز وجل:

﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (١٢)

من إبداع التعبير وفنيته ما يثير قمة العجب.

(أ) لم يأت التعبير عن إهلاك القوم بالأسلوب المباشر، بل بالرمز والإشارة واللمح.

(ب) اقتضى التعبير بانهمار الماء من السماء وتفجيره من الأرض استدعاء الرابط بين المائين، والتساؤل عن الغاية من ذلك، فجاء البيان على مقدار تشوف نفس المتلقي وتساؤلها بقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾.

وهنا يأتي تساؤل لاحق وهو: التقي الماء على ماذا؟

وجاء الجواب: ﴿على أمرٍ قد قُدرَ﴾: أي: هما آيتان من آيات الله التقتا على تحقيق أمرٍ من أمر الله قضاءه الله وقدره.

(ج) أما بيان هذا الأمر فلا ضرورة له لأنه يُدركُ بداهةً:

● ألم يدعُ نوحُ ربّه: أني مغلوب فانتصر، وقد انتصر الله له فعلى من ينتصر؟ وماذا يحقق في هذا الانتصار إذا ملأ الأرض ماءً بما أنزل من السماء وما فجر من الأرض؟

● لا شك أنه إهلاك قوم نوح الذين كفروا وظلموا وطغوا بالطوفان.

● ويتساءل مُتلقّي البيان: ماذا حصل لنوح عليه السلام؟

ويأتي الجواب في الفقرة الرابعة من النص:

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ (١٣)

وكان هذا أول بيان قرآني عن سفينة نوح، إذ لم يأت بيان عنها فيما سبق من نجوم التنزيل، وقد جاء التعبير عنها ببعض صفاتها:

● فهي أداة حاملة، أخذاً من: ﴿وحملناه على﴾.

● وهي ﴿ذات ألواح﴾: أي: فهي أداة خشبية.

● وهي ﴿ذات دُسُر﴾. الدُسُر: جمع دَسار، وهي المسامير التي تثبت بها الألواح بعضها إلى بعض. وهي أيضاً الخيوط والحبال اللّيفية التي تُشدُّ بها ألواح السفن.

إذن: فهي مركبة من ألواح خشبية قد شدُّ بعضها إلى بعض بالدُسُر.

ونلاحظ أنَّ التعبير عن هذه المركبة المائئة لم يأت بالاسم الخاص الذي يدلُّ عليها دلالة مباشرة، وإنما جاء بذكر بعض المواد الأساسية التي صنعت منها، وهي الألواح والدُسُر، وهذا من الإلماح الفنّي البديع، الذي يرضي ذكاء الأديب اللّماح ويَهْزُ مشاعره.

لكن جاء بعد ذلك في نجوم التنزيل ذكرها بالاسم الخاصّ بها، وهو لفظ «الفلك» وذلك في (الأعراف - الشعراء - ويونس - هود - والمؤمنون).

أليس من الإبداع الجمالي الرفيع أن لا تُذكر أوّل ما تذكر إلّا بالإلماح لا سيما في هذا النصّ البالغ روعة الإعجاز مع الإيجاز؟
ثمّ جاء إيضاح أنّها مركبة مائئة في قوله تعالى في الفقرة الخامسة: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾.

إنّ ذات ألواحٍ ودُسُرٍ تجري وقد امتلأت الأرض ماءً، لا تجري على اليابسة، إنّما تجري على الماء، فهي إذن «فلك».

وقد دلّت هذه الجملة على أنّها تجري جرياً محاطاً بالحفظ والعناية الربّانية ضمن بحرٍ عظيمٍ مُنهمرٍ من السّماء، وبحرٍ متفجّرٍ من الأرض، وموج متلاطم كالجبال.

إنَّ أحوج ما تحتاج إليه هذه المركبة أن تكون محاطة بالحفظ والعناية والحماية من الله عزَّ وجلَّ، للنجاة والسلامة، حتَّى يبلوغ البرَّ الساكن الآمن.

فأيُّ تعبير أدلُّ على هذا الأمر الذي هو مطلوب راكبيها من قوله تعالى : ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾.

إنَّ العين فيما يعلم النَّاس أَرْقُ وألطف حاسَّة تُحَفِّظُ مِنْ أَقَلِّ الأعداء وأصغرها، وهي أكمل حاسَّةٍ للمراقبة تحيط إحاطةً شاملةً بما تراقبه لحفظه، فإذا كانت مركبةُ نوح عليه السلام تجري بأعين الله، فذلك يدلُّ على أنَّها في غاية الحفظ والرعاية والحماية والمراقبة التامة لكلِّ حركة من حركاتها، على مدى اللَّحظات والآتات.

ويُضيف البيان ما يدلُّ على الغاية من هذا الاهتمام الشديد بحفظ سفينة نوح كُلِّ هذا الحفظ، وهي مكافأة نوح بثوابٍ معجَّل له في الحياة الدنيا، جزاء كونه كُفِرَ من قِبَل قومه، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾.

ونلاحظ أنَّه لم يأت في النَّص عبارة: جزاء نوح، بل جاء فيه وصف كونه كُفِرَ من قِبَل قومه، أي: جُحِدَ وكُذِّب.

وبالتأمل يظهر لنا غرض الدلالة على أنَّ هذا الجزاء قد لُوْحِظ فيه كونه كُفِرَ، أي: أمَّا صالحاته الأخرى فجزاؤها فوق ذلك يوم الجزاء الأكبر.

ويمكن أن نُضيف إلى هذا المعنى أمراً آخر: وهو إدخال من آمن معه ونجا معه في السفينة ضمن هذا الجزاء، لأنهم كانوا معه دُعَاةً وكُفِرُوا كما كُفِرَ.

فماذا حصل بعد أن جرت السفينة بعناية الله وحفظه؟

لقد طوى النص هنا النهاية، اكتفاءً بإشارة العناية، واعتماداً على ما سيأتي في نجوم التنزيل، واقتصر على ذكر قضية هي من اللواحق البعيدة لقصة نوح، وقومه، ومركبته المائية، فقال عز وجل في الفقرة السابعة:

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾.

أي: ولقد تركنا فلك نوح باقيةً زمناً طويلاً من بعده، لتكون علامة على حادثة الطوفان، وقصة نوح مع قومه، تُذكر بعقاب الله للمكذِّبين الظالمين الطغاة، وتكون عبرة لمن يعتبر، وذكرى لمن يذكر، فقال تعالى في الفقرة الثامنة:

﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (١٥).

فدل هذا التساؤل البديع على الغرض الديني من ترك سفينة نوح آيةً شهدها أجيالٌ متتابعة من بعده، وهو أن تكون للادِّكار، أي: للتذكُّر الأخذ بيد المتذكر للاتِّعاض، إذا كان لديه استعدادٌ للاتِّعاض الإرادي، ورغبةً فيه. مع ما في هذا التساؤل من حضٍّ على الادِّكار والاعتبار بما جرى لقوم نوح، وقد جاء هذا الحضُّ بأسلوب الاستفهام، ومع ما فيه أيضاً من إشعارٍ بقلَّة المدَّكرين، لأنَّ السؤال يسأل عن واحدٍ مدَّكرٍ، يَعْتَبِرُ بما جَرَى للأولين من عقابٍ ربَّاني.

وبحمل هذا التعبير على معانيه العديدة التي يدلُّ عليها، تتكشف لنا وفرة من الدلالات أذاها تساؤلٌ موجز ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ؟﴾

وأخيراً جاء الختام الواعظ المحذِّر المنذر في الفقرة التاسعة من النص، فقال الله عز وجل خطاباً لكلٍّ من يَصْلُح للخطاب من معاصري التنزيل وغيرهم:

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (١٦).

أي: فعلى أية حالٍ كان عذابي لقوم نوح؟ وعلى أية حالٍ كانت نُذْرِي لقوم نوح؟

سؤال ينتزع الجواب انتزاعاً من كلِّ ذي فكر يفهم أهون الأمور من دون حاجة إلى رويَّةٍ وتأملٍ، فيقول:

● لقد كان العذاب عذاباً شديداً مخيفاً، يثير الرهَبَ والانتعاظ والأدكار.

● ولقد كانت النُّذُرُ التي أنذر الله بها قوم نوح على لسان رسولهم نُذُراً صادقةً، حَقَّقَ الواقعُ الثَّابِتُ في التاريخ، والذي ظَلَّتْ آيَتُهُ باقيةً حقْباً تشهدُها القرون، ما جاء فيها بلا نقصان.

فما أبدع هذا الإيجاز وما أحكمه، وما أغزره دلالات، وأوفاه بالمقصود من البيان.



الصُّورَةُ الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ

تحليل بلاغي لجملة: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾، يقول الله عز وجل في سورة (المؤمنون / ٢٣ مصحف / ٧٤ نزول):

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾ (١٨).

يتحدث الله عز وجل في هذه الآية بنون العظيمة حول ظاهرة إنزال ماء من السماء بقدرٍ مُحدّدٍ معلوم، فإسكانه في أماكن حفظ الماء في الأرض، فهي من آيات علمه وحكمته وقدرته وبديع إتيانه، وعظيم رحمته بعباده في عالم الابتلاء.

وأبان تعالى أنه قادر على أن يذهب بالماء كله، ويحرم الناس منه، لكنه يبقيه لهم رحمةً بهم، حتى يستكملوا ظروف امتحانهم.

وقد حلّل السيرافي القالي الشقار من علماء أواخر القرن السابع، والآلوسي، على ما ذكر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير»، مع زيادات من ابن عاشور جملة: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾ تحليلًا بلاغيًا ضمن قواعد علم البلاغة، جاء في هذا التحليل بيان الوجه البلاغي التي اشتملت عليها هذه الجملة، وهي:

● أولاً:

التوكيد للخبر فيها بالمؤكدات التاليات:

- ١ - حرف «إِنَّ» التي يؤتى بها للتأكيد.
- ٢ - اللام المزحلقة التي في الخبر.
- ٣ - ما في الجملة الاسمية من التأكيد على ما يقرّره البلاغيون، وذلك بسبب

ما في إسناد القدرة إلى الله مرتين في الجملة: الأولى في الجملة الاسمية، والأخرى في الضمير المستتر في اسم الفاعل «قَادِرُونَ» أي: قادرون «نحن».

● ثانياً:

المبالغة المستفادة من تنكير كلمة «ذهاب» أي: وإنا على ذهابٍ عظيمٍ به لا يُبقي شيئاً منه لِقَادِرُونَ.

● ثالثاً:

ما في نُون العظمة وضمير الجمع في ﴿إِنَّا﴾ و﴿لِقَادِرُونَ﴾ من إلقاء المهابة والدلالة على كمال القدرة.

● رابعاً:

التعبير بالذَّهَابِ بالماءِ كُلياً فيه دلالة على أن قدرة الله قادرةٌ على إلغاء وجوده كُلياً، كما هي قادرةٌ على جعله غوراً في باطن الأرض، كما جاء في سورة (الملك / ٦٧ مصحف / ٧٧ نزول):

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَنِ يَأْتِيَكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

● خامساً:

إخبارُ الله عز وجل في الجملة عن نفسه، على خلاف ما جاء في آية (الملك) التي جاء فيها:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴿٢٠﴾﴾.

ففي إخباره تعالى عن نفسه إشعارٌ بِشِدَّةِ العناية بالتنبيه على ما جاء في الجملة.

● سادساً:

تقديم ما في الجملة من الإيعاد بقوله تعالى: ﴿عَلَى ذَهَابٍ بِهِ﴾ على قوله: ﴿لِقَادِرُونَ﴾ لاستشارة خضوع الأنفس لله بدافع الخوف من عذابه.

● سابعاً:

عدم تخصيص مخاطبٍ معيّن في الجملة، ليشمل مضمونها كُلٌّ من يصلحُ للخطاب.

● ثامناً:

تضمينُ الإيعاد معنى إيعاد من يكفر بالله بإبعاده عن رحمة الله تعالى، لأنَّ عبارة ﴿عَلَى ذَهَابٍ بِهِ﴾ تتضمنُ مصاحبةَ الفاعلِ للمفعول، فذهاب الله تعالى عنهم مع الماء هو بمعنى ذهاب رحمته سبحانه عنهم، أو بمعنى لعنهم وطردهم. إلى غير ذلك ممّا يمكن استنباطه من بلاغيات هذه الجملة.

• • •

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةُ

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الرعد / ١٣ مصحف / ٩٦ نزول):

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

وقرأ جمهور القراء: ﴿تَوْقِدُونَ﴾.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾:

أي: أنزل من جهة العلوِّ بالنسبة إلى الأرض مطراً، والمراد من السماء هنا السحاب.

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾:

أودية: جَمْعُ وادٍ، وأصل الوادي الموضع الذي يسيل فيه الماء، ومنه سُمِّيَ ما بين الجبلين وادياً.

﴿بِقَدَرِهَا﴾: أي: بمقدار سعتها لاستيعاب الماء، كلُّ بحسبه، فالكبير بمقدار كبره، والصغير بمقدار صغره.

وقد أُسْنِدَ فعل (سَالَ) إلى الأودية، والمراد مياه السيول التي تجمعت من الأمطار فيها، إشعاراً بأنغمار الأودية بالمياه، وبشدَّة تدفق السيول، حتَّى ليُخَيَّلُ للنَّاطِرِ أَنَّ الْوُدْيَانَ - أي: الأمكنة بما فيها - تسيلُ مع قُوَّةٍ تدفُّقِ الماء.

﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾:

﴿فَاحْتَمَلْ﴾: أي: فتكَلَّفَ الحملَ، أخذاً من صيغة (افْتَعَلَ) وفي هذا إشعارُ بمغالبة الماء للزبد الذي يختلط فيه، أو يقتلعه من مجراه، فيحتمله ليقذفه على شاطئيه.

﴿زَبَدًا﴾: الزبد هو ما ينفيه الماء عن جوهره بالحركة، ويحتمله على سطحه من شوائب تنتفخ بالهواء، فيربو مظهرها، وتبرق ألوانها، ثم تنفجر وتنطفئ، وتظهر حقيقتها الحقيرة، حينما يقذف بها الماء على شاطئيه.

﴿رَابِيًا﴾: أي: نامياً زائداً، وفي هذا تصويرٌ لما يحدث في الزبد من انتفاخ مظهره، واجتماع بعضه على بعض، بسبب حركة الأمواج، لكن الأمواج بعد ذلك تقذف به إلى الشواطئ، لتنفيه عن الماء.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ﴾: أي: ومن بعض ما يوقد عليه الموقدون من الناس أو توقدون عليه في النار، وهي المعادن وأشباهاها، زبدٌ آخرٌ مثلُ زبد الماء يخرج منها بعملية الإيقاد، التي تُجمَع المعدن الخالص، وتُمَيِّزُ منه الخبث الذي يظهر زبداً.

﴿حِلْيَةٍ﴾: الحلية اسمٌ لكلِّ ما يُتَزَيَّنُ به من مصاغ الذهب والفضة ونحوهما، وجمعها حِلْيٌ وحُلَى، بكسر الحاء وضمُّها مع فتح اللام.

﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾: المتاع كلُّ ما يُنتَفَع به على أي وجه من وجوه الانتفاع، ويقال لما يُنتَفَع به في البيت من آنية وأوعية: متاع.

والناس في صناعاتهم يوقدون على المعادن وأشباهاها، لصهرها أو تليينها ابتغاء صنْع ما يُتَزَيَّنُون به، أو يتمتَّعون به في حاجاتهم للسلم أو للحرب، وما يُصْهَرُ منها يربو عليه زبدٌ خبيث شبيه بزبد الماء.

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾:

﴿جُفَاءً﴾: قال أبو حيان: مُضْمَحَلًّا، أي: مُتَلَاشِيًّا لا منفعة فيه ولا بقاء له.

قال ابن الأنباري: متفرقاً.

وقال الزمخشري: يجفوه السيل، أي: يرمي به، وجفأت القدر بزبدِها، وأجفأ السيل.

وقال ابن سيده: وعندي أنه من التبو والتباعد.

ويلاحظ أنه جاء في الآية قراءتان: ﴿يُوقِدُونَ﴾ في قراءة حفص والأخوين و﴿تُوقِدُونَ﴾ في قراءة باقي القراء، لتكامل القراءتان في الأداء البياني، فإذا كان المخاطبون من أهل الصناعات المعدنية ناسبتهم قراءة ﴿تُوقِدُونَ﴾ وإذا لم يكونوا من أهلها ناسبتهم قراءة ﴿يُوقِدُونَ﴾.

● عرضت الآيات السابقات لهذه الآية من سورة (الرعد) أدلة قدرة الله في آفاق السماوات، وأدلة علمه المحيط بكل شيء، وحكمته عز وجل. وأشارت إلى مُخْتَلِفِ الآيات الْمُفْصَلَاتِ في الكون، وأتبع ذلك بيان أن الغرض منه وصول الناس إلى اليقين بعُدلِ الله، وأنهم لا بُدَّ مُلاقوه في الآخرة لإقامة عدله فيهم، ومنح فضله مستحقيهم، وذلك إبرازاً لركن الإيمان باليوم الآخر الذي هو محل إنكار المشركين.

● ثم عرضت الآيات أدلة قدرة الله وعلمه وحكمته في مجال الأرض.

● ثم عرضت أقوال المشركين مُنْكَرِي رُكْنِ الإيمان بالبعث واليوم الآخر وناقشتها.

● ثم عرضت أدلة قدرة الله وعلمه وحكمته في العلو القريب بين السماء والأرض.

● ثم علم الله رسوله والمؤمنين أسلوباً من أساليب الجدال بالتي هي أحسن، يجادل على وفقه المشركين لإقناعهم، بالبراهين القواطع، والحجج الدوافع، أو إلزامهم بها.

● وبعد أن يصل الرسول ﷺ في مناظرتهم إلى نهاية مرحلة الهجوم الكلامي

على باطلهم تأتي هذه الآية التي نحاول تدبرها، بوصفها صورةً من الصُّور الأدبية الرفيعة المعجزة.

فَتُصَوِّرُ مرحلةً عنيفةً من مراحل الصراع بين أنصار الحق وأنصار الباطل، في مجال المناظرات والمجادلات الفكرية العلمية، وفي مجال المعارك القتالية الحربية.

ضمن هذا الموقف تأتي هذه الآية فَيَضْرِبُ الله فيها مثلين للصراع بين الحق والباطل في المجتمع البشري، يَوْصِفُهُمَا اتِّجَاهَيْنِ فِكْرِيَيْنِ متضادَّين، وللصُّراع بين المحقِّقِ والمبطلِين، يَوْصِفُهُمْ حِزْبَيْنِ مُتَصَارِعَيْنِ متشاقِّين:

● فأنصار الحق ودعائهم المؤمنون به العاملون بما يوجبهم، هم حزبُ الله، وهم أصحابُ الصُّراطِ الرَّبَّانِي المستقيم الواحد، الَّذِي لَا تَعُدُّدَ لَهُ، وَلَا تَفَرُّقَ فِيهِ.

● وأنصار الباطل ودُعائهم المؤمنون به المتَّبِعُونَ لوساوس الشياطين ولأهوائهم وشهواتهم من الحياة الدنيا هم أحزاب الشيطان، على تنوُّعِ اتِّجَاهَاتِهِمْ، وهم ذُوو سُبُلٍ مُتَفَرِّقَةٍ شَتَّى.

ومن البديع في تقديم هذين المثلين أَنَّ النَّصَّ قد عَرَضَهُمَا بطريقةٍ مفاجئة، كأنه يبحث موضوعاً جديداً لا صلة له بما قَبْلَهُ، مع كمال اتصاله به.

فجاء المثلان بأسلوبهما البديع لِيَدُلَّا دلالةً غير مباشرة على أَنَّ النتيجة المرتقبة للصُّراع الفكري إذا التزم أنصارُ الحق بالمنهاج القويم الذي اشتمل عليه أو أشار إليه التعليم الرَّبَّانِي، لا بدَّ أن تكون انتصارَ فكرة الحق على أفكار الباطل.

وأشار المثلُ الثاني مِنْهُمَا بِالْمَاحِ بعيد المرمى إلى أَنَّ المبطلين مهما تحوَّلوا مِنْ حَلِيَّةِ الصراع الفكري التي لا بدَّ أن ينهزموا فيها إلى صراعٍ مَادِّيٍّ قِتَالِيٍّ حَرْبِيٍّ، فلا بدَّ أن تكون عاقبتهم الهزيمة أيضاً، إذا التزم أنصار الحق في كفاحهم وقتالهم الحربي بمنهجٍ سِبْبِيٍّ مثل المنهج الظافر الذي علَّمهم الله إِيَّاه في الصراع الفكري، وهذا المنهج السببي قد أبانته نصوص سابقة ولاحقة.

فللمُجادلة الفكرية أسبابها المنطقية التي تُتَّوَجُّ بغلبة الحق على الباطل،
ضِمنَ سنن الله الثابتة.

وللقتال في الحرب أسبابه الكونية التي يتحقق عن طريقها بعون الله ونصره
انتصارُ المحقِّين على المبطلين.

هذه الأفكار لم تُقدِّم في النصِّ بطريقة مباشرة ساذجة، وإنما قُدِّمَتْ بصورة
بديعة غير مباشرة، وكان ذلك بأسلوب ضرب مثليين من واقع كونيٍّ ماديٍّ، خاضعٍ
لبعض سنن الله في كونه، التي يُهيمنُ عليها قانون شامل، سواء أكانت في المادِّيات
كما في الممثل به، أو في الفكرِيات والنفسِيات وسائر خصائص المجتمع البشري،
ذي الإرادات الحرَّة كما في الممثل له.

ودلَّ النصُّ بعمومه على أن سنن الله ذات شمول عام، فهي سنن تخضع لها
المادِّيات والمعنويات، فيصحُّ ضربُ المثل بالمادِّيات منها على المعنويات،
ولو كانت هذه المعنويات حركة مخلوقات ذوات إراداتٍ حرَّة، لأنها لا تستطيع أن
تغيِّر من طبائع المسخَّرات في الكون، وهي مسخَّرات خاضعات لسنن ربَّانية ثابتة،
وإراداتُ الناس تتصرَّف فيها ضِمنَ قوانين تسخيرها، ولا يَسْتَطِيعُ الناس أن يتصرَّفوا
فيها بما تهوَّى نفوسُهم أن تكون عليه، كما قال الله تعالى في سورة (المؤمنون/
٢٣ مصحف / ٧٤ نزول):

﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾... ﴿٧٦﴾

فمن اليقينيَّات المجربة أن النَّاس يتصرَّفون في الماء ضِمنَ قوانين الماء،
لا ضِمنَ قوانين النار أو غيرها مما له قوانين أخرى خاصَّة به، ويتصرَّفون بالخشب
ضمن قوانين الخشب لا ضِمنَ قوانين الحديد أو غيره مما له قوانين أخرى خاصَّة
به، وهكذا.

● فالمثل الأول:

مشهد من المشاهد الكونية يُلاحظه الذين يعيشون في مُتَقَلِّبِ الأحوال الجوية
في البوادي، بين السُّهول والجبال والوديان.

إنَّه مشهد ماءٍ غزير ينزل من السماء بقضاء الله، فيعمُّ السهل والوعر والجبل،
فيجتمع منحصرًا بين الجبال، هابطًا من المرتفعات، حتى يملأ الأودية، ويسيل فيها
سيلًا عنيفًا مخيفًا، يُخَيِّلُ للنَّاظر إليه أنَّ الأودية تسيل أيضًا مع تدفق الماء.

وَيَصْطَرِّعُ الماء في مَجْرَاهُ مع أشواكٍ وأعوادٍ يَابِسَةٍ، وأَكْوَامٍ قُمَامَاتٍ كان لها
بروزٌ وظهور في الوديان وعلى السُّطوح وفي المرتفعات، فيقتلعها ويحملها، فيكونُ
لها بروزٌ وظهور آخرٌ على سَطُوح المياه لخفَّتْها وطَبِشَها، وتُرْغِي وتُزْبِد، فيَغْتَرُّ بها
الجاهلون، والأغْرَاء.

وتُسْفِرُ المعركة عن قَذْفِ الزَّبْدِ الطافي وطَرَحِهِ إلى الشَّاطِئَيْنِ مُحْتَقِرًا مهملاً،
ينتظر البَلَى.

وأما الماء الطهور الذي ينفع الناس فيمكثُ في مجاريه ومساربه وأماكن
تجمعه في الأرض، ثم إلى حيث يحصل به النِّفْعُ العظيم.

● المثل الثاني:

مشهدٌ آخرٌ من المشاهد التي يُلاحِظُها أربابُ الصَّناعاتِ داخلَ مصانعهم،
مهما كانوا بعيدين عن أجواء البوادي وتقلباتها الكونية.

إنه مشهد المعادنِ وأشباهها التي يصهرونها بواسطة النار التي يوقدونها عليها.
إنَّهم يلاحِظُون زَبْدًا آخرَ يَطْفُو على سَطُوحٍ مُنْصَهَرَاتِهِمْ بعد أن يشتدَّ صِراعُ
الغليان بين الجوهر النافع وبين الشوائب المفسدة.

أما الغَرُّ أو ناقص العقل فربَّما يَغْتَرُّ بِالْوَانِ فُقَاعَاتِ الزبد، فيظنُّ أنَّ الزبد هو
الشيء الثمين، لِبُرْوزِهِ، أو لِتَلَامُعِ أَلْوَانِهِ.

لكنَّ الخبير العارف يُسْرِعُ إليه فيَقْذِفُ به خارجًا لِيَنْقِيَ مَعْدِنَهُ من أخلاطه،
ويُصَفِّي جَوْهَرَهُ من خَبَثِهِ، وأما ما يمكثُ من دون السطح فيحتفظ به، لأنَّه هو
الجوهر النافع الثمين.



ومن البديع في النصّ الذي قدّم القرآن المجيد هذين المثليين فيه ما بيانه في التحليل التالي :

الأول : أن النصّ جاء عارضاً لمُشْهَدَيْنِ حَسِيَّينَ كأنّه يحكي قصتهما لَلْفَتِ الأنظار إلى آيات الله فيهما، على مِثْلِ طريقة القرآن في ذكر الظواهر الكونية، للتنبية على آيات الله فيها.

وبعد أن لفت الأنظار إليهما، واستحثّ العقول للتفكير والتأمل فيهما، نبّه على أنّهما مثلان للصراع بين الحقّ والباطل، ودُعاة كلّ منهما وأنصاره.

فكان من بديع العرض أنّه جاء عرضاً مفاجئاً، دون سابق تنبيه عليه، ودون إشعارٍ في صَدْرِ الكلام على أنّ الغرض ضربٌ مثل.

وكان ذلك أيضاً بطريقةٍ موجزةٍ بالغة الإيجاز، فالمثلان قد عُرضَا في آيةٍ واحدةٍ من نحو أربعة أسطر.

الثاني : أنّ الصفة المشتركة التي اشتملت عليها الفقرة النهائية من المثليين ومن المُمَثِّل له قد جاءت بعبارة واحدة دالّة على الجميع، وهي :

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ :

أي : فأما زَبَدُ الماء، وزَبَدُ المعادن المنصهرة وأشباهاها، وزَبَدُ الأفكار تُجَاهَ المجادلاتِ الفكريةِ الملتزمة بالضوابط العقلية المنطقية. وزَبَدُ الصراعات الماديةِ الحربيةِ بين أنصار الحقّ الملتزمين بسنن الله السَّبِيَّةِ وأنصارِ الباطل، كلُّ ذلك الزَّبَدُ يذهبُ جُفَاءً.

أي : يذهبُ مُضْمَحِلاً مُتَلَاشِياً لا منفعة فيه ولا بقاء له.

الثالث : الدقّة المتناهية في تشبيه الحقّ الذي أنزله الله على الرسول ﷺ، بماء الغيث الذي يَنْزِلُ من السماء.

فالماء الذي يَنْزِلُ من السماء ماءً مصفًى مُقَطَّرَ لا شوائب فيه، ويحمل في

ذَرَاتِهِ خَصَائِصَ مَبَارَكَةً مِّمَّا اخْتَلَطَ بِهِ مِنَ الْأَنْوَارِ وَالْأَشْعَةِ الْوَارِدَةِ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي السَّحَابِ مِنْ مَصَادِرِ النُّورِ فِي السَّمَاءِ .

وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ حَقُّ صَافٍ لَا شَوَائِبَ فِيهِ، وَهُوَ مُبَارَكٌ ثَرُّ الْعَطَاءِ الْفِكْرِيِّ، وَثَرُّ النَّفْعِ وَالْخَيْرِ .

ونلاحظ في آيات القرآن أَنَّ اللَّهَ قَدْ وَصَفَ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ كِتَابٌ مُبَارَكٌ فَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ (ص / ٣٨ / مصحف / ٣٨ نزول):

﴿ كَتَبْنَا نُزْلَهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَّبَ رُءُوسَ الْإِثْمِ ۝ ٣٩ ﴾

ووصف الماء الذي يُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ بِأَنَّهُ مَاءٌ مُبَارَكٌ، فَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ (ق / ٥٠ / مصحف / ٣٤ نزول):

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ ٩ ﴾

الرابع: الدِّقَّةُ الْمُتَنَاهِيَةُ فِي تَشْبِيهِ الْأَفْكَارِ وَالْمَذَاهِبِ الْبَاطِلَةِ الْمَضَادَّةِ لِمَا جَاءَ بِهِ الدِّينُ الرَّبَّانِيُّ الْحَقُّ، بِالزَّبَدِ الَّذِي يَتَجَمَّعُ مِمَّا خَفَّ وَطَاشَ وَلَا قِيَمَةَ لَهُ، مِمَّا يَعْلُو سَطْحَ الْأَرْضِ، فَيَحْتَمِلُهُ مَاءُ السَّيْلِ، فَيُرْغِي وَيُزِيدُ، وَيُظْهِرُ لَهُ فُقَاعَاتٍ مُتَفَخِّخَاتٍ، وَأَلْوَانٍ زَاهِيَاتٍ يَغْتَرُّ بِهَا الْجَاهِلُونَ وَالسُّفَهَاءُ، وَيَنْخَدِعُ بِهَا الصِّغَارُ الْأَغْرَاءُ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ تَجَارِبٌ، وَيَفْرَحُ بِهَا أَصْحَابُ الشَّهَوَاتِ الْجَامِحَةِ الْجَانِحَةِ، وَأَهْلُ الْأَهْوَاءِ .

وَلَكِنَّ هَذَا الزَّبَدَ لَا يَلْبَثُ زَمَانًا طَوِيلًا طَافِيًا عَلَى السَّطْحِ رَابِيًا زَاهِيًا الْأَلْوَانِ فِي بَعْضِ فُقَاعَاتِهِ، إِذْ إِنَّ حَرَكَةَ الْمَاءِ الدَّائِبَةَ الرَّصِينَةَ الْقَوِيَّةَ الْفَعَّالَةَ، وَجَوْهَرَهُ الثَّقِيلَ ذَا الْقِيَمَةَ النَّافِعَةَ كَفِيلَانَ بِكَسْحِ الزَّبَدِ عَنِ السَّطْحِ، وَقَذْفِهِ إِلَى الشَّوْاطِئِ، فَإِذَا ارْتَمَى فِيهَا، وَتَقَلَّبَتْ عَلَيْهِ سَاعَاتُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، وَأَكَلَتْهُ الْمُتَعَاقِبَاتُ مِنْ أَضْوَاءِ الشَّمْسِ وَرَطُوبَاتِ الظَّلِّ وَحَرَكَاتِ الرِّيَّاحِ، وَقَاضِمَاتِ الْحَشَرَاتِ فَمَا دُونَهَا، اضْمَحَلَّ وَتَلَاشَى، وَصَارَ جُفَاءً، لَا يَكْتَرِثُ بِهِ إِنْسَانٌ وَلَا حَيْوَانٌ .

وبلاحظ أن هذه المعاني الدقيقة قد أَلَمَحَ إليها النصُّ لتُدْرِكَ بالدُّكَاءِ، ولم يُصْرَحْ بها بعبارَةٍ نصِّيَّةٍ، وهذا من رفيع الأدب.

الخامس: الدُّقَّةُ المتناهية في تشبيه دُعاة الباطل من الناس وجنودهم الذين يقاتلون لإحقاق الباطل وإدحاض الحقِّ، وتشبيه دعاة الحق وأنصاره الذين يجاهدون لِنُصْرَةِ الحقِّ وإِعْلَانِهِ، وإبطال الباطل وإزهاقه بكلِّ ما لديهم من قوَّةٍ حتَّى بذل أرواحهم، بالشَّوائب المختلطة بالمعادن، مهما قلَّت نسبة المعدن، وكثُرَتْ نسبة الشوائب المختلطة.

فأنصار الحقِّ هم كالمعدن الصافي ذي الوزن الثقيل، والنَّفْع الكثير، وأنصارُ الباطل هم كالحَبَثِ المختلط بالمعدن، وهم أَهْلُ خِفَّةٍ وَطَيْشٍ، وليس بين أفرادهم تماسكٌ حقيقيٌّ قويٌّ، لأنَّهم يجتمعون على العاجلة، وهي أمورٌ لا ثباتَ لها ولا دوام، وروابطها روابطٌ ضعيفة، أو وَهْمِيَّةٌ، أو مَصْلَحِيَّةٌ سَرِيعَةُ التَّقْطُعِ.

والدُّقَّةُ المتناهية في تشبيه الصُّراعِ المُسْتَعِرِ الذي يَمَسُّ بناره كُلُّا من المعادين وما اختلط بها من شوائب كَفِيلُ بأن يَمِيزَ الحَبَثَ، فيطفو، وينكشف، وقد يغرُّ في بداية أمره الجاهلين والسفهاء، ويخْدَعُ الصغارَ الأغراء ببعض فقاعاته وألوانه.

لكنَّ الخبير الذي أوقَدَ النَّارَ لِيَمِيزَ الحَبِيثَ يُسْرِعُ فيطرَّحه عن السُّطوح. كُلِّمَا ظَهَرَ منه قَدْرٌ ما، وبَقِيَ جَوْهَرُ المَعْدَنِ النافع، في قاع بوتقته أو قَدْرِهِ.

على أَنَّهُ مَتَى انْتَهَى وَقْدُ النَّارِ، وَبَرَدَ الْأَوَارِ، وعَادَ المعدنُ إلى جُمُودِهِ، ظَهَرَ المعدنُ النافع راسخاً ثابتاً مُتَمَاسِكاً في قَرَارِهِ، وظَهَرَ الزَّبْدُ خفيفاً طائشاً كالحا، غَيْرَ مُتَمَاسِكٍ وغير ذي نفع، فيقْدَفُ بِهِ الخَبِيرُ المَعْدَنُ إلى حَيْثُ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ جُفَاءً.

السادس: دَلَّ قولُ الله عَزَّ وَجَلَّ في أثناء الآية:

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾.

على أَنَّ المَثْلَيْنِ بينهما وبين الصُّراعِ البشريِّ من أجل الانتصار للحقِّ من قِبَلِ فريق، والانتصار للباطل من قِبَلِ فريقٍ آخر، تَشَابُهُ، في العناصر، وفي

الحركة، وفي النتيجة، سواء أكان الصِّراع صِراعاً فكرياً علمياً، أو صِراعاً حربيّاً قتالياً.

والتحليل للمثليّين يكشف:

● أن المثل الأول، وهو مثل ماء الغيث الذي يَمْلأُ الوديان على مقاديرها، يُلائِمُ واقع الصِّراع الفكري بين أنصار الحقّ، وأنصار الباطل، القائم من جهة أنصار الحقّ على الجدال بالتي هي أحسن، والقائم من جهة أنصار الباطل على المغالطات وزُخرف القول، إذ ليس في هذا الصِّراع لدُع نار الحرب ولا آلامها.

● وأن المثل الثاني وهو مَثَلُ صَهْرِ المعادن وأشباهها يُلائِمُ واقع الصِّراع الحربيّ الْقِتَالِيّ بَيْنَ أنصارِ الحقّ وأنصارِ الباطل.

ففي المثل الثاني تَسْتَعِرُّ النار الصاهرة للمعدن وللشوائب التي هي فيه معاً، كما تَسْتَعِرُّ نارُ الحرب في الممثل له بين الفريقين، وتمسُّ بِلَدْعَاتِهَا وآلِمِهَا الفريقين المتقاتلين جميعاً.

ودلّ قول الله عزّ وجلّ في آخر الآية:

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾.

بما فيه من تكميلٍ للقول الأول، بذكر الأمثال هنا، وبما تُشيرُ إليه الإعادة المقصودةٌ للدلالة على معنى يُراد، دلّ على أن المثليّين مُوزَّعَان على نوعي الصِّراع، وهما: الصِّراع بالمجادلة بالتي هي أحسن، والصِّراع بالقتال والحرب.

إنَّ الحُكْمَةَ الْبَيَانِيَّةَ اقْتَضَتْ استخدام أسلوب تكرير الفكرة المنبهة على ضَرْبِ المثليين، للدلالة على أنَّهما مثلان لموضوعين، لا لموضوعٍ واحد، والتحليل للمثليين قد دلّنا على نوعيهما.

ويلاحظ أن العِبَارَتَيْنِ قَدْ حُذِفَ مِنْ كُلِّ مِنْهُمَا شَيْءٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ بَعْضُ مَا ذُكِرَ فِي الْآخِرِ، وَشَيْءٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ التَّحْلِيلُ الْفِكْرِيُّ لِلْمَثْلَيْنِ.

فالتقدير في العبارة الأولى: ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾، نستطيع أن نقول فيه: مثل ذلك الذي جاء في حكاية المشهدين اللذين ضرب الله بهما مثليْن للصِّراع الفكري والصِّراع الحربي بين الناس، من أجل قضيتي الحق والباطل، يَضْرِبُ اللَّهُ الأمثال لتوضيح أمور أخرى، في قضايا أخرى.

وهذا التقدير نفسه يصلح لبيان المحذوفات في العبارة الأخرى: ﴿كذلك يَضْرِبُ اللَّهُ الأمثال﴾.

إذن: فقد دلّتنا العبارة الأولى على أن الموضوع هو صراع في طرفٍ منه الحق، وفي الطرف الآخر الباطل، لكنّ الصراع لا يتمثل بينهما إلا في واقع كائنات ذوي إرادات حرة، ينصُرُ فريقٌ منهم الحق عملاً بالواجب، واتباعاً لمرضاة الله، وينصُرُ فريقٌ منهم الباطل اتباعاً للهوى وعبادة للشهوات، ودلّتنا العبارة الثانية على أن الصُّورتَيْن المعروضتين مثالان يضربهما الله للناس، ودلّتنا الإعادة على أن المثل الأول لموضوع، والمثل الثاني لموضوعٍ آخر.

ودلّنا التحليل الفكري على أن المثل الأول، هو مثل للصراع بأسلوب المجادلة الفكرية العِلْمِيَّة، لأنّ عناصره عناصرٌ باردة لا حرارة فيها ولا نار، وعلى أن المثل الثاني، هو مثل للصراع القتالي الحربي، لأنّ عناصره مشتملة على حرارة ونارٍ لاذِعةٍ للمُعَدِن ولما فيه من شوائب، فهو كالحرب بين أنصار الحق وأنصار الباطل، إذ تمسّ بالأمها كلا الفريقين المتقاتلين.

وهذا من روائع الأداء البياني.

السابع: جاء تنكير لفظ «ماء» ولفظ «أودية» دليلاً على أن الماء النازل من السماء كثير غزير، يملأ أودية عظيمة وكثيرة، ويفيض عنها.

وإذ كان الماء مثلاً لما يُنَزَّلُ الله على رسوله من علم وهداية وخير عظيم عميم للناس، وكانت الأودية مثلاً لحاجة البشرية بفراغها ومجاريها إلى ما ينزل من

السماء من هداية ربّانية، فقد دلّ ذلك على أن هذا الدين ينزل بعلم وهداية يَغْمُرَان كلَّ حاجاتِ البشرية إلى عناصر الهداية الربّانية.

ودلّ أيضاً على أن الذين يتلقّون العلم الربّاني من الناس هم كأمثال الوديان، فمنها الكبير ومنها الصغير، وكلّ من كبيرها وصغيرها يمتلئ فيسيل على مقداره، وكذلك حاملو علم الدين وناقلوه ومبينوه للناس، باستطاعة كلّ منهم أن يمتلئ على مقداره من علوم هذا الدين الغزيرة.

ولولا أن ما ينزل الله من السّماء كثير وفير، ما امتلأت وديان مُتلقّي المعارف الربّانية منها كلٌّ على قدره.

أفلا تدلّ على هذه المعاني عبارة: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾.

أي: امتلأت على مقاديرها وجرت.

ونرى في هذه العبارة من أدب التعبير أن السيلان قد أُسند إلى الوديان، مع أن الماء وما يحمل هو الذي يسيل ويجري فيها.

قال البلاغيون: هو من قبيل المجاز العقلي.

وأقول: هو تصوير صادق من قبيل ما يُسمّى لدى الأدباء بالصدق الفني، لحالة نفس المشاهد، حين يشاهد سيلاً متدفقاً في الوادي، إذ لا يرى من المشهد بسبب الدهشة التي تغتريه، إلا أن الوادي كلّهُ شيء عجيب يسيل.

إن صورة المشهد قد امتدّت في شعوره امتداداً جعله يرى أن الماء ليس هو وحده الذي يسيل، بل تسيل معه الجبال وأشجار الوادي الثابتة فيه، وكلّ شيء هو عليه.

وهذا من روائع التصوير، مع الصّدق الفني.

الثامن: جاء وصف الزبد في النّص بأنّه رابٍ، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾.

أي: زبدًا ناميًا. من فعل «رَبَا الشيءُ يربو» إذا نما ينمو.

وهذا وصفٌ في منتهى الدقة:

● فالزبد شيءٌ يحمله السيلُ فيطفو على سطحه.

● ويكون في أول الأمر قليلاً، ثم ينمو شيئاً فشيئاً كلما تدفق السيل، وجلب من المواقع والأطراف ما خفّ وطفاً من متكسراتٍ وقمامات.

وكذلك حال الأفكار الباطلة التي لا وزنَ لها ولا قيمة لها، وحال أنصارها، في التجمع والتناصر والوقوف عقبة في طريق انتشار الحق، وظهور دُعائه وأنصاره.

وقد يكون لهذه الأفكار الباطلة ولأنصارها بروز وظهورٌ أحياناً، وفُقاعاتٌ تُغري الأغراء والجاهلين وضعفاء العقول.

ويصطنع دعاة الأفكار والمبادئ الباطلة للإقناع بها الزخارف القولية، الملوّنة بالأصباغ البراقة، والمغالطات الجدلية التي توهم أنها حقٌ وذاتٌ وزنٌ، كما تظهر على الزبد فُقاعات متفخة، وألوانٌ برّاقة مغرية أحياناً.

ونظيرُ الزبد الذي يربو على ماء السيول، يلاحظُ زبدٌ آخر، فيما يُوقدُ عليه المعدّنون في النار ابتغاءَ حليةٍ أو متاعٍ، فهو زبدٌ قد يربو ويطفو ويتلون بالوانٍ خوادع.

ألا نرى في كلِّ عصرٍ وكلِّ أمة أن أنصار الباطل يتجمعون بقوى خبيثة، ويتناصرون فيما بينهم لمقاتلة أنصار الحق ودُعائه، والوقوف في طريق انتشار الحق وظهوره وانتصاره.

وحين يلتزم أنصار الحق ودُعائه بمنهج الله وسُنَنِ السببية، فقد قضت سنة الله بظهور الحق الذي يدعون إليه، وانتصارهم على المبطلين، وعندئذٍ يردّدون قول الله عز وجل في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ﴿٨١﴾

التاسع: من السمو الأدبي في هذا النص أنه قد حُذِفَ منه ما يمكن استنباطه عن طريق التقابل والتناظر، أو عن طريق اللوازم الفكرية، أو اقتضاءات النص، أو نحو ذلك، مع إبراز المهم من صورة المثليين.

فمما هو ظاهر لكل متدبر أن عناصر كثيرة من صورة المثليين قد حُذِفَتْ لأنَّ الذهن يستدعيها بنفسه دون ذكرها في النص، أو أنه لا حاجة داعية إلى ذكرها. واكتفى النص بذكر لقطات تدل على الفجوات المتركبة.

اللقطة الأولى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: أي: أنزل الله، وحذف الفاعل للعلم به. هذه اللقطة من صورة المثل تدل على أن الماء قد بدأ ينزل واستمر ينزل وينزل، ويجرف ما يجرف معه، مما يقع في منازلَه حتى تجمع و فيراً غزيراً.

اللقطة الثانية: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾، وينطلق الذهن في تصوّر المشهد العجيب الذي امتلأت به الوديان الكثيرة الصغيرة والكبيرة، كل منها بقدر استيعابه، وهي تسيل وتتدفق بصورة مذهلة، تُشعر الناظر بأن الوديان بما فيها تسيل مع الماء الغزير.

اللقطة الثالثة: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾، وينطلق الذهن في تصوّر أحوال مختلف المشاهدين لهذا السيل، الذين قد يوجد منهم من يغتر بما يطفو على الماء من زبد.

وينتقل النص من هذه الصورة التي يشهدها أهل البوادي والجبال والوديان، إلى صورة أخرى نائية جداً، يشهدها أهل المصانع المعدّون، الذين يؤقّدون في بوتقاتهم وقُدُورهم على المعادن ليضهروها من أجل صناعة الحليّ الذهبية والفضية وغيرها، ومن أجل صناعة الأمتعة المعدنية التي يستخدمها الناس في منازلهم كالصحاف والجفان والقُدُور.

ما أبعد ما بين المشهدين في المكان وفي الحال، إلا أنهما متشابهان في الصفات ذوات الدلالة المقصودة من المثليين.

وفي هذا الجمع بين الشَّيْهَيْنِ في الظاهرة الَّتِي يَقْصِدُ البَيانَ التشبيه بها مع التباعِد في المكان والحال، واختِلَافَ المشاهدين لكلِّ منهما، إبداعُ بيانيٍّ يَجْذِبُ انتباهَ الأفكارِ حقًّا، ويَرُوقُ جدًّا لدى النفوس والأفكار التي تتذوَّقُ رفيعَ الأدبِ.

ودلَّ المثلان على أنَّ الحقَّ وجماعةَ المحقِّينَ لهُمَا المكث والبقاء في الأرض، أمَّا الباطلُ وأحزَابُهُ فإلى اضمِحلالٍ وزوالٍ، ومهما ظهر في كلِّ عصر باطل جديد وكان له بعض ظهور في الأرض، فإنَّ الحقَّ هو الذي يكون له البقاء والدوام، وكلُّ جديد من الباطل سيضمحلُّ، ويكونُ جُفَاءً، ويظلُّ الحقُّ هو الشيء الخالد.

كم اضمحلت أفكار ومذاهبٌ وضعيَّة باطلة، ناصرها مبطلون كثيرون، وكانت لها دولٌ تفرضها على الناس، وبقيت فكرة الإيمان بالله وتوحيده هي الفكرة السائدة على كلِّ ذي عقلٍ حصيف، وقلبٌ نظيف، منذ بدء البشرية حتَّى يوم الناس هذا، أمَّا استمرار المِلَلِ الباطلة فمن آثار تقاعس دعاة الحقِّ والمؤمنين به عن القيام بواجباتهم تجاهه، من أنواع الجهاد في سبيل الله لتبليغه، والدفاع عن دولته.

كم تساقطت أفكار المذاهب التي تعتمد على الكذب والنفاق والخيانة، والمصالح الفردية الأنانية، وتَسَاقَطَ معها أنصارها، وبقيت فضائل الأخلاق هي الأفكار السائدة على كلِّ ذي عقلٍ حصيف، وقلبٌ نظيف، منذ بدء البشرية.

وكلَّمَا التزم المؤمنون بالحقِّ المناصرون له بمنهج الله في اتِّخاذ الأسباب التي ناط الله بها مسبباتها، صادقين مخلصين صابرين، كان النصر والظهور في الأرض من حظوظهم، ومن ثمرات جهادهم لهم وللأمة الربَّانيَّة من بعدهم.

وحين لا يظفرون بالنَّصْرِ فعليهم أن يُراجِعوا أنفسهم ليُصْلِحُوا ما أفسدُوا، وليَتَمَّمُوا ما لم يتخذوا من أسباب واجبة، وليَصْدُقُوا مع الله، وليخلصوا لِلَّهِ جهادهم، فإذا فعلوا ذلك كان الله معهم، وأمدَّهم بعونه ونصره، وآتاهم ما يحبُّون.

العاشر: جاء في هذه الآية استعمال الفعل الماضي في «أنزل - سالت - فاحتمل» لإعطاء المشهد صورة حكاية أمرٍ وقع وظهرت نتيجته .

وذلك ليكون المثل المتحقق فيما مضى أدلّ على تحقيق نتيجة الظفر والبقاء للحقّ، والهزيمة والتلاشي للباطل .

وللإشارة إلى أن ما نزل من الدين قد وصل إلى مرحلةٍ حقق فيها انتصاراً فكرياً علمياً، واستقراراً في نفوس المؤمنين .

أما الصّراع القتالي بين المؤمنين والكافرين فقد كان عند تنزيل النصّ في طوره المتحرّك المتجدّد، لذلك جاء في عبارة المثل المشير إليه استعمال الفعل المضارع الدالّ على التجدّد والحركة، فقال عزّ وجلّ فيه :

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ﴾ .

الحادي عشر: دلّ المثل الأول على أن ظهور فكرة الحقّ في الناس وبقائها هما بمثابة الماء للحياة، ودلّ المثل الثاني على أن ظهور أنصار الحقّ ودُعائِهِ وانتصارهم على دعاة الباطل ومناصريه هما للناس بمثابة الحُلْيِ والأمتعة التي يحتاجون إليها في حياتهم نساءً ورجالاً .

الثاني عشر: المثلان هما من نوع الأمثال المركّبة، التي تُسمّى عند البلاغيين بالتشبيه التمثيلي، الذي يُنْتزَعُ وجه الشّبّه فيه من متعدّد .

الثالث عشر: يلاحظ في المثلين التصوير الكلامي المتحرّك، حتّى كأنه شريط مشهدي يقدّم الصورة والصّوت والأفكار والمشاعر النفسيّة، وهويثّ لقطاتٍ فنيّةٍ مهمّة، ويتركّ للذهن استكمال ما بينها، وما قبلها، وما بعدها .

الرابع عشر: في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾، دقائق غاية في الإحكام البياني :

الأولى: استعمال لفظ ﴿مِنْ﴾ الدالّة على التبعية، أي: ومن بعض ما يوقدون عليه في النار .

وذلك لأنَّ الناس يوقدون على أشياء ويضعونها في النار، وهي لا زبد لها، كالحجارة الكلسية، وكالطين ليصير فخاراً، ومنه الخزفيات ونحوها. فالناس يَصْنَعُونَ منها أواني وأمتعة، ولا يظهر لها زبدٌ يُطرح عنها.

الثانية: استعمال الفعل المضارع ﴿يُوقِدُونَ﴾ للدلالة على حركة الإمداد بالوقود تبعاً مدّة من الزمن، بُغية المحافظة على الحرارة اللازمة، ولا تكفي عملية إيقادٍ لمرة واحدة.

الثالثة: استعمال ضمير الغائب في ﴿يُوقِدُونَ﴾ في قراءة دون أن يكون في سابق الكلام من يعود عليهم الضمير، ليفهم منه أن المراد كلُّ أصحاب المهن الصناعية المعدّية من أي قوم.

والحديث بالضمير الغائب الجمعيّ يحمل معنى التعميم الذي يشملُ كلَّ من يصلح له. أمّا قراءة الجمهور [توقدون] فالضمير في الفعل ضمير المخاطبين وهم مجموع الناس ويتناول من يفعل ذلك أو يعلمه.

الرابعة: استعمال عبارة ﴿عليه﴾ للدلالة على أنَّ النَّارَ تُسَلِّطُ كلَّ حرارتها على المعدن، حتى ينصهر، أو يلين، ويطاوع لما يُراد أن يُصْنَعَ منه.

الخامسة: عبارة ﴿في النار﴾ تدلُّ على الصُّورَةِ الْمُثَلَّى الَّتِي تُصْهَرُ بها المعادن، وهي أن تكون في داخل النار، بمعنى أن تكون النار محيطة بها إحاطة تامة من كلِّ جوانبها.

أليست هذه الدقة المتناهية في كلِّ كلمة من الروائع البيانية، مع الصدق الواقعي، والإيجاز إلى أقصى ما تَبَقَّى معه الدلالات المرادة؟!.

فهل يشكُّ أيُّ مُتَدَبِّرٍ لهذه الآية العظيمة على إيجازها البالغ الغاية في أنَّها من أبلغ الكلام، وأجمل الأدب وأرفعه، وأنَّ المستوى الأدبيّ فيها مستوى معجزٌ للبشر جميعاً؟!.

مع ما في الآية من التزام بالحق، وبالصّدق الواقعي حين يكون البيان يَسْتَدْعِيهِ، وبالصّدق الفنيّ حين يكون البيان يستدعيه!!

الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ عَشْرَةُ

قول الله عز وجل في سورة (الفجر / ٨٩ مصحف / ١٠ نزول):

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ۞

إن قول الله عز وجل في هذا النص: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۞ ﴾ وهو آية واحدة قصيرة، يُقدِّم لوحةً تصويريةً كلاميةً عجيبية الأداء.

فالعقاب المُهْلِكُ المُدْمِرُ الَّذِي أنزله الله عز وجل على المجرمين المكذبين لرسل الله من قوم «عاد» وقوم «ثمود» و«فرعون وجنوده»، الذين طَغَوْا في البلاد، قد كان عقاباً بوسائل مختلفة، إذ أَهْلَكْتَ عادَ بريح صرصرٍ عاتية، وأهلكت ثمود بالصَّيْحَةِ وَالصَّاعِقَةِ وَالرَّجْفَةِ، وَأَهْلَكْتَ فرعونَ وجنوده بالغَرَقِ.

لكنَّ صُورَةً واحدةً قَدْ كَانَتْ مُشْتَرَكَةً بَيْنَ الْمَشَاهِدِ الَّتِي نَزَلَ عَلَى وَفْقِهَا الْعِقَابُ بِهِؤُلَاءِ الْمُعَذِّبِينَ، فَهِيَ تَنْتَظِمُهَا جَمِيعاً، مَعَ الْاِخْتِلَافِ الْكَثِيرِ فِي غَيْرِهَا، أَلَا وَهِيَ صُورَةُ الْحَرَكَةِ الْمُتَتَابِعَةِ السَّرِيعَةِ الْمَهْلِكَةِ بُعْثُفٍ، فَالْهَلَكُ بِهَا تَتَابَعَتْ عَلَيْهِمْ ضَرْبَاتُ التَّعْذِيبِ الْمُتَلَحِّقَاتِ الَّتِي تَمَّ بِهَا إِهْلَاكُهُمْ.

إنَّ الرِّيحَ الْعَاتِيَةَ الْبَارِدَةَ الشَّدِيدَةَ الصَّرْصَرِ «أَي: ذَاتِ الصَّوْتِ الْمَخِيفِ» الَّتِي أَهْلَكَ اللَّهُ بِهَا قَوْمَ عَادَ، قَدْ نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ مُتَتَابِعَةً سَرِيعَةً كَحَرَكَةِ صَبٍّ شَيْءٍ سَائِلٍ بَارِدٍ أَوْ سَاخِنٍ مِنْ أَعْلَى.

والصبيحة، والصّاعقة، والرجفة، اللّواتي أهلك الله بها قوم «شمود» قد نزلت عليهم أيضاً مُتتَابِعَةً سَرِيعَةً، كحركة الصبِّ لِشَيْءٍ سائل.

وَالْيَتَامَ جبال ماء البحر الذي فَرقه الله لموسى وبني إسرائيل، لِيُنْجِيَهُمْ مِنْ عَذْوِهِمْ، قد انصبَّ به الماء المُغْرِقُ الْمُهِلِكُ على فرعون وجنوده انصباباً مُتتَابِعاً سَرِيعاً، كضرباتٍ متلاحقاتٍ سريعاتٍ ليس بين السابقة وتاليتها فاصل زمني.

فهلك هؤلاء الأقوام هلاكاً تتابعت عليهم فيه ضربات التعذيب التي تم بها إهلاكهم.

هذه الصورة النازمة لهذه الأحداث المختلفة في وسائل التدمير والإهلاك، والمختلفة في أمور كثيرة، هي ما جاء التعبير عنها بقول الله عز وجل:

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (١٣).
فلتندبر هذه الآية بتفصيل، من خلال كل كلمة فيها.

﴿فَصَبَّ﴾:

الفاء دلّت على أن هذا العقاب الذي أنزله الله الرّب عز وجلّ عليهم قد كان مُرتَّباً لترتيب جزاء عقابي على ما كان منهم من طغيانٍ في البلاد، وإكثارٍ من الفساد.

وفعل «صَبَّ» دلّ على أن وسائل التعذيب نزلت عليهم بصورة متتابعةٍ سَرِيعَةٍ، ليس بين أجزائها فواصل زمنية، فكأنها ضربة واحدة ذات امتدادٍ زمنيٍّ، فناسب هذه الفكرة أن يأتي السوط بالإفراد، لا بالجمع، إذ لم يكن التعبير: فصّب عليهم ربك سياط عذاب، بل كان: فصّب عليهم ربك سَوْطَ عذاب.

والصبُّ في اللغة: إراقة شيءٍ سائلٍ من علو إلى سُفلٍ، فهو ينزل متواتراً متتابعاً، ولا يُستطاع التخلص منه أو صدّه.

﴿عليهم﴾:

لقد ذُكرَ الأقوام الثلاثة قبل هذا بالتفصيل، وكُنِيَ عنهم هنا بضمير جمع

يَشْمَلُهُمْ جَمِيعاً، لاشتراكهم هنا في صورة عقابِ ذاتِ نظامٍ حركيٍّ وغائيٍّ واحد.
ولَمَّا كَانَ الصَّبُّ نَازِلاً مِنْ فَوْقِهِمْ، لَتَعْذِيبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ، كَانَ مِنَ الدَّقَّةِ فِي
التعبير أن يُسْتَعْمَلَ حَرْفُ الْجَرِّ «عَلَى».

ولو كان الصَّبُّ لِيَخِيرَهُمْ وَنَفَعَهُمْ لَكَانَ الْمُنَاسِبُ اسْتِعْمَالُ حَرْفِ جَرٍّ آخَرَ،
مثل: «اللام» أو «إلى».

﴿رُبُّكَ﴾:

جاء الخطاب بالكاف التي هي لخطاب المفرد ليلا مِسَ النصَّ بالتوجيه
الخاصَّ كُلِّ فَرْدٍ يَصْلُحُ لِهَذَا الْخِطَابِ، وَيَفْهَمُ مِنْهُ كُلُّ فَرْدٍ مَا يُلَاقِي حَالَهُ.

● فالكافر يفهم منه معنى التهديد، بأنَّ رَبَّهُ قَدْ يُنْزِلُ عَلَيْهِ عِقَاباً مُشَابِهاً لِهَذَا
العقاب إذا لم يُتَّبِعْ إِلَيْهِ.

● والرسول يفهم منه أنَّ رَبَّهُ نَاصِرُهُ عَلَى الطُّغَاةِ الْمُفْسِدِينَ فَتَهْوَنُ عَلَيْهِ
مَقَالَتُهُمْ فِيهِ وَمَكَايِدُهُمْ لَهُ.

● والمؤمنون يفهمون منه أنَّ اللَّهَ نَاصِرُ نَبِيِّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ، وَخَازِلُ الطُّغَاةِ
الْمُفْسِدِينَ فِي الْبِلَادِ، وَمُهْلِكُهُمْ، فَيُثَبِّتُونَ عَلَى الْحَقِّ، وَيَنْتَظِرُونَ نَصْرَ اللَّهِ وَالْفَتْحَ.

وفي هذا الخطاب «رُبُّكَ» تعبيرٌ عَنْ حَقِيقَةِ أَنَّ رَبَّكَ أَيُّهَا الْمَخَاطَبُ فِي أَيِّ
عَصْرِ كُنْتَ، وَرَبَّ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ وَاحِدٌ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ.

وفي اختيار اسم «الرَّبِّ» هنا من أسماء الله الكثيرة دلالةٌ عَلَى معاني الربوبيةِ
الشاملة لِلْخَلْقِ وَفَوْقَ نِظَامِ التَّربِيَةِ الْمَتَدَرِّجَةِ بِالْأَشْيَاءِ الْمَخْلُوقَةِ حَتَّى بُلُوغِهَا مَرْتَبَةَ
كَمَالِهَا، وَالشَّامِلَةِ لِلتَّربِيَةِ بِالْبَيَانِ الْإِقْنَاعِيِّ الْفِكْرِيِّ، وَبِالْعِبَرِ وَالْعِظَاتِ الْمَشْهُودَةِ
أَوِ الْمَحْكِيَةِ.

وظاهر أنَّ فِي ذِكْرِ إِهْلَاكِ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ طَغَوْا وَأَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ، تَوْجِيهاً
لِلْإِعْتِبَارِ وَالْإِتْعَازِ بِهِمْ وَبِمَا جَرَى لَهُمْ، وَهَذَا مِنَ أَلْوَانِ التَّربِيَةِ.

﴿سَوَاطٍ عَذَابٍ﴾:

السَّوْطُ: في اللغة، خلطُ الشيء بَعْضُهُ ببعض، ومنه سُمِّيَ الْمِسْوَاط وهو خشبة يُحْرَكُ بها ما في الْقَدْر، ليختلط ببعضه ببعض.

وَالسَّوْطُ: مَا يُضْرَبُ بِهِ أَوْ يُجْلَدُ بِهِ، وَسُمِّيَ سَوَاطٍ لِأَنَّهُ إِذَا سَيَّطَ بِهِ إِنْسَانٌ أَوْ دَابَّةٌ خُلِطَ الدَّمُ بِاللَّحْمِ، فَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّهُ بِالضَّرْبِ بِهِ يَسْوُطُ «أَيُّ: يَخْلُطُ» الدَّمُ بِاللَّحْمِ.

وَيُجْمَعُ السَّوْطُ عَلَى سَيَاطٍ، وَعَلَى أَسْوَاطٍ، وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ.

ونلاحظ أَنَّ الله عزَّ وجلَّ شَبَّهَ ضَرْبَاتِ الرِّيحِ الصَّرْصَرِ الْعَاتِيَةِ، وَضَرْبَاتِ الصَّيْحَةِ وَالرَّجْفَةِ وَالصَّاعِقَةِ، وَضَرْبَاتِ أَمْوَاجِ الْمِيَاهِ الْمُنْصَبَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ قَائِمَةً كَالْجِبَالِ، بِضَرْبَاتِ السَّيَاطِ الْمُتَوَالِيَةِ، بِتَتَابُعِ مُتَلَاحِقٍ دُونَ فَاصِلٍ زَمَنِيٍّ بَيْنَهَا، حَتَّى كَأَنَّهَا سَوَاطٌ وَاحِدٌ ذُو أَجْزَاءٍ مُتَابِعَةٍ، كُلَّمَا أَتَى جُزْءٌ مِنْهُ وَظِيفَتُهُ اخْتَفَى وَجَاءَ الْجُزْءُ الَّذِي وَرَاءَهُ، وَهَذَا مَعْنَى دَقِيقٌ جَدًّا، وَهُوَ الَّذِي دَعَا - فِيمَا أَرَى - إِلَى اسْتِعْمَالِ لَفْظِ «سَوَاطٍ» بِالْمَفْرَدِ، دُونَ لَفْظِ «سَيَاطٍ» بِالْجَمْعِ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ.

وفي استعمال كلمة السَّوْطِ هُنَا دَقَّةٌ فِي التَّعْبِيرِ بِاللُّغَةِ الْغَايَةِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى مَا وَقَعَ فَعَلًّا، فِي غَايَةِ الْإِيْجَازِ.

وَالْعَذَابُ فِي اللُّغَةِ: النَّكَالُ وَالْعُقُوبَةُ، فَدَلَّ صَبُّ السَّوْطِ عَلَى مَا يَجْلِبُهُ لِمَنْ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ وَمَا يُحْدِثُهُ مِنْ آلامٍ وَإِهْلَاكِ عَلَى صُورَةِ الْخُلْطِ، وَدَلَّتْ إِضَافَةُ السَّوْطِ إِلَى الْعَذَابِ عَلَى أَنَّ صَبَّ السَّوْطِ قَدْ كَانَ عِقَابًا لِلْقَوْمِ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ طُغْيَانٍ وَفَسَادٍ كَثِيرٍ فِي الْبِلَادِ.

فَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْوَجِيزَةُ عَلَى كُلِّ هَذِهِ الْمَعَانِي، فِي صُورَةٍ بَيَانِيَةٍ فِيهَا إِبْدَاعٌ عَجِيبٌ وَدَقَّةٌ فِي التَّعْبِيرِ، وَاخْتِيَارٌ غَايَةُ فِي الْإِتْقَانِ لِكُلِّ كَلِمَةٍ فِيهِ.

أفليس هذا من أسمى الأدبِ وأرفعهِ؟!

• • •

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةُ

يصف الله عز وجل الذين كفروا برسول الله محمد ﷺ من قومه في عصر التنزيل، وأصرّوا على كفرهم، وعاندوا واستكبروا، رغم كلِّ الْبَيِّنَاتِ والحجج والبراهين، ورغم كلِّ الترغيبات والإنذارات التي نزلت في القرآن قبل إنزال سورة (يس / ٣٦ مصحف / ٤١ نزول) فيقول الله عز وجل فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَس ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾
تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى
أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُمْ أَغْلَاقًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾
وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ
عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ
بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴿

تمهيد:

كان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام في العرب نبياً رسولاً، وعنه تلقى العرب الملة الحنيفية، وهي دينه ودين أبيه إبراهيم.

وبقي العرب يتوارثون الدين الحق الذي لا شرك فيه، حتى دخلت إليهم الوثنية والتحريفات، وأشركوا بالله، وبقوا مدة لا يأتيهم مُنْذِرٌ خاصُّ بهم، يُنْذِرُهُم بعقاب الله، إذا لم يتركوا الوثنية، ويرجعوا إلى الحنيفية والإيمان الصحيح، إلى أن بعث الله رسوله محمداً ﷺ، بالدين الخاتم، مُعَلِّماً، ومُبَشِّراً، ونذيراً.

وَتُعَرَفُ الْمُدَّةُ مِنْ انحرافهم حتى بعثة الرسول محمد بأنها مُدَّةُ فِتْرَةِ الرُّسُلِ،
وَتُطْلَقُ عَلَى أَهْلِهَا عبارة: «أهل الفترة».

لكنهم خِلَالِ مُدَّةٍ وَبَيْنَتِهِمْ وقبل بعثة خاتم المرسلين، كانت تَبْلُغُهُمْ تعاليمُ
الديانة اليهودية، وتعاليمُ الديانة النصرانية، وكان بعضها غير مُحرَّفٍ، فلا يُؤْمِنُونَ،
باستثناء من دخل منهم في اليهودية. كيهود اليمن، ومن دخل منهم في النصرانية،
كنصارى نجران.

وقد أخذهم الله في القرآن على بقائهم في الوثنية، وكُفْرِهِمْ بما أُوتِيَ موسى
عليه السلام، فقال الله عزَّ وجلَّ بشأنهم في سورة (القصص / ٢٨ مصحف /
٤٩ نزول):

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا
بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾
وقرأ جمهورُ القراء ﴿سَاحِرَانِ﴾ وهم غير الكوفيين: (عاصم وحمة والكسائي
وخلف).

وقد جاء في القرآن بيان أن العرب الذين بُعث فيهم مُحَمَّدٌ ﷺ، لم يأتهم
نذيرٌ من قبله، يخوِّفهم من عقاب الله على شركهم، ولا جاء لأبائهم الذين يَحْفَظُونَ
أنسابهم.

لذلك لم تكن حكمةُ الله تقضي بإهلاكهم، وإنزال العقاب عليهم في الدنيا،
قبل إرسال رسولٍ إليهم، وتبليغهم دين ربِّهم الحق، وإنذارهم، إذ لو عاقبهم
فأهلكهم، لَكَانَ لَهُمْ حُجَّةٌ أَنْ يَقُولُوا كَمَا أَبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة (القصص /
٢٨ مصحف / ٤٩ نزول):

﴿لَوْلَا أَرْسَلْنَا رُسُلًا فَنُتَبِّعَ آيَاتِنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

وليس معنى هذا أنه لم يأتهم علمٌ ما عن رسولٍ من رُسُلِ الله، وأنه ما كان
عليهم أن يتَّبِعُوا الحقَّ الذي بَلَّغَهُمْ، فقد كانت الديانة اليهودية، والديانة النصرانية

معروفَتَيْنِ لديهم، وقد آثروا الوثنيَّة وتقاليدَها، لِذَا فمن بَلَغَهُ عِلْمٌ بِالْحَقِّ الرَّبَّانِي فَهُوَ مسؤولٌ عند الله عنه، وعلى هذا يُحْمَلُ ما صَحَّ في السُّنَّةِ عن الرَّسُولِ من بَيَانٍ أَنَّ بَعْضَ أهل الجاهليَّة قبل بعثة مُحَمَّدٍ ﷺ في النار فالْمَسْؤُولِيَّةُ عن الدين منوطة ببلوغ العلم بالحقِّ الرَّبَّانِي على العباد.

مفردات النص:

﴿غَافِلُونَ﴾: الغافل الساهي الذي لا يَمُرُّ الأمرُ المغفولُ عنه بخاطره، ولا تستدعيه ذاكرته.

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: أي: لقد ثبت عليهم قولُ اللَّهِ المَحْدَّدُ لأنظمة النفس الإنسانية، المتضمَّن أنَّ من جعل نفسه باختياره أسيرَ جوامحه من الأهواء والشهوات والكِبَرِ وَحُبِّ الْعُلُوِّ في الأرض والرغبة في الفجور، فإنَّه لا يؤمن بالجزاء والدينونة واليوم الآخر، لثلاثٍ يُلْجِمُ جَوامِحهُ عن مطالبها ورغائبها، مها توالى عليه الآيات البينات، والحجج والبراهين الواضحات، وتتابعت عليه الإنذارات.

إنَّ قول الله، وكلمة الله سَوَاء، ويكون قول الله في الأقسام التالية:

الأول: في موضوع خبري: أزلي، أو غير أزليٍّ من ماضٍ أو حاضِرٍ أو مستقبل، وهو قولٌ دالٌّ على معلومٍ من معلومات الله، وهو حقٌّ لا محالة، ولا يكون الواقع إلا مطابقاً لقول الله بشأنه.

الثاني: قولٌ في أمرٍ تكويني، وهو نافذ التكوين لا محالة، ويتحقَّق المكوَّن بأمر التكوين: «كُنْ»، كما قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (يس/٣٦):

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٢﴾

الثالث: قولٌ في حُكْمٍ تشريعي، ويتحقَّق نفاذهُ وَيَتِمُّ بَيَّتُ الْحُكْمِ التَّشْرِيعِي، ووُضِعَ حُدُوده، على مُراد الله فيه، ويُوَجِّه البَيانُ بِهِ للعباد أمراً أو نهياً

أو إباحةً أو غير ذلك من الأحكام، ولا يتوقف القول التشريعي على طاعة العباد له، إذ تتحقق الإرادة بإصدار الحكم.

الرابع: قول في موضوع جزائي، ويتحقق نفاذه بإصدار الوعد والوعيد فيه، وتحديد قواعده وشروطه ومجالاته، على ما تمت به إرادة الله.

وعند تنفيذ الجزاء بالوعد أو الوعيد يأتي أمر التكوين، فيتم التنفيذ بكلمة: «كن».

﴿أَغْلَالًا﴾: الغُلُّ طوقٌ من حديد، أو من جلد، يُجْعَلُ في عُنُقِ الأسير، أو المجرم، أو في أيديهما، وجمعه «أغلال». وقد تجمع يَدُ المغلولِ إلى عُنُقِهِ، وتُطَوَّقَانِ بِالْغُلِّ.

﴿الْأَذْقَانِ﴾: جمع الذَّقَنَ، وهو مجتمع اللَّحْيَيْنِ من أسفلهما.

﴿مُقَمَّحُونَ﴾: أي: رَافِعُو رُؤُسِهِمْ إلى الأعلى. يقال: أَقَمَحَ الْغُلَّ الْأَسِيرَ إِذَا ضَاقَ الْغُلُّ عَلَى عُنُقِهِ فَاضْطَرَّ إِلَى رَفْعِ رَأْسِهِ.

﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾: أي: فجعلنا عليهم غِشَاءً سَاتِرًا يَمْنَعُ عَنْهُمْ الرُّؤْيَا. الْغِشَاءُ: الْغِطَاءُ، والمرادُ الْغِطَاءُ عَلَى بَصَائِرِهِمْ، وهو غِطَاءٌ غَيْرُ حَسِّيٍّ.

التحليل الأدبي:

هذا النصُّ يقدِّم صورةً تمثيليةً رائعة لحالة رفع رؤوس المستكبرين وأنوفهم الذين رفضوا الاستجابة لدعوة الرسول محمد ﷺ من قومه، بعد أن دعاهم طويلاً إلى ما جاء في القرآن الحكيم في بياناته وحججه، وهذه الصورة هي في الحقيقة صورةً تمثيليةً لحالة نفوسهم من وراء رؤوسهم.

هذه الصورة التمثيلية تدلُّ على أنَّ رفضهم وعنادهم ظاهرةً ماديةً لأسباب نفسية بعيدة كُلِّ البعد عن منطق الحق. ورفضهم ناتجٌ عن اختيارهم الحر، لا أثر للجبر فيه.

وَكُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ ظَاهِرَةَ الرِّفْضِ قَدْ يُعْبَرُ عَنْهَا بِرَفْعِ الرَّأْسِ إِلَى الْأَعْلَى نَفِيًّا
وَاسْتِكْبَارًا.

فَمَا هُوَ سَبَبُ رَفْعِهِمْ رُؤُوسَهُمْ اسْتِكْبَارًا عَنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ؟
إِنَّ النَّصَّ يُشِيرُ بِاللَّمَحِ الْبَارِعِ الَّذِي يَتَصَيَّدُهُ الْمُتَفَكِّرُ الْأَدِيبُ إِلَى أَنَّهُمْ فِي
حَقِيقَةِ حَالِهِمْ أُسْرَى.

وَيَتَسَاءَلُ السَّائِلُ: كَيْفَ هُمْ أُسْرَى، وَهُمْ أَصْحَابُ الْقُوَّةِ وَالسُّلْطَانِ فِي مَكَّةَ،
وَالْمُسْلِمُونَ مُسْتَضْعَفُونَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ؟

وَيُجِيبُ التَّحْلِيلُ اللَّمَّاحُ بِأَنَّهُمْ أُسْرَى شَهَوَاتِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ وَكِبْرِهِمْ وَحُبِّهِمْ
الْاِسْتِعْلَاءَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَأُسْرَى رَغْبَاتِهِمْ الْجَامِحَاتِ فِي الْفُجُورِ، وَأُسْرَى
الشَّيَاطِينِ الَّتِي تَسَوْفُهُمْ أَوْ تَقُودُهُمْ إِلَى شَقَائِهِمْ.

وَلَمَّا كَانَ الْمَعْتَادُ فِي الْأُسْرَى أَنْ تُوضَعَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ.

وَأَنْ يَسَاقُوا مِنْهَا بِالسَّلَاسِلِ، وَلَمَّا كَانَ مِنَ الْأَغْلَالِ مَا هُوَ ضَيِّقٌ عَرِضٌ،
وَبِسَبَبِ ضَيِّقِهِ وَعَرْضِهِ يُضْطَرُّ الْمَغْلُولُ بِوَاحِدٍ مِنْهَا أَنْ يَرْفَعَ ذَقَنَهُ إِلَى الْأَعْلَى، فَمَنْظَرُهُ
كَمَنْظَرِ الرَّافِضِ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ الرَّافِعِ رَأْسَهُ إِلَى الْأَعْلَى نَفِيًّا وَاسْتِكْبَارًا.

وَلَمَّا كَانَتْ أَغْلَالُ هَؤُلَاءِ الْكُفْرَةِ أَغْلَالًا غَيْرَ مَرْتِيَّةٍ، وَهِيَ ضَاغِطَةٌ عَلَى رِقَابِهِمْ
مِنْ دَاخِلِ نَفُوسِهِمْ، كَانَ مَا يُرَى مِنْ ظَاهِرِهِمْ تَعْبِيرًا مَادِّيًّا عَنْ هَذِهِ الْأَغْلَالِ النَّفْسِيَّةِ
الَّتِي جَنَوْا بِتَقَلُّدِهَا، وَأَجْرَمُوا، وَظَلَمُوا بِالْأَنْجِرَارِ بِسَلْسِلِهَا إِلَى مَا هُمْ بِهِ مُغْتَرُونَ
مُنْخَدِعُونَ، وَبِسَبَبِهَا كَفَرُوا وَعَانَدُوا، وَأَصْرُوا عَلَى الْبَاطِلِ رَغْمَ تَبْلُغِهِمُ الْحَقَّ، وَرَغْمَ
عَرْضِ أدَلَّتِهِ الْبِرْهَانِيَّةِ عَلَيْهِمْ.

وَالْمَعْنَى: لَا تَحْسَبَنَّ مَا تَرَاهُ مِنْ رَفْعِ رُؤُوسِهِمْ إِلَى الْأَعْلَى، مُعْبَرًا عَنْ عُلوِّ
نَفُوسِهِمْ، بَلْ هُمْ أُسْرَى الْجَوَامِحِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَكِبْرِهِمْ وَحُبِّهِمُ الْاِسْتِعْلَاءَ
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَرَغْبَاتِهِمْ فِي الْفُجُورِ وَأُسْرَى الشَّيَاطِينِ، وَبِمَا أَنَّهُمْ أُسْرَى

فالأغلال الضيقة العريضة تشدُّ على أعناقهم، فيرفعون بسبب ذلك رؤوسهم وأنوفهم، فيظهرون للرَّائين مُسْتَكْبِرِينَ.

وهل يُوجدُ أذلُّ وأحقَرُ من الأسير، الذي يُجرُّ ويُساقُ بسلسلةٍ مَعْقُودَةٍ بِغُلٍّ يُطَوَّقُ عُنُقَهُ؟!

هكذا صوِّرَ الله عزَّ وجلَّ حالةَ هؤلاء المعاندين المستكبرين الذين رفضوا دعوة الرُّسول محمد ﷺ من قومه، ويُلْحَقُ بهم أشباههم في كُلِّ عصر، فقال الله عزَّ وجلَّ في النصِّ:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلًا فَبِهِىْ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾

وهذا الجعل هو تطبيقٌ لنظامٍ من أنظمةِ الله للنفوس، يستلزم أن من اتَّبَعَ جَوَامِجَ أهوائه وشهواته وكبره ونحو ذلك، كان متبعاً للشياطين، وكان أسيراً مُطَوَّقاً بِغُلٍّ ضَيِّقٍ فِي عُنُقِهِ، عَرِيضٍ وَاصِلٍ إِلَى ذَقْنِهِ، يدفع برأسه إلى الأعلى، فَهُوَ «مُقْمَحٌ».

ويقدمُ هذا النصُّ أيضاً صورةً تمثيليةً رائعةً أُخْرِي لحالة عَدَمِ رؤيتهم للحقِّ.

وهي تُعْرِضُ ما قام دُونُ بصائرهم من سُدُودٍ تَمْنَعُ عَنْهَا رُؤْيَا الحقِّ، بِسَبَبِ كَوْنِهِمْ سُجَنَاءَ شهواتهم وأهوائهم وكبرهم، وَحَبْثِهِم الاستعلاء في الأرض بغير الحقِّ، وَرَغْبَاتِهِمْ فِي الفجور، ومن ورائها الشياطين.

وجاء في الصورة تسميتها سُدُوداً، ولم يُسمَّها الله سُتُوراً أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، لِأَنَّهَا تَصَلَّبَتْ وَتَحَجَّرَتْ فَكَانَتْ حَرِيَّةً بِأَن تُسَمَّى سُدُوداً، فهي بالنسبة إليهم وإلى من هم مثلهم كالسُّدُود.

وقد جعل الله عزَّ وجلَّ في أنظمة النفوس، أن من جعل نفسه باختياره سَجِينٍ أهوائه وشهواته إلى آخِرِ هَذِهِ الجوامِجِ الْأَواسِرِ، أن تُقَامَ بَيْنَ بَصِيرَتِهِ وَبَيْنَ الْحَقِّ سُدُودٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَهَذِهِ السُّدُودُ تَحْجُبُ عَنْ بَصِيرَتِهِ رُؤْيَا الْحَقِّ.

وَهَلْ يُوجَدُ أذلُّ وأحقَرُ وَأَخْزَى مِنْ أَسِيرٍ سَجِينٍ لَا يَرَى أنوار الهداية؟!

هكذا صَوَّرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ حالة هؤلاء الْمُعَانِدِينَ المُستَكْبِرِينَ، الذين دخلوا باختيارهم في سِجْنِ الجوامح الأوسرِ المتعلقة بمتاع الحياة الدنيا وزينتها. إنهم بدخولهم هذا السجن المظلم الخادع باللذات قد جعلوا أنفسهم ضِمنَ سُدُودٍ تَحْجُبُ عنهم رؤية الحقِّ ضِمنَ أنظمة الله في كونه للنفوس، فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ.

وفي عرض هذه الصُّورَةِ يقول الله عَزَّوَجَلَّ في النَّصِّ:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾.

ولا بُدَّ أن يكونَ من نتيجة هذه الأغلال في أعناقهم من داخل نفوسهم، وهذه السدود القائمة دون بصائرهم، أن يكونوا في حالةٍ لَا تَنْفَعُهُمْ مَعَهَا الإنذارات مهما كانت ذوات تأثير، ولا بُدَّ أن يَسْتَوِيَ بالنسبة إليهم الإنذارُ وعدمه، فقال الله عَزَّوَجَلَّ في النَّصِّ:

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

بعد هذا أبانَ الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله أوصافَ مَنْ يَنْتَفِعُ بالإنذار الرباني إذا سَمِعَهُ، فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾.

أي: إِنَّمَا تُنْذِرُ إِنْذَاراً مُؤثِراً نافعاً، واصلًا إلى مواقعه المحرَّكة في النفس، مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ الذي هو آياتُ اللهِ في القرآن الحكيم، ولم يَتَّبِعْ الأهواء والشهوات وسائرَ جوامح النفس، ولم يَتَّبِعْ وساوسَ شياطين الإنس والجن، وقد خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ، أي: خاف عقابه خوفَ معظم مُجَلِّ لَهُ، وَرَجَا مغفرته وعفوه وثوابه، طمعاً برحمته، لِأَنَّهُ آمَنَ به بعقله ووجدانه، مع أَنَّهُ غَيْبٌ عن حواسِّه، وهذا هو أَوَّلُ مطلوب الدِّين.

الصُّورَةُ الْخَامِسِيَّةُ عَشْرَةُ

في سورة (الحجرات / ٤٩ / مصحف / ١٠٦ / نزول) يقول الله عز وجل مبيناً للذين آمنوا طائفة من المحرمات الاجتماعية التي هي عوامل خطيرة في تمزيق المجتمع الإسلامي ، وإلقاء العداوة والبغضاء بين أفرادهِ وطوائفه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْخَرُوا مِن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تُنْسَوْنَ مِن سَاءِ عَمَلِكُمْ إِن يَكُنْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ .

يُدهشنا في هذا النص ما اشتمل عليه من أدب التكامل البياني البديع .

وهو أسلوب تخصيص كُلِّ صِنْفٍ من الأشباه والنظائر في النص بتعبير يفيد معنى خاصاً ، وهذا التعبير يصلح أطرادهُ في سائر الأشباه والنظائر . ويتوزع التعبيرات ذوات الدلالات المختلفة على الأشباه والنظائر يحصل الاستغناء عن إعادة كُلِّ شبيهٍ ونظيرٍ عدَّةَ مرَّاتٍ بعدد هذه التعبيرات ، للإتيان به في كُلِّ مرَّةٍ مقترناً بواحدٍ منها حتى استغراقها .

وفي هذا الاستغناء إيجازٌ رائع واقتصادٌ في التعبير من جهة ، ومسرَّةٌ لباهة الأذكياء من جهةٍ أخرى ، وتخلُّصٌ من الركاكة التي يجلبها التكرير في طريقة التعبير من جهةٍ ثالثة .

وتكامل التعبيرات فيما بينها في أداء المقصود من دالاتها المختلفة ،

وَيُفْهَمُ ذَلِكَ مِنْ قَرِينَةِ جَمْعِ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ فِي نَصِّ وَاحِدٍ، وَقَدْ يُدُلُّ عَلَيْهِ بَدْءُ وَخْتَامِ.

وَيُلاحَظُ مَعَ هَذَا التَّوْزِيعِ التَّكَامُلِيُّ فِي الْعِبَارَاتِ ذَوَاتِ الدَّلَالَاتِ الْمُخْتَلِفَاتِ بَرَاةً اِتِّقَاءَ التَّعْبِيرِ الْأَكْثَرَ مَلَاءَمَةً لِلنَّوْعِ الَّذِي يَقْرُنُ بِهِ مِنَ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ، مَعَ صِلَاحِيَّةِ التَّعْبِيرَاتِ الْأُخْرَيَاتِ لَهُ.

فَفِي هَذَا النَّصِّ مِنْ سُورَةِ (الْحَجَرَاتِ / ٤٩ / مَصْحَفِ / ١٠٦ / نَزُولِ) يَنْهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِينَ آمَنُوا عَنْ سِتِّ قَبَائِحِ اجْتِمَاعِيَّةٍ، مِنْ شَأْنِهَا بَذَرُ بَزُورِ الْفِرْقَةِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، لَمَّا فِيهَا مِنْ إِذَاءٍ أَوْ إِضْرَارٍ مِنْ بَعْضٍ مِنْهُمْ لِبَعْضٍ آخَرَ.

وَهِيَ قَبَائِحُ تَشْتَمِلُ عَلَى ظَلَمٍ مِنَ الْإِنْسَانِ لِأَخِيهِ الْإِنْسَانِ، وَكُلُّ ظَلَمٍ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُورِثَ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ، وَيُوقِعَ الْفِرْقَةَ بَيْنَ الْجَمَاعَةِ الْوَاحِدَةِ.

وَالْقَبَائِحُ السِّتُّ الَّتِي نَهَى النَّصُّ عَنْهَا هِيَ:

«السَّخَرِيَّةُ – اللَّمَزُ – التَّنَابُزُ بِالْأَلْقَابِ – اتِّهَامُ الْمُؤْمِنِينَ بِالظُّنُونِ الضَّعِيفَةِ الَّتِي لَا تَقْوَى عَلَى الْاِتِّهَامِ – التَّجَسُّسُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ – الْغِيَّةُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ».

وَيُلاحَظُ فِي هَذَا النَّصِّ أَنَّ كُلَّ نَهْيٍ فِيهِ قَدْ ائْتَفَرَدَ بِلَوْنٍ تَعْبِيرِيٍّ ذِي دَلَالَةٍ خَاصَّةٍ قَابِلَةٍ لِأَنْ تَكُونَ شَامِلَةً لِسَائِرِ الْقَبَائِحِ الَّتِي جَاءَ فِي النَّصِّ النَّهْيُ عَنْهَا.

١ – فِي السَّخَرِيَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿لَا يَسَخَّرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ... وَلَا يَفْسَادُ مِّنْ نِّسَاءٍ...﴾.

٢ – فِي اللَّمَزِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

٣ – فِي النَّبْزِ بِالْأَلْقَابِ الْقَبِيحَةِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾.

٤ - وفي الظَّن المنهِي عَنْهُ، قال تعالى:

﴿ أَجْتَنِبُوا ﴾.

٥ - وفي التجسُّس على المؤمنين، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾.

٦ - وفي الغيبة، قال تعالى:

﴿ وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾.

ويُلاحَظُ أَنَّهُ يَصِحُّ فِي كُلِّ مِنْهَا اسْتِعْمَالُ التَّعْيِيرَاتِ الْآخَرَى لِتُوَدِّيَ فِيهِ دِلَالَتُهَا.

● فيقال مثلاً في السخرية، مع ما جاء من تعبير حولها في النص: «لَا تَسْخَرُوا مِنْ أَنْفُسِكُمْ - لَا تَسَاخَرُوا - اجْتَنِبُوا السَّخِرَةَ - لَا تَسْخَرُوا - لَا يَسْخَرُ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ».

● ويقال في اللَّمَز، مع ما جاء من تعبير حوله في النص: «لَا يَلْمِزُ قَوْمٌ قَوْمًا وَلَا نِسَاءٌ نِسَاءً - لَا تَلَامِزُوا - اجْتَنِبُوا اللَّمَزَ - لَا تَلْمِزُوا - لَا يَلْمِزُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا».

● ويقال في النَّبْز بالألقاب القبيحة، مع ما جاء من تعبير حوله في النص: «لَا يَنْبِزُ بِالْأَلْقَابِ قَوْمٌ قَوْمًا وَلَا نِسَاءٌ نِسَاءً - لَا تَنْبِزُوا بِالْأَلْقَابِ أَنْفُسَكُمْ - اجْتَنِبُوا النَّبْزَ بِالْأَلْقَابِ - لَا يَنْبِزُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا».

وهكذا يقال في سائرهما، فأغنى أسلوب التعبير الذي جاء في واحدة منها عن إعادته في سائرهما، فتكاملت التعبيرات في أداء المقصود من دلالاتها المختلفة.

ومع ذلك فقد اختير لكل قبيحة من هذه القبائح الست، صيغة التعبير التي تدلُّ على أبرز صورة من صُورِها، وهذا من الدِّقَّةِ الفكريَّةِ والبراعةِ والإبداعِ الفنِّيِّ.

(أ) فالسخرية تغلب فيها المشاركة الجماعية، إذ الساخر يضحك بسخريته آخرون، فيكونون مشاركين له في عمله، فجاء التعبير فيها بأسلوب:

﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾.

وجاء في هذا التعبير أفراد النساء عن الذكور، لأنَّ الغالب أن لا يسخر الرجال من النساء، ولا يسخر النساء من الرجال، ولإشارة ضمناً إلى أنَّ المجتمعات الإسلامية هي مجتمعات غير مختلطة في الغالب من الأحوال، فتقلُّ فيها السخرية بين الصنفين، والخطاب في النصِّ قد ابتدأ ببناء الذين آمنوا.

وأسلوب هذا التعبير يصلحُ تعميمه على سائر القبائح الست.

(ب) واللمز يغلب فيه الطابع الفردي الخفي، الذي يدركه أهل الفطنة والنباهة، فجاء التعبير بأسلوب:

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾:

وللدلالة أيضاً على أنَّ من لَمَزَ أخاه المؤمن فكأنما لَمَزَ نفسه، لأنَّ المؤمنين هم بمثابة الجسد الواحد.

وهذا المعنى مع أسلوب التعبير يصلحُ تعميمه على سائر القبائح الست، فنقول فيها: «لا تسخروا مِنْ أَنْفُسِكُمْ - لا تَنَبِّزُوا أَنْفُسَكُمْ بالألقاب - اجتنبوا كثيراً من الظنِّ في أنفسكم - لا تجسَّسوا على أنفسكم - لا تغتابوا أنفسكم».

(ج) والنَّبْزُ باللقب - وهو الشَّتْمُ بالألقاب القبيحة - عَمَلٌ تغلب فيه المشاركة بين فريقين، فَمَنْ نَبَزَ غيره رَدَّ عليه المنبوز غالباً بمثل قوله، أو بأقبح منه، انتقاماً لِنَفْسِهِ، فَالتَّنَابُزُ كالتقاتل، من أجل ذلك جاء التعبير بأسلوب:

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾.

وهذا المعنى مع أسلوب التعبير يصلحُ تعميمه على سائر القبائح الست، فنقول فيها: «لا تساخروا - لا تتلامزوا - لا تتراموا بكثير من الظنون - لا تتعاملوا فيما بينكم بالتجسس - لا تتراموا فيما بينكم بالغيبة».

(د) وأفضل وسيلة لترك الظنّ الذي يَأْتُم به صاحبه، هو اجتناب كثير من الظنّ، لأنّ من جرى مع ظنونه أَوْصَلَتْهُ إِلَى ما يَأْتُم به حتماً، لما لا تَبَاعُ الظنّ من مزالتى، وَتَسْلُطُ عَلَى النفوس، فجاء التعبير فيه بأسلوب الأمر بالاجتناب، أي: بالابتعاد عن كثير من الظنّ، فقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾:

وأسلوب الأمر بالاجتناب يصلح تعميمه على سائر القبائح الستّ، ففي الابتعاد عن حدودها سلامة وحفظ وورع محمود. فنقول فيها: «اجتنبوا السخرية - اجتنبوا اللّمْز - اجتنبوا التنايز والنبز بالألقاب - اجتنبوا التجسّس - اجتنبوا الغيبة».

(هـ) والتّجسّس يغلبُ فيه الطابع الفرديّ الذي يستخفي به فاعله، فجاء التعبير بأسلوب:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾.

وأسلوب هذا التعبير يصلح تعميمه على سائر القبائح الستّ، فنقول فيها: «لا تسخروا - لا تلمزوا - لا تَبْزُوا بالألقاب - لا تتبعوا كثيراً من الظنّ - لا تغتابوا».

(و) والغيبة ظاهرة من ظواهر القبائح الاجتماعية، التي يؤذي وَيُضُرُّ بها الناس بعضهم بعضاً، إذ فيها مغتابٌ وسامعٌ مشارك له أو أكثر، فجاء التعبير في النهي عنها بأسلوب:

﴿وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

وهذا الأسلوب من التعبير يصلح تعميمه على سائر القبائح الستّ، فنقول فيها: «لا يَسْخَرْ بعضُكم من بعض - لا يَلْمِزُ بَعْضُكُمْ بعضاً - لا يَنْبِزُ بعضُكم بعضاً - لا يَتَّبِعُ بعضُكم كثيراً من الظن يبعث - لا يَتَجَسَّسُ بعضُكم على بعض».

بعد هذا الشرح أقول: إنّ المتدبّر الفطن يكشف أنّ جمع هذه التعبيرات ذواتِ الأداء المختلف، في نصٍّ واحدٍ قَدْ جَمَعَ عدّة رذائل اجتماعية، هي أشباه

ونظائر فيما بينها، بُغْيَةُ النهي عنها، والتَّحْذِيرُ منها، يُشْعِرُ بَأْنَ كُلِّ تعبير منها يصلحُ
تعميمه في سائر القبائح.

وهذا من روائع الإعجاز البياني الذي اشتمل عليه القرآن المجيد.

ولهذا الفن الأدبي المبتكر البديع نَظَائِرُ في كتاب الله، مثل الآيات من
(٥٩ - ٦٤) من سورة (النمل) إذ جاء فيها ختم فقراتها بخواتيم مختلفات، وهي
تصلح لتعميمها على سائر الفقرات.

وكذلك في الآيات من (١٠ - ١٥)، من سورة (النحل).

والحمد لله على فتحه وتوقيفه.



الصُّورَةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةُ

في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول) يقول عز وجل لرسوله محمد ﷺ بشأن السؤال الموجه له من مشركي مكة عن الزمن الذي تحدث فيه الساعة التي يتم بها إنهاء الحياة الدنيا وشروطها وظروفها:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

﴿أَيَّانَ﴾: اسمُ استفهامٍ يُسأل به عن الزمان المستقبل، ويستعمل عادةً فيما يُرادُ تَعْظِيمُ أمرِهِ وتضخيم شأنه، أو فيما يُراد التعبير عن استغرابه واستيعابه. فاستعمال (أَيَّانَ) في السؤال عن الساعة استعمال في غاية الدقة.

﴿مُرْسَاهَا﴾: مصدر ميمي من فعل «أَرَسَى» اللازم بمعنى «رسا» تقول: «رَسَا» الشيء يرسو رسوًا، و«أَرَسَى» الشيء يُرسي إرساءً، إذا ثبت واستقر.

ويأتي فعل «أَرَسَى» متعديًا، فتقول: «أَرَسَاهُ» إذا ثَبَتَهُ، وشاع استعمال الرُسُو والإرساء في وصول السفن إلى الميناء وإلقاء مراسيها لثبوتها وتثبيتها.

فدلَّ استعمال ﴿مُرْسَاهَا﴾ على معنيين هما: أَيَّانَ رُسُوها، وأَيَّانَ إرساء الله لها.

وفي استعمال الرُسُو والإرساء للدلالة على وقت انتهاء مسيرة هذه الحياة الدنيا، استعارة قائمة على تشبيهها بالسفينة، وتشبيه الزمن بالبحر، وتشبيه انتهاء نظام هذه الحياة الدنيا بالرُسُو في مرفأ هذا البحر الزمني.

والغرضُ الفكريُّ من هذه الاستعارة الدلالة على معنى فلسفي، هو أن هذا النظام الكونيَّ بتراتبه وتصاريفه المتتابعة لحظةً فلحظة، وبالتغيرات المستمرَّات اللَّوَّاتي تجري فيه، يشبه سفينةً جاريةً في البحر، لها في كلِّ لحظةٍ موقعٌ وحركةٌ جديَّدان دائماً، وأنَّ هذا التَّجددُ لا يَنْتَهي إلاَّ إذا قَامَتِ السَّاعةُ، وانتهى بها كلُّ هذا النظام، كما تتوقَّفُ السَّفينَةُ في الميناء، وتُلْقِي مراسيها، وتَثْبُتُ وتَسْتَقِرُّ عنده.

فلم يكن استخدام هذه الاستعارة لمجرد الإمتاع الفني بصورة بلاغية جمالية، بل اقترن به غرضٌ فكريٌّ اشتمل على بيانات ذوات قيمة، مع الإيجاز الشَّديد، والاقتصاد في العبارة، وهكذا شأن التشبيهات والاستعارات، إذ تكفي فيها الكلمة الواحدة عن جُمْلٍ كثيرة، فتُغني في الدلالة على معانيها، مع ما فيها من جمالٍ يَسُرُّ المتفكرين.

فتعبير القرآن: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ: أَيَّانَ مُرْسَاهَا؟﴾ - بهذا الإيجاز الذي هو غاية في الاقتصاد في العبارة - يَحْمِلُ أبعاداً فكريةً مديدةً واسعةً، مع أنَّه مؤلَّف من كلمتين فقط: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا؟﴾، لكنَّهما مُنتَقَاتَانِ بدقَّة فائقة.

وبعد ذلك جاء التعليم الربَّاني للرسول ﷺ كَيْفَ يُجِيبُ على هذا السؤال، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةً﴾.

في هذا التعليم إجابةٌ شاملة على كلِّ التساؤلات المُحتمَلة عَنِ السَّاعَةِ بِجُمْلٍ أَرْبَع، ليس بينها حرف عطف، لأنَّ بينها كمال الاتصال.

● فالجملة الأولى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾:

أي: ما علم وقت وقوعها إلاَّ عند ربِّي، بحذف كلمتي: «الْوَقْتُ والْوُقُوعُ» للعلم بهما، إذ المسؤول عنه هو وقت وقوعها، أمَّا ما سوى ذلك من أمرها فقد جاء به الخبر، فالتصريح بوقت الوقوع إطنابٌ لا لزوم له.

ودلّ هذا الحصر على أَنَّ وَقْتَ الساعة أَمْرٌ من علم المستقبل لم يُعْلَمِ اللَّهُ بهِ
أحداً، فهو ممّا أخفاه الله على جميع خلقه، لحكمةٍ من حِكْمِهِ العظيمة، فلا يَعْلَمُهُ
نبيُّ مُرسل ولا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ.

إذن: فسؤال السائلين عنهُ سؤال لا يملك الرسول الجواب عليه، باعتبار أَنَّهُ
أَمْرٌ يَجْهَلُهُ ولا يَعْلَمُهُ، لا باعتبار أَنَّهُ يَكْتُمُهُ وهو يعلمه.

وهنا يتحرّك في نفوس السائلين سؤال آخر، وهو:

ألا تستطيع يا محمّد وأنت الرسول كما تقول، سؤال رَبِّكَ عن وقت وقوعِ
الساعة، والإلحاح عليه في المسألة حتّى يُعْلِمَكَ به، فتجيبنا على سؤالنا كما يُبَيِّنُ
لك.

وجواباً على هذا السؤال المطويّ الذي يستدعيه الذّهن عقب الجواب الأول،
جاءت:

الجملة الثانية: ﴿لَا يُجَلِّيْهَا لَوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾:

أي: لا يُجَلِّي العلم بوقت وقوعها إِلَّا الله وَحْدَهُ، ولا يكون ذلك إِلَّا عند وقت
وقوعها، بدليل قوله: ﴿لَوَقْتِهَا﴾، أي: في وقتها أو عند وقتها.

وهذا يدلّ على أَنَّ الله عزّ وجلّ قد قضى بأن لا يُعْلَم بوقت وقوعها قبل وقت
وقوعها أحداً من خلقه، وهذا قَضَاءٌ مُبَرَّمٌ.

أي: فهو عزّ وجلّ لا يُعْلِمُنِي بِهِ وَلَوْ سَأَلْتُهُ وَالْحَفْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَسْأَلَةِ.

إذن: فلا مطمع في الوصول إلى العلم بِوَقْتِ وقوعها، ولو سألت رَبِّي عن
ذلك، فَكُفُّوا عن السؤال.

وهنا يتحرّك في نفوس السائلين سؤال ثالث، وهو:

إِذَا أَخْفَى اللَّهُ الْعِلْمَ بِوَقْتِ قِيَامِ الساعة عن أهل الأرض، فَهَلْ أَخْفَاهُ أَيْضاً
عن ملائكته المقربين في السماء؟

ومع أن الجملة الأولى : ﴿إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ ، قد تَضَمَّنَتْ بعمومها الجواب على هذا السؤال ، لَكِنْ قَدْ يَقَعُ فِي ذِهْنِ السَّائِلِينَ أَنَّ الْحَصَرَ خَاصٌّ بِالْبَشَرِ ، أَوِ الْمَكْلُوفِينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، لِأَنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ لِإِنْهَاءِ نِظَامِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي رُبَّتْ فِي خِطَّةِ الْوُجُودِ لِابْتِلَائِهِمْ ، وَمِنْ مَنْطَلَقِ هَذَا الْإِحْتِمَالِ يَأْتِي السُّؤَالُ .

وقد جاء الجواب على هذا السؤال المطوي في :

الجملة الثالثة : ﴿نُقُلْتُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ :

ويلاحظ الأديب الذَّوَّاقُ لِلأَدَبِ الرَّفِيعِ أَنَّهُ اسْتَعْيَرَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ «الثَّقَل» لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَعَذُّرِ وَصُولِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمَدْرِكَةِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ إِلَى الْعِلْمِ بِوَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ .

وذلك لأنَّ الثَّقِيلَ هُوَ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الْمَخْلُوقُ رَفْعَهُ وَحْمَلَهُ .

وهنا تنطلق أذهاننا إلى إدراك الأمور المعنوية الثقيلة ، فَالْمُشْكِلَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الْمُعَقَّدَةُ ثَقِيلَةٌ ، لَا يَسْتَطِيعُ الْمَعَالِجُ حَلُّهَا ، وَالْمُعْضِلَةُ الْحَسَابِيَّةُ ثَقِيلَةٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْحِسُوبُ حَلُّهَا ، وَإِدْرَاكُ التَّنَاهِي فِي الْكَوْنِ دُونَ شَيْءٍ وَرَاءَهُ ، وَكَذَلِكَ نَقِيضُهُ وَهُوَ عَدَمُ التَّنَاهِي فِي الْكَوْنِ ، مِنَ الْأُمُورِ الْمُعْضِلَةِ الثَّقِيلَةِ ، الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ الْعَقْلُ أَنْ يُنْهِيَ تَسَاؤُلَهُ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، مَعَ أَنَّهُمَا نَقِيضَانِ لَا بَدْءَ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهُمَا .

أَمَّا مَا يَسْتَطِيعُهُ الْمَخْلُوقُ فَهُوَ إِمَّا خَفِيفٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ ، وَإِمَّا مُسَاوٍ لِقُوَّتِهِ .

وقد يكون الشيء الواحد ثَقِيلًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى بَعْضِ الْمَخْلُوقِينَ ، وَخَفِيفًا أَوْ مُسَاوِيًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَاتِ آخَرِينَ .

أَمَّا أَنْ يَتَعَذَّرَ وَصُولُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِلَى فِعْلِ أَمْرٍ مَا ، أَوْ إِلَى عِلْمِ أَمْرٍ مَا ، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ أَثْقَلُ مِنْ كُلِّ قُدْرَاتِهِمْ إِذْ تَظَلُّ قُدْرَاتُهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ طَائِشَةً ، وَيَظَلُّ هُوَ فِي مَوْضِعِهِ ثَقِيلًا ، فَلَا تَسْتَطِيعُ قُدْرَاتُهُمْ رَفْعَهُ ، إِلَى حَيْثُ يُسَخَّرُونَهُ ، أَوْ يَعْلَمُونَهُ .

وحين يكون المقصود مِنْ رَفْعِهِ كَشْفُهُ وَالْعِلْمُ بِهِ ، لِأَنَّهُ فِي الْمَكَانِ الَّذِي هُوَ فِيهِ

مَحْجُوبٌ مُسْتَوْر، فَإِنْ وَصَفَهُ بِأَنَّهُ ثَقِيلٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْوَصُولَ إِلَى الْعِلْمِ بِهِ.

فجاء التعبير بأن العلم بوقت قيام الساعة ثَقِيلٌ عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَي: هُمْ عَاجِزُونَ عَنِ الْوَصُولِ إِلَى الْعِلْمِ بِهِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ مِنْ لَوَازِمِ الشَّيْءِ الثَّقِيلِ أَنْ لَا يُسْتَطَاعَ رَفْعُهُ حَتَّى يَسَاوِيَ الْقُوَّةَ الرَّافِعَةَ أَوْ يَكُونَ أَخَفَّ مِنْهَا.

وَلَمَّا كَانَ الْعِلْمُ بِوَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ فِي مَكَانٍ عَمِيقٍ مَخْفِيٍّ عَنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَإِنَّ الْغَرَضَ مِنْ رَفْعِهِ مِنْ مَكَانِهِ هُوَ الْعِلْمُ بِهِ، لَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ رَفْعَهُ، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْعِلْمَ بِهِ.

إِنَّ هَذَا التَّعْبِيرَ لَمِنْ أَدَقِّ التَّعْبِيرَاتِ وَأَبْرَعِهَا، وَأَجْمَعِهَا لِلْأَفْكَارِ الَّتِي يُرَادُّ التَّعْبِيرُ عَنْهَا، مَعَ أَدَائِهِ لِلْغَرَضِ الْجَمَالِيِّ الْبَلَاغِيِّ الْفَنِيِّ، فَادَّتْ كَلِمَةً «ثَقُلْتُ» الْغَرَضِينَ:

● الْغَرَضُ الْفِكْرِيُّ.

● وَالْغَرَضُ الْبَلَاغِيُّ الْجَمَالِيُّ الْفَنِيُّ.

وَهَذَا يَقِفُ الْقَوْمُ السَّائِلُونَ عَنْ طَرَحٍ تَسْأُولَاتِهِمْ الَّتِي تَتَوَلَّدُ عَنِ الْإِجَابَاتِ الَّتِي يَكْفِي كُلُّ جَوَابٍ مِنْهَا السُّؤَالَ الْمَطْرُوحَ قَبْلَهُ.

فَحَسُنَ فِي الْخَتَامِ حَسْمُ كُلِّ احْتِمَالٍ لِسُؤَالٍ مُتَكَلِّفٍ قَدْ يَطْرَحُونَهُ، فَجَاءَتْ:

الجملة الرابعة: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾:

أَي: لَا تَأْتِيكُمْ السَّاعَةُ إِلَّا فَجْأَةً دُونَ عِلْمٍ مِنْكُمْ أَوْ مِنْ أَحَدِكُمْ بِوَقْتِ قِيَامِهَا، وَلَوْ قَبْلَ لِحَظَاتٍ مِنْ ذَلِكَ.

بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ الرَّابِعَةِ تَمَّ حَسْمُ الْأَمْرِ حَوْلَ السُّؤَالِ عَنْ وَقْتِ وَقُوعِ السَّاعَةِ.

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ نَلَاظُ أَنَّهُ لَمَّا تَكَرَّرَ مِنْهُمْ أَنْفُسُهُمُ السُّؤَالَ بَعْدَ مَدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ عَنْ وَقُوعِهَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النَّازِعَاتِ / ٧٩ مِصْحَفٍ / ٨١ نَزُولٍ) قَوْلَهُ:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾﴾ .

فأعرض القرآن في هذا النص عن تفصيل جواب أسئلتهم ، اكتفاءً بما نزل قبله في سورة (الأعراف) السابقة في النزول لسورة (النازعات) .

واكتفى النص هنا بالتوجيه لواجب العمل لها ، فخاطب الله السائل بقوله :

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا ﴿٤٤﴾﴾ .

وخاطب رسوله بقوله :

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾﴾ .

ونتابع تدبر بقية النص من سورة (الأعراف) .

فقول الله عز وجل خطاباً لرسوله فيه :

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عُلِّمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ .

لفظ : ﴿حَفِيٌّ﴾ ، يأتي في اللغة بعدة معانٍ .

● الحفي بالشيء : المعني المهمته به . العالم به علم استقصاء .

● الحفي : المُلْحِف في المسألة عن الشيء الذي يسأل عنه بتكرار ،

والمستقصي في السؤال عنه .

وجاء في أقوال المفسرين في تفسير قول الله عز وجل : ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾

ما يلي :

● كأنك استَحَفَّيت السؤال عنها حتى علمتها .

● كأنك عالِمٌ بها .

● كأنك معنيٌّ ومُهْتَمٌّ بالسؤال عنها .

ويمكن أن نفهم من جملة المعاني اللغوية وأقوال المفسرين معنىً جامعاً

فنقول :

يسألك قومك يا محمد عن وقت وقوع الساعة، كأنك مهتم بأن تعلم وقت قيام الساعة فتسأل ربك عنه، وكأنك عالم بهذا الوقت، وكأنك مهتم بسؤالهم راغب في إجابتهم عليه.

وهذا من بديع استعمال اللفظ الواحد في المعاني المتعددة التي يدل عليها، وهو من باب الإيجاز، والاقتصاد في العبارة، مع الدلالة على معاني كثيرة.

وجاء تأكيد الجواب في قول الله عز وجل: ﴿قُلْ: إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، بتبديل عبارة ﴿عند ربي﴾ بعبارة ﴿عند الله﴾ لبيان أن ربه الذي خلقه ورباه وربيه دوماً هو الله خالق كل شيء ورب كل شيء.

ولما كان السؤال عن وقت قيام الساعة مُمَاحَكَةً باردةً حول موضوع لا يُهم السائلين بشيء من أمور دنياهم ولا من أمور آخرتهم، كان السؤال عنه - لاتخاذ عَدَمِ الإجابة عليه ذريعةً لجحود يوم الدين - من الجنوح عما ينبغي من العلم، ومن نقص العقل وفساد التصور، ولذلك قال الله عز وجل في خاتمة النص:

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

أي: لا يعلمون ما ينفعهم وما يضرهم فيجنحون عن سواء السبيل، ويشغلون أنفسهم بما لا ينبغي لهم من العلم، ويتخذون عَدَمَ إعلامهم بوقت قيام الساعة ذريعةً لجحودها، مع أن العلم بالوقت لا يزيد في إثباتها أي ترجيح فكري، إذ دليل اليوم الآخر، يعتمد على براهين العدل الرباني من جهة العقل، وقواطع الأخبار الدينية من جهة النقل.

ولما كان جنوح السائلين من كفار قريش مُمَاثلاً لجنوح سائر الكافرين المكذبين بيوم الدين، وكان الكافرون هم أكثر الناس، اقتضى البيان القرآني أن يدخل كفار قريش ضمن أمثالهم من كفار كل عصر في قضية عامة، فقال تعالى:

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وبهذا وُضِعَ الختم على قُلِّ الموضوع.

• • •

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ عَشْرَةَ

من الملاحظ في فنون الأدب القرآني ظاهرة استقطاع النصوص من أزمانها الماضية أو المستقبلية، وعرضها بألفاظها دون الإشارة إلى أنه كان كذا فيما مضى، أو سيكون كذا فيما سيأتي.

ومنه استقطاع الأقوال التي حدثت، أو التي ستحدث كأنها حادثة الآن، وهذا فن قرآني بديع، لم يكن معروفاً في حكاية النصوص والأحداث في تعبيرات الناس.

إنه نظير اللقطات الفنية التي اكتشفها أخيراً أصحاب الفن السينمائي والتلفزيوني، إذ يقتطعون من الأحداث التي يقدمها المشهد التمثيلي المصور، لقطات متتابعات تدل على ما قبلها وعلى ما بعدها، ويعرضونها على شكل فقرات متتابعات في المشهد المعروض، مع أنها متباعدات جداً في الواقع، لكنّ الذهن اللّماح يستطيع أن يستنبط ويستبين المطويات التي لم تُعرض، ويملاً فراغات المشهد بتصوره.

هذا الفن البديع ممّا يرضي ويُعجبُ مشاعر الأذكياء، ويشدّهم إلى المتابعة والتفكير والاستنباط، فالإنسان مجبولٌ بفطرته على الرغبة في الاستنباط، واستخراج الأشياء وفهمها بنفسه، وينفر من تعليمه ما يستطيع اكتشافه بنفسه، وينفر من إخباره بما يستطيع إدراكه وتصوره بنفسه، من سلسلة الأحداث والوقائع، لا سيما دقائقها العادية التي تتكرّر في الأشياء والنظائر.

ويلاحظ في فنون الأدب القرآني أنّ الصور التمثيلية المستقطعة من الماضي أو من المستقبل، يؤتى بظروفها الزمانية والمكانية، وصور أحداثها، فتقدّم كأنها

أحداث قائمة فعلاً، للإشعار بأنها حقائق قد حدثت فعلاً في الماضي، أو لا بُدَّ أن تحدث فعلاً في المستقبل.

يُضاف إلى هذا ظاهرة التَّنْقُل بين الأزمان والأمكنة بأسلوب المفاجأة، دون مُقدِّمة تُشعرُ بالانتقال.

فَنَلَحِظْ مثلاً التَّنْقُل والتراوُحَ بَيْنَ عَالَمِ الْإِبْتِلَاءِ وَعَالَمِ الْجِزَاءِ، عَلَى سَبِيلِ التَّعَاقُبِ فِي النِّصِّ الْقِرَائِيِّ، وَنَظِيرُهُ التَّنْقُلُ وَالتَّوَارُوحُ بَيْنَ الْمَشَاهِدِ، مِنْ مَوْقِفِ الْحِسَابِ مِثْلًا، إِلَى مُسْتَقَرِّ الْجِزَاءِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَشَاهِدٍ وَمَوَاقِفٍ أُخْرَوِيَّةٍ، فَإِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَا فِيهَا مِنْ أَحْدَاثٍ، أَوْ إِلَى مَا تَسْتَدْعِي مِنْ خُطَابٍ، حَتَّى كَأَنَّ الزَّمَانَ كُلَّهُ مَاضِيَّةٌ وَحَاضِرَةٌ وَمُسْتَقْبَلَةٌ، مَعَ الْأَمْكِنَةِ كُلِّهَا مِنْ عَالَمِ الْإِبْتِلَاءِ وَمِنْ عَالَمِ الْجِزَاءِ عَلَى لَوْحَةٍ وَاحِدَةٍ، تَتَنَقَّلُ عَلَيْهَا عَدَسَاتُ الْبَيَانِ حَسَبَ مَقْتَضِيَّاتِ الْإِثَارَةِ، وَلَفَتِ النَّظَرَ وَشَدَّ الْإِنْتِبَاهَ.

إِنَّ هَذَا التَّنْقُلَ وَالتَّوَارُوحَ الْمَفَاجِيءَ، دُونَ مُقَدِّمَةٍ تُشْعِرُ بِالْإِنْتِقَالِ، هُوَ مِنَ الْإِبْدَاعِ الْفَنِيِّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا فِي فُنُونِ الْأَدَبِ قَبْلَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

فَفِي طَائِفَةٍ مِنَ النُّصُوصِ الْقِرَائِيَّةِ نَلَحِظُ أَنَّهُ بَيْنَمَا يَكُونُ النَّصُّ يَخَاطَبُ النَّاسَ وَهُمْ فِي عَالَمِ الْإِبْتِلَاءِ الدُّنْيَوِيِّ، إِذَا بِهِ يَتَنَقَّلُ مُفَاجَأَةً إِلَى مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِهِمْ، وَهُمْ فِي عَالَمِ الْجِزَاءِ الْآخِرِيِّ، فَإِذَا بِهِ يَفَاجِئُهُ بِالْحَدِيثِ عَنْهُمْ، وَهُمْ فِي عَالَمِ الْإِبْتِلَاءِ الدُّنْيَوِيِّ. مَعَ التَّنَوُّعِ فِي الْأَسَالِيبِ، وَالتَّغْيِيرِ فِي مَنَهِجِ الْخُطَابِ، الْأَمْرُ الَّذِي يَشُدُّ الْفِكْرَ مِنْ أَعْمَاقِهِ، لَدَى مَنْ هُوَ حَرِيصٌ عَلَى تَلْقَى الْمَعْرِفَةِ، وَتَذَوُّقِ جَمَالِ الْبَيَانِ، وَرَوْعَةِ الْكَلَامِ الْبَلِيعِ، فَهُوَ بِسَبَبِ ذَلِكَ يُتَابِعُ التَّدَبُّرَ بِنَشَاطٍ فِكْرِيٍّ مُتَجَدِّدٍ.

عَلَى خِلَافِ النَّمْطِيَّةِ الْوَاحِدَةِ فِي أَسْلُوبِ تَقْدِيمِ الْأَفْكَارِ، وَعَرْضِ الْمَعَارِفِ، وَسَرْدِهَا عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَإِنَّ هَذِهِ النَّمْطِيَّةَ الْوَاحِدَةَ تَجْلِبُّ الْفَتُورَ، وَشُرُودَ الذَّهْنِ، وَرَبَّمَا نَامَ مَعَهُ الْمُتَلَقِّي وَلَوْ كَانَ رَاغِبًا فِي التَّلَقِّي وَحَرِيصًا عَلَيْهِ، وَتَكُونُ حَالُهُ كَحَالِ مَنْ يَنَامُ عَلَى نَعِيرِ النَّاعُورَةِ، وَجَعَجَعَةِ الرَّحَا.

* * *

الأمثلة

المثال الأول:

يقول الله عز وجل في سورة (ص / ٣٨ مصحف / ٣٨ نزول):

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۖ﴾ (٤١)

﴿بِنُصْبٍ﴾: وهي قراءة جمهور القراء، وقرأ أبو جعفر المدني «بِنُصْبٍ»، وقرأ يعقوب البصري «بِنَصْبٍ» وهي لغات عربية للكلمة والمعنى فيها جميعاً: بِنَعَبٍ وَإِعْيَاءٍ وَمَشَقَّةٍ.

ففي هذه الآية حكاية حَدَثٍ مَضَى، وفق الأسلوب المعتاد في حكاية الأخبار، وعقبه مباشرة قال الله عز وجل:

﴿أَرْكَضُ بِرَجُلِكَ هَذَا مَغْتَسلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۖ﴾ (٤٢)

الرَّكَضُ: ضَرْبُ الشَّيْءِ بِالرَّجْلِ ونحوها من أعضاء الجسد.

أَلَسْنَا نلاحظ أَنَّ هَذَا مَقْطَعٌ كَلَامِيٍّ مُسْتَقْطَعٌ مِنَ الْمَاضِي، محكي بصيغته التي قيلت لأَيُّوبَ - عليه السلام - إِبَّانَ الْحَدَثِ الْمَاضِي.

والذَّهْنُ يكشف أَنَّ الله عز وجل قال لأَيُّوبَ هَذَا الْقَوْلَ، فَوَرَّ نِدَائِهِ رَبَّهُ: أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ.

وطوى النَّصَّ بعد ذلك ما فعل أَيُّوبَ، من تنفيذ الأَمْرِ، وما أكرمه به رَبُّه من شفاء، وعطفَ الله عز وجل على هذا المطوي قوله:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۖ﴾ (٤٣)

وعقبه مُبَاشَرَةً جَاءَ نَصُّ كَلَامِيٍّ مُسْتَقْطَعٌ أَيْضاً مِنْ أَحْدَاثِ الْمَاضِي، محكي بصيغته الَّتِي قِيلَتْ لأَيُّوبَ عليه السلام، إِبَّانَ الْحَدَثِ الْمَاضِي، فقال تعالى:

﴿وَاخْذِرْ يَدَكَ ذِغْنًا فَأُضْرِبَ بِهِ وَلَا تُحْنَثْ ۖ﴾ (٤٤)

هذا القول يُشير إلى قصّة يمين حلفها أيّوب على زوجته أن يضربها مئة ضربٍ بالقضيب لأمرٍ ما، فأفتاه الله بأنّ باستطاعته أن يبرّر يمينه دون أن يؤذي زوجته، وذلك بأن يأخذ حُرْمَةً فيها مئة قضيب من القضبان الرفيعة جداً ويضربها ضربة واحدة تقوم في وقتٍ واحدٍ مقامَ ضربها مئة مرة.

* * *

المثال الثاني :

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (صّ / ٣٨ مصحف / ٣٨ نزول) أيضاً في حكاية ما سيحدث للطاغين يوم الدين :

﴿ هَذَا وَابْرَأْ لِلطَّاغِينَ شَرْمَاتٍ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَنَسُوا لِهَا ۖ ﴾ (٥٦)

في هذا النصّ حكاية أمرٍ سيحدث في المستقبل يَوْمَ الجزاء الأكبر، وبعده مباشرة جاء نصّ كلامي مُستقطع من الحدث الذي سيحدث مستقبلاً، وهو محكي بصيغته نفسها التي ستقال، فقال تعالى :

﴿ هَذَا فَلْيَذُقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۖ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ۖ ﴾ (٥٧)

﴿ حميم ﴾ : ماء حارّ شديد الحرارة.

﴿ غَسَّاقٌ ﴾ : سائل أصفر يشبه الماء الأصفر الذي تفرّزه الجلود إذا تقرّحت أو احترقت.

وبعدّه جاء قوله تعالى خطاباً للطّاغين وهُم في جهنّم :

﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ ﴾ (٥٩)

وهو أيضاً قولٌ مستقطع من الحدث الذي سيكون : أي : سَيَقَالُ لأهل جهنّم الطّاغين، وقد كانوا قادةً لجماهير تبعّتهم في طغيانهم، حين يُلْحَقُ بِهِمْ أَتْبَاعُهُمْ : ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ ﴾ .

وَعَقِبَهُ مُبَاشَرَةٌ جَاءَ فِي النَّصِّ:

﴿لَا مَرَحِبًا بِهِمْ إِنْهُمْ صَالُوا النَّارَ...﴾ ﴿٥٩﴾

هو أيضاً قولٌ مستقطعٌ من الحدث الذي سيكون، إذ يجيبُ الطَّاغُونَ الأئمةُ بهذا القول، وقد قدّم في النصّ على طريقة عَرْض المشاهد التمثيلية، دون الإشارة إلى أن الأئمة الطاغين يردّون فيقولون: ﴿لَا مَرَحِبًا بِهِمْ إِنْهُمْ صَالُوا النَّارَ﴾.

وَعَقِبَهُ مُبَاشَرَةٌ جَاءَ فِي النَّصِّ:

﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرَحِبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيُسْ الْقَرَارُ﴾ ﴿٦٠﴾

وهنا نلاحظ تنوعاً في الأسلوب، إذ صُدِّرَ هذا المقطع الكلامي بفعل «قَالُوا» كأنّ الحدث أمرٌ جرى ووقع، واقتضتْ فنية الأداء البياني ذكر فعل «قَالُوا».

وَعَقِبَهُ جَاءَ فِي النَّصِّ حكايةُ مقالٍ آخرٍ لِلْفُوجِ المقتحم من الأتباع، فقال تعالى:

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ ﴿٦١﴾

دون حرف عطف، للدلالة على أنّ هذا القول والذي قبله قد كانا بتعاقب دون عطف، أو كانا في وقتٍ واحدٍ، على معنى أنّ بعضهم قال القول الأول، وبعضهم قال القول الآخر.

* * *

المثال الثالث:

جاء في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول) وَصَفُ أَحْدَاثٍ وَتَقْدِيمُ صُورٍ مِنْ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ وَصُورِهِ، وعلى اللوحة البيانية التَّنْقُلُ والتَّرَاوُجُ العَجِيبُ الذي سَبَقَ بيانه.

فبينما يُقدِّمُ النصُّ لقطاتٍ من واقع حال الذين كانوا في الدنيا قد آمنوا وعملوا الصالحات، وهم سُعْدَاءُ بالنعيم المقيم في الجنة، بقول الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَنَزَعْنَا فِي صُورِهِمْ مِنْ غَلِيٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَنَا بِالْحَقِّ... ﴿٤٣﴾﴾

إذا بالنص انتقل إلى عرض مشهدٍ من مشاهد موقف الحشر بعد الحساب وفصل القضاء، وهو يتعلق بأهل الجنة أنفسهم، دون أن تستكمل الآية فاصلتها، فقال الله عز وجل:

﴿... وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

دلنا على هذا الإشارة إلى الجنة الخاصة بالبعيد، ولو كانوا فيها لكان الظاهر أن يُقال لهم: هذه الجنة. ودلنا عليه أيضاً، ما جاء بعد هذه العبارة من عرض لقطات موصولة بهذا النداء، وهي مُقتطعة من عموم المشهد نفسه في موقف الحشر بعد الحساب وفصل القضاء بين أصحاب الجنة الأصليين، وأصحاب النار الخالدين فيها، فقال تعالى:

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

وبعد هذه اللقطة من مشاهد هذا الموقف، إذا بالنص يتحدث عن هؤلاء الظالمين حديث مبين لبعض صفاتهم وهم الآن في الحياة الدنيا، فقال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفِرُونَ﴾

وقد دل على أن هذا الحديث، هو حديث عنهم وهم ما زالوا في عالم الابتلاء في الحياة الدنيا، استعمال الفعل المضارع في عبارة: ﴿يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وفي عبارة: ﴿يَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، ونحن نعلم أن الفعل المضارع يدل على الحركة المتكررة المتجددة، بدءاً من الحاضر، فتكراراً في المستقبل، ومما يُضعف إبداع النص أن نُقدر: الذين كانوا يصدون عن سبيل الله، وكانوا يَبْغُونَهَا عِوَجًا.

ويضاف إلى هاتين الدالّتين دلالة عبارة: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾، فهي واضحة في أنها تُعبّر عن حالهم في الحياة الدنيا، نظراً إلى أنهم يوم الدين صاروا مؤمنين به إيمان شهودٍ حسيّ.

بعد هذه النقلة إلى الحياة الدنيا، إذا بالنّصّ رَجَعَ إلى عَرْضِ بَقِيَّةِ اللَّقَطَاتِ المنتقيات، الّتي تحدّث بعد أذان المؤدّن بين أهل الموقف في المحشر، فقال تعالى:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ...﴾ ﴿٤٦﴾

أي: ويوجد في هذا الموقف في المحشر بعد فصل القضاء العدليّ، حجاب، نحو سور، أو جبلٍ ممتدّ من أقصى الموقف إلى أقصاه، يفصل بين زُمر أهل الجنّة، الّذين قضى الله لهم بأنهم من أهلها ابتداءً، وبين زُمر أصحاب النار الخالدين فيها.

ويقف على الأعراف من هذا الحجاب، رجالٌ يعرفون كلّاً من أهل هذا الجانب منه، وأهل هذا الجانب منه، بعلاماتهم، فأهل الجنة بيضُ الوجوه، ولَوْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا سُوداً أَوْ شَيْئاً آخَرَ مِنْ سَائِرِ الْمَلُوكِ، وأهل النار سُودُ الوجوه، ولو كانوا في الدنيا بيضاً سُقَرَاءَ.

والأعراف هي مرتفعات مشرفة على الحجاب، يشاهد الواقف عليها أصحاب اليمين وأصحاب الشمال.

وأصحاب الأعراف هم الذين لم تكن حسناتهم كافية لأن يُقضى لهم بسببها ابتداءً أنهم من أهل الجنة، ولم تكن سيئاتهم بالمقدار الذي يَسْتَحِقُّونَ بسببه أن يكونوا من الخالدين في النار، أو من الذين قضى الله بتعذيبهم فيها تعذيباً مؤقتاً، فأمرهم موقوف مؤقتاً، حتّى يَقْضِيَ الله بشأنهم، بالتعذيب المؤقت في دار العذاب، أو بالتأخير والانتظار، أو بالغفران، وهؤلاء فيما ظهر لي هم من عصاة المؤمنين، الذين لم يتجاوز الله في محكمة العدل العامّة عن معاصيهم.

هؤلاء أصحاب الأعراف يندو لهم أن يتقربوا إلى أصحاب الجنة الذين هم على الجانب الأيمن من الحجاب بالسلام عليهم، فقال تعالى بشأنهم:

﴿... وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا...﴾ (٤٦) ﴿...﴾

ولا يذكر القرآن رد أصحاب الجنة، ولعلمهم لا يردون تحفظاً، ومخافة أن يكون هؤلاء المسلمون من أهل النار، الذين لا يجوز الرد عليهم بالسلام.

بعد هذا أدخل البيان جملة معترضة تتعلق بأصحاب الجنة، فقال الله عز وجل:

﴿... لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (٤٦) ﴿...﴾

أي: لم يدخل بعد أصحاب الجنة الجنة، لكنهم في حالة طمع متجدد بأن يصدر أمر تكريمهم بأن يدخلوا الجنة، لا أنهم يطمعون بأن يقضى لهم بدخول الجنة، فهذا الأمر قد قضى الحكم به سابقاً في محكمة العدل، فهم أصحاب الجنة، وتذكر الدخول في أيديهم، إنما طمعهم هو طمع متربح إعلان مباشرة الدخول، كمنتظري النداء بدخول بوابة العبور إلى الطائفة، في الصالة الداخلية، بعد استكمال كل شروط الدخول ولوازمه.

بعد هذه المعترضة تابع النص عرض لقطات من المشهد تتعلق بأصحاب الأعراف، فقال الله عز وجل:

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٧) ﴿...﴾

هذا الدعاء يناسب أن يدعوه به مشفق خائف من العذاب، ينظر إلى سوابق معاصيه، فيخاف أن يقضى عليه بأن يكون مع القوم الظالمين المخلدين في النار، أو من المعذبين فيها ولو تعذيباً مؤقتاً.

وتابع النص الحديث عنهم فقال الله عز وجل:

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمِهِمْ قَالُوا مَا آغَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ

تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٨) ﴿... أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ...﴾ (٤٩) ﴿...﴾

البيان يحكي حدثاً بصيغة الفعل الماضي ، هو مُقْتَطَعٌ من المُسْتَقْبَلِ ومُقَدَّمٌ في المُشْهَدِ البَيَانِي .

أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ نَادَوْا رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ الَّذِي هُمْ عَلَى شِمَالِ الْحِجَابِ ، وَهَؤُلَاءِ الرِّجَالُ هُمْ مِنْ أُمَّةِ الْكُفْرِ ، وَيَعْرِفُونَهُمْ بِعَلَامَاتِهِمِ الْمُمَيِّزَةِ لَهُمْ ، فَيَقُولُونَ لَهُمْ مُشِيرِينَ فِيهِمِ النَّدَمَ وَالتَّحَسُّرَ : مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْصَارَ ، وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ اسْتِكْبَارُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَهُ ، وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ بِهِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ ، وَعَنْ طَاعَةِ اللَّهِ .

وَيَقُولُونَ لَهُمْ أَيْضاً مُشِيرِينَ إِلَى بَعْضِ الضُّعْفَاءِ مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ : أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَفْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ، وَهُمْ الْآنَ يَنْتَظِرُونَ الْإِذْنَ لَهُمْ بِأَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ خَالِدِينَ فِيهَا .

عِنْدَ هَذَا الْمَفْصَلِ قَطَعَ الْبَيَانُ اللَّقَطَاتِ الْمُتَعَلِّقَةَ بِأَصْحَابِ الْأَعْرَافِ ، وَقَدَّمَ عِبَارَةَ النَّدَاءِ لِأَصْحَابِ الْجَنَّةِ بِأَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ، فَقَالَ تَعَالَى :

﴿... أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ حَزَنُونَ﴾ (٤٩) .

لَقَدْ صَدَرَ الْأَمْرُ التَّكْرِيمِي بِالْإِذْنِ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ .

وَطَوَى النَّصُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَمْرِ بِالدُّخَالِ أَهْلِ النَّارِ النَّارِ ، وَجَمْعِهِمْ رُكَّامًا ، وَكَبَكَبَتِهِمْ فِيهَا ، اعْتِمَادًا عَلَى أَنَّهُ يُعْلَمُ ذَهْنًا وَلَوْ لَمْ يُذَكَّرْ بِالنَّصْرِ ، وَجَاءَ الْبِنَاءُ عَلَى الْأَمْرَيْنِ الْمَذْكُورِ وَالْمَطْوِيِّ ، فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ . فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ

قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠) .

أليس هذا التَّنَقُّلُ الْعَجِيبُ فِي الْأَزْمَنَةِ وَالْأَمَكْنَةِ وَمُخْتَلِفِ الْأَسَالِيبِ مِنَ الْإِعْجَازِ الْبَيَانِي فِي الْقُرْآنِ ، وَمِنْ قِمَةِ الْأَدَبِ الَّتِي لَا يَرْتَقِيهَا بَشَرٌ .

• • •

الصُّورَةُ الثَّامِنَةُ عَشْرَةُ

يلاحظ الأديب ذو الحسّ الأدبيّ المرهف التنويع العجيب البديع في أساليب الأداء البيانيّ القرآنيّ، حتّى في عرض الأقسام أو الأنواع التي تدخل في مَقْسِمٍ واحدٍ أو جنسٍ واحدٍ، أو تَدْخُلُ تحت عنوان واحد، إشاراً للجمال الفنّيّ بالتنويع المجدّد لِتَنْبِيهِ الفكر، أو إثارةً للتجديد في الإبداع الاختياريّ مع كلّ نوعٍ أو قسمٍ أو صنف، فمن شأن التجديد تحريكُ الذهن في مختلفات من الأساليب، والتمكين من وضع أفكارٍ وأغراضٍ بيانيةٍ وتربويةٍ في ظلال النصّ، تُكْتَشَفُ حيناً بعد حين، كلّما تَكَرَّرَتْ قراءةُ النصّ، أو تَكَرَّرَ سماعه.

وقد يقترن بإثارة الجمال الفنّيّ غَرَضٌ بيانيّ آخر، كاختيار الأسلوب الأكثر ملاءمةً لِلْقِسْمِ أو النُّوعِ أو الصَّنِفِ الذي جرى التنويع في الأسلوب عند ذكره، أو الأسلوب الأكثرِ مضامينَ فكريةً يُرادُ الدَّلَالَةُ عليها مع ذكره، أو الأكثرِ بلاغةً وإيجازاً واقتصاداً في العبارة بالنسبة إلى مَضَامِينِهِ الفكرية التي يُرادُ بَيَانُهَا، إلى غير ذلك من أغراض.

والغفلة عن مُلَاحَظَةِ هذا التنويع في أساليب الأداء البيانيّ، تَجْعَلُ المتدبّرَ لكلام الله عزّ وجلّ لا يُدْرِكُ الترابطَ الْفِكْرِيَّ في مَوْضُوعِ النَّصِّ، فيفهمُهُ وَحَدَاتٍ مجزآتٍ غَيْرَ مُتَرَابِطَاتٍ، وَتَبْدُو عَنْهُ بسببِ ذلك رَوَائِعُ مَفَاهِيمٍ، وقد يقع في أغاليط، إِذْ يُحَاوِلُ أَنْ يَنْتَزِعَ ارتباطاً من قريبٍ أو بعيدٍ لِأَدْنَى مناسبةٍ، أو شُبْهَةِ مُنَاسَبَةٍ، أَوْ يَخْتَرِعَ مِنْ عِنْدِهِ أموراً لا أصلَ لها ولا دليلَ عليها.

* * *

الأمثلة

المثال الأول:

عرض القرآن المجيد ما كان في غزوة الأحزاب من المنافقين وضعفاء الإيمان الذين في قلوبهم مرض، من أقوال وأعمال، هي مظاهر لما في قلوبهم، فقال الله عز وجل في سورة (الأحزاب / ٣٣ مصحف / ٩٠ نزول):

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٣)

● هذا قسمٌ مما كان منهم، جاء بأسلوب: ﴿وَإِذْ يَقُولُ﴾ بإذ الظرفية، أي: واذكر إذ، وبالفعل المضارع الذي يدلُّ على أنَّ المقالة دارت على الألسنة حتى شاعت، فقالها المنافقون، وقالها تأثراً بهم الذين في قلوبهم مرضٌ دون النفاق، وهو مرض ضعف الإيمان.

● أما القسم الثاني مما كان منهم فقد جاء أسلوب عرضه كما يلي:

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ (١٣)

فجاء بأسلوب: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ بإذ الظرفية، أي: واذكر إذ، وبالفعل الماضي، الذي يدلُّ على أنَّ هذه المقالة قد قيلت من طائفة منهم، ثم لم تتكرر، ولم تدُر على الألسنة.

● أما القسم الثالث مما كان منهم فقد جاء أسلوب عرضه كما يلي:

﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (١٣)

فجاء أسلوب ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ﴾ بصيغة الفعل المضارع، للدلالة على تكرار الاستئذان من أفراد هذا الفريق، أو على الإلحاح به، ولم يأت على النسق السابق من استعمال كلمة ﴿إِذْ﴾ قبله، لأن حالتهم هذه كانت مستمرة لا تستدعي التذكير بزمن حدوثها.

واعتنى القرآن المجيد بتربية هذا الفريق المستأذن، وبيان حالته النفسية، وإقناعه، لتصحيح العناصر المختلة لديه من عناصر القاعدة الإيمانية.

● وأما القسم الرابع مما كان منهم، وهو التعويق والتشبيط عن الخروج مع الرسول ﷺ لمواجهة عدوه، فقد جاء أسلوب عرضه كما يلي:

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٨).

فاختلف الأسلوب هنا اختلافاً كلياً، إذ نلاحظ أن التعويق قد عرضه الله عز وجل وصفاً ثابتاً لفريق من المنافقين، لأنه مجرد عرض طارئ استدعته حالة مزعجة، وهو الأمر الذي كان في غزوة الأحزاب، فحصل فهم قسم التعويق والتشبيط من ذكر المعوقين.

وقبل ذكر المعوقين بين الله عز وجل تحقق علمه بهم، ليشير هذا البيان من طرف خفي إشارة تهديد لهم، بأنهم مكشوفون معلومون لله، وبأن عقاب الله يترصد لهم.

فمع التنوع في الأسلوب لإكساب التعبير جمالاً فنياً، وإبداعاً معجباً، اختير لعرض كل قسم الأسلوب الأكثر ملاءمة له، والأكثر مضميناً فكرياً يراد الدلالة عليها مع ذكره، كإضافة أن المعوقين معلومون لله عز وجل، وأن تعويقهم لإخوانهم صفة ثابتة من صفاتهم، وملازمة لهم في كل الأحوال، فهم معوقون دائماً، وقائلون في كل المعارك لإخوانهم: هلم إلينا، لا تخرجوا مع محمد إلى قتال.

* * *

المثال الثاني:

سورة (الماعون / ١٠٧ مصحف / ١٧ نزول) سورة مكية جاء فيها بيان لبعض صفات المكذبين بالدين، أي: بالجزاء الذي يجريه الله في الآخرة، بعد البعث ليوم الدين، أما الصفات التي ذكرت فيها للمكذب بيوم الدين، فهي ما يلي:

١ - أَنَّهُ يَدْعُ الْيَتِيمَ، أَي: يَدْفَعُهُ بَعْفَ وَقَسْوَةِ، بِسَبَبِ أَنَّ الرَّحْمَةَ قَدْ نُزِعَتْ مِنْ قَلْبِهِ، وَهُوَ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الدِّينِ، حَتَّى يَطْمَعَ بِثَوَابِ اللَّهِ، أَوْ يَخَافُ مِنْ عِقَابِهِ.

٢ - وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ، أَي: فَكَيْفَ يَبْذُلُ مِنْ طَعَامِهِ أَوْ مَالِهِ.

٣ - وَلَا يَهْتَمُّ بِأَنْ يُصَلِّيَ لِرَبِّهِ، وَلَوْ آمَنَ بِوُجُودِهِ، بَلْ يَظَلُّ سَاهِيًا، لِأَنَّهُ مَكْذِبٌ بِيَوْمِ الدِّينِ، فَإِذَا صَلَّى أَوْ عَمِلَ عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادَةِ أَوْ الْخَيْرِ، فَإِنَّهُ يُرَائِي النَّاسَ بِذَلِكَ، وَلَا يَعْمَلُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَغَرَضُهُ مِمَّا يُرَائِي بِهِ جَلْبُ مَغْنَمٍ، أَوْ دَفْعُ مَغْرَمٍ، عَلَى أَنْ مَا يُرَائِي بِهِ لَا يَكْلَفُهُ فِي الْغَالِبِ مَالًا.

٤ - وَهُوَ شَحِيحٌ كُرَّ النَّفْسِ، يَمْنَعُ آيَةً مُعَوْنَةً، حَتَّى الْأَمْتَعَةِ الَّتِي تُسَمَّى «الْمَاعُونَ» عِنْدَ الْعَرَبِ، وَالَّتِي يَتَسَاهَلُ الْبَخْلَاءُ بِإِعَارَتِهَا، يَمْنَعُهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي إِعَارَتِهَا مَنْفَعَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ.

هذه الصفات الأربع جاءت في سورة (الماعون) على قصرها بأسلوبين من الأساليب البيانية.

● فالصفتان الأوليان جاءتا بأسلوب:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾﴾.

بلغت النظر إلى رؤية صفاته المنكرة على طريقة الاستفهام الاستهجاني، مع ما يتضمّنه من إقناع بأن الإيمان بيوم الدين يُضِلِّح في الأفراد صفاتهم وأخلاقهم الاجتماعية، وَيَجْعَلُهُمْ رَحَمَاءَ، يَفْعَلُونَ الْخَيْرَاتِ، وَيَحْضُرُونَ عَلَى فِعْلِهَا.

● والباقي من صفاتهم جاء بأسلوب التهديد والوعيد:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءَوْنَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

فحصل بهذا الأسلوب التنويع الجمالي الفني، مع التهديد والوعيد بالويل، وهو العذاب الشديد، ووادٍ في جهنم فيه عذاب أليم.

* * *

المثال الثالث :

ويجد المتدبر لسورة (ق / ٥٠ مصحف / ٣٤ نزول) تنوعاً عجباً رائعاً، في عرض الأدلة، لدفع شبهات منكري البعث.

● ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾.

● ﴿أَفَلَمْ نَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ... ﴿٦﴾﴾.

● ﴿أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ... ﴿١٥﴾﴾.

● ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مِثْلَ نَسُوءٍ يَهْنِكُ... ﴿١٦﴾﴾.

أنواع من الأساليب البيانية، مع أنها ترد شبهات المنكرين لقضية البعث للحساب والجزاء.

إن الموضوع فيها موضوع واحد، لو عالجناه بأساليبنا الإنسانية، لقال أحسن أديب فينا وأبرع كاتب مقالاً ذكر فيه أن شبهات المنكرين ترجع إلى عدة توهمات:

فالأول: جوابه كذا.

والثاني: جوابه كذا.

والثالث: جوابه كذا.

والرابع: جوابه كذا.

أما أن يطوي ذكر الشبهات والتوهمات، ويأتي بالردود الإقناعية ضمن أساليب متنوعة، فهذا مما يند عن الخواطر مهما كانت لمحة صيادة فنون أدبية.

* * *

المثال الرابع :

يقول الله عز وجل في سورة (الفرقان / ٢٥ مصحف / ٤٢ نزول) :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ
وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

اعترض المشركون على إنزال القرآن مُنجمًا، وطالبوا بتحضيض أن يُنزل
جُمْلَةً واحدة.

أي : ما الداعي إلى تنزيله مُفرقًا مُنجمًا؟ إن هذا الأسلوب التنجيمي يدعو
إلى الشك في أنه كلام الله، أليس الله عليمًا بكل شيء، قديرًا على أن يُنزل القرآن
كله في وقت واحد، كما أنزل كتبًا سابقة على رُسُلٍ سابقين دفعة واحدة؟!

فجاء الردُّ القرآني مُبينًا ثلاث حُكمٍ لِتنزيله مُفرقًا مُنجمًا، ولكن بيان هذه
الحُكم جاء مُنوعًا بِأساليب مُختلفة، قد لا يلتقط منها التالي للنص إلا الحُكمة
الأولى، لأن الحُكمتين الأخريين جاءتا بأسلوب آخر.

فالحكمة الأولى : نذكرُها في قول الله عز وجل خطابًا للرَّسول : ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ
فُؤَادَكَ﴾.

وثبتُ الفؤاد يكون بما يُورثه السُّكون والطمأنينة تجاه ما يمكن أن يهزه
ويقلقه ويُزعجه من أحداثٍ يوميةٍ غير سارة.

وقد كان الرسول ﷺ يتعرض دوماً من قبل كفار قومه لأحداثٍ غير سارة تُقلق
وتزعج أفضة عظماء الرِّجال، فإذا وجد نفسه على صلةٍ بالوحي من آنٍ لآخر،
بصورةٍ متكررةٍ مُتتابعة، لم تُزعجه ولم تُقلقه الأحداث، إذ يشعرُ جسيماً بأنَّ الرَّبَّ
الجليل الذي أرسله وأنزل عليه جبريل بالوحي، لم يتركه لنفسه يُؤدِّي وظائف
رسالته، بل هو على صلةٍ به، يُنزلُ عليه الآياتِ القرآنيةَ تباعاً، ويُعالجُ الأحداثَ
التي يتعرَّضُ لها تباعاً، ويُقدِّمُ له الوصايا والتعليمات الهادية له في مسيرته، وهو

يقوم بوظائف رسالته، ويشعر أيضاً بأنه مدعوم بقوة عظيمة من الغيب، تتابعه في كل صغيرة وكبيرة.

فهذا الأمر شأن عظيم جداً في تثبيت فؤاده، ليقوم بجلال الأمور، ضمن قوم يخشى أن يتألبوا عليه، ويمنعوه بالقوة من متابعة وظائف رسالته.

والحكمة الثانية: نذكرها من قول الله عز وجل في النص:

﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾.

وقد جاءت بأسلوب مخالف لأسلوب عرض الحكمة الأولى، الأمر الذي قد يجعل تالي النص لا يدرك أن النص يتابع بيان الحكمة من تنزيل القرآن مفرقاً منجماً.

الترتيل: هو التمهّل والتأني في الكلام، والتبيين له، للتمكين والتحقيق، وبناء المعرفة في المتلقين بناءً تكاملياً، وذلك لا يحصل بإنزاله جملة واحدة، بل يحصل بإنزاله في دروس تعليمية قسماً بعد قسم، مع الاستفادة من الأحداث والمناسبات.

وقد جاء شرح هذه الحكمة في قول الله عز وجل في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَقَرَأْنَاهُ فَتَنَّهُ لِنَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً﴾.

﴿فرقناه﴾: أي: جزأناه، وفصلناه، وبيناه، وأصل معنى الفرق الفصل بين الشيئين أو الأشياء، وتمييز بعضها عن بعض.

وأوضح صور هذا الفصل والتمييز أن ينزل الكتاب على مراحل زمنية متفاصلة متباعدة.

﴿على مكث﴾: أي: على تمهّل، وتوقّف، وانتظار، ريثما تثبت معرفة القسم المنزل.

يقال لغة: مَكَثَ بالمكانِ يَمْكُثُ مَكْثًا وَمَكْثًا وَمُكُوثًا، إِذَا تَوَقَّفَ وَانْتَهَرَ.

﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾: أي: ونزلناه تنزيلاً بآناً وتمهلاً وتحقيقٍ مع كل قسمٍ يُنزلُ منه، فالتأكيد بالمفعول المطلق للإشارة إلى نوع التنزيل.

والحكمة الثالثة: نُذِرُكُمَا مِنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

الخطاب هنا للرُّسُولِ لِيَسْمَعَ أَصْحَابُ الْاِعْتِرَاضِ عَلَى تَنْزِيلِهِ مُفْرَقًا، وَقَدْ سَبَقَ فِي سُورَةِ (الْفِرْقَانِ) نَفْسُهَا عَرَضَ طَائِفَةٍ مِنْ اِعْتِرَاضَاتِهِمْ وَمَقْتَرَحَاتِهِمْ، الَّتِي جَاءَ فِي السُّورَةِ الْإِجَابَةُ عَلَيْهَا.

والمعنى أَنَّ مِنْ حِكْمِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ مُفْرَقًا مَنْجُمًا مُتَابَعَةً جَدَلِيَّاتِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِيمَا يُقَدِّمُونَهُ مِنْ أَمْثَلَةٍ يَصْطَنَعُونَهَا بِآرَائِهِمْ، وَيَقْتَرِحُونَهَا، وَيَرَوْنَ أَنَّهَا هِيَ الصُّورُ الْأَفْضَلُ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهَا حَالُ الرُّسُولِ، أَوْ حَالُ الْقُرْآنِ، أَوْ حَالُ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ وَالْمِنْهَاجِ.

فبهذه المُتَابَعَةِ يُقَدِّمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ الْاِخْلَاقِي مَا يَكْشِفُ بِهِ وَجْهَ الْحَقِّ، لِمَنْ يَطْلُبُ الْحَقَّ بِصِدْقٍ، إِذَا كَانَ مَا اقْتَرَحَهُ الْكَافِرُونَ مِنَ الْأُمُورِ الْبَاطِلَةِ.

وَيُقَدِّمُ فِي النَّصِّ الْاِخْلَاقِي مَا يَتَضَمَّنُ تَفْسِيرَ وَجْهِ الْحِكْمَةِ مِنَ الطَّرِيقَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْمُخْتَارَةِ، إِذَا كَانَ مَا اقْتَرَحَهُ الْكَافِرُونَ إِحْدَى الصُّورِ الْمُمْكِنَةِ غَيْرِ الْمَرْفُوضَةِ عَقْلًا، لَكِنَّ الْاِخْتِيَارَ الرَّبَّانِيَّ قَدْ كَانَ هُوَ الْأَفْضَلُ وَالْأَحْسَنُ وَالْأَحْكَمُ، فَيَكُونُ تَفْسِيرُ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فِي كُلِّ ذَلِكَ لِمَلَأَمَةِ الْأَفْضَلِ وَالْأَحْسَنِ وَالْأَحْكَمِ، هُوَ الْأَحْسَنُ وَالْأَفْضَلُ وَالْأَحْكَمُ مِنْ تَفْسِيرِ مَا اقْتَرَحُوهُ.

وَحِينَمَا يَكُونُ تَفْسِيرُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ أَحْسَنَ مِنْ تَفْسِيرِ مَا اقْتَرَحُوهُ، يَكُونُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَحْسَنَ مِمَّا اقْتَرَحُوهُ حَتْمًا.

وَالْمُرَادُ مِنَ الْمَثَلِ هُنَا: النَّمُودَجُ الْمُقْتَرَحُ الَّذِي يُقَدِّمُهُ الْكَافِرُونَ، فِي اِعْتِرَاضَاتِهِمْ وَجَدَلِيَّاتِهِمْ، حَوْلَ مَا يَنْبَغِي — بِحَسَبِ آرَائِهِمُ الْقَاصِرَةِ — أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ

الرسول، أو القرآن، أو الحكم الديني، أو الطريقة الربّانية في وسيلة التبليغ، أو غير ذلك.

ولمّا كانت مقترحاتُ الناس بمثابة صُورٍ مرسومةٍ يقدّمونها، ليكون الواقع التطبيقيّ على وفقها، كان أدقُّ تعبيرٍ جامعٍ هو التعبيرُ عنها بأنّها أمثال، والواحد منها «مثل» فقال تعالى:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾

أي: ولا تأتون الرسول بمثلٍ تقترحونه إلّا أنزلنا في نجوم التنزيل اللاحق ما يكشف وجه الحق، أو يبيّن أنّ اختيارنا هو الأحسن ممّا اقترحتم.

ولكن لم يواجههم الله بالخطاب، لأنّ النصّ جاء لإجابة الرسول على شكواه من أقوال كفّار قومه.

* * *

المثال الخامس:

في سورة (القمر / ٥٤ مصحف / ٣٧ نزول) عرض الله عزّ وجلّ موجزات مختزلات من قصة قوم نوح، وقصة عاد قوم هود، وقصة ثمود قوم صالح، وقصة قوم لوط، وقصة فرعون وآله.

ويُلاحظ في هذه القصص المختزلات التنويُع في الأداء البياني لدى عرضها، فلم تُعرض فقراتها على نمطٍ واحد.

ففي عرض قصة قوم نوح عليه السلام قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۖ﴾

أي: قبل الذين كذبوا محمداً ﷺ إبان التنزيل.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾ ١٠ ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ ١١ ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ ١٢ ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُسِرَ﴾ ١٣ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَرَءًا لَمَن كَانَ كُفِرَ﴾ ١٤ ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ١٥ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ١٦ ﴿ . نُلَاحِظُ أَنَّهُ بَعْدَ عَرْضِ قِصَّةِ إِهْلَاكِهِمْ وَجَهَ السُّؤَالِ الَّذِي يَلْفُتُ النَّظَرَ إِلَى الْإِنْعَاطِ وَالْإِعْتِبَارِ بِمَا جَرَى لِقَوْمِ نُوحٍ .

أَمَّا عَرْضُ إِهْلَاكِ عَادٍ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِيهِ :

﴿ كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ ١٨ ﴿ .

فَوَجَّهَ السُّؤَالُ نَفْسَهُ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ قَبْلَ أَنْ يَعْضُرَ مُوجِزَ إِهْلَاكِهِمْ ، وَأَجَابَ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ بِقَوْلِهِ :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ ١٩ ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ ٢٠ ﴿ .

﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ : أي : شديدة البرد ذات صوت .

﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ : أي : أصول نخلٍ منقلعٍ من منبئِهِ ، بِأَدِيَةِ أَسَافِلِهِ الْمُتَشَعِّتَةِ الْمُمَزَّقَةِ .

وَعَقِبَ ذِكْرُ هَذَا الْمَوْجِزِ وَجَّهَ السُّؤَالُ نَفْسَهُ عَلَى مَعْنَى لَفْتِ النَّظَرِ إِلَى الْإِنْعَاطِ وَالْإِعْتِبَارِ ، فَقَالَ تَعَالَى :

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ٢١ ﴿ .

وَأَمَّا عَرْضُ مُوجِزِ إِهْلَاكِ ثَمُودَ فَقَدْ جَاءَ بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ عَمَّا سَبَقَ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا الْعَرْضِ :

﴿ كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ ٢٢ ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَحِدًا نَبِّعُهُمْ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ ٢٣ ﴿أَهْلَقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ ٢٤ ﴿ .

وهنا يُقدِّم النصُّ قولاً مقتطعاً من الحَدِّثِ إِبَّانِ حَدُوثِهِ فِي الْمَاضِي ، فيقولُ

تعالى :

﴿ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنْ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴾ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ
وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُخْضَرٌ ﴿٢٨﴾ .

الشَّرْبُ : وقتُ الشُّربِ ، والنَّصِيبُ مِنَ الْمَاءِ .

هَذَا خُطَابٌ قَدْ وَجَّهَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرُسُلِهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قُدِّمَ هُنَا
مُقْتَطَعاً مِنَ الْحَدِّثِ الْمَاضِي ، دُونَ مَقْدَمَاتٍ تُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ .

وَعَادَ النَّصُّ إِلَى حِكَايَةِ الْقِصَّةِ ، فَقَالَ تَعَالَى :

﴿ فَادْعُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ (٢٩) .

أَي : تَمْطِي مُتَطَوِّلاً قَائِماً عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِ رَجُلَيْهِ رَافِعاً يَدَيْهِ ، فَعَقَرَ نَاقَةً
اللَّهُ .

بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَجَّهَ اللَّهُ السُّؤَالَ السَّابِقَ فَقَالَ :

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ (٣٠) .

وَأَجَابَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَاجِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخِطَرِ ﴾ (٣١) .

إِنَّهُ مَعَ تَنَاظُرِ الْهَيْكَلِ الْعَامِّ إِلَّا أَنَّ الْأَسَالِيبَ اخْتَلَفَتْ وَتَنَوَّعَتْ .

وَأَمَّا عَرْضُ مُوجَزِ إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ ، فَقَدْ جَاءَ أَيْضاً بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلَفَةٍ ، مَعَ التَّنَاطُرِ

فِي الْهَيْكَلِ الْعَامِّ مَعَ مَا سَبَقَ ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي إِذَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ (٣٢) نِعْمَةً

مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٣﴾ .

فَقُدِّمَ صُورَةُ إِهْلَاكِهِمْ قَبْلَ عَرْضِ أَعْمَالِهِمْ ، عَلَى خِلَافِ مَا جَاءَ فِي مُوجَزِ

قِصَّةِ ثَمُودَ ، إِذْ جَاءَ عَرْضُ أَعْمَالِهِمْ ، قَبْلَ عَرْضِ صُورَةِ إِهْلَاكِهِمْ .

بعد هذا قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ (٣٦) وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَحَهمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) .

ولم يورد الله هنا السؤال السابق، إذ كرر هنا عبارة: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ وهي عبارة مقتطعة من الحديث الماضي .

أما إهلاك فرعون وآله وجنوده فقد جاء موجزاً بعبارة:

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ (٤١) كَذَبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَآخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْنَدٌ (٤٢) .

فجاء هذا البيان بطريقة مختلفة عما سبق، مع بقاء التناظر في الهيكل العام، كما نشاهد اختلاف السمات والخصائص في أفراد المخلوقات، مع تشابه أفراد النوع الواحد في الهيكل العام.

وهذا من إعجاز القرآن، وأدبه الرفيع .

• • •

الصُّورَةُ التَّاسِعَةُ عَشْرَةُ

وصف حال الإنسان إذا ركب الفلك وأحاطت به المهلكات تجاه الرّب الخالق جلّ وعلا . . . ويقاسُ على هذه الحالة أشباهها :

عرض القرآن المجيد من صور الشدائد المخيفة التي تحيط بالمهلكات ما قد يتعرّض له رُكّاب السُّفن في البَحْرِ من أهوال، يخشون معها الهلاك .

ونلاحظ في هذا العرض أن القرآن قد قسّم الناس إلى قسمين :

● كافرين برّبهم جاحدين .

● ومؤمنين به .

١ - أمّا الكافرون فقد وصف الله عزّ وجلّ حالهم، ووعظهم، وحذّرهم، وأنذّرهم، في ثلاثة نصوص .

النصّ الأول منها: جاء في سورة (يس/ ٣٦) السورة الحادية والأربعين بحسب ترتيب النزول .

النصّ الثاني منها: جاء في سورة (الإسراء/ ١٧) السورة الخمسين بحسب ترتيب النزول .

النصّ الثالث منها: جاء في سورة (يونس/ ١٠) السورة الحادية والخمسين بحسب ترتيب النزول .

٢ - وأمّا المؤمنون فقد وصف الله عزّ وجلّ حالهم وعلمهم ما ينبغي أن يفعلوه ويقولوه إذا ركّبوا ما سخّر الله لهم من مراكب ومنها الفلك في نصّين :

النصّ الأول منهما: جاء في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف / ٥٧ نزول) .

النص الثاني منهما: جاء في سورة (الزخرف/ ٤٣ / مصحف / ٦٣ نزول).

فلتدبر هذه النصوص، لنكتشف ما نستطيع اكتشافه فيها من بلاغة عالية، وأدب بديع، وتكامل فكري تربوي حركي عجيب.

النصوص الكاشفة لحال الكافرين والمعالجة لهم بالتربية الربانية:

أما النصوص التي تكشف حال الكافرين وتَعْظُمهم وتحذِّرهم وتنذرهم، فقد صوّرت أنهم لا يلتجئون إلى الله من أعماق قلوبهم مُخْلِصِينَ له الدين - أي: يدعونه دُعاء المضطر المتضرع الذي لا يُشرك بربّه أحداً - إلا إذا أحاطت بهم المهلكات، من كُلِّ الجهات، وتَقَطَّعتْ بهم كُلُّ الأسباب التي يَرَوْنَ أن اتَّخَذَها قد يُحَقِّقَ لهم النجاة، وَغَلَبَ عَلَى ظَنِّهِمْ أَنَّهُمْ هَالِكُونَ لا محالة.

عندئذٍ يلجؤون إلى ربِّهم الواحد الأحد داعين مُتَضَرِّعين، وَقَدْ يَقْدَمُونَ عهودهم ومواثيقهم له بَأَن لا يُشْرِكُوا به شيئاً إذا أنجاهم.

فإذا استجاب الله دعاءهم فأنجاهم ووصلوا إلى مَأْمَنِهِم في البرِّ، رجعوا إلى ما كانوا عليه من قَبْلُ، فَالْمُشْرِكُ يَرْجِعُ إلى شركه، وَالْمُعْرِضُ عن ربِّه الجاحد لنعمه يرجع إلى إِعْرَاضِهِ وجحوده، وصاحب البغي يرجع إلى بغيه.

ونجد في جملة هذه النصوص الثلاثة المتعلقة بالكافرين (وقد يكون الأول منها عاماً)، رُسُوماً بديعة من التصوير الأدبيِّ الرائع لِرُكَّابِ في الفلك، أَحَاطَتْ بِهِمُ الْمُهْلِكَاتُ الْمَهُولَةُ، وتَقَطَّعتْ بِهِم كُلُّ أسباب النجاة المسخَّرة للناس، وَأَعْيَتْهُمُ كُلُّ الحيل، وصَارُوا يَتَرَقَّبُونَ الضربة القاتلة من كل جهة، أو الْمَوْجَةَ المحطمة لفلكهم وَالْمُغْرِقَةَ له، لحظة فلحظة، وَلَمَحَّةً فَلَمَحَةً، مع تسارع اللَّمَحَاتِ، وقلوبهم واجفة، وأفكارهم ونفوسهم في اضطراب متداخل متشابك، كنداخل حركات الأهوال وتشابكها، وهم يَتَرَنُّحُونَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، ويتراخضون مذعورين على غير هدى، وهذا التصوير بعضه مذكورٌ وأكثره مطويٌّ اعتماداً على أذهان المتدبرين للنصوص، وما تستدعيه لوازم الأفكار، وطبيعة الواقع الذي تدلُّ عليه الرسوم.

ومع هذا التصوير البديع نجد مزيجاً من التربية والإقناع واستشارة المشاعر الوجدانية الإيمانية، وجملةً من المعاني والمفاهيم الدينية، وفنوناً بلاغيةً كثيرة، مع إيجاز بالغ في العبارة.

وقد بدأ القرآن المجيد لدى عرض هذا الموضوع في نجوم التنزيل بنص أنزل في سورة (يس / ٣٦ مصحف / ٤١ نزول) يقول الله عز وجل فيه:

﴿وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

والذي يرجح أن هذا النص موجّه للكافرين: أنه مبنيّ هو آيات قبله على قول الله عز وجل في السورة نفسها:

﴿يَحْسِرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿الْفُلُّ﴾: مركب البحر، وهو يطلق على الواحد والاثنين والجمع، ويذكر ويؤنث، فيعاد الضمير عليه أحياناً بالتذكير إذا اعتبر مذكراً، وبالتأنيث إذا اعتبر مؤنثاً. وقال ابن بري: إذا جعلت الفلّ واحداً فهو مُذكر لا غير، وإن جعلته جمعاً فهو مؤنث لا غير.

﴿الْمَشْحُونُ﴾: المملوء، تقول لغة: شَحَن السفينة يَشْحُنُهَا إِذَا مَلَأَهَا أَحْمَالاً وَرُكَّاباً.

﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾: أي: فلا مُغيث لهم يستجيب لصراخ استغاثتهم.

في هذا النجم الأوّل حول هذا الموضوع من نجوم التنزيل يلفت الله عز وجل النظر إلى آية من آياته التي أنعم بها على الناس في الأرض، وهي آية الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وتحملهم وتحمل أثقالهم إلى بلاد لم يكونوا بالغيها إلّا بشقّ الأنفس، أو لا سبيل لهم إلى بلوغها على اليابسة.

وهي آية تدلّ على إتقان صنع الله، وعلمه المحيط بكل شيء وعظيم قدرته،

وبالغ حكمته، إذ أعطى الأشياء والمواد الكونية خصائصها وقوانينها، ودللها وسخرها للإنسان، فمكّنه من استخدامها، وبها استطاع أن يتخذ المراكب البحرية، ويجتاز على ظهورها المسافات الطوال، ويحمل عليها ثقل الأحمال، ويستخدّمها في منافع كثيرة.

وهي آية على عناية الله بالإنسان، ورحمته به، وتكريمه له، إذ سخر له الأشياء، ومكّنه من الانتفاع بها، فعليه أن يشكر ربّه على نعمه بالإيمان والطاعة، والتقرّب إليه بالعبادات.

وكلّنا نعلم أنّ المجموعات البشرية الأولى لم تكن تعرف هذه الوسيلة المسخرة لهم بمقتضى قوانين الخلق، حتى جاء تطوّر حضاري رافقه وحيّ ربّاني بتعليم صناعة السفن، فتوصّلت الدّريّة إلى اكتشاف هذا النوع من المراكب. وفي توجيه النظر لهذه الآية يقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾.

وقرأ المدنيان والشامي ويعقوب ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بالجمع. وإذ كانت هذه الآية غير معروفة للقرون السابقة للدّريّة التي عرفت السفن وركبتها، كان علينا أن نفهم أنّ النصّ يهدف للدلالة على أمرين: الأول: أنّها آية مقدّرة في التكوين منذ بدء الخلق، أي: قبل أن يكتشفها الناس وينتفعوا منها.

الثاني: أنّها آية تقدّم ظواهرها ودلائلها للناس بعد اكتشافهم لها، وانتفاعهم منها، ليتفكروا فيها، فيعلموا ما تدلّ عليه من صفات الله ربّ الخالق العليم الحكيم القدير الرحيم، ويعلموا نعمة الله عليهم بها، فيؤمنوا به ويحمّدوه ويشكّروه ويسلموا له.

● فالأمر الأوّل يُناسبه التعبير الذي ينطبق على البشر جميعاً.

● والأمر الثاني يُناسبه التعبير الذي ينطبق على البشر بعد اكتشاف الذرّة لهذه الآية وانتفاعهم منها.

فكان من بدیع البيان جَمْعُ التعبيرين في صيغة واحدة، والإشارة بالضمير في ﴿لَهُمْ﴾ إلى عُموم الناس منذ بدء خلق آدم حتّى تقوم الساعة، وبهذه الإشارة يُفهم المراد الأول. والإشارة بلفظ ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إلى الناس بعد اكتشاف هذه الآية والانتفاع بها، وبهذه الإشارة يُفهم المراد الثاني.

فهي آية للناس منذ بدء الخلق أودعها الله في التكوين، ثم ظهرت للذرّة عند اكتشافها والانتفاع بها.

وهذا الأسلوب من بدائع البيان القرآني، ونظيره قول الله عزّ وجلّ في سورة (الجاثية / ٤٥ مصحف / ٦٥ نزول) بشأن القرآن:

﴿هَذَا بَصِيرَتٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

أي: هو مُعدّد لأن يكون بصائر وهدى ورحمةً للمكلفين من النَّاس جميعاً، فهو لجميعهم بلاغ، وعليهم جميعاً حُجّة، لكنّه في الواقع بصائر وهدى ورحمة لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ بأنّه من عند الله، إذ هم يؤمنون بالله ورسوله ويكتابه.

ولو كان النصّ: وآية لهم أنا حملناهم في الفلك المشحون، لما كان في النصّ دلالة على أنّها آية مقصودة منذ بدء التكوين بحسب صلاحيتها، وبحسب تقدير اكتشاف الذرّة لها، على اعتبار أنّ الذين أدركوها هم الذين شهدوها بعد اكتشافها، وشهدوا الانتفاع منها، فكان من الإبداع بغية التوجيه لفهم المرادين قولهُ تعالى: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

وأشكل فهم هذه الآية على طائفةٍ من المفسّرين، فقالوا في تفسير ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: أي: حملنا آباءهم، ملاحظين سفينة نوح ومن حُمِل فيها من البشر يومئذٍ.

وهذا التفسير لا نجد في اللغة ما يساعد عليه، لا عن طريق الحقيقة، ولا عن طريق المجاز.

والنظر في مقاصد الآية يهدي إلى أن المراد هو ما سبق بيانه والله أعلم. وبعد ذلك قال الله عز وجل:

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (٤٢)

أي: من مثل الفلك. فأى شيء هذا الذي هو مثل الفلك؟

هل هو الجمل في الصحراء؟ هل هي الخيل والبغال والحمير وسائر المركوبات من الدواب؟ هل هي العربات التي كانت تجرها الحيوانات؟ هل هي السفن المناظرة لسفينة نوح؟

آراء طرح المفسرون معظمها، ولا بأس أن يجري عليها الفهم حقبة من الزمن لأنها داخلية في عموم الدلالة، لكن لدينا آية أخرى في سورة (النحل) / ١٦ مصحف / ٧٠ نزل) يقول الله عز وجل فيها:

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨)

فأبان الله فيها أنه يخلق لنا ما نركبه مما لم يكن الناس يعلمونه إبان التنزيل، أي: يخلق في المستقبل.

وقد وصلنا إلى عصر وجدنا فيه أن الله قد سخر لنا الحديد والنار والكهرباء وقوى كثيرة كانت خفية، وهدى الناس إلى اختراع مراكب مختلفة، فركبوا منها مراكب برية وبحرية وجوية.

أفلا يحق لنا أن نراجع التدبر، فنفهم أن الله عز وجل قد دلَّ بآية (النحل): ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ على ما سيخلق عن طريق هداية البشر إلى صنع المركبات المختلفة، ونفهم أنه تعالى قد دلَّ بآية (يس): ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ على هذه المركبات التي توصل إليها الناس وعلى أشباهها مما يمكن أن يستحدث في المستقبل، إضافة إلى ما سبق أن خلقه مما طرحه المفسرون في احتمالاتهم؟

وجاء استعمال الفعل الماضي في آية (يس) للدلالة على أن الأمر مُبرم في القضاء ينتظر وقت ظهوره، ولهذا الاستعمال نظائر في القرآن، منها قوله تعالى خطاباً للرسول وصحبه في سورة (الأحزاب / ٣٣ مصحف / ٩٠ نزول):

﴿وَأَوْثَقَكُمْ أَرْضَهُمْ وَيَدْبَرُهُمْ وَأَمَوَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (٧).

أي: أوثقكم بقضائه وقدره أرضاً لم تطعوها بعد في الواقع.

وقوله تعالى في سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿أَفَإِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعِجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١).

وقوله تعالى في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول):

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (٤).

أي: قَدَرْنَا إهلاكها، أو أمرنا بإهلاكها، فهي مهلكة في القضاء المبرم ولو أنها ما زالت قائمة في الواقع.

والمُماثلة بين الفلك في البحر والطائرات في الجو ليست بحصول الركوب فقط، إنما هي مماثلة من وجوه كثيرة.

الأول: أنها صنع إنساني يستفيد به الإنسان من المسخرات في الكون، ومن قوانينها التي فطرها الله عليها.

الثاني: أن الفلك يحملها بحر من الماء، وأن الطائرات يحملها شبيه البحر من الريح.

الثالث: أن الرياح التي كانت تسوق السفن بتوجيه ربانها هي شرط لازم لسوق الطائرات بتوجيه قائدها أو ربانها، وبدون الرياح لا ترتفع الطائرات في الجو ولا تجري.

أفلا يُرَجَّحُ كُلُّ هذا التماثل أن نفهم الآية على أنها من أنباء الغيب المستقبليّ المؤكَّد بالفعل الماضي ، والذي تحقَّق وقوعه فعلاً بعد قُرُونٍ ؟ .

ولم يكن هذا أمراً واقعاً مشهوداً حتَّى يتَنَبَّه إليه المفسرون الأوَّلون لكتاب الله عزَّ وجلَّ ، وعذَّره قائلهم ، لأنَّهم لم يُريدوا أن يتكهَّنوا بما لم يعلموا ، ولم يريدوا أن يخرِصوا خرساً ويحدِّثوا حدساً .

وكثير من الدلالات القرآنية لم تُعرَف حتَّى اكتشف البحث العلميُّ التجريبيُّ حقيقتها .

وبعد عرض الظاهرة والتنبيه على أنها من آيات الله الدَّالات على جملة من صفاته الجليلات ، وعلى عِنايته بخلقه وإنعامه عليهم ، وجَّه النصُّ لحقيقة يجب على كلِّ ذي فكر أن يضعها في حسابه ، وهي أنَّ أحداً من الخلق لم يخلُق موادَّ هذه المسخَّرات ، ولا يستطيع السيطرة على أحداث الكون ، وتصاريق المقادير ، التي قد تأتي بأسباب لا يَمْلِكُ الناس ضَبْطُها ، أو توجيهاً ، أو التحكُّم بها ، ودفع كوارثها ، إنَّما يملكها الله عزَّ وجلَّ وحده ، فهو إذا شاء أرسل ريحاً عاصفة قاصفة ، أو أيَّ سبب آخر ، فأغرق المركبة البحرية وركابها ، مهما كان شأنها ، أي : ورمى المركبة الجوية وحطَّمها ، وأهلك رُكَّابها ، وفَعَلَ مِثْلَ ذلك في كلِّ مركبة ، فقال تعالى :

﴿وإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ (٤٢) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ

حِينَ ﴿٤٤﴾ .

أي : وإنَّ نشأ إغراقهم نُغْرِقْهم .

وجاء التعبير بالإغراق لأنَّ الملائم الذهنيَّ القريب لأحوال السُّفن البحريَّة ، ونَسْتَطِيع أن نفهم أنه ليس مقصوداً لذاته على وجه الخصوص ، إنَّما هو مثال لكلِّ الصُّور والوسائل التي يمكن أن يكون بها الإهلاك ، فقد يكون الإهلاك بالحريق ، أو بالصواعق ، أو بالاختناق بالغازات ، أو بالضربات القاتلات ، أو بغير ذلك من وسائل .

ويشير النص إلى حالتهم حينما تحيط بهم القواتل والمهلكات من كل مكان، وقد تقطعت بهم الأسباب، وأعيتهم الحيل، إذ يضجّون مضطّرخين مستغيثين، يدعون بالإغاثة والإنقاذ، فلا يجدون من يُغيّثهم ويُنقّذهم ممّا هم فيه، لأنّ الرّبّ العليّ القدير الذي بيده مقاليد كلّ شيء قد شاء أن يُغرّقهم.

فأين نجد الإشارة إلى هذه الصورة المطوية من حالتهم التي قد وصلوا إليها؟

إنّنا نجدّها في قول الله تعالى في النصّ: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾: أي: فلا مغيث لهم مهما أضجّوا واصطرخوا.

إنّهم لا يستغيثون بصراخ إلا بعد أن يستنفدوا كلّ وسائلهم وحيلهم، التي لم تُغنهم، ولدى تصوّر محاولاتهم ترتب في الأذهان صور كثيرة من حركاتهم وأصواتهم، وآثار الرّعب في وجوههم، وتراكضهم العشوائي على غير هدى، ووجوم بعضهم حيارى، وترنّح بعضهم كالسكرارى.

أليس الاكتفاء بعبارة ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ من الإبداع الأدبي الرفيع، إذ يُكتفى بدلالة الفكرة من موضوع، أو اللّوحة السريعة من مشهد، أو اللقطة الجزئية من سلسلة أحداث، للدلالة على اللّوازم، والمقتضيات والمقارنات، مع ما توحى به القرائن المختلفة اللّفظية أو الدّهنية.

واحتاط البيان القرآني هنا بعد عبارة ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾، فالملح إلى حالة من أحوال الاستغاثة، وهي حالة الاستغاثة بالله، والالتجاء إليه، وتوجيه الدّعاء الخالص له، نقيّاً من الشّرك، ففي هذه الحالة قد تقضي حكمه البارى عز وجلّ بإنقاذهم، فيصرف عنهم أسباب الهلاك برحمته، ويُعطيههم فرصة للتّوبة النصوح، والرجعة الصّادقة إليه، والثبات على الإيمان والطاعة، فقال الله عز وجلّ:

﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ (٤٣) ﴿لَا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٤٤).

أي: فلا مغيث لهم من شركائهم أو غيرهم، ولا يُنقذون من أية جهة من

الجهات، ولا بآية وسيلة من الوسائل، إلا إنفاذاً يكون رحمةً منا، ومتاعاً قليلاً في الحياة الدنيا، إلى حين حلول آجالهم، ليستكملوا رحلةً ابتلاهم في الحياة الدنيا. أليس نصاً أدبياً رائعاً هذا النصُّ الوجيز الذي استوعب كلَّ هذه المعاني والصُّور الأدبية، والدلالات اللُّمحيّة؟!

فلنعدّ تلاوة النصِّ مُلاحظين معها هذا التدبر الذي نعتقد أننا لم نستوف فيه كلَّ ما يُمكن أن يفهم منه.

﴿وَأَيُّ لَهْمَ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ (٤٣) الْآرْحَمَةُ مِنَّا وَمتعاً إلى حين (٤٤) .

إنَّ على الأديب ذي الحسِّ المرهف - مع استحضار المعاني الثرة التي دلَّ عليها هذا النصُّ - أن يتحسَّس ويتذوَّق فيه الانسجام الحلو العذب، المنساب انسياب الماء الصافي الرقراق السلسيل، ويرتشف من عذوبته وحلاوته وطلاوته بسمعه وفكره وقلبه قطرة قطرة.

* * *

وبعد ثماني سورٍ من القرآن نزلت بعد سورة (يس) أنزل الله عز وجل في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول) قوله حَوْلَ الموضوع نفسه في سياق الحديث عن المشركين المكذبين بالرسول وبما جاء به عن ربِّه وخطاباً لهم:

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ بِكُمْ رَحِيماً﴾ (١٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً (١٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (١٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَاهُ يَتَّبِعَا (١٩) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٢٠) .

نلاحظ في الآية الأولى من هذا النص أن الله عز وجل يُوجِّه الحديث فيها للمخاطبين الكافرين بكاف الخطاب ثلاث مرات: ﴿رَبُّكُمْ - يُزْجِي لَكُمْ - إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

كان من الممكن الاكتفاء بالأول منها ﴿رَبُّكُمْ﴾ دون أن يؤثر ذلك على المعنى العام، لكن لتكرير الخطاب دلالة خاصة مقصودة.

ونستطيع أن نفهم أن الغرض بيان أن الإجزاء لكل سفينة فعل رباني مقصود، ملاحظ فيه العناية بركابها، ولو كانوا كافرين بربهم، جاحدين، مشركين، عصاة، وليس مجرد قانون عام ينطبق عليهم وعلى غيرهم، دون توجيه العناية الخاصة بمن هم على ظهور السفن. ونظير ذلك خطابهم بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾: أي: فرحمته موجهة بقصد لكل مرحوم من عباده ولو كان كافراً، مع كل حركة إمداد وحفظ من المخاطر، وتأمين وتسليم من العوارض والمهلكات.

وفي هذا الخطاب المتكرر تَدَوَّقْ طُغُوم التَّوَدُّد، والتَّائِنِس، والامْتِنان، واستثارة دوافع الإيمان والحمد والشكر، والعَتَاب، والتَّلوِيم، وُحْسُ كُلِّ مخاطب منهم بمقدار ما بقي لَدَيْهِ من حَسٍّ لم يَنْعَدِم، أو لَمْ يَتَبَلَّد، فقد يَتَدَوَّقْ تلويماً، أو عتاباً، أو تودُّداً وتائيساً أو غير ذلك، وقد لا يُحْسُ بشيء، لأنه مُنْظَمِسُ كل أداة حَسٍّ وجدانيٍّ فيه بسبب إمعانه في كفوره وجحوده.

﴿يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ﴾: أي: يَسَوْفُهَا لَكُمْ سَوْفًا بِرَفْقٍ.

وقد استعمل القرآن هذا الفعل يُزْجِي مرتين:

الأولى: هذه من سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول) للدلالة على سوق الفلك.

الثانية: ما في قول الله عز وجل في سورة (النور / ٢٤ مصحف /

١٠٢ نزول):

﴿الَّذِينَ يَزِجِي سَعَابًا ثُمَّ يَقُولُفَ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا...﴾ ﴿٤٢﴾

للدلالة على سَوَقِ السُّحْبِ.

والإِزْجاء في اللغة: هو السَّوْقُ والدَّفْعُ برفقٍ ويُسرٍ. فَالْكَلِمَةُ في الموضعين منتقاةٌ من اللِّسان العربي بمُنتهى الدَّقَّةِ، إِذِ السَّحَابُ يُسَاقُ إلى مواطن تجمُّعه في الجَوِّ برفقٍ ولطفٍ، والسُّفْنُ الشَّرَاعِيَّةُ تُسَاقُ بالريح برفقٍ. وهذا من بلاغة انتقاء الكلماتِ الدَّالَّاتِ بِدَقَّةٍ على المعاني المرادة.

وفي التعبير بعبارة ﴿رَبُّكُمْ﴾ دلالة على أَنَّ الرَّبَّ الخالق الذي يخلُقُ وَفُقَ نظام التربية، وهو الإنشاء المتدرج لحظةً فلحظةً، هو الذي يُتَابِعُ مَرْبُوبِيهِ بِالْعِناية الدَّائمة، والمراقبة المستمرة، فهو الَّذِي يُزَجِّي لَكُمْ الْفُلْكَ من خلال سُنَّته، أو خَلَقاً بعد خَلْقٍ مُقارناً لظواهر الأسباب التي جعلها سُنْناً، وَسَتَرَ بِهَا عَمَلِيَّاتِ خَلْقِهِ، وامتحن عبادَه عن طريقها.

● فَالْكَافِرُ يَسْتُرُ أَدِلَّةَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ بِالْأَسْبَابِ.

● وَالْمُؤْمِنُ يَتَجَاوَزُ ظَوَاهِرَ الْأَسْبَابِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ مُسَبِّبِهَا، وَيُلاحِظُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَتَرَ عَمَلِيَّاتِ خَلْقِهِ بِظَوَاهِرِ الْأَسْبَابِ، لِيَمْتَحِنَ إِيْمَانَهُمْ بِهِ، وَصِدْقَ تَعَلُّقِهِمْ بِهِ لَا بِالْأَسْبَابِ، مَعَ تَكْلِيفِهِ إِيَّاهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا الْأَسْبَابَ.

ونتساءل: ما الغرض من قول الله تعالى: ﴿فِي الْبَحْرِ﴾، مع أَنَّ الْفُلْكَ لَا تُزَجَّى فِي الْعَادَةِ إِلَّا فِي الْبَحْرِ؟ هل هو مجرد إطناب؟

وبالتأمل نستطيع أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الغرض إعطاء المشهد لقطَةً من صورة بحر عظيم مهول، دَلٌّ على عظمته وهَوْلِهِ ذِكْرُهُ مُعَرِّفاً بِأَدَاةِ التَّعْرِيفِ (أَل) الَّتِي هِيَ هُنَا لِلتَّعْظِيمِ وَالْكِمالِ، وَالإِشْعَارِ بِاسْتِجْمَاعِهِ لِكُلِّ صِفَاتِ الْبَحْرِ الْعَظِيمِ، تَوَاطُؤُهُ لِتَصَوُّرِ حَالَةِ الضُّرِّ الَّتِي قَدْ تَمَسَّ رَاكِبِي الْفُلْكِ الْجَارِي عَلَيْهِ، وَيُضَافُ إِلَى هَذَا الْغَرَضِ دَفْعُ تَصَوُّرِ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي نَهْرٍ مِنَ الْأَنْهَارِ.

فَمَنْ وَضَعَ فِي تَصَوُّرِهِ بَحْراً طامِياً عَظِيماً، وَالْفُلْكَ فِي عُبَابِهِ بَعِيدٌ عَنْ كُلِّ

الشواطئ، استطاع أن يستدعي تصوُّره أحوال هذا الفلك وركابه حينما تتخبطه رياح عاصفة قاصفة على أمواج ثائرة.

وبين الله عز وجل الغرض من إرجائه الفلك في البحر للناس، فقال سبحانه: ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وعمم النص الابتغاء ليشمل كل ما فيه منافع للناس، كالتجارة، والصيد، وجلب الأرزاق، واجتياز المسافات لتحقيق المصالح الحياتية، الدنيوية والدينية.

ولما كان كل ما يمكن أن يحققه الناس من منافع إنما هو من فضل الله على عباده، وكان على الناس أن يدركوا هذه الحقيقة ويؤمنوا بها كان من الحكمة البيانية إبراز هذه الحقيقة في النص، ولو كان المخاطبون غير مؤمنين بها، فقال تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وفي هذا التعبير توجيهٌ ضماني للزوم التقيد بطاعة المُرْجِي المتفضل، والعمل بما يرضيه، أو بما أذن به وأباحه، لا في الفسق والعصيان، والبغي والعُدوان، فالله سخر لكم المسخرات ويُرْجِي لكم الفلك في البحر، لتبتغوا من فضله ما هو في الواقع لكم نفع، لا فيما يعود عليكم بالضرر. ومعاصي الله تعود بالضرر الكبير، ومع ذلك تظل المسخرات على وضعها ولو عصيتم، ليلوكم الله فيما آتاكم.

ويضع النص المتلقين له أمام احتمالين:

الاحتمال الأول: هو احتمال الرحلة الآمنة، وتحقيق المقصود منها، وهنا

تأتي المفاهيم الإيمانية فتقدم نفسها:

- الله هو الذي يُرْجِي لكم الفلك.
- والله هو الذي سخر لكم المسخرات.
- والله هو الذي يحفظكم ويسلمكم.
- وما تحققونه لأنفسكم بأعمالكم من منافع لكم إنما هو من فضل الله عليكم.

● وكلُّ ذَلِكَ من مَظَاهِرِ صِفَةِ رَحْمَتِهِ بكم .

فيأتي ختام الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ بكم رَحِيمًا﴾ تنويجاً لهذه المفاهيم .

والتعبير بفعل (كان) يفيد الوصف المستمر ، لأنَّ الكينونة الأزلية ذات ثباتٍ أَزَلِي ، فهي لا تتحوَّل ولا تتبدَّل ولا تتغيَّر .

الاحتمال الثاني : هو احتمال الإحاطة بالمخاطر والمخاوف والأسباب المؤدِّية إلى الهلاك . وما أكثر ما تحدُّث لركَّاب الفلك في بحرٍ عظيم .

وفي هذه الحالة يمسُّ الضرُّ ركَّاب السفينة ، إذ تنقطع بهم الأسباب ، ويشتدُّ خوفهم من الهلاك ، فلا يجدون ملجأً ، إلَّا الدُّعاء والاتِّجاء لقوى في الغيب وراء المشهود ، ولا يجدون من يُغيِّثهم إذا دَعَوْهُ إلَّا ربُّهم ، الذي يُزجي الفلك ويرحم عباده ، ويُسكِّن الرياح الهوج ، والبحر المتلاطم إذا شاء . والذي يمتحن ويذكِّر وينذر بالمخاوف إذا شاء . والذي يعاقب بالعدل إذا شاء ، فيُهْلِك ويُغْرِق ، ويُحطِّم ويكفِّ السُّفن ، ويفعل ما يشاء ، فقال عزَّ وجلَّ :

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَ﴾ .

﴿مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ : أي : وصل الضرُّ - وهو ما تكرهُون من المؤلِّمات - حدَّ المسِّ ، ولكنَّ لم يصل حدَّ العذاب الأليم المهلك ، أو الإصابة القاتلة ، وفي التعبير بالمسِّ دقَّة في الأداء وانتقاء ما يدلُّ على المعنى المراد من الكلمات .

﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَ﴾ : أي : ضاع عنكم كلُّ من تُوجِّهون له دعاءكم من دون الله ، لأنَّه إنَّ كان يسمِّعكم أحدٌ من جنِّ أو ملائكة ، فهو لا يملك لرفع الضرِّ عنكم شيئاً ، إذنَّ فهو أو غوَّته ضائع عنكم لأنَّه لا يغيثكم بشيء ، وإنَّ كان لا يسمعكم فهو أضيَّع .

والشيءُ الضائع مفقود الذات عند الحاجة إليه ، أو مفقود الأثر والنفع . وكلُّ الشركاء التي يتَّخذها النَّاسُ مِنْ دُونِ الله كذلك ، في فقْدِ الذَّاتِ ، أو فقْدِ الأثر

والتَّفَعُّعُ، حَتَّى الْأَنْظُمَةِ السَّبَبِيَّةِ، هِيَ مَعْدُومَةُ الذَّاتِ، أَوْ مَعْدُومَةُ الْأَثَرِ وَالنَّفْعِ إِذَا شَاءَ اللَّهُ ذَلِكَ.

والتَّعْيِيرُ الشَّامِلُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَخْفَ الْمَعَانِي فَمَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ لَزُومًا هُوَ التَّعْيِيرُ بِالضَّلَالِ، الَّذِي هُوَ الضِّيَاعُ، فَكَانَ اخْتِيَارُ كَلِمَةِ «ضَلَّ» فِي مَتْنِهِ الدَّقَّةَ الْبَيَانِيَّةَ، وَهِيَ مُنْتَقَاةٌ هُنَا بِعَيْنَاةٍ.

وَفِي التَّعْيِيرِ بِعِبَارَةِ: «ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ» تَصْوِيرٌ لِحَالِ الشَّرَكَاءِ، بِأَنَّ كُلَّ شَرِيكٍَ مِمَّا يَزْعُمُهُ الْمُشْرِكُونَ، هُوَ بِمَثَابَةِ الشَّيْءِ الضَّائِعِ الَّذِي لَا يُهْتَدَى لَهُ، أَوْ بِمَثَابَةِ الضَّالِّ الضَّائِعِ السَّائِرِ فِي مَتَاهَةٍ، الَّذِي يَحْتَاجُ مَنْ يُرْشِدُهُ وَيُعِينُهُ حَتَّى يَهْدِيَهُ إِلَى الصِّرَاطِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ هُوَ قَادِرًا عَلَى إِسْعَافِ مَنْ يَنَادِيهِ وَيَسْتَعِيثُ بِهِ.

ثُمَّ لَا يَجِدُ هَؤُلَاءِ الْمُحَاطُونَ بِالْمُهْلِكَاتِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فِي فُلُكِهِمْ إِلَّا أَنْ يَقْطَعُوا الصَّلَةَ بِشُرَكَائِهِمْ، وَيَدْعُوا رَبَّهُمْ مُخْلِصِينَ لَهُ الدُّعَاءَ مُذْرِكِينَ أَنَّهُ لَنْ يُنْقِذَهُمْ مِمَّا فِيهِ غَيْرُهُ.

فَجَاءَ الِاسْتِنَاءُ فِي جُمْلَةِ «ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ».

وَطُوبَى فِي النَّصِّ مَا يَدُلُّ صَرَاحَةً عَلَى أَنَّ رَبَّكُمْ قَدْ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ إِذَا دَعَوْتُمُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدُّعَاءَ، لَا تُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا، فَيُسْكِنُ الرِّيحَ، وَيُسْكِنُ الْبَحْرَ، وَيَدْفَعُ عَنْكُمْ الْمَخَاطِرَ، وَيُنْجِيكُمْ، وَلَكِنْ جَاءَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَقِبَ ذَلِكَ:

«فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ».

وَهَذَا مِنَ الْإِبْجَازِ النَّفِيسِ، الَّذِي يَمْلَأُ الذَّهْنَ فِرَاقَاتِهِ بِسَهُولَةٍ.

وَنَسَاءً: هَلْ يَتَعَدَّى فِعْلُ «نَجَّكُمْ» بِحَرْفِ الْجَرِّ إِلَى؟

وَالْجَوَابُ: أَنَّ فِعْلَ «نَجَّكُمْ» قَدْ يُقَالُ فِي تَعْدِيَتِهِ: نَجَّكُمُ مِنَ الْهَلَاكِ. وَلَكِنْ اسْتَعْنِي عَنْ هَذِهِ التَّعْدِيَةِ، لِأَنَّهَا تُفْهَمُ ذَهْنًا، وَلَوْ لَمْ تُذَكَّرْ، وَضُمَّنَ الْفِعْلُ مَعْنَى فِعْلٍ

(أَوْصَلَكُم) أو فعل (أَبْلَغَكُم) فَعَدَيَّ تعديته، فأغنت التعدية بحرف الجر (إلى) عن ذكر الفعل المحذوف الذي ضُمَّنَ معناه في الفعل المذكور، والتقدير فلما نَجَّاكم من الهلاك وأبلغكم إلى البر.

إنَّ هذا التضمين الَّذِي له نظائر في القرآن كثيرة هو من نفائس الإيجاز البديع فيه، القائم على الإلماح إلى الفعل المحذوف بذكر تعديته، مع مساعدة القرينة الفكرية، ولوازم المعاني في الجملة.

ونتساءل أيضاً: عَمَّاذا أَعْرَضُوا؟ إِنَّ النَّصَّ قد طَوَى جواب هذا السؤال، واكتفى بعبارة:

﴿فَلَمَّا نَجَّاکُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾.

وليس يَضَعُ على أيِّ متدبِّر أن يُدْرِكَ الجواب بسرعة.

إنهم لَمَّا نَجَّاهم رَبُّهم من الهلاك وأوصلهم إلى البرِّ، وأَحْسَوْا بالأمن، وكانوا قد دَعَوْه مخلصين له الدِّين، وعاهدوه على أَنْ يُؤْمِنُوا به وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وَيَكُونُوا له من الشَّاكرين، لَمَّا نَجَّاهم أَعْرَضُوا عن رَبِّهم، وعن كُلِّ مَا قَطَعُوهُ من عَهْدٍ تَجَاهه، وعادوا إلى ما كانوا عليه من قبل.

لَمْ يَتَعَطُّوا بِالتَّوْبَةِ الشَّدِيدَةِ الْمُخِيفَةِ الَّتِي وَضَعَهُمُ اللهُ فِيهَا، بَلْ عَادُوا إِلَى خَلَّتِهِمُ الَّتِي هِيَ دَيْدُنُهُمْ فِي الرِّخَاءِ، وَهِيَ الْجُحُودُ، وَالْإِمْعَانُ فِي الْكُفْرِ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (٧).

إِنَّهَا خَصْلَتُهُ الذَّمِيَّةُ، يَتَضَرَّعُ لِرَبِّه عند الضرورة، وَكَلَّمَا أَعْيَتْهُ الْحِيلُ، وَلَمْ يَجِدْ سَبِيلًا يُنْجِيهِ، فَإِذَا اسْتَجَابَ اللهُ دَعَاةَ، وَأَعْطَاهُ سُؤْلَهُ، كَفَرَ بِرَبِّه، وَأَمَعَنَ فِي غِيَّهِ وَبَغْيِهِ، وَتَمَرَّدَ عَلَى طَاعَتِهِ وَأَحَالَ نَجَاتَهُ وَأَمَّنَّهُ عَلَى ظَوَاهِرِ سَبِيلِهِ صِرْفًا، وَأَنْطَلَقَ فِي سُبُلِ فِسْقِهِ وَعِصْيَانِهِ، وَجُحُودِهِ وَطُغْيَانِهِ.

هذه هي السَّمةُ العامَّةُ لِلْإِنْسَانِ، وَالتِّي تظهر في النسبة العظمى من أفراد هذا

النوع، إِذْ مَنَحَهُ الخالق البارئ المصور الاختيار الحرّ، ولم يجعله مجبوراً في تحركات إرادته وتوجّهاتها.

إنّه كفورٌ، بصيغة المبالغة «فَعُول».

وهنا لا بُدَّ مِنْ مُعَالَجَةِ هَذِهِ الْخَلَّةِ وَالسَّمَةِ الْبَارِزَةِ فِي الْإِنْسَانِ، والتي تظهر في الفئة الكافرة من هذا النوع، بالإقناع والتحذير من مغبة كُفْرِهِ مُحَاصِراً فِي تَرْبِيَتِهِ مِنْ فِكْرِهِ وَنَفْسِهِ.

وَجَمَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ الْإِقْنَاعَ وَالتَّحْذِيرَ مَعاً بِأَسْلُوبِ السُّؤَالِ الَّذِي يَنْتَزِعُ مِنَ الْمُخَاطَبِينَ الْجَوَابَ انْتِزَاعاً تَلَقَّائِيّاً، إِذْ لَا جَوَابَ غَيْرَهُ يَرَاوِغُونَ بِهِ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ خُطَاباً لَهُمْ:

﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ نَارَةٌ أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِصًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كُفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ عَيْنَعًا ﴿٦٩﴾ .

الخسف: أَنْ يَذْهَبَ مَكَانٌ مِنَ الْأَرْضِ سَاقِطاً إِلَى أَعْوَارٍ جَوْفِيَّةٍ فِيهَا.

نَارَةٌ أُخْرَى: مَرَّةٌ أُخْرَى. أَوْ عَابِرَةٌ مِنَ الزَّمَانِ أُخْرَى.

أي:

● أَفَظَنَنْتُمْ أَنَّكُمْ إِذَا وَصَلْتُمْ إِلَى الْبَرِّ أَمِنْتُمْ كُلَّ الْمَخَاطِرِ، وَانْتَهَتْ كُلُّ مُشْكَلَتِكُمْ مَعَ الْمَهْلَكَاتِ الْقَاتِلَاتِ الْمُحِيطَاتِ بِكُمْ؟

● أَفَلَا يَسْتَطِيعُ الرَّبُّ الْخَالِقُ الْبَارِئُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا شَاءَ إِهْلَاكَكُمْ أَنْ يُهْلِكَكُمْ بِسَبَبِ آخَرٍ غَيْرِ الْإِغْرَاقِ فِي الْبَحْرِ، وَهُوَ الَّذِي أَنْجَاكُمْ حِينَمَا تَوَكَّلْتُمْ عَلَيْهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، بَعْدَ أَنْ خَابَتْ كُلُّ وَسَائِلِكُمُ الْمَادِيَّةِ وَالْغَيْبِيَّةِ إِلَّا الْإِلتِجَاءَ إِلَيْهِ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ؟

● أَلَيْسَ مِنْ وَسَائِلِ إِهْلَاكِكُمْ خَسْفَ الْأَرْضِ مِنْ تَحْتِكُمْ، وَتَغْيِيْبِكُمْ فِيهَا،

مُحْطَمِينَ هَلَكُوا مَقْبُورِينَ؟ وهذا أمرٌ هينٌ على بارئكم، وقد فعله لبغاةٌ في الأرض قبلكم.

● أليس من وسائل إهلاككم رَجْمَكُم بِرِيحٍ تَحْمِلُ الْحَصْبَاءَ وَتَقْذِفُهَا عَلَيْكُمْ؟ وقد أهلك ربكم أمماً قبلكم بهذه الوسيلة.

● أليس من وسائل إهلاككم أَنْ يُعِيدَكُم بِوَسِيلَةٍ مَا إِلَى الْبَحْرِ مِنْ خِلَالِ شعوركم بالأمن، ورغبتكم في ركوب البحر لِتَبْتَغُوا منافع لكم بذلك، فإذا جَرَتْ بِكُمْ الْفَلَكُ إِلَى عُبابِهِ، أَرْسَلَ عَلَيْكُمْ رَبُّكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَأَغْرَقَكُمْ بِسَبَبِ كفركم؟

كل هذه الاحتمالات التي تَهْلِكُونَ بها هي وغيرها أمورٌ ممكنة، وهي على ربكم يسيرة، فهو على كل شيء قدير.

فكيف تُعْرِضُونَ عَنْ رَبِّكُمْ بَارِئِكُمْ وَمُصَوِّرِكُمْ، وَتَنْقُضُونَ عُهُودَكُمْ الَّتِي قَدْ مَثُمَوَهَا لَهُ عِنْدَ ادِّعَاءِ الاضطراب، فَرَجَمَكُم وَأَنْجَاكُم، إِذْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَيْهِ حَقَّ التَّوَكُّلِ، وَأَخْلَصْتُمْ الدِّينَ لَهُ؟!

أما وقد أثبت الاختيار أنكم كَفُورُونَ كَنُودُونَ جَحُودُونَ، فإنه إذا أحاطكم بالشَّدائد تارةً أخرى، فَلَا تَطْمَعُوا بِأَنْ يَكُونَ وَكِيلاً لَكُمْ إِذَا دَعَوْتُمُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَتَوَكَّلْتُمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُوَ سُبْحَانَهُ وَكِيلاً لَكُمْ لِعَدَمِ أَهْلِيَّتِكُمْ لِأَنْ يَرْحَمَكُم فَيَتَوَلَّى دَفْعَ الضَّرِّ عَنْكُمْ، وَهُوَ الْقَدِيرُ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ كُلِّ شَيْءٍ، فَلَنْ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً.

وإذا أهلككم ربكم بكفركم، فقد أهلككم بعدلٍ، وَجِينَ يَنْعُثُكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ الْمَطَالِبَةَ بِأَيِّ تَعْوِيزٍ عَنْ إهلاككم، وَلَنْ تَجِدُوا تَبِيعاً يُتَابِعُ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ لِيُنْصِفَكُم مِنْ إهلاككم، إِذْ لَا أَحَدٌ يُتَابِعُ عَلَى الرَّبِّ، وَلَا حَقٌّ لَكُمْ يُتَابِعُ أَحَدٌ لَكُمْ بِهِ، لَوْ اسْتَطَاعَ الْمُتَابِعَةُ.

فالتَّبِيعُ هو الْمُتَابِعُ عَنْ غَيْرِهِ لِتَحْصِيلِ الْحَقُوقِ، وَبِاسْتِطَاعَتِنَا أَنْ نُفَسِّرَهُ بِمُحْصَلِ الْحَقُوقِ، وَهِيَ وَظِيفَةٌ مِنْ وَظَائِفَ مَنْ نُسَمِّيهِمْ مُحَامِينَ.

والْحَقُّ فِي مُحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرِّبَائِيَّةِ يَوْمَ الدِّينِ مَصُونٌ لِلْجَمِيعِ بِأَعْدَلِ مِيزَانٍ وَأَدَقِّهِ، وَيَسْتَطِيعُ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنْ يُطَالِبَ بِهِ، وَلَا يُغْلَبُ إِلَّا الْمَبْطَلُ، فَلَا وَكِيلَ لَهُ وَلَا تَبِيعَ.

ونلاحظ في ختام هاتين الآيتين التكامليتين في الأداء البياني:

● فقد ختم الله الأولى منهما بقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾.

● وختم الثانية منهما بقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾.

وكلٌّ من الآيتين يَصِحُّ مِنَ النَّاحِيَةِ الْفِكْرِيَّةِ أَنْ تَخْتَمَ بِكُلِّ مَنْ هَذَيْنِ الْخَتَامَيْنِ.

ولكنَّ جَمَعَ الْخَتَامَيْنِ فِي كُلِّ مِنْهُمَا، أَوْ تَأْخِيرُهُمَا لِلآيَةِ الثَّانِيَةِ، أَوْ تَقْدِيمُهُمَا لِلآيَةِ الْأُولَى، أُمُورٌ تُضْعَفُ مِنْ فَنِيَّةِ الْأَدَاءِ الْبَيَانِيِّ، فَاخْتِيارُ أَسْلُوبِ التَّوْزِيعِ، وَبِمَا أَنَّ الْعُنَاصِرَ فِي الْآيَتَيْنِ مُتَشَابِهَةٌ فَإِنَّ الْمَتَدَبِّرَ يُدْرِكُ دُونَ إِعْنَاتٍ فِكْرِيَّةٍ، أَنَّهُمْ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ لَا يَجِدُونَ وَكِيلًا يَدْفَعُ عَنْهُمْ الْهَلَاكَ، وَلَا يَجِدُونَ تَبِيعًا يَطَالِبُ لَهُمْ بِالتَّعْوِضِ عَنْهُ، وَهَذَا التَّكَامُلُ الْبَيَانِيُّ هُوَ مِنْ رَوَائِعِ الْأَسَالِيبِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي نَلَاظُهَا فِي نَصُوصٍ كَثِيرَةٍ، وَعَلَى الْمَتَدَبِّرِ لِكِتَابِ اللَّهِ أَنْ يَسْتَحْضِرَهُ فِي تَصَوُّرِهِ دَوَامًا، وَقَدْ سَبَقَ شَرْحُهُ فِي الصُّورَةِ الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ.

ونلاحظ أيضاً أَنَّ إِهْلَاكَ اللَّهِ الْجَمَاعِيَّ لَا يَكُونُ دُونَ تَقْدِيرٍ مُرَادٍ لِحِكْمَةٍ، لِذَلِكَ أَبَانَ اللَّهُ سَبَبَ إِهْلَاكِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ وَجَعَلَ هَذِهِ الْعِبَارَةَ قَبْلَ فِقْرَةِ خَتَامِ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ، لِنَتَسَجَّبَ عَلَى كُلِّ صُورِ الْإِهْلَاكِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي الْآيَتَيْنِ مَعًا.

وَحُذِفَ مِنَ النَّصِّ تَصْوِيرُ مَا يَحْدُثُ لِلْقَوْمِ بِخَسْفِ جَانِبِ الْبَرِّ بِهِمْ، وَمَا يَحْدُثُ لَهُمْ بِإِرْسَالِ الْحَاصِبِ عَلَيْهِمْ، لِنَتَسَكَّمَلَ الْأَذْهَانَ بِأَنْفُسِهَا رَسْمَ الْمَطْوِيِّ فِي النَّصِّ، وَهَذَا مِنَ الْإِبْدَاعِ الْبَيَانِيِّ، وَلِبَيَانِ أَنَّ الْإِهْلَاكَ هُوَ الْخَاتَمَةُ فِي كُلِّ الصُّورِ، ذَكَرَ الْإِغْرَاقَ فِي الصُّورَةِ الْآخِرَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَيَغْرِقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾.

ونلاحظ من الدقة في الأداء البياني ذكر كلمة ﴿جَانِبَ﴾ مضافة إلى ﴿الْبِرِّ﴾ لأنه لو أراد الله إهلاكهم بالخسف في البرِّ لَخَسَفَ الْجَانِبَ الَّذِي هُمْ فِيهِ مِنَ الْبِرِّ، ولم يخسف البرَّ كله، بمقتضى سنته في الخسوف، وسنته في العقاب.

بعد هذا البيان لواقع حال الإنسان الكفور، ذَكَرَ الله امتنانه على بني آدم بالتكريم والإنعام، ليستثير فيهم الشعور بواجب شكر المنعم الَّذِي كَرَّمَهُمْ، وكان من الممكن أَنْ لَا يَكْرُمَهُمْ، وَلَا يَمُدَّهُمْ بوافر نعمه، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧).

إنها أمور أربعة:

الأمر الأول: تكريم الله لبني آدم، وقد جاء مؤكِّداً بمؤكِّدين في ﴿لَقَدْ﴾. ويمكن أَنْ نَسْتَدِلَّ عَلَى مَضْمُونِ هَذَا التَّكْرِيمِ، مِمَّا حَكَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ مَقَالِ إِبْلِيسَ لِرَبِّهِ بِشَأْنِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قُبِيلَ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي نَتَدَبَّرُهَا مِنْ سُورَةِ (الإسراء/١٧):

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٦).

ونحن نَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي أَغْضَبَ إِبْلِيسَ إِنَّمَا هُوَ الْأَمْرُ بِالسُّجُودِ لَهُ، تَكْرِيمًا لِشَرَفِ الْعِلْمِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ لآدَمَ. وَمَا كَانَ لآدَمَ أَبِي الْبَشَرِ، يَنْسَحِبُ عَلَى النَّوْعِ كُلِّهِ، لِأَنَّهُمْ ذُرِّيَّتُهُ، وَهُمْ جَمِيعًا سُلَالَةٌ مِنْهُ، مِنْ مُسْتَقَرٍّ كَانَ فِيهِ، أَمَّا أَرْحَامُ الْأُمَّهَاتِ فَمُسْتَوْدِعٌ، وَهِنَّ مِنْهُ أَيْضًا.

وَجَقْدًا عَلَى هَذَا التَّكْرِيمِ تَصَدَّى إِبْلِيسَ لَامْتِطَاءٍ ظُهُورِ بَنِي آدَمَ وَالتَّحَكُّمِ بِاللُّجْمِ فِي أَحْنَاكِهِمْ، أَوْ سَوْقِهِمْ مِنْ أَحْنَاكِهِمْ بِاللُّجْمِ، إِلَى جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِهِمْ، كَمَا تُشَدُّ الدُّوَابُّ مِنْ أَحْنَاكِهَا، وَتَعْبِيرًا عَنْ غِيظِهِ، وَجَرِّصِهِ الشَّدِيدِ عَلَى إِهَانَةِ هَذَا النَّوْعِ

الذي كرمه الله عليه، أعلن استعداداه أن يتخذَ كُلَّ حيله الذكيَّة ليُثبِتَ أنَّ هذا النوع الإنساني ليس أرفع شأنًا من الدوابِّ التي تقادُ باللُّجَم من أحنائها فهو نوع لا يستحقُّ التكريم، فقال إبليس عليه اللعنة، مخاطباً ربَّه عزَّ وجلَّ:

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٢).

وهذَّب القرآن عبارة إبليس وأغمضها محافظةً على كرامة بني آدم، فاكتفى بإشارة الاحتناك ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ أي لأُسوقَنَّ من الحنك، وهذا يكون باللُّجَم للدوابِّ، بغية تذلِيلها وسوقها إلى ما يبتغي قوادها.

أي: أنت يا رب قد كرمته عليَّ، فلأجعلَنَّ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ بحيلي الذكيَّة قطعاناً مُهانَةً، كقطعان الدوابِّ، تُساقُ مِنْ أهوائها وشهواتها إلى شقائها في جهنم.

أليس الاكتفاء بكلمة ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ عَنْ هذه المعاني التي تستدعيها اللوازم الذهنية، من اللَّمَحِ الأدبي البديع.

الأمر الثاني: حَمَلُ الله بني آدم في البرِّ والبحر، ويُضَاف إليهما الجوَّ أخذاً من قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يس / ٣٦ مصحف / ٤١ نزول):

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (٤٢).

أي: من مثل الفُلك، وأَقْرَبُ مَا يَنْطَبِقُ عليه المراكب الجوية.

وقوله في سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨).

الأمر الثالث: رَزَقُهُمْ من الطيبات، وليس في المخلوقات التي نعلمها ما يَسْتَمْتَعُ بكلِّ الطيبات المختلفات مثل بني آدم، والأرض تفيض بها بوفرة، لمن طلبها من أبوابها، وبوسائلها.

الأمر الرابع: تَفْضِيلُهُمْ على كثيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ الله تفضيلاً كثيراً، وتفضيلُ

بني آدم على كثير من مخلوقات الله أمرٌ ظاهر، وبيان أنواع هذا التفضيل يحتاج إلى سبر، ونلاحظ منه كون الإنسان مخلوقاً في أحسن تقويم جسدي ونفسي.

بهذا التحليل نلاحظ أن هذا النص الذي تدبرناه على قدرنا من سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول) قد عرض نعمة عامة من سمات أهل الكفر، تظهر بتكرار كلما تعرضوا في حياتهم لمخاطر تقطعت معها كل أسبابهم، ولم يجدوا لهم ملجأ إلا أن يدعوا الله مخلصين له الدعاء، متضرعين له أن ينجيهم، فإذا نجّاهم وأوصلهم إلى البرّ الآمن، استجابة لدعائهم أعرضوا، وعادوا إلى ما كانوا عليه.

هذا هو دأب الإنسان الذي لا يريد أن يلتزم بمقتضيات الإيمان، إنه إنسان كفور.



ثم إن هذا الوصف العام للإنسان في مجموعته، لا في جميع أفرادها، قد اقتضى تقديم شاهد من حكايات الواقع، في نماذج متكررة، فأنزل الله عز وجل عقب سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول) سورة (يونس / ١٠ مصحف / ٥١ نزول) وفيها قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَ تَهَارٍ بِحُ عَاصِفٌ وَمِجَاءٌ لَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَاهُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأَيَّاهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قالوا: هذا النص فيه التفات من ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾ بأسلوب المواجهة بالخطاب، إلى أسلوب الحديث عنهم بالغائب في ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ إلى آخر النص.

وأقول: إن سياق الخطاب موجّه للذين يَمْكُرُونَ في آيات الله، والمخاطبُونَ

عند نُزُولِ النَّصِّ قَدْ لَا يَكُونُونَ قَدْ رَكَبُوا الْفُلْكَ وَتَعَرَّضُوا لِمِثْلِ مَا وَصَفَ النَّصُّ بَعْدَ ذَلِكَ.

لَكِنَّهُمْ لَوْ تَعَرَّضُوا لِمِثْلِهِ لَكَانَ حَالُهُمْ مِثْلَ حَالِ مَنْ وَصَفَ اللَّهُ فِي النَّصِّ، فَأَهْلُ الْكُفْرِ أَشْبَاهُ فِي تَصَرُّفَاتِهِمْ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْفِطْرَةَ تَلْجِئُهُمْ إِلَى اللَّهِ عِنْدَ الْاضْطِرَارِّ وَشِدَّةِ الْخَوْفِ، ثُمَّ إِنَّ عَوَامِلَ كُفْرِهِمْ كَالْكِبَرِ وَرَغْبَاتِ الْفُجُورِ وَدَوَافِعِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَالتَّعَلُّقِ بِالْعَاجِلَةِ. أُمُورٌ تَرُدُّهُمْ بَعْدَ الشُّعُورِ بِالْأَمْنِ وَالْإِطْمِئْنَانِ، وَالتَّقَلُّبِ فِي النِّعْمَةِ وَالرِّخَاءِ، إِلَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ بَغْيٍ قَبْلَ ذَلِكَ.

فَاقْتَضَى تَشْبِيهُ حَالِهِمْ بِحَالِ أَمْثَالِهِمُ السَّابِقِينَ لَهُمْ، أَنْ تُقَدَّمَ لَهُمْ صُورَةُ لَوْحَةٍ مُتَكَرِّرَةٍ فِي تَارِيخِ النَّاسِ، مُتَنَزِّعَةٍ مِنْ وَاقِعِ الْكَافِرِينَ السَّابِقِينَ. فَتَوْقَّفَ النَّصُّ عِنْدَ الْفَقْرَةِ الْأُولَى الْمُتَعَلِّقَةِ بِشَأْنِ الْمُخَاطَبِينَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَهِيَ:

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾.

أَي: هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ دَوَامًا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِنْذُ نَشَأْتُمْ حَتَّى وَقْتُ رُكُوبِكُمْ فِي الْفُلْكِ، وَإِرَادَتِهِ إِحَاطَتُكُمْ بِالْمَخَافِ وَالْمِهَالِكِ. وَانْتَقَلَ النَّصُّ مُبَاشَرَةً إِلَى تَصْوِيرِ مَشْهَدٍ مُتَكَرِّرٍ لِأَقْوَامِ كَافِرِينَ، رَكَبُوا سُفُنَهُمْ، وَجَرَيْنَ بِهِمْ فِي الْبَحْرِ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ.

وَنَلَاظِ هُنَا أَنَّ النَّصَّ قَدْ اسْتُعْمِلَ فِيهِ الْفِعْلُ الْمَاضِي، وَالْفَاعِلُ ضَمِيرُ جَمْعٍ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ النَّصَّ يَقْدَمُ مَشْهَدٌ أَحْدَاثٍ مَضَتْ لَجَمَاعَاتٍ رَكَبُوا فِي سُفُنِهِمْ، وَقَدْ جُمِعَتِ الْأَحْدَاثُ فِي مَشْهَدٍ وَاحِدٍ لِلتَّطَابُقِ الْوَاقِعِ بَيْنَهَا، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾.

وَكَتَفَى النَّصُّ بِالْمَقْدَمَةِ الَّتِي وُجِّهَتْ لِلْمُخَاطَبِينَ عَنْ ذِكْرِ نَظِيرِهَا مِمَّا يَخْصُ الْمُتَحَدِّثُ عَنْهُمْ بِالْغَيْبَةِ.

وجاء البناء على الشرط في ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ مع أنها خاصة بالمخاطبين الذين هم أمثال من يحكي المشهد المعروض حالهم، على اعتبار أن هؤلاء المخاطبين يطابق حالهم حال أصحاب المشهد المعروض، بمقتضى التشابه التام في الصفات النفسية والظواهر السلوكية.

فكأن النص يقول للمخاطبين: حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ كان حالكم مثل حال أمثال لكم سَلَفُوا، ركبوا في الْفُلْكِ، أي: في سُفُن، وَجَرَيْنَ بهم بريح طيبة، وهكذا إلى آخر القصة المعروضة في النص.

وهذا من أساليب القرآن البديعة، التي نلاحظها في الأمثال والتشبيهات القرآنية، إذ تُبنى النتائج على الممثل به كأنه عين الممثل له، وقد أوضحت هذا بالأمثلة من القرآن في قِسم «الأمثال القرآنية».

ونظيره أن يُبنى الكلام على المشبه كأنه عَيْنُ المشبه به، والنص الذي تندبره من هذا القبيل.

وما على المتفكرين إلا أن يَتَأَمَّلُوا في بدائع القرآن وعجائبه التي لا تفنى وأن يتدبروا آياته، غير مقيدین بأساليب الناس في التعبير، ولا مشدودين إليها، لئلا يَلُؤُوا أعناق النصوص القرآنية، فيفهموها على غير المراد منها.

أليس بناء الكلام على المشبه كأنه عين المشبه به، وبناء الكلام على الممثل به كأنه عَيْنُ الممثل له، أداءً منطقيًا مفهوم الدلالة، ويستخدمه أحياناً بعض الكبار الذين يُخاطبون الناس مِنْ علو، وبعض الأدباء الذين يعتمدون على ذكاء المخاطب، فيبدأ أحدهم الكلام بالتوجيه لأمر ما، ثم يقطعه عند مقدمته، ويبني عليه قصة يحكيها يفهم منها المخاطب التوجيه الَّذِي كان يريد محدثه أن يوجهه له، دون أن يقول له بصريح العبارة: وحالك مثل حال من ذَكَرْتُ لك قصته، إلا أن يكون المخاطب شديد الغباء.

لا شك أن هذا الأسلوب الأدبي من الفنون البديعة، التي تعتمد على

الحذف والإيصال، للإيجاز في التعبير، ولإمتاع أهل النباهة والحصافة والذكاء، إنه فنٌ إبداعِيٌّ يُقدِّمه التصوير البياني بالكلمة اللَّمحيَّة البارة، غير فنِّ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة. إنه من الصُّور الأدبية الرفيعة حقًّا.

أما قصَّة الذين وصف النصُّ حالهم، فهم جماعات من الكافرين الأولين ركبوا في سُفُنهم، في أحوال متشابهة، تنتظمها حكاية واحدة، وجرت بهم سُفُنهم بريح طيبة عبْر العُباب، فدلَّ هذا على أنَّ البحر ساكن هادئ، وأنَّ الريح رفيقة ناعمة، نقيَّة من الشوائب، ومن الروائح المؤذية، تمدُّ بالأنفاس المنعشة، فهي تُجري السُّفن الشراعية برفق ولطف. وهذه العوامل الملائمة لما يسرُّ تجعل الذين على ظهورها يستمتعون بكل أنواع المتع التي يملكون الاستمتاع بها في سُفُنهم، طعاماً وشراباً وغناءً ولهواً ولعباً، حتى وصلوا إلى مستوى الفرح بما هم فيه، ورُبَّما دفعَهُم فرطُ الفرح إلى البطر، كما هو شأن الإنسان وديَّدته، دَلَّ على هذه الأمور قول الله تعالى :

﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾.

وأكثر ما جاء الفرح في القرآن هو من نوع الفرح المذموم الذي هو سرور مقرون بالمرح والبطر وكفر النعمة، وهذا هو المراد هنا فيما يظهر، لأنَّ المتحدث عنهم كافرون، والبطر وكفر النعمة دَيَّدَتُهُم.

والفرح فقرة القمَّة السارة من الرِّحلة، عندئذ:

﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، يقال: ريح عاصِفٌ، وريح عاصفة.

أي: جاءت سُفُنُهُم هذه الرِّيحُ العاصفة التي تَضْرِبُ وجه البحر، وتَخِيطُ أمواجه، وتحرك السُّفن في كلِّ اتِّجاءٍ بشكلٍ رهيب، صعوداً وهبوطاً، وميلاناً، وتقاذفاً ذات اليمن وذات الشمال.

﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾:

أي: وجاءَهُمُ الموجُ العظيم من كلِّ مَكَانٍ مُحِيطٍ بِهِمْ، عن أيماهم، وعن

شمائلهم ومن أمامهم ومن خلفهم ومن تحتهم ، وشظايا من الأمواج تتقاذف عليهم من فوقهم .

صورة مرعبة جداً ، لقد فاجأتهم المهلكات المخيفات من كل مكان حولهم .

﴿وَضَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ :

أي : وضنوا ظناً غالباً قاربَ درجةَ اليقين أنهم أحيط بهم بالقوات والمهلكات ، فلا مخرج لهم منها بأي سبب من الأسباب .

وهذا لا يكون عادةً إلا بعد اتخاذهم كل ما يملكون من وسيلة وحيلة ، فلم تغنيهم شيئاً .

فدَلَّ بلوغهم إلى هذا الظن على أنهم قد اتخذوا قبل وصولهم إليه كل وسائلهم وحيلهم ، فما دفعت عنهم شيئاً من المخاطر الآتية بالمهلكات من محيط الدائرة حولهم .

فحصل الاكتفاء بعبارة ﴿وَضَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ عن التصريح بالأعمال التي قاموا بها قبله ، اعتماداً على أن فكر المتدبر يُدركها متى تابع لوازم الأفكار ، ومقتضياتها ، وهذا من الأدب الرفيع في الكلام ، الذي يعرفه ويمارسه كبار الأدباء ، والعلماء من البلغاء ، وله مستويات متفاوتات ، يرتقي على سُلّمها كل أديب وكل بليغ بمقدار ما يملك من إبداع .

وَإِذْ ظَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامُ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ بِالْمَهْلَكَاتِ :

﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ .

أي : دَعَوْا الله ربَّهم ، مُخلصين له الدِّعاء الذي هو لبُّ الدِّين ومخُّ العبادة ، والمراد من الإخلاص هنا إخلاصهم دعاءهم من كل شوائب الشُّرك ، فهم في دعائهم لا يدعون مع الله أحداً ، معتقدين مؤمنين بأن أحداً غير الله لا يملك لهم نفعاً ولا ضرراً .

فماذا قالوا في دعائهم؟

لا شك أنهم سألوا ربهم أن يُنجيهم، وانطلق كل واحد منهم على سجيته، أو جعلوا يرددون ما يقوله بعض من يُحسِنون الدعاء، ولم يذكر النص معظم عباراتهم ومطالبهم في الدعاء، لكن أبان من أقوالهم قولاً واحداً فقط، تضمّن عهداً قطعوه على أنفسهم تُجاه ربهم، فقال تعالى حكايةً لقولهم الذي قطعوا فيه هذا العهد على أنفسهم:

﴿لَئِنْ أُنْجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٢٢)

أي: يا ربنا نُقسم لك، (أقسموا بما يرضاه من قسم، مثل: وعزتك وجلالك وقدرتك على كل شيء) لئن أنجيتنا من هذه (= الورطة - المصيبة - الكارثة - البلية)، لنكونن من الشاكرين، أي: من المؤمنين المطيعين الحامدين الشاكرين.

فدل النص بالشكر على ما هو شرط له، وما هو مرتبة سابقة له، فالشكر لله الذي هو تقديم مُقابل عملي لنعم الله على عباده، من شرطه الإيمان الصحيح الخالص، وإعلان الطاعة، وطبعي أن يكون أيضاً مسبوقاً بالحمد والثناء، لأنه أسهل من الشكر وأخف على النفوس.

وهنا نستخرج مطوياً في النص دلّ عليه مذكور بعده، وهذا المطوي هو: واستجاب الله دعاءهم. أي: رحمة بهم، ولتقدّم لهم البرهان التجريبي على وجوده ورحمته وقدرته، واستجابته دعاء المضطّر إذا دعاه مخلصاً له الدين.

﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ﴾

هذه العبارة هي التي دلّت على المطوي السابق. واكتفى النص بها أيضاً عن بيان الأسباب التي أنجاهم بها، وعن بيان وصولهم إلى مآمنهم بجانب البر، ليترك ليفكر المُتدبّر استكمال رسم الصورة.

ونلاحظ التنويع في أسلوب التعبير، وفي الحذف والذكر بين النص الذي من سورة (الإسراء/١٧) وهذا النص الذي من سورة (يونس/١٠).

● ففي (الإسراء) قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ﴾ ، فجاء بفعل (نَجَّى) وذَكَرَ مكان الوصول .

● وفي (يونس) قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهُمْ ﴾ ، فجاء بفعل «أَتَجَى» ولم يذكر مكان الوصول .

وبعد بيان أنه عَزَّ وَجَلَّ أنجاهم ، أبان أنهم فاجئوا بنقض عهودهم التي كانوا قد قطعوها على أنفسهم تجاه ربهم فقال تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَتَاهُمْ إِذَا هُمُ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ :
الْبَغْيُ : هو في أصل الوضع اللغوي مجاوزة الحد . ويقال لغة : بَغَى عَلَيْهِ يَبْغِي ، إذا علا عليه وظلمه . وَالْبَغْيُ التعدي والظلم . ومن معاني البغي مطلق العلو .

ولما كان هذا الأخير من معاني البغي ، حَسُنَ أن يُقَيَّدَ البغي في النصِّ بقيد ﴿بغیر الحقِّ﴾ لإخراج العلو الذي يكون بالحقِّ ، ولتحديد معنى البغي المذموم الذي يستحق فاعلوه التَّشْرِيبَ أو المؤاخذه ، بأن يكون بغياً بغير الحقِّ الواضح البين ، إذ قَدْ يكون البغي مستنداً إلى شُبْهَةٍ ، أو خطأ في الاجتهاد ، فلا يدخل في عموم هذا البغي المذموم .

وبعد أن تمَّ عرضُ مشهدِ توبة الكافرين البغاة عند إحاطتهم بالشدائد القاتل ، وخُضُوعهم لله ، والتجائهم إليه بالدعاء الخالص من شوائب الشرك ، ثُمَّ رُجُوعهم — بعد نجاتهم ووصولهم لأمْنهم — إلى ما كانوا عليه من بغي ، خاطب الله عُمُومَ الناس الذين يتصفون بمثل هذه الصفات بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

هذه آيةٌ بينة من فقرات تتعاون أضواء دلالاتها ولَوَازِمُ أفكارها ، ومفاهيم ما سَبَقَ مِنْ تَنْزِيلٍ على إبراز المطويات في كُلِّ منها .

﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ : أي : ما بغيكم على من تظلمونهم في الحياة الدنيا إلا واقع على أنفسكم ، ومنقلب عليكم ، يوم تُرْجَعُونَ إلى باريكم يوم الدين ، ليحاسبكم ويعاقبكم .

﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ : أي : قد تَمَتَّعُونَ بِبَغْيِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا النَّكَدِ الْمُنْغَصَّ سَرِيعَ الزَّوَالِ ، إِذْ تُمَكَّنُونَ فِيهَا - بِمَقْتَضَى سُنَّةِ اللَّهِ فِيهَا بِاعْتِبَارِهَا حَيَاةَ ابْتِلَاءٍ - مِنْ اسْتِمَارِ بَغْيِكُمْ ، لِتَحْقِيقِ بَعْضِ مَطَالِبِ أَهْوَائِكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ .

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ :

أي : وَسَتَمُرُّونَ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ إِلَى غَايَتِهَا ، وَسَتَنْقُضِي آجَالَكُمْ وَتَمُوتُونَ ، ثُمَّ يَكُونُ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ حِينَ تُبْعَثُونَ ، فَنَحَاسِبُكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمُ الَّتِي عَمَلْتُمُوهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ : أي : وَلَدَى مُحَاسِبَتِكُمْ نُبُّؤُكُمْ بِكُلِّ مَا كُنتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا تَعْمَلُونَهُ ، إِذْ كُنتُمْ فِي الدُّنْيَا مُرَاقَبِينَ مُرَاقَبَةً تَامَةً مُقْتَرَنَةً بِتَسْجِيلِ كُلِّ مَا يَصْدُرُ عَنْكُمْ مِنْ أَعْمَالٍ إِرَادِيَةٍ . فَرَبُّكُمْ لَكُمْ بِالْمُرْصَادِ ، وَبَعْدَ الْحِسَابِ يَكُونُ الْحُكْمُ بِالْإِدَانَةِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَكُونُ تَنْفِيزُ الْعِقَابِ ، فَيَقَعُ الْعِقَابُ عَلَيْكُمْ ، أَمَّا مَنْ بَغِيْتُمْ عَلَيْهِمْ فِي الْحَيَاةِ فَيَعْوِضُونَ عَنْهُمَا نَزْلَ فِيهِمْ مِنْ آلَامٍ بِسَبَبِكُمْ ، فَيُحْمَدُونَ اللَّهَ عَلَى عَدْلِهِ وَفَضْلِهِ .

عندئذٍ يظهر أن بغيكم الذي بغيتموه في الحياة الدنيا إنما كان على أنفسكم .

ألسنا نلاحظ أن النصَّ قد اكتفى للدلالة على كلِّ هذه المعاني التي استنبطناها بالتدبر ، بذكر عبارات متنتقيات تدلُّ بأصواتها وإشعاعاتها ولوازمها الفكرية وقرائن المعلومات السابق بيانها في نجوم التنزيل على ما بيننا وما في خلالها وما قبلها وما بعدها ، من مطويات ، وهذا من روائع الأداء البياني .

جمل متنتقيات بعناية غاية في الإتقان ، تكوّن منها عقدٌ موضوع كامل :

١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ : نداء لمن حالهم مثل حال من حكى النصُّ قصتهم .

٢ - ﴿إِنَّمَا بِغِيكُم عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ : جملة تدلُّ بمفهومها على أن عدل الله سيلاحقهم بالعقاب جزاء بغيهم .

٣ - ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ : جملة تدلُّ على أن غاية ما يستثمرونه من بغيهم أن يتمتعوا متاع الحياة الدنيا، والمتاع يطلق على كل مرغوب محبوب زائل لا دوام له، أما النعيم فهو المحبوب المسعد الباقي .

٤ - ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ : جملة تدلُّ على البعث ليوم الدين، وتدلُّ بإشارتها على ما يجري في ذلك اليوم من حساب وجزاء .

٥ - ﴿فَتَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ : جملة تدلُّ على أن كل عمل يعملونه في الحياة الدنيا نفسي أو جسديّ مدوّن مسجلّ عليهم، وينبؤون به يوم الدين، ويجري حسابهم على وفقه .

ما أجلُّ هذا الكلام وأعلاه وأبدعه وبلاغه وأدباً رفيعاً!!

هذه هي النصوص الثلاثة المتعلقة بالكافرين الجاحدين حول هذا الموضوع .
وبقي من هذا الموضوع نصّان يتعلّقان بالمؤمنين أنزلهما الله عزّ وجلّ بعدها، وفي الأوّل منهما تذييل يتعلّق بالجاحدين الكافرين الغدارين، إشارة إلى ما سبق بيانه في النصوص الثلاثة المتعلقة بالكافرين، والسابقة نزولاً .



● فالنصّ الأوّل منهما وهو الرابع في جملة الموضوع، هو قول الله عزّ وجلّ
في سورة (لقمان / ٣١ مصحف / ٥٧ نزول) :

﴿الَّذِينَ تَرَوْنَ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْعَمَتِ اللَّهُ لِرَبِّكُمْ مِنْ ءَايَتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ
إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ .

الباحث المتدبر لكتاب الله بحسب ترتيب النزول يتساءل: لقد عرفنا في
النصوص الثلاثة السابقة حال الكافرين، فما هو حال أهل الإيمان إذا ركبوا البحر،

وما هو حالهم إِذَا تَعَرَّضُوا لِمِثْلِ المخاطر المهلكة التي وُصِفَتْ فِي النصوص السابقة، أَوَلَمَّا دُونَهَا شِدَّةٌ وَإِثَارَةٌ لِلْمَخَافِ؟

وقد جاء جواب هذا التساؤل في هذا النص من سورة (لقمان).

● فبدأ النص بأسلوب الخطاب الإفرادي ليتناول كلَّ مُؤْمِنٍ بِرَبِّهِ، وليشعر كلُّ مُؤْمِنٍ أَنَّ اللَّهَ يَخَاطِبُهُ عَلَى انْفِرَادٍ، مَعْتَنِيًّا وَمُحْتَفِيًّا بِهِ، وهذا من بدائع الخطابات العامة، فقال عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ؟﴾

فماذا يجيب المخاطبُ المؤمن؟

إنَّه يجيب حتماً بقوله: بلى لقد رأيت.

● ونلاحظ أَنَّ اللَّهَ عز وجل قد ذكر في هذا النص أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بنعمة الله، أمَّا النصوص السابقة الخاصة بالكافرين فقد ذُكِرَ فِي بعضها من صفات الله صفة الرحمة.

ونتأمل في سبب هذا فيدولنا أَنَّ عدم ذكر النعمة في النصوص السابقة التي تحدَّثَتْ عَنْ أحوال الكافرين، سَبَبُهُ أَنَّهُمْ فِي حالة رَخَائِهِمْ لَا يَشْعُرُونَ بنعمة الله عليهم، لكنَّهُمْ فِي حالة الضرورات الملجئة يشعرون بأنَّهُمْ إِذَا استغاثوا بِرَبِّهِمْ رَجِمَهُمْ فَأَنْجَاهُمْ. أمَّا المؤمنون فإنَّهُمْ يَشْعُرُونَ بنعمة الله عليهم، وَحِينَ يَغْفُلُونَ يَكْفِيهِمْ لِإِيقَاضِ هَذَا الشُّعُورِ فِيهِمْ مُذَكَّرٌ يذكِّرُهُمْ بنعمة الله، فجاء التذكير بهذا الاستفتاح:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ؟﴾

فمن نعمة اللَّهِ على عباده تَسْخِيرُ الْبَحْرِ، وَتَسْخِيرُ الْفُلْكَ، وَتَسْخِيرُ قَوَانِينِ الطَّبِيعَةِ، وَإِرْسَالُ الرِّيحِ رُخَاءً، وَإِزْجَاءُ السُّفُنِ بِهَا، إِلَى غير ذلك من مَسْخَرَاتِ هِيَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى عباده.

ومع كون هذه الْمَسْخَرَاتِ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى عباده في الحياة الدنيا، وَذَاتَ

وظائف حياتية للناس، هي ذات وظيفة أخرى تتعلق بقضية الإيمان بالله عز وجل، والتفكير في صفاته التي تدل عليها هذه المسخرات، باعتبارها من آيات الله في كونه، فقال الله عز وجل مبيناً هذه الوظيفة الإيمانية الدينية: ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾.

وهنا نلاحظ أنه بعد استخدام أسلوب الخطاب الإفرادي، في قوله تعالى في فاتحة النص: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قال تعالى عقبها: ﴿لِنُرِيَكُمْ﴾ فدل هذا على أن الخطاب الإفرادي احتفاءً من الله بكل مؤمن، لكن تسخير الفلك نعمة عامة في وظيفتها الحياتية، وآية عامة في وظيفتها الإيمانية الدينية.

هذه الدقة في الأداء للدلالة على المقاصد، مع مطابقة الحق هي من روائع البيان.

ومن الدقة أيضاً قوله تعالى: ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ إذ آيات الله كثيرة جداً، لا يستطيع الناس إحصاءها، وهذه منها.

لكن من الذي ينتفع من هذه الآيات انتفاعاً من مستوى مرتبة الانتفاع العليا؟ ويأتي البيان ليدل على أنه كل صبار شكور.

أي: إن المؤمن بعد تعميق إيمانه، والاستزادة من المعرفة بربه، وجليل صفاته، يتجه للتعبير عن مشاعره الإيمانية بأنواع كثيرة من السلوك النفسي والظاهر، فهو يحمّد الله، ويعبّده بطاعته في كل صغير وكبير من تصرفاته، ويتحمّل التكليف الشاق، والمصائب المؤلمة بصبر عظيم. إذن فالمُنتفع من هذه الآيات من مستوى مرتبة الانتفاع العليا هو من كان كثير الصبر، كثير الشكر، أي: هو الصبار الشكور، فقال الله عز وجل في بيان ذلك:

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣١)

فهم في حالة الرخاء والتقلب في أيادي الله ونعمه صبارون على مشقات الطاعة، في فعل ما يرضيه، واجتناب ما يكره من أعمال، وفي تحمّل ما يتلهم به من مصائب، وهم شكورون لينعم الله عليهم بما يملكون من قدرة على الشكر.

هذا هو شأنهم في الأحوال العادية، فكيف يكونون إذا تعرّضوا للمخاطر؟
يقول البيان القرآني :

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ :

أي : إنهم لا ينتظرون حتى تنقطع بهم الأسباب، ويظنّوا أنهم قد أحيط بهم من كل جانب، بل يلجؤون إلى الله بالدعاء، مخلصين له الدين لا يشركون به أحداً، بمجرد أن يغشاهم موج ما من جهة ما كالظلل .

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ﴾ : أي : إذا أتاهاهم، والغشيان يدل على أنه إتيان رفيق لطيف لا عنف فيه، ولا ثقل له .

فالغشاء جلد رفيق، والتغشي استعلاء مجلّ رفيق .

وتشبيه الموج بالظلل في : ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ يدل على أنه مشهود من بعيد، كما تشهد السحابات التي تظل وهي بعيدة، فلم يقترب هذا الموج بعد من فلكهم .

أي : فمع أنهم لم يصلوا بعد إلى مرحلة الذعر، واليأس مما يستطيعون اتخاذه من أسباب، فإنهم يدعون الله مخلصين له الدين، أن يصرف عنهم المهلكات، وأن ينجيهم، وفي معظم الأحوال :
يَسْتَجِيبُ اللَّهُ دَعَاءَهُمْ، فَيُنْجِيهِمْ .

ولكن، فماذا يكون حالهم بعد نجاتهم؟

ويأتي الجواب الربّاني الوجيه بأن حالهم يكون مختلفاً بحسب أصناف المؤمنين، ومراتبهم، ودرجاتهم في كل مرتبة .

وجاء الرّمز إلى ذلك بقول الله عز وجل :

﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ :

الْمُقْتَصِدُ: هو المتقي للعقاب، وهو الذي يُؤدّي الواجبات، ويجتنب المحرمات.

إنّ قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ أي: بعضهم مقتصد، يدلّ على أنّ بعضاً آخر منهم غير مقتصد.

وبتتبع احتمالات الأقسام في التقسيم العقلي نذكر أنّ فوق المقتصد قسماً يتوسّع فوق الواجبات من فعل الخيرات والقربات، ويتورّع عن ارتكاب غير المحرمات شرعاً مما هو دونها مما يحسن تركه. ونذكر أنّ تحت المقتصد قسماً يظلم نفسه بارتكاب بعض المحرمات وترك بعض الواجبات، دون أنّ يصلّ به الحال إلى الشرك بالله، والارتداد عن الدين.

أفلا نستطيع بعد هذا أنّ نفهم أنّ قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ يدلّ بإشارة اللفظ، وبالسبب الذهني، على أنّ المقصود بيان هذه الأقسام الثلاثة؟

لا سيّما حينما يلاحظ المتدبّر لكلام الله، ما أنزل الله قبل هذا النصّ، في سورة (فاطر / ٣٥ مصحف / ٤٣ نزول) من تقسيم للمصطفين من عباد الله، إذ يقول تعالى فيها:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ ﴿٢٢﴾

فذكر الله الأقسام الثلاثة في هذه الآية بدءاً بالقسم الأدنى، فالقسم الأوسط، فالقسم الأعلى.

أمّا في نصّ سورة (لقمان) فقد أشار بذكر القسم الأوسط، إلى القسمين الأقصىين الأعلى والأدنى.

ما أبدع هذا البيان لمن أحسن تدبّره.

ولتأكيد أن المؤمنين تكون أحوالهم ضمن أصنافهم الثلاثة، ولا يصل واحد منهم إلى دركة الجحود، قال الله عز وجل في خاتمة النص:

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ (٣٢).

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾: أي: وما يُنكر دلالة آياتنا. الجُحود هو إنكار الشيء مع العلم به.

﴿خَتَّارٍ﴾: أي: خَدَاعٌ وغَدَار.

﴿كَفُورٍ﴾: أي: مُمِيعٌ مسرف مبالغ في كفره وستره لدلائل الحق.

وبهذا انتهى النص.



● والنص الثاني من النصوص الخاصة بالمؤمنين، وهو النص الخامس في جملة الموضوع، هو نصٌ تَضَمَّنَ تَوْجِيهاً دِينِيّاً للمؤمنين يتعلّق بحالة رُكُوبِهِمْ على ظهور الفُلك والأنعام، وهو ما أنزله الله عز وجل في سورة (الزخرف) / ٤٣ مصحف / ٦٣ (نزل) وهو آخر ما نزل من قرآن حول هذا الموضوع، وهو قوله تعالى:

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٣) لِنَسْتَوِيَ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ (١٤).

﴿خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾: أي: خَلَقَ الْأَصْنَافَ كُلَّهَا مما تَعْلَمُونَ ومما لا تعلمون.

﴿لِنَسْتَوِيَ عَلَى ظُهُورِهِ﴾: في هذا مَعْنَى التَّوْجِيهِ لِاتِّقَانِ الرُّكُوبِ، فالاستواء على المركوب أَحْسَنُ طَرِيقَةٍ مُتَقَنَةٍ للرُّكُوبِ، ولِلانْتِفَاعِ الْأَتَمِّ بِالْمُسَخَّرِ.

﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾: أي: وما كُنَّا لَهُ مُطِيقِينَ لَوْلَا أَنْ سَخَّرَهُ اللَّهُ لَنَا.

والمطلوب من المؤمنين بعد الاستواء على ظهور ما سخر الله لهم من مركوب حيواني أو شيء من صنع الإنسان أمران:

الأمر الأول: أن يذكروا نعمة ربهم عليهم بقلوبهم وأفكارهم.

الأمر الثاني: أن يقولوا بألسنتهم مع التفكير بما يقولون: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون.

ودل على أن هذا الذكر اللساني غير الذكر الفكري الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أن طلب الذكر اللساني قد جاء معطوفاً بحرف (الواو) ومثل هذا العطف يدل على التغاير، ولو كان هوَ لَقَالَ: فتقولوا...

وقد اشتمل نص الدعاء على ثلاث فقرات:

١ - ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾: في هذه الفقرة تنزيه الله، وإيمان به خالقاً مسخراً، وثناء عليه.

٢ - ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾: أي: وما كنا له مطيقين، وفي هذه الفقرة، إعلان عجز العباد، وافتقارهم الدائم إلى الله عز وجل، وهذا من مظاهر العبودية لله عز وجل.

٣ - ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾: وفي هذه الفقرة إعلان الإيمان باليوم الآخر، واستحضار ما يجب لاجتناب عذاب الله، والظفر بالنعيم الخالد.

وتم بذلك عقد هذا الموضوع.

فهل في هذه النصوص التي تدبرناها، وتدبرنا ما فيها من صور أدبية، من تكرار، مع أنها حول موضوع واحد؟!

إنها نصوص موزعة في عدة سور، وقد جاء تنزيلها مطابقاً لكمال الحكمة في

بناء الأفكار بناءً تكاملياً لا تطابقياً، مع مراعاة الجوانب التربوية المختلفة، ومراعاة كمال التعبير البلاغيّ الأدبي الرفيع في كلّ نصّ منها.

إنّه عَجَبٌ من أرفع العجب، ولو كان من عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اختلافاً كثيراً.

وعلى هذا النمط ينبغي أن تُدرَس النُّصوصُ القرآنية المتواردة حول موضوع واحد.

على أن صلة هذه النصوص بغيرها من نصوص القرآن لم تنته عند هذا القدر، بل تُوجد شبكات اتصالات عجيبة من خلال كلّ فكرة جزئية، وكلّ كلمة، وليس في مستطاع المخلوقات إحصاؤها وسيظلّ في القرآن جديدٌ مهما تدبّر المتدبرون، واكتشف من عجائبه المكتشفون.



الصُّورَةُ الْعِشْرُونَ

في سورة (النور / ٢٤ مصحف / ١٠٢ نزول) قال الله عز وجل:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً

لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ
الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيُّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا
يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ تُونُرٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ
لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ فِي ثُبُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَن تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا
بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٢٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ
يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٢٧﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّنْ
فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ
الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ﴿٢٩﴾ ﴾

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ

بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكْدِرْ بِهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

الشرح اللفظي للمفردات والجمل وما يدلُّ عليه النصُّ اقتضاءً ولزوماً

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾: خطابٌ لِكُلِّ من تشملهم دعوة الرسول محمد ﷺ، حتى آخر الدهر، والمخاطبون الأولون هم العربُ الذين بُعثَ فيهم، وهو منهم.
﴿آيَاتٍ﴾: جمعُ آيةٍ، وهي العلامة الدالة، ولَمَّا كَانَ الكلامُ رُمُوزاً لفظيةً تدلُّ على المعاني والأفكار والمفاهيم والأشياء، سَمَّى الله كُلَّ وَحْدَةٍ من القرآن تنهي عند مفصل جاء به التنزيل ﴿آيةً﴾.

كما جَعَلَ من مجموع جملة من الآيات سورةً، فقَسَمَ القرآن إلى سُورٍ، وقَسَمَ السُّورَ إلى آياتٍ.

﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾: فيها قراءتان: فقرأ ابنُ عامرٍ الشامي وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف بكسر الياء المشددة ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾. وقرأ سائر القراء العشرة بفتح الياء المشددة ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾.

فدلَّت القراءتان بمجموعهما على أَنَّ الآياتَ المشتملات على بيان القضايا التي ترتبط بها هداية الناس، هي ﴿مُبَيِّنَاتٌ﴾ لهذه القضايا، وعلى أَنَّها ﴿مُبَيِّنَاتٌ﴾ في ذواتها، أي: لا غموضَ فيها، ولا إبهامات.

فتكاملت القراءتان في الدلالة على المعنيين المرادين، وهذا من الإيجاز في القرآن، الذي تُغني فيه قراءتان لكلمةٍ من نصٍّ، عن إيراد نصِّين كاملين، وهو من الفنون الأدبية التي ينبغي أن نتعلَّمها من القرآن.

وسكَّت النصُّ هنا عن الإشارة إلى القضايا التي جاءت الآياتُ مُبَيِّنَاتٍ لها، ليَعْمَ كُلُّ قضايا الهداية في الدِّين، فمن أغراضِ حَذْفِ الْمَفْعُولِ إرادةُ التعميم.

﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: يُطْلَقُ المَثَلُ ويُرادُّ منه ذكر نموذج^(١)

(١) النموذج: قال صاحب القاموس المحيط: هو مثال الشيء وهو معرَّب.

أو أكثر لنوع من الأنواع، أو عمل من الأعمال، أو سُنَّة من سُنَنِ الله، أو شخصٍ من الناس أو أكثر كَانَ منهم عمل فحدثت لهم عواقبُ سارَّة أو ضارَّة، أو نحو ذلك من كلِّ ما يمكن أن يُعْتَبَر جُزْئِيًّا من قضيَّة كليَّة، في أيِّ أمرٍ من الأمور، نظراً إلى التشابه بين أفراد النوع الواحد، أو نظراً إلى أطرادِ سُنَنِ الله وأعماله الحكيمَّة، وقوانينه في الكون.

ثم يأتي القياس المستند إلى مبدأ شمول الأحكام للمتماثلات، الأمر الذي تقضي به أصول الحقائق، أو تقضي به حكمَةُ الخالق، في تصاريف عدلِهِ في خلقه، وفي ثباتِ سُنَنِهِ، فينتج أحكاماً عامَّةً تُشْمَلُ سائر الأفراد المماثلة لما جاء في المثل.

وما جاء في النصِّ هنا على هذا المعنى الذي قد تَطَلَّعَ عليه كلمة المثل .
أي: ومثلاً من الأمم الذين خَلَوْا مِنْ قبلكم . وقد جاء لفظ ﴿مَثَلًا﴾ مفرداً، مع أن الله عزَّ وجلَّ قد ضرب في القرآنِ أمثالاً كثيرة من أحوال الأمم السَّالفة، فما السرُّ في هذا؟

- ١ - هل أطلق المفرد، وأريد به الجنس، فهو يعمُّ؟
- ٢ - أو هو على تقدير: ومثلاً من كلِّ حالةٍ من أحوال الذين خلوا من قبلكم ممَّا فيه عِبْرَةٌ أو أسوةٌ حسنةٌ لكم؟

أنا أرجح الاحتمال الثاني، لما فيه من دلالة على معنى يُقصدُ في البيان القرآني، ويؤيِّده واقع ما جاء في القرآن من أمثالٍ عن الأمم الخوالي . ولقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الزمر / ٣٩ مصحف / ٥٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾: الموعظة هي النصُّح المقرون بما يُثير الرغبة أو الرهبة في النفس للانتفاع بالنصُّح، واتباع ما تَضَمَّنَه، فعلاً أو تركاً.

وقد اشتملت آياتٌ من آيات القرآن المجيد على ذلك، فكلُّ ما في القرآن

من توجيهٍ لأمر نافع، وترغيبٍ وإرشاد، وتحذيرٍ وتنبيه، ووعدٍ ووعدٍ، وإنذارٍ
وبشارة، يدخل تحت هذه الكليّة العامّة، التي جعل الله لها عنوان الموعظة.

ولكنّ الموعظة التي تشتمل عليها بعضُ آيات القرآن وكذلك الآيات
المبيّنات، وكذلك الأمثال من الأمم الذين خلوا من أهل القرون الأولى، إنما يتنفع
بها المتقون، وهم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، فخافوا الحساب والعقاب يومَ
الدين، فاتَّقَوْا عَذَابَ اللَّهِ وَدُخُولَ النَّارِ، بالتزام الطاعة والانتفاع بالموعظة، لذلك
قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: أي: فهي موعظة لمن يَتَّقِعُ بها، أمّا
الذين لا يتنفعون بها فلا تكون هذه الآيات موعظةً لهم، لأنهم منصرفون عنها،
مكذبون بها، أو غيرُ مكترئين لها ولا مبالين بها.

المتقي: هو الذي يجعل بينه وبين ما يضرُّه أو يؤذيه أو يؤلمه وقاية،
ولو بالابتعاد عن مواطن ذلك، والمتقي كاملُ التقوى في الدين هو الذي يؤدي
الواجبات، ويجتنبُ المحرّمات.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: وصفَ الله نفسه بأنّه نور السماوات
والأرض، ورجَّح المحققون من أهل التفسير أنّ المعنى: الله هادي أهل السماوات
والأرض، بما أعطاهم من نور يدركون به المعارف، وبما أنزل عليهم من آيات
بيّنات هي نور.

وقد وصف الله القرآن بأنّه نورٌ في عدّة آيات.

أقول: لم لا يكون المعنى: الله صاحب كلِّ نور السماوات والأرض، كما
نقول: القاضي فلان، هو عدلٌ محكمة الاستئناف مثلاً، أي: صاحب كلِّ العدل
فيها، ولولاه لم يكن فيها عدل وهذا من أساليب العرب في البيان، فيقال: فلان هو
العلم، وفلان هو الشرّ كلّهُ، وفلان هو الجود^(١).

(١) سيأتي مزيد إيضاح وشرح لهذه الفكرة.

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾: أي: مثلُ بَعْضِ نُورِهِ الذي تَسْتَهْدُونَ بِهِ من خلال تَدَبُّرِ آيَاتِ كِتَابِهِ، وما تُشْعُهُ في قلوب المؤمنين، الصادقين في الطلبِ والبحث والتدبُّر، أو نموذجِ نوره ممَّا يُدْرِكُ الناس منه، وهذا النموذج هو بعضُ نور الله العظيم.

﴿كَمْشَكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾: الْمِشْكَاةُ: كُلُّ كَوَّةٍ غَيْرِ نافذةٍ في الجدار، والجمعُ القياسيُ لِمِشْكَاةٍ «مَشَاكِي».

والمصباح: هو السراج، يقال: استصبح بالمصباح إذا أَسْرَجَهُ، والشَّمْعُ ممَّا يُصْطَبِخُ به، أي: يُسْرَجُ به، فهو إذن الأداة التي إذا أَسْرَجَتْ كان لها شعلة يستضاء بها، كيف كان نوع هذه الأداة، وصيغة ﴿مِصْبَاحٌ﴾ من صيغ أسماء الآلات، مثل المِفْتَاح، والمنشار.

﴿الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاجَةٍ﴾: الرُّجَاجُ مُرَكَّبٌ معدني شفاف صلب سهل الكسر يذاب بالنار، ويصنع من الرَّمْلِ وَالْقَلْيِ، وَأَجْوَدُهُ أَنْقَاهُ، وَأَصْفَاهُ، وَأَكْثَرُهُ شُفُوفًا. والمراد من الرُّجَاجَةِ ما يُحِيطُ بالمصباح لتنظيم شعلته، ونشر ضوئه.

﴿الرُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾: في هذه الجملة وَصِفُ الرُّجَاجَةِ المحيطة بالمصباح بأنَّ لَوْنَهَا يُشَبِّهُ لَوْنَ الكوكب ذي النور الأبيض الدُرِّيِّ، المشبه لونَ الدَّرِّ، وهو اللُّؤلؤُ العظيم المستخرج من الأصداف، فهي تنشر نوراً أبيض صافياً هادئاً دُرِّيّاً، وهو أهدأ النور وأجمله وأكثرهُ راحةً للأعصاب، (الدَّرَّةُ: اللُّؤلؤُةُ العظيمة).

والكوكب: يطلق في اللُّغة على ما له بريقٌ ولمعانٌ وجمالٌ مع بَيَاضٍ صافٍ، وكَوَاكِبُ السَّمَاءِ سَمِّيت بهذا الاسم لبياض نورها وبريقها ولمعانها.

ونسبة الكوكب إلى الدَّرِّ نِسْبَةٌ على معنى تشبيه لون نوره بلون الدَّرِّ، يقال لغة: كوكبٌ دُرِّيٌّ، ودُرِّيٌّ، بمعنى أنه ثاقبٌ مضِيءٌ.

والكوكب الدُرِّيُّ عند العرب: هو العظيم المقدار.

أي: إنَّ الرُّجَاجَةَ تَبَيَّنَ نُورَ المصباح كَبَتْ الكوكب في السَّمَاءِ لنوره، وَكَلَوْنَ الدَّرِّ في صفائه وهدوئه، وَلَوْنَ الدَّرِّ في الأنوار أجملها وأهدوها وأصفها.

وأظنُّ أنَّ الزُّجاجات البيضاء الدَّرِّيَّة لم تكن معروفة للناس إِبَّانَ التنزيل، وقد وُصِفَتْ لهم إرشاداً إلى صناعتها. ولو أنَّ النَّاس كانوا يومئذٍ يعرفون المصباح الكهربائيَّة التي استُخْدِمَتْ بعد اكتشاف الكهرباء، في عَصْر النهضة العلميَّة، لربَّما كان التشبيه في النَّصِّ بمصباح كهربائيٍّ تُمدُّه بالطاقة المنيرة الكهرباء، لا الزيت.

وقرأ أبو عمر والكسائي: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾: بضمِّ الدال مع إثبات همزة بدل ياء النسبة وقرأ شعبة وحمزة: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دِرِّيٌّ﴾: بكسر الدال مع إثبات همزة أيضاً بدل ياء النسبة، وهما لغتان عند العرب في وصف الكوكب الثاقب المضيء، وربما كان بمعنى أنَّه يَدْرَأُ الظلمة، فهو دِرِّيٌّ لها، أي: كثير الدرء لها. ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾: أي: يوقدُ هذا المصباح المشبَّه به من زيت شجرة مباركة، هي من نوع شجر الزيتون.

ولفظ ﴿زيتونة﴾ بدل أو عطف بيان من ﴿شجرة مباركة﴾.

﴿يُوقَدُ﴾: هذه قراءة نافع وابن عامر الشامي وحفص عن عاصم، فالضمير يعودُ على المصباح.

وقرأ ابن كثير وأبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب ﴿تُوقَدُ﴾: بفتحَاتٍ مع تشديد القاف وفتح الدال، بمعنى تَلَامَعَ وتَلَأَلَ، فالضمير يعودُ على المصباح، وهو فعل ماضٍ.

وقرأ باقي القراء ﴿تُوقَدُ﴾: فالضمير يعود على الزجاجاة مع أنَّ الزجاجاة لا توقد، وإنما يوقد المصباح، فالإطلاقُ من قبيل النسبة إلى المحلِّ، وهي في الحقيقة للحال فيه، وهو مجاز مرسلٌ في رأي بعض البلاغيين، أو مجاز عقلي في رأي فريق آخر، ولا فرق بينهما إذا أدركنا في كلِّ منهما أنَّ غرض المجاز الإيحاء بأنَّ أثر الإيقاد إنما يظهر فيما تنشره الزجاجاة من نور يتلأل في صفاء وبياض.

فتكاملت القراءات الثلاث في أداء المعاني الثلاثة مع الإيجاز البديع:

١ - المصباحُ يُوقد.

٢ - الزُّجَاجَةُ ناشِئَةٌ النُّورِ تُوقَدُ، إِذْ يَظْهَرُ مِنْ خِلَالِهَا نُورُ الْوُقُودِ.

٣ - الْمَصْبَاحُ تَوَقَّدَ بِالضِّيَاءِ تَأَثُّراً بِإِيقَادِهِ.

وَوُصِفَتِ الشَّجَرَةُ بِأَنَّهَا مُبَارَكَةٌ: أَي: كَثِيرَةُ الْخَيْرِ وَافِرَةُ الْعَطَاءِ، وَهِيَ كَذَلِكَ عِنْدَ عُلَمَاءِ النَّبَاتِ وَالْغِذَاءِ وَالِدَوَاءِ.

﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾: مُتَابَعَةٌ دَقِيقَةٌ بَيَانِيَّةٌ وَتَعْلِيمِيَّةٌ فِي وَصْفِ الشَّجَرَةِ الْمُبَارَكَةِ الزَّيْتُونَةِ، وَفِي هَذِهِ الْمَتَابَعَةِ بَيَانٌ لِمَغْرِسِهَا الَّذِي هُوَ أَجُودُ الْمَغَارِسِ، إِذْ أَجُودُ مَغَارِسِ شَجَرِ الزَّيْتُونِ مَوْقِعٌ لَا شَرْقِيٌّ يَحْجُبُهَا عَنِ الشَّمْسِ صَبَاحاً الْجَبَلُ الشَّرْقِيُّ، وَلَا غَرْبِيٌّ يَحْجُبُهَا فِيهِ عَنِ الشَّمْسِ مَسَاءً الْجَبَلُ الْغَرْبِيُّ، بَلْ تَأْخُذُ حَظَّهَا مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ طَوَالَ النَّهَارِ.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾: أَي: يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ فَيَنْشُرُ النُّورَ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، مِنْ شِدَّةِ صَفَائِهِ، وَانْكَسَارِ الْأَشْعَةِ عَنْهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ عَلَى وَشَكِّ أَنْ يَلْتَهَبَ وَيُضِيءَ.

إِنَّ الْحَدَّ الْفَاصِلَ بَيْنَ الْمَادَّةِ الْقَابِلَةِ لِلِاشْتِعَالِ وَالْإِضَاءَةِ، وَبَيْنَ الْإِضَاءَةِ النَّاشِئَةِ لِلنُّورِ، هِيَ حَالَةُ أَنْبِعَاطِ ذَاتِي مَتَوَهِّجٍ، يَدْرِكُهُ النَّازِلُ فِي بَعْضِ الْمَوَادِّ الصَّافِيَةِ الْقَابِلَةِ لِلِاشْتِعَالِ، حَرَكَةٌ بَرِيقٍ وَلَمْعَانٍ، فَكَأَنَّمَا شَرَارَاتُ نَارِيَّةٍ صُغْرَى تَعْمَلُ وَتَتَحَرَّكُ عَلَى سَطْحِ الْمَادَّةِ.

وَأَدْقُ تَعْبِيرٍ وَأَجْمَلُهُ لِهَذِهِ الصُّورَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

إِنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِضَاءَةِ أَنْ تَمْسَهُ النَّارُ فَيَشْتَعِلُ.

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾: أَي: إِنَّ الْمَصْبَاحَ الْمَوْقَدَ الَّذِي يُمِدُّهُ أَصْفَى الزَّيْتِ وَأَنْقَاهُ يَبْثُ

نُوراً، وَالزُّجَاجَةُ النَّقِيَّةُ الْبَيْضَاءُ الَّتِي هِيَ كَالْكُوكَبِ الدَّرِّيِّ تُضَيِّفُ بِانْعِكَاسَاتِهَا أَنْوَاراً جَمِيلَةً صَافِيَةً، فَتَزِيدُ نُورَ الْمَصْبَاحِ نُوراً آخَرَ مِنْ بَثِّ الزُّجَاجَةِ الدَّرِّيَّةِ وَانْعِكَاسَاتِهَا.

فَيَحْدُثُ مِنْ ذَلِكَ نُورٌ عَلَى نُورٍ فِي الْمَشَبِّهِ بِهِ.

ويبدلُ هذا الكلامَ ضِمْنًا على أَنَّ النُّورَ شَيْءٌ قَابِلٌ لِلزِّيَادَةِ، فهو ذو درجات دُنْيَا، وَفَوْقَهَا دَرَجَاتٌ، وَفَوْقَهَا أُخْرَى، وَلَا نَعْلَمُ سَقْفًا يَقِفُ عِنْدَهُ حَدُّ النُّورِ، وَاللَّهُ الَّذِي لَا نِهَآيَةَ لِأَزَلِّيَّتِهِ وَأَبَدِيَّتِهِ وَوُجُودِهِ وَصِفَاتِهِ هُوَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَيُّهُ هُوَ صَاحِبُ كُلِّ نُورٍ هُمَا، فَلَا نُورَ مِنْ غَيْرِهِ.

أَمَّا الْمَشَبَّهُ، وَهُوَ نُورُ الْقُرْآنِ فِي ذَاتِ الْمُؤْمِنِ الْمُتَدَبِّرِ لآيَاتٍ مِنْهُ فَهُوَ كَذَلِكَ: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ فَإِنَّ أَلْفَاظَهُ وَجُمْلَهُ وَأَسَالِيهِ الْبَيَانِيَةَ الْبَدِيعَةَ نُورٌ، وَهُوَ يُضَيَّفُ إِلَى مَعَانِيهِ الَّتِي تَهْدِي الْمُؤْمِنَ فِي حَيَاتِهِ نُورًا، فَيَكُونُ مِنْهُمَا نُورَانِ مُجْتَمِعَانِ، فَهُمَا ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾.

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: هُنَا تَجَاوَزَ النَّصُّ الْمَثَلَ، وَتَحَدَّثَ عَنْهُ كَأَنَّهُ عَيْنُ الْمَثَلِ لَهُ، وَهِيَ مَعَانِي آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، الَّتِي هِيَ مِنْ نُورِ اللَّهِ، إِذْ يُدْرِكُهَا وَيَهْتَدِي إِلَيْهَا الْمُؤْمِنُ الصَّادِقُ فِي الْطَلْبِ وَالْبَحْثِ وَالتَّدَبُّرِ، وَيَتَنَفَّعُ مِنْهَا، وَيَكُونُ ذَلِكَ فِي كُلِّ شَخْصٍ بِحَسَبِ اسْتِعْدَادِهِ وَصَدَقَهُ وَاجْتِهَادِهِ.

هَذِهِ الْجُمْلَةُ تُبَيِّنُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِقَانُونِهِ الْقَدْرِيِّ يَهْدِي لِنُورِ كِتَابِهِ الْمُنَزَّلِ أَيُّ: لِإِدْرَاكِ مَقْدَارٍ مَا مِنْ هَذَا النُّورِ وَالِانْتِفَاعِ بِهِ، مَنْ يَشَاءُ مِنَ النَّاسِ الْإِهْتِدَاءَ بِهِدْيِهِ، وَيَكُونُ صَادِقًا فِي الطَّلْبِ، وَالْبَحْثِ، وَالتَّدَبُّرِ، لِأَنَّ تَمَامَ مَشِئَةِ الْإِنْسَانِ إِنَّمَا تَكُونُ بِصَدَقِ التَّوَجُّهِ الْقَلْبِيِّ، وَصَدَقِ الطَّلْبِ، ثُمَّ إِنَّ صَدَقَ الطَّلْبِ يَدْفَعُ إِلَى الْبَحْثِ، وَالْبَحْثِ الصَّادِقِ مَعَ الْإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ يُوَصِّلُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ إِلَى التَّدَبُّرِ السَّلِيمِ الصَّحِيحِ، وَبِذَلِكَ تَتَحَقَّقُ الْهَدَايَةُ بِالْمَعْرِفَةِ الَّتِي يَفْتَحُ اللَّهُ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ، أَوْ يَهْدِي اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ أَنْ يَهْدِيَهُ مِنْ عِبَادِهِ لِإِدْرَاكِ مَقْدَارٍ مَا مِنْ هَذَا النُّورِ وَالِانْتِفَاعِ بِهِ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ مَشِئَةَ اللَّهِ لَا تَفَارِقُ حِكْمَتَهُ، فَمَنْ آمَنَ وَصَدَقَ فِي الطَّلْبِ وَالْبَحْثِ وَالتَّدَبُّرِ أَدْرَكَتْهُ عَنَايَةُ اللَّهِ، فَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ لِمَقْدَارٍ مَا مِنْ نُورِهِ بِحَسَبِ اسْتِعْدَادِهِ وَصَدَقَهُ وَاجْتِهَادِهِ.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾: أَيُّ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي تَصْرِيفِ آيَاتِ

كتابهِ المَجِيد، يَضْرِبُ الأمْثَالَ للنَّاسِ مَراراً وَتَكَرَّراً لِتَقْرِيبِ المَعَانِي المَرَادَةِ إِلَى أَفْهَامِهِمْ، وَلِإِمْتَاعِهِمْ بِمَحَاسِنِ الأمْثَالِ، وَهَذَا المِثْلُ الَّذِي جَاءَ فِي هَذَا النِّصِّ هُوَ مِنْهَا. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: أَي: وَبِمَا أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ - دُونَ اسْتِثْنَاءٍ - عَلِيمٌ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ يَضْرِبُ الأمْثَالَ بِدَقَّةٍ مَتْنَاهِيَةٍ، فَيَجْمَعُ الْأَشْيَاءَ وَالنِّظَائِرَ مِنَ المِثْلِ بِهِ وَالمِثْلُ لَهُ بِعِلْمِهِ بِدَقَائِقِ كُلِّ مِنْهُمَا.

فَمَا عَلَى مُتَدَبِّرِي الأمْثَالِ الْقُرْآنِيَةِ إِلَّا أَنْ يَتَحَرَّوْا التَّوَصُّلَ إِلَى هَذِهِ الدَّقَائِقِ فِي المِثْلِ بِهِ، وَالمِثْلُ لَهُ، لِيُذَرِّكُوا مِنْ مُقَابَلَةِ الْأَشْيَاءِ بِنِظَائِرِهَا المَعَانِي المَرَادَةَ مِنَ المِثْلِ.

﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾: يَتَابَعُ النِّصُّ الْبَيَانَ حَوْلَ المِثْلِ الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِآيَاتٍ مِنْ قُرْآنِهِ المَجِيد، فَيُحَدِّدُ مَكَانَ المَشْكَاتِ الَّتِي فِيهَا المِصْبَاحُ المَوْصُوفُ فِي النِّصِّ، تَوْسُّلاً إِلَى مَا سَيَبْنِي عَلَيْهِ مِنْ تَوْجِيهِ لِلْمُؤْمِنِينَ.

فَالْمَكَانُ لَيْسَ قَصِراً مِنْ قُصُورِ الْأَبَاطِرَةِ وَالْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، بَلْ هُوَ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ.

إِنَّهَا المَسَاجِدُ، وَقَدْ جَاءَتْ فِي النِّصِّ بِالصِّفِّ، وَلَمْ تَأْتِ بِالاسْمِ الْخَاصِّ بِهَا، بُغْيَةً التَّعْرِيفِ بِخُصَائِصِهَا فِي الدِّينِ:

● فَهِيَ بُيُوتُ أَذْنِ اللَّهِ بَأَنْ تُرْفَعَ، أَي: أَمْرَ بَأَنْ تُبْنَى وَتُقَامَ، وَأُذِنَ بَأَنْ يُرْفَعَ بُنْيَانُهَا.

فَالرُّفْعُ هُنَا لَيْسَ المَرَادُ مِنْهُ مَجْرَدُ بِنَاءِ جُدُرٍ وَسُقْفٍ لَهَا، وَلَكِنَّ المَرَادَ إِعْلَاؤُهَا وَرَفْعُهَا أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ بُيُوتِ النَّاسِ وَقُصُورِهِمْ، لِتَكُونَ مَعَالِمَ بَارِزَةً لِبِلْدَانِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ. فَمَادَّةُ الرُّفْعِ فِي الْقُرْآنِ قَدْ جَاءَتْ بِمَعْنَى:

- ١ - رَفْعُ الدَّرَجَاتِ.
- ٢ - وَرَفْعُ السَّمَاوَاتِ.
- ٣ - وَرَفْعُ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ.

٤ - والرَّفَع إلى مكانٍ عليّ .

٥ - وحين رَفَعَ إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت رفعها أكثر من بيوت الناس يومئذ .

وقد جاء التعبير بعبارة ﴿أَذِنَ﴾ لا بعبارة: ﴿أَمَرَ - أو شرع - أو أوصى - أو نحو ذلك﴾ للإشارة إلى أَنَّ من المتصور أساساً أن يكون بناءُ بُيُوتِ الله مُتَطَاعِماً، لتكون مُسَاعِدَةً للعابدين على الخشوع والخضوع لله عزَّ وجلَّ، والدَّلَّ بين يديه، حتى لا يُغَيِّرِي رَفْعُهَا بَأَن يَتَعَاطَمَ مُرْتَادُوها وَعَابِدو الله فيها .

لكنَّ المصلحةَ العامَّةَ من رَفْعِها، لجذب الناس إليها، وتأليف قلوبهم عليها، مع إبراز معالمِ الأُمَّةِ الإسلامية في البلاد، وتكريماً لشرفها بإضافتها إلى الله، نظراً إلى كونها بُيُوتَ الله، رَجَّحَ جَانِبَ الإِذْنِ برفعها على عَدَمِ الإِذْنِ به .

وَقَدْ جَاءَ الْفِعْلُ فِي جُمْلَةٍ ﴿وَيُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُهُ﴾ : معطوفاً على الفعل المنصوب في جملة ﴿فِي بُيُوتِ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ : فهل المراد أنه أذن أيضاً بأن يُذَكَّرَ فيها اسْمُهُ، في حدود الإِذْنِ فقط، مع أَنَّ المساجد لله فلا يَجُوزُ فيها الدَّعاء لغيره، ومع أَنَّ ذكر الله مأمور به، وإنَّما تُبْنَى المساجد لذكر الله، وممَّا يدلُّ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الجمعة/ ٦٢ مصحف / ١١٠ نزول) :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَادَيْتُمُ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

وَأَرَى أَنَّ هَذَا الْعَطْفَ هُنَا هُوَ عَلَى مَعْنَى : فِي بُيُوتِ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَأَمَرَ بَأَن يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ، نظير قول الشاعر العربي :

«عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا» :

أي : وسقيتها ماءً بارداً .

وقول الآخر :

«وَزَجَّجْنَا الْحَوَاجِبَ وَالْعَيُونَا» .

أي: وزَجَّجْنَا الحَوَاجِبَ وَكَحَلْنَا العَيُونَ.

لذلك جاء بعد قوله تعالى في النَّصِّ: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾: والتسبيحُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ كما جاء في النَّصِّ بعد هذا.

ويحتملُ أَنْ تكون الواو في قوله تعالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾: واو المعية، أي: أَمَرَ بِأَنْ تَبْنَى وَأُذِنَ بِأَنْ تَرْفَعَ مع ذكر اسم الله فيها.

فإن قيل: إنَّ شرط واو المعية أَنْ تكون مسبوقَةً بطلب أو نفي.

فالجواب أَنَّ الطلب مُتَحَقِّقٌ ضمناً، إذ المعنى على تقدير: ابْنُوهَا مَاذُونًا لَكُمْ بِأَنْ تَرْفَعُوهَا مع ذكر اسم الله فيها.

ومن المفهوم المخالف ندرك أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لم يأذن برفعها وتعظيم مبانيها لمجرد التفاخر والتنافس في تعظيم أبنيتها وتفخيمها، ولكنَّ الغرض الأساسي منها هو ذكر الله فيها.

ولمَّا كَانَ رَفْعُهَا مِنَ المَظَاهِرِ الَّتِي تُسَاعِدُ عَلَى جَذْبِ النَّاسِ إِلَيْهَا لِتَحْقِيقِ ذِكْرِ اللَّهِ فِيهَا أُذِنَ اللَّهُ بِهِ. ولولا تحقيق قَدْرِ أَوْفَى مِنَ المَصَالِحِ الدِّينِيَّةِ برفعها، لكان تَعْظِيمُ أبنيتها شيئاً من أمور الدنيا كغيرها من القِلَاعِ وَالْحُصُونِ وَالْقُصُورِ الَّتِي تَرْكُهَا اللَّهُ لِلنَّاسِ، فلم يَقُلْ لَهُمْ بِشَأْنِهَا شيئاً، لا أمراً، ولا نهياً، ولا إِذْنًا.

قرأ جمهورُ القراء: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ﴾: بالبناء للفاعل، فكلمة ﴿رِجَالٌ﴾ على هذه القراءة هي فاعل ﴿يُسَبِّحُ﴾.

وقرأ ابن عامر الشاميُّ وشعبة ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾: وعلى هذه القراءة تكون عبارة ﴿لَهُ﴾ هي النَّائِبُ عَنِ الفَاعِلِ. وتكون كلمة ﴿رِجَالٌ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف يُفْهَمُ مِنْ مَضمون الجملة السابقة، والتقدير: المسبحون لله فيها رجالٌ.

وهذه القراءة تُقَدَّم لَوْنًا أَدْبِيًّا بَدِيعًا، إِذْ جَاءَتْ جُمْلَةً: ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ...﴾ جواباً على سؤال مقدّر، يَطْرَحُهُ التَّالِي والسَّامِعُ، تَقْدِيرُهُ: مِنَ الَّذِي يُسَبِّحُ اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبُيُوتِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ؟ هَلْ هُمْ إِنْسٌ، أَمْ جِنٌّ، أَمْ مَلَائِكَةٌ؟

والجواب: هم رجالٌ أوصافُهُمْ كذا وكذا وكذا .

﴿الْغُدُوُّ﴾: جمع مفردة «الْغُدْوَةُ» وهي ما بَيْنَ الْفَجْرِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ، مِثْلُ «الْغَدَاةِ» وَجَمْعُهَا «غَدَوَاتٌ».

﴿الْأَصَالُ﴾: جمع مفردة «الْأَصِيلُ» وهو الْوَقْتُ حِينَ تَصْفَرُّ الشَّمْسُ مَسَاءً حَتَّى الْغُرُوبِ، وَيُجْمَعُ أَيْضًا عَلَى «أَصْلٍ» وَ«أَصْلَانٍ» وَ«أَصَائِلٍ».

﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾: فِي هَذَا بَيَانٌ لِأَوْصَافِ الْمُسَبِّحِينَ فِي بُيُوتِ اللَّهِ بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ، فَهَمْ:

١ - ﴿رَجَالٌ﴾: ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمَدْعُوُونَ لِتَسْبِيحِ اللَّهِ فِي الْمَسَاجِدِ بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ. أَمَّا النِّسَاءُ فَيُسَبِّحْنَ اللَّهَ أَيْضًا، وَلَكِنَّ الْأَفْضَلَ لَهُنَّ أَنْ يَسْبَحْنَ فِي بُيُوتِهِنَّ، وَلَوْ خَرَجْنَ إِلَى الْمَسَاجِدِ لَمْ يُمْنَعْنَ، وَكَانَتْ لَهُنَّ أَجُورُهُنَّ عِنْدَ اللَّهِ، بِشَرَطِ مُرَاعَاةِ الْعِفَّةِ، وَعَدَمِ تَعَرُّضِهِنَّ لِلْأَذَى.

٢ - ﴿لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾:

يُقَالُ: لَهَا عَنِ الشَّيْءِ، إِذَا غَفَلَ عَنْهُ مُشْتَغَلًا بِغَيْرِهِ، فَصَرَفَهُ مَا اشْتَغَلَ بِهِ عَمَّا يَجِبُ عَلَيْهِ نَحْوُهُ، أَوْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُؤَدِّيَهُ تَجَاهَهُ.

وَيُقَالُ: أَلْهَاهُ كَذَا عَنْ كَذَا، إِذَا صَرَفَ ذَهْنَهُ عَنْهُ، وَاسْتَأْثَرَ هُوَ بِاهْتِمَامِهِ، حَتَّى مَضَى الْوَقْتُ الَّذِي كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُنْفِقَهُ فِيهَا لَهَا عَنْهُ، فَأَصَاعَهُ فِيهَا أَلْهَاهُ.

والتجارة: جُمْلَةُ أَعْمَالٍ مِنْ أَعْمَالِ كَسْبِ الرِّزْقِ، مِنْهَا الْبَيْعُ وَالشِّرَاءُ، وَتَوْرِيذُ السَّلْعِ التِّجَارِيَّةِ وَتَصْدِيرُهَا، وَالْمُدَايِنَاتُ، وَالشَّرَكَاتُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

﴿وَلَا بَيْعٌ﴾: الْبَيْعُ: هُوَ عَقْدُ مُبَادَلَةِ سَلْعَةٍ بِسَلْعَةٍ أَوْ بِنَقْدٍ، وَقَدْ لَا يَكُونُ الْبَائِعُ أَوْ الشَّارِي تَاجِرًا، بَلْ هُوَ طَالِبُ سَلْعَةٍ لِحَاجَتِهِ، أَوْ مُتَخَلِّصٌ مِنْ سَلْعَةٍ لِعَدَمِ حَاجَتِهِ إِلَيْهَا، وَيُرِيدُ عَوْضَهَا مَالًا يَذْخَرُهُ لِحَاجَتِهِ، أَوْ سَلْعَةً أُخْرَى، لِذَلِكَ جَاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ مَعْطُوفًا عَلَى لَفْظِ «تِجَارَةٍ»، فِيهِ الْأَسْوَاقُ تُجَارُ، وَفِيهَا آخَرُونَ يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ، وَلَيْسُوا تَجَارًا، وَلَفْظُ الْبَيْعِ يُطْلَقُ بِعَمُومِهِ عَلَى الْبَيْعِ، وَعَلَى الشِّرَاءِ، فَالْمُبَايَعَةُ تَبَادُلٌ بَيْنَ شَيْئَيْنِ لِمَالِكَيْنِ كُلُّ مِنْهُمَا يَرْضَى بِأَنْ يَبَادَلَ شَيْئَهُ بِشَيْءٍ الْآخَرَ الَّذِي يُبَايِعُهُ.

وقد ذكر الله من الملهيات عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة التجارة والبيع، لأنهما أهم الأشياء المباحة التي تُلْهِي المؤمن عن عبادة الله عز وجل، لما فيهما من استئثار قَوِيٍّ بِمَحْوَري الطمع والخوف في نفس الإنسان، فَالطَّمَعُ بِالرَّيْحِ آسَرُ لَهَا، وَالْخَوْفُ مِنَ الْخُسْرَانِ آسَرُ لَهَا، وَالتَّجَارَةُ وَالْبَيْعُ أَكْثَرُ عَامِلَيْنِ مُلْهِئَيْنِ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ فِي حَيَاةِ النَّاسِ مِنَ الْمُبَاحَاتِ.

بخلاف الأعمال الأخرى فَقَدْ يَجِدُ الْكَادِحَ فِيهَا رَغْبَةً فِي الرَّاحَةِ مِنْهَا، إِذِ الْمُؤْمِنُ الْحَرِيصُ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَلَوْ مِنْ مَسْتَوَى غَيْرِ رَفِيعٍ لَا تُلْهِيه مِثْلُ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الَّتِي فِيهَا كَدْحٌ وَكَدٌّ.

وقد خصَّ الله هنا «الذِّكْرَ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ» بِالْبَيَانِ، لِأَنَّهَا أَهَمُّ أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ الدَّائِرَةِ مَعَ كُلِّ الْأَوْقَاتِ، وَالَّتِي يُذَكِّرُ بِهَا الْقُرْآنَ، وَيَحُثُّ تَالِيَهُ وَمُتَدَبِّرِيهِ عَلَيْهَا فِي مُنَاسَبَاتٍ كَثِيرَاتٍ، وَنَفْهَمُ بِاللَّزُومِ الذَّهْنِي أَنَّهُمْ إِذَا لَمْ تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ وَلَا غَيْرُهُمَا عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ، فَإِنَّهَا لَا تُلْهِهِمْ حَتْمًا عَنِ الصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَسَائِرِ الْوَاجِبَاتِ الدِّينِيَّةِ، وَحَقُوقِ الْأُسْرَةِ وَالْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ.

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾: فِي هَذَا بَيَانٍ لِأَشَدِّ الْبَوَاعِثِ فِي النُّفُوسِ وَالْقُلُوبِ لِفِعْلِ الْوَاجِبَاتِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا، وَتَرْكِ الْمَحْرَمَاتِ الَّتِي نَهَى عَنْهَا.

لِأَنَّهُ الْخَوْفُ مِنَ الْجَزَاءِ وَالْعِقَابِ يَوْمَ الدِّينِ، وَفِي هَذَا النَّصِّ تَصْوِيرٌ لِلْقَطْعَةِ مِنْ

لقطات مَوْقف الحساب في ذلك اليوم، هذه اللقطة تُصوّر حال متظري الحساب يومئذٍ، والصورة تُقدّم أن قلوبهم وأبصارهم تتقلّب من هول الموقف.

أما تقلّب الأبصار فهي حركة تطلّعها في كلّ الجهات ترقباً للأحداث. وأما تقلّب القلوب فهي حركة مشاعر الخوف مرّة، ومشاعر الرجاء والطمع أخرى، ولما كان الأمران ضدّين متقابلين كان تردّد القلوب بينهما تقلّباً.

ليس هذا الجمع بديعاً ورائعاً تحت عنوان التقلّب، لنوعين من الحركة، حركة الأبصار الحسيّة، وحركة القلوب المعنويّة؟!

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾: أي: لا تُلهيهم تجارة ولا يبيّع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، بل هم يعملون بطاعة الله، ليَجْزِيَهُمُ الله عن أعمالهم التي عملوها في الدنيا ثواباً مكافئاً أحسن ما عملوا من أعمالٍ حسنةٍ مقبولةٍ عنده، إذ يرجون بما يقومون به من تسبيحٍ لله عزّ وجلّ بالغُدُوّ والأصال في بيوتٍ أذن الله أن ترفع، باعتبار أن هذا من أعمال البرّ الزائدة على أعمال مرتبة التقوى، أن يرفع الله درجات أعمالهم الصالحة العادية إلى مستوى درجاتٍ أحسن ما عملوا، وأن يُبدّل الله سيئاتهم حسنات، ويجعلها من درجاتٍ أحسن ما عملوا أيضاً، لأنهم ضاعفوا جهادهم لأنفسهم حتى دخلوا في مرتبة الأبرار الذين يُبدّل الله سيئاتهم حسنات، كما قال الله عزّ وجلّ في معرض ذكر صفات فئة عباد الرحمن في سورة (الفرقان / ٢٥ مصحف / ٤٢ نزول)، وهم من أهل مرتبة الأبرار، وربّما كان بعضهم من أهل مرتبة المحسنين الذين هم فوق الأبرار:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وإبان النصّ أن الله عزّ وجلّ يزيدهم من فضله عطاءً فوق مُجَارَاتِهِمْ عن أعمالهم على اختلاف درجاتها ثواباً يكافئ أحسن ما عملوا، فقال تعالى:

﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾. وهذا وعدٌ من الله لهؤلاء الذين سبق بيّانٌ وصفُهُمْ، بأن يزيدهم من فضله ضمن دائرة الحساب.

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: أي: وفوق حساب رفع درجات الأعمال الصالحة الدنيا إلى أحسن ما عمل الأبرار، ليجزيهم الله عليها كأنها من أحسن ما عملوا، وفوق تبديل سيئاتهم حسناتٍ، ليجزيهم عليها كأنها حسناتٌ، وفوق الزيادة التي يزيدها الله تعالى من فضله ضمن دائرة الحساب، فعند الله عز وجلّ عطاءٌ رزقٍ يوم الدين في جنّات النعيم بغير حساب، يُعْطِيهِ الله من يشاء.

ونحن نعلم أن مشيئته تعالى لا تُفَارِقُ علمه وحكمته، وهذا يُرشدنا إلى أن الذين يرزقهم الله بغير حسابٍ، فوق العطاء السابق، الداخِل ضمن دائرة الحساب، هم من السابقين المقربين أهل مرتبة الإحسان، وهؤلاء قد استكملوا حقوق مرتبة التقوى، وتوسّعوا في فعل الخيرات من نوافل الصالحات والعبادات، في درجات مرتبة البرّ، ثم ارتقوا بعباداتهم لربّهم في حركات حياتهم إلى مرتبة الإحسان، فكانوا من المحسنين، فَيَبْدُلُ الله سيئاتهم حسناتٍ، ويجزيهم أحسن ما عملوا، ويزيدهم من فضله ضمن دائرة الحساب، ثُمَّ يَرْزُقُهُمْ من فيض عطائه بغير حساب، وما كان بغير حساب كان فيضاً لا تستطيع الخلائق تقديره بحساب، أمّا الله عز وجلّ فلا يخفى عليه حساب ما كان منه عطاءً بغير حساب، فالمعنى: بغير محاسبة على مقادير الأعمال ومضاعفات جزاءاتها.

ونلاحظُ ممّا سبقَ أن الله عز وجلّ تحدّث عن الأبرار ببعض صفاتهم، وأشار إلى المحسنين بيّانٍ أنه يَرْزُقُهُمْ يوم الدين بغير حساب، وطوى من المؤمنين أهل مرتبة التقوى، من أدنى المؤمنين حتى أعلى درجة من درجات المتقين، لأنّ مناسبة تمثيل نور الله في ذوات تالي آياته ومتدبّريها، الذين يُسَبِّحُونَ الله بالغدو والآصال في بيوتٍ أذن الله أن ترفع، بالمشكاة التي في هذه البيوت، تستدعي بيان أن هؤلاء هم من الأبرار أو من المحسنين الذين هم فوق الأبرار. ويُفهم من العَرَض أن سائر المؤمنين لهم ثواب دون ثواب هؤلاء، وقد تكفّلت ببيانه نصوصٌ أخرى في القرآن.

بعد هذا استدعى البيان ذكر أحوال الذين كفروا في حياتهم، في موضوع حرمانهم من النور الذي يهتدي به المؤمنون اقتباساً من آيات الله في كتابه.

فبعد تقرير أنَّ النور في الوجود كله هو نور الله، وأنَّ آيات الله في قلوب المؤمنين وفي سائر دوائر ذواتهم، تعطيهم من النور بمقدار تدبرهم لها، واستهدائهم بهديها، يظهر بالتقابل أنَّ الكافرين الذين رفضوا الاستهداء بنور كتاب الله وآياته، لا يمكن أنَّ يكون لهم نور يهديهم.

ككيف إذن تكون مسيرة الذين كفروا في حياتهم؟
ويجب البيان القرآنيُّ على هذا السؤال، بأنَّ الكافرين ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: الذين يصنعون لأنفسهم بأوهامهم سراباً، يحسبونه هادياً لهم إلى غاياتهم السعيدة في الحياة، وهؤلاء أذكياؤهم.

القسم الثاني: الذين يتخبطون في ظلماتٍ بعضها فوق بعض، لا يستطيعون أن يصنعوا لأنفسهم بأوهامهم سراباً، ولا يستطيعون أن يصرفوا عن حياتهم تخبطاً ولا عذاباً.

فقال عزَّ وجلَّ:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي: والذين رفضوا الإيمان بالله ورسوله وكتابه واليوم الآخر، وتولَّوا عن آيات الله، ولم يهتدوا بنورها، وطمسوا أدلة الإيمان بالوجود وزُخِرِفَ القول، هم قسمان:

القسم الأول:

﴿أَعْمَلُهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣٩).

﴿أَعْمَلُهُمْ كَسْرَابٍ﴾: أي: كُلُّ أعمالهم مهما كدوا وكابدوا واجتهدوا وتعبوا

من أجل تحقيق ما يتمنّونه من سعادة، ومهما اتّخذوا من وسائل وأسباب، ومهما صنعوا لأنفسهم من مفاهيم ونظريات، أعجبهم بريقها ولمعانها، فهم بها يسعون إلى غاية ليس فيها مما يصورونه لأنفسهم غير أشياء تُشبه السراب.

السراب: هو ما يراه المسافر في الصحراء من بعيد مثل الماء في وسط النهار، وما هو بماء، إنما هي انعكاسات من أشعة الشمس، إذا جاءها الوارد الظمان لم يجدّها شيئاً، وظهّر له أنها كانت سراباً.

وفي هذه الجملة مطويّ مقدّر، يفهمه المتدبّر ببعض التأمل، حين يلاحظ أنّ الأعمال التي يعملونها وهي أشياء وجودية ثابتة ليست هي التي كالسراب، وإنما الذي هو كالسراب ما يكّدون ويكدحون بأعمالهم لبلوغه، ويظّلون كذلك حتى تخترمهم منايهم، عندئذ يدركون أنّهم لم يظفروا بشيء، وأنّ ما كانوا يكدحون لبلوغه قد أفلت من أيديهم، وظهر أنّه كالسراب.

فإنّما أن نقول في التقدير: غاية أعمالهم كسراب، على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه.

وإنّما أن نقول: أعمالهم يعملونها سعيّاً إلى مطالب هي في الحقيقة كالسراب.

فلندرس أحوال طلاب الدنيا من أهل الكفر وأشباههم، هل حقّقوا بعد الكدّ الطويل لسعادة أنفسهم وقلوبهم وطمانيتهم في حياتهم إلّا كما يحقّق الظّامىء في الصحراء السّاعي إلى سراب. كدّ مديد، وأمل عريض، وغاية مقرونة بالخيبة والندم والحسرة، ومواجهة الحساب والجزاء.

ويصوّر البيان في النصّ موقع السراب، استكمالاً للمشهد المادّي، ويصوّر الحالة النفسيّة المقرونة بالأمل، لدى الظّامىء السّاعي إلى السراب، إذ يحسبه ماءً، سيصل إليه، وسيشرب منه حتى يرتوي. فيقول تعالى:

﴿كَسْرَابٍ بَقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾:

الْقَيْعَةُ - والقاعُ: ما استوى من الأرض. والسرابُ يظهر في النهار بالقيعة حين تكون أشعة الشمس ضاربة عليها. واستعمل حرف الباء في «بقية» للدلالة على أن السراب ملاصق للقيعة، ولو كان شيئاً كالماء لكان المناسب استعمال حرف (في).

﴿يَحْسِبُهُ﴾: لم تستعمل مادة «حَسِبَ يَحْسَبُ» في القرآن إلا في الظنّ الضعيف المرفوض، والتصورات الباطلات المخالفات للحقيقة.

﴿الْظَّمَانُ﴾: هو الذي يتحرك الظمأ في بطنه كالغليان.

فكيف تكون حالة الظمان الذي لا ماء معه، فرأى لمعاناً من بعيدٍ فظنه ماءً يترقق على سطح الأرض المنبسطة في امتدادٍ بصره؟

إنَّه لا بُدَّ أن يسعى بكلِّ ما لديه من طاقةٍ سَعَى حتى يبلغ الماء.

لقد أبرز البيان من الصورة السراب، والقيعة، وحركة نفس الظمان، وترك للتالي والمتدبر أن يستكمل بنفسه رسم سائر المشهد، وهذا من روائع الإبداع البياني في تصوير المشاهد في لقطات موجزات.

فأتمم أيُّها المتدبر تصويرَ النهار، والشمس اللاهبة فيه، والصحراء الممتدة، والإنسانِ الظمانِ المتهالك على جرعة ماء، وسَعَى كاداً على الأرض، بترابها، بصخورها، برمالها، بأشواكها، بعقباتها، فاغراً فاه حيناً، ومُرْتَمياً على الأرض حيناً، وراكضاً حيناً، وساعياً حيناً، وماشياً كالأحمر حيناً آخر، وتابِعَ تصويرَ حركات سعيه وكدّه، حتى يصل إلى موقع السراب، فلا يجدُه شيئاً، فيموتَ عنده وهو ظمان، خائبُ المسعى.

كذلك حال فريق من الكافرين طلاب الحياة الدنيا دون الآخرة، وحالُ أشباههم، إنَّهم ما داموا أَصْحَابَ قُوَّةٍ وقدرة على العمل والكُدِّ، فإنَّهم يصوِّرون

لأنفسهم بأوهامهم وظنونهم آمالاً ومطالب، ويتخذون لتحقيقها مختلف الأسباب من معصية الله والإضرار بالناس، ويكدّون طوال حياتهم، حتى يموتوا في الكدّ، دون أن يبلغوا إلى ما هم ظامئون إليه.

ويبني الله عز وجلّ على الممثل به كأنه عين الممثل له فيقول:

﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ﴾:

الممثل به: هو المسافر الذي يجتاز الصحراء، وقد اشتدّ به الظمّ، فرأى سراباً، فأسرّع كاداً كادحاً، حتى إذا جاء لم يجده شيئاً.

والممثل له: هو الكافر الذي يستخدم ذكاءه في تحديد مطامحه وآماله، واتخاذ الأسباب التي يحسب أنها توصله إليها، فيسعى في حياته من خلال أسبابه، لتحقيق غاياته التي تتجدّد دوماً، ويكدّ لاهثاً، حتى تخترمه المنية، دون أن يصل إلى ما يصبو إليه.

هذا الممثل له، هو الذي يجد الله عند سراه، الذي هو مطامحه وآماله، إذ تنتهي عنده رحلة امتحانه في الحياة الدنيا. فيوفيه الله حسابه على ما عمِلَ في رحلة امتحانه.

ولما كان الموت قاطعاً لكل ما في الحياة الدنيا، وكاشفاً أن ما كان يسعى إليه الإنسان منها مثل السراب، وكاشفاً بعض ما يكون بعد الموت من أمور تنتهي بالحساب يوم الدين، ثم بالمصير إلى تطبيق العقاب، اختصر النصّ بإيجازه مسافة ما بين الموت والحساب وفصل القضاء، والمصير إلى حيث ينال جزاءه وافيّاً، كما ظهر بحسابه عمّا قدّم في رحلة امتحانه، فطوى من الأحداث كلّ ما يكون من بعد إدراكه أن ما كان يسعى إليه من الدنيا كالسراب، حتى غاية موقف الحساب الذي تمّ به قرار الجزاء، بالإشارة إلى أنه كان حساباً وافيّاً، ويُشيرُ الحسابُ الوافي إلى المصير التطبيقي لما تمّ بعد الحساب من قضاء، فهو الذي يتحقّق فيه فعلاً توفية الحساب.

هذه اللقطة الموجزة في البيان أغنت في الدلالة على المقصود، وأشارت بذيولها من الأوائل والأواخر إلى سائر الأحداث التي جاء بيانها في نصوصٍ أُخرى من القرآن.

واستغلَّ البيان مناسبة الحديث عن توفية الله عزَّ وجلَّ الكافر حساباً، لبيان حقيقة من حقائق صفات الله، وهي أنه سبحانه سريع الحساب، فقال تعالى:

﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: أي: مهما كانت عناصر الحساب دقيقة ومتشابهة متداخلة، فإن الله عزَّ وجلَّ يُجري حسابها بالسرعة الملائمة لكمال صفاته، وبالدقة التامة التي لا يكون فيها زيادة ولا نقصان مطلقاً، وفي هذا إشارة إلى أن كل أعمال الكافر تعرض بسرعة، فتكون المحاسبة عليها، ويأتي بعدها الحكم، ثم يكون بعده الجزاء.

وبهذه الجملة ينتهي البيان حول القسم الأول من قسمي الذين كفروا، في موضوع جرمانهم من النور الذي يهتدي به المؤمنون اقتباساً من نور الله في آيات كتابه المنزل، بسبب كفرهم وتوليهم عن الاقتباس من نور الله، الذي منه كل النور.

القسم الثاني:

﴿أَوْ كُظِّلِمَتْ فِي بَحْرِ لَيْلٍ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمَتْ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكْدِرْ بِهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (٤١).

يدلُّ هذا التشبيه على أن القسم الثاني من الذين كفروا جهلةٌ أغبياء تبغيون تقليديون، لا رأي لهم، ولا فكر لهم يصنع بريق طُمُوحاتٍ ومطالب يسعون إلى تحقيقها، من خلال أسباب الحياة الدنيا، حتى تكون بالنسبة إليهم كالسراب الذي يسعى إليه الظمان.

بل هم أضلُّ من الأنعام، غرائزيون يتخبطون في الظلمات بحثاً عما يحققون به مطالب غرائزهم وشهواتهم وأهوائهم.

وَأَقْتَصَرَ النَّصُّ هُنَا عَلَى تَمَثِيلِ الظُّلُمَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ وَالْقَلْبِيَّةِ فِي ذَوَاتِهِمْ،
إِذْ لَمْ يَسْتَتِيرُوا بِنُورِ آيَاتِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ، وَلَيْسَ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَادَاتٌ فِكْرِيَّةٌ تَصْنَعُ لَهُمْ
بِالْأَوْهَامِ صُوراً مِنَ الرُّؤْيِ اللَّامِعَةِ الْبَرَّاقَةِ الَّتِي تُشَبِّهُ السَّرَّابَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الظُّمَانِ.

لَكِنَّهُمْ مَدْفُوعُونَ مِنْ قِبَلِ غَرَائِزِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ لِلْكَدِّ وَالْكَدْحِ
وَالْعَمَلِ، مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ مَطَالِبِهَا، فَهُمْ يَتَخَبَّطُونَ فِي الظُّلُمَاتِ.

وَيُبَارِزُ الْمَحَاضِيفُ الَّتِي يَقْتَضِيهَا الْبَيَانُ تَنَكُّشَ لَنَا الرُّوَاطِ وَالْمَفَاهِيمِ.

وَالْتَقْدِيرُ مَعَ إِبْرَازِ الْمَحَاضِيفِ: وَالْقِسْمُ الثَّانِي مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ
تَخَبُّطَاتٌ عَمِيَاءٌ فِي ظُلُمَاتٍ فِكْرِيَّةٍ وَنَفْسِيَّةٍ وَقَلْبِيَّةٍ، كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ ... إِلَى
آخِرِ الصُّورَةِ التَّمثِيلِيَّةِ فِي النَّصِّ.

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾: «أَوْ» حَرْفُ عَطْفٍ لِلتَّقْسِيمِ هُنَا، أَي: لِبَيَانِ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
قِسْمَانِ: قِسْمٌ أَعْمَالُهُمْ كَأَعْمَالِ سَاعٍ إِلَى سَرَابٍ، وَقِسْمٌ أَعْمَالُهُمْ كَمَتَخَبُّطٍ فِي
ظُلُمَاتٍ، وَلَيْسَتْ فِيمَا ظَهَرَ لِي لِلتَّنَوُّعِ فِي ضَرْبِ مَثَلَيْنِ لِقِسْمٍ وَاحِدٍ.

وَجَاءَ لَفْظُ «ظُلُمَاتٍ» جَمْعاً لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الظُّلْمَةَ قَابِلَةٌ لِلتَّرَاكِبِ وَالزِّيَادَةِ،
فَهِيَ ذَاتُ نِسَبٍ بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ، كَمَا أَنَّ النُّورَ قَابِلٌ لِلتَّرَاكِبِ وَالزِّيَادَةِ، فَهُوَ
ذُو نِسَبٍ بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ، كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ لَدَى تَدْبِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نُورٌ عَلَى
نُورٍ﴾.

﴿فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ﴾: اللَّجِّيُّ: هُوَ الْمُنْسُوبُ إِلَى اللَّجَّةِ، وَاللَّجَّةُ مِنَ الْبَحْرِ
مَا كَانَ مِنْهُ عَظِيماً عَمِيقاً، وَهِيَ أَوَاسِطُهُ، أَي: فِي بَحْرِ عَظِيمٍ عَمِيقٍ، وَيُقَالُ: بَحْرٌ
لُجِّيٌّ، أَي: وَاسِعٌ عَظِيمٌ. وَلُجَّةُ الْبَحْرِ: حَيْثُ لَا يُدْرِكُ قَعْرُهُ.

﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾: أَي: يَعْلُوهُ مَوْجٌ. إِذْ فَالظُّلُمَاتُ الْمَشْبُةُ بِهَا هِيَ فِي بَاطِنِ
بَحْرِ لُجِّيٍّ، ضِمْنِ عُمُقِ الْمَاءِ.

﴿مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾: أَي: مِنْ فَوْقِ الْمَوْجِ الَّذِي هُوَ فَوْقَ الظُّلُمَاتِ مَوْجٌ آخَرٌ.

فدلَّ النصُّ على أنَّ الْبَحَارَ ذاتُ أمواجٍ في العمق، وذاتُ أمواجٍ أخرى في السطح، ومن شأن الأمواج أن تمنع الأضواء من النفوذ إلى العمق، إذ تتبدَّد وتتكَسَّر بعنف الحركة، وتتأبَّعها وارتجاجها.

﴿مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾: أي: من فوق الموج السطحيِّ سحب.

ولفظ «سحاب» جمع أو اسم جنس جمعيٌّ مفردة سحابة. والمعنى من فوقه «سُحُبٌ» والسُّحُب من شأنها أن تحجب الأنوار والأضواء الممتدة من النجوم والكواكب والشمس والقمر في اتجاه الأرض.

ولمَّا كان مصدر النور علوياً كانت الظلمات التي في عمق البحر قابلة للتراكب والتزايد بقدر الحُجب وتراكب بعضها فوق بعض، ولمَّا كانت هذه القضية بحاجة إلى ما يُبرِّزها في تصوير المشهد، قال الله تعالى بعد وصف الأمواج والسحب المتراكبة على بعضها:

﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾: أي: تلك الظلمات التي جاء وصفها فيما سبق هي ظُلُمَاتٌ بعضها فوق بعض.

وذلك لأنَّ الأمواج في العمق قد أحدثت مقداراً من الظلمة، والأمواج التي في السطح قد أحدثت مقداراً آخر من الظلمة. والسُّحُب المتراكبة فوق البحر قد أحدثت مقادير أخرى من الظلمة، باعتبارها حجاً حجبت الأنوار العلوية ذات الأشعة الممتدة إلى الأرض.

كذلك حال قلوب الذين كفروا، مَحْجُوبَةٌ عن نور آيات الله بالغرائز، والشهوات والأهواء وما يُحيطُ بها من تقاليد ضالَّة، وبيئات فاسدات، وأفكارٍ ومذاهبٍ رُيُوفٍ يُقْنِعُهُمْ بها شياطين الإنس والجن، ويخدعونهم بألوانها وبريقها.

﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَذِّبْهَا﴾: أي: إنَّ هذا الذي هو في ظُلُمَاتٍ بحرٍ لَجِّيٍّ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحب، وهو الممثلُّ به، إذا أخرج يَدَهُ من

مكان وضعها الطبيعي ، وأدناها من عَيْنِهِ إِذْنَاءً كَثِيراً لَمْ يَكْذِرَاهَا ، من شِدَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ ظُلُمَاتٍ .

﴿لَمْ يَكْذِرَاهَا﴾ : أي : لَمْ يَقْرُبْ مِنْ رُؤْيَيْهَا ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يَرَاهَا ، وَكَثِيراً مَا يَسْتَعْمَلُ الْعَرَبُ مِثْلَ هَذِهِ الصِّيغَةِ بِمَعْنَى : فَعَلَ بَعْدَ شِدَّةٍ وَإِبْطَاءٍ ، فَإِذَا كَانَ هَذَا الْمَعْنَى الثَّانِي هُوَ الْمُرَادُ ، فَإِنَّ النَّصَّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقِسْمَ مِنَ الْكَافِرِينَ لَدَيْهِ مَعَ كُلِّ ظُلُمَاتِهِ إِمْكَانِيَّةٌ أَنْ يُدْرِكَ قَلِيلاً مِنَ النُّورِ الَّذِي قَدْ يَنْفِذُ إِلَيْهِ ضَعِيفاً جِداً مِنْ خِلَالِ الْحُجُبِ الَّتِي أَقَامَهَا بَيْنَ قَلْبِهِ وَبَيْنَ نُورِ آيَاتِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ ، مِمَّا يَصِلُ إِلَى سَمْعِهِ وَفَهْمِهِ بَاهِتاً ضَعِيفاً ، وَأَنْوَارُ آيَاتِ اللَّهِ عُلُويَّةٌ ، لِأَنَّهَا تَنْزِيلٌ مِنْ لَدُنْ عَلِيمٍ حَكِيمٍ .

وَاقْتَصَرَ النَّصُّ عَلَى بَيَانِ حَالِ الْمَشَبِّهِ بِهِ ، وَتَرَكَ لِلْمُتَدَبِّرِ اسْتِكْمَالَ الْمُقَارَنَةِ بَيْنَ الْمَشَبِّهِ وَالْمَشَبَّهِ بِهِ ، وَاسْتِجْلَاءِ عُنَاوَرِ التَّشَابُهِ بَيْنَهُمَا .

أَمَّا بَيَانُ السَّبَبِ الَّذِي وَلَدَ هَذِهِ الظُّلُمَاتِ فِي ذَوَاتِ هَذَا الْقِسْمِ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَهُوَ أَنَّهُمْ رَفَضُوا الْإِيمَانَ ، وَأَلْقَوْا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ نُورِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ النُّورُ الْوَحِيدُ فِي الْوُجُودِ حُجُباً كَثِيفَةً ، مِنْهَا مَا هُوَ قَرِيبٌ مِنْ أَعْمَاقِ ذَوَاتِهِمْ ، وَهِيَ أَمْوَاجُ الْغَرَائِزِ وَالشَّهَوَاتِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ فَوْقَهَا عَلَى سَطْحِ نَفْسِهِمْ ، وَهِيَ أَمْوَاجُ الْأَهْوَاءِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مُظْلَلٌ لَهُمْ وَمُضِلٌّ مِنْ تَقَالِيدٍ وَأَفْكَارٍ وَعَقَائِدٍ وَمَذَاهِبٍ أَمْلَاهَا عَلَيْهِمْ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، فَكَانَ مِنْ نَتَائِجِ اخْتِيَارِهِمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ضَمَّنَ قَوَانِينَهُ التَّكْوِينِيَّةَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ نُوراً .

﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ .
وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْحُكْمُ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْكَلِّيَّةِ مَبْنِياً عَلَى الْمِثْلِ كَأَنَّهُ عَيْنُ الْمِثْلِ لَهُ ، وَهُوَ الْمَشَبَّهُ .

وَهَذَا مِنْ خِصَائِصِ الْأَمْثَالِ الْقُرْآنِيَّةِ ، كَمَا سَبَقَ فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ مِنَ الْكِتَابِ .

* * *

التحليل الأدبي العام للنص

أغراض البيان الأساسية في هذا النص:

يظهر لنا بالتأمل من خلال الشرح السابق للمفردات والجمل، وما يدلُّ عليه النصُّ اقتضاءً ولزوماً ذهنيّاً، أن أغراض البيان الأساسية فيه ثلاثة:

الغرض الأول: الحديث عن آياتِ من القرآن أنزلها الله هدىً للناس، وأنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

● فالقسم الأول منها: آياتٌ مُبيناتٌ لحقائق وشرائع وأحكام وتكاليف ووصايا، ونحو ذلك، وهي في ذواتها مبيّناتٌ مُوضّحاتٌ لا لبسَ فيها ولا غُموض.

● والقسم الثاني منها: ما يتضمّن أخباراً عن أحوال الأمم السابقة بتقديم نماذج وأمثلة تاريخيّة منها.

فمنها ما يتضمّن عرض أمثلة من أخبار نُخبَةٍ مختارة من الناس، ينبغي أن يتخذهم الناس قدوةً وأسوةً حسنةً لهم، فطالِبُو الهداية يقتدون بهم، معتبرين بما كانوا عليه، وبما ظفروا به من عاقبة سعيدة.

ومنها ما يتضمّن عرض أمثلة من أخبار المجرمين والظالمين والكافرين والفساقين، وكيف كانت عاقباتُهم، وفي هذه الأمثلة عبرة للمعتبرين، الذين يستفيدون مما جرى لمن كان قبلهم، فيعتبرون بها، ويتعظون بدلالاتها.

● والقسم الثالث منها: ما يتضمّن وعداً ووعيداً، وبشارات وإنذارات، وتهديداً وإطعاماً.

فالوعدود والمبشرات والإطعامات تستثير في النفوس المؤمنة الرغبَ والطمع، وتحركها للعمل بما يحقق في المستقبل المطلوب.

وَصُورُ الوعيد والإنذارات والتهديدات تستثير في النفوس المؤمنة الرهب والخوف، وتحركها لاتخاذ وسائل الوقاية من المرهوب المخوف.

فكيف جاء في النصّ عرض هذا الغرض؟

لقد جاء بيانه بطريقة مباشرة في الشكل العامّ، ولكنّ فيه من الإيجاز والمحاذيف، واستخدام الاقتضاءات الفكرية، واللوازم الذهنيّة ما يجعله في قِمة الإبداع.

بدأ النصّ بالتأكيد بلام الابتداء «أو اللام الواقعة في جواب قسم محذوف كما يقولون» والتأكيد بحرف «قد» التحقيقية، على أنّ آيات القرآن المجيد منزلة من لدنه، فقال تعالى خطاباً لكلّ صالحٍ للخطاب من الناس منذ التنزيل حتى آخر الدهر:

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾.

فما هو المنزل إلى الناس؟

لقد أبانه الله عزّ وجلّ بعنوان، هو مَقْسَمٌ ذو أقسام، هذا العنوان هو قوله تعالى: ﴿آيَاتٍ﴾ بصيغة التنكير، للدلالة على أنها صنف من آيات القرآن المجيد. وهي ما فيه هداية الناس ودعوتهم إلى صراط الله المستقيم، وترغيبهم فيه، وترهيبهم من اتّخاذ سُبُل أخرى غيره.

وعلى المتدبّر أن يفهم عن طريق الاقتضاء الفكري، واللوازم الذهنية، واستدكار ما جاء في التنزيل قبل هذا النصّ، أنّها آياتٌ لهداية الناس إلى صراط نجاتهم وسعادتهم، في رحلة الحياة الدنيا التي هم فيها ممتحنون، لِيُلْقَوْا حِسَابَهُمْ وَجَزَاءَهُمْ بعدها، منذ أن يطؤوا عتبة البرزخ بالموت، حتى يوم القيامة والحساب والجزاء والمصير الأخير في دار النعيم أو دار العذاب.

بعد ذكر هذا العنوان جاءت في النصّ أقسامه، وهي أقسامٌ عنويّة ثلاثة:

● فالأول: جاء إيجازه بعبارة ﴿مَبِينَاتٍ﴾ بكسر الياء المشدّدة في قراءة، و﴿مَبِينَاتٍ﴾ بفتح الياء في القراءة الأخرى.

وعلى المتدبر الباحث أن ينطلق باحثاً بفكره، ومن خلال نصوص القرآن في سوره، ليفصل هذا العنوان الشامل.

إنه سيكتشف ما في القرآن من آيات واضحة الدلالات، ومبينات للقضايا التي فيها هداية الناس، في مفاهيمهم وعقائدهم وأخلاقهم وشرائع حياتهم، ومنهج سلوكهم الأمثل.

ودل نص آخر مكّي نزل قبل هذا النص المدني، فيه بيان نوع هذه الآيات المبيّنات المبيّنات، وهو قول الله عز وجل في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...﴾ ①

ففيه آيات مبيّنات ومبيّنات تهدي للتي هي أقوم.

● والثاني: جاء إيجازه بعبارة ﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

وهنا على المتدبر أيضاً أن ينطلق باحثاً في القصص القرآنية، ويجمع ما جاء فيها ويدرك أهدافها.

ويكشف الجمع والتحليل ما يلي:

١ - أن من هذه القصص ما هو للاعتبار به خوفاً، وهي قصص المجرمين والظالمين والفساقين، والعصاة لرّب العالمين، والاعتبار هنا يهدي إلى ترك سبلهم، والحذر من ارتكاب مثل ما ارتكبوا.

٢ - وأن من هذه القصص ما هو للاقتداء بأصحابها من الأنبياء والمرسلين ومن أتبعهم بإحسان، وصالحي الأمم السالفة من المؤمنين والمؤمنات، وهذه القصص هي للاعتبار بها أيضاً، ولكن الاعتبار هنا يهدي إلى الاقتداء بهم واتباع خطواتهم الصالحات، لأنه اعتبار يُحرّك الطمع.

وقد جاء بيان هذين الغرضين في عدة نصوص قرآنية متكاملة فيما بينها، فقال الله عز وجل في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول):

﴿ فَأَقْصِرْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١٧)

وقال الله عز وجل في سورة (يوسف / ١٢ مصحف / ٥٣ نزول):

﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (١٣)

وأبان الله عز وجل أنه انتقم من فرعون لأنه كذب وعصى، واستكبر وقال: أَنَا رَبُّكُمْ الأعلى، وعقّب على هذا البيان بقوله تعالى في سورة (النازعات / ٧٩ مصحف / ٨١ نزول):

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴾ (٦٦)

وصرّح بغرض تقديم النماذج الصالحة للاقتداء بها، فقال تعالى لرسوله بعد أن ذكر عدداً من الرُّسل السابقين في سورة (الأنعام / ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَ قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٩٠)

● والثالث: جاء إيجازه بعبارة: ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ وقد عرفنا أن الموعظة هي النصيح بالأمر أو النهي على اختلاف درجاتهما، المقرون بما يثير الرغبة أو الرهبة في الأنفس للانتفاع بالنصح.

وعلى المتدبر هنا أن ينطلق باحثاً في القرآن، ويسبر كل نص فيه أمر أو نهْي أو توجيه لعمل أو ترك، وكل نص فيه ترغيب أو ترهيب، أو وعد أو وعيد، أو بشارة أو إنذار، ليكتشف ما جاء في القرآن ممّا يندرج تحت عنوان «مَوْعِظَةٌ».

وقد جاء بيان غرض الترغيب والترهيب في عدة نصوص قرآنية.

١ — فبعد قول الله عز وجل في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾.

قال تعالى في النص نفسه :

﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿٦﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿١٠﴾ .

فالتبشير وعدٌ يُبشِّرُ الرغب والطمع في الأنفس المؤمنة . والإنذار وعيدٌ يُبشِّرُ الرهب والحدَر في الأنفس المؤمنة . وهما من الموعظة .

٢ - وقال الله عزَّ وجلَّ لرسوله في سورة (مريم / ١٩ مصحف / ٤٤ نزول) بشأن القرآن المجيد :

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿قَوْمًا لُدًّا﴾ : أي : قَوْمًا ذوي خصامٍ شديدٍ مُكابرين معاندين ، لا تلين قلوبهم للأدلة الكافية للإقناع ، فلا وسيلة معهم إلاَّ الإنذار .

﴿لُدٌّ﴾ جمع مفردة «ألدُّ» وهو ذو الخصومة الشديدة ، الجِدَلُ ولو بالباطل .

● أخيراً : ولكن من الذي ينتفع ويستفيد من آياتٍ هي مبينات ومبينات ، وآياتٍ تتضمن مثلاً من الذين خلوا من الأمم السالفة ، وآياتٍ تتضمن موعظة ؟ هل كلُّ من تُوجَّهُ لَهُ هذه الآيات ؟

البيان في النصَّ يُخصَّص ذلك بِقَيْدٍ لازم ، فيقول الله عزَّ وجلَّ في آخر بيان الأقسام الثلاثة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

فينسحب هذا القيد ، ليكون قيداً لقسم ﴿مُبَيِّنَات﴾ ولقسم ﴿مَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ولقسم ﴿مَوْعِظَةً﴾ .

وعلى المتدبِّر أن ينطلق باحثاً عن المتقين ، وتهديه اللوازم الذهنية ودلالات النصوص الأخرى في الكتاب المجيد ، إلى إدراك أن مُتَّخِذَ الوقاية من شيء يُخشى وتُخاف عواقبه ، لا بُدَّ أن يكون قد آمنَ بأنَّ ذلك الشيء تُخَافُ عواقِبُهُ حقاً ، فَمَنْ لم يؤمن بالشيء المُخَوِّف به لم يخفه ، فلم يَتَّقْه . وكذلك من لم يؤمن بالشيء المدعو

للطمع فيه، لم يَطْمَع فيه، فلم يَسْعَ لنواله والحصول عليه، فالإيمان حركةٌ سابقة للتَّقْوَى، تُدْرِكُ ذهنًا، ولولم يُصْرَحْ بها في اللَّفْظ، وقبل الإيمان تأتي أعمال فكريَّة ونفسيَّة تُهَيِّئُ لحركة الإيمان، يَكْشِفُهَا التَّأَمُّل والنَّظَرُ في عوامل النفس المختلفة، التي تُمَثِّلُ عقبات تَصُدُّ عن الالتفات إلى دعوة الحق، والنَّظَرُ فيها، أو قبولها والاستجابة إليها.

وكلُّ هذا قد تركَهُ النَّصُّ للباحث المتدبِّر المتفكر، ليظل النصُّ في مستوى بيانه الكَلِّي الدستوري، الواضع لعناوين بحوث ذوات تفصيلات واسعات، يجدها متدبِّر كتاب الله منبئةً في سُورِهِ وآيَاتِهِ.

وهل كلُّ المتقين على مستوى واحد؟

ينطلق الباحث فيكتشف أنهم على درجات أدناها الناجون من الخلود في النار والعذاب، وأعلاها الناجون من استحقاق العقاب، بقيامهم بالواجبات، وتركهم للمحرَّمات.

هذا ما يتعلَّق بالغرض الأوَّل من أغراض النصِّ.

* * *

الغرض الثاني: بَيَانُ أَنَّ آيَاتِ الله في كتابه هي نورٌ من نوره العظيم الذي لا نُورَ في الوجود غيره. فمن آمن بهذا النور واستهدى به كان له حظٌّ من الاستقامة في الحياة ومن السَّعَادَةِ العاجلة والآجلة، بمقدار انتفاعه واستفادته من النور. ومن كفر به وتولَّى عنه لم يكن له نور يوصله إلى ما يُحَقِّقُ له هُدًى في حَيَاتِهِ، وغايةً سعيدةً حقيقيَّةً، في عاجلِ أمره وآجله.

فهل جاء بيان هذا الغرض بصورة مباشرة؟

هنا نجد النصُّ يتعد عن البيان المباشر ابتعاداً كبيراً، فيبدأ بالحديث عن النور كَلِّهِ في السماوات والأرض، ما كان منه مادِّيًّا يُشَاهَدُ بالأبصار، وما كان منه معنويًّا يُدْرِكُ بالأفكار والقلوب والنفوس والبصائر، كالأنوار الفكرية التي تكشف

الحق والخير والجمال والكمال والفضائل وأضدادها، وكأنوار الهداية التي تهدي الخلائق في عقائدهم ومفاهيمهم وعلومهم وكل أنواع سلوكهم في الحياة، في بيانات الله ورُسُلِهِ.

فيقرر النص منذ الجملة الأولى منه أنه لا نور في السماوات والأرض إلا من الله، مَصْدَرًا، وإمدادًا، وتمكينًا، وتسخيرًا، ولا نور في السماوات والأرض إلا هو له سبحانه، أي: فمن استهدى بنوره وانتفع منه كان له نور، ومن تَوَلَّى عنه والتمس نوراً غير نوره لم يجد نفسه إلا في أوهام نُورٍ كاذب، أو يتخبط في الظلمات.

فكيف جاء التعبير عن هذه الفكرة؟

إنَّ من أساليب الناس عامَّة، ومن أساليب أهل البيان العربي، أنهم إذا رأوا — على سبيل الحقيقة أو المبالغة — انحصار شيء كصفة أو عمل أو أثر ما، في شخص من الأشخاص كان من تعبيرهم عن هذا الانحصار بجعل ذلك الشيء هو عين ذلك الشخص فيخبرون به عنه.

فيقولون مثلاً: الجيش هو القوة في البلاد، أي: هو ذو القوة التي لا تُقاوم ولا تُضَارَع.

ويقولون في قاضٍ عُرِفَ بالعدل من بين القضاة، هذا القاضي هو العدل كله، أي: هو ذو العدل المتفرد به من بين القضاة.

ويقولون في فارسٍ شجاعٍ فاقَ شجاعته كلَّ الشجعان: هذا الفارس هو الشجاعة كلها.

وكلامهم هذا هو على سبيل الادِّعاء والمبالغة، والمعنى أنه هو المتفرد بكمال هذه الصفة.

ويقولون في إنسان يملك من الذهب ما لا يملك عشرات من أغنياء البلاد سواء: فلان هو الذهب. أي: ذو الذهب الأعظم، فكان الذهب قد انحصر فيه.

إلى غير ذلك من أمثلة، وهي لا تصحّ في الناس إلا على سبيل المبالغة، فكيف إذا كان الانحصار حقيقياً وشاملاً؟

أقول: إنّ مثل هذا التعبير يكون عندئذٍ صادقاً مطابقاً لا مبالغة فيه، وهو من الأساليب البيانية الدالة على الحصر.

على مثل هذا نفهم قول الله عزّ وجلّ:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أي: هو وحده ذو نورهما، فكلُّ النور المادّي والمعنويّ فيهما منه، وله، سبحانه.

وإذ لم يَهْتَدِ بَعْضُ المتدبرين إلى هذا الفهم في هذه الجملة القرآنية، وقعوا في إشكالات كثيرة لم يكن في الواقع داعٍ إلى طرحها.

إنّ هذا الأسلوب من التعبير مع تعريف ركني الإسناد: المبتدأ بالعلميّة، والخبر بإضافته إلى المعرّف بالألف واللام، هو من أكمل أساليب الحصر وأخصرّها.

ويفهم المتدبّر عن طريق اللوازم الذهنيّة أنّ أحداً لا يمكن أن يأتي بنور أو يكون له نور، إلّا اقتباساً من نور الله، أو أنّ الله منحه من نوره نوراً مادّياً كان أو معنويّاً. حتّى أنوار المعرفة الكونيّة، التي يصل إليها الباحثون في ظواهر الكون، إنّما هي عطاء من الله لأذهانهم وأفكارهم وسائر ملكات المعرفة وأدواتها لديّهم.

إذن: فهل بعد نور الله إلّا الظلمات، أو أوهام نور كاذب؟

كذلك ليس بعد الحق الذي يهدي إليه نور الله، إلّا الضلال الذي تدفع إليه الظلمات، بعمى الأبصار، أو عمى البصائر، وعمى البصيرة، إنّما هو اكتساب يكتسبه الكافر الجاحد، ويجني به على نفسه بإرادته ورفضه للاهتداء بنور الله.

فجملة: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: وفق المعنى الذي سبق بيانه ويطمئنّ إليه القلب، قضيةً كليّة عامّة، تتفرّع عنها بحوث تفصيليّة كثيرة واسعة،

وتلزم عنها لوازم ذهنيّة فكرية كثيرة، وقد أوجزها البيان الربّاني بهذا الإبداع مستخدماً أسلوباً من أساليب الناس في كلامهم الرفيع.

وقد جعلت هذه القضية الكلية مقدّمة للحديث عن نور آيات الله في كتابه المجيد، المشتمل على ما تنحصر به هداية الناس إلى صراط سعادتهم العاجلة والآجلة.

فكيف جاء البيان القرآنيّ المتعلّق بالحديث عن نور آيات الله في كتابه؟

هنا نلاحظ أنّ النصّ قد انتقل من تقرير الحقيقة الكلية السابقة، إلى بيان يتضمّن ما يُراد توصيله من مفاهيم متشابكة، حول نور آيات الله في كتابه، مع الإشارة إلى اختلاف نسب مقادير انتفاع المؤمنين ذوي الدرجات المتفاوتات واستفادتهم من هذا النور، ومع إضافات تتعلّق ببيوت الله المساجد في الأرض، التي تهياً فيها مقادير أكثر كمّاً وكيفاً من استفادة عامة المؤمنين بنور آيات الله.

إنّ آيات كتاب الله المنزل إلى الناس، والتي بدأ النصّ بالحديث عنها، هي مثّل من نور الله العظيم الذي لا حدّ له، أي: (نموذج) بيانيّ كلاميّ ممّا يشتمل على نور من أنوار علمه وهدايته لعباده جلّ وعلا.

وهذا المثل (النموذج) من نوره هو: مثل في معانيه، إذ هو حقّ وصدق ويهدي للتي هي أقوم، صافٍ من كلّ شائبة، إذ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا غش فيه ولا كدورة، كاملٌ في مبانيه وألفاظه الصافية البرّاقة المشرقة الناشرة لمعانيه بدلالاتها المتشابكة المتداخلة العجيبة، كاملٌ المدد الذي يمدّه دوماً ليظلّ عطاءً نوره دائماً وصافياً.

ولكن لم يأت التعبير عن هذه الأفكار بهذه الصورة المباشرة الساذجة، وإنّما جاء التعبير عنها من خلال صورة تشبيهيّة بديعة، أدّت هذه المعاني، وزادت عليها، فقد تضمّنت ما فيه توطئة للحديث عن بيوت الله في الأرض، وهي المساجد.

فقال الله عز وجل:

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾:

أي: مَثَلُ آيات كتابه التي سبق الحديث عنها في بداية النص، والتي هي مَثَلُ من نوره العظيم، فالقرآن بالنسبة إلى سائر كلام الله كقطرة من بحر عظيم يمدّه من بعده سبعة أبحر.

﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّي يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾.

المشكاة: مِثَالُ ذات المؤمن التالي لآيات الله والمتدبّر لبعض معانيها، والمؤمنون في هذا يتفاضلون كما تتفاضل المشاكي.

المصباح: مِثَالُ قلب المؤمن وفكره حين يَسْتَمِدُّان شُعْلَتَهُمَا مِنْ مَدَدِ آيات الله.

النور: مِثَالُ المعاني التي تَدُلُّ عليها آيات الله في كتابه.

الزُّجَاجَةُ: مِثَالُ الألفاظ والأساليب الكلامية البيانية البائنة الناشرة بدلالاتها البديعة العجيبة للمعاني المرادة من الآيات، مهما تداخلت وتشابكت، وكان لها لوازم ذهنية، ومهما كان في الصيغ اللفظية من محاذيف يُمكنُ الاستدلالُ عليها عن طريق الألفاظ المذكورة، أو عن طريق المعاني واقتضاءاتها ولوازمها.

الزيت الذي يمدّ المصباح: مِثَالُ واردات العلم التي يمدّ الله بها الصادقين من عباده المؤمنين المتدبّرين لآياته، فهو مَدَدٌ صافٍ يكاد يضيء لشدة صفائه، ولو لم يَنْقَدِحْ عليه زَنَادُ فِكْرِ المؤمن المتدبر.

الشجرة المباركة الزيتونة: مِثَالُ شجرة العلم الربّاني العظيمة، التي تمتدّ ببحور زيت المعرفة، إلى كل مؤهل للاستفادة منها، ومُعَدُّ نفسه للبحث والاقتباس.

والمعنى : أن آيات الله التي هي مثل «أي : نموذج» من نور الله العظيم، في قلب المؤمن المتفتح بها، والمستضيء بما تبثه من نور علم وهداية، والمتعهد لبيوت الله بالغدو والأصال والذي يذكر الله فيها، والعامل في حياته بمقدار ما مما ترشد إليه آيات الله في كتابه، هذه الصورة المجتمعة من أجزائها المتعددة هي، كمشكاة في بيت من بيوت الله، وفي هذه المشكاة مصباح، وهذا المصباح تحيط به زجاجة نفيسة بديعة كأنها كوكب دري، والمصباح مُسْرَج يضيء، ويمدّه وقود زيت نقي صافٍ معتصر من شجرة مباركة زيتونة، لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء لشدة صفائه، ولو لم تَمْسُسُهُ نار، والمصباح في الابتداء أُسْرَج فتوقّد، وفي الدوام يُوقّد، فالزجاجة من أثر المصباح تُوقّد من نور المصباح.

صورتان متقابلتان عقّد النصّ تشبيهاً بينهما، على طريقة تشبيه التمثيل، ولدى تحليل المثل نلاحظ تقابلاً بين أجزاء الصورتين فيه، وكل جزء من صورة المشبه تشبه جزءاً من صورة المشبه به، وهذا من أدق تشبيه التمثيل وأعلاه.

وبأسلوب غير مباشر أدى المثل المعاني المرادة أدق وأخصره وأجمله، وهذا من روائع الأدب.

وقد سبق بيان التقابل بين أجزاء الصورتين.

أمّا تفاضل أفراد المؤمنين في مقادير ما يستفيدونه من تدبّر آيات الله في كتابه فيفهم من واقع حال تفاضل المشاكي، وتفاضل المصابيح فيها، إذا قدرنا أن المشكاة مثال ذات المؤمن، وأن المصباح مثال قلبه وفكره.

وبعد أن أدى هذا المثل التشبيهي أغراضه البينانية مع ما فيه من إمتاع جمالي، نلاحظ فيه ما يلي :

من البديع في صورة هذا المثل ما جاء فيها من رسمٍ كاملٍ ، بلوحة كلامية رائعة :

١ - لقد بدأت برسم مكان المصباح، وهي المشكاة.

٢ - ثم رسمت زجاجته الدَّريَّة المشعة .

٣ - ثم انطلقت بحركة سريعة، فعرضت مشهد الشجرة المباركة التي تمدّ المصباح بالزيت الصافي، فهي نابتة في أرضٍ واسعة لا تُحجَّب عنها الشمس عند الشروق، ولا تُحجَّب عنها الشمس عند الغروب، فضلاً عن سائر النهار، وبسبب ذلك تكون الشجرة خَضِرَةً نَضِرَةً صافية الزيت .

٤ - ثم رسمت صُورَةَ الزَّيْتِ الصافي، فأبانت أنه من شِدَّة صفائه يكاد يُضِيء ولو لم تَمْسُسْهُ نار . وكذلك نور آيات الله وكلماته، تكاد تضيء ولو لم يقدر الفكر المتدبّر عليها زَنَادَهُ .

٥ - وتركَت الصورة التمثيلية للخيال أن يستكمل بنفسه مشاهد أخذ الزيتون بعد صلاحه، وعصره في معاصره، واستخلاص الزيت منه، إذ لا داعي لذكرها . وقدّمت مشهد الزيت الصافي المتلامع في أشدّ حالات لمعانه .

٦ - ولَمَّا اجتمع صفاء الزيت، وصفاء نور المصباح، وصفاء الزجاج المشعة مع لونها الدَّري، التي تزيد النور وتضاعفه بانعكاساتها، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ : متراكب بعضه فوق بعض تراكباً يَزِيدُ من قوته وشِدَّتِهِ .

وهنا نلاحظ أنَّ المدد بالزيت بالغُ درجة كماله، وأنَّ الزيت بالغُ درجة كماله، وأنَّ النور بالغُ درجة كماله، وأنَّ الزجاج بالغُ درجة كَمَالِها في جوهرها ولونها، وأنَّ المشكاة التي هي الكوَّة التي فيها المصباح هي المكان الأنسب لوضع المصابيح التي من هذا النوع .

فَاللَّوْحَةُ التمثيلية قد استكملت كلَّ عناصرها بدقَّة تامَّة .

ففي هذا المثل من الخصائص الفنيَّة ما يلي :

أولاً : دقَّة التصوير مع إبراز العناصر المهمة من الصورة التمثيلية .

ثانياً : التصوير المتحرك في العناصر القابلة للتحرك فيه، كنور المصباح، وحرركة إيقاده .

ثالثاً: صدق المماثلة بين المثل والممثل له .

رابعاً: حذف ما يمكن تصويره أو استدعاؤه ذهنياً، وعدم الإشارة إليه باللفظ .

خامساً: البناء على المثل والحكم عليه كأنه عَيْنُ الممثل له ، على اعتبار أنَّ المثل قد كان وسيلة لإحضار صورة الممثل له في ذهن المتلقي ونفسه .

وإذ قد حضرت صورة الممثل له ولو تقديرًا ، فالبيان البليغ يستدعي تجاوز المثل ، ومتابعة الكلام عن الممثل له ، وتسقط صورة المثل لتبرز القضايا المقصودة ، وكأنَّ المثل قد تلاشى ، وظهرت حقيقة الممثل له .

وهذا يظهر لنا في قوله تعالى :

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ : أي : فمن استجاب لدعوة الإيمان ، وتدبَّر آيات الله بصدق ، وكان من طلاب المعرفة ، ظهرت له من أنوار العلم الرباني في كتابه على مقدار استعداده .

ولا يترك الله البيان دون أن يُعَقَّبَ عليه بما يؤكد بعض صفاته سبحانه ، تأصيلاً لعناصر الإيمان به وبحكمته وعلمه إلى غير ذلك مما تقتضيه المناسبة من صفاته .

وهنا يقول الله عزَّ وجلَّ :

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

بعد هذا يعود النصُّ فيتمُّ اللوحة التمثيلية ، فيرسم البيوت المقصودة التي يوضع فيها هذا النوع من المصابيح ، ويرسُم من في هذه البيوت من الناس الذين شُبِّهت ذواتهم بالمشكاة ، وشُبِّهت قلوبهم بالمصابيح التي هي أدوات إذا أوقدت ، وكان لها زيتٌ يُمَدُّها أعطت شعلتها نوراً .

أما البيوت فهي المساجد ، وأما مَنْ فيها فهم رجالٌ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ فيها بالغدو والأصال ، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون

يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

ومن الرائع في هذه التَّعَمُّة، أَنَّ المتفعين بمصباح المثل هم الذين ينتفعون بما أنزل الله من نور في آيات كتابه.

إنَّهم أهل بيوت الله والذكر والصلاة والزكاة، وهم طلاب الآخرة والثواب الجزيل عند الله، فمثل آياته لهم، كمثل نور المصباح الذي وُصِفَ لهم، والذي يُضِيءُ في بيوت عبادتهم لربهم، والشبه بين ذواتهم وقلوبهم وبين عناصر من المثل شبه قائم.

لقد جاء المثل كذلك ليكون ذا مضمون توجيهي يجمع تصوُّرات المتلقِّي فيما ضُربَ له المثل.

* * *

الغرض الثالث من أغراض النصِّ: بَيَانُ أَنَّ الناس بالنسبة إلى النور الذي تَتَضَمَّنُهُ آيات الله في كتابه المجيد، ينقسمون إلى قسمين عامَّين:

القسم الأول: الْمُؤْمِنُونَ على مراتبهم ودرجات كلِّ مرتبة منها.

القسم الثاني: الْكَافِرُونَ على دركاتهم ومستوى كلِّ دركة منها.

أما الْمُؤْمِنُونَ فقد جاء وصف حالهم بالنسبة إلى نور آيات الله في كتابه تمثيلاً في مضمون مَثَلِ المشكاة، فهم كالمشاكبي على اختلافها وتفاضلها، وقلوبهم المدركة كالمصابيح التي هي أدوات قابلة للإيقاد على اختلافها وتفاضلها، وانتفاعهم بالنور هو على مقدار شعلة كلِّ واحد منهم، وما تمتصُّ من المدد في الفهم والتدبُّر، ومقدار ما يتأثر كلُّ منهم اهتداءً بالنور في حياته.

وجاء ذكر أهل مرتبة البرِّ، وأهل مرتبة الإحسان منهم، في قوله عزَّ وجلَّ:

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا
تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (٣٧) لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ
يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٨﴾ .

وقد سبق تدبر هذا البيان عنهم .

وترك النص الحديث عن أهل مرتبة التقوى على اختلاف درجاتهم وتفاضلهم فيما بينهم، ووكل ذلك إلى أهل التدبر يَتَمَوَّنُهُ عن طريق ما يُفهم ذهنًا من لزوم استكمال مراتب المؤمنين، ودرجات كل مرتبة منها، مع ما في النصوص القرآنية الأخرى الموزعة في السور، من بيان عنهم، وعن درجاتهم، فمنهم مقتصدون، وهم الذين استكملوا متطلبات مرتبة التقوى دون زيادة ومنهم ظالمون لأنفسهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ومنهم مسرفون على أنفسهم، وأدناهم آخر من يخرج من النار ويدخل الجنة، بعد أن ذاق عذاب التطهير والتكفير عن السيئات .

وأما الكافرون الذين تَوَلَّوْا عن الاهتداء بنور آيات الله، ورفضوا الاستجابة لنداءاتها، وكذبوا بها، فقد جاء بيان مسيرة حياتهم في الدنيا عن طريق ضَرْبِ مَثَلَيْنِ، هَدَانَا تدبرهما إلى أن الله عزَّ وجلَّ يُبَيِّنُ لنا أن الكافرين نَوْعَانِ كليَّانِ، فالمثل الأول للنوع الأول منهما، والمثل الثاني للنوع الثاني على الترتيب .

فالنوع الأول منهما: هم قادة أهل الكفر، من أهل الرأي والفكر، والتقدير والتدبير، ورسم الخطط ووضع المناهج، وتحديد الأهداف والغايات الدنيوية، وهؤلاء على درجات متفاضلات ذكاء وطموحات .

وقد ضَرَبَ الله لمسيرة هؤلاء في حياتهم مثلاً بظمآن يسعى ويكد في الصحراء إلى سَرَاب .

ولكن المثل قد جاء مختزلاً مقتضباً، فيه محاذيف يستطيع المتدبر إدراكها وتقديرها .

فجاء النصُّ بالعنوان أوَّلاً، فقال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

ولمَّا أدركنا أنَّ المثليين بعد ذلك هما لنوعين، علمنا أنَّ المثليين كليهما هما معاً خبرٌ هذا المبتدأ.

وعلى طريقتنا التقسيمية نقول في خبر هذا المبتدأ: والذين كفروا نوعان، فالنوع الأول مثلهم كذا، والنوع الثاني مثلهم كذا.

وفي اختزال مثل قادة أهل الكفر قال تعالى :

﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيعةٍ﴾.

والمتدبر هنا يفهم بسرعة أنه ليس المراد تشبيه ذوات الأعمال بالسراب ولكن المراد تشبيه غاية أعمالهم عندما يصلون إلى آخر حركة منها في حياتهم الدنيا بالسراب.

فانتقى البيان من الصورة العامة للمثل : لقطة أعمالهم من الهيئة الكاملة ذات الأجزاء المتعددة للمشبه، ولقطة السراب من الهيئة الكاملة للمشبه به، وعلى المتدبر المتفكر الحضيف أن يتم سائر الأجزاء من صورة المشبه، وسائر الأجزاء من صورة المشبه به.

ويسهل على المتدبر أن يستخرج بذكائه سائر العناصر متى لاحظ أحوال قادة أهل الكفر، ولاحظ نهاياتهم بعد كدِّهم الطويل الشاق في الحياة الدنيا.

ترسم لهم نفوسهم مطامح وآمالاً جسيمة عظيمة، يتوالى تجددها كلما بلغوا مبلغاً منها فاكشفوا أنه لم يرو ظمأهم، ولم يحقق لهم ما كانوا يحلمون به.

ويُفكرون بالوسائل والحيل لبلوغ مطامحهم وآمالهم، ويرسُمون الخطط ويُقدِّرون ويُدبِّرون، ويتخذون الوسائل، ويعملون كاذبين كادحين من خلالها، يتحمَّلون ألوان المتاعب الفكرية والنفسية والقلبية والجسدية، ليُلهم قَلقٌ وسهر، ونهارهم كدحٌ وكدٌّ وعمل، وتعرضهم مشكلات الحياة وعقباتها وصراعاتها،

فِيْغَالِبُونَ لَجَلْبِ الْمَغَانِمِ، ودفع المخاطر والمغارم، ويصطدمون بأنواع من البلى والمصائب، فيسعون للتخلص منها، هذه في أنفسهم، وهذه في أموالهم، وهذه في أهلهم وذويهم، وهذه عامة شاملة في بلدهم وقومهم، إلى غير ذلك مما لا يحصر. أما آمالهم وطموحاتهم فما زالت بعيدة عنهم، فيعملون ويعملون، ويصرفون في الخطط والوسائل، ويظنون كذلك حتى لحظة الموت، التي تخيب عندها كل مساعيهم، وأعمالهم، وأفكارهم، وتخطيطاتهم، ووسائلهم وأسبابهم، وطموحاتهم وآمالهم، أما لذات الحياة التي تناولوا شيئاً منها فلم تكن قادرة على منحهم السعادة الحقيقية، والقليل منها لا يأتي إلا مقروناً بالمنغصات والأكدار، فيا خيبة المسعى.

هذه الصورة مع كل فروعها التفصيلية، والمختلفة من شخص إلى آخر منهم، التقط البيان منها «أعمالهم» ليشير هذا التعبير إلى كل صورة المشبه في كدح الحياة الدنيا وكدها، ومتاعها وآلامها، ثم تأتي النهاية التي تتحقق عندها الخيبة، وتأتي معها مشاعر البؤس والتعاسة والندم والحسرة، والخوف العظيم من عبور نفق المصير.

أما صورة المشبه به، فظمان شديد الظمأ متهيّج، عابر في صحراء لا يعرف فيها مصدر ماء، فترأى له من بعيدٍ سرابٌ يتحرك متكسراً كغديرٍ أو بركة ماء، فأسرع نحوه، يكدّ ويعمل متحملاً مشقات اجتياز الصحراء في حرارة الشمس اللأهة، وينطلق الخيال في تصوير حالة هذا المجتاز، في ظاهر حركاته الجسدية، وباطن حركاته النفسية، وحين يصل إلى مكان السراب يجد أنه كان مخدوعاً قد التبس عليه الرؤى الكاذبة بالرؤية الحقيقية، واكتشف أنه كان يسعى لا إلى شيء يروي ظمأه الشديد، أو يئيل به ريقه، فيرتمي بائساً تعيساً حزيناً، يتلوّى ظمأً، ويتقلب ألماً، ويتمنى الموت ليتخلص مما هو فيه.

وقد التقط البيان في النص من هذه الصورة مع كل فروعها التفصيلية عبارة واحدة، فجعلها هي المشبه به، فقال تعالى:

﴿كَسْرَابٍ بِقِيَعِهِ يَحْسَبُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾.

وَيَسْهُلُ عَلَى الْمُتَدَبِّرِ أَنْ يَرَسُمَ تَيْمَّةَ صُورَةِ الْمَشْبَهِ بِهِ، مِنْ خِلَالِ ملاحظاته
لِوَاقِعِ أَحْوَالِ النَّاسِ، حِينَما يَتَعَرَّضُونَ لِمِثْلِ هَذَا الظَّمْأِ الشَّدِيدِ فِي صَحْرَاءِ قاحلة،
فَيَتَرَأَى لَهُمْ سَرَابٌ مِنْ بَعِيدٍ.

وهذا مِنْ بَدِيعِ الْإِيْجَازِ الَّذِي تُغْنِي فِيهِ الْإِشَارَةُ وَالرَّمْزُ، عَنْ تَفْصِيلِ الْعُنَاصِرِ
وَالْأَجْزَاءِ، وَذَكَرَهَا بِدَقَائِقِهَا، لَا سِيَّما إِذَا كَانَ الْبَيَانُ صَادِرًا عَنِ الْكِبَارِ وَالْعِظَمَاءِ، وَفِي
الْمُخَاطَبِينَ فَطَناءَ أَذْكَياءَ يَقُومُونَ بِشَرْحِ الْمَوْجِزَاتِ لَجَمَاهِيرِهِمْ.

وهنا نلاحظ أَنَّ ضَرْبَ الْمِثْلِ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ انْتَفَعُوا بِنُورِ آيَاتِ كِتَابِ اللَّهِ
انْتِفَاعًا مَّا، قَدْ اقْتَضَى ضَرْبَ الْمِثْلِ أَيْضًا لِمَنْ أَعْرَضَ عَنْ نُورِ الْهُدَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ،
وَجَعَلَ يَصْطَنِعُ لِنَفْسِهِ أَوْهَامًا وَرَوَى يَجْعَلُهَا بِمِثَابَةِ النُّورِ، وَهِيَ كُؤَاذِبٌ، وَيَعْتَمِدُ عَلَى
ذِكَائِهِ وَحِيلِهِ وَخَطَطِهِ، وَيَلْتَمِسُ نُورًا غَيْرَ نُورِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَوْجَدُ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ نُورٌ سِوَاهُ، فَيَصَابُ بِخَبِيَةِ الْعَاقِبَةِ.

وفي هذا المثل الرائع ظهر لنا مِنْ خِصَائِصِ الْأَمْثَالِ الْقُرْآنِيَّةِ مَا يَلِي:
أولاً: صدق المماثلة بين الممثل به والممثل له.

ثانياً: التصوير المتحرك في ﴿يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾.

ثالثاً: حذف ما يمكن استدعاؤه ذهنًا، وتصويره، اعتماداً على ذكاء المتلقي،
وتقديرًا ضمناً لفطنته.

رابعاً: البناء على المثل، والحكم عليه كأنه عَيْنُ الممثل له، على اعتبار أَنَّ
المثل قد كان وسيلة لإحضار صورة الممثل له في ذهن المتلقي ونفسه.

وإذْ قد حضرت صورة الممثل له ولو تقديرًا، فالبيان البليغ يستدعي تجاوز
المثل، ومتابعة الكلام عن الممثل له، وتسقط صورة المثل، لتبرز القضايا
المقصودة، وكأنَّ المثل قد تلاشى، وظهرت حقيقة الممثل له، وهذا يظهر لنا هنا
في قول الله عزَّ وجلَّ بعد عرض المثل مُباشرةً:

﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ﴾

فالكافر من الأئمة القادة لجماهير الكافرين، يُدرك عند الموت وبعده أنه كان يسعى في حياته إلى شيء هو كالسراب، رؤى كواذب، إذ تظهر له الحقيقة حين يجد حسابه وجزاءه عند ربّه، على ما قدّم في رحلة ابتلائه في الحياة الدنيا. ولا يدعُ الله البيانَ دُونَ أن يُعَقَّبَ عليه، بما يؤكِّد بعض صفاته، تأصيلاً لعناصر القاعدة الإيمانية، فيقول عز وجل:

﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣٩).

والنوع الثاني من الذين كفروا: هم الإمعيون التبعيون التقليديون، الذين يصعبُ على قدراتهم الفكرية المتدنية أو المهملة أن يصنعوا فيها بأنفسهم لأنفسهم آمالاً عريضة وطموحات، وأن يتخذوا لها وسائل وأسباباً، ويرسموا الخطط ويُقدِّروا ويُدبِّروا.

وهؤلاء تكون غرائزهم الآنية وأهوائهم وشهواتهم ومطالبهم لمستقبل معاشهم هي المحركة لهم في حياتهم.

فيعملون على غير هدى، ويتبعون مقلّدين على غير بصيرة، أو متخبطين عشوائيين، وهؤلاء على دركات متنازلات، في قدراتهم الفكرية، وطموحاتهم ومطالبهم في الحياة.

فكيف جاء في النصّ عرض هذا النوع؟

لقد ضرب الله عز وجلّ لمسيرة هؤلاء في حياتهم مثلاً بمتخبط في عمق بحرٍ عظيم، تحت أمواج في العمق، فوقها أمواج في السطح، فوقها سحبٌ متراكمة، لا يدري أين سير، ولا كيف يكون المصير، ثم تأتي منياهم، ويلقون عند ربهم حسابهم وجزاءهم، إذ رفضوا الاهتداء بنور آيات الله في كتابه، وقد كان بإمكانهم أن يهتدوا بها لو أنهم لم يعطّلوا قدرات الفهم لديهم، ولم يتبعوا أهواءهم وشهواتهم.

وفي اختزال المثل لهذا النوع من أهل الكفر قال الله عز وجل :

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ .

فانتقى البيان من الصورة العامة للمثل : لِقَطَةِ الظُّلُمَاتِ المتراكبات المتراكمت في بَاطِنِ بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ، يغشى هذا الباطن موجٌ يُضيف ظلمةً إلى ظلمة الباطن ، ومن فوق هذا الموج موجٌ في السطح يُضيف ظلمةً أخرى ، وفوقه سحب متراكم بعضه فوق بعض ، وهو أيضاً يضيف ظلمات ، كما سبق بيانه ، كل هذا بيان لحال الظلمات في عمق البحر اللُّجِّي .

وجاءت الإشارة إلى المتخبط فيها بقوله تعالى : ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ فدلَّ هذا على أنه في العمق يتخبط ، وقد حُذِفَ من اللَّفْظ ذكر المتخبط في الظلمات في بدء النص ، استغناءً بهذه الإشارة ، وهذا من بدیع الحذف .

وترك النصُّ لذهن المتدبر استكمال صورة حالة المتخبط في ظلمات عمق البحر الموصوف .

وترك له أن يقيس عليها أحوال الإِمْعِينَ التَّبْعِينَ التَّقْلِيدِيِّينَ والجهلة الأغبياء من أهل الكفر الذين رفضوا الاستجابة لنداءات الرب الخالق في آيات كتابه المجيد ، وهم يملكون الاستجابة لها ، وعندهم من المدارك ما يكفيهم لمعرفة الخير والشر في الحياة ، على مقادير أفهامهم ، وما هم مسؤولون عنه في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا .

ومثل هذا الحذف هو من روائع أساليب البيان الموجز ، الذي يصدر عن العظماء والكبراء والملوك ، فكيف ببيان ملك الملوك ورب العباد ؟!

وينطلق ذهن المتدبر المتفكر ، فيُذِرُك بسهولة مصير هذا المتخبط في ظلماته ، سواء أكان في صورة المثل ، أو في صورة الممثل له .

إن مسيرته شقية تعيسة ، ونهايته وخيمة حزينة .

لقد رفض نور آيات الله في كتابه، فمن أين يأتيه النور، وأتبع أصحاب الرؤى الكواذب، فليس له وراءهم إلا الظلمات يتخبط فيها، أو انطلق على غرائزه وأهوائه وشهواته دون أي تفكير أو تدبير، فليس بين عينيه إلا الظلمات يتخبط فيها. إنه لمثل بديع يصور أحوال هذا النوع من الذين كفروا في مسيرة حياتهم بغير نور يهديهم.

ويظهر لنا في هذا المثل الرائع من خصائص الأمثال القرآنية ما يلي:

أولاً: صدق المماثلة بين الممثل به والممثل له.

ثانياً: التصوير المتحرك (حركة الموج في العمق - حركة الموج في السطح - حركة السحاب المتراكم - حركة رفع المتخبط يده إلى جهة عينيه).

ثالثاً: حذف ما يمكن استدعاؤه وتصويره ذهنياً، اعتماداً على ذكاء المتلقي، وتقديراً ضمناً لفطنته.

رابعاً: البناء على المثل، والحكم عليه كأنه عين الممثل له، على اعتبار أن المثل قد كان وسيلة لإحضار صورة الممثل له في ذهن المتلقي ونفسه، وهذا البناء قد جاء هنا في قوله تعالى عقب ذكر المثل مباشرة:

﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾.

فأدت هذه الخاتمة غرض البناء على المثل كأنه عين الممثل له، وغرض التعقيب بما يؤكد بعض صفات الله، تأصيلاً لعناصر القاعدة الإيمانية، وربطاً بما يشبه القفل لما بدأ به النص في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: لا نور إلا نوره، إذن: فَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ، فالتقى أول النص بآخره، وقد سبق لنا تدبر هذه الجملة الشرطية:

﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾.

فما أبدع الأدب القرآني، وما أعظم إعجازه!!

• • •

خاتمة الصورة الأدبية

هذه صور من الأدب القرآني المجيد، جمعتها لهذا القسم من الكتاب على أن القرآن كله هو كذلك نصوص أدبية سامية رفيعة، قابلة للتحليل الأدبي على مثل الطريقة التي عرضت بها نصوص هذه الدراسة المتواضعة، أو على أفضل منها وأجود، مع ما اشتمل القرآن عليه من عقائد ومفاهيم، وتربية، وأخلاق، وتشريعات، وعلوم وتوجيهات، ومواعظ، ووعد ووعيد، وغير ذلك. وما على أهل الفكر والنظر إلا أن يتدبروا هذا القرآن حق تدبره، ليقدروه حق قدره.

أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟! فليقل أعداء الأدب القرآني ما يقولون، فكتاب الله عزيز غلاب، والله غالب على أمره، ولقد علمت الوعوّل من قبلهم أن قرونها تنكسر على صخور جبل كجبل حراء، أو أبي قبيس، أو جبل أحد، فلم تناطحها، فكانت أعقل من أشباهها من الناس الذين يحاولون ادّعاء أن القرآن كتاب تشريع فقط، فهو لا يدخل ضمن روائع النصوص الأدبية.

إن هؤلاء يتلاءم مع تفكيرهم أن يلغوا أيضاً ظاهرة الجمال فيما خلق الله في السماوات والأرض، على اعتبار أنها ذات غايات نفعية في الكون، وأن يقصروا الجمال على الفن السريالي الذي رسم نظيره في قول بعضهم ذنب حمار يهتز شطر الغرب مسحاً على لوحة حُجرات الأصباغ، وشطر الشرق لطحاً على اللوحة السريالية.

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الخاتمة العامة للكتاب

هذا ما فتح الله به عليّ في هذا الكتاب الجامع لقسمي أمثال القرآن، وصُور من أدبه الرفيع، وهما بحثان مبتكران جديدان في معظم ما جاء فيهما حول كنوز القرآن الذي لا تفتنى عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد.

وأرجو أن أكون قد وفقت في استخراج ما لم أسبق إليه إلى مستخرجات جديرات باهتمام أهل العلم والفكر والأدب القرآني.

وأسأل الله العليّ الجليل الوهاب أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، وأن يرى المطلعون عليه دلائل جديدة من دلائل إعجاز القرآن الكثيرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله وسلّم على سيدنا النبيّ الرسول الأميّ محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى سائر إخوانه النبيّين والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وكان الفراغ منه في ليلة الخميس ٢٣ من شهر رجب لسنة ١٤١١ هجرية الموافق للسابع من شهر شباط «فبراير» لسنة ١٩٩١ م.

مكة المكرمة

عبد الرحمن بن جندب الميذاني

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية	٥
مقدمة الطبعة الأولى	٩

القسم الأول من الكتاب حول الأمثال القرآنية

الباب الأول

القواعد العامة للأمثال القرآنية

الفصل الأول

مقدمات عامة

تعريفات	١٩
(١) المثل القائم على التشبيه	١٩
(٢) إطلاق كلمة المثل بمعنى النموذج	٢٤
(٣) إطلاق كلمة المثل بمعنى الوصف	٣٣
اعتراض الذين كفروا على بعض الأمثال القرآنية	٤٠

الفصل الثاني

أقسام الأمثال

(١) تقسيم أول من جهة كون التمثيل بسيطاً أو مركباً	٤٥
(٢) تقسيم ثانٍ للأمثال من جهة كون الممثل به والممثل له مما يُدرك بالحوس الظاهر أو لا يُدرك به	٤٧

٤٧	القسم الأول: تمثيل مدرك بالحس الظاهر بمدرك بالحس الظاهر
٤٧	القسم الثاني: تمثيل مدرك فكري أو وجداني بمدرك فكري أو وجداني ...
٤٧	القسم الثالث: تمثيل مدرك فكري أو وجداني بمدرك بالحس الظاهر
٤٧	القسم الرابع: تمثيل مدرك بالحس الظاهر بمدرك فكري أو وجداني
	القسم الخامس: الصورة التمثيلية المختلطة التي تمتزج فيها الأشياء المدركة بالحس الظاهر بالمدرجات الفكرية أو الوجدانية
٥١	(٣) تقسيم ثالث للأمثال من جهة كون المثل صورةً منتزعة من الواقع أو من الخيال ..
٥٥	جدول أقسام الأمثال

الفصل الثالث

أغراض ضرب الأمثال

	(١) شرح الغرض الأول: وهو تقريب صورة الممثل له إلى ذهن المخاطب عن طريق المثل
٦١	(٢) شرح الغرض الثاني: وهو الإقناع بفكرة من الأفكار
٦٦	(٣) شرح الغرض الثالث: وهو الترغيب بالتزيين والتحسين أو التنفير بكشف جوانب القبح
٧٧	(٤) شرح الغرض الرابع: وهو إثارة محور الطمع والرغبة، أو محور الخوف والحذر لدى المخاطب
٨٦	(٥) شرح الغرض الخامس: وهو المدح أو الذم، والتعظيم أو التحقير
٩٩	(٦) شرح الغرض السادس: وهو شحذ ذهن المخاطب، وتحريك طاقاته الفكرية، أو استرضاء ذكائه، لتوجيه عنايته، حتى يتأمل ويتفكر ويصل إلى إدراك المراد عن طريق التفكير
١٠٤	(٧) شرح الغرض السابع: وهو تقديم أفكار غزيرة بعبارة قصيرة
١٠٨	(٨) شرح الغرض الثامن: وهو إثارة تغطية المقصود من العبارة بالمثل تأديباً باللفظ واستحياءً
١١٠	جدول أغراض ضرب المثل
١١٢	جدول أغراض ضرب المثل

الفصل الرابع

خصائص الأمثال القرآنية

- (١) الخصائص ١١٥
- (٢) الأمثلة ١١٧
- المثال الأول: من سورة (هود)
- ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَرَ وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ ۚ﴾ ١١٧
- المثال الثاني: من سورة (إبراهيم)
- ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ ١١٨
- المثال الثالث: من سورة (البقرة)
- ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ﴾ ١١٩
- المثال الرابع: من سورة (آل عمران)
- ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ ١٢١
- المثال الخامس: من سورة (الرعد)
- ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ۚ﴾ ١٢٣
- المثال السادس: من سورة (النور)
- ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ ۚ﴾ ١٢٤
- المثال السابع: من سورة (النور)
- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ۚ﴾ ١٢٩
- (٣) جدول خصائص الأمثال القرآنية ١٣٥

الباب الثاني

تطبيقات عامة على الأمثال القرآنية

الفصل الأول

تطبيقات عامة على أمثال هي بمثابة فرائد الجواهر

- مقدمة ١٤١

التطبيق الأول: من سورة (الفيل)

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ١٤٢

التطبيق الثاني:

١ - من سورة (القارعة)

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ١٤٣

٢ - ومن سورة (القمر)

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ ١٤٤

٣ - ومن سورة (المعارج)

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِصُونَ﴾ ١٤٤

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ ١٤٥

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِلِ﴾ ١٤٥

٤ - ومن سورة (الرحمن)

﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ ١٤٦

التطبيق الثالث:

ضرب الله مثلاً لقضية الحياة بعد الموت بحياة النبات في دوراته ١٤٦

١ - من سورة (ق)

﴿وَأَحْيَيْنَاهُ بِلَدَّةٍ مَّيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ ١٤٦

٢ - من سورة (الأعراف)

﴿فَأَخْرَجْنَاهُ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتِ﴾ ١٤٦

٣ - من سورة (فاطر)

﴿فَأَحْيَيْنَاهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ ١٤٧

٤ - من سورة (الزخرف)

﴿فَأَنْشَرْنَاهُ بِلَدَّةٍ مَّيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُونَ﴾ ١٤٧

٥ - من سورة (الروم)

﴿وَنُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُونَ﴾ ١٤٧

- ٦ - من سورة (الحج)
﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ...﴾ (٥) ١٤٧
التطبيق الرابع: من سورة (الأعراف)
﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ...﴾ (٤٠) ١٥٠
التطبيق الخامس: من سورة (الأعراف)
﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ...﴾ (١٥١) ١٥٢
التطبيق السادس: ضرب الله عز وجل الأنعام مثلاً للذين كفروا ١٥٣
١ - من سورة (الأعراف)
﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ...﴾ (١٧٩) ١٥٣
٢ - من سورة (الفرقان)
﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٤٤) ١٥٣
٣ - من سورة (محمد)
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَمِعُونَ وَآيَ كُلِّ الْأَنْعَمِ...﴾ (١١) ١٥٣
التطبيق السابع: ضرب الله أمثلة قرب بها للناس صورة جمال الحور العين
في دار النعيم
١ - من سورة (الواقعة)
﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكْنُونِ﴾ (٢٢) ١٥٤
٢ - من سورة (الرحمن)
﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (٥٨) ١٥٥
التطبيق الثامن: من سورة (يونس)
﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعَانِ لَّيْلٍ مُّظْلِمًا﴾ (٧) ١٥٦
التطبيق التاسع: من سورة (الأنعام)
﴿كَأَلَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ (٦١) ١٥٧
التطبيق العاشر: من سورة (الأنعام)
﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ...﴾ (١٢٥) ١٥٩

التطبيق الحادي عشر: من سورة (الكهف)

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا...﴾ (٥٧) ١٦٤

ومن سورة (الإسراء)

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا...﴾ (٤٦) ١٦٦

ومن سورة (لقمان)

﴿كَانَ فِي آذَانِهِ وَقْرًا...﴾ (٧) ١٦٦

ومن سورة (الكهف)

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي...﴾ (١١) ١٦٧

التطبيق الثاني عشر: من سورة (الأنبياء)

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ...﴾ (١٨) ١٦٧

التطبيق الثالث عشر: من سورة (الأنبياء)

﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِلِينَ...﴾ (١٥) ١٦٨

التطبيق الرابع عشر:

وصف الله المهلكين من قوم عاد بأنهم صاروا كأعجاز نخل خاوية، وبأنهم

كأعجاز نخل منقعر.

في سورة (الحاقة)

﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ...﴾ (٧) ١٧١

في سورة (القمر)

﴿تَرَى النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ...﴾ (٢٠) ١٧٢

التطبيق الخامس عشر: من سورة (البقرة)

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً...﴾ (٧٤) ١٧٤

التطبيق السادس عشر: من سورة (البقرة)

﴿هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ...﴾ (٨٧) ١٧٦

التطبيق السابع عشر: من سورة (البقرة)

﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ...﴾ (١٥٦) ١٧٧

ومن سورة (لقمان)

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ ١٧٧

ومن سورة (آل عمران)

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ ﴿١٣﴾ ١٧٨

التطبيق الثامن عشر: من سورة (البقرة)

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ

الْمَيْسِ﴾ ﴿١٧٥﴾ ١٧٩

التطبيق التاسع عشر: من سورة (الأنفال)

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٦﴾ ١٨١

التطبيق العشرون: من سورة (الأحزاب)

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ

الْمَوْتِ﴾ ﴿١١﴾ ١٨٢

التطبيق الحادي والعشرون: من سورة (الرعد)

﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لِهَمِّهِمْ إِلَّا كَبَسِطَ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ ﴿١٤﴾ ١٨٤

التطبيق الثاني والعشرون: من سورة (الحج)

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ ﴿١١﴾ ١٨٦

التطبيق الثالث والعشرون: من سورة (الحج)

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ ﴿٣١﴾ ١٩٠

التطبيق الرابع والعشرون: من سورة (الحج)

﴿وَرَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ﴾ ﴿٢﴾ ١٩١

التطبيق الخامس والعشرون: من سورة (الحج)

﴿يَنبَأُهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ ﴿٧٣﴾ ١٩٢

التطبيق السادس والعشرون: من سورة (المنافقون)

﴿كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَءٌ﴾ ﴿٤﴾ ١٩٤

التطبيق السابع والعشرون: من سورة (الحجرات)

﴿أَيُّجِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا...﴾ (١٢) ١٩٦

التطبيق الثامن والعشرون: من سورة (الصف)

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بَنِينَ مَرْصُوصًا...﴾ (٤) ١٩٨

الفصل الثاني

تطبيقات عامة على أمثال تكرر في القرآن ورودها

حتى صارت بمثابة حقائق في مصطلحاته

● المقولة الأولى:

حول الظلمات والنور ٢٠٣

مقدمة ٢٠٣

استعراض النصوص مع التحليل ٢٠٤

النص الأول: من سورة (الأعراف)

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ...﴾ (١٥٧) ٢٠٦

النص الثاني: من سورة (فاطر)

﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (٢٥) ٢١٥

النص الثالث: من سورة (الأنعام)

﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا...﴾ (١١) ٢١٦

النص الرابع: من سورة (لقمان)

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ يَغْيِرُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُدَىٰ وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (٢٠) ٢١٩

النص الخامس: من سورة (الزمر)

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ...﴾ (٣٢) ٢٢٠

النص السادس: من سورة (الشورى)

﴿وَلَا كُنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدَىٰ بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا...﴾ (٥٤) ٢٢٢

النص السابع وأشباهه: من سورة (إبراهيم)

﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾ (١) ٢٢٤
وقوله تعالى فيها:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

النُّورِ...﴾ (٥) ٢٢٥
ومن سورة (البقرة)

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾ (١٠٧) ٢٢٦
ومن سورة (الأحزاب)

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾ (٤٣) ٢٢٦
ومن سورة (الحديد)

﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بِّنَتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾ (٢١) ٢٢٧
ومن سورة (الطلاق)

﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ

إِلَى النُّورِ...﴾ (١١) ٢٢٧
ومن سورة (المائدة)

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ

مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

بِإِذْنِهِ...﴾ (١١) ٢٢٧

النص الثامن وما يشبهه: من سورة (الصف)

﴿يُرِيدُونَ ليطْفئوا نورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ...﴾ (٨) ٢٢٨
ومن سورة (التوبة)

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ...﴾ (٣٢) ٢٢٩
النص التاسع: من سورة (الأحزاب)

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٥٠) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ

وَسِرَاجًا مُنِيرًا...﴾ (٤٦) ٢٣٠

● المقولة الثانية:

حول البصر والعَمَى والغشاوة والصَّمَم والوقر والحياة والموت ونحو ذلك ٢٣٢

مقدمة ٢٣٢

استعراض النصوص

النص الأول: من سورة (الأعراف)

﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ ٢٣٤

النص الثاني: من سورة (فاطر)

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١١﴾ وَلَا الظُّلُمَتُ وَلَا النُّورُ ﴿١٢﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿١٣﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ

﴿١٤﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ ٢٣٥

النص الثالث: من سورة (النمل)

﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ٢٣٩

النص الرابع: من سورة (النمل)

﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتِ وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمَى

عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ ٢٤٠

النص الخامس: من سورة (طه)

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

أَعْمَى ﴿١٢٤﴾﴾ ٢٤٣

النص السادس: من سورة (الإسراء)

﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ ٢٤٥

النص السابع: من سورة (الإسراء)

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائِكُمْ وَأَصْمًا ﴿٧٧﴾﴾ ٢٤٥

النص الثامن: من سورة (يونس)

﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٤٦) وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ

تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴾ (٤٦) ٢٤٧

النص التاسع: من سورة (هود)

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾ (٤٤) ٢٤٨

النص العاشر: من سورة (الأنعام)

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ (٦١) ٢٤٩

النص الحادي عشر: من سورة (الأنعام)

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُغُرُوا بُكْمًا فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ (٦١) ٢٥٠

النص الثاني عشر: من سورة (الأنعام)

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ؟ ﴾ (٥٠) ٢٥١

النص الثالث عشر: من سورة (الأنعام)

﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ (١٠٤) ٢٥٢

النص الرابع عشر: من سورة (الأنعام)

﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي

الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ (١٢٢) ٢٥٣

النص الخامس عشر: من سورة (غافر)

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ (٥٨) ٢٥٧

النص السادس عشر: من سورة (فصلت)

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ (١٧) ٢٥٨

النص السابع عشر: من سورة (فصلت)

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ

وَقَرُّ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴿٤٤﴾ ٢٥٩

النص الثامن عشر: من سورة (الزخرف)

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٥١﴾ ٢٦٠

النص التاسع عشر: من سورة (الجاثية)

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَضْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ

غِشَاوَةً..... ﴿٦٢﴾ ٢٦١

النص العشرون: من سورة (الروم)

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدَرِينِ﴾ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ

الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ..... ﴿٥٢﴾ ٢٦٣

النص الحادي والعشرون: من سورة (البقرة)

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً..... ﴿٧﴾ ٢٦٥

النص الثاني والعشرون: من سورة (البقرة)

﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿١٨﴾ ٢٦٦

النص الثالث والعشرون: من سورة (البقرة)

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بَكْمٌ عُمَى

فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٩﴾ ٢٦٧

النص الرابع والعشرون: من سورة (الأنفال)

﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبَكْمُ الَّذِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ

خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ

إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ ٢٦٩

٢٧٢ تحليل كون الله يحول بين المرء وقلبه

النص الخامس والعشرون: من سورة (محمد)

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ...﴾ (١٦) ٢٧٤

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ...﴾ (١٧) ٢٧٥

ومن سورة (المنافقون)

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٢) ٢٧٥

النص السادس والعشرون: من سورة (الرعد)

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَتُ وَالنُّورُ...﴾ (١١) ٢٧٧

النص السابع والعشرون: من سورة (الحج)

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٤٦) ٢٧٩

النص الثامن والعشرون: من سورة (المائدة)

﴿وَحَسِبُوا أَنَّ أَتَاكُوكَ فَتَنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا...﴾ (٧١) ٢٨٠

● المقولة الثالثة:

حول البيع والشراء والتجارة والربح والخسارة والقرض ٢٨٤

مقدمة ٢٨٤

استعراض النصوص

النص الأول: من سورة (فاطر)

﴿يَرْجُونَ بَحْرَةَ لَّنْ تَكُونُ ۖ لِيُؤْفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّنْ

فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٠) ٢٨٧

النص الثاني: من سورة (النحل)

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ (٩٥) ٢٨٩

النص الثالث: من سورة (البقرة)

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ...﴾ (١٦) ٢٩١

النص الرابع: من سورة (البقرة)

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ (٤١) ٢٩٢

النص الخامس: من سورة (البقرة)

﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ (٦١) ٢٩٥

النص السادس: من سورة (البقرة)

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ...﴾ (٨٦) ٢٩٦

النص السابع: من سورة (البقرة)

﴿بِشِّمَا اشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا...﴾ (٩٠) ٢٩٧

النص الثامن: من سورة (البقرة)

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ (١٧٤) ٢٩٩
 ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ...﴾ (١٧٥) ٢٩٩

النص التاسع: من سورة (البقرة)

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ...﴾ (٢٠٧) ٣٠٢

النص العاشر: من سورة (آل عمران)

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَنَهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ (٧٧) ٣٠٣

النص الحادي عشر: من سورة (آل عمران)

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنَ يُضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا...﴾ (١٧٧) ٣٠٥

النص الثاني عشر: من سورة (آل عمران)

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ (١٨٧) ٣٠٧

﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ (١٩١) ٣٠٧

النص الثالث عشر: من سورة (النساء)

﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ (٤٤) ٣١٠

النص الرابع عشر: من سورة (النساء)

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ ﴾ (٧٤) ... ٣١١

النص الخامس عشر: من سورة (الصف)

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلَّكُمْ عَلَىٰ بَعْرَةِ نُسُجِكُمْ مِّنْ عَذَابِ إِلَهِم ۖ تَوَمَّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَيُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۖ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ
وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۖ
وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴾ (١٣) ٣١٢

النص السادس عشر: من سورة (التوبة)

﴿ إِنِ اللَّهُ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ۚ ﴾ (١١١) ... ٣١٧

النص السابع عشر وأشباهه: حول القرض

١ - من سورة (البقرة)

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ ﴾ (٢٤٥) ٣١٩

٢ - من سورة (الحديد)

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ ﴾ (١١) ٣١٩

﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ ﴾ (١٨) ٣١٩

٣ - ومن سورة (التغابن)

﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ ﴾ (١٧) ٣١٩

خاتمة قسم أمثال القرآن

٣٢٣

القسم الثاني من الكتاب صُورٌ من أدب القرآن الرفيع

مقدمة ٣٢٧

الصورة الأولى: من سورة (الملك)

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ ۖ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۚ ﴾ (٢٢) ٣٣٠

الصورة الثانية: من سورة (المرسلات)

﴿ أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثُلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظِلِيلَ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ٣٣٧

الصورة الثالثة: من سورة (الأعراف)

﴿ وَاتَّقِ اللَّهَ يَا الَّذِينَ آمَنُوا فَأَن تَسْلَخَ مِنْهُمَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَتَنْتَرِكُ أَوْ تُتْرِكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَمُومِنُونَ ﴿١٧٧﴾ ٣٤٦

الصورة الرابعة: من سورة (البقرة)

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿٧﴾ ضُمُّ بَكُمْ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌّ يُجْعَلُونَ أَصْدِعْهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوْعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الزَّبَقُ يُخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَافِهِمْ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ٣٥١

الصورة الخامسة: من سورة (المدثر)

﴿ فَمَالَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ﴾ ﴿٤١﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ٣٦٠

الصورة السادسة: من سورة (الغاشية)

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ٣٦٣

الصورة السابعة: من سورة (الفتح)

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا...﴾ (٣٦) ٣٦٦

الصورة الثامنة: من سورة (الأنفال)

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ

الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾ (٣٧) ٣٧٦

الصورة التاسعة: من سورة (الأعراف)

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ

نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ

الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ

لَا يُفْصِرُونَ﴾ (٢٠٢) ٣٨١

الصورة العاشرة: من سورة (القمر)

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ (١) فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ

فَانصُرْ﴾ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ﴾ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَفَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ

قَدَّرَ﴾ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُوسٍ﴾ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا

ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ (١٦) ٣٨٩

الصورة الحادية عشرة: من سورة (المؤمنون)

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (١٨) ٤٠٠٠

الصورة الثانية عشرة: من سورة (الرعد)

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا...﴾ (١٧) ٤٠٣

الصورة الثالثة عشرة: من سورة (الفجر)

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (٨)

وَتُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبَلَدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ٤٢٠
الصورة الرابعة عشرة: من سورة (يس)

﴿يَسْ﴾ ١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَقِهِمْ بَغْلًا كَلَّا فِيهِ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا نُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِيرُهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ٤٢٤

الصورة الخامسة عشرة: من سورة (الحجرات)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْمُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِمَّا ظَنَّنَا أَنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِنَّهُ وَلَا تَحْسَبُوا أَنَّ بَعْضَكُمْ بَعْضًا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ ٤٣١

الصورة السادسة عشرة: من سورة (الأعراف)

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿١٨٧﴾ ٤٣٧

الصورة السابعة عشرة:

ظاهرة استقطاع النصوص من أزمانها الماضية أو المستقبلية، وعرضها بألفاظها دون الإشارة إلى أنه كان كذا فيما مضى، أو سيكون كذا فيما يأتي، وأمثلة على هذه الظاهرة من عدة سور ٤٤٤

الصورة الثامنة عشرة:

ظاهرة التنوع العجيب البديع في أساليب الأداء البياني القرآني، وأمثلة على

هذه الظاهرة من عدة سور ٤٥٣

الصورة التاسعة عشرة:

وصف حال الإنسان إذا ركب الفلك وأحاطت به المهلكات تجاه الرب

الخالق جلّ وعلا، ويقاس على أشباهها ٤٦٥

وتدبر النصوص الخمسة الواردة في القرآن حول ذلك من سورة (يس)

و (الإسراء) و (يونس) و (لقمان) و (الزخرف).

الصورة العشرون: من سورة (النور)

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ

﴿٢٥﴾ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْيَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ

كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ

تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي يَوْمٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾

رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمُ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ

الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ

مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ

إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِندَهُ فَوْقَهُ حِسَابُهُمُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾

أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ

بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكْدِرْهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ٥٠٢

خاتمة الصور الأدبية ٥٤٦

الخاتمة العامة للكتاب ٥٤٧

الفهرس ٥٤٩